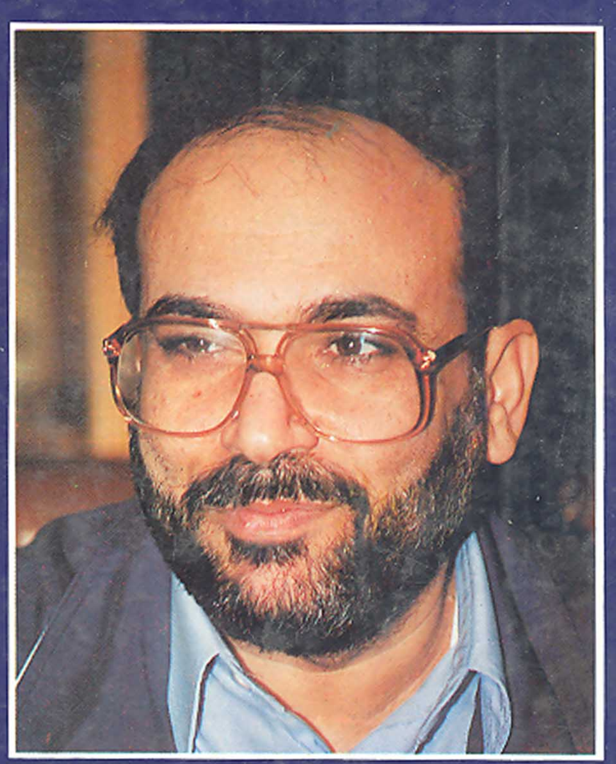
رحلة الدم الذي هزم السيف

الأعمال الكاملة للشهيد الدكتور

فتحي الشقاقي



المجلد الأول

إعداد وتوثيق د. رفعت سيد أحمد

تقديم

د. أحمد صدقي الدجاني	صافي ناز كاظم
السيد محمد حسين فضل الله	د. طيب تيزيني
الشيخ راشد الغنوشي	فهمي هويدي
د. رمضان عبد الله	د. محمد سعيد رمضان البوطي

د. محمد عمارة

بسم الله الرحمن الرحيم



رحلة الدم الذي هزم السيف

الأعمال الكاملة للشهيد الدكتور فتحي الشقاقي

(المجلد الأول)

* فتحي الشقاقي: رحلة الدم الذي هزم السيف (الأعمال الكاملة)
* الطبعة الأولى ١٩٩٧م - ١٤١٧هـ

* الغلاف للفنان مجدي رياض
* رقم الإيداع في دار الكتب المصرية: ٩٦/١٤١٠٩
* الإعداد والتوثيق: مركز يافا للدراسات والأبحاث

العنوان

مركز يافا للدراسات والأبحاث
ص.ب ٨٠٦ المعادي، القاهرة، ج.م.ع
هاتف/ فاكس ٣٧٥٦٥٩٦ (٠٠٢٠٢)

بسم الله الرحمن الرحيم

﴿والشهداء عند ربِّهم لهم أجرهم ونورهم﴾

صدق الله العظيم

شكر وتقدير

يتـقدم (**مركز يـافا للدراسـات والأبحاث**) بالشـكر والتقديـر لكل من ساهم وتعـاون معنا في إصدار هـذا العمل الموسوعى الكبير. ويخص بالشكر المكتب الإعلامى في حركة الجهاد الإسلامي في فلسطين، وكـل من تعاون عربيًا وإسلاميًا في نشر وتوزيع هذا العمل.

لهم منا كل الشكر والتقدير

د. رفعت سيد أحمد

الصفحة **المحتويات**

تقديم

- د. رمضان عبد الله
- د. احمد صدقى الدجاني
- الشيخ راشد الغنوش
- د. محمد سعيد رمضان البوطى
- صافى ناز كاظم
- فهمى هويدى
- د. طيب تيزينى
- د. محمد عمارة
- السيد محمد حسين فضل الله

---

* يهمنا التأكيد أننا راعينا في ترتيب الكلمات؛ توقيت وصولها إلينا فسحب وليس أي أعتبار آخر، ويهمنا أن نسجل هنا تقديرنا وشكرنا للسادة العلماء وللمفكرين الذين قدموا هذه الكلمات الطيبة عن الشهيد الدكتور/ فتحى الشقاقي لهم الاحترام والتقدير والعرفان.

(مركز يافا للدراسات والأبحاث)

فتحي الشقاقي صانع تاريخ

د. رمضان عبدالله(*)

قلة قليلة هم الذين كانوا يعلمون أن «عز الدين الفارس» كان يومًا الاسم الحركي لفتحي الشقاقي، لكن الأمة كلها أدركت يوم السادس والعشرين من تشرين الأول (أكتوبر) ١٩٩٥، غداة ازدهاره بالرصاصة، أن فتحي الشقاقي هو الأسم الحركي لفلسطين.

لم يكن فتحي الشقاقي قائدا عاديًا، كان البطل الاستثنائى في الزمن الاستثنائي، وكان بما له من هيبة وسحر وجاذبية خاصة واحداً من صناع التاريخ بكل معنى الكلمة، في مرحلة غاب فيها التاريخيون، ولم يبق سوى الباعة المتجولون للمبادىء والشهداء والتاريخ، لم تكن هيبة القائد أبي إبراهيم تتعلق بموقعه أو سلطته، بل هي مرأة قول الصالحين «على قدرخوفك من الله تهابك الخلق» إنها سطوة الروح التي يتحد فيها الفارس والصوفي فيخر أمامها الجندي والمريد طاعة وحبًا واحترامًا، ولا تلبث أن تبلغ ذروتها حين يرتقي القائد ذروة المجد شهيداً .

كانت هيبته رضوان الله عليه تجعل الكتابة إليه نزيفًا فكيف بالكتابة عنه؟!.. منذ شهور وأخي الدكتور رفعت، يطاردني بطلب هذه السطور عن الشهيد وأنا أخشى أن لا أعثر عليه في لغتنا اليومية الأرضية القاصرة، ولا أقدر على الولوج إلى رحابه العلوي دون الاحتراق بنار الفجعية والشوق للمحبوب.

عرفته قبل حوالي عشرين عامًا، وحين وقعت في أسره أدركت أنني ولدت من جديد. كانت غرفة فتحي الشقاقي، طالب الطب في جامعة الزقازيق، قبلة للحواريين، وورشة تعيد صياغة كل شيء من حولنا، وتعيد تكوين العالم في عقولنا ووجداننا.

(*) الأمين العام لحركة الجهاد الإسلامي في فلسطين

ما دلني عليه غير الشعر، لكنه حين ترجل عن صهوة جواده، سلبني وتر اللغة التي وهبها لي ودفعني عن حصان النشيد، وألزمني مقبض السيف، وكانت على وجهه ابتسامة النصر وحكمة الدهر: أن الشهادة هي ربيع الشعوب حين تقبل كأسراب النحل على أزاهير الحياة وشهد السيوف.

عندما كان الشهيد يدفع ضريبة المجد في «سجن نفحة» الصهيوني في صحراء النقب بفلسطين، قبل إبعاده عن الوطن عام ١٩٨٨، كتب إليه أحد إخوانه قائلاً «كنت من بيننا الرجل (البندقة) لا تنكسر، ومن الداخل هشا كحمامة، وقريبًا كالمطر، ودافئًا كبحر أيلول، وشهيًا كبداية الطريق !» ذلكم هو فتحي الشقاقي بحق. كان أصلب من الفولاذ، وأمضى من السيف، وأرق من النسمة. كان بسيطًا إلى حد الذهول، مركبًا إلى حد المعجزة! كان ممتلئًا إيمانًا ووعيًا وعشقًا وثورة من قمة رأسه حتى إخمص قدميه. عاش بيننا لكنه لم يكن لنا، لم نلتقط السر المنسكب إليه من النبع الصافي «واصطنعتك لنفسي» «وألقيت عليك محبة مني ولتصنع على عيني»، لكن روحه المشتعلة التقطت الإشارة فغادرنا مسرعًا ملبيًا «وعجلت إليك رب لترضى».

كان الإيمان العميق والصبر الجميل هما زاده وزواده في مواجهة سيل الأعداء الذين ينهمرون عليه من كل صوب، ويطلعون من تحت الجلد، فيستعذب العذاب، ويقبل التحدي والمنافسة، بحسن النية، وصدق الكلمة، وقداسة المسؤولية، وشجاعة الموقف، وعلو الهمة، ويطاردنا بلا هوادة، شعاره: قليل من العناد والصبر ينفلق الصخر، والذي ينتظرنا ليس هو الموت إنه الحياة أو النصر.

لم يكن فتحي الشقاقي مجرد أمين عام لتنظيم فلسطيني يقاوم الاحتلال الصهيوني، بل كان بذرة الوعي والثورة في حقل النهوض الإسلامي الكبير. كان الشقاقي يدرك أن الأمة تعيش أزمة حضارية شاملة في مواجهة الهجمة الغربية الشرسة، لكنه كان يرى أن فلسطين هي مركز الهجمة وعنوانها الرئيس، دون أن يغفل بقية مصادر الأزمة وعناوينها الأخرى. منذ البدايات الأولى، في ذاك البلد الزراعي الصغير ـ كما كان يسميه

(الزقازيق)، كانت المعادلة واضحة في ذهنه: إسلام بلا فلسطين. وفلسطين بلا إسلام يعني فقدان البوصلة والدوران في حلقة مفرغة لا تنتج إلا مزيداً من الضعف والعجز والهوان. هذه المعادلة هي مفتاح فهم أفكار الشهيد وما حاول أن يبدعه من مفاهيم ومسالك جديدة في العمل الإسلامي والعمل الوطني الفلسطيني، إن تلاقح فكرة الإسلام، دين التحرر من كل عبودية، والثورة على كل ظلم، مع فلسطين المغتصبة، لابد أن يرفد مفهوم الجهاد في المعادلة بمزيج عناصرها الثلاثة (الإسلام ـ الجهاد ـ فلسطين) أسس الشهيد القائد أبو إبراهيم حركة الجهاد الإسلامي في فلسطين.

إن فكر الشهيد الشقاقي وجهاده المبارك لا يجب أن يقرأ بحرفيته فقط، بل بزمنيته أيضًا. لذا، لا بد من التعرف عن قرب على حركة الجهاد الإسلامي ودراستها في إطار نهوضها التاريخي، لمعرفة أسباب ومقومات وظروف نشأتها في الحركة الإسلامية والحركة الوطنية الفلسطينية، وللوقوف على أهمية الإسهام أو الإضافة التي قدمها الشهيد الشقاقي وحركته للنهوض بواقع الأمة في معركتها الحضارية الشاملة.

لست بصدد دراسة فكر الشهيد الشقاقي في هذا التقديم، ولا كتابة تاريخ الأعوام والشهور والأيام الحافلة التي ربطتني به، لا سيما تلك السنوات التي أثرت فيها العمل معه بصمت نائيًا عن كل الأضواء، وأسأل الله سبحانه وتعالى أن يعينني على إنجاز مثل هذا العمل يومًا ما. ما أود أن أسطره هنا هو التأكيد على أن الشهيد الدكتور فتحي الشقاقي سيبقى علامة فارقة في تاريخ جهاد شعب فلسطين والأمة، فحين أغمد المناضلون القدامى سيوفهم وامتشقوا أقلام التواقيع على صكوك الخيانة والاستسلام، كان الشهيد الشقاقي يمتطي صهوة جواده، ويعلن مجدداً أن الطريق إلى فلسطين تمر عبر فوهة البندقية. وحين كان الصهاينة يحاصرون الزمن العربي كله، فتصبح الأرض والتاريخ والجغرافيا والعقيدة والسياسة والاقتصاد واللغة والإرادة والضمير والوجدان كلها مهددة ؛ كان الشقاقي يخترق الحصار الصهيوني لهيبًا وانفجارا استشهاديًا لا يقاوم. لم يكن مشروعه رحمه الله يسعى لأن يرسل فلسطين إلى العالم تستجدي ضميره النائم، بل كان يطمح أن يأسر العالم كله في وديان وشعاب فلسطين بالانتفاضة والثورة.

وحين كانت سماء القاهرة ومرافيء تونس وكل الطرق العربية مقطوعة أو ممنوعة في وجه الشقاقي، حيث شمعون بيرز يأسر العواصم، ويمنح التأشيرات، ويفرض الجزية لتدشين الشرق الأوسط الجديد، لم يكن أمام الشقاقي سوى مالطا لتصبغ وردة جرحه وجه المتوسط وينقش على صفحته سيرة الإمام الحسين من جديد في كربلاء جديدة، ويهزم دمه الطاهر سيف الإرهاب الإسرائيلي الغادر، ويفضح كل أوهام وأسرار السلام الكاذب الذي لم يستطع أن يؤمن للشهيد قبراً في الوطن!

لقد قرر الشقاقي أن يضع حداً لمهزلة الموت على مزاج الأوصياء باختيار الشهادة على طريق الأنبياء، وإذا كان رحمه الله في عيون إخوانه ومحبيه (شهيًا كبداية الطريق!) فكم هي المرارة في حلوقهم ، حين يترجل في أول الدرب، ومشروعه، رغم دوي انطلاقته ووهج حضوره، ما زال جنينيًا، لم يتجاوز بالقياس إلى ما كان في مخيلة الشهيد طور الحلم؟!

لقد غادرنا أبو إبراهيم مبكراً ليسكن قلوب الملايين الظامئة للحرية.. إنه يستيقظ كعادته كل صباح ليحدد برنامج عملنا اليومي.. لقد صار ملح خبزنا ونار مواقدنا وكلمات مقدمة في كراريس أطفالنا.

كان الشهيد القائد، رضوان الله عليه، بالنسبة لكل من عرفه عن قرب من إخوانه ومحبيه، هبة فلسطين التي تمزق حواجز الزمن لتدفع عجلة التاريخ إلى الأمام.. لقد علمنا كيف ننتصر على الواقع المرير بكل إحباطاته الوضعية، عبر الأمل والانفتاح على المستقبل بكل إشراقاته القرآنية.. رحم الله أبا إبراهيم فقد كان بحق صانع تاريخ.

إنني إذ أنتهز فرصة تقديم هذه الأجزاء من أعمال وكتابات الشهيد الدكتور فتحي الشقاقي لأؤكد مجدداً أن هناك أعمال للشهيد لم تتضمنها هذه الأجزاء، وأخص بالذكر ذلك الكنز الكبير الذي تركه الشهيد من مراسلات خاصة وأوراق تتعلق بحركة الجهاد الإسلامي وقضاياها وتفاعلاتها لا سيما منذ إبعاد الشهيد عن فلسطين عام ١٩٨٨، أسأل الله سبحانه أن يعيننا على إخراج هذه الثروة الفكرية بما تحويه من تجربة إنسانية رائدة في مجال الكفاح والجهاد إلى النور بإذن الله.

ولا يفوتني في هذه المناسبة أن أقدم خالص الشكر وعظيم التقدير باسمي وباسم إخواني في حركة الجهاد الإسلامي في فلسطين، إلى الأخ الدكتور رفعت سيد أحمد وإلى الإخوة في «مركز يافا للدراسات والأبحاث» لما بذلوه من جهد كبير في سبيل إنتاج هذه الأعمال.

كما أتقدم بخالص الشكر والامتنان للسادة العلماء والمفكرين الذين تفضلوا بكتابة مقدمات هذه الأعمال، أسأل الله أن يتقبل من الجميع، وأن يجعل إسهامهم هذا في ميزان حسناتهم يوم القيامة، إنه سميع مجيب.

رحم الله شهيدنا وقائدنا ومعلمنا أبا إبراهيم وجمعنا وإياه في الفردوس الأعلى إن شاء الله.



مجاهد في سبيل الله

د. أحمد صدقي الدجاني (*)

في يوم الخميس الثاني من جمادى الآخرة من عام ١٤١٦هـ ، الموافق السادس والعشرين من تشرين أول اكتوبر ١٩٩٥م نال فتحي الشقاقي شرف الشهادة ، وارتفع إلى منزلة الشهداء الذين هم أحياء عند ربهم يرزقون - ﴿فرحين بما آتاهم الله من فضله ويستبشرون بالذين لم يلحقوا بهم من خلفهم ألا خوفٌ عليهم ولا هم يحزنون. يستبشرون بنعمة من الله وفضلٍ وأن الله لا يضيع أجر المؤمنين﴾. وها نحن نستبشر اليوم بين يدي ذكرى مرور عامٍ على استشهاده ورحيله عنّا إلى دار البقاء بصدور "موسوعة الأعمال الكاملة للشهيد الدكتور فتحي الشقاقي".

إن للشهادة في سبيل الله مكانتها الرفيعة في دين القيّمة، بما تجسده من عطاء الإنسان الفرد وجوده بنفسه، وبما تعبّر عنه من تعلق بالقيم العُلا وإرادة مواجهة الطغيان للبغي بغير حق. وإن من حق أبناء الأمة جيلاً بعد جيل أن يعيشوا ذكرى أولئك الشهداء الذين جاهدوا لإعلاء كلمة الله في الأرض ، ومن هنا تبرز أهمية التأريخ لهم تعبيراً عن بقاء ذكراهم حيةً في وجدان الأمة، وحفاظًا على ذاكرتها التاريخية. وهذه أمانة ينهض بها الذين يعلمون. وما أسعدنا اليوم بنهوض الأخ د. رفعت سيد أحمد بهذه الأمانة بإصداره هذه الموسوعة التي تؤرخُ لمسيرة الشهيد فتحي الشقاقي الفكرية والعملية من خلال ما خطه بقلمه وما صرّح به بلسانه.

لقد دخل فتحي الشقاقي تاريخ أمتنا العربية وعالمنا الإسلامي والمناضلين من أجل الحرية في عالمنا، مجاهداً في سبيل الله، مناضلاً قوى الهيمنة والطغيان متمثلة في أفظع صورها في الاستعمار الاستيطاني الصهيوني العنصري لفلسطين، رافعًا شعار التحرير.

(*) (المنسق العام للمؤتمر الإسلامي، والأمين العام المساعد للمؤتمر القومي العربي)

ودخل هذا التاريخ واحداً من قادة حركات التحرير في النصف الثاني من القرن العشرين الميلادي في عالمنا المعاصر، جمع بين الفكر والعقل والرؤية النظرية والممارسة العملية. ودخل هذا التاريخ واحداً أسهم في بلورة رؤية نظرية ثاقبة وفكر مستجيب فاعل من خلال قراءة صحيحة لمرحلة النضال التي تعيشها أمته وإدراك عميق لمتطلباتها؛ وشارك في العمل وفقًا لهذه الرؤية وتجسيداً لهذا الفكر لتغيير الواقع القائم المفروض.

حين نستحضر الفترة التي بزغ فيها نجم فتحي الشقاقي ، نجد أن نضال أمتنا لتحقيق مشروعها الحضاري كان يمرّ بفترة دقيقة، ارتفعت فيها أصوات تجاهر بالدعوة للتسليم بالأمر الواقع المفروض، والتوقف عن مقاومة طغيان قوى الهيمنة بزعم أنه لا قبل لنا بالتصدى لها. وكانت بعض قيادات حركة المقاومة هذه قد انساقت بعد هذا التسليم إلى دهاليز المفاوضات السرية. وقد أوقفت الكفاح المسلح وتعهدت بالامتناع من ناحيتها عن العنف، في الوقت الذي تابع فيه الكيان الإسرائيلي اعتماد تصعيد العنف وممارسة الإرهاب الرسمي. وقد ظهر وسط ظلام هذا الجو الملبد بغيوم التسليم شعاع ينير طريق متابعة المقاومة، وارتفع وسط ضجيج أصوات الإعلام المساند لمنطق التسليم، صوت ينادى باستمرار الجهاد وقتال الذين يقاتلوننا في الدين ويخرجوننا من ديارنا، وتبلورت في مواجهة رؤية القبول بالأمر الواقع المفروض، رؤية تغييره وتعبئة طاقات الأمة من أجل هذا التغيير.

إن محتويات هذه الموسوعة حافلة بالأمثلة على رؤية التغيير هذه ، كما جرى التعبير عنها نظريًا ، تمامًا كما أن سجل أعمال فتحي الشقاقي على الصعيد التنظيمي حافل بالأمثلة على محاولات التغيير التي جرت على أرض الواقع، وفعلت فعلها فيه. وكان من آثار هذا الفعل على الصعيدين. النظري والعملي أن تتالى بزوغ نجوم المقاومة وتدفق تيار المجاهدين فقامت الانتفاضة المباركة وتكونت ظاهرة الاستشهاد في سبيل الله لتكون شمسًا تبدد غيوم التسليم القائمة.

لقد حرص فتحي الشقاقي على أن يوفى جميع أبعاد قضية فلسطين حقها. فانطلق بعد أن شغل بالعمل في الساحة الفلسطينية دعوة إلى الجهاد وتنظيمًا وعملاً، إلى الساحة العربية وعيًا منه بالبعد القومي في قضية فلسطين، فكانت مشاركته الفعالة في المؤتمر القومى العربي الخامس الذي انعقد في بيروت في ٩/ ٥/ ١٩٩٥ واحدًا من الأمثلة على ذلك. ثم كانت مشاركته الفعالة في المؤتمر القومى الإسلامي الذي انعقد في بيروت في ١٠/ ١٠/ ١٩٩٥ واحدًا من أمثلة على عنايته بالإسهام في جهود توحيد طاقات الأمة في مواجهة العدوان. ودأب فتحي الشقاقي على الدعوة إلى "الالتزام بفلسطين لكونه القاسم المشترك الأعظم عربيًا وإسلاميًا وديموقراطيًا أيضًا». وكم سعدنا نحن الذين عرفناه من خلال هذين المؤتمرين عن كثب بعد أن كنا نتابع نشاطه، ونحن نرى قيادة واعية ناضجة مسؤولة منفتحة تأخذ مكانها في العمل مع قيادات الأمة لتحقيق المشروع الحضارى العربي بأهدافه الستة تحريرًا ووحدة وشورى، ديموقراطية وعدلاً وتنمية وتجددًا حضاريًا. وكم أحسسنا بفداحة مصاب أمتنا حين اغتالته يد العدوان الصهيوني غدرًا، فقضى في ساحة المعركة وهو يتابع الجهاد ضد العدوان الصهيوني حماية لأهله، ودفاعًا عن وطنه العربي الكبير، وانتصارًا لحضارته العربية الإسلامية وإعلاء لكرامة الإنسان وحريته وتلبية لأمر الله سبحانه لنا بالجهاد.

بقي أن نسجل بالتقدير للأخ د . **رفعت سيد أحمد** فضله في إصدار هذه الموسوعة، منوهين بما بذله من جهد كبير في جمع أعمال الشهيد الكاملة وكتابة مقدمة نظرية، سائلين الله أن يجزل ثوابه ويجزيه خيرًا، ويكثر من عطائه لفكر المقاومة، وأن يتغمد فتحي الشقاقي بواسع رحمته، وأن يأخذ بأيدينا لمتابعة العمل لتحقيق مشروعنا الحضاري الإسلامي العربي جهادًا في سبيل الله.

فتحي الشقاقي: أكبر من رمز لإحياء الجهاد لتحرير فلسطين، رمز التحول في اتجاه الإسلام

الشيخ راشد الغنوشي(*)

عندما تتجمع أسباب تحولات تاريخية مهمة من أجل ولادة وضع جديد يهيىء القدر القائد المناسب لإنجاز ذلك التحول، وقد لا يكون هو ذاته مدربًا أو الناس من حوله للدور الذي يقوم به، ولكن لا تلبث الحقيقة أن تتجمع معالمها سافرة، عندما يكون التحول قد قطع شوطًا كبيرًا، فكشفت المرحلة الجديدة عن وجهها سافرا لا يخفى عن ذي بصر، وظهرت علامات الشيخوخة والهرم والبلى على المرحلة القديمة رموزا ومعاني. ولأن التحول ليس عمل شخص، إذ الشخص رمز التحول مهما بلغ في التحريض وفي تفعيل معادلة التحول، وإنما هو عمل تيار قد تم تشكيله وبدأ يبرز على السطح، إلا أن تيار التحول عندما يتشكل في تنظيم ذي تقاليد راسخة كثيرًا ما يصبح ذلك التشكل التنظيمي الواسع ذو التقاليد المتكلسة عقبة في طريق التحول. الأمر الذي يعرِّض فرصة التحول للفوات والضياع بسبب ضعف روح المغامرة لدى الكيانات الكبيرة، شأن بعض المؤسسات الاقتصادية الكبيرة التي تتعرض لخطر الإفلاس بسبب خشيتها من المخاطرة، الأمر الذي يتيح الفرصة أمام شركات صغيرة ليس عندها ما تخشى عليه من المخاطرة أن تلمح الفرصة فتهتبلها، فما تلبث كثيرًا حتى تهيمن على الساحة ، ولا ينجي المؤسسة الكبيرة عندها من إفلاس محتم إلا أن تستدرك نفسها وتلحق بالركب ، سواء من خلال إجماعها على تلمح التطورات الحاصلة في الواقع والإقدام على الاستجابة التحولية المطلوبة، أو أن يفرض عليها ذلك من خلال تمرد بعض أجزائها الأكثر حيوية على المركز وانخراطها في المرحلة الجديدة، فما يجد المركز سبيلاً سوى الالتحاق بركب التحول خشية التهميش والبوار، وذلك ما بقى متوفرًا على الحد الضروري من عناصر حيوية كافية تسمح له بالتطور والتأقلم مع المتغيرات.. وإلا إندثر.

(*) المفكر الإسلامي التونسي المعروف.

أحسب أن ما أنجزته حركة الجهاد الإسلامي في فلسطين بقيادة فتحي الشقاقي وإخوانه على صعيد القضية الفلسطينية ومسار العلاقات العربية الإسرائيلية ، وبالأحرى على صعيد تطور الموازين بين التيار الإسلامي والعلماني في فلسطين والمنطقة، وعلى صعيد حركة الإخوان المسلمين، التي نشأ في ظلها فتحي الشقاقي وإخوانه قبل أن ينفصلوا عنها شاقين الطريق أمام مرحلة تاريخية جديدة، أحسب إنه جدير أن يندرج ضمن أعظم التحولات التاريخية في المنطقة منذ مؤتمر فاس ١٩٨٢، الذي مثل إجماعًا عربيًا بمشاركة منظمة التحرير على الاعتراف بالكيان الصهيوني، وكان محطة أخرى مهمة على طريق انحدار مشروع التحرير العلماني العربي بعد محطة ١٩٦٧، والتي على فداحتها تمكن العمل التحرري العظيم الذي قادته منظمة التحرير بمرجعية علمانية إلى ضخ روح الثورة والتحدي في شرايين المشروع العلماني المهزوم.. هيأته أن يواصل قيادة الجماهير العربية باعثًا فيها روح الأمل في التحرر وتحدي الأعداء.

ورغم ما مثلته «كامب ديفيد» من إحتواء للنصر الجزئي لحرب ١٩٧٣، ومواصلة مسار الهزيمة، فلقد تمكنت المقاومة مجددا من مواصلة قيادة الجماهير العربية بدعم من المعسكر الاشتراكي ومن جملة النظام العربي الذي عزل مصر إلى حين. غير أن مؤتمر قمة فاس كشف بوضوح عن شلل النظام العربي وأي عمل تحريري رسمي بعيداً عن مصر. وبدل أن يقود الضغط على مصر إلى التحاقها بالنظام العربي حصل العكس والتحق النظام العربي بمصر بما في ذلك منظمة التحرير. وعندها انكشف المستور.. وانفتح المجال أمام قيادة جديدة للرأي العام بمشروع جديد.

وكالعادة كانت القيادة الفلسطينية مؤشر التحول في المنطقة، باعتبارها الأرضية الأساسية للصراع، فمن يرفع هذا اللواء، لواء تحرير فلسطين، ويؤديه حقه، أو حتى بعض حقه، فقد اكتسب شرعية القيادة فى المنطقة بغض النظر عن الأيديولوجيا التي يحملها. لقد ظهرت شيخوخة النظام العربي وبان سافراً أن المنظمة ليست

بديلا عنـه، وإنما هي جزء منه. وهـيأ النمو الإسلامـي الذي انبعث من أشـلاء هزيمة ١٩٦٧، كما تعزز باندلاع الـثورة الإسلامية في إيران، وتدعمت شرعيـته باستسلام المنظـمة واندراجها جـزءاً من النظام العـربي الذي اتضحـت وجهته في فـاس نحو كامب ديفيـد.. هيأ كل ذلك للحظـة التحول التاريخي لـتنتقل راية المقاومـة لتحرير فلسطين، ومن ثم راية المقاومة الشعبية من يد التيار العلماني المستسلم رسميًا وعلى ألسـنة قطاع واسـع من نخبـته.. إلى يد الإسـلاميين، وكان الإخـوان المسلمـون هم عمودهم الفقـري، فضلا عما يملكون من شرعية تـاريخية باعتبارها التنـظيم العربي الوحيد الذي جاهد في فلسطين (٤٧ ـ ١٩٤٨)، وأوشـك أن يجهض الكيان اللقيط لولا خيـانة الحكومـات العربية، إضـافة إلى ما يـتمتعون بـه على السـاحة من وزن شعبي تـنامي منذ أكثر مـن خمسة عشر عامًـا خلت في ظل ضغط مـحدود. غير أن الذي حصل أنه ليس المـؤسسة الرسمية في الإخوان هي التي تولت لحـظة التفجير، وإنما فرع صغـير منها انشـق عن المؤسسة الأم وأطلـق الصاعق.. صاعق الانـتفاضة والجهاد.. كانوا ثلة من الشباب الذكي الحاصـل على درجات علمية راقية في الطب والهندسة والاقتصـاد والعلوم وأبرزهم الدكتور فتحي الشقـاقي، والدكتور رمضان عبد الله.

ولأن جسـم الإخوان عـلى قدمـه لا يزال حيًـا، فلـم يلبـث أن تحرك فـي الاتجاه التاريخي الصحيح الذي أعلن عن ولادتـه قاطعًا صرته كادر صغير في الإخوان هو فتحي الشـقاقي وثلة قليلة من إخـوانه. وبانخراط الإخوان في تيار المـرحلة الجديدة أصبح التحـول سافرًا لا تخطئه عين. وكـتب الله لفتحي وإخوانه أن يـكونوا المقص الذي دشن المـرحلة الجديدة.. المـرحلة الإسلاميـة لا لقيادة العـمل التحريـري فقط وإنما لقيادة المنطقة كلها.. وهو لعمري من أعظم تحولات عصرنا.

ما يمكن لي أن أضيف بعد هذا التشخيـص المجمل، يتعلق بالشخص ذاته، الذي كتب الله له شرف الإعلان عن هذا التحول والتحريض عليه بأقوى خطاب وأعدله، والتوفيـق إلى تقدم نماذج راقيـة في الأداء الجهادي، دوخت جنـرالات الجيش الذي

ربما يكـون الناس قد نـسوا اليوم أنه كـان يومًا قد سلـم له بوصف الجـيش الذي لا يقهر.. غير أن أحـدًا اليوم في العالـم ، وحتى في إسرائيـل، لا يجرؤ أن يصف ذلك الجيـش حتى بالـصمود أمـام الأطفال، فضـلاً عن البـطولة ، بـعد أن شاهدوه يـولي الأدبار أمـام أطفـال الحجارة. نـاهيـك عن الرعـب العـام في المجـتمع الإسـرائيـلي والجيـش الذي لا يقـهر من شـباب أحسـن تدريبـهم الـطبيـب فتحـي الشقـاقي أو المهندس يحيى عياش.

* فتحي نمط متفرد في الجهاد:

عرفت فتـحي خلال عدة مؤتمرات إسلاميـة آخرها المؤتمر القومـي الإسلامي في لبنان، عرفته صلبًا عنيدًا متواضعًا مثقفًا متعمقًا في الأدب والفلسفة، أشد ما أعجبني فيه هذا المـزيج من التكويـن الذي جمع إلى شخـصه المجاهد الذي يقـض مضاجع جنرالات الجيش الذي لا يقهر، وشخصية المخطط الرصين الذي يغوص كما يؤكد عارفوه في كل جزئيات عمله بحثًا وتمحيصًا يتحمل مسئولية كاملة.. جمع إلى ذلك شخصية المثقف الإسلامي المعاصر الواقـعي المعتدل ... وهو مزيج نادر بين النماذج الجهادية الـتي حملت راية الجهاد فـي عصرنا.. إذ حملته عـلى خلفية ثقافـية بدوية تـجافى وكل مـا في العصـر من منتـوج حضاري كالـقبول بالاخـتلاف والتعـددية والحوار مع الآخـر بدل تكفيره واعـتزاله.. وكذا تقديـر الثقافات الأخرى والـفنون والآداب واعتبار أن ليس خارج دائرة الوحي من حقيقة مطلقة وأنه مع انقطاع النبوة انتفت إمكـانية النطق باسم الحق الأعـظم. إنه بقدر ما شُوه مفهـوم الجهاد، وهو من أعظم المـفاهيم الـنبيلـة في الإسلام، كمـا شُوه الإسلام جمـلة على يـد خوارج هذا الزمان، الذين أعملوا سيف الجهالة أنه سـيف الإسلام ضد القريب والبعيد فكَفّروا وقتلوا بالشبهة وانـتهوا إلى سفك دماء بعضهم بعضا في أفغـانستان والجزائر، بقدر ما شوه أولئك مفهوم الجهاد بقدر ما زين الـدكتور فتحي هذا المفهوم وشرّفه وأعلى قيـمته وحببه للنـاس.. جاعلاً منـه سبيلاً قـوياً للدعـوة للإسلام، وذلك مـن خلال الأرضية الثقافية الإسـلامية المعاصرة المعتدلة التي أرسى عليهـا هذا المفهوم فوضعه

في محلـه وضبطه بضوابـط شديدة حد المبالـغة في التورع من مـثل تقيده بتـوجيهه ضد جنود الاحتلال الإسرائيلي فقط.

رحم الله فـتحي الشـخص ، ورحم الله فـتحي الـرمز، ورحم الله فتـحي المرحـلة التاريـخية التي أعلـن تدشينها، مـرحلة قيادة المشـروع الإسلامي للجهـاد الإسلامي لتحـرير فلسطين فـي اعتدال واتساع أفق يـستوعبان كل أبـناء أمتنا المخلـصين وكل أصحـاب الضمائـر الحرة المناضـلين، من أجل تمـكين صاحب الحـق المُغتصـب في فلـسطين وفـي كل مكان، مـن حقه، بـعيداً عـن كل نزوع اقصـائى أو استـجداء أو استسلام.

فتحي الشقاقي ... شهيداً

د. محمد سعيد رمضان البوطي(*)

عرفتـه من خلال عكوفه الـدائب على صنع الجـهاد.. من خلال كؤوسه المـترعة بخمر الشهادة. عرفته من خلال انتصاره للإنسانية التي حولها الذئاب إلى أشلاء!.. عرفته وهو يمزق أقنعة الدجل التي تحتضن الإرهاب وتعشقه سرًا، وتصطنع التنديد جهرًا.

كانت أيام حيـاته سلسلة بطولات أشرق بهـا جهاد الشبيبة التي مـن حوله، والتي تستفتح أبواب الجنـة بمفاتيح الشهادة.. لقد علّم رجاله، مـن خلال يقينه الراسخ، أن الشهادة فـي سبيل الله أسمى مـتعة يمكن أن يتـذوقها إنسان، وأطرب نـشوة يمكن أن تطوف بالرؤوس، غير أنها مخبوءة داخل لفافة من وهم الآلام واختراق الأخطار.

ولقد علـم أعداءه، أعداء الإنسانية والحق، أن المـوقنين بأحد الحسنيـين، ما كانوا يومًا ما لـيقيموا وزنًا لتهـديدات الدنيا كلهـا، وماذا عسى أن تعني هذه الـتهديدات أمام السلطان الرباني القائل:

«أقض ما أنت قاض... إنما تقضي هذه الحياة الدنيا»

علّمهـم كيف يفقهون أن الحيـاة الشخصية لا قيمـة لها، عندما تكون هـي الثمن لتأديب الطغاة وبتر أيدي العابثين بإنسانية الإنسان، والمستهترين بحقوقها.

سمعته يقول علـى أثر إحدى العمليات الاستشهادية الكـبرى التي زلزلت أفئدة سادة الإرهاب وتجاره:

«إننـا لا نتحرك بـأي عمليـة انتقامـية إلا على أرضـنا المغصـوبة، وتحت سلـطان حقوقـنا المسلـوبة. أما سدنـة الإرهاب ومحتـرفو الإجرام، فإنمـا يلاحقون الأبـرياء بالذبح فـي عقر دورهم، ويبحثـون عن الشطآن الراقـدة في مهد السلام ليـفجروها بجحيم ويلاتهم».

(*) مفكر إسلامي ـ سوريا.

إن فتحي الشقاقي لم يعلم أصدقاءه وأعداءه هذه الحقائق ، من فوق منبر الخطب الكلامية، أو من خلال التصريحات والمقابلات الصحفية فقط. وانما توج ذلك أخيراً بالشهادة التي طالما تعرض لها، بل طالما انتظرها واستعذب طعمها.

ترى ألم يأن لإخوان فتحي وأبناء عمومته أن يدركوا الفرق الكبير بين الصاعد إلى قمة الكرامة والمجد والهابط إلى حضيض المهانة والذل؟

ألم يأن لهم أن يعلموا أن السلام الذي تصنعه «إسرائيل» مزلق إلى هاوية الاستسلام ، وخادم لخططها التوسعية الآثمة؟..

إن المصيبة الكبرى أن هذه الحقيقة معروفة، ولكن حلوقًا كثيرة تغص اليوم بالإذعان لها والاعتراف بها.



الأعمـال الكاملـة التـى اكتملت بالاستشهاد : أعلى قمة في الشعر

صافى ناز كاظم(*)

* مازال في مخيلتي كما رأيته آخر مرة في مصر صيف ١٩٨١، هـو عز الدين الفارس، طالب الطب بجامعة الزقازيق، يخطو نحو الثلاثين،فى وجهه البشاشة وللأمل مفتوح الذراعين، وللحلم يرنو بنظرته، يحمل أوراق شعر وكلمات نثر مفعمة بالجمال، يستخدم كلمة «فيما» كثيرا وتعجبني في مواقعها، يشرح التاريخ ويعرض الكتب فتبزغ بها رؤى لم يكن يلتفت لها أحد، ويقدم الدراسات لتثقيف الوعى لنفهم لماذا يحدث لنا الآن ما يحدث. كان رأيه أننا نحصد ثماراً مُرّة لأخطاء أناس جرفهم أخطبوط التغريب فأنساهم أنفسهم فساروا لمصالح العدو ثم ماتوا، وخلّفوا وراءهم صعوداً إجرامياً لحقبة صهيونية تأسست على الإرهاب والقهر والخيانة. وكان يرى أن علينا الإبقاء على جذوة المقاومة مستمرة، خافتة لايهم لأنها ستقوى مع الإصرار والاستمرار. النصر من عند الله فليس علينا أن نتوقع أن نرى النصر بأعيننا، أما الجهاد فهو الواجب الذي أمرنا الله به دفاعاً عن دين الإسلام وثغوره، الجهاد يستمر في كل الأحوال؛ «الذين إذا أصابهم البغى هم ينتصرون». يكفى أن نغرس الشجر، وستجني الأجيال القادمة الثمرة الطيبة. لم يكن له صوت صاخب ولا جمل رنانة: الهدوء في الحديث ولا بأس من روح المرح الجيّاش الذي يولّد طاقة الاستمرار حتى لا تكل النفس، أعجبته كلمة علي بن أبى طالب عندما نصحوه باتخاذ احتياطات ضد المتربصين به،فتحرر منذ البداية من كل خوف ليتحرك حفيفاً طائراً بجناحين: الشعر والأمل في الشهادة.

* * *

شاعراً من قمة رأسه حتى أخمص قدميه، كتب الشعر ثم وجد الكتابة لا تكفى، فجعل الشعر الشهيق والزفير والقيام والقعود والخطو والحركة نحو أعلى قمم

(*) الكاتبة والناقدة المصرية المعروفة

الشعر:

قال في قصيدته «**الاستشهاد**: حكاية من باب العمود» المنشورة بالعدد الأول من مجلة المختار الإسلامي في يوليو ١٩٧٩:

تلفظني الفاء،
تلفظني اللام،
تلفظني السين،
تلفظني الطاء،
تلفظني الياء،
تلفظني النون،
تلفظني كل حروفك يا فلسطين،
تلفظني كل حروفك يا وطني المغبون،
إن كنت غفرت،
أو كنت نسيت"

وكان التوقيع «فتحي...» ولفترة طويلة ظللت أدعوه «عز الدين الفارس» وأنا لا أعلم أنه في شهادة ميلاده الرسمية «فتحي الشقاقي».

ولقد كان حقاً عزاً للدين وفارساً من فرسان الوطن: جنديا من جنود الله، ومجاهداً في سبيله، وسيفرح أكلةُ الأكباد دائماً بمقتل "حَمَزة" كلما مّرت بنا "أُحُد". لكن أيام المسلمين تعرف معرفة اليقين أنه لابد من نصر الله والفتح، فهذا هو "الحَتْم" الوحيد الذي نؤمن به، لأنه وعد الله مادمنا لن ننسى أمره القرآني: ﴿يا أيها النبي حرّض المؤمنين على القتال﴾

صدق الله العظيم

❋ ❋ ❋

طوبى للشهداء،

وطوبى للشهيد فتحي الشقاقي حيا مرزوقا عند الله وحيا في أعماله هذه الكاملة التي يتردد فيها صوته النبيل متواصلاً مع كل الذين صدقوا ماعاهدوا الله عليه وما بدلوا تبديلاً.

وفى بوعده: فلم يغفر أو ينسى

فهمي هويدي (*)

يصعب على مثلي أن يكتب عن شهيد، فـأنا أستشعر رهبة تصل إلى حد العجز، حين أقـف أمام نمـوذج إنسـان قدم حيـاته ثـمنـا لفـكرة أو حلـم. قل مـا شئت عن «الكلمـة»، ودورها في البدء أو في المـنتهى ، وعن الثـمن الذي يدفعه المـرء لقاء كلمـة حرة يقولـها، ولكن كـل الكلمـات التي نقـولها، وكل المـعاناة التـي يمكن أن نتعرض لـها، تتضاءل أمام عظمـة الشهيد وجلال الشهـادة، فالدم هنا ينسخ الـكلمة بامتياز!

أما حين يكون الشهيد هو الدكتور فتحي الشقاقي، فإن المهمة تبدو أكثر صعوبة، لأن الرجل يعد نموذجا غـير عادي للمثقف الذي تعددت قدراتـه وتنوعت مواهبه، وتفتحت أمامه آفاق عـدة كان بوسعه أن ينطلق فيها لكي يـحقق ذاته، بل وأن يخدم قضيـته من خلالـها، لكنـه منذ بداية انـخراطه في الـعمل السـياسي، حدد طـريقه واختار هـدفه، اختار نضـال البنادق وانحاز إلـى صف أهل الخنادق، وأدرك بـنظره الصافي تلك الحتمية التي تدل بأن قضـية فلسطين لن تحسم إلا على أرض فلسطين، وأن «الجهاد» وحده السبيل لتحقيق ذلك الحلم.

فى السبـعينات نشرت لـه مجلة «المختار الإسـلامي» في عددها الأول قصـيدته التي أعلن فيها خياره الذي لم يحد عنـه، وقال : تلفظني القدس إن كنت نسيت.... تلفظني كل حروفك يا فلسطين ـ تلـفظني كل حروفك يا وطني المغبون ـ إن كنت غفرت أو كنت نسيت.

وعندما اختار الشقاقي أن يوقع كتاباته اللاحقة في مرحلته المصرية (٧٤ ـ ٨١م) باسم «عـز الدين الفـارس»، فإن خياره ذاك كـان إعلانا عن إدراكـه لطريقـه وهدفه الأصيل فهو سائر على درب شهيد فلسطـين عز الدين القسام ، ممتطيا صهوة جواده وشاهرا سيفه ومتطلعا إلى حلمه.

(*) مفكر وكاتب إسلامي ـ مصر

حقق الشقاقي مراده وانضم إلى كوكبة شهداء الأمة، الذين رحلوا حقا، ولكن إلينا وليس بعيدا عنا، حيث سكنوا قلوب الجميع، وما برحت أرواحهم الطاهرة تهيم في سمائنا، فضلا عن وجداننا خيرة وهادية وملهمة. وبهذا الحضور القوي في الإدراك العام، الذي فرضوه بدمائهم الزكية والطاهرة، فإن الشقاقي وكوكبة الشهداء من سابقيه ولاحقيه، حفظوا للأمة جذوة نضالها. وضمنوا للحلم أن يظل حيا ومتوهجا، وغير بعيد التحقيق

سيظل يحسب للشقاقي ورفاقه أنهم أعادوا للجهاد اعتباره في فلسطين . فقد تملكوا تلك البصيرة التي هدتهم إلى أن مسرح النضال الحقيقي للتحرير هو أرض فلسطين، وتملكوا الشجاعة التي مكنتهم من تمزيق الهالة التي أحاط بها العدو جيشه ورجاله وقدراته التي «لا تقهر»، حتى أصبح الجميع يتندرون بقصف الجنود الإسرائيليين الذين دب فيهم الرعب، وأصبحوا يفرون في مواجهة المجاهدين الفلسطينيين. فضلا عن هذا وذاك، فإنهم تملكوا حظاً من الإيمان والثبات والصلابة استطاعوا به أن يقاوموا غواية دعاة الاستسلام أو ترهيبهم، ومن ثم فقد ظلوا قابضين على الجمر، ولم ينضموا إلى قوافل المتعبين أو اليائسين الذين فقدوا القدرة على مواصلة النضال ، فألقوا سلاحهم وتنازلوا عن حلمهم.

وتلك البذرة التي غرسوها في التربة الفلسطينية هي التي أثمرت ما شهدناه في وقت لاحق، حين أسفر الشعب الفلسطيني حقيقة معدنه، عن بطولته وعبقريته وروحه الوثابة في الانتفاضة، وفي مختلف العمليات الجهادية التي أعقبتها. والتي أقنعت قوات الاحتلال والقادة الإسرائيليين بأنهم لا قبل لهم بذلك الصنف من البشر، الذين يتشوقون للموت ويسعون إليه، ويتسابقون إلى الاستشهاد في سبيل الله.

❊ ❊ ❊

التقيته آخر مرة في بيروت أثناء انعقاد أول مؤتمر قومي إسلامي (الاسبوع الأول في يوليو / تموز ١٩٩٤م) ، ولأن المقاعد رتبت بحسب الحروف الأبجدية فقد تجاورمقعدانا ، الأمر الذي أتاح لي أن أستمع منه إلى الكثير من تعليقاته وقفشاته

الضاحكة، واستغربت منه احتفاظه بروحه المرحة وبتلك المعنويات العالية، وسط الظلمة الحالكة التي كنا نستشعرها آنذاك، حيث كانت القضية الفلسطينية معروضة للبيع بأبخس الأثمان. وكان من رأيه أن الشر البادى والحاصل لا يخلو من خير، على الأقل لأنه كشف أوراق الجميع وعرى مواقفهم، وأتاح للشعب الفلسطيني والعربي أن يرى الحقائق بغير تدليس أو تزييف ،حقائق الأشخاص والأشياء.

سألته عن سر حماسه للحوار القومي الإسلامي، فقال إنه ينتظر هذه اللحظة منذ سنوات لأنه لا يرى خلاصا حقيقيا للأمة إلا إذا التف الصف الوطني وعزز مواقعه، واحتشدت عناصره في خندق واحد في مواجهة العدو الحقيقي للطرفين. وذكر أن تحالف المنظمات الفلسطينية في دمشق، الرافضة للاستسلام يمثل تجسيدا عمليا للأمل الذي يسعى مؤتمر بيروت لتحقيقه.

وبينما هو مسترسل في حديثه توقف لحظة ثم قال ضاحكا «على فكرة انا منذ مدة أريد أن أفاتحك في أن تنضم إلى كتيبة الجهاد الفلسطيني». وقبل أن أسأل أو أرى اتسعت ضحكاته وقال: «لا تفهمني خطأ ، فنحن بصدد إصدار صحيفة جديدة في غزة، بعد أن حصلنا على ترخيص من «السلطة الوطنية» ونريد أن ننشر مقال الثلاثاء يوم صدوره».. وافقت، لكن الاتفاق لم يستمر لأن رئيس تحرير الصحيفة (هاني عابد) قتلته المخابرات الإسرائيلية بعد حين، والصحيفة ذاتها (الاستقلال) أوقفت بفعل قرار من سلطة عرفات. وفتحي الشقاقي تم اغتياله في وقت لاحق.

كثيرا ما كان الشقاقي يردد أنه عاش أكثر مما ينبغي، وأن الشهادة التي تمناها تأخرت عن الموعد الذي قدره. غير أن رئيس الوزراء الإسرائيلي إسحاق رابين حقق له أمنيته دون أن يقصد، وإن ظن أنه نال منه وطوى صفحته، لم يفهم رابين وأمثاله أن الشهيد لا يموت، وأن الشقاقي بعد اغتياله تحول من فرد ورمز إلى قيمة، وأن دماءه الزكية روت شجرة الجهاد الذي هو ماض إلى يوم القيامة..

وحين نراه قد انضم إلى قافلة النبيين والصديقين فلا نخاله إلا ارتقى المكانة التي يستحقها.

"المفكر مناضلاً والمناضل مفكراً"

د. طيب تيزيني(*)

حين دعيت قبل بضعة أشهر لمناظرة الشهيد الدكتور فتحي الشقاقي، لم أكن أعرف الكثير عنه، عن شخصه، بل كذلك عن أفكاره ورؤاه وطاقاته الذهنية والأخلاقية. جلّ ما كنت أعلمه عنه، في حينه، لم يتجاوز كونه مناضلاً فلسطينياً عربياً يسعى لتحقيق أهدافه عبر استراتيجية سياسية، ترتكز إلى أسس دينية ترفض العنف كحل للخلاف مع الآخر ضمن التعددية الدينية والفكرية والسياسية العربية والإسلامية.

وكان ذلك يكفى، بالطبع، لتكوين موقف أولي من الرجل، لكن التقائي به وجهًا لوجه وأمام حشد كبير من الجمهور، وضعني في حالة من الدهشة العميقة.

فلقد تبينت في حديثه ثلاثة عناصر كبرى تمثل ثروة هائلة فى حياة إنسان : الوضوح والشجاعة والصدق، وأدركت حالئذ وعلى نحو عقلي وعاطفي وأخلاقي أن الفقيد الشقاقي يحقق في شخصه جدلية الأقصيتين، المفكر مناضلاً والمناضل مفكراً، والناتج عنها مجسداً بالعبارة النافذة: للحياة موقف.

لقد تحدث الفقيد الشهيد آنذاك عن حتمية النضال ضد المشروع الصهيوني في فلسطين العربية، وعن أن هذا المشروع يمكن أن يخفق حين ينتصر المشروع العربي. ولكنه كان يلح على أن انتصار هذا المشروع الأخير، لا يمكن أن يتم بعيداً عن تلاحم القوى العربية الناهضة بكل تياراتها واتجاهاتها الدينية المستنيرة والعلمانية، وقد أحالني ذلك الموقف إلى ما كتبه المفكر التنويري السوري اللبناني نجيب عازوري في كتاب أصدره عام ١٩٠٥ بعنوان «يقظة الأمة العربية»: «أن مصائر البشرية لاحقاً سوف تتحدد ـ إلى درجة ملحوظة ـ بنتائج الصراع بين المشروع الصهيوني

(*) مفكر عربي ـ سوريا.

والمشروع العربي وأنصاره في الداخل والخارج». و إذا علمنا أن المشروع الصهيوني برز بوصفه مشروعاً امبريالياً استيطانياً، وأن المشروع العربي يفصح عن نفسه بمثابة مشروع قومي ديمقراطي يهم القوى التقدمية في العالم، اتضح أن الصراع الذي تحدث عنه عازوري هو في الواقع صراع ذو أبعاد كونية.

إن مصرع الدكتور فتحي الشقاقي على أيدي قوى الشر والجريمة لم يستهدف شخصه هو وحده ولا التنظيم الذي كان على رأسه وحده، ولكنه استهدف القوى العربية الوطنية والقومية الديمقراطية والإسلامية المستنيرة كلها. لقد كان استشهاده رسالة من نار إلى هذه القوى. ولعل هذه الرسالة قد قُرئت على حقيقتها، وهى أن السلام الذي تسعى إليه إسرائيل هو سلامها، أي السلام الذي يبدأ بـ «التطبيع» تطبيع كل من يناهض هذا السلام ويقف في وجهه، ولقد كان على الدكتور الشقاقي أن يدفع ثمن قوله:«لا» أما هذا الثمن فقد كان دمه.

ويمكن القول بأن الفقيد الشقاقي كان، في حياته، يدرك أن الطريق الذي اختار هو طريق الفداء والتضحية. وكان -من ثم - بعيداً عن «الانهزامية» التي تريد تعميمها نظم عربية سياسية ولواحقها فى أوساط الناس، ومفادها أن «الظروف التاريخية» التي انتهينا إليها نحن العرب راهناً لم تعد تحتمل «مواجهة العين للمخرز». في وجه هذه الانهزامية المسوغة بنزعة قدرية فاضحة، وقف الشهيد الشقاقي ورفاقه وأصدقاؤه، مؤكدين على أن «الرقاد لا يفضي إلا إلى رماد»، في حين أن «الشعلة المتوقدة» يمكن أن توقظ وتحفز وتحرض، ولذلك، كان الشقاقي يراهن على التاريخ، التاريخ العربي والعالمي، على حد سواء.

إنني أشهد أن الفقيد الشقاقي إنما - في قوله كما في فعله - يعلن لفوكوياما ولرابين أن «التاريخ» لم يجد سقفه فى النظام الرأسمالي الأمريكي ولا فى وضعية إسرائيلية راهنة يراد لها أن تبدو وكأنها الأمر الواقع STATUYQU إن التاريخ مفتوح، ومفعم بـ «المفاجآت». ولم يكن العجوز هيجل إلا محقاً على نحو مذهل حين أعلن أن «الدهاء» يلابس التاريخ كما تلابسه «روحه».

ولعل من سدد الرصــاص إلى رأس الشقاقي وقلبه لم يـدرك، كذلك، أن سقف التاريـخ العربي ليـس هو هذا الذي نعيـشه ركاماً من المـذلة والخنوع والصـغار؛ بل لعلنا نقول، بعـكس ذلك تماماً : إن التاريخ العربي يخط إحدى بـداياته الكبرى في عصرنـا هذا، الذي يقـدم إلينا علـى أنه عصر انـسداد الآفاق، وما هـذا الأخير إلا انسداد آفاق من فقدوا الـكرامة ومن عُفرت رقابهم في الرغام، إن الـتاريخ العربي المعاصـر ـ في بنيته الخـفية والمسكوت عـنها - هو تاريـخ النهوض العربـي الجديد، الذي سيجد فيه كل المقهورين والمذلـين والمفقرين العرب مأواهم وملاذهم ومسوغ وجودهم. النهوض العربي الديمقراطي لتحقيق الوحدة القومية والتقدم الاجتماعي، وللوقوف فى وجه المشروع الصهيوني والإمبريالي.



فلسطين المحور والمفتاح

د . محمد عمارة(*)

إن شهداء فلسطين لهم في ميدان الشهداء موقع متميز، ولا نزكي على الله أحدًا، ذلك أن القضية الفلسطينية هي القضية المحورية في صراع الأمة ضد أعدائها ليس فقط في عصرنا الحديث، وإنما عبر تاريخنا الطويل. إن الله سبحانه وتعالى عندما تحدث عن المسجد الأقصى ومعجزة الإسراء (سبحان الذي أسرى بعبده ليلاً من المسجد الحرام أي المسجد الأقصى الذي باركنا حوله) قد جعل القداسة والبركة لفلسطين وليس فقط للأقصى والقدس الشريف، وعلى مر تاريخ الأمة كانت القدس وفلسطين رمز الصراع ومفتاح الانتصارات؛ وفي عصرنا الحديث كانت تجزئة الأمة وشرذمة وطنها؛ الباب الاستعماري لاحتلال القدس، حتى أن معاهدة (سايكس بيكو) التي كرست تجزئة العالم العربي، جعل الاستعمار الإنجليز لها قيمة حين أقام لسايكس تمثالاً في القرية التي دفن فيها في مقاطعة يوركشير، يقف فيه سايكس وعند قدميه تمثال لمسلم منكفىء على الأرض وفوقه لفافة مكتوب عليها (ابتهجي ياقدس)، فإهانة المسلم ومطامع الاستعمار في القدس هي ثمارات للمعاهدة التي ارتبطت باسم سايكس بيكو، وعندما دخل الجنرال الإنجليزي اللنبي إلى القدس سنة ١٩١٧، وقال كلمته الشهيرة (اليوم انتهت الحروب الصليبية) نشرت المجلة الإنجليزية (باتش) رسمًا كاريكاتوريًا يصور ريتشارد قلب الأسد الذي حارب صلاح الدين الأيوبي في الحروب الصليبية، يصوره وهو يقول (اليوم تحقق حلمي) فاحتلال الإنجليز للقدس سنة ١٩١٧ يحقق حلم ريتشارد قلب الأسد، أثناء الحروب الصليبية، والجنرال الإنجليزي (جلوب باشا) الذي كان قائدًا للجيش الأردني حتى سنة ١٩٥٦ هو القائل في مقدمة أحد كتبه (إن تاريخ مشكلة

(*) مفكر إسلامي ـ مصر.

الشرق الأوسط يرجع إلى القرن السابع للميلاد) أي إلى ظهور الإسلام، فالقدس وفلسطين على مر تاريخنا مع هذه التحديات المستمرة كانت ولا تزال هي محور الصراع ورمز الصراع وبوابة الانتصار في هذا الصرع.. وصدق الشاعر المعاصر لصلاح الدين الأيوبي وهو يتحدث عن تحرير الأقصى عندما قال:

هو البيت إن تفتحه والله فاعل،
فما دونه باب من الشرق مغلقُ.

ففلسطين هي شهيدة الأمة ومن هنا يتميز الشهداء في سبيلها في ساحة الشهادة والاستشهاد ولقد كان شهيدنا المرحوم الدكتور فتحي الشقاقي من المتميزين بين شهداء هذه القطعة العزيزة على قلب كل مسلم وعربي ووطني؛ كان مؤمنًا بالجهاد الذي هو إسلاميًا سنام وذروة الإسلام. وكان مؤمنًا بالفكرة الإسلامية التي مثلت استراتيجية (الجهاد الإسلامي). لتحرير كل فلسطين وكان صاحب نظرية محورية القضية الفلسطينية بين قضايا الأمة واحتلالها مكانة الرمز والمحور والمفتاح، وكان لإستشهاده مكانة متميزة بين الشهداء تنبع من الفكر الذي آمن به ومن القضية التي استشهد في سبيلها، وهي قضية خالدة وفكرة استراتيجية، باب الشهادة في سبيلهما مفتوح للذين أكرمهم ويكرمهم الله سبحانه وتعالى بالسير على هذا الدرب درب «الأحياء الذين هم عند ربهم يرزقون».

شهيد الإسلام

السيد محمد حسين فضل الله(*)

الحمد لله وسلام على عباده الذين اصطفى وبعد

عرفته ـ منذ عرفته ـ الإنسان المسلم الذي يعيش قلق المعرفة التي تبحث في كل أفق متحرك عن عمق الفكرة، وامتداد الخطة، وحركية الموقف، وصلابة الموقع وانفتاح الروح في كل شيء يتصل بالإسلام، كقاعدة للفكر والعاطفة والحركة والحياة.

كان القلق يغريه باكتشاف الجديد الذي يمنح الفكر الإسلامي فهمًا جديدًا ويعطي الحركة الإسلامية بعدًا جديدًا، ويفتح للإسلام طريقًا جديدًا فقد كان لا يفكر في تجديد الإسلام ـ كما يتحدث الآخرون ـ لأن الإسلام يبقى جديدًا ليعطي الزمن شبابه، فلا يشيخ الزمن معه، وليمنح الإنسان من حيويته روحًا منفتحة على حيوية الواقع المتجددة التي تجدد كل ما حوله في عملية تطوير لا تبتعد عن الجذور ولا تنفصل عن الخط المستقيم، بل كان يفكر في تجديد الفهم للكتاب والسنة وللمفاهيم الأخلاقية والاجتماعية والسياسية، على أساس أن فهم الذين عاشوا في ثقافة الماضي لا يمثل الحقيقة المطلقة، بل يمثل وجهة نظر ذاتية ترتبط بفهم الباحث في عناصره الثقافية، مما يفسح المجال لأكثر من فهم وأكثر من اجتهاد لأكثر من باحث فكم ترك الأول للآخر؟ وهكذا كان يقرأ ويقرأ، ولم تكن قراءته في كتاب الكلمات، بل كان يتابع قراءته في كتاب الإنسان ليجد في كل إنسان يلتقيه معرفة جديدة تتمثل في خصائص الفكر والأسلوب والموقع والموقف والتطلعات كما ينفتح على كتاب الكون والحياة ليقرأ فيه إبداع الله في خلقه وحركة الحياة في قضاياها، وساحة الصراع في تحدياتها.

(*) آية الله العظمى السيد محمد حسين فضل الله: مرجع وعالم إسلامي كبير ـ لبنان

وكانت الحركة نتاج ذلك كله، فقد كان يعيش إلى جانب قلق المعرفة للإسلام والواقع قلق الحركة من أجل التغيير في خط الثورة، ليعود الإسلام إلى الإنسان دينا يحتوي كل قضاياه وتطالعاته وأساليبه وأهدافه وكل خطوطه العملية.

كان الإسلام كل همه ولم يكن إسلامه فلسطينيًا، بل كانت فلسطين تمثل هم الإسلام الكبير، لما تمثله من عمق الروح في عمقها الروحي في التاريخ وتحديات الحاضر وتطلعات المستقبل وحركية الواقع السياسي المتنوع الممتد في كل قضايا المنطقة، الذي يختصر حركة المرحلة في مدى نصف قرن، بحيث كانت المحور لكل القضايا الدامية الصعبة الغارقة في عمق الثورة وقلب المأساة، وبدأت الحركة تأخذ لنفسها خطًا متميزًا لا يستغرق في مفردات الحركة الإسلامية التقليدية ليقلدها بل ليختار منها العناصر الحية التي تطلق التحدي في ساحة الصراع ولينتج من تجربته ومن التجارب الرائدة الجديدة بعض ما يمنح الحركة حيويتها وامتدادها في مدى الواقع والزمن، وكان الجهاد عنوانها، هذه الكلمة الإسلامية المتحملة بكثير من حركية التاريخ الإسلامي ومن انتصاراتها وهزائمها وتعقيداتها ودمائها في النهر الكبير للدم الإسلامي المتفجر في ينابيع الشهادة، وقد عاش وعي الوقوف مع الكلمات الإسلامية، لأنها تمثل وعي الفكرة والحركة والإنسان والتاريخ من خلال الانفعال بوعي الله، خلافًا للذين التزموا تبديل كلمة الجهاد بكلمة الكفاح والنضال، وانطلقت الحركة في جمهورها الخاص والعام في عنفوان القائد ـ الذي كان هو ـ وحكمته وانفتاحه على كل الحركات الإسلامية ليتعد معها وليتواصل مع كل نشاطاتها وليتفاعل مع كل خطوطها وبرامجها، وكانت قمة وعيه الإسلامي الحركي انفتاحه على الثورة الإسلامية، في إيران بقيادة الإمام الخميني رحمه الله الذي رأى فيه الإنسان الذي عاش كل الإسلام في كل عقله وروحه وحركته فانطلق منه وتفاعل مع خطه الثوري الذي كانت فلسطين عنوانًا له، واستطاعت حركة الجهاد بقيادته ومساعدة إخوانه والتفاف جماهيرها حوله أن تقطع شوطًا كبيرًا في ساحة

الجهاد في فلسطين، وساحة الصراع خارجها حتى تحولت إلى رقم صعب يخشى اليهود حركيته، ويخاف الاستكبار العالمي صلابته وقوته، وقلق كل حلفائها في المنطقة من نداء الحرية في خطابه السياسي والجهادي.

كان يسافر دائما ويتحرك دائما في كل موقع للإسلام فيه قضية، وللمسلمين فيه معركة، كان يريد أن يعطي تجربته للآخرين ويأخذ من تجربة الآخرين لحركته وكنا نخاف عليه من الرصد الصهيوني لحركته، ومن الرصد الاستكباري لتنقلاته وكان مستغرقًا في القضية حتى كان يغفل عن الحذر من الخطر الذي ينتظره.

كان كل فكره الإسلام وكان كل همه فلسطين.. وهكذا سقط شهيد الإسلام في معنى فلسطين وشربت فلسطين من دمه لتبقى في حيوية الجهاد من أجل التحرير واحتضن الإسلام الشهيد في المسيرة الكبرى المنطلقة نحو النصر والفتح القريب.

لقد ارتفع شهيداً ولم يسقط.. أعطى القضية كله وصنع للإسلام تاريخًا جديداً وأعطى الأمة في شهادته بطلاً جديداً.

وما زالت ذكراه تعيش قلق البحث من مرحلة جديدة لحركته، وخطة جديدة لثورته، وتدفع كل إخوانه في داخل الحركة وخارجها إلى متابعة المسيرة فكراً وروحًا وحركة ونصراً أو شهادة من أجل الإسلام في فلسطين، ومن أجل فلسطين في خط الإسلام ومن أجل الإسلام كله والإنسان كله والأرض كلها ويبقى (فتحي) يفتح من فكره دربًا جديداً ويمنح المسيرة في ذكراه روحًا جديدة.

ويبقى معنا ويحيى معنا ونحيا جميعًا في امتداد القضية في حركة الإسلام في الواقع كله الذي تختصره كلمة فلسطين و«ستعود فلسطين ولو امتد الزمن.

ولك المحبة منا فلقد قضيت ما عليك في الشهادة ـ القمة وبقى ما علينا لننفتح على النصر أو الشهادة.. وليرحمك الله.

رحلة الدم الذي هزم السيف: ملامح من حياة وفكر الشهيد الدكتور/ فتحـــي الشقاقـي

بقلم: د. رفعت سيد أحمد

* لم يكن (فتحي الشقاقي) بالنسبة لكاتب هذه السطور مجرد قائد لحركة إسلامية مجاهدة تنشد تحرير فلسطين من دنس الصهاينة. ولم يكن مجرد صديق تمتد المعرفة والأخوة والصداقة معه لسنوات طويلة مضت ولم يكن مجرد زميل مشارك في بعض الملتقيات السياسية ـ الثقافية العربية، ولكنه كان أكبر من ذلك بكثير؛ كان أخاً، وأباً بالمعنى الإنساني المباشر (رغم تقارب سني العمر)، وكان رمزاً ثابتاً لكل معني إنساني وإسلامي وعربي نبيل، تعلق به كاتب هذه السطور وجيله منذ وعينا على كلمات (فلسطين)، و(الإسلام) و(العروبة) و(العالم) من حولنا، وكان مرجعية كاملة لكل معاني الكرامة والعزة والجهاد، التي نشدها جيلنا بأكمله والأجيال التي تلته، وكان مخزوناً سامياً للقيم الرفيعة وللصفاء الروحي،والصدق الأسطوري بين مايقول، وما يفعل، وكان مثالاً فذا للثائر المؤمن حتى النخاع بعدالة قضيته.

* كان (فتحي الشقاقي)، أمة في رجل بلا أدنى مبالغة، وبكل موضوعية، وأمانة، يفرضها علينا طبيعة المقام الذي فيه نتحدث.

* كان دائم البشاشة والبشر، واسع الأفق والمعرفة، إذا تحدث أبدع وإذا صمت أبلغ، عرفته عن قرب. في كل حالاته، وفي آخر حالاته، فكان مبهراً، صادقاً، مجاهداً.

* ولد الشقاقي عام ١٩٥١ واستشهد عام ١٩٩٥ تحديدا (٢٦/ ١٠/ ١٩٩٥) أربعة وأربعون عاماً، فقط هي عمر هذا الشهيد المجاهد، ولكنها كانت ـ وكما سنرى في أعماله المنشورة ـ بمثابة قرن كامل مما نعد من السنين، لقد بارك الله في

عمره القصير، ليصبح بما أنتجه وخطه ورسخه أطول بكثير من الـ ٤٤ عاماً المدونة بشهادات الميلاد والوفاة.

❊ ❊ ❊

❊ ولأن الشهيد المعلم ـ بحق ودون تزيد ـ الدكتور فتحي الشقاقي، كان مؤثرا في كل من تعامل معهم، لذا كان مصاب الأمة فيه بكل شرائحها واتجاهاتها وتياراتها، وقواها الحية، كبيراً؛ فلقد كان (الشقاقي) ـ ربما بقصد وربما بغير قصد ـ نقطة الالتقاء التاريخية والنادرة بين كل الفرقاء ـ المخلصين ـ في هذه الأمة، ولقد جسد الشهيد المعلم، وبخاصة في سنوات عمره الأخيرة بسلوكه وفكره وإبداعاته قاسما مشتركا، وجامعاً فذاً بين التيارات العربية والإسلامية على امتدادها في ساحات الوطن العربي والإسلامي؛ ومن اقترب من الشقاقي استطاع أن يلمس ذلك بوضوح ونصاعة وشفافية ندر أن تتوحد في بشر إلا في الأنبياء والرسل..

❊ لقد كنت آخر من التقى الشهيد، وآخر من ودعه، وآخر من استمع إليه، وعلى مدار أسبوع كامل، وكأنه كان يوصي وصيته الأخيرة. [نشرنا اللحظات الأخيرة في حياة الشهيد في حوار لنا معه عندما كنا في ليبيا لحضور مؤتمر علمى، بعنوان (وصيتى للأمة: اللحظات الأخيرة في حياة الشهيد الدكتور فتحي الشقاقي ونشرت عدة صحف نشرها منها **جريدة الشعب ـ القاهرة ٣/ ١١/ ١٩٩٥**]. ولقد أرفقنا هذه الوصية في نهاية هذه الأعمال نظراً لأهميتها وقيمتها التاريخية.

❊ وبعد استشهاده غريباً مجاهداً، رأيت ومعي كل المخلصين لفكر الشهيد ولرسالته، أن أعظم تكريم له، هو الحفاظ على فكره ورسالته وجهاده، بكل السبل والوسائل المتاحة سياسيا وعسكريا وثقافيا، فعلى صعيد فلسطين والمجاهدين داخلها وخارجها مثلاً، ينبغى ألا يتوقف الجهاد حتى تعود فلسطين طاهرة، نقية، عربية، إسلامية خالصة من دنس اليهود، كما كان يحلم بها الشهيد، وعلى صعيد الفكر ينبغى استمرار ضخ تعاليم وأفكار المجاهد الشهيد المعلم الدكتور فتحي

الشقاقي، ودون توقف، لأنها تعاليم وأفكار تجاوزت ـ كما سنرى ـ المشكل الفلسطيني الوطني، لتتصل بعالم الإسلام والعروبة وقضاياهما المتفجرة، ولتتصل بقضايا الإنسان، والمستضعفين في الأرض وبرسالة العدل والحق والخير إلى البشرية جمعاء، إذ لم يكن (الشقاقي) مشروعاً فلسطينياً فحسب، بل كان مشروعاً إنسانيا متكاملاً، وفذاً، ومن هنا استحق، وبكل المعايير أن نعيد تقديمه، وبثه، وبانتظام نحو أمتنا و(العالم) و(الكون) بأسره، حتى يرث الله الأرض ومن عليها.

* من هنا، قمت، وبمساعدة الكثيرين بجمع وتوثيق، وتحليل (أغلب ـ وليس كل) الأعمال الفكرية والسياسية للشهيد، واعتزمنا تقديمها للقاريء العربي والمسلم بعد تدقيقها، وفهرستها، وإعادة ترتيبها وتحقيقها وهو مجهود استغرق منا قرابة العام بأكمله، مابين توثيق وتجميع (استلزم في أحيان كثيرة سفراً لبلاد عديدة كان للشهيد تراثاً ودوراً في ملتقياتها أو أعلامها).

ولقد قدمنا لهذا العمل بمقدمة نظرية موسعة تبحث في فكر الشهيد وفلسفته، ثم استبقناها بكلمات تقديم قصيرة وتقييمية عن الشهيد، وفكره ورسالته لرموز إسلامية وعربية هامة، ثم اتبعنا هذا جميعه بالأجزاء السبعة للموسوعة، والتي اشتملت على كل ماخلفه الشهيد من دراسات وكتب ومقالات وأشعار وتصريحات وخطب وكلمات، ويهمنا قبل الولوج إلى (المقدمة النظرية) أن نشير إلى ملاحظة هامة، وهي أن بعض المواد القليلة المنشورة بالموسوعة لم نتحصل على تاريخ نشرها الدقيق، فكتب تاريخ تحرير أو إجراء المقابلة وهو في كل الأحوال قريب جداً من النشر، وسنعمد في طبعات قادمة أن نتحرى التاريخ المطابق للنشر. ويهمنا أن نشير أيضاً إلى أن بعض المواد لم نتحصل عليها لأسباب فوق طاقتنا ولذلك لم تدرج ضمن الأعمال الكاملة، وخاصة تلك المواد التي كتبها الشهيد داخل الأرض المحتلة مابين الأعوام ٨٢ ـ ٨٥، وهي منشورة في مجلات (النور الإلهي) (النور الرباني) (صوت المستضعفين)، وفي نشرات الجماعة الإسلامية في

فلسطين «كصوت الجماعة الإسلامية»، ونشرة «البيان»، وهذه المواد قليلة وسنرفقها بالأعمال الكاملة في طبعات قادمة.

* * *

عندما كان (الشقاقي) في مصر، وبعد أن تخرج من كلية الطب جامعة الزقازيق، وتحديداً عام ١٩٨١، في شهر مارس (آذار)، كتب الشهيد المعلم، واصفاً حدث الثورة الإسلامية في إيران وفي ذكرى مرور عامين على انتصارها بأنها **(رحلة الدم الذي هزم السيف)** ونشرت الدراسة في مجلة المختار الإسلامي بالعدد رقم ٢١ السنة الثانية ـ مارس ١٩٨١.

* وبعد أربعة عشر عاماً على كتابته لهذا العنوان المعبر، لم أجد وأنا أعد هذه الموسوعة عن حياة وفكر وجهاد الشهيد الدكتور فتحي الشقاقي، أبلغ من كلماته لتكون عنواناً لأعماله الكاملة، ولمسيرة حياته، وجهاده؛ فكان اختيارنا لعنوان الموسوعة هو **(رحلة الدم الذي هزم السيف)**، والدم هنا هو دم الشقاقي وحياته، والسيف هنا الذي حتما سيهزم ـ بإذنه تعالى ـ هو سيف الكيان الصهيوني ومن آزره داخل وطننا وخارجه.

* * *

وفي هذه المقدمة النظرية عن ملامح فكر الشهيد المعلم، يهمنا التأكيد على أننا لم نحط بشكل كامل بكل فكر الشهيد والذي تتضمنه هذه الموسوعة، ولكننا نقدم فقط هنا بعض من ملامح هذا الفكر، ومن كلمات الشهيد ذاته، وسنمحور حديثنا في هذا الشأن حول المحاور التالية:

* **أولا** :حياته: محطات رئيسية

* **ثانيا:** حركة الجهاد الإسلامي في فلسطين: المراحل والآفاق

* **ثالثاً:** محورية القضية الفلسطينية.

* **رابعاً:** التحرر من التبعية وأبعاد النهوض
* **خامسا:** ضرورة لقاء التيارات الإسلامية والقومية والديمقراطية
* **سادسا:** محورية إيران في فكره: التجربة الإسلامية في إيران وآثارها على فلسطين.
* **سابعا:** الموقف من قضايا الواقع العربي والإسلامي ـ المرأة ـ الديمقراطية ـ الوحدة العربية والاستقلال ـ العنف السياسي ـ الصحوة الإسلامية ـ الأصولية والعلمانية ـ دور المثقف ـ المهام الأساسية الكبرى للأمة].

وبتفصيل هذه المحاور ومن قلب كلمات وفكر الشهيد الدكتور فتحي الشقاقي يتبين لنا محيط فلسفته وأركانها البارزة والمتميزة.

أولاً: حياته: محطات رئيسية:

بداية تذهب بعض المصادر التاريخية إلى أن الجذور التاريخية لعائلة الشهيد الدكتور فتحي الشقاقي تعود إلى بلدة ترهونة بليبيا؛ حيث تؤكد هذه المصادر أن الجد الأكبر ويدعى (محمد أوحيدة الشقاقي) وكان يعمل فلاحًا، ولد في بلدة ترهونة وعاش بها إلى أن قام الأتراك بتجنيده ضمن لواء الاسكندرونة في تركيا وقتذاك وبعد أن قضى فترة في هذا [اللواء] إتجه منه إلى سوريا وتزوج من سيدة سورية تدعي (سارة»، ثم ذهب إلى قرية زرنوقة بقضاء يافا في فلسطين، والتي استقر فيها وأنجب أجداد عائلة الشهيد الدكتور/ فتحي الشقاقي.

* ان هذه الجذور في تقديرنا ذات دلالة هامة ، ومعنى عميق، سياسي وإنساني، وإسلامي أيضًا، فالانتماء العربي ـ الإسلامي يتضح حتى في الجذور التاريخية للشهيد، ولم تكن مصادفة أن تكون آخر محطة عربية يقف فيها الشهيد، ويتحرك قبل إستشهاده بساعات قليلة هي (ليبيا) التي منها آتى جده الأكبر، وكأنه يعيد ربط حلقات التاريخ لم تكن مصادفة أبدًا، فلقد أراد الله سبحانه وتعالى أن تتواصل حلقات الدم، والنسب والتاريخ، من الجد الأكبر (محمد أوحيدة الشقاقي) ابن ترهونة [وهي بلدة معروفة

بالمواقف التاريخية المجاهدة] إلى (سارة) الجدة من سوريا إلى الحفيد الشهيد / فتحي الشقاقي ابن فلسطين؛ لقد أرادها الله، لحكمة ولمعنى كبير أراد لنا أن نقرأه من خلال التاريخ والماضي والمستقبل، على صفحة الشهادة التي خطها الشقاقي بدمه؛ إنه معنى "الجهاد" ، وعمق الانتماء العربي ـ الإسلامي لهذه الأمة التي قبلتها السياسة دائمًا: فلسطين

❊ ❊ ❊

كانت حياة الشهيد المعلم الدكتور فتحي الشقاقي، سلسلة من المحطات، ذات المعنى.

محطة أولى: تقول أنه ولد بعد نكبة ١٩٤٨ بثلاثة أعوام، ولد في مخيم رفح للاجئين الفلسطينيين بقطاع غزة، من أسرة فقيرة، بسيطة مثل كل الأسر الفلسطينية المشردة، وكان الوالد عاملاً وهو إمام القرية وقتها وكان متدينا، جاءت الأسرة من قرية زرنوقة القريبة من يافا (أجمل وأقدم مدن فلسطين المحتلة) توفيت والدته وهو في الخامسة عشرة من عمره، وعاش يتيماً، أنهي دراسته الثانوية في مدارس القطاع التي شهدت البدايات الأولى لنشاطه السياسي الذي ازداد وضوحاً وتبلوراً بعد هزيمة ١٩٦٧ : في الفترة السابقة على العام (١٩٦٧)؛ وفقاً لما يرويه الشهيد في أحد أحاديثه الصحفية «كانت لدي بعض المشاورات في الحياة السياسية ولدي تجربة سياسية داخل المدرسة، أذكر أن موضوعات الإنشاء التي كتبتها في المدرسة الإعدادية والثانوية، كانت محل اهتمام المدرسين بسبب ماتطرحه من قضايا سياسية وما رآه المدرسون من بلاغة فيها، وشاركت في خطابات الصباح المدرسية، خصوصاً في الفترة التي اتخذت منحى وطنيا، وكانت لدي مشاركة رئيسية في صحف الحائط في تلك المرحلة»(١).

«لاشك أن المد الناصري، الذي كان على أشده، ألقى بظلاله علينا، فتعلقت كثيراً بعبدالناصر كشخص وزعيم عربي، وكان له الفضل في أنني لم أصبح شيوعيا، إذ أنه بسبب اهتماماتي السياسية المبكرة استهوتني فكرة المساواة بين البشر،

فكرة التساوي جعلتني أبحث في «مدرسة الشيوعية»، إلى أن حصلت على كتاب «حقيقة الشيوعية» من سلسلة «اخترنا لك» التي أصدرتها وزارة الإرشاد القومي المصرية، قرأت مقدمة الكتاب التي كتبها عبدالناصر مهاجما الشيوعية، تلك المقدمة صرفتني عن التفكير بالشيوعية وانحصر نشاطي وتوجهي السياسي في الناصرية».

«وفي العام ١٩٦٦ شكلت مع أخوين صديقين كانا أكبر مني سناً، أول تنظيم سياسي أتعامل معه، كان تحت المظلة الناصرية بريئا بسيطا وعادينا فيه الحزبية، سيراً على نهج عبدالناصر، ووفرنا الفرصة لزملائنا في المدرسة الثانوية كي يبتعدوا عن المسارات الحزبية، التي انتقدها عبدالناصر ورفضها، لكن المجموعة بقيت صغيرة إلى أن ذابت وانهارت في ظل التعقيدات، وإن كان الإخوة الذين شاركوا في تأسيسها اتجهوا نحو الاتجاه الإسلامي لاحقا»(٢).

المحطة الثانية: هزيمة ١٩٦٧ ـ شكلت هذه الهزيمة نقطة تحول كبرى في حياة الشهيد فتحي الشقاقي الذي لم يكن قد تجاوز بعد الستة عشر ربيعاً، حيث مثلت وفقا لقوله «مفصلا لشاب يطمح في التحرير والعودة إلى الوطن، كان مفاجئا لنا أن ينكسر زعيم كعبدالناصر، ذلك الانكسار الكبير، فأصبنا بعدم التوازن، وأذكر أننا أدمنا لاحقا مقالات الصحافي محمد حسنين هيكل، إذ أنها أعادت لنا بعض التوازن من خلال سماعنا لها في اذاعة «صوت العرب»، أعاد لنا هيكل التوازن بتفسيراته ومبرراته لأسباب الهزيمة في يوم الجمعة الذي يذيب القلق الموجود لدينا بقية أيام الأسبوع. غير أننا اقتنعنا أن ذهاب القلق غير مجد، فبدأ تحولي إلى طريق مختلف وهو المنحى الإسلامي»(٣).

أما لماذا لم يقتنع الشقاقي بالفكر الذي كان سائدا في تلك الفترة فيبرره هو قائلا:

«الفكر الذي قدم لي في تلك الفترة لم يكن مقنعا للشهور التي قضيتها متألما ومسحوقا، لم يقدم التفسير الفعلي لأسباب الهزيمة. بينما كان الفكر الإسلامي الذي جاء أكثر اقناعا بالنسبة إليَّ خاصة لأسئلة عميقة من قبيل:

ـ من نحن؟ لماذا نُهزم؟ ولماذا الآن؟ لماذا انتصرنا سابقا وخسرنا الآن؟(٤)

لم يستطع الفكر الناصري وقتها أن يقدم إجابات كافية عن تلك الأسئلة، وبالتالي بدأت الطمأنينة تأتى من الفكر الإسلامي الذي تعرف عليه الشقاقي بطريق المصادفة. ويؤكد الشقاقي أن كتاب الشيخ محمد الغزإلى (كيف نفهم الإسلام) كان هو السبب الأول في بداية تعرفه على رحابة المشروع الإسلامي، ويؤكد الشقاقي أيضاً أن كتاب (معالم في الطريق) كان له التأثير الأكبر في تحوله إلى المشروع والمنحى الإسلامي، إلا أن التحليل المنصف ـ فضلا عن رواية الشهيد ذاته ـ تؤكد أن ثمة مجموعة من المؤثرات دفعته نحو الإسلام بقوة منها وفقاً لروايته (البعد الديني في العائلة وفي الشخصية، وانكسار الأفكار التي كنت متمسكاً بها ومحاولة البحث عن حل والبحث عن إجابة. التعرف على كتابات إسلامية للغزالي وقطب وتعرفي إلى شخصيات إسلامية أيضا، فبدأنا مرحلة الدراسة المكثفة داخل الفكر الإسلامي. وشكل العام ١٩٦٨ بداية مرحلة الانتقال من التصورات الوطنية العلمانية إلى تصورات إسلامية جديدة ومختلفة [٥]».

أما كيف بدأ تبلور تلك الأفكار في تنظيم؟ فيقول الشقاقي «كانت لقاءاتنا شبه يومية في المجموعة الناصرية القديمة على خلفية الأفكار الرومانسية، لمناقشة الشأن الوطني العام، وعندما بدأت أتعرف إلى الكتب الإسلامية في النصف الأول من عام ١٩٦٨، شهد بيتي جدلا مهما مع أفراد المجموعة حول كيفية الخروج من الفكر الوطني إلى الإسلام، واستمر طويلاً ولم يحسم في ليلة وضحاها [٦]».

«كنا نناقش الأفكار بتفصيلية وبقوة ووضوح، وكل ماقرأنا أكثر عن الإسلام، يزداد نقدنا للأصول في مجموعتنا، إلى أن وصلت إلى قناعة تقتضي تغير المسلك، وأعلنت أمام الأخوة قناعتي التامة بالفكر الإسلامي، فمن أراد أن يتبعني فإننا سنبدأ من اليوم برنامجا جديدا في الدراسة والحياة.

الحلقة القديمة دخلت في إطار جديد، بعد اقتناعنا به، وانتقلنا إلى التفاصيل وكرسنا لقاءاتنا في بيتى «في غزة» نقرأ فصولاً من كتب لمناقشتها ونصلي معاً».

ويؤكد الشقاقي أنه في تلك المرحلة حاول أن يصنع من التجمع تنظيما، فتعرف على الشيخ أحمد ياسين «زعيم حماس السجين» وكان وقتها مدرسا ورجلا أقوى «جسديا» مما هو عليه الآن، والذي استطاع وقتها إعادة تأسيس حركة الإخوان في غزة، وبدأ الشقاقي يتبادل الزيارات معه، ويتعرف أكثر على فكر الإخوان المسلمين إلا أنه لم يندمج كلية معهم، وإن تأثر بهم.

المحطة الثالثة والهامة في حياة الشهيد المعلم، يمكن التأريخ لها بنفس العام ـ عام ١٩٦٨ ـ حيث التحق الشقاقي بجامعة بيرزيت للدراسة إثر منحة ألمانيا الغربية، وتعرف فيها على عالم جديد، وكانت الأفكار اليسارية على أشدها داخل الجامعة إلى حد يتخوف فيه المسلمون من إظهار إسلامهم.

يقول الشقاقي «كل ماكنت أقرأه وأدرسه وأناقشه في بيرزيت يتناول أفكاراً أكثر تعقيداً، مما جعلني أبحث عن إجابات لأسئلة أكثر تعقيدا، وأفادتني دراستى كثيرا في تعميق الأفكار، خلال وجودي سنتين في أجواء معادية للإسلام، ثم توجهت إلى القدس لأعمل مدرسا فيها (كان مدرساً لمادة الرياضيات)، لكن اللقاءات كانت محدودة، وإرسال الرسائل عبر الآخرين، و«تعاملت في القدس مع بعض الأطراف والقوى الوطنية، مع أن الحساسية كانت كبيرة بين الحركات، وشاركت في بعض النشاطات لدى مؤسسات وطنية ويسارية، ثم انتقلت إلى مصر العام ١٩٧٤»(٧).

وجدير بالذكر أن الشقاقي أثناء عمله بالتدريس درس الثانوية من جديد، وحصل على الشهادة الثانوية بتفوق أهله للحصول على منحة للدراسة بكلية الطب بجامعة الزقازيق.

المحطة الرابعة: وهي التي تبدأ بدخول الشهيد إلى مصر عام ١٩٧٤ وتمتد إلى رحيله عنها عام ١٩٨١، وهي في تقديرنا من أخصب وأخطر المحطات والمراحل السياسية والفكرية في حياة الشقاقي، وعلى كافة المستويات هكذا قال لنا في آخر أيامه، وهكذا أيضا تؤكد الوقائع والأحداث التي عاشها في تلك الفترة،

فلقد جاء الشقاقي ليدرس الطب بجامعة الزقازيق، فتخرج من الجامعة طبيبا للأطفال (استمر لمدة عام طبيب امتياز بمستشفي كفر صقر بمحافظة الشرقية)، وخرج من مصر بتنظيم للجهاد الإسلامي، وبعدة شهور من الاعتقال في سجن القلعة، وبتأثير بالغ على عقول الإسلاميين الشباب في مصر، الذين اغتالوا السادات فيما بعد، وبعشرات الدراسات والأبحاث والمقالات والأشعار (بأسماء مستعارة لعل أشهرها: عز الدين الفارس الذي كان يوقع به أبحاثه بمجلة المختار الإسلامي)

* لقد كانت (محطة مصر) في حياة الشقاقي أخصب المحطات وأبرزها.

* بدأ تأثير الشقاقي في هذه المرحلة واضحاً على الشباب الفلسطيني القادم للدراسة، (كان رفيقه في هذه المرحلة د. موسى أبومرزوق مسئول المكتب السياسي بحركة حماس والمعتقل حاليا بالولايات المتحدة الأمريكية) ود. إبراهيم مقاومة ـ والشيخ عبدالعزيز عودة، والدكتور رمضان عبدالله شلح الأمين الحالي لحركة الجهاد الإسلامي في فلسطين ورفيق درب الدكتور فتحي الشقاقي. ونافذ عزام القيادي الجهادي البارز بقطاع غزة.. وعشرات الشباب الذين أثر وتأثر بهم الشهيد، وكان للحوار الواسع والخلاف أيضا بين اتجاه (الجهاد الإسلامي) واتجاه (الإخوان المسلمين) سواء بين الفلسطينيين أو المصريين في تلك الفترة، بصماته الواضحة على فكر الشقاقي وفلسفته التي حسمت الأمر في النهاية (تحديداً عام ١٩٧٨) لصالح فكر الجهاد، والذي أدى إلى إنشاء (نواة تنظيم الجهاد الفلسطيني) عام ١٩٨٠، من داخل الشباب الفلسطيني الإسلامي بجامعة الزقازيق وجامعات مصر [حوإلى ٦٠ كادراً سياسياً منظماً]، وانتقلت هذه النواة إلى قلب فلسطين، لتشكل نقطة البداية لتنظيم الجهاد الإسلامي داخل فلسطين.

ومما يذكر في (مرحلة مصر) تلك قيام الدكتور فتحي الشقاقي بعمل مجلات حائط بجامعة الزقازيق، ردا على مجلات الحائط للشيوعيين الذين أصدروا مجلتهم بعنوان (الجياد)، فجاءت مجلة الشقاقي ورفاقه بعنوان (الفرسان)، ويذكر أيضا للشقاقي أنه أصدر في هذه الفترة وتحديدا يوم (١٦/ ٢/ ١٩٧٩) كتاب

(الخميني: الحل الإسلامي والبديل)، والذي يعد أول كتاب صدر باللغة العربية ـ في العالم أجمع ـ عن انتصار الثورة الإسلامية بإيران. ونفذت طبعته الأولى (عشرة آلاف نسخة) فور صدورها بأيام وسجن الشقاقي بسببه أربعة أيام، ثم أعيد اعتقاله في ٢٠/ ٧/ ١٩٧٩ بسجن القلعة ـ للشك في نشاطه السياسي الإسلامي ـ واستمر سجنه لمدة أربعة أشهر. وجدير بالذكر أن الذي حقق معه في هذه الفترة هو اللواء المعروف فؤاد علام ولكنه لم ينجح في الحصول على أي اعتراف من الشهيد وغادر مصر بطريقة درامية (مثل الأفلام يوم ١/ ١١/ ١٩٨١) لأنه كان مطلوباً للاعتقال بعد اغتيال السادات. وفي فلسطين بدأت مرحلة ومحطة جديدة وهامة في حياة الشهيد.

المحطة الخامسة: فور عودة الشقاقي إلى فلسطين، شرع في نشر خلايا تنظيم الجهاد الإسلامي في أنحاء فلسطين المحتلة، وتحديداً في غزة والضفة الغربية وفي تجنيد وتربية كوادر جديدة للحركة، وبدأ في بناء قوتها العسكرية والعقائدية بقوة وصلابة، ولفتت أنشطته انتباه سلطات الاحتلال الصهيوني، وكان وقتها يعمل في مستشفي فيكتوريا بالقدس، وتم سجنه عام ١٩٨٣ لمدة ١١ شهراً بتهمة تشكيل تنظيم للجهاد الإسلامي، وفي عام ١٩٨٦ حكم عليه بالسجن الفعلي لمدة ٤ سنوات، و٥ سنوات أخرى مع وقف التنفيذ بتهمة التحريض ضد الاحتلال الإسرائيلي، ونقل الأسلحة إلى القطاع والانتماء إلى حركة الجهاد الإسلامي، وقبيل انقضاء فترة سجنه، قامت السلطات الإسرائيلية بإبعاده من السجن مباشرة إلى خارج فلسطين المحتلة بتاريخ ١/ ٨/ ١٩٨٨ بجنوب لبنان.

وجدير بالذكر أن إسحق رابين وزير الدفاع في الكيان الصهيوني وقتها، هو الذي أصدر بنفسه هذا القرار، وفي تلك الفترة التي سجن فيها الشهيد (تحديدا في بدايتها بدأت أقوى العمليات المسلحة والنوعية الكبرى لحركة الجهاد الإسلامي، حيث كانت عملية (باب المغاربة) بتاريخ ١٥/ ١٠/ ١٩٨٦ والتي قام أعضاء الجهاد الإسلامي خلالها بإلقاء ثلاث قنابل يدوية على مجندين من لواء جيفعاتى

الإسرائيلي، أثناء احتفال بالقرب من حائط المبكى، حيث جرح حوالي ٧٠ من المجندين وقتل أب أحد المجندين، والشبان الثلاثة الذين قاموا بالعملية من تلاميذ (الشقاقي) وهم طارق الحليس وعبدالناصر الحليس وإبراهيم حسن عليان. وفي نفس الفترة التي سجن فيها الشقاقي، تم هروب ٦ من أعضاء الجهاد بنجاح من سجن غزة المركزي وتمت عملية عسكرية قتل فيها الكابتن رون تال قائد الشرطة العسكرية في قطاع غزة في ٢/ ٨/ ١٩٨٧، والمواجهة التي وقعت بين أربعة من أعضاء الجهاد مع قوات الأمن الإسرائيلية في حي الشجاعية بمدينة غزة في ٦/ ١٠/ ١٩٨٧، وأدت إلى مقتل ضابط أمن إسرائيلي بالاضافة إلى استشهاد أعضاء الجهاد الأربعة، فضلا عن عشرات العمليات الناجحة التي استهدفت العسكريين الصهاينة بالأساس، ومحاولة تفجير سيارة ملغومة في سبتمبر (أيلول) ١٩٨٧.

* كل هذه الأحداث، والقائد المعلم في سجون الاحتلال، الأمر الذي أكد أن بنية تنظيم الجهاد العسكرية والعقائدية كانت قد تأسست وبقوة، قبل دخول الشقاقي للسجن (عام ١٩٨٦) بل إن المحللين المحايدين يؤكدون أن الأعمال المسلحة لحركة الجهاد قبل اندلاع الانتفاضة الفلسطينية في ديسمبر ١٩٨٧، كانت السبب الرئيسي والمباشر في إشعال الانتفاضة؛ في تلك الأثناء أيضا تزوج الشهيد المعلم من الأخت المجاهدة (فتحية) وأنجب ثلاثة أبناء (كلهم ولدوا خارج فلسطين، وتحديدا في دمشق بعد ترحيله) والأبناء هم: خولة وإبراهيم وأسامة.

المحطة السادسة: وهي المحطة التي تلت ترحيل الشقاقي إلى جنوب لبنان. يوم ١/ ٨/ ١٩٨٨ وانتهت باستشهاده يوم ٢٦/ ١٠/ ١٩٩٥ أمام فندق الدبلوسى بحى سليمة بجزيرة مالطا، في الواحدة ظهر يوم الخميس، عندما كان عائدا إلى مقر إقامته المؤقت بدمشق من رحلته إلى ليبيا (استمرت تلك الرحلة أكثر من ١٥ يوما) وكانت بهدف الحوار مع القيادة الليبية بشأن قضية عودة الفلسطينيين إلى فلسطين.

تلك المحطة يمكننا أن نطلق عليها (مرحلة الغربة) ففيها تنقل الشهيد بين العديد

من العواصم العربية والإسلامية، وفيها نضجت حركته السياسية ورؤيته الحضارية أكثر، وتبلورت فيها القضايا وتحددت الخنادق، واشتد فيها ساعد حركة الجهاد الإسلامي، وتفجرت طاقاتها الفذة في قلب الكيان الصهيوني، وسقط عشرات القتلى من الصهاينة إثر العمليات الاستشهادية النوعية المتميزة لحركة الجهاد، وعبرت الحركة مسالك جديدة للفعل المسلح؛ وطعنت نظريات الأمن الصهيوني في قلبها (يقال أن عملية بيت ليد الاستشهادية والتي قتل فيها أكثر من ٢٠ عسكريا صهيونيا.. باتت تدرس في معاهد العدو العسكرية للتدليل على حجم الخطر الأصولي الذي تمثله حركة الجهاد على مستقبل الوجود الصهيوني بأكمله وعلى نظرية الأمن القومي الإسرائيلي) وفي مرحلة الغربة تلك فتح الشقاقي قلبه وعقله للقوى العربية والإسلامية المجاهدة، وجعل بوصلته الثابتة التي يقيس بها كل علاقاته وتحالفاته وصداقاته وعداواته [إن وجدت!!] هي القدس وفلسطين: من هنا تقارب وتقاطع سلوك وفكر الشقاقي مع إيران الثورة، والمقاومة الإسلامية في لبنان وحزب الله، وحركة حماس بعد أن حملت السلاح، وليبيا والسودان، ومع الملتقيات القومية والإسلامية واليسارية التي تستهدف عودة فلسطين، من البحر إلى النهر. وكان الشقاقي في كل تحركاته خلال هذه المرحلة مثالا للمجاهد الرسالي المخلص لقضيته، ولأمته، وكان دائما يردد أنه لايخشى الموت، (ونعم الحارس الأرجل) و(أنه قد عاش أكثر مما ينبغى) و(أنه يحب الموت كما يحب الصهاينة الحياة).

* تلك كانت ـ وبإيجاز ـ أبرز المحطات، في حياة الشهيد المعلم الدكتور فتحي الشقاقي، ومن المؤكد أنها لاتفي ولا تحيط بكل تفاصيل حياته الواسعة ـ رغم قصر عددها بالسنين التي تعد ـ وعذرنا أننا نقدم منها هنا مايخدم موضوع بحثنا، أما التفاصيل الدقيقة والهامة في آن؛ فإن لها مواضع أخرى نرجو من الله أن يوفقنا في القيام بها قريباً.

* * *

ثانيا: حركة الجهاد الإسلامي في فلسطين وفقاً لرؤيــة الشـهيـد: الجــــذور والآفـــاق:

أعطى الشهيد المعلم الدكتور فتحي الشقاقي، لحركة الجهاد الإسلامي في فلسطين كل عمره، وأفنى فيها أجمل لحظات حياته، لقد توحدت هذه الحركة.. فيه وصارت معه كيانا واحداً، من الأحاسيس والمعاني، والقيم، وحركة الجهاد على أيدى الشقاقي تحولت من مجرد (رقم فلسطيني) على طاولة الصراع الممتد مع الكيان الصهيوني إلى معنى ، وقيمة، وتيار واسع يجد فيه كل فلسطيني ـ أيا ما كان اتجاهه الفكري ـ بداخله، لقد وحدت الحركة بمثالية سلوكها وفكرها الذي أصله المجاهد الدكتور فتحي الشقاقي، كل المخلصين لفلسطين بداخلها؛ ولم يكن غريبا أن تجد من يتحدث عن حركة الجهاد، وهو من غير أعضائها بل من غير الفلسطينيين وكأنه أحد مؤسسيها المنبهرين بها، بفضل تأثير الشقاقي اللامحدود على كل من تعامل معه، وعندما سئل عن مبادىء الفكر السياسي لحركة الجهاد الإسلامي أجاب:

«في الأساس نحن حركة إسلامية، تقوم على أساس الشريعة الإسلامية والمبادىء المستمدة من القرآن الكريم، وسنة نبينا محمد ﷺ وتقوم على الاستفادة من الموروث الإسلامي، عبر اجتهادات الأئمة والعلماء الكبار في تاريخنا، فكل هذا نضعه كأساس نقيم عليه حركتنا في هذه المرحلة أو في هذا التوقيت من التاريخ، وحركة الجهاد كحركة تجديدية داخل هذا الفكر الإسلامي، بدأت تتساءل وتطرح إجابات حول: كيف يمكن أن يفهم الإسلام بعلومه وفقهه من خلال رؤية منهجية تستخدم الأدوات المعرفية والتاريخ»(٨).

من هنا يمكن القول أن حركة الجهاد كانت تحمل رؤية تجديدية داخل الفكر الإسلامي كما كانت تحمل رؤية تجديدية داخل الحركة الإسلامية وتدعوها لتجديد فكرها والخروج من جمودها التقليدي، والتعاطي مع هذا العالم على مستوى الشهادة التي أوكلها الله سبحانه وتعالى بالمسلمين، بأن جعلهم أمة وسطا ليكونوا

شهداء على الناس ونحن لانستطيع أن نكون شهداء على الناس إلا بالوعي والمعرفة لديننا أولا ولهؤلاء الناس ثانيا، وللعالم وللواقع ككل، ثالثا، وقد توصلت حركة الجهاد من خلال كل ذلك إلى خصوصية ومركزية القضية الفلسطينية، فكانت هذه أحد المرتكزات الرئيسية في فكر الجهاد يقول الشقاقي «نحن تقريبا أول من تكلم بشكل معلل ومفسر ومبرر عن مركزية القضية الفلسطينية، حددنا لماذا القضية الفلسطينية قضية مركزية وكتبنا في هذا المجال دراسات ومقالات عديدة، عدنا إلى القرآن وإلى التاريخ وإلى الواقع، لنبرهن على ذلك»(٩).

ومن هنا ـ والقول للشقاقي ـ «كان قيام حركة الجهاد الإسلامي إجابة على سؤال كيف تكون القضية الفلسطينية قضية مركزية، نحن حددنا في داخل فلسطين مسألة ضرورة إعلان الجهاد، ولذلك كان الإسرائيليون في وقت مبكر يسمون هذه الحركة بتيار «الجهاد الآن» كما يقولون بالعبرية «جهاد عكشاد»، يعني التيار الذي لايتردد في إعلان الجهاد والذي وجد في التأجيل والتردد خطأ شرعياً وموضوعياً لابد من تجاوزه بإعلان الجهاد، فقضية فلسطين مركز استقطاب الأمة ومركز لمشروع نهوضها. حيث أن المشروع المعادى الغربي الصهيوني وعلى مدى مائتي سنة كان يعمل ضد الوطن الإسلامي، وجاء وتمركز في داخل فلسطين وجعل من الكيان الصهيوني في فلسطين رأس حربة ضد كل المنطقة، وبالتالي في ردنا على هذا المشروع، يجب أن تكون فلسطين في قلب مشروع نهوضنا طالما أن فلسطين في مركز مشروعهم المعادي، يجب أن تكون فلسطين في مركز مشروعنا الإسلامي(١٠).

وفي دراسات ولقاءات عدة أكد الشقاقي على التأثير الفكري الكبير لمفكرين وقادة إسلاميين على رؤيته ورؤية حركته الجهادية يأتى في طليعتهم (جمال الدين الأفغاني ـ وعز الدين القسام ـ وسيد قطب والإمام الخميني) وسنفصل ذلك في مواضع أخرى، وبعودة إلى حركة الجهاد ومراحل تطورها ولمزيد من تفصيل أكثر، يؤكد (الشقاقي) في كتاباته العديدة أن حركة الجهاد الإسلامي في فلسطين حركة

إسلاميـة فلسطيـنية مقـاتلة تبلـورت تنظيمـياً في مطلـع الثمانـينات داخل فلـسطين المحتلـة، بعد أن كانت حـواراً فكرياً وسيـاسياً امتد منـذ منتصف الـسبعينـيات في أوساط بعض الطلبة الـفلسطينيين الدارسين وقتها في مـصر. وقد شمل هذا الحوار مسائـل منهجيـة تتعلق بـفهم الإسلام والعالـم والواقع وكيفـية رؤية وفهم الـتاريخ بشكل عام والتاريـخ الإسلامي بشكل خاص، كان الفهم المنهجـي للإسلام كعقيدة، وأصول دين وفقـه وشريعة، واستنـاداً إلى القرآن والسنـة هو نقطة البـدء. كما كان وعي الحركة المبكر بالتـاريخ وإحساسها العميق بهذه الموضوعية سـبيلا لرؤية العالم على حـقيقته مما سهل استيعـاب ووعي أداة التغيـير وصولاً إلى إدراك خصـوصية فلسطين في الإشكال الإسلامي المعاصر، واعتبارهـا بالتالي القضية المركزية للحركة الإسلاميـة والأمة الإسلامية. وقد اسـتند هذا الاعتـبار إلى فهم قرآنـي كان أوضح مايـكون في سـورة (الإسراء) كـما في مـواضع عديـدة أخرى مـن القرآن الـكريم والحديث النبوي الشريـف. كما ساهم الفهم المنهجي للتـاريخ والواقع في الوصول إلى هذه المقولـة (مركزية وخصوصية فلسـطين).. فحركة التاريخ المعاصـر تتجسد في التـحرك الاستعماري المـمتد إلى قرنين مـن الزمان ضد الوطن الإسـلامي. هذا التحرك الذي تمحور وتمركز أخيراً في فلسطين بعد أن أنجز مهماته في إسقاط النظام السياسي الإسلامي وإنشـاء الدولة القطرية وتكريس التغريب كنـمط ثقافي وحياتي في العديد من المجتمعات الإسلامية من مصر إلى إيران إلى تركيا. كما يؤكد الواقع أن ذروة الشر والاستقطاب الاستعماري الشيطـاني تتجسد على أرض فلسطين عبر الكيان الصهيوني المتحالف مع الغرب الاستعماري.

مع نهـاية السبـعينيات ـ والـقول للشـقاقي ـ «كان الحوار الـفكري والسـياسي ـ المشار إليه ـ في أوسـاط بعض الشباب الفلسطـيني المسلم المثقف أثنـاء دراستهم في مصر يتحول إلى مناخ سياسي تنبثق عنه نـواة تنظيمية، اندفعت لاحقاً باتجاه فلسطين المحتلـة لأجل بناء الحركة الإسـلامية الثورية المحـاطة بالجماهيـر الواعية المتحـمسة لتحرير الذات والـوطن تحت راية الإسـلام. كان الهدف تحـقيق الفـريضة الغـائبة

بحل الإشكالية التي كانت قائمة وقتها حيث وطنيون بلا إسلام وإسلاميون بلا فلسطين. فالحركة الوطنية الفلسطينية استثنت الإسلام كأيديولوجية وغيبته عن برامجها أما الحركة الإسلامية التقليدية فلأسباب عديدة موضوعية وذاتية كانت تؤجل الإجابة عن السؤال الفلسطيني وتؤجل الجهاد في فلسطين فجاءت حركة الجهاد الإسلامي في فلسطين لتجيب على السؤال الفلسطيني إسلاميا ورفعت شعارات: الإسلام والجهاد وفلسطين، الإسلام كمنطلق والجهاد كوسيلة وفلسطين كهدف للتحرير»[١١].

وقد مرت حركة الجهاد الإسلامي منذ انطلاقتها حتى الآن بثلاث مراحل أساسية، شملت الأولى العمل الجماهيرى والسياسي والإعلامي والتعبوي كما شهدت الثانية الجهاد والقتال المسلح ضد العدو. ومن ٦/ ١٠/ ١٩٨٧ دخلت الحركة مرحلتها الثالثة بانطلاقة الانتفاضة الشعبية في فلسطين ويفصل الشقاقي في إحدى دراسته [١٢] هذه المراحل على النحو التالي:

المرحلة الأولى: وهي التي تلت عودة واستقرار النواة الأولى التي تم تشكيلها أثناء الدراسة في مصر، أي عودتها واستقرارها في داخل فلسطين. وقد شهدت هذه المرحلة عملاً جماهيرياً وسياسياً وإعلامياً وتعبوياً كانت الأرض الفلسطينية متعطشة إليه، فها هي تشهد خطاباً إسلامياً ثوريا وجهاديا يمهد الطريق لتحقيق الفريضة الغائبة وطالما اشتاقت إليه الجماهير الفلسطينية المؤمنة.

في تلك المرحلة برز الدور الطلابي للحركة في كافة جامعات ومعاهد الضفة والقطاع. وفي نهاية عام ١٩٨١ تم تشكيل كتلة (الإسلاميين المستقلين) الطلابية في الجامعة الإسلامية بغزة كممثلة لحركة الجهاد الإسلامي. وقد حققت نتائج إيجابية في أول انتخابات جرت في كانون ثاني (يناير) ١٩٨٢، رغم مُضي فترة قصيرة على تواجد الحركة.

وسرعان ما انتشرت الفكرة في أغلب المخيمات الفلسطينية، وكافة المدن وعدد كبير من القرى، وتمركز أنصار الحركة ـ إضافة إلى الجامعات ـ في العديد من

المساجد، ومنذ مطلع ١٩٨٢ بدأت الحركة في إصدار مجلة (النور) في مدينة القدس وهي مجلة تابعة لجمعية الشباب المسلمين في القدس، كانت قد توقفت لأكثر من عام عندما اتفق بعض الأخوة في حركة الجهاد مع إدارة الجمعية سراً على إصدار المجلة. وفعلاً استمرت المجلة في الصدور بشكل متقطع حتى نهاية ١٩٨٢م كانت تعبر عن الموقف الحركي الأيديولوجي والسياسي للحركة. ومع نهاية ١٩٨١م بدأت تصدر في بريطانيا مجلة (الطليعة الإسلامية) معبرة عن نفس الخط الأيديولوجي والسياسي. وخلال أيام قليلة من صدورها في لندن، كان يُعاد طباعتها سراً في القدس لتوزع في جميع أنحاء فلسطين، تاركة آثاراً مهمة على الشارع الفلسطيني، مما دفع السلطات الصهيونية إلى البحث عن كيفية طباعتها وتوزيعها. فقامت تلك السلطات بحملة اعتقالات في شهري أغسطس وسبتمبر ١٩٨٣ شملت العشرات من أبناء الحركة كان من بينهم الدكتور فتحي الشقاقي. وقد استمر التحقيق معهم لخمسة شهور كاملة في أسوأ ظروف التعذيب وسميت تلك القضية بقضية (الطليعة الإسلامية) وتحولت مطبوعاتها إلى واحدة من أهم القضايا السياسية والأمنية في تلك الفترة. وتحول التحقيق على مدى الشهور الخمسة من قضية مطبوعات، وتحريض على الثورة والجهاد إلى البحث عن هياكل تنظيمية سياسية وأمنية، وكذلك البحث عن سلاح وخلايا عسكرية.

وتعتبر هذه المجموعة الإسلامية التي ضمت العشرات من أبناء حركة الجهاد الإسلامي أول تنظيم إسلامي يتم اعتقاله منذ الاحتلال الصهيوني للضفة الغربية وقطاع غزة عام ١٩٦٧. فالموقف الإسلامي التقليدي كان حتى ذلك التاريخ ١٩٨٣ يتجنب الصدام السياسي أو الأمني المباشر مع سلطات الاحتلال!!

في تلك السنوات شهدت ليالي القدر في المسجد الأقصى المبارك، تجمعات وتظاهرات حاشدة برعاية حركة الجهاد الإسلامي كما أخرجت الحركة الجماهير الفلسطينية في العديد من المناطق لصلاة العيد في العراء تعبيراً عن التحدي للاحتلال.

وهكـذا تعاظم دور الحـركة في تلـك المرحلة، عـلى الجانب الـتعبوي الـدعويِ، والسيـاسي والإعلامي عبر دورهـا في الجامعات والمـساجد، في كافة المـدن والقرى والمخيمات.

المرحلة الثانية (الجهاد المسلح): يقول الشـقاقي عن هذه المرحـلة، منذ البداية كان الجهاد المسلح ضد العدو الصهيوني، هو المبرر الأساسي لنهوض حركة الجهـاد الإسلامي، ورغم أهـمية الإسـهامات الفـكرية التـي قدمتـها الحركة، يـقول الشقاقـي عن هذه المرحلة والخط السـياسي الإسلامي المتمـيز إلا أن هذا الأمر ـ أي الجهاد المسلح ـ بقي الأهم بـالنسبة لحركة إسلامية فلسطينية نهـضت لتشكيل إضافة حقـيقيـة جديدة، ولـتحل الإشـكاليـة التي كـانت قائـمة بين وطـنيين بـلا إسلام!! وإسلاميين بلا فلسطين!!

ولذا فمع الأسابيع الأولى لحضور الحركة داخـل فلسطين، ومنذ بدايات المرحلة الأولى كان يـتم ـ وفي ظل أعلـى درجات السرية ـ تـنظـيم خلايا عـسكرية مسـلحة تابـعة للـحركة، فالـفصل بـين المرحلـتين لم يـكن فصـلاً آليا ومع انـطلاقة الجـهاد الإسلامي، فقد كان العمل السياسي والتعبوي والجماهيري يتعاظم بالطبع.

في صيف عام ١٩٨١ تـم تنظيم أول خلـية مسلحة. ولكن خلال الأعوام ١٩٨٣/ ١٩٨٤/ ١٩٨٥ كان الـعمل المسـلح يبدأ تـدريجيا وبـطيئا فـي سرية تامـة ورغـم أن العدو في حملة اعتقالات عام ١٩٨٣ ـ قضية الطليعة الإسلامية ـ كان يثير بقوة أثناء التـحقيق مـوضوع الخلايا الـعسكريـة المسلحـة ووجود سلاح لدى الحـركة، إلا أن التحقيق فشل فشلاً تاماً في التقدم بهذا الاتجاه.

في ٢/ ٣/ ١٩٨٦ قبض العدو علـى الدكتور فتحي الشقاقي للـمرة الثانية وذلك بعد إسبوعين على آخر عملية عسكرية نـفذتها الحركة في ساحة فلسطين بمدينة غزة في ١٨/ ٢/ ١٩٨٦، كانت هجومـاً بالقنابل على تجمع لـلجنود الصهاينة، أثنـاء تغيير (تبـديل) الدورية، الـتي كانـت ترابط في نـفس المكان الـذي استشـهد فيه مـواطن

فلسطيني قبل يوم واحد من هذه العملية على يد الجنود الصهاينة، وقد اعتبرت الجماهير أن هذه العملية البطولية الجريئة، جاءت رداً على استشهاد الشاب العكلوك في ساحة فلسطين بمدينة غزة، وقد سبق اعتقال الدكتور الشقاقي ورافقه الكشف عن ثماني عمليات عسكرية نفذتها الحركة وكانت آخر عملية في ساحة فلسطين في ١٨/ ٢/ ١٩٩٦.

عام ١٩٨٦ / ١٩٨٧ كان عام الإسلام المجاهد في فلسطين.. ففي الوقت الذي كان فيه العمل الوطني الفلسطيني (قبل الانتفاضة) يدخل عنق الزجاجة، ويعاني من إحباطات متعددة كانت حركة الجهاد الإسلامي تقود الجهاد المسلح وتنفذ أهم العمليات العسكرية.

وتوالت العمليات.. بدءا من عملية البراق ٦/ ١٠/ ١٩٨٦ (سرايا الجهاد الإسلامي) إلى عملية الشجاعية ٦/ ١/ ١٩٨٧، ومرورا بعمليات الطعن بالسكاكين، وعملية الهروب الكبير من سجن غزة المركزي ـ التي قادها المجاهد مصباح الصوري والمجاهد محمد سعيد الجمل، وضمت ستة من مجاهدي الحركة ـ وعملية قتل الكولونيل رون طال قائد الشرطة العسكرية في قطاع غزة في ٢/ ٨/ ١٩٨٧، والتي وصفها إسحق رابين وزير الحرب آنذاك (بأنها عملية استثنائية وسيكون الرد عليها استثنائيا) وغير ذلك من العمليات البطولية التي توجها أبطال الشجاعية البواسل محمد الجمل، سامي الشيخ خليل، زهدى (فايز) الغرابلي، أحمد حلس بعمليتهم البطولية واستشهادهم الفذ وكان قد سبقهم مصباح الصوري شهيداً قبل ذلك بأيام.

لقد كان أبطال الشجاعية هم الذين قادوا الهروب الكبير من سجن غزة المركزي في ٥/ ٧/ ١٩٨٧، وهو السجن الذي يعتبر من أهم سجون الوطن المحتل وقلعة لكل من الجيش والشرطة والمخابرات الصهيونية. ولذا كان هروب ستة مجاهدين من هذا السجن ـ القلعة ـ ضربا من ضروب المعجزة، ورغم محاولات العدو المستميتة للبحث عنهم إلا أنهم ضربوا جذورهم في أعماق الشعب الذي

احتضنهم لخمس شهور كاملة، وهم ينفذون أخطر العمليات العسكرية على أبواب الشجاعـية: وكانت الملحمـة:الشبان المؤمنـون الأطهار، وحفظة القـرآن والذين كان الناس يتسابقون للصلاة من ورائهم، التقوا وجهاً لوجه مع العدو الصهيوني، رفعوا سلاحهـم، وبنادقهم، وحـدقوا في عين عدوهـم، وأطلقوا الـنار، فكان دمهـم إيذاناً بدخول الشعب مرحلة جديدة. ودخول حـركة الجهاد الإسلامي مرحلة جديدة هي الانتفاضة.

المرحلة الثالثة: الانتـفاضـة: ويؤرخ الـشقـاقي لبـداية هـذه المرحـلة بـيوم ٦/ ١٠/ ١٩٨٧ ويقول عنها لقد كان دم أبطال الجهاد الإسلامي المسفوح على أبواب مدينة غزة في ذلـك اليوم هو رسالة البرق التي فـجرت المكنون الفلسطيـني العظيم وكانت الشرارة التي أشعـلت سنوات الاحتلال بقهرها وسواد لياليـها، كما أطلقت خبرات النضال الفلسطينية التي تراكمت على مدى سبعين عاماً.

كانت خيبة الأمل الفلسطينية في الـواقع العربي الرسمي تلك الأيام تأخذ مداها، وكان الإسلام يـرتفع عنواناً لـلمرحلة، ويـتجذر عميـقا في وجدان الشعـب ويعود ليقود مسيرة الجهاد من جديد.

وبكل تواضع يقول الشقاقي إن حركة الجهاد الإسلامي لم تصنع الانتفاضة، لأن الانتفاضـة أكبر من كل الهـيئات والأحزاب والمنظـمات والفصائل. وهـي أيضاً لم تحدد ساعة الصفر فـي انطلاقها، لأنه لايمكن لأحد أن يحدد ساعـة انطلاق المعجزة ولكـننا نؤكـد أن الخروج الجمـاهيرى الحاشـد إلى الشوارع كـان حلمـنا منذ الـيوم الأول. وعندما نـادت الحركة لتفعـيل الشعائر الديـنية، ودعت إلى صلاة الـعيد في العراء. واحتفـالات ليلة القدر في المسجـد الأقصى، كانت تحلم بأن تـرى الجماهير تخرج إلى الشوارع حاشدة لتبدأ مسيرة الجهاد.

ولذا فمنذ السادس من تشرين، واكبت حـركة الجهاد الإسلامي الانتفاضة ساعة بساعـة ويوماً بيـوم، وأصدرت البيانـات والمنشورات، داعيـة الجماهيـر إلى الخروج

والمقاومة والجهاد على درب شهداء الشجاعية. وجاء يوم ٨ و ٩/ ١٢/ ١٩٨٧ ليكونا يومي تصعيد شامل، تصميم وصلت فيه الانتفاضة إلى كل مدينة وقرية ومخيم في الضفة الغربية وقطاع غزة. ومن يعود إلى الأدبيات الفلسطينية والعربية مابين ٦/ ١٠/ ١٩٨٧ إلى ٩/ ١٢/ ١٩٨٧، سيجد أن الحديث كان يدور عن انتفاضة الشعب الفلسطيني في الوطن المحتل. لقد جاءت حادثة المقطورة قرب جباليا في ٨/ ١٢/ ١٩٨٧ فرصة لتنقل التوتر والمصادمات في القطاع وبعض أنحاء الضفة ليشمل كل مكان، وحادث المقطورة جاء علي خلفية مقتل مستوطن صهيوني في قطاع غزة على يد مجاهدي الجهاد الإسلامي. وقد جاء تصريح لاسحق مردخاي في ديسمبر (كانون أول) ١٩٨٧ يعزى أعمال الانتفاضة وتصاعدها إلى حادثة المقطورة. وكذلك إلى قرار إبعاد الشيخ عبدالعزيز عودة، الذي كان صدر في ١٧/ ١١/ ١٩٨٧ م.

لقد تحملت حركة الجهاد الإسلامي مع الجماهير عبء التصدي للاحتلال خلال الأسابيع الأولى من الانتفاضة، حتى نهضت بقية القوى الإسلامية والوطنية لتشمل الانتفاضة كافة القوى والفئات والطبقات. ولقد دفعت الحركة ثمن ذلك غالياً، عندما اعتقل أهم كوادرها مبكراً وأبعد بعض قيادييها، ومورس ضدها أشد أنواع البطش وتعرضت لحملات من التجاهل والتعتيم.

ولكن هذا لم يزد حركة الجهاد الإسلامي إلا قوة، وقد استعصت على الاجتثاث حسب تعبير المفكر الصهيوني ميخائيل سيلغ: (إنها الحركة التي ما إن تجتثها في مكان، حتى تنمو في مكان آخر).

ويقول الشقاقي قبل استشهاده بأيام لقد استمرت مشاركة الجهاد الإسلامي بفعالية خلال سنوات الانتفاضة وحتى اليوم ومازالت مصممة ـ إن شاء الله ـ على تصعيد الانتفاضة والسير على طريق الجهاد مادام الاحتلال قائما. إن مشاركة الجهاد الإسلامي في الانتفاضة لم يكن على حساب العمل على صعيد التحرك السياسي

والتعبئة الجماهيرية أو الجهاد المسلح الذي استمر رغم كل الدعوات لوقف الجهاد المسلح ضد العدو.

* * *

ولقد طرح على الشهيد فتحي الشقاقي العديد من الأسئلة، عن طبيعة علاقات حركة الجهاد بالفصائل الفلسطينية الأخرى، وتحديداً بمنظمة التحرير الفلسطينية، فكانت إجابته ورؤيته عميقة ومعبرة، حين أكد أن منظمة التحرير ولدت على يد النظام العربي الرسمى، ممثلاً بقرار القمة العربية (رقم ١/ ١٩٦٤) وبمسعى ناصرى إلا أنها جاءت أيضا تحت ضغط فلسطيني بحثاً عن التمثيل وإبراز الهوية الوطنية.

عُقد المجلس الوطني الفلسطيني الأول في القدس (٢٨/ ٥/ ١٩٦٤) حيث تم الإعلان عن تأسيس المنظمة وإقرار ميثاقها القومي الفلسطيني. وفي عام ١٩٦٦ تمت إزاحة السيد أحمد الشقيري عن قيادة المنظمة، وتولت الفصائل الفلسطينية المقاتلة (بزعامة فتح) ـ والتي برز دورها بعد نكبة ١٩٦٧ ـ قيادة المنظمة. وتم تحديد المرحلة الحالية من نضال الشعب الفلسطيني بأنها مرحلة كفاح وطني. كما تم التأكيد على ماسمى بالشرعية الثورية، وتمثيل المنظمة لقوة الثورة الفلسطينية. كما تم التأكيد بشكل قاطع على رفض كل مشاريع التسوية للقضية الفلسطينية.

أعطت تلك الأيام للفلسطينيين شعوراً قويا بالذات، والهوية الوطنية ولكن شيئا فشيئا بدأ المشروع الوطني الفلسطيني (المنظمة) يغادر منطلقاته الأساسية، حتى وصل في أقل من ربع قرن إلى الإقرار بشرعية العدو الصهيوني على ٨٠٪ من أرض فلسطين واستعد لقبول نوع من الحكم الذاتي على الخمس الباقي من الأرض، إضافة إلى هذا التراجع السياسي الكبير فقد سادت فوضى الأيديولوجيا صفوف المنظمة قبل أن تخسر الأيديولوجيا تماماً في السنوات الأخيرة. أما الفساد الإداري والفشل التنظيمى فهو الأمر الذي لاينكره فصيل واحد من منظمة التحرير.

في ظل هذه الأزمة الخانقة كان لابد من البحث عن مخرج أو بديل! هكذا فكر الشقاقي ورفاقه وفي الواقع فإنه لايوجد في أدبيات حركة الجهاد الإسلامي في فلسطين مايشير إلى أنها طرحت نفسها بديلاً عن منظمة التحرير الفلسطينية. ولا يوجد في أدبياتها معارضة واضحة لإمكانية اعتبار المنظمة إطاراً جامعاً لقوى شعبنا السياسية.

ولكن الحركة كانت هكذا يقول فتحي الشقاقي تعتبر أنه من حقها وواجبها طرح أيديولوجيا باعثة مقاتلة، مقابل فوضى الأيديولوجيا وتغريبها ثم انسحابها. ورأت حركة الجهاد أن هذه الأيديولوجيا الحية الباعثة هي الإسلام عقيدة الأمة ومحور تاريخها وتراثها، الإسلام الذي استثنته فصائل المنظمة بعمومها، ومنها من حاربه بلا هوادة في مرحلة ما إن لم يكن في كل وقت.

كما اعتبرت حركة الجهاد الإسلامي أن فلسطين ـ كل فلسطين ـ قاسم مشترك يجمع كافة القوى السياسية المناضلة لأجل تحريرها، وأكدت على إمكانية التعاون بين هذه القوى بغض النظر عن مسألة الأيديولوجيا، ورغم أهمية هذه المسألة. إن أهمية وخطورة وقداسة القضية الفلسطينية في حد ذاتها، وإن وحدة الجامع الحضاري لكافة القوى السياسية الفلسطينية بغض النظر عن تفصيلات، أو اجتهادات أيديولوجية إن كل هذا يسمح بل يستدعي ويؤكد على ضرورة لقاء كافة القوى الفلسطينية في مواجهة العدو الصهيوني، ولأجل تحرير كامل فلسطين بالجهاد المسلح.

ومن هنا لم ينصب خلاف الجهاد الإسلامي مع المنظمة كما يقول الشقاقي على كونها إطاراً جامعاً لقوى الشعب الفلسطيني السياسية أم لا، ولكنه أنصب على المحتوى والمضمون فقوة ومصداقية وشرعية م. ت. ف كإطار سياسي أو تنظيمي جامع لا يتأتى من عدد سفاراتها أو من أجل تواجدها في المحافل الدبلوماسية بل يمكن أن يأتي فقط من تصعيد الكفاح المسلح واستنفار الأمة وتجسيد وحدتها وتعبئة

طاقاتها وقواها المجاهدة كشرط لازم؛ لكسر وتجاوز توازن القوى الظالم، والمستند على التجزئة والهيمنة الاستعمارية، وصولاً إلى إعادة بناء توازن قوى في صالح قضيتنا العادلة والذي هو أيضا شرط لازم لأى إنجاز على المستوى الدولي.

إن حركة الجهاد الإسلامي ترى أن الخطر الأكبر على شعبنا وقضيته يكمن في تمزيق برنامج وتوجهات نضالنا وجهادنا قبل أن يكون في هيكلية م. ت. ف وفي ضعف بنيانها.

إن وحدة الخط النضالي وصلابته أسبق من وحدة الإطار. فما فائدة أن نطلب من جميع القوى السياسية الفلسطينية الالتزام في إطار منظمة التحرير إذا كان برنامج منظمة التحرير يعلن، ويكرس التفريط بحق شعبنا في وطنه وبحقه في الجهاد والكفاح المسلح لأجل تحريره.

ومن هنا ترفض حركة الجهاد الإسلامي وفقاً للشقاقي المساومة على عدد من المقاعد في المجلس الوطني الفلسطيني أو على ضمانات تنظيمية أو إدارية لأن المسألة الأهم والأولى تكمن في صلابة الخط الجهادي وبرنامج النضال.

إن رفض الاعتراف بشرعية العدو الصهيوني على أي شبر من فلسطين واعتبار الكفاح والجهاد المسلح طريقا لتحرير فلسطين وعدم التنازل عن الميثاق الوطني الذي أكد على حق الشعب الفلسطيني في كامل وطنه، وإعادة الاعتبار للإسلام كإطار لصراعنا الحضاري ضد الهجمة الصهيونية، هي الشروط التي تراها حركة الجهاد الإسلامي ضرورية للتعاون مع كافة القوى الفلسطينية ضمن إطار جامع كمنظمة التحرير هكذا أكد فتحي الشقاقي ولكنه أضاف وبذكاء ووعي تاريخي متميز ولكننا نود أن نؤكد أن خلافنا الأيديولوجي والسياسي مع أي طرف أو جزء من أجزاء شعبنا الفلسطيني لايمكن حسمه إلا بالحوار الفكري والسياسي، بعيدا عن العنف، فالعنف فقط ضد العدو الصهيوني.

* * *

ثالثا: محورية القضية الفلسطينية في فكر الشقاقي:

تعد [فلسطين] لدى الشهيد الدكتور فتحي الشقاقي هي جوهر الصراع في كل قضايا الأمة، وهي ملخص ماضيها ومستقبلها، وهي وحدة القياس الأولى - بل والوحيدة - التي على معاييرها يتم الحكم والاحتكام في العداوة والصداقة في الإيمان والكفر، في الثورة والمهادنة، فالقضية الفلسطينية عند الشقاقي هي (القضية المركزية) أو ينبغي أن تكون كذلك - عند كل المخلصين من إسلاميين وقوميين ويساريين داخل الأمة العربية والإسلامية. ووفقا للشقاقي فإن القضية الفلسطينية آلت إلى وضعها الراهن بسبب دور «القيادات اللاإسلامية التي تعاقبت على التصدي الانتهازي لقيادة حركة الجماهير أو التي تسلمت السلطة طوال الفترة التالية لهزيمة الدولة الإسلامية في مطلع هذا القرن. ويرى أن الحركة الصهيونية بدأت «كجزء أصيل من تلك الهجمة» الغريبة على الأمة، إن فشل القيادات اللاإسلامية، ومن وجهة نظر الشقاقي قد تكرر في الأعوام ١٩٤٨ و ١٩٦٧ وفي عجز هذه القيادات عن مواصلة الصراع وفهمه فهما صحيحا. ويعكس هذا الفشل اليوم ممارسات «من يدعون قيادات الفلسطينيين بكل انتماءاتهم» وما يطرحونه من مشاريع لحل القضية الفلسطينية.

* * *

وتلخص دراسة مبكرة للشقاقي نشرت عام ١٩٨٠ في مجلة المختار الإسلامي في القاهرة وجهة نظره فيما حدث عام ١٩٦٧ على النحو التالي[١٣]: «على الجانب اليهودي يقف الإنسان ذو الانتماء العقائدي التاريخي البعيد وتقف حربه من أجل الأرض - أرض فلسطين - جزءا من ذلك الانتماء، كما يقف الإنسان اليهودي في إسرائيل جزءا لايتجزء من الحضارة المادية الحديثة - بل هو جوهرها الحقيقي - يمتلك أدواتها ومنهجها وقيمها ووسائلها ودعمها الكامل.. وعلى الجانب الآخر كان يقف إنسان الوطن الإسلامي الذي حاولوا أن يضعوا على وجهه قناع الحضارة

الغربية، فلم يستطيعوا ضبط مفاصل القناع على الملامح الأصلية، فلا خرجت الأمة للمعركة بأدوات الحضارة الغربية، ومنهجها ووسائلها ولا هي خرجت بتراثها وملامحها ونهجها الحقيقي الأصيل..باختصار، وقف إنسان عقائدي ينتمي لرؤية عمرها آلاف السنين يقدس الأرض التي يحارب من أجلها، ويمتلك أدوات ودعم الحضارة المادية الحديثة في مواجهة إنسان غير عقائدي، لا يعرف أي قيمة للأرض التي يقاتل من أجلها، ولا يمتلك عقلا حضاريا سويا.. فلمن يكون النصر، ولمن تكون الهزيمة؟».

ويؤمن الشهيد فتحي الشقاقي بالكفاح، كاستراتيجية للعمل السياسي، إن الأمر الهام الذي سلط الأضواء على حركة الجهاد الإسلامي، كما يقول د. زياد أبو عمرو في كتابه [الحركة الإسلامية في الضفة الغربية وقطاع غزة] (١٤) هو ممارستها للكفاح المسلح في مواجهة الاحتلال الإسرائيلي. وتختلف الجهاد في هذا المضمار عن بقية الفصائل التي تمارس الكفاح المسلح، من حيث الجدية والنجاح.

* ومن وجهة نظر الشهيد الدكتو فتحي الشقاقي (١٥)، فإن مسار التسوية الراهن، كان نتيجة لمسار طويل من الابتعاد عن محورية القضية وطبيعتها، فوفقا له فإن ظهور منظمة التحرير الفلسطينية في منتصف الستينيات ثم سيطرة المقاومة الفلسطينية عليها في العام ١٩٦٨ كان نقطة تحول مهمة في مسيرة الشعب الفلسطيني ، والذي حاول لأول مرة منذ العام ١٩٤٨ أن يمسك قضيته بيده بعيدا عن هيمنة وشروط النظام العربي. في البداية، كان واضحا أن النظام العربي وبعد هزيمة ١٩٦٧ قد تخلى عن فكرة تحرير كامل فلسطين، واعتبر دوره في حرب تشرين أول (أكتوبر) ١٩٧٣ هي أقصى الجهد الذي يمكن تقديمه في مثل هذه المرحلة التاريخية.

وقد وضعت نهاية حرب ١٩٧٣ م. ت. ف أمام خيار، وهو أن تسعى ضمن إطار الشروط الدولية لتمثيل الفلسطينيين في تحرك السلام الذي بدأ الحديث عنه في ذلك الحين وعبر عنه في حينها مؤتمر جنيف، أو أن تترك ذلك للأردن وقد حسمت

م. ت. ف الأمر بتوجهها الاستراتيجي الجديد الذي أعلنه المجلس الوطني الثاني عشر الذي عقد بالقاهرة ١٩٧٤ وأقر البرنامج السياسي المرحلي ذا النقاط العشر. لقد افتتح هذا البرنامج مسلسل التنازلات حين ترك هامشا مفتوحا لتسوية جزئية وهو يشير إلى (أن م. ت. ف ستناضل بكافة الوسائل وعلى رأسها الكفاح المسلح لتحرير الأرض الفلسطينية وإقامة سلطة الشعب الوطنية المستقلة المقاتلة على كل جزء من الأرض الفلسطينية التي يتم تحريرها وهذا يستدعي إحداث المزيد من التغيير في ميزان القوى لصالح شعبنا ونضاله).. وبعيدا عن البلاغة والصياغة فقد شكل هذا النص حجر الزاوية في التحرك السياسي الفلسطيني حتى قرارات المجلس الوطني الذي عقد بالجزائر في تشرين ثاني ١٩٨٨.

وقد تمت مكافأة م. ت. ف على موقفها ذلك عربيا ودوليا، إذ تم الاعتراف عربيا بـ م. ت. ف ممثلا شرعيا وحيدا للشعب الفلسطيني ودوليا بدعوة المنظمة - بصفتها ممثلة للشعب الفلسطيني - لحضور مداولات الأمم المتحدة بصفة مراقب

في مطلع الثمانينيات.. ثم عربيا بإقرار مشروع فهد الذي عرف لاحقا بقرار قمة فاس (فاس الثانية) وخاصة بعد الاجتياح الإسرائيلي لبيروت وخروج المقاومة الفلسطينيةمنها. كان هذا القرار يشكل أول اعتراف عربي جماعي ورسمي بدولة الكيان الصهيوني ولو بشكل ضمني وهو يؤكد على حق دول المنطقة في العيش بسلام. وفي الدورة السادسة عشرة التي عقدها المجلس الوطني الفلسطيني بالجزائر في شباط (فبراير) ١٩٨٣، ثم الإقرار فلسطينيا بقرارات قمة فاس، وفي عام ١٩٨٥ تم توقيع اتفاق عمان الذي يجعل الأردن شريكا في التحرك السياسي الذي يخص الفلسطينيين، ويخص الضفة الغربية وقطاع غزة.. ولكن سرعان ما ألغى هذا الاتفاق تحت ضغوط عدة منها ضغط فصائل معارضة، وكذلك إصرار المنظمة على دورها المرفوض (كان ولا يزال) أمريكيا وإسرائيليا.

وهكذا ووفقا للشقاقي ما إن جاءت الانتفاضة حتى كانت م. ت. ف والمشروع الوطني الفلسطيني في وضع لايحسد عليه، فالمشروع الوطني الفلسطيني يفتقد

الأرض التي يقف عليها في حين تستمر المنظمة كمؤسسة عربية رسمية تقع فريسة المحاور العربية وتلعب لعبتها وذلك في نفس الوقت الذي يسترد فيه النظام العربي زمام المبادرة ولقد أصبح واضحا أن م. ت. ف بحاجة إلى دعم عربي رسمي وأنها لاتستطيع الاستمرار بغير ذلك. إن الموقف يستدعي الأزمة حقا والمشروع الوطني الفلسطيني بعد أن اجتاز أكثر من نصف الطريق: طريق الاتجاه الواحد، العمل الدبلوماسي والتنازلات السياسية المجانية، هذا المشروع يعيش تناقضا استراتيجيا مع الطرف الذي يفترض أن يكون سنده الاستراتيجي.

شكلت الانتفاضة مخرجا حيويا لـ م. ت. ف وللمشروع الوطني ككل، فقد عادت فلسطين إلى قلب الاهتمامات العربية، والقول للشقاقي، وفتحت إمكانات جديدة للمنظمة بعد أن تيقن الأردن من صعوبة بناء دور مستقل، وسارع إلى فك الارتباط الإدارى والقانوني مع الضفة الغربية، وتحركت الولايات المتحدة ـ عبر رحلات وزير خارجيتها حينها جورج شولتز ـ باتجاه تسوية في المنطقة.. ولكن الانتفاضة جاءت معها بتحديات غير مسبوقة للقيادة الفلسطينية منها بروز إسلامي مهم في الضفة الغربية وقطاع غزة وانتقال مركز الثقل من الخارج إلى الداخل الفلسطيني وقد كان هذا مستمرا ببطء منذ الخروج الفلسطيني من بيروت في العام ١٩٨٢ ولكن تكرس بفعل الانتفاضة.

لم تتصور قيادة م. ت. ف عندما قامت الانتفاضة طريقا آخر غير الذي كانت تسير فيه منذ سنوات.. طريق التسوية الجزئية ولم يكن العقل الفلسطيني الرسمي بقادر على الإبداع وقد بات أسير الرسمية العربية وأسير المعادلة الدولية والإقليمية، وبالتالي تم طرح الانتفاضة في سوق التسوية على أساس من تحسين الموقف الفلسطيني التفاوضي، وهكذا بدلا من التعامل مع الانتفاضة كمشروع استراتيجي للنهضة والتحرير، وكمحاولة قوية وجادة لاستنهاض الأمة تم التعامل معها كمشروع للاستثمار العاجل، والسريع بل كغطاء للدخول إلى التسوية كما تبين أخيرا.

ولقد جاءت قرارات المجلس الوطني الفلسطيني التاسع عشر الذي عقد بالجزائر (تشرين ثاني ١٩٨٨) متطابقة مع هذا التصور وهذا الفهم ومعيدة إلى الأذهان حديث أنور السادات القديم حول أن ٩٩٪ من أوراق اللعبة هي بيد أمريكا.. وبات هذا هو المنطق الفلسطيني الرسمي، ومن هنا كان الاعتراف بالقرار ٢٤٢ والاعتراف بشرعية الكيان الصهيوني في المساومة على الكفاح المسلح وذلك لأجل الجلوس على طاولة الحوار مع الطرف الأمريكي الذي قبل الحوار مقابل الشروط السابقة ولكنه سرعان ما أوقف الحوار لأسباب واهية بعد أن نجح في جر م. ت. ف إلى مزيد من التنازلات. لقد كان الهدف من هذا الحوار كما جاء على لسان عضو المجلس الفلسطيني إبراهيم أبو لغد «تفريغ م. ت. ف من محتواها الوطني.»

في ذلك الوقت كان التحرك الأمريكي نحو التسوية قد وصل إلى طريق مسدود بين نقاط بيكر ومشروع شامير للحكم الإداري الذاتي، كما كانت الهجرة اليهودية تتسع وكان الاستقطاب يزداد داخل الوطن المحتل بين الوطني والإسلامي أو بالتحديد بين نهج التسوية والنهج المعارض لها.

في هذا الوقت جاءت أزمة الخليج، وجاءت الحرب التي أضعفت الموقف الفلسطيني على عدة مستويات، فقد خسر الفلسطينيون اقتصاديا وفرضت على عشرات الآلاف منهم هجرة جديدة وفرض عليهم حصار سياسي عربي ودولي، وأصبحوا يواجهون تهديدات، وتحديات عديدة يبلورها الشقاقي في الآتي:

١ ـ إنكار وتهديد وجودهم كشعب وكأمة. فالمنطق الإسرائيلي وإلى حد كبير المنطق الأمريكى أيضا، بات ينظر اليهم كأقلية قومية عليها أن تقبل العيش في ظل أكثرية يهودية.

٢ ـ التوسع الإسرائيلي.. فعلى الرغم من التنازلات التي قدمها العرب والفلسطينيون فإن أهداف وأطماع الكيان الصهيوني التوسعية ازدادت شراهة، وأصبح الأردن نفسه مهددا وليس مجرد الضفة والقطاع.

٣ ـ الخشية الفلسطينية من الاستخدام الوحشي وغير المقيد وغير المتكافيء للقوة من الطرف الإسرائيلي دون مبالاة بأية قيمة أخلاقية بل بعدم مبالاة بمسألة الدعم السياسي طالما أن الهدف هو إخماد المقاومة.

٤ ـ سياسة خلق حقائق جديدة باستمرار في الأراضي المحتلة تتمثل في سياسة الاستيطان، الاغتيالات، السجن لمدد طويلة، الإبعاد، حظر التجول لفترات طويلة، تدمير البيوت، إغلاق المدارس والجامعات، فرض الضرائب الباهظة والغرامات، إضافة إلى تدمير الاقتصاد الفلسطيني وبني المجتمع التحتية وكذلك إنكار الحقوق الإنسانية والسياسية.

٥ ـ شبح الأبعاد الجماعي (الترانسفير) وهي الرغبة المكبوتة لدى الحركة الصهيونية وهي من ضمن البرنامج السياسي لثلاثة أحزاب مشاركة في الحكومة الحالية (تسوميت، موليدت، هتحيا).

٦ ـ الهجمات العسكرية ضد الخارج الفلسطيني من تجمعات ومؤسسات وقيادات ومواقع.

٧ ـ الهجرة اليهودية.

٨ ـ المخاوف من صراعات داخلية عنيفة داخل الصف الفلسطيني نفسه على خلفيات سياسية وحزبية.

٩ ـ استمرار تدخل الدول العربية في الشأن الفلسطيني الداخلي وإحداث مزيد من الانقسامات والمحاور.

في نفس الوقت الذي كان الفلسطينيون فيه يعيشون هذه الهواجس والتحديات، كانت الولايات المتحدة الأمريكية مع نهاية حرب الخليج ترى نفسها على قمة الدنيا متفردة .. فقد انهار التوازن الرأسمالي وأدت حرب الخليج نفسها إلى انهيار عربي بالغ في مقابل تفوق إسرائيلي وهجرة يهودية واسعة.

في هذه الظروف ـ كما يقول الشقاقي في كتاباته ـ «أرادت الولايات المتحدة أن

تفرض سلامـها الذي يكفل لـها استمرار الهـيمنة، والنفـوذ ويكفل حمايـة الكيان الصهيوني، وحـماية الأنظمة التابعة لـها، ويضرب أي نوازع للمعارضة الإقـليمية، وأصبح الأمريكيـون يخشون، أو يدركون أن استمرار الاحتلال الإسرائـيلي يحمل في طيـاته بذور عدم استقـرار يهدد المصالـح الأمريكية والإسـرائيلية بعـيدة المدى، فالوضـع الراهن يولـد وضعا متـقلقلا قادراً عـلى الانفجـار في شكل عـنف واسع متبادل في أي وقت.

إن مخاطر استـمرار تسابق التسلـح واحتمالات تصاعد الانتـفاضة والخوف من تعزيـز دور قوى النهوض الـعربي والإسلامي جـعل أمريكـا تفكر في أنـه لابد من التوجـه نحو التـسوية، تسويـة شاملة لمـسألة الصـراع العربي الإسرائـيلي والقـضية الفلسطينية.. أو على الأقل نزع فتيل الانفـجار منها بوصفها أهم عوامل اللااستقرار في المنطقة.. فالاستقرار بات مطلبا أمريكيا في زمن التفرد الأمريكي.

لقد قام بـيكر وزير الخارجيـة الأمريكي بثمـاني جولات لمنطقـة الشرق الأوسط خلال شهور قليلة مهدت في النهاية الـطريق لعقد مؤتمر مدريد، ولكن على أساس من رفض مـشاركة م. ت. ف ـ ومن دون الخـارج الفلسـطيني ومـن دون القدس ـ وعلـى أساس أن تكـون المفاوضـات ثنائيـة مباشـرة بين كل طـرف عربي والـطرف الإسرائيلي، وبدون وسطاء وعلى أساس أن مشاركة الدولتين الكبيرتين تقتصر على يومي الافـتتاح وبلا صلاحـيات لمراقب الأمم المتـحدة. وأخيرا هذه المـفاوضات لا تؤدي إلى قيام دولة فلسطينية.

لقد كـانت م. ت. ف تدرك طبيـعة الموقف الـذي تمر به، وتدرك حجـم القرار الذي يـطلـب منـها اتخـاذه، ولذا فـقد حـرصت عـلى أن يكـون المجلس الوطـني الفـلسطيـني هو المؤسـسة التـي تأخذ القـرار وحرصت عـلى تمثيـل جميع الـقوى الفلسطينية وخاصة القوى الإسلامية.. ولكن عدة اجتماعات بين قيادات من م.ت.ف وحركة حمـاس واتصالات أخرى مع حركة الجهـاد الإسلامي فشلت جميـعها في إحضار القوتين الإسلاميتين الرئيسيتـين، كما فشلت الاتصالات التي تمت مع جبهة الانقاذ التي رفضت الحضور بشروط قيادة م. ت. ف.»(١٦)

وهكذا كما يرصد الشقاقي «غابت القوى الإسلامية المجاهدة والفاعلة في ساحة الانتفاضة كما غابت فصائل وطنية مناضلة، بل وغاب عدد كبير من أعضاء المجلس الوطني المعين. كما رفض عدد لا بأس به حضور مقررات المجلس خاصة الجبهة الشعبية لتحرير فلسطين وبعض المستقلين من حركة فتح نفسها. وإذا أخذنا بالاعتبار أن عددا من الذين قالوا نعم قالوا تحت الإكراه والابتزاز فإن كل ماسبق يؤكد على عدم شرعية قرار الذهاب إلى مدريد.. وعندما تجتمع عشر فصائل فلسطينية في طهران قبل مؤتمر مدريد، وبعد شهر واحد من اجتماع المجلس الوطني الفلسطيني في الجزائر لتعلن رفضها المشاركة في مؤتمر مدريد وتندد بانعقاده فإن هذا دليل آخر على عدم مصداقية القرار الفلسطيني الرسمي بالمشاركة. لقد بقيت فتح وحدها إضافة إلى الحزب الشيوعي الفلسطيني على استعداد للذهاب إلى آخر الطريق، لقد قاموا بترتيبات وجهود كبيرة لإخراج عناصرهم إلى الشارع الفلسطيني ولوضع أغصان الزيتون في فوهات بنادق جنود الاحتلال، ولأسباب إعلامية رخيصة ساومت قيادة حركة فتح على الانتفاضة وأحدثت بلاشك شرخا عميقا في الوجدان الفلسطيني .. فأي معنى لغصن الزيتون في فوهة بندقية قتلت أطفالنا وأهلنا بالأمس، وهي تفعل ذلك اليوم وغدا»(١٧).

* * *

وفي العديد من كتاباته يناقش (الشقاقي) المختلفون معه بشأن القضية الفلسطينية، والذين يصفون أنفسهم بالواقعيين، وبأنه هو وصحبه من المثاليين الذين يعيشون الأوهام، فيرد عليهم ـ ملخصاً في رؤيته لمسيرة ومسار القضية ومحوريتها قائلا: «أن منطق هؤلاء (الواقعيين جدا) لايمكنه إنقاذ مايمكن إنقاذه ولا يمكنه انقاذ شيء. ونحن مثله نلحظ صعوبات الوضع الدولي والإقليمي المرافقة لحالة الانهيار في المنطقة، من انهيار الاتحاد السوفيتي والتفرد الأمريكي إلى انهيار الوضع العربي بعد حرب الخليج والخلل الاستراتيجي الذي ازداد لصالح العدو الصهيوني، إلى الحصار المفروض على الانتفاضة الباسلة في الوطن المحتل على كافة الأصعدة

اقتصاديا وسياسيا واستيطانيا . ولكن هذا لايجعلنا نقبل بما هو مطروح ولا يفرض علينا التعلق بقطار التسوية أو على الأقل تغيير الظرف الموضوعي الصعب سواء في حياتنا، أم في حياة جيل آخر، فهذه حجة باطلة لأن الظرف الموضوعي سيتغير على أية حال وقد علمنا القرآن والتاريخ ذلك، ولكن علينا أن نقدر، ونحن نعلم خيارنا اليوم ماهو الأفضل لشعبنا، وأمتنا حاضرا ومستقبلا: أن نشهد تغيير الظروف الموضوعية في حالة من التسليم والتبعية والخضوع أو أن نعيش هذا التغيير ضمن حالة من النهوض والقيام والمقاومة تكون في حد ذاتها أحد عوامل التغيير. كما أننا نعتبر حجة رفع المعاناة عن شعبنا كمبرر للالتحاق بقطار التسوية وقطار الحكم الذاتي حجة فاسدة، إذ كيف سترفع المعاناة في ظل الهيمنة الصهيونية، كيف سترفع المعاناة وجميعنا يعلم ماهي مهمة وهدف الحركة الصهيونية في فلسطين وفي المنطقة، أليس قبولنا تسهيلا لهذه المهمة ولهذا الهدف بل تكريسا للاحتلال والمعاناة لا رفعها»(١٨).

ويقول الشقاقي «إن مشروع الحكم الإداري الذاتي وبالصيغة التي طرحها رئيس وزراء العدو إسحق شامير لايبغي سوى حل مشاكل إسرائيلية بحته، حيث أنه يقوم بإعطاء الشرعية للاحتلال وتقنينه، وهو يمهد به لإعلان ضم الأراضي في الضفة الغربية وقطاع غزة إلى دولة الكيان الصهيوني في حين يكون السكان في الضفة والقطاع قد ارتبطا بشكل أو بآخر بالأردن، وحملوا جوازات سفر أردنية واعتبروا إما أقلية قومية في داخل الكيان الصهيوني، وإما جالية أجنبية تابعة لدولة «مجاورة». وهذا الذي تنبأ به الشقاقي هو الذي حدث فعلاً، ولازلنا نعيش فصوله الدرامية الأخيرة بفضل نهج (الواقعيين جدًا) الذين لم يفهموا طبيعة الصراع، وجوهره كما فهمه الشقاقي وكما سنلاحظ في ثنايا الأعمال الكاملة للشهيد تأكيده الدائم على مخاطر العدو الصهيوني اقتصاديا وثقافيا وسياسيا ولعل في نقده المتميز ـ كما تظهر الأعمال الكاملة لمشروع الشرق الأوسط الجديد ـ كما قدمه شيمون بيريز مايؤكد ذلك هذا فضلا عن تأكيد الشقاقي أن الكفاح المسلح والانتفاضة الدائمة لشعبنا بالداخل هما الوسيلة الأولى في المواجهة»(١٩).

وفي مجمل كتاباته المتميزة يخلص الشقاقي إلى نتيجة هامة حول محورية القضية الفلسطينية وهي أن استقلال القرار السياسي العربي ـ الإسلامي مرتبط شرطيًا بسيرورة تحرير فلسطين.. إذ لم تكن مصادفة أن يقدم الغرب وعد بلفور في الوقت الذي كان يدمر بنيان الدول العثمانية، ويجتاح المنطقة عسكرياً ويخضعها إلى شبكة علاقات قائمة على التبعية والارتهان السياسي. لقد عمد الآخر إلى «شن حربه الشاملة» ضد الوطن العربي ـ الإسلامي، وتكريس «القابلية للاستعمار» في نفوسنا، وتدمير منابع القدرة الداخلية، وذلك بتحطيم المكونات العقدية والفكرية والحضارية للمجتمع الإسلامي، وتغيير أنماط المعيشة والإنتاج فيه بما يخدم مصالحه ويحقق التبعية له.

وعمد الآخر إلى خلق مؤسسات موازية ومعادية (لنا) يديرها تلامذة له ومأخوذون بثقافته، ولم تكن سوى محاكاة مشوهة وناقصة لمؤسسات الغرب، في سعي منه لتدمير العقل المسلم وحشوه بمفاهيم الغرب، ليقطع كل طريق على عملية التفكير في إعادة بناء المجتمع الإسلامي المقاوم. فمجرد تدمير المؤسسات الإسلامية مع بقاء العقل الإسلامي في يقظة، كفيل بمحاولة البداء من جديد، وكفيل بنجاح المؤسسات الإسلامية وإعادة بنائها من جديد.

لكن «إسرائيل» وفقا للشقاقي «وجدت لتمارس وظيفة مستمرة دائبة هي ضرب «النفسية العربية ـ المسلمة» وتحويل ميدان المعركة الحقيقية إلى ميادين وهمية تستنفذ الجهد والطاقة. وقيام دولة «إسرائيل» أهم وأخطر وأعنف أشكال الحرب الشاملة. وبقيامها واستمرار وجودها في القلب من الوطن الإسلامي، تكون الهجمة الغربية قد نفذت أهم وأخطر مهماتها، فنحن هنا لانواجه مجرد تحد عسكري أو مجرد تحد فكري، وإنما تجمعاً، نواجه استيطانياً عدوانيا في مكان هام، وحساس من الوطن الإسلامي، يعطي للصراع كل أبعاده التاريخية والحضارية والعقدية والفكرية، إضافة إلى الأبعاد العسكرية والسياسية والاقتصادية. ومع «إسرائيل» لم تعد ثقافة

الأمة فقط هي المهددة، بل وجودها برمته. واليوم وبعد مرور أكثر من أربعة عقود على الإعلان عن كيان «إسرائيل» يتكرس أكثر فأكثر الدور الصهيوني في المنطقة، حيث يضرب العدو ويتحرك معتبراً أن حدوده الزمنية تشمل باكستان وإيران حتى شمال أفريقيا، ومن تركيا حتى جنوب السودان، ومعتبراً كل مابين ذلك ـ على الأقل ـ قابلاً للتدخل الصهيوني اقتصاديا وعسكريا وأمنياً، والمطالبة بلعب دور أكبر في سياسات المنطقة، وفي الإسهام في ثقافاتها، والغزو الدبلوماسي للأقطار الإسلامية الأضعف مقاومة ووعياً لخطورة الدور «الإسرائيلي»، والإصرار على تكريس وجودها في المنطقة كقوى كبرى، وهو الأمر الذي ترفعه المفاوضات العربية ـ الصهيونية إلى «مستوى أعلى» من الخطورة والنفاذ. لذا ليس نافلاً أن يركز «الإسرائيليون» على التطبيع السياسي والاقتصادي والثقافي كهدف أساسي «لعملية السلام» قبل مسألة الأمن أو الجغرافيا. وهم في هذا المجال مخلصون تماماً لوظيفتهم الاستعمارية المرتبطة مباشرة بالغرب الأوروبي والأمريكي. وأهم آليات هذه الوظيفة هو تعزيز «القابلية النفسية للاستعمار» عبر التطبيع والإقرار (المغلوب على أمره) بهيمنة الكيان العدواني والغريب في المنطقة»[٢٠].

تبعا لهذه الجردة السريعة ـ كما يقول الشقاقي ـ «يمكن استنتاج أن استقلالية القرار السياسي تستوجب توافر «الشرط النفسي» لدى أبناء الأمة لتصفية «القابلية للاستعمار والتبعية»، وهو نفس الشرط الواجب للنهوض بمعركة تحرير فلسطين. وهي معركة ليست الجيوش ولا الأنظمة مادتها الأساسية وجنودها، ولكن الأمة بطاقاتها وبفكرتها الشاملة عن نفسها وعن الآخر. إذ عندما تعتقد بقدرتها واستعدادها النفسيين على مواجهة الآخر والانفكاك من أسر تبعيته والارتهان له، تبدأ في تحقيق استقلالها السياسي، وتنهض في الوقت نفسه لمعركة تحرير فلسطين انطلاقا من أن فلسطين هي القضية المركزية للأمة العربية والأمة الإسلامية، حيث استطاع الاستعمار الغربي الحديث ـ الذي أطلقته الحملة الفرنسية في نهاية القرن

الثامن عشر - استطاع بعد حوالي قرنين من الزمن أن ينشيء الكيان الصهيوني، الذي أصبح مركز الهجمة الغربية ضد الحوض العربي - الإسلامي ومركز المشروع الاستعماري. ومن هنا فإن فلسطين تأتي في قلب ومركز المشروع المضاد: المشروع العربي - الإسلامي. فالمعركة ليست فقط بين الشعب الفلسطيني والكيان الصهيوني. إنها معركة كل الأمة ضد الغرب المستعمر الذي يمد الكيان الصهيوني بكل أسباب الحياة والرعاية والحماية، وبدون انتظام طاقة الأمة في مسير ونهج موحد فسيبقى الخلل في توازن القوى قائماً ومستمراً لصالح العدو. ومن هنا تأتي أهمية استقلال القرار السياسي والقضاء على جذور ومنابع التبعية بكافة أشكالها. ونظم مفردات قوة الأمة التي تكمن في هذا العدد البشري المتعاظم وهذا الموقع الجغرافي المتميز والإمكانيات المادية الهائلة - إضافة إلى التاريخ والموروث الحضاري العربي - الإسلامي المستند إلى أيديولوجيا حية باعثة - قادرة على بعث الأمة وتفجير إمكاناتها ونظمها في كينونة فاعلة ومؤثرة» (٢١).

إن مسألة تحرير فلسطين كما يخلص الشهيد الدكتور فتحي الشقاقي في كتاباته هي مسألة مشروع ينظم إمكانات الأمة ويرد على حرب العدو الشاملة بحرب شاملة ثقافية وفكرية واقتصادية وأمنية وعسكرية. ويبقى دور المجاهدين في فلسطين، وهو إحياء فريضة الجهاد ضد العدو ومشاغلته واستنزاف طاقاته وكشف وجهه البشع، وتدمير ما يستطيعون من قدراته وإدامة الصراع حياً حتى وحدة الأمة وتحقيق النصر، والتصدي لمؤامرات تصفية القضية التي يوجّهها الغرب.

* * *

رابعا : التحرر من التبعية وأبعاد النهـوض فـى فـكر الشـقاقي:

كان الشهيد الدكتـور فتحي الشقاقي مهموماً بالشـأن العربي والإسلامي، لايرى فاصلا مطلقاً بين مجمل قضايا هذا (الشـأن) وقضايا (الداخل الفلسطيني).بل يرى تلازمـاً وترابطاً مـصيريا بـينهمـا، وكان (الشـقاقي) تواقـاً إلى نهضـة الأمة العربـية والإسلامية واستقلالها الحقيقي من قبضة الاستعمار قديمه وجديده، الذي لازالت تعيش وطأته.

وهو في مـجال توصيفه لأزمـة الأمة الحالية، يبـرهن على سعة الأفـق والإحاطة الكاملـة بكل أركان الصورة، فـهو يرى أن تلك الأزمة بوجـوهها المتعددة (سـياسية وثقـافية واقـتصاديـة.. الخ) لـيست نتـاج إشكالـيات حديـثة الجذور، أو أخـطاء أو هفوات في خيـارات الأمة السياسية أو الأيديـولوجية؛ «إنها أزمة لا تتـعلق بالإرادة الذاتية بشكـل خاص، وبالتالي فإنها لن تحـل بمجرد تغيير قناعات مـعينة، وهي أزمة يقع نصف عبئها علينا كأمة وقيادات ولـكن نصفها الآخر، بل أكثر من النصف، يقع على الآخر ـ الغرب ـ كنظام وثقافة وسياسة»(٢٢).

«إن جذور هذه الأزمة يعود إلـى أكثر من قرنين من الزمان، بل إن ما يـتعلق بنا فيهـا يعود إلى زمـن أبعد من ذلك. فـقد كانت بـدايتها في لحـظة الخلل فـي ميزان القـوى بين عـالم الإسـلام، والدولـة العـثمـانيـة منـه بشـكل خـاص،وبين أوروبـا الغربيةوالصناعية الإمبريالية الناهضة مدنياً والجائعة للسيطرة والنهب».

إن السؤال ـ وفقاً للشقاقي ـ حول ما إذا كانت الأمـور تتعلق بتقدم غيرنا وتأخرنا وانحطاطنـا، أو أن الآخر مارس النهب والسيطرة فـاستقوى علينا، ليس لأنـنا تأخرنا بل لأننا لم نحمل داخلنا بذرة السيـطرة والنهب، قد أصبح سؤالا أكاديميا الآن أكثر منه مـدخلا لحل الأزمة. ذلـك أن الأمر الأهم أن أمتـنا في المرحـلة التالـية للعـصر السلجوقي، ومنذ حوار الغزالي ـ ابن رشد الشهـير، مالت لتعطيل ماهو عقلاني في

وعيها الجمعي حتى ضعف وانزوى، وربما التأخر التكنولوجي هو السبب الرئيسي في الضعف، والانزواء، بل يمكن التدليل على أن المستوى التكنولوجي بمعناه الأعم لم يكن على درجة من السوء بالشكل الذي درجنا على تصويره، ولكن تعطيل العقلانية، ودور الفكر في صناعة السياسة أدخل عصًا غليظة في آلية اتخاذ القرار السياسي، مما عطل هذه الآلية ووصمها بالجمود، وجعل صنع القرار حكراً في أيدي جهاز الحكم (بمعناه الضيق كسلطة أبوية فوقية) وبالتالي في أيدي القوى الهابطة تاريخيا، ونفي وعزل القوى الصاعدة عن المشاركة في السلطة (بمعناها الأوسع)، مما جعل الدولة التقليدية تعيش في عزلة شعبية وتفقد قدرتها على تُمثيل وتمثيل الفكر الجماعي للأمة، وجعلها تلجأ للآخر في تقوية وجودها، مما أدى في النهاية إلى سهولة وقوعها في الاستعمار المباشرالذي جرت إليه الأوطان والشعوب،«ولذا جاءت صدمة المواجهة بيننا وبين أوروبا الحديثة، أوروبا حاملة المشروع، في نهاية القرن الثامن عشر، وبداية الذي يليه صدمة مضاعفة الأثر، فلم نجد الآخر أقوى وأكثر تعقيدا وتقدماً فحسب، بل كنا عاجزين عن أن نجدد أنفسنا فيما كانت السمات والدوافع الإمبريالية لأوروبا لاتسمح بتجديد ذاتنا وبنائها على نسق يحصن بلادنا وشعوبنا أمام أساطيل الآخر وثقافته وقناصله وتجارته»(٢٤).

إن هذا مايجعل الأزمة التي تواجه الأمة اليوم كما يقول الشقاقي «أعقد من أية أزمة واجهتها منذ ظهور الإسلام. فلم يعد الأمر يتعلق بتحديد خيارات جديدة للأمة، بل بإعادة بناء كامل لها. ولم يعد الأمر يتعلق بإرادة تحرير وتصنيع في بلادنا فحسب، بل بنضال طويل ومرير يقنع الآخر ـ الغرب ـ سلماً أو حرباً بأن نظامه مشوه ومعاد للإنسان، وأن العلاقة بيننا وبينه بشكلها وبنائها من جديد، وعلى أسس جديدة. كما لابد أن تناضل الأمة داخليا ضد كل مراكز القوى السياسية وغيرها، التي ارتبطت بهذه العلاقة المشوهة بيننا وبين الغرب وربطت مصيرها بها. وهو مايتطلب القدرة والجرأة على التجديد من الداخل بقراءة معطيات الواقع من أجل تفكيك نظراً للبنية الاجتماعية ولبنية السلطة، وهو مايؤدي إلى النجاح في وضع

خطة منهجية فكرية لاتقوم على نسخ التجارب الأخرى، بل على ربط الموروث الذهني الفاعل اجتماعيا ـ وهو في حالتنا العقيدة الإسلامية ـ مع العلاقات الميدانية السارية (نظام تعليمي، اقتصادي، اجتماعي، سلطوي) حتى نخرج من مأزق انفصام الشخصية والنفاق بين ماهو رسمي وماهو شعبي»(٢٥).

ومن وجهة نظر الشقاقي أنه «من الضروري أن نعي أنه لايمكن تشبيه نظام التبعية بالحبال التي تربط بلادنا بالخارج، بل الأصح أن تشبه بشبكات متداخلة، والأكثر صحة أن نراها كشبكة من الأوعية الدموية، تمتد في كل أجزاء حياتنا وبلادنا. تتغذى من مائنا وهوائنا وتصب لصالح الآخر، ولأنها شبكات متسعة متشعبة عميقة الجذور فلا يمكن التخلص منها دفعة واحدة، أو بضربة واحدة، أو في عقد واحد أو اثنين وباعتبارها متصلة بالنظام العالمي كله، عالم سيطرة الغرب الأطلسي على آسيا وأفريقيا وأمريكا اللاتينية وأوروبا الشرقية، وعلى مايسمى بالمؤسسات الدولية، فإن إنجاز مشروع تقويضها ـ أي إنجاز مشروع الاستقلال ـ لابد أن يعتبر مشروعاً عالميا»(٢٦).

إن من الملاحظ أنه فيما عدا الولايات المتحدة وروسيا. فإن حجم جيوش معظم الدول الأوروبية أصغر من حجم جيوش عدد كبير من دول العالم الثالث. ولكن الواقع يشير إلى أن دول أوروبا الغربية بشكل عام تمارس درجة من السيطرة، والهيمنة على قطاع واسع من دول العالم الثالث. إن الجيش التركي الذي تستخدم دولته لإحكام السيطرة الغربية على شرق المتوسط هو أكبر حجما من جيش بريطانيا وفرنسا مجتمعين.

من ناحية أخرى يقول الشقاقي «نرى كيف أن دولاً عربية وإسلامية قد اختارت النظام الإسلامي وتحررت بالتالي أيديولوجيا وسياسيا إلى درجة كبيرة، ولكن ضعف بنيات دولة التجزئة وشراسة نظام الاقتصاد والتوزيع العالمي، جعلها دولاً مدينة بمليارات الدولارات. وهو الأمر الذي يجعل من استقلالها جزئيا وغير متكامل»(٢٧).

إن هذا هو مايجعلنا نؤكد على تماسك نظام التبعية، الذي نشأت دوائره بشكل متقاطع في مرحلة زمنية واحدة من القرن الماضي. ويستدعي هذا التماسك الوعي بأن عملية الاستقلال لابد أن تواجه دوائر التبعية جميعها، كلاً على حدة، ومعاً في الآن نفسه.

إن استقلالاً سياسيا بدون التخلص من التبعية الثقافية، وبدون نمط مستقل للتنمية سرعان ما سينهار تحت وطأة الضغوط.

وأي محاولة للاستقلال الاقتصادي ولامتلاك ناصية القرار السياسي في ظل حدود الدولة الوطنية الصغيرة، دولة التجزئة سيكون وفقا للشقاقي ضرباً من المناورة مع التاريخ. كما أن محاولة إيهام الذات بأن الكيان الصهيوني محدود الخطر بمنطقة جغرافية وعلى شعب معين، هو انحراف في رؤية التاريخ والواقع على السواء. إذ أن استمرار بقاء هذا الكيان سيكون خطرا على الناس وعلى ثقافتهم وعلى استقلال المنطقة وعلى خياراتها في التنمية والنهضة.

على أن مشروع الاستقلال في النهاية هو مشروع تغيير ميزان القوى العالمي أي هزيمة نظام الهيمنة وإعادة دول المنظومة الغربية إلى حجمها الحقيقي، ومساعدة شعوبها ـ سلماً أو حرباً ـ على التخلص من رؤيتها المشوهة لنفسها وللعالم: الرؤية القائمة على مركزية الغرب وعلى الثقافة العنصرية وعلى مفاهيم سيادة الرجل الأبيض، وهو ما يستدعي تحالفاً عالمياً بين المظلومين وأن يكون مشروع استقلالنا ذا ارتباط باستقلال الشعوب الأخرى.

ومن خلاصة كتابات الشقاقي وحواراته يرى أن المسألة الأساسية التي يجب على قادة الأمة وعلمائها وزعمائها أن يروها هي أن النهضة والاستقلال لايمكن أن يتحققا بمجرد نشر وعي وثقافة استقلالية، فقد كانت روح الأمة، وطموحها مسكونة ـ ومازالت ـ بالنزوع نحو إنجاز مشروع الاستقلال.

إن النهضة هي متغير على أرض الواقع وفي داخله، ولإنجاز مشروعها لابد من

أن تضرب الأمة وقادتـها وزعماؤها في ملامح هـذا الواقع بمثابرة واستعـداد عميق للتضحية، وإيمان واسع بأن ظهرها على الجدار.

وكما ضرب النحات فـي الصخر، فإن كل متغير مهما صغـر في الواقع يأخذنا قدما إلى مـرحلة التشكـيل المبدع في صورتـه الأخيرة، ولكن وفي مـراحل عديدة، سيكون دمنا هو البديل عن عرق النحات».

ولهذا فإن لكل ماله علاقة بتنمية الوعي وإعادة بنائه في النقاط التالية لابد أن يرى في محـدودية أثره وهامشيـته، مالم يرتسـم في الواقع، مدعومـا بمصداقية نضـالية، كمتغير حقيقي:ـ

١ ـ الـسعـي إلى ودعـم تشـكـيل والـعمـل علـى انتـشـار وتوسـع المنـظمـات، والتجمعات الأهلية التي تجعل من مقاومة النفوذ الأجنبى بكل أشكاله، ودعم الثقافة والقيم الوطنية والإسـلامية والحفاظ على ثوابت الأمة التاريخيـة، هدفا لها يجب أن يتم هذا النـشاط ـ ما أمكن ـ مستقلاً عـن الأنظمة الحاكمة مهمـا كان الرأي في هذه الأنظمة إيجابيا، حتى لاتقيد معايير الـدبلوماسية العالمية وواقع ميزان القوى الدولي حركة هذه المنظمات والتجمعات والعمل شعبيا ورسميا على بناء تحالف قوى الأمة السياسـية، وخاصة تياريـها الرئيسيـين: الإسلامي والقومي، والـتركيز على المسائل الموحدة وتأجيل نقاط الخلاف.

٢ ـ التحرك لإعادة بناء الإجماع الداخلي وتقوية القطاع الأهلي، ويستدعي ذلك إعادة الروح إلى الحرف والصناعات الأهلية، وإعـادة بناء قطاع الوقف وتوسيعه إلى دوائر التـعليم والـطباعة والـنشر والصحـافة والصحـة، بحيث يـبرز كقطـاع ثالث بجـانب القطـاعين العام والخـاص، ويساعد عـلى تقـوية جسم الأمـة واستقلالـها، والعمل علـى قيام ثورة زراعية جادة وواسعـة حتى تصل الأمة إلى مرحـلة الاكتفاء الغذائي، والتوكيد على شعار «نأكل مما نزرع» وتقوية الصلات الاقتصادية فيما بين العرب والمسلـمين ودول العالم الثالث، بحـيث يؤكد الزعماء قبـل العامة أن الأمة

لابد أن تضحي برفاه الصناعة والتقنية الغربية من أجل الاستقلال والكرامة، إذ لابد من اعتبار الآلة والتقنية الصينية أو الهندية ـ أن توافر خيار الأولوية لنا ـ قبل الآلة الأوروبية أو الأمريكية، مهما كان الفرق بين المستويين. ويرى الشقاقي أيضا أن الاستقلال الاقتصادي، والاستثمار المستقل للثروات القومية، والتنمية المستقلة والسوق المشتركة، هي عناصر مشتركة لمتحد جامع هو السياسة الاقتصادية. لذلك فإن الفصل بينهما هو فصل علمي وليس نظرياً. ومن هنا سنتحدث عن هذه العناصر في صيغة مدمجة، دالفين إليها من واقع العلاقات الاقتصادية العربية ـ الإسلامية فيما بينها.

إن الواقع العربي الإسلامي كما يقول الشقاقي يمر بمرحلة من التخلف. والتخلف مصطلح يدل على واقع تاريخي ومفهوم تاريخي محدد، ولا يملك صفة الإطلاق. ومن السائد في أيديولوجيا الخطاب الاقتصادي والنهوض العربي أن يجري الحديث عن التخلف والتقدم كصفتين مطلقتي الدلالة، مما يعنى عدم إمكان الخروج من التخلف إلا بفعل تغييري عنيف (الثورة أو الانقلاب). ولكن دراسة متأنية تكشف عن عدم دقة هذا التصور، إذ على الرغم من ترابط العلاقة بين التقدم والتغيير الجذري، إلا أن آليات التغيير قد تفعل بشكل غير ملموس وغير عنيف، وهو استنتاج يقدم الأمل في جدوى العمل التنموي في ظل علاقات التخلف السائدة عربيا وإسلامياً.

ونلاحظ أن تمزق الاقتصاد والتنمية العربية يعكس إحدى التوجهات الأيديولوجية التي تحكم الخطاب «التنموي» في الفكر العربي المعاصر، بحيث جرى الربط بين الاستقلال الاقتصادي والاستقلال السياسي على نحو قاطع. ورغم مشروعية هذا الربط، إلا أن الاستقلال الاقتصادي بحاجة إلى بنية اقتصادية تستطيع أن تنهض بهذا الاستقلال، وهي بنية مسبقة، بمعنى أن بناءها يتم في مرحلة سابقة على الاستقلال الاقتصادي والسياسي كذلك ـ لأن التغيير الذي يحصل على مستوى السلطة لا يستتبع إلغاء البنية الاقتصادية السابقة بالضرورة، وهو يستفيد

ويبقى على التراكمات والثروات والإنجازات السابقة على لحظة التغيير «كما نشهد حاليا في روسيا وميراثها من الاتحاد السوفيتي»[٢٨].

وفي واقعنا العربي وفقاً ـ لما يرصد الشقاقي في كتاباته ـ فإن الحالة الاقتصادية الهشة التي ورثتها أنظمة الاستقلال (أو أنظمة التجزئة) ساهمت إلى حد كبير في تكريس التبعية وتقوية أواصرها مع الآخر. واكتشاف النفط في الدول النفطية جعل التنمية الاقتصادية شكلية أو غير جذرية، بحيث بقيت علاقات الإنتاج غير ممسوسة إلى حد كبير، ولم تعد على الدول المؤممة بأكثر من فائض القيمة، وهو الفائض الذي لم يشكل قاعدة اجتماعية، ولكنه شكل رصيداً لبناء أجهزة الدولة فقط، فأخذت النخب الحاكمة ـ على اختلاف أنظمتها ـ في تركيز توظيف ماتبقى بتصرفها من فائض في إقامة مظاهر الدولة «الحديثة»: جيوش، أجهزة أمن داخلي، ومختلف الإدارات الحكومية التي ملأتها بالموظفين، فكانت التنمية عبارة عن توظيف أفضل الظروف الحياتية السائدة في الغرب للنخب الحاكمة وللفئة الاجتماعية التي أخذت تنمو حولها: مساكن وخدمات على أنواعها ـ صحية وتربوية وثقافية ـ ومواصلات.. الخ وبشكل عام فقد تم نقل الاستهلاك والترف الباهظ من الغرب، وما يجره ذلك من ويلات على صعيد تشويه القيم واستنفاد المصادر الطبيعية، وهي ويلات بدأت الدول الصناعية نفسها في معاناتها، وهو مايتطلب إجراء تغيير جوهري في القيم المادية التي يقوم عليها رخاؤها[٢٩].

وكما تؤكد كتابات الشقاقي فإن التنمية المستقلة ترتبط مع التحديث كتحد تجب مواجهته، ليس في الحركة الإنتاجية فقط، ولكن في الحياة التي نعيشها يومياً أيضاً. ولكن ارتباط السياسة العربية بالسياسة العالمية الغربية كان ذا علاقة عكسية: مع ازدياد التبعية يزداد الابتعاد عن التحديث والدخول في وقع التخلف والاغتراب. وعلى الصعيد الصناعي إنشد الاقتصاد القومي أكثر بعرى الاقتصاد الغربي المسيطر واندفع أكثر في بنية وخدمة الرأسمال العالمي المسيطر، فإذا الوطن العربي ـ نسبياً ـ من أكثر مناطق العالم اعتمادا على استيراد السلع الصناعية، إذ تصل وارداته إلى

أكثر من ثلاثة أضعاف وارداته الزراعية التي هي كبيرة جداً، و٩٨٪ من صادراته تنحصر في المواد الخام الزراعية والمعدنية (النفطية بشكل أكبر)، بينما لا تتعدى نسبة السلع الصناعية المصدرة ٢٪ من مجموع الصادرات، وهذا النمط الاستهلاكي أدى إلى ابتلاع الموارد من النقد الأجنبي، وزاد في إفقار القطاعات الإنتاجية الأخرى وفي عجز ميزان المدفوعات وتعاظم الديون الخارجية التي لم يشهد لها العالم مثيلاً من قبل في الحجم والثقل.

وهذا يتطلب وفقاً لرؤية (الشقاقي) (٣٠):

١ ـ بناء قاعدة إنتاجية قادرة على النمو والتطور في شروط، أهمها قدرتها على تأمين حاجاتها من الموارد المحلية بأكبر قدر ممكن.

٢ ـ تأمين حاجة الغالبية العظمى من أفراد المجتمع لإشباع حاجاته الأساسية (وليس حاجات الاستهلاك المقلد).

٣ ـ تأمين منافستها الدولية في تصريف منتجاتها في الخارج بحسب تخصصها في الانتاج في ميدان تقسيم العمل الدولي (بما يناسبها وليس حسبما يفرض عليها).

٤ ـ الانفاق على مؤسسات البحث والتطوير العلمي.

ووفقا للشقاقي يرتبط هذا المجال التنموي بالاستقلال الاقتصادي، ولكن استقلالية القرار السياسي تلعب دوراً هاماً هنا، من حيث تأمين القدرة على الاستقلال التنموي، خاصة وأن النفط هو أكبر ثروة قومية عربية، وقد رأينا في التجارب السابقة أن الدول الصناعية الكبرى ترفض وتحارب هذه الخطوة. والحقيقة أن النفط لم يستغل من أجل تنمية عربية مستقلة، بل جرى الاعتماد عليه كلياً وليس توظيفه في خدمة السياسة الاقتصادية، مما جر الويلات على الدول النفطية بشكل خاص، وعلى المحيط العربي ـ الإسلامي عموماً، من أجل تأمين هذا المصدر الحيوي للطاقة في خدمة المصالح الغربية. ولم تسخر أدوات الإنتاج التي تطورت

في ظل الطفرة النفطية من بترودولارات ورؤوس أموال وعمالة من أجل قيام تجمع اقتصادي في المنطقة العربية ـ الإسلامية، لأن منظمات التنسيق والتخطيط الإنمائي والمشاريع المشتركة أدخلت الاقتصاديات العربية في مسلسل مستديم من التبعية والتخلف، كما سخرت كأدوات طيعة لتحقيق طموحات برجوازية عربية ذات طبيعة طفيلية أو فئة وسطاء وسماسرة في خدمة الرأسمال العالمي (الغربي)، وللحد من الوظيفة التنموية لهذه الأدوات عبر تشجيع القطاع الخاص و(لبرلة) الاقتصاد. في خضم هذا المأزق الذي شهده العمل الاقتصادي العربي المشترك ـ والذي تنامى أكثر في أواخر السبعينيات، وبخاصة في ظل ظروف سياسية جد سيئة كان يعيشها النظام الإقليمي العربي، تحطمت أطروحة (الفوائض المالية والعربية)، وتراجع الخطاب العربي السائد حول التكامل الاقتصادي والسوق المشتركة، وبلغ هذا التراجع أوجه على جميع المستويات ـ وخاصة من حيث محددات الإندماج الاقتصادي العربي ـ مع بداية الثمانينيات، مع دخول العلاقات الاقتصادية العربية في مرحلة جديدة أطلق عليها مرحلة «ما بعد النفط».

ويخلص الشقاقي من ذلك إلى أنه من أجل الاستثمار والتنمية يجب الانطلاق من الخصوصية العربية الإسلامية، والكف عن الجرى وراء نسخ تجارب جزئية عن الغرب تزيد من التبعية والإلحاق، وهو ليس مطلباً انعزالياً لا تاريخياً، ولكنه مطلب قد يجد أعذاره في دراسة الواقع العربي الإسلامي ومحدداته البيئية الخاصة لتشكيل تعاونيات محلية شبيهة بروابط الحرف والصناعات الأهلية وأنظمة الوقف التي كانت سائدة قبل الاستعمار. ويمكن الاستدلال بدعوة مالك بن نبي إلى البحث عن طريق ثالث .

خامسا: ضرورة لقاء التيارات الإسلامية والقومية والديمقراطية في فكر الشقاقي:

في سنوات عمره الأخيرة، كان انفتاح الشهيد الدكتور فتحي الشقاقي على الأفكار والتيارات العربية القومية واليسارية، أكبر من ذي قبل، وكانت نظرته تتطور في اتجاه التوحيد، والالتقاء السياسي، و(الفكري إن أمكن) بين هذه التيارات والتيار الإسلامي، ولقد جسدت مساهمات الشقاقي الفكرية والسياسية في العديد من الملتقيات العربية والإسلامية، ذلك بوضوح، فلقد كان عضوا مؤسسا في [ملتقى الحوار العربي الثوري الديمقراطي ـ طرابلس] ـ و[المؤتمر القومي العربي] و[المؤتمر القومي العربي الإسلامي ـ بيروت] و[المؤتمر الشعبي العربي ـ الإسلامي ـ الخرطوم] وكانت له إسهامات إعلامية وفكرية فذة في العديد من وسائل الإعلام العربية والأجنبية ـ كما سنرى في أعماله الكاملة تؤكد على ذات الرسالة: رسالة الالتقاء والتوحيد (أو التنسيق في الحد الأدني) بين تيارات الأمة وقواها الحية. وفلسطينياً كان دور الشقاقي بارزاً في خلق نقاط التقاء وقواسم مشتركة بين القوى الفلسطينية الوطنية على اختلافها وكان له الدور الرائد في تأسيس [لقاء الفصائل الفلسطينية العشرة المعارضة] وكان لوجوده العامل الأكبر في توحيد كلمتهم تجاه القضايا الرئيسية في مرحلة ما بعد التسوية.

وفكرياً كان للشقاقي إسهاماته المتميزة في صياغة نقاط التقاء ومساحات مشتركة للقوى والتيارات العربية على اختلافها وهكذا يؤكد تراثه الفكري والسياسي، كما سنرى.

وبداية يلخص الشقاقي حالة الواقع الراهن الذي فرض حتمية حوار والتقاء هذه التيارات بقوله: «بعد عشرات السنين التي شهدت تصارعا بين التيارات القومية العربية والإسلامية والديمقراطية، فإن أجواء من المهادنة بل والمصالحة بدأت تلوح في الأفق، إذ يبدو أن الأطراف الثلاثة قد أنهكت من التصارع، بالإضافة إلى أنها باتت تشعر بأن وجود كل منها مهدد، وبسبب التداخل بينها وشيوعها، وبسبب ضراوة الزحف الإمبريالى وتطوره وتعقيده وتهديده لها جميعها ، فقد نضجت الظروف لتواجه حقيقة القواسم المشتركة بينها» (٣١).

ففي نهايات القرن الماضي ومطلع القرن العشرين وفقاً للشقاقي «بدت بواعث التجاذب بين التيارين الإسلامي والقومي بريئة، وحجم التناقض بينها محتملاً، وكان الأمر لا يتجاوز المدارس الاجتهادية في أحيان كثيرة. وفي وقت لاحق ، ومع تنامي التيار اليساري الديمقراطي، أخذ الصراع يشتد بين التيارات الثلاثة.

كان على الأطراف الثلاثة أن تدرك أن التناقض الحقيقي هو بينها مجتمعة، من جهة، وبين الاستعمار الذي كان حاضراً بقوة ملموسة ويهدد الجميع. وكان عليها أن تبني، على هذه الأرضية ، تحلفاتها، انطلاقاً من السياسي وليس الايديولوجي. إذ أن الصراع على خلفية ايديولوجية كان يقود غالباً إلى نتائج مؤداها أن هذا الطرف أو ذاك غير أصيل ومرتبط ، وكان يستند إلى رزمة من التوصيفات الجاهزة والأحكام المسبقة. بينما كان على السياسي أن يتفهم معنى التحالفات التي قامت في أحيان قليلة، ولكنها مهمة من تاريخ الأمة المعاصر، بين التيارات الثلاثة، ولعل أبرزها مرحلة النضال الفلسطيني ضد الانتداب البريطاني والصهيونية قبل نكبة ١٩٤٨، وهي تحالفات استوعبت حقيقة الصراع وضرورة تكاتف أبناء الأمة في مواجهة الغزو الخارجي»(٣٢).

وفي الخمسينيات والستينيات ـ حتى هزيمة ١٩٦٧ ـ كان التياران العروبي واليساري تحديدا كما يقول الشقاقي «يظنان أنهما حسما التدافع والتصارع لصالحهما وأنهما حققا نفيا مؤكدا للتيار الإسلامي.

كان الغرب يريد المنطقة على صورته، وسوقا له ولسلعه، ولذا شجع على ضرب الإسلام بدءاً من الإطار العثماني المهترىء إلى آخر مؤسسة إسلامية استطاع أن يصل إليها، ويترك بصماته هناك حتى آخر مجاهد إسلامي استطاع محاصرته ومطاردته، ووفقا لما رصد الشقاقي فلقد شجع الغرب على تفتيت الإطار الإسلامي الجامع، ليس حباً في إطار قومي فاعل وحي، ولكن على أمل ألا يغال في التصغير والتجزئة، وعلى أمل ملء ما يمكن أن ينشأ من فراغ أيديولوجي وفكري، وتحقيق الإلحاق الثقافي بالغرب، . ولكن الصورة التي أرداها الغرب لم تتحقق إذ فشل في زرع الليبرالية، وقفز فجأة إلى الإقليمي اللقيط متجاوزاً الإطار القومي، مانعاً له

ومحارباً، فالاستعمار يريد أن تعود المنطقة إلى ما قبل الإسلام الذي صهر الأقاليم والطوائف والمذاهب والحضارات الصغيرة والكبيرة في بوتقة واحدة، ومشروع الغرب القائم على منهجية الصراع يريد أن يخترق المنطقة بتمزيقها قومياً وإقليمياً وطائفياً، وبعثرتها إلى مكوناتها الأولى قبل الجامع الإسلامي الكبير»(٣٣).

دور التيار اليساري كما يقول الشقاقي في هذا المجال كان متميزاً في التأثير على التيار القومي، ورفده بالمفاهيم العلمانية، أو تشجيعه على تبنيها، وبالتالي توسيع شقة الخلاف بين القومي والإسلامي ، بالإضافة إلى جهود الغرب الذي استطاع أن يسقط بعض الاتجاهات القومية في براثن العلمنة التي تدعو إلى محاربة الدين وشطبه من واقع الحياة ، ولكنه كان يحاول فرض دولة التجزئة القطرية إلى جانب العلمنة، مما وسع من حجم التناقض بينه وبين التيار القومى الذي ظل مصراً على دعوته إلى الاستقلال والوحدة، وهكذا في حين سقطت القوى القطرية تماما تحت حوافر الغازي وفي أحضانه، فقد وقف التيار العروبي وخاصة التيار غير المتغرب، في وجه الغرب الاستعماري كما وقف التيار الإسلامي، رغم استمرار التصارع والتدافع بين التيارين حول أولوية العروبة وجامع اللغة والتاريخ كأساس والجغرافيا كمناط، هذا بالنسبة للتيار القومي العربي ، وحول أولوية العقيدة والأيديولوجيا والهوية وتطبيق الشريعة بالنسبة للتيار الإسلامي، ولكن مع تقدم الغازى الأجنبى وتعقد أساليبه وتطورها بات واضحاً لكل من التيارين أنه ليس فهم وتحليل وتفسير كل منهما هو المهدد بالتغييب ، ولكن وجودهما معا هو المهدد. إن استمرار الإسلام كعقيدة، والعرب كقوم وأمة أصبح على المحك.

ولكن حجم الخلاف بين اليساري والإسلامي كان أعمق وأشمل كما تقول كتابات الشقاقي ليس فقط، بسبب اختلاف الرؤى الأيديولوجية.. ولكن سياسياً، وهذا هو الأهم، كان بسبب عالمية الدعوة اليسارية والدعوة الإسلامية، مما أدى إلى فهم خاطيء لطبيعة العالمية، فقد انتمى كل من التيارين إلى محيطه العالمي على حساب محيطه القومي، مما غيب عنه تبصر الساحة التي يعمل عليها، وأدى به إلى خوض معركة ليست هي معركته، والتغيب عن ساحة المعركة التي كان يقف عليها.

ولكن نقطة التدهور التي بلغتها مسيرة التراجع في التجربة المعاصرة للأمة أنضجت في وعي الجميع أشياء كثيرة كما يرصد الشقاقي: أصبح الخلاف المذهبي ترفاً تأباه المرحلة ويستهجنه منطق التاريخ، وتواترت دروس التجارب كي تؤلف إدراكاً متزايداً بوجوب طرح الأسباب التي تصنع الفجوة بين إرادات تتقاطع موضوعيا في الطموح إلى تغيير ما آلت إليه الأوضاع . فقد مرت الأمة في السنوات الأخيرة بعدة ظروف، لم يكن ممكناً لأحد القفز عليها أو تجاهلها، في سياق عمله السياسي.. وأهمها: ضرب القدرة الاستراتيجية العربية في حرب الخليج، وانهيار النظام العربي، وذهاب النخب الحاكمة إلى التسوية ثم إلى التطبيع، وانهيار الاتحاد السوفياتي والمعسكر الاشتراكي، بالإضافة إلى الحروب ضد المسلمين التي أخذت أبعاداً عالمية وكأن هناك حرباً عالمياً تخاض ضد المسلمين، مما أعطى دفعاً للبعد الإسلامي وبالتالي دفع الإسلاميين إلى توسيع تحالفاتهم ، ودفع التيارات الأخرى إلى البحث عن أسباب هذه الهجمة ضد الإسلام، الذي أصبح - بفعل ذاتي كامن في ثوريته وبفعل إرادة غربية تنحو إلى استبدال الخطر الشيوعي بالخطر الإسلامي- يتصدر واجهة الفعل السياسي.

فلسطينياً ، يقول الشقاقي: شكلت الانتفاضة مخرجا حيويا للمشروع الوطني ككل، ومدخلاً لصياغة وعي سياسي جديد، إذ كانت الانتفاضة مناسبة ملزمة للتيارات الثلاثة لتعيد النظر في مواقفها المسبقة وصورتها عن الآخرين، وفرضت طبيعة المعركة الشعبية المقترحة مع العدو، والتداخل الميداني بين الجميع، فرضت عليهم إقامة تحالفات وعلاقات بعيداً عن منهجية التكفير والاستثناء والنفي، واكتشفت الأطراف المختلفة أن نقاط التقاء تجمعها مع بعضها بغض النظر عن انتمائها الأيديولوجي، وأن الإسلامي المناضل أقرب إلى اليساري أو القومي من اليساري والقومي الذي يذهب نحو التسوية والاتفاق مع العدو. وكان إنشاء تحالف الفصائل العشر، ومن ثمة تحالف القوى الفلسطينية، إعلاناً عن بدء مرحلة جديدة في تاريخ العلاقة بين التيارات الثلاثة، ليس على الصعيد الفلسطيني فحسب، وإنما على الصعيد العربي أيضا. لقد ضم تحالف القوى الفلسطينية، لأول مرة اتجاهات

إسلامية وقومية ووطنية ويسارية.. وكانت لحظة لقاء هذه القوى جميعا «لحظة إشراقة» في الحركة السياسية الفلسطينية، فقد أبدت الأطراف المختلفة قدراً كبيراً من الرغبة في تجاوز حساسيات الماضي، وفي الإقلاع عن عادة التهيب والتوجس مما يمكن أن يضمره الواحد للآخر.

لقد جسدت الانتفاضة/ الثورة وفقاً لما يرصده الشقاقي وحدة الشعب وقواه الفاعلة على الأرض، فرغم الخلافات الفكرية والسياسية بين أطراف عدة إلا أن الجميع وجه جهده وضرباته باتجاه العدو مما نزع فتائل تلك الخلافات ليعطيها حجمها الحقيقي أمام عدو شرس يسعى للقضاء على الجميع. إن مراهنة العدو على شق الصف الفلسطيني في الداخل كانت على الدوام جزءاً أساسياً من مخططاته لإجهاض الانتفاضة/ الثورة، فحاول التركيز على بعض الانقسامات والصدمات العابرة بين القوى السياسية الفاعلة خاصة بين بعض الإسلاميين من جهة وقوى وطنية من جهة أخرى، ولكن الشعب المجاهد وقواه السياسية الفاعلة كانت تفوت الفرصة على العدو، فقد التزمت معظم القيادات في النهاية بالإجماع الشعبي عندما رأت تصميم شعبنا على مواصلة انتفاضته بلا تراجع كما استطاعت القوى السياسية وأمام النبع الأخلاقي الهائل للانتفاضة أن تجد حلا أو آخر لخلافاتها.

لقد احتفظنا كما تقول كتابات الشقاقي كل على حدة بموقفه الأيديولوجي وتجاوزنا هذا الأمر إلى التعاون والتنسيق الأرحب على المستوى السياسي، رغم التباينات على المستوى السياسي.. إلا أننا وجدنا قاسما مشتركًا وبرنامجا وطنيا يمكن أن نخوض على أساسه النضال ضد المؤامرة التي تواجهنا وهذه مهمة الإسلامي وغير الإسلامي.. ولا يجوز أن يفرط الإسلاميون في الوطن ولا يجوز أن يفرط فيه الوطنيون فليس هناك فصيل قادر على خوض المعركة بمفرده. ولكننا لم نحسم هذا التحدي أو نتجاوزه بعد، أي لم نتمكن من تحويل تحالف القوى الفلسطينية، أو تحالف مختلف التيارات إلى قائد حقيقي للشعب الفلسطيني وللانتفاضة، وأعتقد أن مصداقيتنا يجب أن تعمل بقوة لاستقطاب كل شرائح الشعب الفلسطيني بداخل فلسطين المحتلة ضد المؤامرة، دونما إهمال لدور الشتات.

إن هذا الإحساس، وهذا الوعي أعادنا جميعا إلـى نقطة هادئة، مهمة وموضوعية للبدء بعيدا عن صخب التدافع والتصارع، فقد بات مدركاً، اليوم، من كل التيارات الثلاثة مدى الإمـكان النضالي لها مجـتمعة، ومدى التداخل التـاريخي والحضاري بين العروبة والإسلام، فلقد عاشت الأمة ثـلاثة عشر قرنا لا تعرف إلا الترادف بين مصـطلحي الـعروبة والإسلام. وهـي اليوم مهـددة في صمـيم هويتـها وفي معـنى وجودها، أمام مشاريـع الشرق أوسطية، وأمام محاولات دخول إسرائـيل في جامعة الدول العربـية! أو تغيير اسم هذه الجـامعة. وبالإضافة إلى أن الإسلامـي مهدد في عقيدته عبر حشره في خانة التهمـة الجاهزة: الأصولية والتطرف ، فإن القومي مهدد بنـفي العـروبة ومـنع حلـم الوحدة، والـديمقراطـي محارب فـي صمـيم مشـروعه الديمقراطي عـبر حماية النظم الـديكتاتورية، والمحافظة عـلى التخلف والتبـعية بقوة التسوية ومستحقاتها. نعرف أن مرارات وخسارات سنوات وساحات التصارع بين العروبـي والديمقراطـي والإسلامي كبـيرة، ولكن عـلينا ألا نجـمد عند هـذا الماضي القريب وجنـونه وجموحه، بل ننطلق إلـى المستقبل، ونحن نخـرج من هذا الماضي بتجربـة ودرس الأخطاء والمعوقات التـي لا بد من تجاوزها، إن أردنا أن نسـتمر في الحياة وأن تكـون لنا رسالة في هذا الـعالم. وهذه نقطـة انطلاق لفهم حق الـتعددية والمشـاركة السيـاسية لـلجميـع، وضرورة تغـليب المـصلحـة العامة عـلى المصـالح الفئـوية.

إن الحوار الفكري يجب وفـقا لأطروحة الشقاقي اليوم أن يستـمر في حين يبقى الاجتماعي قابلا للتـنوع حتى داخل نفس التيار، أما السياسي فهـو مدخلنا اليوم إلى التوحيـد في مواجهة الغرب.. وتـأتى فلسطين فـي قلب هذا السياسـي رغم أنها لا تنفصل عن كافة الأبعاد الأخرى من فكري واجتماعي وحضاري.

فلسطـين أيديولوجيا هـذا الزمن العربي والإسـلامي المعاصر، بل عـنوان نضال الإنسان، فـهل هناك ما هو ادعـى للتوحيـد والنهوض هكـذا يسأل الشقاقـي وهكذا يجيب.

إن فلسطين بحكم حضورها في مركز التحدي الغربي الاستعماري لشعوبنا وأمتنا، وبحكم حضورها أيضا وتاليا في مركز المشروع الإسلامي ستبقى رمزا أو دالة على حريتنا أو عبوديتنا واستقلالنا أو تبعيتنا ، نهضتنا أو تخلفنا، دالة على التزامنا الإسلامي أو خسراننا وربما على إيماننا أو عدمه .. ومن هنا يصبح الالتزام بفلسطين هو القاسم المشترك الأعظم عربيا وإسلاميا وديموقراطيا أيضا، لأن الالتزام بفلسطين يعنى أكبر مشاركة شعبية على المستوى الفلسطيني والعربي، والإسلامي، إن هذه المشاركة الواسعة تعنى إثراءالحياة السياسية بالنسبة للمستويات المذكورة، فليس معقولاً أن يكون هناك التزام حقيقي للشعب الفلسطيني بقضيته دون المشاركة الكاملة في الفعل والتفاعل السياسي من حولها، وهذا تعميق لمسيرة التشاور والديموقراطية، وليس معقولا أن يكون هناك التزام عربي مغربي أو عراقي - على سبيل المثال - بالقضية الفلسطينية دون مشاركة الشعب العربي المغربي أو العراقي في الفعل والتفاعل السياسي من حول فلسطين، وهذا يستدعي حضور أشكال وأطر وممارسة ديموقراطية تسمح لهذه الشعوب بتقديم مساهمتها ومشاركتها الجادة والحقيقية، وليس معقولا أن يكون هناك التزام إيراني أو باكستاني أو تركي دون أن نرى شعوب هذه البلدان تندفع في المشاعر دفاعاً عن فلسطين، وهذا يعني حضور الديموقراطية نظرياً وعملياً.

إن العملية والممارسة والخطاب الديموقراطي مسألة في منتهي الأهمية، خاصة كلما كان الأمر يتعلق بفلسطين، فالتعامل غير الديموقراطي مع مسألة الانتفاضة هو الذي حولها إلى مجرد حالة فلسطينية، وهو الذي جعل الرسميين يستسهلون التعامل معها كمشروع للاستثمار العاجل والسريع لا كمشروع استراتيجي للتحرير ورأس رمح لقيام عربي وإسلامي شامل، والتعامل غير الديموقراطي مع الانتفاضة هو الذي هيأ لبعض الأنظمة قمع شعوبها التي خرجت للتضامن مع الشعب الفلسطيني.

إن الالتزام بالديموقراطية يعني مزيدا من الالتزام بفلسطين، يعنى المشاركة الأوسع، أي الديموقراطية.

وأخيراً يؤكد الشقاقي في آخر كتاباته حول هذه القضية على بعض الأسس التي تصلح منطلقًا ثابتاً لابد للتيارات الثلاثة الالتزام بها من أجل الحوار واللقاء(٣٤):

١- الصراع مع التحالف الغربي - الصهيوني - يمس كينونة الأمة، ووجودها وهويتها وحقها التاريخي في وطنها، وبلادها وقرارها المستقل.

٢- بدون حسم الصراع على فلسطين فكل محاولات الأمة للنهضة والاستقلال ستجهض، أو تحاصر أو تدفع الأمة تكاليفها مضاعفة من التضحيات والزمن على السواء

٣- في حين يمكن أن نختلف حول طريقة إدراة الصراع على المستوى التكتيكي فلابد من إجماع حول اهداف وقضايا الأمة الاستراتيجية الكبرى مثل فلسطين.

٤- على التيارات العروبية والإسلامية والديموقراطية أن تؤكد التزامها، بأن الصراع مع الخارج له الأولوية المطلقة، وأن الاختلافات الداخلية السياسية والأيديولوجية تحل بالحوار بعيدا عن أي عنف.

٥- ليس من تلازم ضروري بين العروبة (القومية العربية) والعلمانية، فالعلمانية التي تعني فصل الدين عن الدولة حقيقة غربية لا تتطابق مع واقعنا العربي الإسلامي. فالقومية العربية تختلف عن القومية الغربية في مضمونها ونشأتها، كما أن الإسلام يختلف عن الكنيسة في مضمونه ودوره وآلية عمله، وبالتالي ليس بالإمكان نسخ تجربة الكنيسة مع البرجوازية الأوروبية والقوميات الأوروبية وتطبيقها على الواقع العربي الإسلامي بلا أي سند تاريخي أو اجتماعي.

العلمانية موقف منفصل عن الموقف القومي، وليس من داع لافتعال رابط لا أساس منطقياً له.

٦- كما هو مطلوب من التيار القومي والديمقراطي إعادة قراءة الحركة الإسلامية دون الإحالة على الخارج، فالحركة الإسلامية مطالبة بنفس الشيء ومطالبة بإعادة تقييم بعض التجارب القومية والديمقراطية، وتعميق تحالفاتها السياسية مع القوى الوطنية الجادة لأجل خلق جبهة عريضة في مواجهة نظام القطرية والتبعية الذي أصبح أداة طيعة في أي تشكيل أو مصير يراد للمنظمة سواء على شاكلة شرق أوسط جديد أو غيره من تصورات الغرب الاستعماري للمنطقة.

٧- إن قيام أي تيار هو تعبير عن قوى اجتماعية موضوعية ، لا يمكن مصادرتها أو إلغاء دورها أو شطبها أو تهميشها بقرار ذاتي، ولا يمكن أن تجر أي ممارسة كهذه سوى إلى سيادة علاقات العنف، والتشاحن الداخلي، مما يعقد الحياة السياسية الاجتماعية ويهدر جهود الأمة في معارك مفتعلة وغير مبررة.

٨- حقوق الإنسان، التنمية والتعددية ، عناوين يجب أن تحظى بعناية ورعاية جهد الحركة الإسلامية، كما الحركات الأخرى.

٩- إن تحديد المواقف هو الضمانة لعدم الانزلاق. إذ علينا أن نحدد مسطرة ثابتة تحكم العناصر الثابتة في المنهج السياسي، وفي مسيرة جهادنا، وهذا لا يتناقض مع واجبنا في تعزيز روابطنا وتحالفاتنا مع القوى الوحدوية المعادية للصهيونية، بل يمتنها ويجعلها قائمة على أسس ثابتة ويعطيها الضمانات بأن تحالفاتنا لن تميل مع عصف رياح المتغيرات في السياسات.

١٠- في المسألة التنظيمية لابد من حوار داخلي.. بداخل كل فصيل. هذا الحوار يستلهم التطورات المهمة على مختلف الصعد ، ويستلهم تراث الشعب والأمة بحيث يحصل على فكر نقدي وتجديدي وحقيقي وهذا يتطلب وعاء متجانسا لأن العلاقة بين الفكر والتنظيم هي "علاقة جدلية". فليس بالإمكان حمل الفكر الثوري بوعاء او بتنظيم غير ثوري وليس بالإمكان حمل فكرة صحيحة وسليمة بوعاء او بتنظيم غير صحيح يعاني من الامراض العديدة .. أي إننا بحاجة إلى ثورة ثقافية وتنظيمية في صفوف المعارضة الفلسطينية.. إضافة إلى التجديد

الفكري التنظيمي، فلابد من قراءة الواقع الذي نعيشة قراءة واعية ومستبصرة لتقديم الإجابات الحقيقية، والشافية عن المعضلات الحقيقية.

١١- في نفس الوقت الذي يجب أن ينتهي فيه التناقض الوهمي بين العروبة والإسلام فإن القوى القومية والوطنية مطالبة بالاعتراف بدور الإسلام التاريخي والمعاصر والمستقبلي كعقيدة ونمط حياة لمعظم جماهير أمتنا، وأن قوة الإسلام هي القوة الرئيسية التي ما زالت واقفة ومرشحة لمواصلة الصراع مع الغرب ومشروعه في الهيمنة والسيطرة، وأن هذه القوة هي المرشحة لقيادة تحالف المستضعفين والمظلومين في العالم أجمع في العقود القادمة من أجل عالم أكثر عدالة.

* تلك هي الرؤية المتكاملة والهامة للشقاقي بشأن لقاء وحوار التيارات العربية على اختلاف مشاربها: إسلامية وقومية ويسارية، وما أبدعها من رؤية.

سادساً: محورية إيران في فكره: التجربة الإسلامية في إيـــران وآثـارهـا عـلى فلسـطين:

من الإنصاف العلمي أن نقول أن الشهيد الدكتور فتحي الشقاقي تأثر إيجابياً بحدث الثورة الإسلامية في إيران (١٩٧٩) رغم عدم وجود أطر تنظيمية تشده إلى هذه الثورة وقتها، ومن الإنصاف القول أن إيران ـ الثورة قد تأثرت بالشقاقي أيضاً وأحبته، ولعل في بيان نعي قائد الثورة [السيد الخامينئي بعد علمه باستشهاد الدكتور فتحي الشقاقي يوم ٢٦/ ١٠/ ١٩٩٥م] والمعاني الرائعة التي احتواها البيان ما يؤكد الموقع المتميز الذي كان الشقاقي يحتله في قلوب قادة الثورة ، بل والشعب الإيراني بأسره.

ولا نذيع جديداً حين نعلن أن صحيفة [إيران اليوم] الإيرانية قد قامت بعمل استفتاء بين قرائها من الشعب الإيراني بمناسبة بدء العام الجديد وفقاً للتقويم الفارسي (٢١ مارس من كل عام)، فكان رأي الشعب الإيراني أن رجل العام بلا منازع هو الشهيد الدكتور فتحي الشقاقي .

* لقد أحب إيران: الثورة والنموذج الإسلامي المتقدم، وأحبته إيران أيضاً ومن القلب.

* أن أول من كتب عن الإمام الخميني في العالم العربي وتحديداً في مصر كان الشهيد الدكتور فتحي الشقاقي ، فلقد كتب سلسلة دراسات هامة وبتوقيع مستعار «هو عز الدين الفارس» في مجلة (المختار الإسلامي) خلال أعوام ١٩٧٩ - ١٩٨٠ - ١٩٨١ ، وهي مرفقة في أعماله الكاملة) وكذلك وضع كتاباً متميزاً عن الإمام الخميني أسماه [الخميني الحل الإسلامي والبديل] انتصر فيه للثورة وللإمام وتنبأ فيه بوصول رجال الإمام إلى السلطة [صدر الكتاب قبل وصولهم للسلطة بأيام عام١٩٧٩] وقوض فيه إكذوبة الصراع المفتعل بين الشيعة والسنة، وانتشر هذا

الكتاب الهام في مصر انتشاراً واسعاً، ودفع صاحبه أياماً من عمره في المعتقل نتيجة لإعداده هذا الكتاب (وهو مرفق أيضاً في الأعمال الكاملة).

* لقد أحب الشقاقي ، الامام الخميني قبل أن يلتقيه بأكثر من عشر سنوات، وعندما التقاه ، عام ١٩٨٨ جلس الامام معه أكثر مما جلس مع رؤساء الدول وأحبه الامام وبارك جهاده، وحذره أيضاً من الدور الذي يقوم به [ياسر عرفات] تجاه القضية الفلسطينية.

* ولنترك للشهيد الدكتور فتحي الشقاقي يحدد بنفسه كيف تأثر بالثورة فكرياً وسياسياً ، وكيف انعكس هذا التأثير على فلسطين: القضية والوطن.

يقول الشقاقي : «يجب أن يعرف العالم أن شعارات الامام الخميني رضوان الله تعالى عليه كان لها الصدى في فلسطين كما لم يكن لها في أي مكان آخر من العالم؛ والسبب أنه كما أعطى الامام الخميني لحياة الإيرانيين معنى أعطى لحياتنا في فلسطين أيضا معنى ، قبله كنا في حالة يأس ونعتقد أنه لا يمكن هزيمة هذا العدو المستكبر وإزالة هذا الكيان الصهيوني، الإمام وبقيادته لهذا الانتصار للإسلام العظيم المذهل في القرن العشرين أعطانا الأمل بأن الإسلام الذي أسقط الشاه يمكن أن يسقط بقية الشاهات وأن يحرر فلسطين ، هذا هو المعنى الكبير والعظيم الذي قدمه لنا الامام والثورة في داخل فلسطين فالجمهورية الإسلامية اليوم وبقيادة آية الله العظمى السيد الخامنئى أيضا تسير على الطريق نفسه على الرغم من الصعوبات الكبرى والحصار، وإننا نعرف أن التزام الجمهورية بالقضية الفلسطينية ودفاعها عن حقوق الشعب الفلسطيني في كل موقع ورفضها التفريط كغيرها يجعلها أمام فوهة المدفع الأمريكي والصهيوني والغربي بشكل عام.وهنا لابد لي من أن أذكر (والقول للشهيد الشقاقي) «علاقتي الشخصية بالامام الراحل الخميني العظيم فعندما أدخلنى الصهاينة إلى الزنزانة الصهيونية وكنت أنزف يومها بدأت بكتابة اسم روح الله الخميني على جدار الزنزانة بالدم النازف، هذه هي علاقتي بالامام الخميني الراحل لقد تعمدت بالدم والجهادوبالتضحية»(٣٥).

ولأسباب يمكن فهمها يقول الشقاقي «كان صدى الثورة الإسلامية الإيرانية في فلسطين من أوضح وأقوى الأصداء. في فلسطين يتواجد احتلال صهيوني استيطاني اقتلاعي يسعى لإبادة الشعب الفلسطيني بقتله ونفيه وطمس هويته ويمارس لأجل ذلك أخطر وأبشع الوسائل ثقافياً واجتماعياً وأخلاقياً وأمنياً واقتصادياً، ولقد ساهم في ذلك إضافة إلى التخاذل العربي والتراخي الفلسطيني الرسمي في إشاعة أجواء الإحباط واليأس داخل فلسطين. فكان حجم الانتصار الإيراني ومعناه ودلالته كبيراً بالنسبة للفلسطينيين. إذ اصبح واضحاً أمامهم أنه بالإمكان مواجهة المعادلة الدولية الظالمة، وأنه بإمكان الشعوب أن تهزم جيشاً حديثاً وقوياً إذا تحررت إرادتها من الخوف والتبعية وأخيراً فإن قوة الإسلام لا تقاوم.

وهكذا جدد الإسلام قوة اندفاعه على امتداد فلسطين، وتوارت شيئاً فشيئاً اليافطات العلمانية، وبدأت تبرز الشعارات الإسلامية وتتعاظم التجمعات الإسلامية في المساجد والجامعات والنقابات والجمعيات»(٣٦).

وكان للخصوصية التي أولتها الثورة الإسلامية إبان قيامها لفلسطين تأثير كبير في جذب انتباه الشباب الفلسطيني نحو طهران الثائرة وإبداء أعلى درجة من التعاطف مع الثورة الإسلامية. وإن شكلت تلك الأيام الذروة فلم تكن البداية كما يقول الشقاقي ، مع بداية نهضة الامام الخميني عام ١٩٦٣ م في إيران كانت فلسطين تأتي في قلب الخطاب الديني والسياسي للامام. ورغم البعد الجغرافي إلا أنه تعامل معها كانها قضية داخلية أو قضية حدودية. فطوال سنوات الصراع مع الشاه كان الامام يربط بينه وبين (إسرائيل) وكأنهما شيئان متلاصقان ووجهان لعملة واحدة، كل واحد منهما يغطي الآخر ويمده بسبب من أسباب الحياة. وعندما كان الشاه يشترط عدم مهاجمة (إسرائيل) كان الامام يرد بسخرية عميقة : (لماذا وهل كانت أمة يهودية). وفي منفاه ١٩٦٤ كان يقول: "إن إسرائيل هي في حالة حرب مع الدول الإسلامية.. لقد حذرت من هذا الخطر مراراً" ويضيف في مكان آخر "وأنا أعلن لجميع الدول الإسلامية وإلى كافة المسلمين في مشارق الأرض ومغاربها، بأن المسلمين الشيعة هم أعداء لإسرائيل وعملائها، بريئون من الدول

التـي تعـترف بـإسرائيـل" وعنـدما اشـتعـلت حرب حـزيران (يـونيـو) عام ١٩٦٧ بالعدوان الصهيوني على الدول العربيـة المجاورة، وما تبقى من فلسطين بما في ذلك بيت المقدس، كان الامام الخميني حاضراً بمواقفه السياسية الشجاعة، وفتواه الشرعية القوية التي ادانت الغزو ودعت إلى وحدة المسلمين وحرمت التعامل مع (إسرائيل) وحرضت على القتال. ومنذ ذلك التاريخ لم ينعدم اتصال الامام بالثورة الفلسطينية، وتعتـبر فتواه بجواز صـرف الحقوق الشرعـية لصالح الـعمل الفدائي المجـاهد من المواقف البارزة في مسيـرة الامام تجاه الثورة والقضية الفلسطيـنية ففى عام ١٣٨٨هـ توجه إلى الامام الخمـيني فئة من الفدائيين الـفلسطينيين ليسـألوه: هل يجوز صرف الحقوق الـشرعية من الزكـاة، وغيرها لتـسليح أفرادهـا ـ (أي المقاومة المسلـحة ضد (إسرائيل) وإعدادهم لذلك؟

وكان جواب الامام كالتالي:-

بسم الله الرحمن الرحيم

سبـق وأن نوهت بمـا تكنه (دولـة إسرائيـل) الغاصـبة من الـنوايا الخبـيثة، وكـما حذرت المسلمين من هذا الخطر العظـيم المحدق بهم وببلادهم ، واهبت بهم أن لا يفسحوا المجال أمام العـدو كي يتمكن من تنفيذ مخططاته الإجـرامية التوسعية، وأن يغتنموا الفـرص ويتلافوا الأمر قبل أن يتسع الخرق علـى الواقع، هذا وبما أن الخطر يهدد كيان الإسلام فعلـى الدولة الإسلامية خاصة وعلى المسلمين عـامة أن يتكاتفوا لدفعه وأن يتذرعوا في سبيل استئصاله بـشتى الوسائل الممكنة، وأن لا يتقاعسوا عن إمداد ومعـونة المهتمـين بالأمر والمدافعين عـن الإسلام ويجوز أن تصـرف الحقوق الشرعية من الزكوات وسائر الصدقات في هذا الـسبيل الحيوى المهم، وأخيراً نبتهل إلى اللـه العلي الـقدير. أن ينبـه المسلمـين من سباتـهم العميـق ويدفع عنـهم وعن بلادهم كيد الأعداء والمعتدين والسلام على من اتبع الهدى.

روح الله الموسوي الخميني

٣ ربيع الثاني ١٣٨٨هـ

وهكذا يتضح أن ما حدث عام ١٩٧٩م - عام انتصار الثورة الإسلامية في إيران - من تلاحم روحي، وفكري ونضالي وسياسي بين إيران المسلمة الثائرة ، وبين فلسطين كان يمتد عميقاً في الجذور.

وفي ليلة الانتصار الكبير ١٢/ ٢/ ١٩٧٩ كانت الجماهير المسلمة الثائرة في طهران تحول السفارة الإسرائيلية إلى سفارة فلسطين، في إشارة لم يسبق لها مثيل في أي عاصمة عربية أو غير عربية واستقبل رئيس م.ت.ف. وقادة الثورة الفلسطينية في طهران كما لم يستقبلوا في أي مكان آخر من قبل وبدت كل إيران (حتى خراسان على حد تعبير رئيس م. ت. ف)العمق الاستراتيجي للثورة الفلسطينية [٣٧].

وهكذا سنرى كما يقول الشقاقي في كتاباته [٣٨] انعكاس الثورة الإسلامية على الواقع الفلسطيني يشمل مستويين مختلفين: **الأول:** هو واقع الثورة الفلسطينية في الخارج وتوجهات قيادتها وارتباطاتها وعلاقاتها المحلية والإقليمية والدولية هذا الواقع الذي بات مثقلاً بالفساد الإدارى والبيروقراطي، مثقلاً بالاحتراب الداخلي والاختراقات الأمنية، مثقلاً بحلم الدولة قبل أن تصلب الثورة على عودها ، واقع الثورة المقدسة التي بات المدنس ينتشر في انحاء منها كخلايا خبيثة قاتلة.

أما المستوى الثاني: فهو الداخل الفلسطيني الشعبي شاملاً الأرض المحتلة منذ العام ١٩٤٨ إضافة إلى الضفة الغربية وقطاع غزة لقد عاش هذا الداخل الشعبي الإحباط والخيبة ولكنه لم يكن مثقلاً باوزارالخارج وعلاقاته وارتباطاته أو تعقيداته، كان بريئاً وعفوياً يطوي القلب على أصالته وجذوره.

بقدر التفاوت في هذين المستويين كانت علاقة الثورة الإسلامية مع الخارج الفلسطيني الرسمي تدخل في سلسلة من الأزمات كان مظهرها الاساسي يتمحور حول إسلامية الثورة في إيران وضرورة ذلك في فلسطين أيضاً. ولأن الثورة الفلسطينية كانت قد أوغلت بعيداً عن الإسلام كايديولوجيا وأحكام شرعية ضابطة

للمسار والسلوك السياسي فقد أصبح كما يرصد بحق د. فتحي الشقاقي من الصعب أن يقدم النهج الخميني غطاءً لمسيرة تدخل في انعدام الوزن وتضرب في التيه دون أن تحاول التوقف لمعالجة الأخطاء. وجاءت أعوام ٨١/ ٨٢/ ٨٣ وهي أعوام الصمت عن الغزو العراقي للدولة الإسلامية الوليدة قبل الاصطفاف الفج والأحمق إلى جانب الغزو، وأعوام القبول بمشروع فهد أو فاس لاحقاً حيث الإقرار الضمني بشرعية الكيان الصهيوني، هذا المشروع الذي اعتبره الامام الخميني مخالفاً للقرآن، وخائن من يقبل به. وهكذا وبقدر ما كانت الثورة الفلسطينية المعاصرة بقيادة رئيس م .ت.ف تتعاطى أكثر مع المدنس وبقدر ما كانت تقترب أكثر من أعدائها المحليين والدوليين بقدر ما أصبحت تتعارض مع الثورة الإسلامية وتفترق عنها وتبتعد. ولكن هذا لم يكن النهاية بالطبع فالصحوة الإسلامية التي اطلقتها الثورة الإسلامية كانت تنبت في فلسطين ثورة جديدة تتنامى شيئاً فشيئاً تطوي القلب على الإسلام وتنطلق من المساجد والحارات الشعبية وعلى مدى الثمانينيات كان صعود حركة الجهاد الإسلامية والجهاد المسلح في فلسطين قبل أن تتفجر الانتفاضة الإسلامية المباركة في تشرين أول (أكتوبر) ١٩٨٧ كمعجزة إلهية في صحراء القحط العربي وفي أجواء الخيبة العربية. كان الاحتلال الصهيوني بقمعه وبطشه وكان التراكم النضالي الممتد لدى الشعب الفلسطيني المجاهد وكانت خيبة الأمل في الواقع العربي الفلسطيني الرسمي. كل هذه الأسباب كما يخلص الشقاقي اجتمعت وتوقفت أمام عنصر التفجير الأساسى الذي سيطلق الشرارة ويحافظ على ديمومتها الإسلام المجاهد، تلك الروح التي أطلقتها الثورة الإسلامية لتنبت في فلسطين بعد هذه السنوات. ولتتضح معادلة الصراع، الإسلام وحده هو النفي الكامل للمشروع الصهيوني، الإسلام وحده هو القادر على إدارة الصراع حتى النهاية دون أن يسقط في الطريق كما حدث للأطروحات العلمانية الأخرى. بدون الإسلام لن تكون لنا حقوق أو هوية أو وطن ولن نكون أكثر من جسر لبنى إسرائيل إلى كافة العواصم.

ومن وجهة نظر الشقاقي وخلاصة [٣٩] لرؤيته بشأن علاقة إيران الثورة

بفلسطين أن إيران القوية والحديثة ستكون أقدر دائماً على القيام بدورها الرسالي .
الدور الذي ستكون الثورة والجمهورية الإسلامية قادرة على تحقيقه عبر:-

١- رفع شعار الوحدة الإسلامية والعمل المدروس والجاد لتحقيق ذلك على الأرض فالتفتيت والتفسيخ والتجزئة هدف استعماري ثابت علينا مواجهته بتجاوز المسألة العرقية والقومية باتجاه أفق الإسلام الأرحب الجامع للأمة دونما صراع كلما كانت المسألة القومية لا تصطدم مع القناعات الإسلامية، وكذلك تجاوز المسألة المذهبية عبر اللقاء والحوار والتقارب والتقريب والتأكيد على الثوابت والأصول الجامعة.

٢- تبني القضية الفلسطينية كقضية مركزية للأمة، أن الأبعاد القرآنية والتاريخية والواقعية كفيلة بتوحيد الأمة، كل الأمة حول فلسطين، وليس هناك من قضية أخرى بقادرة على القيام بهذا الدور كفلسطين الموجودة في قلب القرآن وعلى رأس حركة التاريخ مما يجعلها مركزاً للتفجير في المنطقة وفي كل الوطن الإسلامي ومما يجعلها مركزاً لنهضة الأمة ، ففلسطين تبقى شاهدة على نهضتنا أو تخلفنا، استقلالنا أو تبعيتنا، عزتنا أو ذلنا .. بل على إسلامنا أو انحرافنا. ولن يستطيع الحكام أن يتخلصوا منها كما يحاولون منذ سنوات لأنها ستبقى تطاردهم عبر شعوبهم المؤمنة تارة وعبر التحول الآخر للمسألة: الكيان الصهيوني الذي يمثل مع مسألة التجزئة ثنائية المشروع الاستعماري منذ الحرب العالمية الأولى وحتى الآن.

ومن وجهة نظر الشقاقي إن التأثير الكبير للثورة الإسلامية في إيران على الصحوة الإسلامية في فلسطين وانطلاق الانتفاضة المباركة واستمرارها بزخم إسلامي وبشعارات إسلامية يعطينا فرصة تاريخية لا يجب أن نفقدها.

في هذه المرحلة فإن الوحدة وفلسطين يمثلان ثنائية المشروع الإسلامي الذي على الجمهورية الإسلامية أن تتبناه مقابل التجزئة.. والكيان الصهيوني ثنائية المشروع الاستعماري.

وهكذا [كما يخلص الشقاقي بعمقه وبعاطفته المشبوبة بإيران الثورة] نحفظ الجدل المقدس على امتداد محور (طهران القدس).

سابعاً : – الموقف من قضايا الواقع العربي والإسلامي:–

كان الشهيد الدكتور فتحي الشقاقي ، كتيبة مجاهدة متكاملة متحركة، كان حاضراً في كل قضية عربية وإسلامية، فكرية أو سياسية أو أدبية (فلقد كان عليه رحمة الله شاعراً وأديباً ومتذوقاً للفنون على اختلافها)، وكان لا يترك حدثاً عربياً أو إسلامياً إلا وكان حاضراً فيه برأيه أو بسلوكه ، وكانت إضافاته، وبخاصة في سني عمره الآخيرة عميقة، دافئة، ومتفردة في آن

* ولأن الإحاطة ، بكل ما قدمه وأضافه وأصله الشهيد الدكتور فتحي الشقاقي مسألة غاية في الصعوبة (ولعل القاريء سيكتشف ذلك بنفسه عند متابعة أعماله الكاملة التي تجاوزت الألف وستمائة صفحة مما استطعنا فقط أن نحصره ونوثقه): فإننا سنكتفي هنا ببعض النماذج مما تحدث فيه الشهيد،أو أبدى فيه رأياً.

(١)- قضية الأصولية والعلمانية:

يقول الشقاقي «بداية أود أن أسجل تحفظي وملاحظاتي، ليس فقط على الأصولية وإنما على المصطلحين ، طالما أن كلاً منهما يختزن تجربة أوروبية خاصة. على الأقل، فإنني هنا بصفتي إسلامياً وليس أصولياً، وسأتحدث عن الإسلامية وليس عن الأصولية ، هذا المصطلح الذي يتم تمرره في ثقافتنا اليوم ويسكت عنه البعض ظناً منه أنه يعنى العودة إلى الأصول والمباديء الإسلامية، أو يتماهي مع مصطلح "الأصوليين" الذي يعني في تاريخنا جماعة الفقهاء المشتغلين بعلم أصول الفقه.

الأصولية مصطلح يختزن تجاربا ورموزاً وإيحاءات لا علاقة لها بنا، بل مرتبط بالتاريخ الأوربي وبثقافة مسيحية نصية، تلتزم النصوص حرفياً وتعكس أحياناً التوسل بالعنف لتحقيق أهدافها، وهي ترجمة رديئة لكلمة – fundamentalism التي تعني في المعاجم مذهب العصمة الفردية وذلك نسبة إلى حركة بروتستانيية. إذن نحن أمام مصطلح غربي يحمل إيحاءات مسيحية غربية، وعندما يطلق على الغربي

صفة أنني أصولي فهو لا يترك مساحة لأي إيحاء إيجابي ، فقط، يريد أن يحجمني ضمن تجربة أوروبية مسيحية شديدة الخصوصية ومختلفة ويلصق بي إيحاءاتها السلبية، كما أنه في نفس الوقت يماهي بين ظواهر أصولية مسيحية أو يهودية أو إسلامية، بل يمكن القول بأصولية ماركسية . وكل هذا ينفي عن التعبير إمكان التوظيف العملي المجرد ويجعل معالجة الموضوع خاضعة للتوظيف التحريضي ضد الإسلامية أو ضد الظاهرة الإسلامية بعيداً عن أي سياق تاريخي أو عملي أو موضوعي.

وقبل أن أترك هذه الملاحظة أشير إلى أن القول بمصطلح (إسلامي) لا يعني أن غير المتصف به ليس مسلماً، فجمهور الأمة مسلم، واللفظ هنا للتخصيص وليس للنفي، وهو يصف أو يخص المشغول بالهم الإسلامي، ومع خيار الفكر والنظام الإسلامي كقضية نضالية. الملاحظة الأخرى تخص مصطلح العلمانية، وهي كلمة غير عربية، نحتت نحتاً ملتبساً، واستخدمت بشكل ضيق بين النخبة، دون النظر إلى ظروف ونشأة الكلمة الأصلية، وهي نشأت كنظرية ضد تسلط الكنيسة الاجتماعي والسياسي في صورته التاريخية البائسة، وطرحت تحرير العقل والجسد وذلك بعد حرب طويلة مع الكنيسة. ولا يمكن تمرير هذا المصطلح في ثقافتنا وحياتنا إلا بشرطين:

ا- تماثل الكنيسة مع المسجد في المضمون والدور وآلية العمل، والسلطة الكنسية مع سلطة علماء الدين (المسلمين)

ب - تماثل قوى المجتمع المدني الأوربي الناشيء حينها وطليعته البرجوازية حامل وناتج الثورة الصناعية مع قوى مشابهة في تجربتنا التاريخية.

ولأن الشرطين منتفيان فسوف يصعب التمرير العلمي أو الموضوعي لمصطلح العلمانية في ثقافتنا وحياتنا.

أضيف أن الأصل في الصراع الذي أدى إلى نشوء العلمانية، كأساس في بناء الدولة الحديثة لم يكن الدين نفسه أو حتى الكنيسة والهيئة الدينية ولا القيم الفكرية المستمدة من الدين لكن تسلط الكنيسة على شؤون الدولة والمجتمع.

وهذه العلاقة المتوترة بين الدين والدولة ليست سوى، استثناء في التاريخ لم يعرفه الإسلام والبوذية أو حتى الكونفوشيوسية» (٤٠).

(٢)- قضية صعود التيار الإسلامي في الواقع العربي :

يرى الشقاقي : (أن التيار الإسلامي تيار أصيل داخل الأمة، وهو الذي شكل على مدى ثلاثة عشر قرناً الجامع الحضاري الاساسي للأمة، فالإسلام يبقى الأصل، وفكرة ظهور التيار الإسلامي اليوم غير دقيقة لأنه لم يغب أصلا، إلا إن كان المقصود حضوره السياسي الفاعل بعد سنوات من التغريب والتغييب، وبعد سنوات من القمع والاستبداد وطرق الأصابع فوق السندان. لقد ظن التيار القومي والتيار اليساري، وبخاصة في الخمسينيات والستينيات من هذا القرن، أنهما حققا نفيا مؤكدا للتيار الإسلامي، الذي صارعاه تحت اسماء وعناوين مختلفة أبرزها «الجامعة الإسلامية» ، ولكنهما - التيار اليساري والتيار القومي، والعلماني تحديدا - وهما يخوضان المعركة ضد الآخر- التحالف الغربي الصهيوني - اكتشفا أنهما بلا بوصلة، بل فاقدا الهوية..حيث الإسلام هو الأيديولوجية الوحيدة التي يمكن أن تعبر عن العروبة وتهبها هويتها وخلاصها. لقد واجه التياران عدوا يتسلح بمنهج الغرب وهوية الغرب وإمكانات الغرب، فيما كان اليسار ينسخ عن الآخر أكثر مما ينظر إلى تاريخ الأمة وموروثها، بل ناصب هذا الموروث العداء . ارتبك التيار القومي تحت ضغط العلمانية من ناحية والعسكر من ناحية أخرى حتى كاد أن يتخلى عن منطلقاته الأساسية»(٤١).

ومن هنا غادر التياران مواقعهما مع ازدياد حدة الأزمة وجاءت هزيمة ومأساة ١٩٦٧ لتقدم المعيار العملي لليقين التاريخي ، إذ مزقت الهزيمة أغلفة الشعارات وكشفت عن مضامين رثة خاوية وأنماط فاسدة . وكان على الغائب الحاضر أن يعود إلى ساحة المواجهة، وهكذا عاد الإسلام ليقدم اليقين والرؤية. هزيمة ١٩٦٧ نبهت الأمة إلى استمرارها التاريخي كثقافة ووجود أصبح مهددا، ومن هنا أصبح الحل الإسلامي حتميا .

ويرى الشقاقي «أن الماركسية التي حملها المشروع اليساري مدرسة فكرية غربية الأصل والمنشأ، انتشرت تحت المظلة السوفيتية . دخلت المنطقة العربية بسبب إجاباتها عن الأسئلة والتحديات التي فرضها الاستعمار: أسئلة الثورة والاستعمار والتخلف . داعبت تلك الاجابات خيالات عدة في المنطقة، وجاء انتصار ثورات تبنت الماركسية في أنحاء العالم؛ ليعطي لها مكانا بارزا بين المثقفين، وتبنتها أحزاب عدة شيوعية واشتراكية وحتى قومية، بما في ذلك فصائل فلسطينية استعارتها ميكانيكيا، إما لأسباب سياسية، وإما لإيمان هذه الأحزاب بقدرة الماركسية على التعبئة الفكرية وتقديم أداة للوعي والتحليل والانتصار الفكري ومن ثم السياسي»[٤٢].

ولكن الماركسية ومجمل المشروع اليساري لم يجدا صدى في الوجدان الشعبي، وحتى في اليمن الجنوبي، حيث حكمت الماركسية، لم تتحول إلى فكر جماهيري، ولم تكسب ولاء الناس. وعلى سبيل المثال انضم أول عربي فلسطيني إلى الحزب الشيوعي الفلسطيني بعد أكثر من خمسة عشر عاماً على إنشاء هذا الحزب الذي اقتصر فقط إلى وقت طويل على اليهود. وفي مصر، أكبر بلد عربي، لم يستطع الشيوعيون أن يملأوا شارعا واحدا على مدى تاريخهم الطويل والنشط أحيانا، لقد فشلت الماركسية في تقديم أي نجاح بعيدا عن المظلة السوفيتية، حتى إذا انهار الاتحاد السوفيتى فقدت، ومعها المشروع اليساري، آخر ما يقيمها على قدميها. وتراجع اليسار إلى تيار فكري صغير ومعزول بعد أن لجأ كثير من أركانه إلى الليبرالية. إن العاملين الذاتي والموضوعي معا قتلا المشروع اليساري الماركسي. أما المشروع القومي العربي فنشأته مختلفة، في البداية لم يكن هناك من عداء للإسلام، بل بدت بواعث التجاذب بين الإسلام والعروبة بريئة، ولكن مع مزيد من التدخل الخارجي والحضور الأوسع للعلمانية ازداد حجم التناقض، ولم يكن هذا في صالح المشروع القومي. مع جمال عبد الناصر حاز المشروع القومي على زخم جماهيري وامتلك عناصر الثورة والمقاومة، بل دخل إلى الوجدان الشعبي ولكنه لم ينجح في تكوين فكره الخاص، بل بدأ ذلك صعبا ـ إن لم يكن مستحيلا ـ في غياب الأيديولوجية القومية وهي الإسلام، ولأن العرب قوة إسلامية بلا أدنى شك، فقد كان البحث عن حل خارج هذه المعادلة مجرد إضاعة للوقت.

ولذا «عندما يغيب الشخص تعود القومية العربية حالة عاطفية وشعارا. لا أريد أن أقول إن المشروع القومي العربي فشل وانتهى، ولكن أقول إن مستقبل هذا المشروع مرهون بمدى الاستجابة للانتماء إلى هوية الأمة وعقيدتها، وهذا يتطلب قطع الارتباط مع العلمانية (بمعنى فصل الدين عن الدولة) وإلا وقع القوميون في فخ الليبرالية. والليبرالية ستقودهم إلى المصالحة مع واقع التجزئة والهزيمة، بشروط الهيمنة الصهيونية. أخيرا، لا شك أن الأسباب الموضوعية لتراجع المشروع القومي حاضرة، ولكن أسبابا ذاتية مهمة أعطت هذا الحضور قوته، ومن دون تجاوزها سيكون من الصعب نهوض الأمة العربية»[٤٣].

(٣) الوحدة العربية والاستقلال:ـ تتلخص رؤية الشقاقي في هذا الصدد في التصور المتكامل التالي[٤٤]:

لابد من وضع مسألة الوحدة على ذروة جدول أولويات المفكرين والدعاة والعلماء والتنظيمات السياسية والدول، ونقل ذلك إلى أرض الممارسة الفعلية. ويستدعي هذا إعادة العمل بقاعدة الأمة التاريخية: «تقديم الوحدة على العدل».. إذا يجب أن نسير جميعاً إلى خيار الوحدة مهما كان اعتقادنا بأن في ذلك الخيار بعض الهضم لحقنا فيما نراه ـ فكريا أو سياسياً أو مادياً ـ صواباً. ولابد أن ينعكس هذا على إنها حالة الصراع والتدافع بين القوى والمنظمات، وعلى تقليص حالة التشرذم السياسي، وقبل ذلك وبعده لابد من إعادة الروح إلى حركة الجماهير الوحدوية التي كانت سمة الخمسينات والستينات. إن هناك فروقاً في هذه المرحلة بين مستوى المعيشة في كل بلد عربي أو إسلامي عن البلد الآخر، وكذلك في مستويات التعليم أو الخدمات.. الخ إن هذا الأمر، المؤقت والعابر في معظم الحالات ،لابد ألا يمنع حكومة ودولة وشعباً ما من اختيار الوحدة مع دولة وشعب آخر. ومن ناحية أخرى لابد أن تلتزم قوى الأمة السياسية والشعبية بقاعدة أساسية هي أنه في الوقت الذي لابد أن يكون فيه خيار الوحدة خياراً شعبياً وألا يفرض بالقوة والعنف من القوى على الضعيف، لما في ذلك من تقويض لقيم الوحدة ذاتها،

فإن دخول جيش عربي إلى أرض دولة عربية أخرى يجب النظر إليه داخل الحدود العربية ـ الإسلامية كشأن عربي ـ إسلامي خاص. وإلى جانب ذلك لابد من العمل ضد كل اتجاهات تجزئة الوضع العربي الإسلامي القائم الآن، مهما كانت راية هذه الاتجاهات التي تحملها: إسلامية أو طائفية أو عرقية (كما في حالة العراق أو السودان). وبشكل مماثل يجب العمل ضد إقامة أية كيانات جديدة منفصلة في المنطقة (الصحراء المغربية مثلاً) مهما كان الموقف من القوى التي تدعو لذلك.

إن الأطر الرسمية الحالية، كالجامعة العربية ومؤسساتها والمؤتمر الإسلامي ومؤسساته، لابد أن ترى من زاوية إيجابية، وأن تستخدم لتعزيز التضامن وإلزام دولها الأعضاء بمواثيقها وقيمها، في الوقت نفسه الذي يتم النضال من أجل تطويرها أو إنجاز مشاريع وحدوية خارجها.

* يشهد الفضاء العربي ـ الإسلامي الآن نهضة فكرية بارزة كما يرصد بحق الشقاقي وقد بدأ عقل الأمة في تقديم إجابات حيوية على العديد من إشكالات التحدي، ولكن مجال الاستقلال الفكري واسع وممتد، خاصة في ظل تطور أجهزة وقنوات الاتصال والتأثير العالمية.

إن المسألة الجوهرية في هذا المجال هي حرية الفكر وحرية التعليم، فإن استطاعت الأمة أن تحصل على حقها في المجالين بحيث لا يصبح الفكر والتعليم حكراً بيد الدولة، فإن عقل الأمة وعمق ارتباطها التاريخي بقيمها سيكون قادراً على إيقاف الاختراق الثقافي، وإنجاز مرحلة واسعة من الاستقلال. ولكن، كما أن حرية الفكر والتعليم مطلب للشعوب، فعلى القوى السياسية المعارضة أن تحيّد المجالين إلى أقصى حد ممكن، حتى لا يصبحا مجالاً للصراع مع الأنظمة من جديد، وتستخدم المعارك مع «السياسي» لقمع الفكري والتعليمي.

من ناحية أخرى، وفي الوقت الذي لابد أن يواجه فيه الغزو الفكري والثقافي. فإن حركة نقد وإعادة بناء واستلهام ما هو معاصر من التراث، هي أمر مساو في الأهمية.

(٤) دور المثقف اليوم في الواقع العربي : يحدد الدكتور الشقاقي دور المثقف العربي في هذه المرحلة قائلا (٤٥):

ـ من المفروض أن يكون المفكر والمثقف هو المعلم وبمثابة الضمير والنفس اللوامة للناس والمجتمع، أول من يقاوم وآخر من ينكسر، بل مطلوب منه ألا ينكسر أبداً، لأنه المعبر عن الهوية، والثقافة يجب أن تصمد حتى لو توالت الهزائم فانهيار جدار الهوية والثقافة يعنى أن الوطن بكامله أصبح مستباحاً وأن الأمة لم تعد هي الأمة.

إن الاستحقاقات التي يواجهها السياسي والأنظمة تجعلها تناور وتسقط، تسقط وتناَور وذلك بحثاً عن أي مخرج يحفظ عليها وجودها وحياتها، بأى شكل ومهما كانت هذه الحياة أو هذا الوجود، ولذلك يفرط هذا السياسي بسبب الإمبراطورية الرثة التي يقف على قمتها،يفرط بالثوابت وبتجاوز المصلحة العامة ويساوم الجميع. إذا كان هذا حال السياسي والنظام فأيّ استحقاق ذلك الذي يفرض على المثقف نَفس الطريق. إِنه خالٍ من كل هذه الاستحقاقات وإِلا كان مهرجاً بلادور.

في ظل توازن القوى المرعب، وضغط الأمر الواقع على المثقف أن يحمل ضميره، وقلمه بكل شجاعة لمواجهة مخاطر تدمير وتكريس استلابها المادي والروحي لصالح الغرب المغتصب والمعادي. على المثقف أن يرفض الركوع أمام السلطان كما حدث للكثيرين على مدى عشرات السنين الماضية عندما سار المثقف في ركاب السياسي وسار السياسي في ركاب العسكري. العكس هو الذي يجب أن يحدث اليوم لأجل تصحيح المسار. للأسف يعمل بعض المثقفين كأدلاء طريق أمام الغازي، وبعضهم سرعان ما يستجيب لضغط الأمر الواقع، وهؤلاء جميعاً يفقدون دور المعلم ودور الضمير ودور النفس اللوامة.

لقد ركز الصهاينة على التطبيع أكثر من السلام السياسي (أي العلاقات الدبلوماسية ،والمواثيق مع الأنظمة) بحد ذاته، وأداة التطبيع هو المثقف والفنان، لأنه وحده يستطيع نقل السلام المزعوم إِلى الشارع، ووحده يستطيع محو أو إضعاف

المفاهيم التي تربى عليها الشعب وتوارثها وغناها ورسمها، وملأت عليه عقله حتى أصبحت جزءاً من شخصيته. ولم يستطع الصهاينة أن ينجزوا سلامهم مع مصر بأدنى حد يرضيهم، بسبب مقاومة الشعب المصري للتطبيع، فهددت العمليات الجهادية التي نفذها أبطال مصريون أمن العدو، وقاطع الشعب التعامل الاقتصادي معه، ففشل السلام أمنياً واقتصادياً. والآن يحقق العدو نجاحات تختصر المسافات، بسبب ضعف مقاومة التطبيع، أثر توقيع منظمة التحرير اتفاقيات التسوية، وتزعمت رموز فلسطينية حملة التطبيع، ما جعل الأمر أعقد والمقاومة أصعب.

ولكن المثقف ملزم أخلاقياً وفكرياً أن يبقى الجدار الأخير، فإذا انكسر السياسي والعسكري برز هو ليجمع الشظايا ويطيب الأرواح المكسورة.

(٥) مسئوليات المرأة المسلمة:

وهذا الجانب الهام في فكر الشقاقي ينبغي أن نلقي عليه الضوء وهو موقفه من المرأة ومن دور المرأة إنه موقف متقدم وهام للغاية فهو يقول «المطلوب اليوم أن تتغير تلك الوسائل وتلك النظرة وذلك الإحساس سواء من الرجل المسلم أم من المرأة المسلمة، ينبغي أن تنتهي فكرياً فترة الإعجاب والمديح وأن تبدأ مرحلة المسؤوليات، فالمرأة المسلمة أهم تيارات الحركة الإسلامية المعاصرة وأمامها أهم المسؤوليات:»(٤٦)

أولاً: المسئوليات الذاتية: إن وعياً عميقاً بالإسلام وبقضاياه المعاصرة من خلال وعي حركة مده التاريخية ومكنوناته الشاملة في كل الجوانب، والالتزام به كأمر من الله سبحانه وتعالى أولاً وكصورة التزمت بها نساء عظيمات في تاريخنا الإسلامي هو أهم مسؤولياتنا الذاتية. إن بناء أنفسنا إسلامياً كنماذج حية تتحرك هو هدف ينبغي أن نطمح إليه للوصول إلى رضاء الله سبحانه وتعالى ولنصبح قدوة تحتذي أمام الآخرين في الوقت الذي تحتاج فيه الحركة الإسلامية إلى مد واسع - خاصة في جانب المرأة - لتحسم الأمر نهائياً لصالحها في معركة التحول الإسلامي للمجتمعات.

كما أن حسم المعركة النفسية التي في داخل بعضنا وهم يرون إغراءات الجاهلية حولهم وبريقها الزائف وقيمتها الجمالية المصطنعة، حسم هذه المعركة نهائياً على أسس الوعي بالإسلام والالتزام به هو ثاني أهم مسؤولياتنا الذاتية. إن تصوراتنا من الله.. وتصوراتهم من البشر، وقيمنا من الخالق..وقيمهم من المخلوقات،

ثانياً- المسؤوليات الموضوعية: على المرأة المسلمة اليوم أن تعي قضية التحدي، وتاريخها عليها أن تعي أن الغرب وقف أمامنا في وقت كنا فيه أكثر تخلفاً على النطاق المدني منه، وفي وقت كنا فيه ابتعدنا إلى حد ما عن أصالة إسلامنا، وأمام انبهار بعضنا بتقدمه المدني استطاع أن يقدم لنا أخلاقه وسلوكه وقيمه وركز تركيزاً شديداً على المرأة المسلمة لإدراكه بأن تدمير إسلام المرأة هو تدمير لإسلام المستقبل، إن فهم قضية التحدي هو أول الخطوات لتجاوز الهجمة.

* على المرأة المسلمة حيث تقف أن تكون ضد السياسات التربوية والتعليمية غير الإسلامية وأن تكشف زيف المناهج التربوية والتعليمية الغربية التي استقرت داخل مجتمعاتنا وهذا أهم مجالات التغيير، إن المرأة المسلمة كأم والمرأة المسلمة كمدرسة بالذات أمامها تحد كبير لرفع الإسلام في وجه العلمانية بكل اتجاهاتها القومية والوطنية والاشتراكية، لأن ذلك هو أهم الوسائل لبناء نشء إسلامي.

* المرأة المسلمة عليها أن تقف مع الخيارات الإسلامية في مجال العمل، فلا تختار إلا مايقبله الإسلام ومايجعلها بعيدة عن الشبهات فذلك هو الوسيلة أمامنا لهز المؤسسات غير الإسلامية القائمة، وعليها في نفس الوقت ألا تهمل بيتها فهو مهمتها الأصيلة نحو تغيير ملامح المجتمع، فمن منزل إسلامي إلى منطقة إسلامية إلى مجتمع مسلم.

* والمرأة المسلمة مطالبة اليوم بأن تتقدم بقوة إلى مجالات العمل الاجتماعي الإسلامي، ففى حين نحاول التقدم لإزاحة الركام الطويل من القيم والمفاهيم والمؤسسات والاتجاهات غير الإسلامية علينا ألا نترك لهم مساحات العمل

الاجتماعي فارغة. إن مجالات محو الأمية الكتابية والثقافية ومجالات القوافل الريفية ومجالات مكافحة الفقر في الأحياء والمدن والقرى كلها ضرورية لاقتراب المرأة المسلمة من الجماهير وآلامها، تمهيداً لترشيدها ووضعها في الصف الإسلامي،

المرأة المسلمة أهم تيارات الحركة الإسلامية المعاصرة، ونحو مزيد من الوعي لمشكلاتها ودورها، عليها أن تبقى في تفاعل مستمر مع إطارات الحركة الإسلامية المتقدمة إلى الأمام.

(٦) المهام الكبرى للمرحلة الراهنة: يحدد الدكتور الشقاقي رؤيته للمهام المطروحة في الوقت الراهن على كل القوى المخلصة القيام بها كما يلي:[(٤٧)]

أ ـ إعادة بناء الجماعة، المجتمع، الأمة: يجب أن يبقى على رأس أولويات الحركة الإسلامية المساهمة بقوة وفعالية في اعادة بناء الجماعة ـ المجتمع الذي يتدمر نسيجه وموقعه ودوره الحضاري والتاريخي أمام هجوم الدولة (الأمنية) وتبريرات النخب المتغربة من ناحية، والملتصقة بالدولة من ناحية أخرى، إن هذا يحتاج إلى بناء قدر كبير من استقلال المجتمع عن الدولة، أن يعطي قوة في مواجهة الدولة بحيث يشرف على تعليمه ويملك سلطة على إعلامه وتخاطبه وشؤونه، إننا بحاجة إلى إعادة نظر فورية في موضوعية الدولة في بلادنا.

إن إعادة بناء الجماعة وتحقيق تماسكها سيجعل من تحقيق بقية الأهداف مسألة وقت.

ب ـ التأكيد على أن الصراع مع التحالف الغربي ـ الصهيوني يمس كينونة الأمة ووجودها وهويتها وحقها التاريخي في وطنها وقرارها المستقل وأنه بدون حسم الصراع على فلسطين فسوف تجهض كل محاولات النهضة والاستقلال أو تحاصر، ولذا يؤكد التيار الإسلامي في فلسطين وعلى امتداد الحوض العربي ـ الإسلامي على عدم اعترافه بشرعية الكيان الصهيوني، وضرورة استمرار الصراع بكافة أبعاده الحضارية والثقافية والاقتصادية والسياسية والعسكرية. هذه التسوية مرفوضة، فهي

تفتح أبواب العواصم العربية والإسلامية أمام الغزو الإسرائيلي بلا مقاومة. والغزاة يستهدفون تفتيت المنطقة، وتمزيقها قومياً وطائفياً ومذهبياً، وإعادة تشكيلها من جديد على أساس اقتصادي، محولين الصراع الحضاري في أخطر مناطق العالم إلى علاقات بائع بمشترٍ في سوق يسيطرون عليه عبر الشركات المتعددة الجنسية وآليات الرأسمالية المعاصرة.

يجب أن يبقى تغيير موازين القوى الظالمة، والتي تعمل لصالح العدو هدفاً استراتيجياً نسعى إليه على كافة المستويات، وإلى أن نصل إليه لابد أن نعمل باستمرار لأجل تحقيق توازن الرعب مع العدو.

جـ ـ كما كانت التجزئة وقيام الكيان الصهيوني أبرز ملامح المشروع الاستعماري في بلادنا، فإننا، في سياق مقاومتنا للكيان الصهيوني، نؤكد على ضرورة الوحدة ضمن دوائرها الوطنية والعربية والإسلامية، مدركين إلحاح مسألة الوحدة العربية بتوفير عناصرها وضرورتها.

د ـ يدعو التيار الإسلامي إلى أوسع تحالف شعبي يشكل كل القوى المعادية للمشروع الإمبريالي الصهيوني، داعياً التزام هذه القوى بأن الصراع مع الخارج المعادي له الأولوية المطلقة، وإن التباينات الداخلية الأيديولوجية والسياسية تحل بالحوار وبعيداً عن أي عنف، وداعياً كافة التيارات المناضلة إلى إعادة قراءة بعضها البعض، ودونما نفي ودونما إحالة إلى الخارج. والتيار الإسلامي نفسه مطالب بإعادة تقييم بعض التجارب القومية ،والعلمانية، وتعميق تحالفاته السياسية مع القوى الوطنية الجادة لأجل خلق جبهة وطنية عريضة في مواجهة نظام القطرية والتبعية الذي أصبح أداة طيعة في أي شكل أو مصير يُراد للمنطقة أو غيره من تصورات الغرب الاستعماري.

هـ ـ التنمية سبيل المجتمع للنهوض والخلاص من الارتهان الاقتصادي والسياسي، ولأن جوهر مشلكتنا اليوم هو «التخلف»، فالبديل الحتمي هو التنمية والتقدم المستند إلى العلم والصناعة وعقلانية التنظيم المرتبطة بهما، دونما مساس

بقيمنا الأخلاقية ولنظامنا العقائدي أو الأيديولوجي اللازم لبعث الإنسان عنصر ووحدة التنمية الرئيسية.

و- يرفض التيار الإسلامي؛ الاستبداد السياسي، ويدعو إلى أوسع مشاركة سياسية شعبية،ويعتبر الشورى، كما اعتبرها الإسلام، فريضة إلهية، وليس مجرد حق من حقوق الإنسان، ويجعلها من قواعد الشريعة ومن عزائم الأحكام.يقول القرطبي في تفسير آية ﴿وشاورهم في الأمر﴾: «إن الشورى من قواعد الشريعة وعزائم الأحكام ومن لا يستشير أهل العلم والدين فعزله واجب، وهذا مما لا خلاف فيه» بل إن الإسلام يزكي الشورى جاعلا إياها سبيلا إلى العصمة حين يقول الرسول ﷺ: «لا تجتمع أمتي على ضلالة».

إن أهم ما فعله الإسلام هو حل مشكلة «القوة»POWER، وذلك بعدم تركيزها، فالإسلام نزع من الدولة أنيابها: التشريع والتعليم والسوق، ووضع ركيزة الوقف أما الديمقراطية، بالمعنى المطروح في الغرب، فإنها لا تعطي دلالة حقيقية على مشاركة الناس. إنهم يذهبون مرة كل أربع سنوات أو خمس سنوات إلى صناديق الاقتراع، ومن ينتخبون هم أقل من ٥٠٪ من الناس، والرؤساء يصلون إلى الحكم بنسبة ٣٠٪ من أصحاب حق الاقتراع.

على كلٍ إن مشكلة بعض الإسلاميين مع الديمقراطية هي مع المصطلح وليس مع مبدأ الشورى والمشاركة السياسية، وليس مع الآليات والسبل والنظم والمؤسسات والخبرات التي تحقق مقاصد وغايات الديمقراطية. معروف أن السيادة في التشريع هي لله ولكن يبقى للإنسان سلطة البناء على هذه الشريعة الإلهية والتفصيل لها والتقنين لمبادئها وقواعدها وأصولها والتفريع لكلياتها، كما أن للإنسان سلطة الاجتهاد فيما لم ينزل به شرع سماوي، شريطة أن تظل السلطة البشرية محكومة في إطار فلسفة الإسلام في التشريع (الحلال والحرام الشرعي).

ز- يرفض التيار الإسلامي، بعمومه ومجـمله، العنف الأهلي الداخلي، ولا يرى في العنـف خياراً إسلامياً. فالعـنف ظاهرة تاريخيـة وعالمية، ولا يجوز معالجـتها في سياق أيديولـوجي، وإنما في سياق اجتماعـي وسياسي. وربما كان اليسـار والماركسية أبرز عنوان لـظاهرة العنف فـي القرن العشريـن، وهذا وارد في نصوصه الأسـاسية وفي ممارساته على امتداد واسع من العالم. ويرى التيار الإسلامي أن العنف الأخطر والأسوأ هو ذلـك الذي مارسه الاستعمار الـغربي علـى مدى قرنين ضـد شعوب المنطـقة. لقد ارتـكب الغرب الاسـتعماري جريمـة قتل ملـيون شخص خـلال عقد واحد في بقعة واحدة من وطننا: في الجزائر.

* * *

* **وبعد:** تلك كانت ملامح من **(رحلة الدم الذي هزم السيف)** ملامح من فكر (الـشقاقي) الشهيـد المعلم، ولأنها مـلامح فهي لم تقدم كـل الصورة ، بل أشارت فـقط إليهـا، وهي لم تكـشف كل المضـمر بل نوهـت عنه وحددت أمـاكن كنوزه ولؤلؤه.

* * *

* إننـا في هذه المقـدمة النـظرية الـتي سبقـنابهـا الأعمال الـفكرية والـصحفـية والسياسية الكاملة (أو شبه الكاملة إن شئنا الإنصاف والدقة) للشهيد الدكتور فتحي الشـقاقي، حاولـنا فقـط أن نقتـرب من هذا البـحر المعـرفي والسـياسي والإنسـاني المتدفق، والذي اسمه فتحي الشقاقي.

* لقد حاولنا، وهي محاولة لاتغني بأى حال عن (الغوص) والسباحة داخل هذا البحر شديد الروعة والعمق، والإبداع.

* بقي أن نختـم هذه المقدمة، وأن نتقدم منـها إلى أعماله الكاملـة، نقول بقي أن نختم، ولم نجد في الواقـع أبلغ من كلمات الشهيد عن شهيـد آخر [وبالمناسبة كان لفتحي الشقاقي أدبه الخاص، وقاموسه الخاص في الحديث عـن الشهداء والشهادة]

وهو ليس شهيداً عادياً، ولكنه أحد أبرز الشهداء في القرن العشرين إنه الشهيد (سيد قطب)، لنتأمل كلمات فتحي الشقاقي عنه، والتي اقتبسها بدوره من كلمات سيد قطب عن الشهيد في كتابه الفذ: (معالم في الطريق): يقول الاثنان معاً الشقاقي وقطب:

«إن الناس جميعا يموتون.. وتختلف الأسباب.. ولكن الناس جميعا لا ينتصرون هذا الانتصار ولا يرتفعون هذا الارتفاع ولا يتحررون هذا التحرر ولا ينطلقون هذا الانطلاق إلى هذه الآفاق.. إنما هو اختيار الله وتكريمه لفئة كريمة من عباده لتشارك الناس في الموت وتنفرد دون الناس بالمجد في الملأ الأعلى وفي دنيا الناس أيضا.. إذا نحن وضعنا في الحساب نظرة الأجيال بعد الأجيال! [انتهي كلام سيد قطب] وبدأ كلام الشقاقي:

[الكلمات لم تقل في حفل تأبين للإمام الشهيد.. إنها كلمات جاءت في الفصل الأخير من كتابه الأخير.. كلماته إلى الطليعة المؤمنة وإلى كل البشرية.. قبل أن يستشهد فينتصر ويتحرر.. ينطلق. فيختاره الله ويكرمه فينفرد بالمجد في دنيانا وفي الملأ الأعلى.. أصدروا عليه حكم الإعدام فابتسم]

* والذين شاهدوا جثمان الشهيد فتحي الشقاقي قبل أن يدفن في مخيم اليرموك بدمشق، أعلنوا أنه ... كان مبتسماً!!

* ملخصاً في ابتسامته؛ قضيته؛ ورحلته؛ رحلة الدم الذي هزم السيف [رحم الله شهيدنا ومُعلمنا.]

رفعت سيد أحمد

القاهرة يناير ١٩٩٧م

رمضان ١٤١٧هـ

الهوامش

(١) مقابلة مع الدكتور فتحي الشقاقي مجلة الوسط ـ لندن ـ بتاريخ ٣٠/ ١/ ١٩٩٥ ـ وكذلك مقابلة معه في مجلة البيادر السياسي بتاريخ ٢٩/ ٨/ ١٩٩٤ (مرفقة في الجزء الخامس).

(٢) المصدر السابق وأيضًا صحيفة العقيدة ـ الجزائر ـ بتاريخ ١٧/ ١٠/ ١٩٩٠.

(٣) المصادر السابقة وأيضًا: صحيفة الخليج ـ الشارقة ـ بتاريخ ١/ ٨/ ١٩٨٩.

(٤) المصادر السابقة وأيضًا: مجلة النداء ـ طهران ـ بتاريخ ٢٩/ ١٢/ ١٩٩١.

(٥) مجلة الوسط ـ مصدر سابق ـ وأيضًا صحيفة الشرق الأوسط ـ بتاريخ ١٧/ ٣/ ١٩٩٥.

(٦) المصدر السابق.

(٧) المصدر السابق.

(٨) نشرة المجاهد الأعداد ١٤٦ ـ ١٤٧ ـ ١٤٨ ـ ١٤٩ الفترة من حزيران إلى تموز ١٩٩٢ (نشرة داخلية أسبوعية تصدرها حركة الجهاد الإسلامي ـ دمشق) ومرفقة في الجزء السابع.

(٩) المصدر السابق، وأيضًا صحيفة السفير ـ بيروت ـ بتاريخ ٢٨/ ١/ ١٩٩٥.

(١٠) نشرة المجاهد ـ مصدر سابق.

(١١) نشرة المجاهد مصدر سابق.

(١٢) نشرة المجاهد مصدر سابق.

(١٣) مجلة المختار الإسلامي العدد ١٣ بتاريخ يوليو ١٩٨٠ (مرفقة في الجزء الأول من الأعمال الكاملة).

(١٤) د. زياد أبو عمرو : الحركة الإسلامية في الضفة الغربية وقطاع غزة ـ دار الأسوار عكا ـ ١٩٨٩.

(١٥) للتفصيل في هذا الصدد انظر : مقابلات مع الشقاقي في: مجلة السنارة بتاريخ ١٢/ ٤/ ١٩٩٤ ـ صحيفة القدس بتاريخ ١٠/ ١/ ١٩٩٤ ـ صحيفة اللواء ـ بيروت بتاريخ ٣/ ١٠/ ١٩٩٠ ـ صحيفة الجمهور ـ القدس بتاريخ ١٣/ ١٢/ ١٩٩٣.

(١٦) المصادر السابقة.

(١٧) المصادر السابقة وأيضًا مقابلة مع صحيفة العرب بتاريخ ٢٥/ ١٠/ ١٩٩٢.

(١٨) للتفصيل نشرة المجاهد بتاريخ ١٩/ ١٠/ ١٩٩٣، وكذلك البحث المقدم منه إلى المؤتمر الثالث لدعم الانتفاضة الذي عقد في بيروت يوم ٢٤/ ١٢/ ١٩٩٣.

(١٩) للتفصيل مجلة البلاد ـ بيروت ـ بتاريخ ٩/ ١٠/ ١٩٩٣.

(٢٠) للتفصيل : صحيفة السفير بتاريخ ٢٨/ ١/ ١٩٩٥.

(٢١) للتفصيل المصادر السابقة وأيضًا (الكلمات الهامة التي ألقاها الشقاقي في ذكرى الانتفاضة سنويًا: انظر الجزء السادس من الأعمال الكاملة).

(*) من هامش (٢٢) إلى (٢٣) استعنا بالدراسة المتميزة للشقاقي والمنشورة في مجلة منبر الشرق ـ القاهرة ـ العدد ٨ ـ يوليو ١٩٩٣.

(٣١) انظر دراسته (غير المنشورة) والتي تحمل عنوان [لقاء التيارات الإسلامية والقومية والديمقراطية: فلسطينيًا وعربيًا] ـ ومقابلته مع صحيفة المجد الأردنية بتاريخ ٢٤/ ١٠/ ١٩٩٤ ـ ومجلة فلسطين المسلمة بتاريخ ١٠/ ٥/ ١٩٩٤.

(٣٢) المصدر السابق: لقاء التيارات الإسلامية والقومية والديمقراطية.

(٣٣) المصدر السابق.

(٣٤) من لقاء الشهيد قبل رحيله بأيام مع كاتب هذه السطور وأيضًا حواره الهام معه: الحياة ـ لندن ـ بتاريخ ٦/ ١٠/ ١٩٩٤.

(*) من هامش (٣٥) ـ (٣٩) استعنا بالمصادر التالية: مقابلة للشقاقي مع وكالة الأنباء الإيرانية بتاريخ ١/ ٣/ ١٩٩٤ ـ مقابلة مع صحيفة كيهان العربي بتاريخ ٢٩/ ١٢/ ١٩٩٠ ـ دراساته المبكرة جدًا بمجلة المختار الإسلامي عن الثورة الإسلامية في إيران والمرفقة في الجزء الأول من الأعمال الكاملة ـ كذلك كتابه المهم: الخميني: الحل الإسلامي والبديل ـ القاهر ـ دار المختار الإسلامي ـ ١٩٧٩ ـ كذلك كلمته في ذكرى يوم القدس ـ دمشق ـ ٢٢/ ٢/ ١٩٩٣.

(٤٠) من حواره مع د. طيب تيزني والذي جرى يوم ١٠/ ٧/ ١٩٩٥ بمخيم اليرموك بدمشق ونشر بصحيفة الحياة ـ لندن ـ يوم ٢٨/ ٧/ ١٩٩٥.

(٤١) المصدر السابق، وأيضًا مقابلة صحيفة الحياة معه بتاريخ ٦/ ١٠/ ١٩٩٤.

(٤٢) المصدر السابق. وكذلك كتاب: محمود السرساوي وعدنان علي: د. فتحي الشقاقي الشاهد والشهيد ـ ١٩٩٦ ـ دمشق.

(٤٣) المصدر السابق.

(٤٤) في تفصيل ذلك انظر: مقابلة للشقاقي مجلة الوحدة ـ العدد ١٤٨ ـ تشرين ثان ١٩٩٢، ومقابلة له مع صحيفة الوطن الكويتية بتاريخ ١/ ١٠/ ١٩٩٤.

(٤٥) المصدر السابق.

(٤٦) دراسة للشقاقي عن (المرأة المسلمة) ـ مجلة المختار الإسلامي العدد ١٠ ـ إبريل ١٩٨٠.

(٤٧) نقلاً عن كتاب: فتحي الشقاقي الشاهد والشهيد ـ مصدر سابق وللمزيد بشأن هذه الرؤى انظر: مقابلة معه في مجلة الهدف سبتمبر ١٩٩٥ ـ وصحيفة المجد الأردنية بتاريخ ٢٤/ ١٠/ ١٩٩٤.

(مصادر أخرى للمقدمة النظرية : مدخل للقراءة):

١ـ اعتمدنا بشكل أساسى على خلاصة أفكار الأجزاء السبعة المرفقة من الأعمال الكاملة للشهيد الدكتور فتحي الشقاقي بخاصة [الدراسات ـ والكتب ـ المقابلات ـ الكلمات].

٢ـ المقابلات الشخصية مع الشهيد الدكتور فتحي الشقاقي والتي امتدت حتى آخر يوم في حياته الطاهرة (٢٥/ ١٠/ ١٩٩٥) ـ عندما كان كاتب هذه السطور هو آخر من ودعه مقبلاً إياه قبل أن يصعد الباخرة غرناطة المغادرة طرابلس إلى مالطا مساء الأربعاء ٢٥/ ١٠/ ١٩٩٥ لتصل إلى مالطا صباح ٢٦/ ١٠/ ١٩٩٥ الخميس ليستشهد في الواحدة ظهراً أمام فندق الدبلوماسى بحى سليمة في مالطا).

٣ـ هالة مصطفي «الجهاد الإسلامي في الارض المحتلة: مجلة قضايا فكرية ـ أبريل ـ ١٩٨٧ رغم عدم حيادية وعدم دقة المعلومات الواردة بهذه الدراسة .

٤ـ أدبيات ومناقشات الشهيد في ملتقى الحوار العربي الشورى الديمقراطى ـ طرابلس، كذلك ـ المؤتمر القومي ـ الإسلامي بيروت خلال الفترة من (١٩٩١ ـ ١٩٩٥).

٥ـ د. فتحي الشقاقي شهيداً: إعداد مركز يافا للدراسات والأبحاث القاهرة ـ ١٩٩٦.

٦ـ اللقاءات الشخصية لمُعد الأعمال الكاملة مع قيادات حركة الجهاد الإسلامي في فلسطين وبخاصة الأمين العام الجديد الدكتور رمضان عبد الله فضلا عن حوارات الدكتور رمضان مع صحف: المجد ـ الحياة ـ الوسط.

٧ـ المقابلات واللقاءات مع المفكرين والسياسيين العرب الذين عرفوا الشهيد وفكره عن قرب.

٨ ـ صحف: المجد الأردنية ـ الشعب المصرية ـ الاستقلال الفلسطينية ـ السفير اللبنانية.

٩ ـ الحياة اللندنية ومجلة الوسط السعودية خلال الفترة التي تلت استشهاد الدكتور فتحي الشقاقي (٢٦/ ١٠/ ١٩٩٥ حتى ٢٦/ ١٠/ ١٩٩٦).

الجـزء الأول

الـدراســات(*)

(*) تعمدنا أن ننشر بعض الدراسات القديمة تاريخياً يعود بعضها إلى عام ١٩٧٩ للشهيد رغم أنه كان قد طور أفكاره وخطابه السياسي بإجمال بعد التجربة الطويلة في الجهاد داخل فلسطين؛ ولكننا تعمدنا أن نورد هذه الدراسات كما هي دون تعديل لأفكارها إحتراماً للتاريخ وللامانة العلمية فضلاً عن كونها تقدم لنا نموذجاً لكيفية ومسار التطور الفكري لواحد من أعظم شهداء ومفكري الأمة في تاريخنا المعاصر.

(معد الأعمال)

الدراسة الأولى

أفغانستان: جذور الصراع.. الثورة.. المستقبل

هل هو انبعاث صليبي جديد؟

هل بُعث بطرس الحافي ـ وبوجه ماركس هذه المرة ـ ليعيث من جديد في الأرض فساداً وتقتيلاً؟ وهل يعيد مايحدث الآن في أفغانستان إلى الأذهان تلك الحملات البربرية التي جهزتها الكنيسة الكاثوليكية بأوروبا لتقذف بها العالم الإسلامي في محاولة لتحطيمه واستئصاله؟؟

أم هو موقف روسيا القيصرية من دولة الخلافة العثمانية في القرنين الثامن والتاسع عشر، حينما نصبت نفسها باسم الكنيسة الأرثوذكسية ـ في محاولة لتكفير خطاياها بعدم اشتراكها في الحملات الصليبية الأولى ـ حامية لحمى المسيحيين الذين يعيشون آمنين في ظل دولة الخلافة، لتشن باسم ذلك حروباً صليبية شديدة ضاعت نتيجة لها ولايات إسلامية بأكملها في جوف الدب الروسي. وانفصلت ولايات أخرى عديدة باسم تحرير الشعوب المسيحية.. لكي نفهم مايحدث، لابد لنا من عودة إلى الوراء.

منذ أن دخل الإسلام بلاد خراسان في عهد (ذي النورين) الخليفة عثمان، وجدت فيه هذه البلاد نفسها فآمنت به وتقمصته لتصبح فيما بعد معقلاً من معاقله الحصينة تمارس دورها في نشر رسالته وتقف سداً منيعاً في وجه الهجمات العاتية التي تعرض لها..

وفي عهد الخليفة العثماني القوي سليمان القانوني تدخل خراسان وماجاورها تحت ولاية الخليفة لتصبح جزءاً من جسد دولة الخلافة العريض، وليظل الوضع

(*) المصدر: المختار الإسلامي ـ العدد ٩ ـ مارس ١٩٨٠

(**) ملاحظة أساسية [الدراسات المنشورة في مجلة المختار الإسلامي كتبها الشهيد بالاشتراك مع الباحث الفلسطيني/ أحمد صادق (وهو إسم حركي لمجاهد فلسطيني كان رفيقًا لدرب الشهيد منذ بداية تأسيس حركة الجهاد الإسلامي) ولقد لزم التنويه لدوره وفكره في هذا الصدد]

كذلك حتى عام ١٧٤٧ حينما قام أحمد شاه بإعلان الانفصال عن دولة الخلافة مؤسساً بذلك دولة أفغانستان ليظل للخليفة العثماني عليها سلطة إسمية فقط..

وفي شباط ١٩١٩ تفتح صفحة مظلمة في تاريخ أفغانستان، حينما اعتلى أمان الله العرش خلفاً لوالده المستبد المقتول، مكملاً بذلك ثالوثاً خطيراً في تاريخ الأمة الإسلامية (مصطفى كمال في تركيا وأمان الله في أفغانستان ورضا خان في إيران) عبر من فوقه الاستعمار الغربي الحديث بجيوش تغريبية إلى عقل أمتنا وحسها ليوسعهما مسخاً وتزييفاً..

كان أمان الله مبهوراً بالغرب معجباً إلى حد كبير بشخصية مصطفى كمال وبمنهجه في التغريب.. ولكنه كان أكثر سطحية في فهمه للغرب ومدنيته فلم ير فيهما أكثر من دعوة لعلمنة التعليم وطرح الحجاب.. فدعا إليهما بشدة وبدأ بنفسه حينما ظهرت زوجته سافرة في جولة لهما في أوروبا.

ونتيجة لذلك وللضرائب الباهظة التي كان أمان الله يفرضها على شعبه للإنفاق على بذخه، قامت في أفغانستان ثورات متوالية استمرت لسنوات عديدة ولم تنته إلا بإسقاطه ونفيه إلى أوروبا عام. ١٩٢٩

وتتعاقب بعد ذلك على أفغانستان حلقات أخرى في قائمة حكام الهزيمة والتغريب لتمر خلالها أسماء ناجي سقا (قاطع الطريق) ومحمد نادر شاه ومحمد ظاهر شاه وليضرب كل منهم معولاً جديداً في صرح الحقيقة وليضيف لبنة جديدة في محاولة تزييف وعي الأمة ومسخ حسها التاريخي، ثم تتوالى الحلقات لتحمل إلينا أسماء أخرى، بدءاً بمحمد داوود وانتهاء بـ«بابراك كارمال»، لتحمل أفغانستان الوجه الآخر للتغريب على الطريقة الماركسية استمراراً لنفس المحاولة وسيراً على نفس الخط..

في النصف الثاني من القرن التاسع عشر، كان العالم الإسلامي مسرحاً للصراع الاستعماري بين القوى الصليبية الاستعمارية الكبرى الثلاث في ذلك الوقت: روسيا القيصرية وبريطانيا وفرنسا.. وفي منطقة الخليج الإسلامي وإيران على وجه الخصوص، كان الصراع على أشده بين روسيا وبريطانيا في محاولة للسيطرة على هذه المنطقة المهمة، والتي تتحكم في شريان الحياة إلى أوروبا متمثلاً في طرق التجارة الرئيسية البحرية بين الهند ـ درة المستعمرات في التاج البريطاني ـ وبين

القارة الأوروبية.. ذلك الصراع الذي انعكس بوضوح على منطقة وسط آسيا والتبت..

وفي ذلك الوقت كانت السياسة البريطانية في المنطقة تقوم على إيجاد حزام من الدول العازلة إلى جنوب روسيا.. هذه الدول تكون مستقلة سياسياً، ولكن بدرجة تكفي فقط لمنع تقدم الروس صوب الجنوب، في محاولة لتحقيق حلمهم التاريخي بإيجاد منفذ لهم على مياه المحيط الدافئة.. وفي الوقت الذي كانت فيه بريطانيا تحاول تطبيق هذه السياسة في إيران، محتفظة لنفسها بالسيادة المطلقة في مناطقها الجنوبية المشرفة على الخليج متساهلة أمام الممارسات الروسية في الشمال، فإن امتداد مخالب الدب الروسي صوب أفغانستان ونظره إليها بعين الاهتمام ـ خاصة بعد فقده لقواعده البحرية في البحر الأسود وحرمانه من امتيازاته المطلقة في مضايقه، إثر توقيع اتفاقية باريس عام ١٨٥٦ ـ جعل بريطانيا تنظر إلى الأمر بصورة أخرى حينما يتعلق الأمر بأفغانستان.. إذ نجدها تدفع بجيوشها في محاولتين فاشلتين لاحتلالها... اضطرت في كل مرة منهما للتراجع بعد أن فقدت على أرضها جيوشاً بأكملها.. وفي مقابل ذلك فقد ظلت روسيا ترفض الاعتراف للإنجليز بأفضليتهم المطلقة في المنطقة، ويعبر عن ذلك مانشرته صحيفة (بترسبرج زايتونج) إذ تقول «إن حكومة القيصر على استعداد للعمل على مسألة الإنجليز في الخليج العربي شريطة أن يترك الإنجليز ادعاءاتهم الخاصة بأن حدود الهند تنتهي بالعراق (والكويت)» وتقول ايضاً (إن آسيا ستجد متسعاً للاستعمار الروسي وكذلك للاستعمار البريطاني).

وقد ترجمت روسيا موقفها، في محاولاتها العديدة لكسر هذه الأفضلية والتي ربما كان من أبرزها الخطة الاقتصادية التي رسمها الكونت وايت، لتنفيذها في إيران وكذا تحالفها مع الفرنسيين في مطلع هذا القرن ضد بريطانيا، في محاولة لاستغلال الأسطول الفرنسي في المحيط الهندي.

ولكن انهيار القوة الروسية الهائلة أمام اليابان عام ١٩٠٥ قضى على آمال روسيا في التقدم نحو الجنوب وأجبرها في النهاية على توقيع معاهدة مع بريطانيا عام ١٩٠٧ تعترف لها بموجبها بأحقيتها في أفغانستان وإيران والخليج بدون منازع..

وكان للأثر السيء الذي خلفته الحرب العالمية الثانية على الاقتصاد الأفغاني، وظهور أمريكا على الساحة الدولية كقوة كبرى غنية بالخيرات الفنية والصناعية، وليست لها أطماع سياسية ظاهرة ـ بالإضافة إلى خروج بريطانيا من الهند عام ١٩٤٧ وماترتب على ذلك من ازدياد الضغط الروسي على أفغانستان ـ أثر مباشر في دفع أفغانستان إلى الارتباط مع عديد من الشركات الامريكية بدءاً من عام ١٩٤٣ لتنفيذ العديد من المشاريع المهمة.

وفي عام ١٩٤٨ تم تبادل السفراء بين البلدين لتحصل أفغانستان في العام التالي على قرض أمريكي قدره ٢١ مليون دولار لمشاريع التعمير..

وفي السنوات التي تلت ذلك كان النفوذ الأمريكي ـ عبر شركات البترول ـ في منطقة الخليج وإيران يزداد رسوخاً، ليشكل فيما بعد ارتباطاً وثيقاً بينه وبين سياستها الخارجية، بينما كانت السيطرة البريطانية آخذة في الانحسار لتنتهي تماماً مع بداية السبعينات.

وفي مقابل ذلك فإن روسيا ظلت بعد قيام الثورة الاشتراكية وحتى الأربعينات تعيش مرحلة كمون منشغلة بما يدور بداخلها.

وفي الأربعينات أطلت روسيا على العالم الخارجي بوجهها الأيديولوجي منهية مرحلة الكمون (الثوري) لتبدأ دورة جديدة من الاستعمار.. مقتربة بحذر شديد من مياه الخليج، ولكن يبدو أن إطلالتها على أفغانستان كانت أكثر قرباً.

ففي عام ١٩٥٥ وفي عهد ملكها محمد ظاهر شاه، يقرر رئيس وزراء أفغانستان محمد داوود اثر تفاقم أزمة «بختوستا» بينه وبين باكستان وإثر قبول باكستان للتسليح الأمريكي، يقرر فتح باب بلده أمام الاتحاد السوفيتي ليزورها في نهاية العام بولجنين رئيس الوزراء وخروتشوف سكرتير الحزب، في أول زيارة من نوعها في تاريخ العلاقات الأفغانية الروسية.. تلك الزيارة التي أسفرت عن توقيع العديد من الوثائق والمعاهدات واتفاقات القروض، والتي كفلت لروسيا بسهولة طرد النفوذ الأمريكي الزاحف إلى أفغانستان وربطها بها ربطاً محكماً..

ومع وصول خط الأنابيب الروسي إلى أفغانستان تزداد ثقة الأفغان في الروس، ويزداد عدد البعثات الموفدة إلى الاتحاد السوفيتي للدراسة أو للتدريب مما كان له أثر كبير في ظهور الأحزاب الماركسية الأفغانية إلى الوجود، وبشكل غير معلن في منتصف الستينات.

وفي يوليو ٧٣ وبعد حوالي أربعين عاماً قضاها محمد ظاهر شاه في الحكم. تمكن محمد داوود ـ بمعاونة بعض الماركسيين ـ من الاستيلاء على الحكم معلناً بذلك قيام النظام الجمهوري.. ومنذ ذلك الحين، وحتى أبريل ١٩٧٨ شهدت هذه الفترة تصاعداً حاداً في نشاط الأحزاب الماركسية من جهة، وتفجيراً للمعارضة الإسلامية من جهة أخرى والتي تمثلت في إعلان الجماعات الإسلامية القائمة الجهاد ضد النظام القائم بالإضافة إلى تكوين عدة جماعات أخرى.

ويبدو أن محمد داوود والذي ظل رئيساً للوزارة ما يقارب العشرين عاماً لم يكن يجيد فن الحساب .. إذ إنه لم يستطع أن يدرك أنه لن يكون أكثر من قنطرة يعبر من فوقها الرفاق.. ففي ١٧/ ٤/ ١٩٧٨ يحين دوره ليقدمه الرفاق قرباناً على مذبح الأممية حينما يتمكن نور محمد تراقي ـ زعيم حزب الشعب (خلق) ـ من الوصول إلى السلطة بعد انقلاب راح ضحيته محمد داوود نفسه وأربعون من عائلته في مذبحة وحشية رهيبة على الطريقة الماركسية.. وابتداء من ذلك التاريخ سيطرت العناصر الماركسية على الحكم بشكل كامل، لتبدأ مرحلة جديدة من التآكل الثوري من الداخل.

إذ لم يمض على انقلاب تراقي سوى خمسة شهور فقط.. وأثناء عودته من هافانا مروراً بموسكو يعود تراقي إلى كابول ليجد حتفه في انتظاره بأيدي الرفاق وعلى أسنة الحراب السوفيتية التي أوصلته إلى العرش في صراع نتن على السلطة وتصفية الحسابات القديمة.

ولكن يبدو أن حفيظ الله أمين أبدى لبلاده ملحوظة في فهم الإشارات الروسية فكان لا بد من استبداله بمن يظهر قدرة أكبر على فعل ذلك.. وكان أن جاء (بابراك

كارمال) زعيم حزب العمل (برتشام) المنفي، محمولاً على فوهات المدافع السوفيتية، لتعبر روسيا من خلاله ـ أو من فوقه ـ إلى أحلامها التاريخية في الوصول إلى المحيط وكانت بتصورها حلاً لمحنة أزمتها البترولية المحتملة في الثمانينات.. وكذا العملاق الإسلامي الرابض على حدودها في إيران وذلك كله في ظل سياسة الوفاق القذر.. مكتملاً بذلك آخر فصول المأساة والتي لم تنته بعد.

ونحو مزيد من الفهم لما يحدث سنلقي الضوء على خريطة الصراع الدائر وموقع كل قوة من القوى المتواجدة على هذه الخريطة.

١ ـ الأحزاب غير الإسلامية

(أ) الأحزاب الماركسية:

١ ـ الحزب الديمقراطي الشعبي (حزب ديموقراتيك ملي): وهو حزب موال لموسكو أسسه نور محمد تراقي ـ وهو ماركسي ذو نزعة قومية ـ في الستينات لينقسم على نفسه إلى قسمين:

أولاً ـ حزب الشعب (خلق): وهو امتداد للحزب الديمقراطي وظل في زعامته نور تراقي لتنتقل بعده إلى حفيظ الله أمين.

ثانياً ـ حزب العمل (برتشام): وقد أسسه مير أكبر خيبر بعد خروجه على تراقي ـ وهو ماركسي أكثر تقرباً وولاء لموسكو ـ وقد اغتيل قبل الانقلاب الذي أطاح بتراقي بعدة أيام لتنتقل زعامة الحزب إلى بابراك كارمال.

٢ ـ حزب الشعلة الخالدة «حزبي شعلة جاويد»: وهو حزب شيوعي موال للصين تأسس على يد عبد الغفور مزهادي في بدايةالستينات وقد تعرض الحزب لمحاولة تصفيته على يد تراقي ومازال محظوراً حتى الآن..

(ب) الأحزاب الوطنية:

الحزب الوطني الأفغاني، وأسسه محمود سرى وللحزب اتجاه قومي ليبرالي غربي منذ بداية تأسيسه.

١ ـ الجماعة الإسلامية:

وتعتبر أكبر التنظيمات الإسلامية الأفغانية.. وقد بدأت كجماعة غير معلنة في الأربعينات، حيث كانت تصدر صحيفة المجاهد الناطقة باسمها.. ومن أبرز الذين تولوا قيادتها غلام محمد نيازي والذي كان عميداً لكلية الشريعة في عهد الملك، والذي اعتقل في أواخر عام ١٩٧٣ وبعد وصول داوود إلى الحكم حيث يعتقد أنه استشهد داخل المعتقل..

انتقلت قيادة الجماعة إلى الدكتور برهان الدين رباني الاستاذ بكلية الشريعة أيضاً، والذي فر إلى باكستان في أواخر عام ٧٣ إثر محاولة فاشلة لاعتقاله، ليقوم بعدها بجولة في العالم العربي شارحاً لقضيته معرفاً بها، وليعود ثانية إلى باكستان مستأنفاً قيادة الجماعة في جهادها.. ويعتبر فكر الجماعة الإسلامية امتداداً طبيعياً لفكر حركة الإخوان المسلمين في العالم الإسلامي وكذلك فكر الجماعة الإسلامية بباكستان، إذ يتدارس شبابها في أفغانستان كتب المفكرين الإسلاميين سيد ومحمد قطب المترجمة إلى الفارسية وإلى لغة البشتو وكذلك كتب أبي الأعلى المودودي المترجمة إلى نفس اللغات..

٢ ـ الحزب الإسلامي:

ويعتبر هذا الحزب امتداداً طبيعياً للجماعة الإسلامية حيث تربى معظم أفراده بين صفوفها.. وقد نشأ عندما استطاع شاب متحمس يدعى نيازي ـ في أواخر الستينات ـ وكان مسؤولاً عن القطاع الشبابي في الجماعة، أن يجمع حوله العناصر الشبابية المتحمسة ليكون منهم جماعة مستقلة تعمل بشكل منفصل عن الجماعة الأم.. وتعاقب على قيادة الجماعة بعد وفاة نيازي ـ الذي توفي بمرض مزمن ـ مجموعة من الشباب المتحمس والذين اغتيلوا جميعاً، إما بيد السلطة أو بيد عناصر ماركسية متطرفة، لتؤول قيادتها أخيراً في عهد محمد داوود إلى مولوي حبيب الرحمن الأستاذ بكلية الشريعة، والذي فر مع قلب الدين حكمتيار إلى باكستان حيث أعلنا هناك الحزب باسمه النهائي.. ويستشهد مولوي حبيب الرحمن في

إحدى المعارك بداخل أفغانستان ليتولى حكمتيار قيادة الحزب من مدينة بيشاور بباكستان وليستمر في قيادته له حتى الآن..

٣ ـ حركة الانقلاب الإسلامي:

وأسسها بعد انقلاب محمد داوود سنة ١٩٧٣ مولانا محمد نبى زاده، والذي كان رئيساً لجمعية خدام الفرقان معلناً بذلك بدء جهاده المسلح ضد الحكومة القائمة.

٤ ـ الحزب الإسلامي:

وقد انبثق هذا الحزب في الحقيقة عن الحزب الإسلامي الذي يقوده حكمتيار إثر اختلاف قائد محمد يونس خالص ـ وهو عالم كبير في السن ـ مع حكمتيار على قيادة الأخير لحزبه من باكستان، وترتب على ذلك خروج خالص مع جماعته ليواصلوا جهادهم من داخل الأراضي الأفغانية محتفظين لأنفسهم بنفس الاسم.

٥ ـ الجبهة الوطنية لإنقاذ أفغانستان:

ينتمي مؤسس هذه الجبهة ـ صبغة الله مجددي ـ إلى عائلة مجددي ذات الإقطاعات والنفوذ الواسع في أفغانستان والتي أمعن فيها محمد داوود تقتيلاً حتى كاد أن يبيدها تماماً مع مصادرة كافة أملاكها وإقطاعاتها، وقد فر صبغة الله إثر ذلك إلى باكستان ومنها إلى أوروبا ليعود إليها ثانية بعد انقلاب تراقي، معلنا تأسيس جبهته التي ترفع شعارات إسلامية ولكنها تؤمن في نفس الوقت بضرورة التلاحم بين مختلف القوى الوطنية في سبيل التحرير أياً كان اتجاهها.

٦ ـ الجبهة الإسلامية:

ومؤسس هذه الجبهة هو سيد أحمد كيلاني والذي ينتمي إلى عائلة إقطاعية كبيرة تتمتع بنفوذ كبير.. وقد مرت عائلته بظروف مشابهة لظروف عائلة مجددي مما دفعه إلى الهرب إلى باكستان حيث أسس جبهته التي تشبه إلى حد كبير جبهة مجددي في منطلقاتها وأهدافها.

٧ ـ المجلس الثوري الإسلامي الأفغاني:

وهذا مجلس لا يقاتل ولم يكن ثورياً ولا إسلامياً ولا أفغانياً في يوم من الأيام.. مؤسسه ضياء خان محمد ناصري أحد رجال الملك والأمريكان المخلصين.. وقد عاد بعد اشتعال الثورة إلى الهند ليؤسس فيها مجلسه، متبنياً دعوة الملك للعودة إلى أفغانستان لقيادة العمل الوطني في هذه المرحلة.. هذه الدعوة التي نسبت ظلماً إلى الجماعات الإسلامية المقاتلة.

ومما تقدم تبدو صورة الصراع الدائر في أفغانستان بشكل أكثر وضوحاً ويمكن تحديد أطراف هذا الصراع ذوي المصالح المباشرة فيه على الوجه التالي:

١ ـ النظام الماركسي وقوات الاحتلال الروسية التي تدعمه في محاولة بائسة لإعطاء دفعة جديدة لحياته التي توشك على الانهيار.

٢ ـ الأطراف الأصيلة في الثورة الإسلامية:

هذه الأطراف التي تملك منطلقات واعية ثورية وسعياً لإيجاد صيغة إسلامية للحياة في مواجهة النمط الغربي مما يجعلها طرفاً ليس من السهل تجاوزه أو خداعه..

٣ ـ الأطراف الأخرى في جانب المعارضة:

ودورها كما يبدو في جانب المعارضة دور محدود مما يسهل عملية خداعها أو الوصول معها إلى حل وسط.

٤ ـ موقف الدول الغربية متمثلاً في الموقف الأمريكي:

والموقف الأمريكي كما هو واضح يهمه ولأسباب كثيرة إطالة الصراع، والتي ربما كان من أهمها رغبة الأمريكان في الضغط على دول الخليج وتخويفها بالخطر الروسي القادم من الشرق. وكذلك تطويق الثورة الإسلامية الصاعدة في إيران.. ورغبة أمريكا في أن يتجرع الروس نفس الكأس التي ذاقوها في فيتنام، ومراهنتها على ابتلاع باكستان بالإضافة إلى مقتضيات الوفاق الدولي القذر..

لكل هـذه الأسباب مجتـمعة، فإن أمـريكا سيهـمها بقاء الـروس في أفغانـستان ولأطول مدة ممكنة.. وفـي ظل رؤيتنا لما يحدث الآن بالشكـل الذي تقدم وأخذاً في الاعتبار التخـلف الأفغاني على الصعيـدين الاجتماعي والاقتصادي، فإنـنا لا نتوقع للصراع الدائر داخل أفغانستان نهاية سريعة.

وفي نفس الوقت الذي نأمل أن يتحقق فيه للثورة الإسلامية في أفغانستان النصر على أعدائـها فإننا نخشى عـليها أن تدخل في فلـك الدول الكبرى، لتمارس عـليها اللعبة الدولية الـقذرة، والتي دائماً ما تنتهي بالنصر للأعـداء على حساب الشعوب المقهورة والمغـلوبة.. ومما يقوى أملنا ومراهـنتنا على انتصار الثـورة الإسلامية وجود أطراف أصيلة وواعية في هذه الثورة تملك رؤية إسلامية ثورية حقيقية.

❊ ❊ ❊

الوطن الإسلامي والأوضاع الدولية

نحن وأكذوبة القانون الدولي..

مؤتمر الوفاق والسلام العالمي

الوجه البشع لمعاهدات الصداقة والتعاون

❊ ❊ ❊

الوطن الإسلامي والأوضاع الدولية

لم تنكب أمة في التـاريخ الحديث والمعاصر كما نكبت أمتنا، وأكـبر نكبات أمتنا هي معظم حكامـها. وقد فجرت مأساة أفغانستان الأخيـرة كل مهازل هؤلاء الحكام وكل مآسي تاريخـهم. حفنة من الشيوعيين يـتسلطون على الشعب الأفـغاني المسلم ويهدرون دمه في الشـوارع فلا يتحرك أحد، ثم خبراء روس يأتون تتـبعهم دبابات روسية وآلاف الجنود، يحرقـون روح شعبنا المسلم ويطردونه خارج وطـنه، فلا يهتز أحد.. فقد شغلهم الخطر الإيراني القادم من ثورة الشعب المسلم في إيران ضد طواغيته!

ثم تباشر أمريكا مسرحيتها ضد الروس، فـيتهم كارتر بريجنيف بالكذب لأنه لم يوضـح له حقـيقـة الغزو الـروسي لأفغـانسـتان من قـبل.! وفوراً يـخرج المـرشح الأمريكي للرئاسـة السيد كيندي ليعطي المسـرحية طابعها الكوميدي متـهماً الرئيس

كارتر بـالكذب هو أيضـاً، لأنه كان يعـرف حقيقة الـنوايا الروسيـة ضد أفغانـستان وحجم التدخل من بدايته ولكنه لم يواجهه. وهـنا يتحرك حكامنا جميعهم: البعض مؤيداً لأمريكـا ـ وليس للشعب الأفغانـي ـ ضد روسيا، مؤمناً بصدقـها في الصراع ضد التوسع الروسـي وبدفاعها عن أجزاء الوطن الإسلامي، وخاصـة مناطق ثروته فـي الخلـيج. ويـتحـرك البـعض مـن هـؤلاء الحكـام مدافـعاً عـن الغـزو الروسـي لأفغانـستان، لأن هذا الغزو والـقهر دعم لحركـة التحرر الوطـني في العالم الـثالث ضد الأطـماع الرأسـمالية.. وكـأن هناك مـكانا مـازال للأيديولـوجيات بـين الدول الكبرى، أو كـأن شعوب وطننا الإسلامي قـد عرفت يوماً ـ ومنذ أكثـر من قرن من الزمان ـ طعم التحرر أو رائحته.

أي سر عجيب يسكـن هؤلاء الحكام؟ ويعطيهم هذا الهدوء والـسلام أمام تدمير أمتـنا وسحقـها، بيـنما شعـوبهم تـشتعـل من أجل اخوتـهم في أفـغانستـان وإيران وأريتريا.. وفلسطين!

وأي وعي عمـيق أحاط بعـقولِهم المستنيـرة ، فقادوا أمتـنا إلى التـبعية ومـيادين استغـلال الدول الكبرى: مرة بـاسم القانون والعـرف الدوليين ومرة باسـم الحفاظ على السلام العالمي في ظل مؤامرة الوفـاق، ومرات كثيرة باسم معاهدات الصداقة والتعاون مع الكبار..

على الأمـة الإسلامية أن تدرك حقـيقة وضعها فـي العالم، وعليـها أن تدرك أي منحنى قد اقتيدت إليه فأضاعت استقـلالها وثرواتها، وهي اليوم تضع أرواح أبنائها ومستقبلها معاً.

١ ـ نحن وأكذوبة القانون والعرف الدوليين:

عندما تحرك الشعب الصومالي في العام الماضي لاستعادة أرضه المحتلة من تحت سيطرة الحكومة الأثيوبية، وقـف الروس مع الكولونيـل منجستو ضد حـق الشعب الصـومالي، بيـنما لم تـستجب أمـريكا لكـل محاولات الاسـتجداء من سيـاد بري لمساعدته وكانت حجتها في ذلك، أن القانـون والعرف الدوليين، لا يسمحان بتغيير حدود دولة بالقوة، وتم فعلاً ـ في ظل الوفاق ـ سحق آمال الشعب الصومالي.

ولكن نفس ذلك القانون كان قد أعطى إسرائيل الحق في طرد الفلسطينيين جميعهم سنة ١٩٤٨ وبتغيير حدود الدول المجاورة وغزوها سنة ١٩٦٧م وأيضاً تحت سمع ونظر روسيا وأمريكا ـ إن لم نذكر أصلاً دورهما منذ نشأة إسرائيل في الاعتراف بها ودعمها مادياً وبشرياً ـ كما أن هذا القانون أيضاً هو الذي سمح للهند ـ بدعم سوفيتي ـ بتغيير جغرافية باكستان تماماً، وتحطيم الشعب الباكستاني المسلم إلى شعبين سمى أحدهما بنجلاديش تحت سمع ونظر أمريكا. واليوم وبينما القانون الدولي لا يسمح لإيران باستعادة ومحاكمة الشاه المجرم، فإنه يسمح للروس بإبادة الشعب الأفغاني المسلم وتهديد الشعوب الإسلامية المجاورة، كما سمح لهم ـ وبمساعدة أمريكية ـ بمحاولة غزو زائير قبل عامين.

فأي قانون دولي هذا الذي لا تخسر في ظله إلا الشعوب الإسلامية والأمم المستضعفة في العالم؟ ولماذا تصادر أحلامنا وتسرق ثرواتنا بينما هم يتقدمون وتزدهر شعوبهم؟ أليس قانوناً غريباً، هو هذا القانون؟

في منتصف القرن السابع عشر وأمام تقدم الدولة العثمانية الإسلامية في أوروبا عقد مؤتمر وستفاليا بين الدول الأوروبية , والذي وضع أول قواعد تقليدية لقانون دولي ينظم العلاقة بين حكومات أوروبا ـ بداية ـ ويجعلها تتفرغ وتتكاتف ضد زحف الإسلام. وفي فترة ضعف الدولة الإسلامية العثمانية ـ خاصة عندما بدأت العناصر العلمانية في تولي بعض السلطات في أجهزتها ـ حاولت هذه الدولة دخول الأسرة الدولية عام ١٨٥٦ فاشترط عليها الأوروبيون: عدم تحكيم الإسلام في القضايا العالمية، وإدخال بعض القوانين الأوروبية في أجهزة حكمها.

وأمام زحف ظاهرة الاستعمار الأوروبي على العالم، ارتكز العرف الدولي على مسألتين هما: فكرة التوازن الدولي وعدم تدخل دولة في مستعمرات دولة أخرى، وظاهرة المؤتمرات الدولية لحل المشاكل بين الأمم الكبرى المسيطرة على العالم بالتفاوض والتفاهم. وهكذا عقد مؤتمر (فيينا) عام ١٨١٥ لبحث آثار الثورة الفرنسية، وعقدت معاهدة ١٨١٨ في (اكس لاشايل) لتضمن روسيا وانجلترا وبروسيا والنمسا وفرنسا نصوص معاهدة فيينا وتتفق على التدخل المسلح لحماية الاستقرار الاستعماري الدولي.

وهكذا سمح القانون الدولي لفرنسا وانجلترا وروسيا بالتدخل ضد مصر محمد علي سنة ١٨٤٠ عندما حاول بناء إمبراطورية له وتقدم للشمال.

وفي أعقاب الحرب الكونية الأولى تحول العرف الدولي من المؤتمرات الدولية إلى المنظمات الدولية فأقامت الحكومات الاستعمارية (عصبة الأمم) لتضع الإطار القانوني لسيطرتها ـ أي روسيا وانجلترا وفرنسا في ذلك الوقت ـ على منطقة الوطن الإسلامي وشعوبه وثرواته بعد تدمير الدولة الإسلامية وإسقاط الخلافة.

وهكذا جاء للعالم مصطلح جديد هو مصطلح «الانتداب»، ليعطي ظاهرة الاستعمار الغربي وجهاً عصرياً. وبعد الحرب الثانية قامت. منظمة الأمم المتحدة كفكرة وكيان غربيين لتضمن أيضاً استمرار النهب الغربي للعالم في الحقبة المعاصرة ، بعد أن تحولت الشعوب المستضعفة في منطقة الوطن الإسلامي من كيانات مستعمرة إلى كيانات تابعة تحكمها سلطات موزعة الولاء للغرب السوفيتي أو الغرب الأوروبي والامريكي.

أما حدود الدول المستضعفة فقد رسمتها الدول الكبرى نفسها لتضمن مصالحها، ومعظم المعاهدات كان الكبار طرفاً فيها. وحتى قوانين البحار والممرات الدولية ـ كقانون المرور في قناة السويس مثلاً ـ وضعته نفس تلك الدول للحفاظ على إمكانيات الشعوب المستضعفة. وحرية الإنسان في النهاية، هي حرية الإنسان الغربي أما سحق الإنسان المسلم أو تحطيم رؤى أبناء الدول المستضعفة بأي أداة من الأدوات فلا علاقة له بالحرية.

لقد ولد القانون والعرف الدوليان لمواجهة الإسلام المتقدم في أوروبا وتمت فيه التطورات التي جرت على أرض الوطن الإسلامي في المرة الأولى بعد هزيمة الدولة العثمانية وتدمير الخلافة وتقسيم الوطن الإسلامي، وفي المرة الثانية بعدما بدأت حركة الشعوب في الوطن الإسلامي من أجل التحرر في الأربعينات. وكان هذا القانون دوماً في خدمة الغرب وخدمة مصالحه. وتحت راية هذا القانون كانت أمتنا ومازالت هي الخاسرة: فالصومال على خطأ والسوفييت والأثيوبيون هم الصواب، والفلسطينيون مجرمون وإسرائيل صاحبة حق، ودول البترول متوحشة لا

تهتم بمصالح البشرية والاقتصاد الدولي بينما أوروبا وأمريكا بسرقتهم الأرصدة ولعبهم في سوق النقد لتحطيم القيم الحقيقية للنفط هم الإنسانيون الأخلاقيون. وإيران الإسلام تهدر العواطف والرحمة بينما الشاه وأمريكا بريئون من كل ذنب. وأخيراً وتحت سقف القوانين الدولية يصنف الشهداء الأفغان من نساء وأطفال وشباب بأنهم رجعيون عملاء بينما الجيش السوفيتي المستعمر حين يهدر دم الشعب المسلم يقف مع التقدم والحرية للإنسان!

أليس العالم بحاجة إلى قانون جديد وعرف جديد؟ ألا يحتم كل ماسبق أحقية المد الإسلامي المتقدم في العالم في بناء قانونه الخاص؟ وهذه هي البداية فقط!!

٢ ـ مؤامرة الوفاق والسلام العالمي:

تتصرف الدول الكبرى على أساس أنها صاحبة الحق في استنزاف العالم.. ويسكن الرجل الأبيض منذ بداية عصر النهضة إحساس غريب ـ لامجال هنا لتحليله ودراسته ـ بأن رفاهيته وازدهاره الاجتماعي هو الأهم في العالم، وأنه لا أهمية لواقع الإنسان أو مستقبله في الأمم المستضعفة خارج الغرب، بينما كان الإسلام يوم بنى دولته العظمى يقف مع حرية الإنسان وتقدمه وإنصافه مهما كان أصله أو لونه أو عقيدته.

في القرن الماضي اتفقت الدول الأوروبية على الحفاظ على الرجل المريض ـ الدولة العثمانية ـ حتى يتم إنهاكها وتقاسمها. وفي مطلع هذا القرن اتفق الإنجليز والفرنسيون على تقسيم المصالح في أفريقيا وإطلاق يد فرنسا في شمالها مقابل بقاء مصر والخليج والهند لإنجلترا دون منازع. وكان أيضاً الاتفاق الروسي الإنجليزي لتقسيم النفوذ في إيران.

وبعد الحرب الأولى وزعت إنجلترا وفرنسا الوطن الإسلامي بينهما وأعطيتا فلسطين للحركة اليهودية وذلك إثر انهيار الدولة العثمانية. وبعد الحرب الثانية اجتمع ستالين وتشرشل وروزفلت في مؤتمر يالطا وقسموا العالم إلى مناطق نفوذ بين الشرق والغرب. وقد تصدت أمريكا بعد ذلك لقيادة المعسكر الرأسمالي بينما أصبح الاتحاد السوفيتي على رأس المعسكر الشيوعي للغرب، واتسمت مرحلة

الحرب الباردة بمحاولة كل طرف مد نفوذه وإحكام سيطرته على أجزاء جديدة من العالم، وكان الاتحاد السوفيتي يلوح للشعوب بأوراقه الأيديولوجية كسند لحركات التحرر، في الوقت الذي كان فيه المعسكر الرأسمالي قد فضح تماماً من قبل الشعوب وأصبح علامة للقهر والاستغلال.

وفي حزيران ١٩٦١ اجتمع كيندي وخروتشوف في فيينا ووضعا قواعد جديدة للعلاقة بين المعسكرين ـ مرحلة التعايش السلمي ـ أعيد بعدها تقسيم مناطق النفوذ مقابل تنازلات من الطرفين وخاصة في ميدان البناء النووي من المعسكر الرأسمالي وفي ميدان الصراع الأيديولوجي من المعسكر الشيوعي، مما أدى إلى نشوب خلافات بين الصين وروسيا اتهم إثرها الصينيون رفاقهم في موسكو بالتخلي عن الطبقة العاملة في أوروبا والعالم واهتمامهم بمصالحهم الاستعمارية فقط. وكمثال صغير لهذا التنازل كان حل الحزب الشيوعي المصري واندماجه في الاتحاد الاشتراكي العربي في مطلع الستينات. وإثر التحولات المهمة في معايير الاقتصاد الدولي ومايسمى بأزمة النفط واختلال القواعد الدولية في جنوب شرق آسيا وافريقيا، وأيضاً بروز مايطلقون عليه أزمة الشرق الأوسط ونسميه نحن (مشكلة الوطن الإسلامي).. إثر كل ذلك كان لا بد من قواعد جديدة للعلاقات بين المعسكرين فكانت زيارة نيكسون للاتحاد السوفيتي في مايو ١٩٧٣ ووضع قواعد ما يسمى (بالوفاق الدولي).. وقد قسم العالم إلى مناطق نفوذ سوفيتية ومناطق نفوذ أمريكية ومناطق رمادية يحق للطرفين التنافس للسبق عليها بدون التورط في إشعال حرب بينهما، مع السماح للشعوب المستضعفة بأن تنحر بعضها البعض، كلما كان ذلك ضرورياً. وهكذا لاحظنا أن ملامح جديدة بدأت تظهر في العالم فقد عقد اتفاق (سيملا) بين الهند وحكومة العلماني علي بوتو في باكستان، وتم على إثره اعتراف حكومة باكستان بانقسام شعبها إلى شعبين، واستقرت حكومة عدن الماركسية رغم قدرة جيرانها على إسقاطها في ساعات إن أرادوا. وأوقف الشاه السابق مساعداته للأكراد ليوقف بعث العراق مساعداته لحفنة ماركسيي الخليج وليفتح أبواب العراق للاستثمارات الغربية ـ إثر مؤتمر الجزائر بين صدام وبهلوى

ـ وتغير نظام أثيوبيا إلى نظام عسكري ماركسي، بينما استمرت شركة بترول (غولف) الأمريكية في استثمار البترول في موزمبيق الماركسية. أمثلة أخرى كثيرة ولكنها تعطي دلالة واحدة: أن الدول الكبرى قد اتفقت على استثمار وتقسيم أوطان الشعوب المستضعفة بينها وأنه ـ مطلقاً ـ لا يمكن أن يكون هناك صراع بينها من أجل أكذوبة استقلال الشعوب الصغيرة.

وكان هذا هو تاريخ علاقات الدول الكبرى بالشعوب المستضعفة، ولم تقم الحروب بين الدول الكبرى إلا في حالات نادرة وكان أغلبها لاختلال قواعد الأمن الدولي داخل أوروبا نفسها، أما خارج أوروبا ـ خارج عالمهم ـ فإن كل شيء يخضع للتفاوض والتفاهم والتقسيم. فكيف نصدق الآن أن مايحدث في أفغانستان ليس ضمن اتفاقهم، وأحداث أفغانستان اليوم هي التي كشفت تماماً الوجه الاستعماري للاتحاد السوفيتي، بعدما كان معروفاً تماماً الوجه الاستعماري الأمريكي.

إن وفاق الدول الكبرى واتفاقاتها لا تلغي دور الشعوب نهائياً، إن استطاعت هذه الشعوب اكتشاف طريقها الخاص للتأثير الدولي، وهذا هو السؤال الثاني!

في ظل فهمنا السابق للعلاقات بين الدول، كيف يمكن أن نحدد طبيعة الصداقة والتعاون بين دولة عظمى تنظر للأوطان المستضعفة بأنها ملك لها وبين هذه الدول؟ أي نوع من الصداقة يمكن أن يقوم بين اليمن مثلاً وبين السوفييت أو الأمريكان؟ لقد أدت الصداقة بين مصر والغرب في القرن الماضي إلى احتلال مصر، وأدت الصداقة بين تركيا وأمريكا إلى تدمير الاقتصاد التركي وبقايا القيم والسلوكيات الإسلامية في المجتمع التركي، ومن ثم جر تركيا إلى التدهور العام والتبعية الشاملة للغرب. ولا داعي لأن نعيد ذكرى النقطة الرابعة الأمريكية وبرامجها للمساعدة في الخمسينات. والجميع يعرف ماذا كانت تعني الصداقة المصرية السوفيتية: أن لا تهاجم إسرائيل وأن تعطينا القطن والتسهيلات الاستراتيجية. وقد انتهت الصداقة الصومالية السوفيتية إلى تدمير أحلام الصوماليين عندما تحولت مصالح السوفييت إلى اثيوبيا.

لقد شق السوفييت الطرق في أفغانستان أيام الملك السابق، وهذا ليس محض صداقة وتعاون مع الشعب الأفغاني الفقير، ولكن لتنفيذ خططهم الاستراتيجية مستقبلاً في الاتجاه جنوباً كما يتأكد ذلك الآن.

واليوم وبدعوى الخطر السوفيتي تحاول القوى الحاكمة في بعض أجزاء الوطن الإسلامي جر شعوبها إلى معاهدات جديدة مع أمريكا.. كما نرى محاولات الجنرال ضياء الحق في باكستان في محادثاته مع الأمريكان أخيراً. كما تعلن الآن دعاوي متعددة للتعاون مع هذه الدولة أو تلك من الدول الكبرى.

إن هناك طريقاً واحداً للحفاظ على الاستقلال وحماية الأمة، وليس منها على الإطلاق طريق معاهدات الصداقة والتعاون بين الأمم المستضعفة وبين دول العالم العظمى. وعلى أبناء المدّ الإسلامي في الوطن الإسلامي أن يعوا ذلك وأن يحددوا هذا الطريق.. وهذا هو السؤال التالي.

إن هناك وسيلتين للحياة بين سيطرة واتفاق الدول الكبرى: الوسيلة الأولى هي تأمين مصالح إحدى هذه الدول على أرض الدولة الصغيرة مما يؤدى إلى بروز أهميتها في العالم وأيضاً إلى جعلها دولة تابعة، مسروقة، ضائعة الهوية.. وهذا ماينبغي أن نرفضه، أما الوسيلة الثانية فهي تهديد المصالح. إذ على الدولة الكبرى أن تشعر بأن لا مكان لها هنا وأن استقلالنا استقلال حقيقى وأن قانونها وأعرافها ليس قانوننا ولا أعرافنا وأننا أصحاب هوية مستقلة.

وهذا لا يتم إلا بشروط أربعة: تنظيم داخلي ـ إمكانيات للدفاع حقيقية غير مصطنعة ولا تابعة ـ طريق متصاعد للتقدم المادي والتكنولوچي ـ وأخيراً، وهذا هو الأهم، هوية محددة ذات أصالة وحس تاريخيين في ضمير الأمة ومبادىء تحملها للبشرية لتقلب بها أوضاعها وتهز شرائعها اللاإنسانية التي تسيطر وتحكم الآن.

هل يمكن بذلك أن نهتدي إلى الإجابة على الأسئلة الثلاثة السابقة، وأن تحل مشكلات ضياعنا وتدهورنا وتبعيتنا واستغلالنا؟. ليس هذا هو السؤال الرابع بالتأكيد.!!

هل يكون الغرب الشيوعي بديلاً عن الغرب الرأسمالي ضد الصحوة الإسلامية؟

أن يحافظ الغرب على معدلات نموه وعلى رخائه الاقتصادي والاجتماعي، فإن هذا يعني أن يبقى شمال العالم غنياً وأن يبقى جنوبه فقيراً. وذلك لأن خيرات هذه الأرض تكفي لأن تحيا البشرية كلها في رخاء حقيقي، ولكن بتفاوت بسيط بين الأمم لا بهذا التفاوت الرهيب بين حياة الفرد في شمال العالم وجوع الفرد في جنوبه. ويدرك الغرب بشقيه ـ الرأسمالي والشيوعي ـ أن أكبر الأخطار التي يمكن أن تواجه سيطرته على العالم هو نهوض أيديولوجية إنسانية حقيقية، تقود الشعوب ضده بثوريتها، وتشع قيماً جديدة على الإنسانية بإيجابيتها عندما تتمكن من الحفاظ على تقدم البشرية المدني وتطوره، في نفس الوقت الذي تحقق فيه التوازن الإنساني والحرية والعدالة. وبالتحديد فإن أكبر خطر يهدد الغرب وسيطرته هو الصحوة الإسلامية التي تتحرك الآن لتعطي العالم ملامحه الجديدة.

ومن هنا فقد أحس الغرب بأن عليه بشقيه (الرأسمالي والشيوعي) التحالف من أجل مواجهة الخطر الإسلامي القادم ومن أجل الحفاظ على سيطرته على العالم.

ولم يكن ذلك ممكناً بالطبع بين المعسكرين، إلا بعد تأمين مستقبل الكيانات الرأسمالية من الخطر الأيديولوجي الشيوعي. لقد قال السياسي العمالي البريطاني كريستوفر ماهيو يوماً: (إن التعايش الأيديولوجي هو شرط للتعايش السلمي) وكان يعني بذلك أن الشيوعيين لابد لهم أن يدركوا استحالة تحقيق الفكرة الماركسية بأن هناك حتمية لانتصار المعسكر الشيوعي على الأنظمة الرأسمالية وتحويلها إلى دول اشتراكية ماركسية.

وفي المقابل فإن أحد الرفاق الروس ـ خروتشوف ـ قد أعلن عام ١٩٥٦ (إن من واجبنا تدعيم الطاقة العاملة بالمنبه المادي) وكان ذلك يعني تنازلاً مهماً في النظرية الماركسية يتجه للالتقاء مع النظام الغربي في منتصف الطريق، هذا بالإضافة إلى

تنازلات حقيقية أخرى كثيرة قدمتها مجموعة بريجنيف على طريق اللقاء مع الغرب. ويرى المفكرون الأوروبيون أن (عصر الثورة التكنولوجية سيكسر جهود الأيديولوجيا).. أي أن التقدم التكنولوجي سيعطي الرفاهية للجميع وسيلغي احتمالات الصراع بين الطبقة العاملة في الدول الرأسمالية وبين أصحاب العمل. وهكذا يبدو أن الاتجاه الفكري المسيطر على العقل الأوروبي يرى أن هناك إمكانية للتفاهم التام مع المعسكر الاشتراكي، لتأمين مصالح الجميع في العالم بعد أن زال خطر الثورة الاشتراكية عن أوروبا. ولعل مؤتمر هلسنكي الذي عقد كلقاء عام بين أنظمة المعسكرين كان دليلاً على هذا الفهم حيث قدم كل من المعسكرين تنازلات مهمة من أجل تفاهم مهم.

إذن هناك خطر يتهدد المصالح الغربية وهو خطر الدين الإسلامي وصحوة شعوبه، هذا الدين الذي كان دوماً الحاجز المانع لتقدم الغرب وسيطرته طوال المراحل التاريخية السابقة منذ بداية عصر الاستعمار وحتى ذروته، التي رافقها سقوط الدولة العثمانية.

وأيضاً هناك إمكانية للتحالف الطويل والشامل بين المعسكر الشيوعي وبين المعسكر الرأسمالي. فلماذا إذن لا يحمل السوفييت ـ كأكبر ممثلي المعسكر الاشتراكي ـ عبء التصدي للمد الإسلامي وللصحوة الجماهيرية الإسلامية؟ لقد أدركت كل شعوب العالم حقيقة الوجه البشع للدول الرأسمالية ذات التاريخ الاستعماري الطويل، وأصبح هناك من العداء لأوروبا وأمريكا مايكفي لأن تقاتل هذه الشعوب ضدهما حتى الموت. ثم إن الأمور لم تعد متماسكة تماماً في المعسكر الرأسمالي فقد تفجرت المشاكل الاجتماعية العنيفة الناتجة عن التقدم المادي والتكنولوجي.. ولم يعد تماسك الشعوب الغربية الرأسمالية كما كان قبل ربع أو نصف قرن مثلاً. كما أن الدين الإسلامي الشمولي يحتاج إلى أيديولوجية شمولية تواجهه، وهذا ماهو متوافر في النظرية الماركسية.

لكل هذه الأسباب فقد أصبحت أوروبا الرأسمالية ـ إضافة إلى أمريكا ـ على قناعة بأن هناك إمكانية لأن يصبح الغرب الشيوعي بديلاً عنهم في مواجهة المد

الإسلامي القادم.. خاصة أن أوروبا وأمريكا ببقايا المسيحية التي لديهم يدركان (أن الشيوعية غير مستقرة) كما قال المفكر الإسلامي مالك بن نبي ـ رحمة الله عليه ـ: الشيوعية تنسق الفطرة الإنسانية تماماً وبالتالي فهي في نهاية الأمر ستتنازل كثيراً عن مكوناتها الفكرية لتوزع كل المكاسب على الغرب.

وقد يبدو هذا منطقياً تماماً حين نرى العناصر الماركسية مستمرة في مناوءة الإسلام في إيران، وتقف ضد إسلام الجماهير العربية.. كما هو واضح تماماً من هذا الاجتياح السوفيتي العنيف لأفغانستان مهدراً دم جماهيرنا الإسلامية، وذلك كبداية ـ ربما ـ لأن يحل الغرب الشيوعي محل الغرب الرأسمالي في هجمته وتصديه للمد الإسلامي القادم. وعلينا بكل تأكيد أن نعي هذا المتغير الجديد في الصراع بين الإسلام وأعدائه.

الدراسة الثانية

المــــرأة المسلمة

تيار جديد.. مهام جديدة

حين نشر قاسم أمين كتابه تحرير المرأة في مطلع هذا القرن، ثم حين وقف مدافعاً عنه معبراً بشكل أكثر صراحة عن رؤيته العلمانية لموقف المرأة الاجتماعي في كتابه الثاني «المرأة الجديدة»، لم يكن في الحقيقة يتحدث من فراغ ولم يكن أيضاً مبتدعاً جداً كما صور موقفه، فقد كان قاسم أمين آخر درجة في سلم الانحدار في ذلك الوقت.. ذلك السلم الذي بدأه الطهطاوي منبهراً بالغرب وحضارته، وتلاه محمد عبده متراجعاً أمام ما سمي بالهجمة العلمية الغربية محاولاً التوفيق بين الإسلام وقيم الغرب الحديثة، ثم تلاه جيل بأكمله من المهزومين أمام الهجمة الغربية على الوطن الإسلامي، ومن تلامذة التبشير والاستشراق ومن أبناء الأقليات غير الإسلامية الذين كانوا يحاولون بجهد كبير الخروج من دائرة سيطرة الإسلام.. جيل عريض متعدد الأسماء طويل يمتد إلى عصرنا هذا وكان من أبرز رجاله لطفي السيد، فرح أنطون، بطرس البستاني وآخرون كثيرون.

وهكذا لم تكد الخلافة تهزم، ويختفي النظام السياسي للإسلام حتى كانت الجماهير قد سقطت منها قطاعات واسعة تحت ضغط الهجمة العلمانية الغربية ومؤسساتها في الوطن الإسلامي وتلامذتها الأوفياء.. وكان بروز ماسمي بقضية المرأة إحدى أهم دلالات هذا السقوط. وقد استغلت الهجمة الغربية ظروف التأخر المدني والثقافي في الوطن الإسلامي، لتصنع من تصوراتها الخاصة عناصر تلك القضية.. فقد أصبح خروج المرأة إلى مقاعد الدرس مسألة هامة جداً، بينما الإسلام لم يعترض يوماً على ذلك، وكان المقصود حقيقة هو خروج المرأة إلى مقاعد الدرس في المؤسسات التعليمية التي بنيت على قواعد الفكر الغربي العلماني.

(*) المصدر: مجلة المختار الإسلامي ـ العدد ١٠ (ابريل ١٩٨٠)

وأصبح نزع الخمار عن الوجه والعينين قضية كبيرة، بينما الإسلام بمعظم فقهائه يقبلون ذلك، وكان المقصود نزع الخمار أولاً ثم الحجاب ثم تعرية المرأة تماماً.. وأصبحت مسألة المساواة بالرجل من أكبر المسائل، بينما لا يوجد أي مستند حضاري أو بيولوجي أو تاريخي حتى من الغرب نفسه لهذه القضية، وكان المقصود أصلاً أن تخرج المرأة فيما بعد إلى مجالات العمل المختلفة حيث تصبح عاملة في بار أو خادمة في طائرة أو مايسمى بسكرتيرة لغطاء أشياء أخرى أو.. أو..

هكذا كانت قضية المرأة ومازالت، وهكذا صيغت عناصرها. لقد كانت في الحقيقة أهم جوانب الهجمة الغربية على المجتمع الإسلامي.. لتفقد المرأة أنوثتها ثم إنسانيتها ثم كرامتها ودينها، وينتهي الأمر بتدمير البيت المسلم والنشء المسلم والمجتمع الإسلامي بأكمله.

وأمام عنف الهجمة وإرهابها تقف المرأة المسلمة اليوم.. تقف لتبدأ تاريخاً جديداً بمرحلة جديدة تماماً، فقد تقدمت مجتمعاتنا مدنياً إلى درجة لا بأس بها ونشأت ظروف جديدة حول المرأة، وأصبح واضحاً في مجتمعاتنا ماكان مقصوداً من قضية المرأة وبروزها بعنف كجزء من الهجمة الغربية. لقد خرجت المرأة إلى المدارس ونزعت الخمار، وأتيح لها من فرص العمل الكثير، فلماذا يصحب ذلك العري وانهيار القيم وضياع الحس الإسلامي والأصالة المجتمعية التي دامت أربعة عشر قرناً؟!

تقف المرأة المسلمة كواقع حي واع في وجه الهجمة الغربية وظواهرها الاجتماعية.. لا موقف المتراجع المهزوم المدافع، وإنما موقف المستوعب للتاريخ، الواعي لقضية الإسلام المتقدم لإزاحة تلال الخراب.. لقد انتهت تلك القضية الزائفة التي روجوا لها أكثر من نصف قرن أو هي على وشك الانتهاء، انتهت (قضية المرأة) بكل أجزائها، فالواقع الإسلامي سيفرض قيماً جديدة ومسائل جديدة مختلفة وأهدافاً جديدة.

لم تعد قضية الزي هي الإشكال، فنحن نعود لأصالتنا التاريخية وإلى حجابنا الإسلامي بدون أن يعطل ذلك فينا أي شيء.. بل إنه يضيف إلينا الكرامة الإنسانية والأنوثة الحقيقية، وستنتهي بدون شك تلك الأساطير المقامة حول أوثان دور الأزياء الحديثة لتبقى العبودية لله وحده.. ومن ثم تعد قضية التعليم هي الإشكال فنحن نذهب إلى المدارس والجامعات بوعي عميق لكل ماهو غير إسلامي من أساليب ومناهج تعليمية، ونحن في معاهدنا لا نقف موقف المتلقي العاجز وإنما موقف الناقد البصير، وانتهت تلك الإشكالية المضحكة عن مساواة المرأة للرجل فلكل مجاله وتخصصه وإمكانياته، والإسلام وحده هو الذي يقدم الفرصة المناسبة المتكافئة لكل منهما..، ونحن اليوم نختار مجال العمل المقبول إسلامياً الذي يشبع رغباتنا الإسلامية في إثبات الذات والذي يخدم مستقبل حركتنا الإسلامية.

إن الذين يحاولون تصور المرأة المسلمة كظاهرة مؤقتة في مجتمعاتنا، هم إما أغبياء ـ إن أحسنا النية ـ أو أنهم مغرضون ـ إن وضعنا الأمور في نصابها ـ لقد امتد الإسلام حضارياً أربعة عشر قرناً وكانت هناك دوماً محاولات تقطع المد الإسلامي وتعطله، واليوم حين يصورون بروز المرأة الإسلامية ـ كقاعدة اجتماعية جديدة ـ تصوير الظاهرة المؤقتة فهم يحاولون أن يجعلوا القيم غير الإسلامية الاجتماعية هي الأصل، بينما الحقيقة هي أن الإسلام يتجاوز الآن وبخطى قوية محاولة قطع مده الذي بدأ منذ حوالي قرن مضى، والمرأة المسلمة هي التيار الإسلامي الاجتماعي المتواصل وهي جزء من أصالة الإسلام واستمراره.

هكذا ينبغي أن نفهم قضيتنا وأصولها التاريخية.. وهكذا ينبغي أن نفهم دورنا وتوجهنا.

المرأة المسلمة تغير الخريطة الاجتماعية:

١ ـ ضد التقسيم الطبقي:

في ظل المفاهيم الغربية والقيم الغربية التي غزت مجتمعنا، كان التقسيم الطبقي واحداً من أسوأ هذه المفاهيم وأعمقها خطراً، فقد أصبحت هناك المرأة البرجوازية

والمرأة الأرستقراطية والمرأة الكادحة الفقيرة، وأصبح لكل طبقة مميزاتها وقيمها وأخلاقياتها وسلوكها. والمرأة المسلمة اليوم ينبغي لها أن تعي أنها تنتمي للإسلام وقيمه ومفاهيمه فقط، فهي امرأة منفصلة عن قيم الطبقة وعن أهداف الطبقة وعن سلوك الطبقة، فقيمها هي قيم الإسلام وأخلاقها هي أخلاق الإسلام وأهدافها هي أهداف الحركة الإسلامية. إن الانتماء الحقيقي للإسلام يبدأ أولاً بالانفصال عن القيود التي تقام حولنا ضمن الطبقة التي ننتمي إليها.

٢ ـ ضد التقسيم الفكري:

التقدمية والرجعية مصطلحان برزا بشدة خلال الفترة الماضية، ويتهم كل من يتمسك بتراثه وقيم مجتمعه الأصيلة بأنه رجعي متخلف، بينما يسمى المهزوم أمام الهجمة الغربية المتمسك بقيمها وسلوكها بالتقدمي، وهذه المحاولة الإرهابية من أصحاب الاتجاهات العلمانية غير الإسلامية مازالت مستمرة، والمرأة المسلمة ضد هذا الإرهاب وضد هذا المفهوم. إن التقدمية الحقيقية هي الوقوف على الأسس الصلبة لقيمنا وحسنا التاريخي في نفس الوقت الذي نتفاعل فيه مع عصرنا تفاعلاً نقدياً واعياً، والرجعية الحقيقية هي الهزيمة وهي التراجع أمام الهجمة غير الإسلامية وهي نفسها التي جرت علينا كل هذا التخلف الحضاري.

٣ ـ ضد التقسيم الإقليمي:

في العالم الثالث خاصة ترسبت أحد أكثر المفاهيم البورجوازية تخلفاً وعدم إنسانية وهو تقسيم الناس ـ بما فيهم المرأة ـ إلى مدنيين (أهل مدن) وريفيين (أهل الأرياف).. وبينما تروج الأجهزة والمؤسسات العلمانية والغربية الفكر لانفلات أهل المدن واستهتارهم بالقيم الإسلامية والروابط الإنسانية الوثيقة بين البشر، فإنها تسخر وتعيب على أهل الريف تمسكهم بهذه القيم والروابط. والمرأة المسلمة ضد هذا الزيف لأنها هي أطروحة الأصالة. ففي الوقت الذي تعود فيه المرأة المسلمة في المدينة إلى قيم دينها وإلى مشاعر الأخوة الإسلامية، فإنها ـ خاصة في العالم الثالث ـ تشعر بعبء المرأة المسلمة في الريف وتحاول أن تتقدم لمواقعها لحل بقية مشكلات التخلف المدني لديها ولتجعلها أكثر وعياً وقرباً من المفاهيم الإسلامية الحقيقية.

٤ ـ المرأة المسلمة.. اهتماماتها جديدة:

لم تعد حرية المرأة تعني الانفلات من الإسلام وقيمه، وإنما أصبحت هي التحرر من قيم الجاهلية ومفاهيم الغرب، والاقتراب أكثر من أهداف الحركة الإسلامية المعاصرة وممارساتها. ولم تعد المساواة بالرجل تعني خوض مجالات لا قدرة للمرأة عليها أو مجالات لإهانة كرامتها البشرية وأنوثتها، وإنما أصبحت تعني الوقوف بجانب الرجل المسلم لبناء أسرة إسلامية جديدة ومجتمع إسلامي جديد. ولم تعد قضية الذهاب إلى المعاهد العلمية فرصة لاكتساب المفاهيم غير الإسلامية وتوجيهات الغرب، ومن ثم استعراض الأزياء والمظاهر والاحتكاك بالرجل، وإنما أصبحت قضية التعليم فرصة لبناء الذات الإسلامية، وأداة للوقوف من العصر وقفة نقدية ووسيلة لدعم الحركة الإسلامية وإنجاز أهدافها.

٥ ـ المرأة المسلمة.. حل لمشكلات التخلف:

من أسوأ مابتليت به مجتمعات دول العالم الثالث في مرحلة تخلفها المدني وابتعادها عن الإسلام، هو إهدارها لمكانة المرأة وحقها. والإسلام هو الحل الجذري لكل هذه المشكلات فالمرأة المسلمة تستطيع بسهولة في ظل الفهم الإسلامي ـ أن تبدي رأيها فيمن يتقدم لمشاركتها حياتها وتستطيع بسهولة ـ في ظل الفهم الإسلامي أن تأخذ حقوقها الشرعية الإسلامية المتقدمة كاملة.. سواء في بيت والديها أو في بيت زوجها، بل إنها أيضاً تساهم بذلك في تغيير الرجل وتصويب مفاهميه الإسلامية إن كان بها انحراف.

نهاية فترة الإعجاب وبدء مرحلة المسؤولية:

حين بدأت عملية التحول الإسلامي الواسع داخل مجتمعات الوطن الإسلامي خلال السنوات العشر الأخيرة، وحين أصبح تيار المرأة المسلمة أكثر بروزاً ووضوحاً وثباتاً في المجتمع، بدأت مباشرة عملية إعلامية لا بأس بها يقوم بها الرجال من أصحاب الاتجاهات الإسلامية، وكان أبرز سمات هذه العملية هو التشجيع الوافر للمرأة المسلمة والإعجاب الشديد والمديح المتواصل، واستمرت

هذه العملية حتى هذه اللحظة، وأن يبدأ الأمر بتلك الطريقة فذلك موضوع لا بأس به، ولكن أن يستمر كذلك فهذا هو الخطأ، بل إن هذا اصبح بشكل أو بآخر وكأنه تعبير عن تلك النظرة القديمة إلى المرأة والإحساس بأنها كائن عاجز غير فعال.

والمطلوب اليوم أن تتغير تلك الوسائل وتلك النظرة وذلك الإحساس سواء من الرجل المسلم أم من المرأة المسلمة، ينبغي أن تنتهي فكرياً فترة الإعجاب والمديح، وأن تبدأ مرحلة المسؤوليات، فالمرأة المسلمة أهم تيارات الحركة الإسلامية المعاصرة وأمامها أهم المسؤوليات:

أولاً: أن وعياً عميقاً بالإسلام وبقضاياه المعاصرة من خلال وعي حركة مده التاريخية ومكنوناته الشاملة في كل الجوانب، والالتزام به كأمر من الله سبحانه وتعالى أولاً، وكصورة التزمت بها نساء عظيمات في تاريخنا الإسلامي هو أهم مسؤولياتنا الذاتية. إن بناء أنفسنا إسلامياً كنماذج حية تتحرك هو هدف ينبغي أن نطمح إليه للوصول إلى رضاء الله سبحانه وتعالى ولنصبح قدوة تحتذى أمام الآخرين، في الوقت الذي تحتاج فيه الحركة الإسلامية إلى مد واسع ـ خاصة في جانب المرأة ـ لتحسم الأمر نهائياً لصالحها في معركة التحول الإسلامي للمجتمعات.

كما أن حسم المعركة النفسية التي تتم في داخل بعضنا وهم يرون إغراءات الجاهلية حولهم وبريقها الزائف وقيمتها الجمالية المصطنعة، حسم هذه المعركة نهائياً على أسس الوعي بالإسلام والالتزام به هو ثاني أهم مسؤولياتنا الذاتية. إن تصوراتنا من الله.. وتصوراتهم من البشر، وقيمنا من الخالق.. وقيمهم من المخلوقات، ومكانتنا يحددها الإنسان بانحرافاته وضعفه.. وحسم المعركة النفسية يتم بوعي المفاهيم الفكرية التالية وتفهمها:

١ ـ نحن أطروحة الأصالة لهذه الأمة وتاريخها الممتد، بينما هم يمثلون محاولة قطع هذا التاريخ، ويمثلون أيضاً الانحياز إلى مفاهيم وقيم وأخلاقيات أعداء هذه الأمة التاريخيين.

٢ ـ نحن أطروحة الانتصار، الانتصار على النفس وشهواتها وانحرافاتها أولاً والانتصار على الهجمة الغربية وأدواتها ثانياً، بينما هم يمثلون الهزيمة الكاملة.. الهزيمة على مستوى النفس وانحرافاتها والهزيمة على مستوى التحديث الغربي ونتائج هجماته على مجتمعنا.

٣ ـ نحن أطروحة الفعالية التي تهدف إلى فهم واستيعاب أزمتنا التاريخية وأسباب تخلفنا وانحدارنا وتبعيتنا وذلك تمهيداً لعملية الانقلاب الشامل، والتجاوز لكل ذلك من أجل مجتمع إسلامي متقدم خلاق ومبدع وذي دور أساسي في مجال الإنسان، بينما هم يمثلون السكون وإشارات الهزائم وعلاماتها منذ أكثر من قرن وحتى الآن.

٤ ـ نحن أطروحة الإيجابية.. إيجابية التمسك بالقيم والمفاهيم الخالدة من إسلامنا في نفس الوقت الذي نحاول فيه فهم العصر واستيعابه ونقده والاستفادة منه، بينما هم يمثلون السلبية الكاملة حين أصبحوا فقط أوعية لاحتواء فكر الغير ومفاهيمهم.

وينبغي تماماً أن نعي أننا نحن الذين نتقدم وهم المنتهون، نحن الذين نهاجم وهم الذين يتراجعون، إن غير الإسلاميين هم المطالبون بتبرير موقفهم ومحاولة تغييره والانضمام لنا.. لا العكس.

ثانياً ـ المسؤوليات الموضوعية:

على المرأة المسلمة اليوم أن تعي قضية التحدي، وتاريخها، عليها أن تعي أن الغرب وقف أمامنا في وقت كنا فيه أكثر تخلفاً على النطاق المدني منه، وفي وقت كنا فيه ابتعدنا إلى حد ما عن اصالة إسلامنا، وأمام انبهار بعضنا بتقدمه المدني استطاع أن يقدم لنا أخلاقه وسلوكه وقيمه وركز تركيزاً شديداً على المرأة المسلمة لإدراكه بأن تدمير إسلام المرأة هو تدمير لإسلام المستقبل، إن فهم قضية التحدي هو أول الخطوات لتجاوز الهجمة.

● على المرأة المسلمة حيث تقف أن تكون ضد السياسات التربوية والتعليمية غير الإسلامية وأن تكشف زيف المناهج التربوية والتعليمية الغربية التي استقرت داخل مجتمعاتنا وهذا أهم مجالات التغيير. إن المرأة المسلمة كأم والمرأة المسلمة كمدرسة بالذات، أمامها تحد كبير لرفع الإسلام في وجه العلمانية بكل اتجاهاتها القومية والوطنية والاشتراكية، لأن ذلك هو أهم الوسائل لبناء نشء إسلامي.

● المرأة المسلمة عليها أن تقف مع الخيارات الإسلامية في مجال العمل، فلا تختار إلا مايقبله الإسلام ومايجعلها بعيدة عن الشبهات فذلك هو الوسيلة أمامنا لهز المؤسسات غير الإسلامية القائمة، وعليها في نفس الوقت ألا تهمل بيتها فهو مهمتها الأصيلة نحو تغيير ملامح المجتمع، فمن منزل إسلامي إلى منطقة إسلامية إلى مجتمع مسلم.

● والمرأة المسلمة مطالبة اليوم بأن تتقدم بقوة إلى مجالات العمل الاجتماعي الإسلامي، ففي حين نحاول التقدم لإزاحة الركام الطويل من القيم والمفاهيم والمؤسسات والاتجاهات غير الإسلامية علينا ألا نترك لهم مساحات العمل الاجتماعي فارغة. إن مجالات محو الأمية الكتابية والثقافية ومجالات القوافل الريفية ومجالات مكافحة الفقر في الأحياء والمدن والقرى كلها ضرورية لاقتراب المرأة المسلمة من الجماهير وآلامها، تمهيداً لترشيدها ووضعها في الصف الإسلامي.

المرأة المسلمة أهم تيارات الحركة الإسلامية المعاصرة، ونحو مزيد من الوعي لمشكلاتها ودورها، عليها أن تبقى في تفاؤل مستمر مع إطارات الحركة الإسلامية المتقدمة إلى الأمام.

الدراسة الثالثة

لبنان: خرافة الكيان الماروني..
وزيف المواجهة العربية

لبنان، الوطن الصغير الجميل.. والقبيح في وقت واحد.. لبنان التناقضات.. ذو الألف وجه وألف صورة، الطبيعة الساحرة، مصيف البرجوازية العربية، وفقر الجنوب والبقاع وأحزمة الجوع حول المدن. لبنان، حرية الفكر والصحافة المبهرة.. وعمالة الأيديولوجيين التي تثير الغثيان. لبنان الذي رغم كل شيء مازال للإسلام الحقيقي فيه مكان..حيث الجماعة الإسلامية اللبنانية بقيادة فتحي يكن.. لا تزال تحاول التقدم وسط كل العبث والتآمر.. هو نفس لبنان الذي أصبح ممراً حتى لمن ليس لهم ممر في العالم.

لبنان.. هذا الواضح الخفي، هذا الساحر الخطير، كيف يمكن أن نفهمه، كيف يمكن على الأقل أن نحدد طريقاً للسير نحو فهمه،ليس فقط تلك الحرب الدامية ـ التي مازالت مستمرة منذ ست سنوات ـ ولكن أيضاً ذلك التاريخ الغريب لتكوين أغرب دولة في المنطقة.. وكيف يمكن أن نلمس مستقبله، ذلك القادم من تحت معطف التسوية الشاملة التي تحاول القوى الدولية فرضها على جماهير الوطن الإسلامي الكبير..

هذا ماستحاوله المختار الإسلامي ـ بكل تواضع ـ في الصفحات القليلة القادمة، راضية بالتحدث أمام صعوبة الموضوع، رافضة الموقف السلبي تجاهه، رغم كل مسوغات التجاهل التي تبرز من كنف هذه الصعوبة والتعقيد..

(مركز دراسات المختار الإسلامي)

(*) المصدر: مجلة المختار الإسلامي ـ العدد ١٢ (يونيو/ ١٩٨٠)

(١) الكيان المصطنع بين الانحطاط القومي، والإرادة الأوروبية

ليس لبنان هو الجبل والساحل، ليس روعة الطـبيعة، ولوحة الجمال العظيمة على الأرض فقط، ولكنه أيضاً ذلك الموقع الجغرافي السياسي المهم.

فإذا كانت فـلسطين هي بوابـة تلك الدائرة الآسيـوية ـ آسيا الصغـرى والجزيرة والشرق الـعربي ـ الأكثر خـطورة، فإن لبنـان هو نافذة هـذه الدائرة على المـتوسط، ومن ثـم علـى الغـرب كلـه..وفي نـفس الوقـت الذي كـانت فـيه جـهود الـغرب الصليبي الصهيوني موجهة نحو محاولة امتلاك البوابة فإن عينيه أيضاً كانتا تمسحان النافذة بشوق صليبي شره..

في التـاريخ الوسيـط ـ من عمر الأمـة الإسلامية ـ وحـين تقدمت دولـة الخلافة العثمانيـة لتقيم دولة الإسلام الواحدة، كان الخلـفاء العثمانيون يعتـبرون لبنان جزءاً من الشام كله وبالتالي جزءاً من أرض الوطن الإسلامي.. ووسط اهتمامهم الشديد بحدود الدولة مـع أوروبا، وبالحروب المتواصلة مع الـنمسا وروسيا القيـصرية فقد أغفلوا ـ إلى حد ما ـ الشؤون الدقيقة لتبعية الدولة، حيث استطاع أمراء الإقطاع بين فترة وأخرى أن يستقلوا ببعض أجزائها..

كانت ولايات حلـب وطرابلس ودمشق هي أهم ولايات الشـام.. ورغم محاولة فخر الـدين المعني مـع نهايات القرن الـسادس عشر الميـلادي وبداية القرن الـسابع عشر، الاسـتقلال بجبـل لبنان ومـد نفـوذه إلى خـارجه، إلا أن السـلطـان مـراد الـرابع ـ أحد أهـم الخلفاء العثمانيـين ـ استطاع في نهاية الأمر أن يـعيد الأمور إلى نصابها في ولايات الشام الثلاث..

ومع بدايـة ضعف الدولـة العثمـانية ظهـرت محاولة أخـرى أكثر خطـورة، هي محاولة الأمير بشير الشهابي الذي استطاع من عام ١٨٠٤ ـ ١٨٣١ أن يحقق تواجداً شبه استقـلالي عن جسم الدولة، وساعـده في ذلك تحالفه مع قوات إبـراهيم باشا ـ

ابن محمد علي ـ التي احتلت الشام ضمن تلك المحاولة لمحمد علي لمد دولته والاستقلال عن السلطان العثماني.

وفي عصر الشهابي هذا، وكأثر من آثار الحملة الفرنسية وبدء التوجه الغربي الكثيف نحو الشرق، بدأت علاقات تجارية حميمة بين إمارة الشهابي في جبل لبنان وبين أوروبا .وفي إثر التجار الأوروبيين، جاء المرسلون والمعلمون والسائحون والمستكشفون.. .وكان هؤلاء المرسلون جماعات من الجزويت والكبوشيين والعازاريين وأفراد من بعض الرهبنات الكاثوليكية الأخرى..

هكذا سيبدأ تاريخ لبنان الحديث،.. ففي ظل سلطان عثماني ضعيف هو السلطان عبد العزيز الذي كان معجباً بالغرب وبنهضته ـ دون وعي بجوهر تلك النهضة ـ والذي خضع خضوعاً مخزياً لمحاولات التدخل الأوروبي في شؤون الدولة، تم أول اعتراف من الدولة العثمانية بحق الدول الأوروبية بالتدخل في شؤون لبنان.. .النمسا وفرنسا وبريطانيا وبروسيا التي عقدت مؤتمر اسطمبول سنة ١٨٤٢ لبحث المسألة اللبنانية..

وفي نفس العام تغير الوضع الإداري في جبل لبناء بناء على اقتراح أوروبي بعد المصادمات التي حدثت فيه بين الدروز والموارنة، وقسم الجبل إلى قائمقامتين، واحدة للدروز وواحدة للمارونيين..

ولكن استمرار الصدام الطائفي فجر الصراع بين الدروز والمارونيين في سنة ١٨٦٠، مما أدى إلى أحداث مدمرة ودامية، وكان واضحاً أن التدخل الأوروبي المستمر في شؤون لبنان ـ حيث تولت فرنسا رعاية شؤون المارونيين وتولت إنجلترا الاتصال المستمر بالدروز ـ كان هو المفجر لتلك الأحداث..

في تلك الفترة كان التنافس الأوروبي قد اشتد على أملاك الدولة العثمانية، وكانت المسألة الشرقية قد تصاعدت نحو القمة، ونظراً لتلك الطبيعة الغريبة

للتكوين الطائفي في لبنان ـ حيث الدروز في مواجهة المارون، وحيث الأرثوذكس في مواجهة الشيعة والسنة ـ أدركت أوروبا أن لبنان ميدان خصب للتجزئة ولصنع الأدوات أيضاً..

وكما أن يد الغرب كانت واضحة تماماً من خلف أحداث ١٨٦٠ فإن نفس اليد هي التي صنعت نهاية الأحداث فيما بعد، حيث فرضت الدول الأوروبية على الدولة العثمانية تغيير التركيب الإداري لجبل لبنان مرة أخرى وجعله متصرفية واحدة ترتبط مباشرة بالباب العالي ويحكمها متصرف مسيحي يعينه السلطان..

وفي ظل نظام المتصرفية ذلك.. ازدهرت الرهبانيات المارونية ذات الإقطاعات الواسعة وفتحت الأبواب للغرب على مصاريعها وأسست الحملات التبشيرية أهم مؤسساتها وعلى رأسها المدرسة اليسوعية التي ستتحول فيما بعد إلى الكلية اليسوعية، والمدرسة الإنجليكانية التي ستتحول إلى الجامعة الأمريكية ببيروت، تلك المؤسسات التي مارست وما تزال دوراً خطيراً وعميقاً في بناء العقل العلماني وبناء حس الولاء للغرب، وفي تدمير كل ما يمت للإسلام وللشرق وللعرب بصلة..

ومع نهاية القرن التاسع عشر ومطلع القرن العشرين، كانت الهجمة الغربية على الوطن الإسلامي قد أنجزت أخطر مهماتها حين أفرزت إلى قيادة المؤسسات الوطنية أبناءها من العلمانيين والقوميين، وهكذا استطاعت جماعة تركيا الفتاة وورثتها من جمعية الاتحاد والترقي السيطرة على الدولة العثمانية ونفي السلطان المسلم عبد الحميد الذي حاول وبشدة أن يقف في وجه الغرب.

وقد صفق القوميون العرب العلمانيون لرفاقهم في جمعية الاتحاد والترقي حين استطاعوا الاستيلاء على الدولة، ووقف أعضاء جمعية بيروت الإصلاحية ومنتدى الشبيبة العربية وجمعية العهد وكذلك العربية الفتاة، وقفوا جميعاً ضد الإسلام والسلطان المسلم..، ولم يدركوا أن صعود القومية التركية بدلاً من الإسلام إلى قمة السلطة العثمانية يعني بدء صراع القوميات في الوطن الإسلامي..

وهكذا ومع بداية الحرب العالمية سنة ١٩١٥ جاء جمال باشا إلى الشام حاكماً عسكرياً ـ وهو أحد أبرز قادة الاتحاد والترقي ـ فنكل بالقوميين العرب متهماً إياهم بالتعامل مع بريطانيا وفرنسا، بينما كانت تركيا نفسها متحالفة مع ألمانيا..

وكنتيجة لذلك فقد استغل القوميون العرب عنف جمال باشا ضدهم للدعوة إلى الاستقلال عن الدولة العثمانية، متناسين بذلك أنهم صفقوا في البداية عندما استطاع جمال باشا ورفاقه في جمعية الاتحاد والترقي منذ سنوات أن يهزموا السلطان المسلم ويزيحوه عن الحكم..

إن إدانة القوميين الأتراك هي إدانة أيضاً للقوميين العرب، فقد كانوا جميعاً وجهين لأداة واحدة موجهة ضد الإسلام والمسلمين.

وهكذا فقد اشترك العرب ـ القوميون ـ مع بريطانيا في الحرب ضد تركيا التي هزمت في النهاية لتنكمش مرة ثانية ـ تحت ظل الشعارات القومية ـ داخل حدود آسيا الوسطى وليدخل الإنجليز والفرنسيون خلفاً لها إلى الشام..

وفي نهاية الحرب يكتشف العرب أن حليفتهم بريطانيا قد صاغت سراً ـ مع فرنسا ـ اتفاقية لتقسيم الوطن الإسلامي بينهما بعد هزيمة الدولة العثمانية، وهي مايطلق عليها اتفاقية سايكس بيكو، وهكذا ومن منطلق قومي بحت اجتمع رجالات من العرب وحلفاء بريطانيا المخلصون من قادة ماأطلق عليه الثورة الكبرى، اجتمعوا في دمشق في المؤتمر السوري العام بتاريخ ٨/ ٣/ ١٩٢٠ ليقرروا بإجماع الرأي استقلال بلادنا السورية بحدودها الطبيعية ـ ومنها فلسطين ـ استقلالاً تاماً لا شائبة فيه على الأساس النيابي، على أن تراعى أماني اللبنانيين الوطنية في كيفية إدارة مقاطعتهم لبنان ضمن حدوده المعروفة قبل الحرب، وبشرط أن يكون بمعزل عن كل تأثير أجنبي، ورفض مزاعم الصهيونية في جعل فلسطين وطن هجرة لهم..

وكان المؤتمر في الحقيقة صيحة رومانسية مرتجفة في وجه خراب حلفاء الأمس.. فأين كان الوعي القومي عندما صفق الوجهاء العرب أولئك لطرد السلطان المسلم عبد الحميد؟ وأين كان ذلك الوعي حين تورط القوميون في التحالف مع الغرب ضد وطنهم فطردوا الدولة العثمانية ليأتوا بجنود بريطانيا وفرنسا؟ كانت صيحة عبث إذن تلك التي أطلقها المؤتمر الفرنسي تماماً رغم أنف المؤتمرين فأخذت بريطانيا العراق وفلسطين واستولت فرنسا على سوريا ولبنان..

ووسط ترحيب مسيحي يقوده غبطة البطريرك الماروني حويك قامت القوات الفرنسية بضم أقضية صيدا، بيروت، طرابلس والبقاع إلى متصرفية جبل لبنان ليكون الجميع ماسمي بدولة لبنان الكبير تحت الانتداب الفرنسي.. ووضعت لهذه الدولة قانونها ودستورها، بل ونصبت أيضاً رئيس جمهوريتها الذي سيبدأ مسيحياً أرثوذكسياً ـ شارل دباس سنة ١٩٢٦ ـ لينتهي مسيحياً مارونياً..

وخلال ذلك كله فإن السيطرة الفعلية كانت دوماً لفرنسا ولأصدقائها من الموارنة وبعض الشخصيات الإسلامية!! التي دخلت في لعبة الوطن اللبناني، رغم عواطف الشعب اللبناني المسلم ضد فرنسا وانتدابها ودولتها..

وفي أثناء الحرب العالمية الثانية تنهزم فرنسا أمام ألمانيا فتدخل إنجلترا حليفتها إلى لبنان ليبدأ الإنجليز في تركيز نفوذ لهم داخل لبنان، ومع نهاية الحرب، يدرك بعض اللبنانيين الموارنة أن بقاء فرنسا في لبنان هو ضد مصالح الطائفة المارونية وأن الولاء الحقيقي للغرب يمكن أن يتم بصورة أفضل إن تم الانسحاب الفرنسي عن لبنان، وكان ذلك طبيعياً بعد هزيمة فرنسا وادراك الموارنة أن حماية فرنسا لهم لن تبقى للأبد، يضاف إلى ذلك تزايد المشاعر الإسلامية ضد الغرب ـ وفرنسا بالذات ـ بعد الحرب.

وهكذا وفي ظل تحالف بين بشارة الخوري ـ الماروني ـ ورياض الصلح ـ المسلم ـ وبمساعدة من انجلترا يتم الضغط على فرنسا لتنسحب من لبنان سنة

١٩٤٣ ليتم استقلال الدولة اللبنانية، أو بصورة أخرى انقسام لبنان عن الوطن الإسلامي، وفي الدولة الجديدة يستولي المارونيون على رئاسة الجمهورية وقيادة الجيش ويعطى المسلمون رئاسة الوزارة ورئاسة المجلس النيابي، في ظل نظام يشكل فيه رئيس الجمهورية أكبر من ملك وأقل من إله..

لقد أخذ لبنان وضعاً مميزاً في الدولة العثمانية نتيجة لذلك التدخل العنيف والقذر للدول الأوروبية ـ وعلى رأسها بريطانيا وفرنسا ـ في شؤون الدولة العثمانية بعد ضعف سلطانها، فأوروبا هي التي اقترحت نظام القائم قاميتين، وهي التي وضعت شكل المتصرفية فيما بعد، وهي التي دعمت الأقلية المارونية وأعطتها وضعها الخاص في الدولة العثمانية، وبقيام الحرب الأولى وبمساهمة الجيل الأول من القوميين العرب في تدمير دولة الإسلام، تمت الخطوات التالية في تقسيم الشرق العربي إلى دويلات مليئة بالعجائب والغرائب وكان أعجبها وأغربها دولة لبنان..

وكما كانت النكبة الفلسطينية وقيام إسرائيل حصيلة للتحالف الغربي الصهيوني ولغباء الجيل الأول من القوميين العرب، فإن تشكيل الكيان اللبناني ـ الأزمة ـ كان حصيلة أيضاً للغباء القومي وللتحالف الغربي مع الصليبية المارونية ممثلة في خرافتها عن عنصر لبناني متميز وكيان لبناني غربي الولاء ولا علاقة له بالشرق..

٢ ـ المارونية السياسية: خرافة التاريخ.. والفكر السياسي

في لبنان.. إن أردت أن تكون لبنانياً حقيقياً فعليك أن تكون مسيحياً، وإن لم تكن مسيحياً في بطاقتك فعليك أن تعلن توجهك الفكري المسيحي، وفي لبنان لا يمكن أن تكون مسيحياً إلا إذا أصبحت مارونياً، وإن كنت في الواقع تنتمي إلى الكنيسة الكاثوليكية أو الأرثوذكسية فعليك خارج الكنيسة أن تعلن مارونيتك..

وفي لبنان ـ الغريب هذا ـ لا يمكن أن تكون مارونياً إلا عندما تعلن ولاءك لقادة المارونية السياسية في حزب الكتائب والأحرار وكبار الرهبان المارون.. أي أن الأمر

في النهاية أن المواطن اللبناني لا يمكن أن يكون لبنانيا إلا إذا آمن إيماناً يستقر في القلب ويصدقه العمل بأن خرافات قادة المارونية ـ عن عنصر لبناني متميز وغير عربي، وعن استقلال ماروني لبناني سياسي دام على مر العصور التاريخية، وعن علاقات عميقة أسطورية بين لبنان والغرب هي جميعاً خرافات حقيقية لا يشوبها من الخرافة شيء!!..

ذلك هو جوهر المارونية السياسية ومحور دائرتها ومبرر وجودها..

ورغم أن المسلمين الشيعة هم أكبر طائفة لبنانية ـ وأكثرها فقراً أيضاً ـ وأن المسلمين السنة هم الطائفة الثانية من حيث التعداد، تليهم الطائفة المارونية ثم الدروز فالأرثوذكس والكاثوليك وبقية الطوائف الأخرى القليلة العدد.. رغم هذا الترتيب في تعداد السكان،إلا أن المارونيين يعتقدون أن لبنان لهم وحدهم وأن كرم أخلاقهم فقط هو الذي يسمح لبقية الطوائف بالتواجد وهو الذي منح هذه الطوائف بعض المنح في مؤسسات الحكم وفي وظائف الدولة.. وقد قادت المارونية السياسية معظم مسيحيي لبنان وراءها طوال سنوات من الحرب الدامية بدأت في ربيع ١٩٧٥ ولم تنته ـ في الحقيقة ـ حتى الآن، قادتهم ضد المسلمين من سكان لبنان في ظل ظروف سياسية معقدة لتعيد إثبات تلك المفاهيم، حتى لو أدى ذلك إلى انقسام لبنان إلى دولتين، تكون احداهما خالصة صافية للمسيحيين وحدهم..

وقد عبرت المارونية السياسية من خلال أحد تنظيماتها ـ وهي الرابطة المارونية ـ عن مفاهيمها وتصوراتها تلك بدقة في وثيقة قدمتها لوزير خارجية فرنسا كوف دى مورفيل الذي زار لبنان أثناء الفترة الأولى من الحرب الأهلية، ونحن نشير هنا باختصار إلى أدق محتويات هذه الوثيقة وذلك نظراً لأهميتها كتعبير حقيقي عن وجهة نظر المارونية في المسألة اللبنانية..

ترى المارونية أن الإسلام ينظر لغير المسلمين بأنهم ذميون ويمثلون دار الحرب، وبالتالي فإن حقوقهم في دولة الإسلام أقل من حقوق المسلمين..

ويحددون في وثيقتهم أن المسلمين اللبنانيين ـ السنة ـ يعتبرون لبنان جزءاً صغيراً من وطن كبير هو الوطن العربي، ويضيفون بعد ذلك مايعني أن الوطن العربي هو الوطن الإسلامي، بينما يرى المارون أن ذلك سيؤدي بهم إلى الحياة كذميين وسط أكثرية إسلامية، ونسوا أن الكنيسة المارونية نفسها لم تتأسس إلا في ظل تسامح الفاتحين المسلمين في نهاية القرن السابع والذين خلصوهم من اضطهاد أبناء دينهم من البيزنطيين..

ويعتقد أصحاب الوثيقة المارونية أن المسلمين من يوم استقلال لبنان عن فرنسا حتى بدايات الحرب قد أخذوا من الحقوق زيادة عما يستحقون في الواقع!!..

ويتألم السادة المارون على تنازلهم وقبولهم بفكرة التوازن بين المسيحيين والمسلمين في لبنان حيث أدى ذلك بهم إلى الانحدار الثقافي والفكري بتنازلهم عن الولاء الكامل لفكر وثقافة أوروبا مراعاة لبعض مشاعر المسلمين..

ويقررون في النهاية أنهم أخطأوا تماماً حين قبلوا بصيغة دولة لبنان الكبير سنة ١٩٢٠ حين انضمت صيدا وطرابلس والبقاع وعكا إلى متصرفية جبل لبنان، وذلك لأن تلك المناطق هي التي جلبت الأكثرية من المسلمين ضمن حدود لبنان..

ويتندرون بسخرية على الميثاق اللبناني ـ الشهير ـ الذي أعده أول رئيس وزراء للبنان المستقل عن فرنسا سنة ١٩٤٦ والذي تجاسر فيه وذكر أن لبنان ذو وجه عربي!!

وأخيراً يحددون طريق الخلاص في أن المخرج الوحيد الممكن هو العودة إلى صيغة لبنان القديم، المستقل، الحيادي، بضمان الدول الكبرى، وعندما يخسر صور وصيدا وطرابلس وجزءاً من البقاع وعكار، فإن لبنان الإنساني سيربح كثيراً من حيث الكرامة والاستقلال الثقافي والاجتماعي والاقتصادي، ولكن ربحه الأكبر هو الحرية في تحركاته الدولية..

هكذا إذن يتحدد الخلاص في دولة مسيحية مستقلة بانقسام لبنان إلى شطرين ولا بأس من إغراء الدول الكبرى في النهاية، فإن ذلك لمصلحتها لأن الدولة الجديدة ستكون أكثر حرية في التعامل معها.. أي في العمالة لها..

كيف استطاعت المارونية السياسية أن تحدد مفاهيمها تلك، ومن أين جاءت بمبرراتها التاريخية ـ الحضارية؟! والسؤال المهم أيضاً كيف تتجرأ المارونية على طرح هذه الرؤية بل على حمل السلاح من أجل تحقيقها؟! ولماذا سكتت طوال العهود الماضية لتطلع علينا الآن بمطالبها هذه؟..

تقدم القيادات المارونية نظريتها إلى المارونيين بادعاءات تاريخية تؤكد أنهم ينتمون إلى عنصر غير عربي أو حتى لعنصر غير سامٍ، وأن لا علاقة لهم بمحيط البشر الذي يحيط بهم وتدعي أن المارونيين ينتمون إلى عنصر غير سامٍ ـ المردة أو الجراجمة ـ الذين عاشوا في سوريا قادمين لها من فارس (حسب قول الأصفهاني) حوالي سنة ٥٧٠ ميلادية، وأنهم اتجهوا من شمال سوريا إلى لبنان في نهاية القرن السابع الميلادي ـ بعد الفتح الإسلامي ـ ورافق ذلك تأسيس الكنيسة المارونية وتعيين أول بطريرك لها وهو ـ مار يوحنا مارون ـ إثر انقسام كنيسة أنطاكية إلى روم وموارنة..

ورغم أنهم يؤكدون أن أبا المارونية الروحي هو الراهب مار مارون الذي عاش حوالي نهاية القرن الرابع وبداية الخامس الميلادي في شمال سورية.. رغم ذلك فإنهم لا يفسرون لنا كيف ارتبطت المارونية بهؤلاء المردة أو الجراجمة الذين جاءوا إلى سوريا بعد مار مارون بحوالي مائة وسبعين عاماً.. ثم كيف نسوا لغتهم الفارسية ودينهم المجوسي واعتنقوا المسيحية المارونية ونطقوا باللغة السريانية الآرامية ـ التي هي لغة سوريا آنذاك ـ بتلك السرعة..

وإن صدقنا بذلك فإن هذا لايعني إلا أنهم ذابوا نظراً لقلة عددهم بأغلبيةأهل سوريا آنذاك، الذين هم أبناء الآراميين والأنباط الذين قدموا ضمن الهجرات السامية من شبه الجزيرة إلى سوريا حوالي ٢٤٥٠ قبل الميلاد..

لا يقدم المارونيون أي أدلة تاريخية حول ذلك الاضطراب بين بدء وتأسيس المارونية كاتجاه ديني مسيحي وبين وجود هذا العنصر غير السامي ـ المردة ـ في سوريا ويعتمدون نصاً للأصفهاني في أصل المردة، بينما الأصفهاني لا يعتبر مصدراً تاريخياً علمياً حتى للأحداث التي جرت في عصره هو حسب رأي كثير من المؤرخين..

المهم لدى قادة المارونية السياسية أنهم يريدون أن يقدموا لأبناء طائفتهم حتى ولو خرافة تاريخية تثبت ذلك الارتباط بين المارونية وجنس متميز.. أما إذا ادعوا أنهم ينتمون إلى أصول فينيقية ـ وقد كان الفينيقيون جزءاً من الهجرة الآمورية السامية (٢٤٥٠ق.م) ـ فلا يبقى هناك أي مبرر للتمييز لأن أهل الساحل السوري جميعهم سيشاركونهم نفس الأصل..

وقد جندت المارونية السياسية كبار مفكريها من تلاميذ الاستشراق والكلية اليسوعية لإثبات تلك الخرافة عن نقاء العنصر ووحدة العقيدة، وذلك حتى يسهل أمامها قيادة المسيحية في لبنان ـ ثم في المشرق كله ـ ضد البحر الإسلامي العربي الذي يحيطها، ومن أجل كيان صليبي مرتبط بالغرب..

لم تكن المارونية كاتجاه قادرة على طرح نفسها بهذا الوضوح وبذلك الاستعلاء على المسلمين والعرب لولا أن التنازل يجر التنازل، والمسألة اللبنانية لم تبدأ في الحقيقة في السبعينات ولكنها بدأت فعلاً قبل ذلك بفترة طويلة..

لقد كان المثقفون المسيحيون في نهاية القرن الماضي ـ بطرس البستاني ـ وبداية القرن العشرين ـ نجيب عازوري ـ هم أول من طرح القومية العربية كفكرة في وجه الوحدة الإسلامية التي جاهد من أجلها السلطان العثماني عبد الحميد.. وفيما بعد سارت فئة من العرب وراء هذه الدعوة، وحين تنازل القوميون العرب الأوائل عن الوحدة الإسلامية مطالبين بوحدة قومية ومقدمين التنازل الأول، وقف المسيحيون اللبنانيون في المؤتمر السوري ضد دولة سورية كبرى مطالبين بدولة لبنانية منفصلة.. وبالتعاون مع الاحتلال الفرنسي حققوا مطلبهم ذلك..

وقد قبل المسلمون اللبنانيون والسوريون بصفة عامة بالدولة الإقليمية الصغيرة فيما بعد مقدمين بذلك تنازلهم الثاني ليتربع الجيل الأول من القوميين العرب على عروش الدولة المتعددة في الشرق العربي وليهزموا جميعاً شر هزيمة في فلسطين سنة ١٩٤٨، حيث قال رياض الصلح رئيس الوزراء اللبناني المسلم السني يومها مبرراً عدم قدرته على مواجهة رئيس الجمهورية الماروني بشارة الخوري: لقد قصمت هزيمة فلسطين ظهري.. وكان يعني بذلك هزيمة الاتجاه القومي التقليدي كله..

وفي ظل الانقلابات المتعددة في الخمسينات وبروز القوميين الجدد، قدم المارونيون كميل شمعون ـ كرئيس لجمهورية لبنان ـ مثالاً للتحديث الوقح والعمالة الصريحة للغرب، وحين فشل هذا الاتجاه قدموا الجنرال فؤاد شهاب الذي كان مارونياً أكثر من شمعون نفسه واستطاع في ذات الوقت أن يكسب ود المسلمين في لبنان ـ يخدعهم ـ حين بدأ في محاولة لإعمار وبناء لبنان، ولتحديد التوازن بدقة بين المسيحيين والمسلمين، رغم أنه بذلك كان يضع أول أسافين التقسيم في لبنان، وقد استطاع فؤاد شهاب بذكائه وسلطة المكتب الثاني اللبناني ـ المخابرات ـ أن يحكم لبنان بدقة شديدة وأن يمنع عنه كل الاتجاهات القوميةالمتطرفة وأن يسيطر على الفلسطينيين في مخيماتهم المتعددة في لبنان، ورغم أن القيادات المارونية لم ترض تماماً عن اسلوب شهاب في الحكم إلا أنها به كانت تكسب أهم معاركها..

وفي حزيران ١٩٦٧ وحين هزم الثوريون الاشتراكيون العرب وقدموا إلى روح أمتنا أكبر الإساءات في تاريخها، أدرك المارون أن الوقت قد حان ليقدم الطرف الآخر تنازله النهائي فإما سيطرة كاملة للمارونية في لبنان وإما انقسام جديد ودولة جديدة مسيحية صافية..

ومنذ عام ٦٨ وحين أحسوا أن دخول السلاح الفلسطيني إلى لبنان سيساعد المسلمين بشكل أو بآخر في التصدي لهم، حملوا السلاح من أجل تمرير مخططاتهم..

وكان الرئيس الماروني سليمان فرنجية القادم من شمال البلاد ـ حيث العصابات المسيحية المسلحة منذ القديم ـ عنواناً للمرحلة.: وحين أمر فرنجية ضباط طيرانه سنة ٧٤ بقصف المخيمات الفلسطينية في بيروت ـ والتي مثلت سنداً للمسلمين ـ قائلاً لهم: أحرقوا أرواحهم وأخرجوا كل واحد منهم من المدينة، فإنه لم يكن بذلك يمثل الروح الصليبية الحاقدة فقط، وإنما كان يمثل أيضاً جرأة المارونية السياسية العاملة في زمن سقط فيه كل رادع لهم.

٣ ـ لبنان: لماذا الحرب؟ ومن يحارب من؟ وملامح المستقبل!

مع بداية السبعينات كان كل شيء في لبنان يشير إلى الانفجار.. فقد كانت الإمكانيات الاقتصادية لقادة المارونية السياسية ثم لأبناء طائفتهم على حساب فقر المسلمين وتدهور أوضاعهم المعيشية.. ولم يكن غريباً أن يضيف الظرف الاجتماعي بعداً مهما للصراع في لبنان لأن التميزالطبقي الشديد الذي بدا واضحاً في السبعينات لم يكن يدل إلا على شيء واحد فقط: إن أقلية مارونية تملك وأن أكثرية سنية وشيعية لا تملك شيئاً..

وقد عانى المسلمون معاناة هائلة من قيادات الشارع الإسلامي التقليدية التي تحدد موقعها في النهاية كقيادات (إسلامية مارونية) إن صح التعبير، فكبار رؤساء الوزارات الذين مروا على لبنان في العشرين سنة الأخيرةأمثال صائب سلام وعبد الله اليافي ورشيد كرامي.. وآخرين أمثالهم، كانوا في الحقيقة أقرب إلى التوجهات المارونية ـ الغربية العواطف، الرأسمالية الانتماء، العلمانية الفكر ـ منهم إلى نبض الشارع الإسلامي الفقير الذي انهكت قواه الضغوط الاقتصادية وخدشت روحه الهزائم المتوالية أمام إسرائيل..

وبظهور المقاومة الفلسطينية عقب هزيمة حزيران ودخول عناصرها المسلحة إلى لبنان ثم تواجدها الكثيف في المدن اللبنانية سلاحاً وإعلاماً، طرأ على الواقع اللبناني متغير جديد، فقد التف الشارع الإسلامي في المدن اللبنانية حول المقاومة ليحميها من ضغط الموارنة وليحافظ عليها كمخرج له من أزمة مواجهة القوة المارونية

المتصاعدة التي استولت على كل شيء من رئاسة الجمهورية إلى البنوك والمؤسسات الاقتصادية، حتى فرص العمل وميادين المقاولات المهمة في دول النفط العربية..

بعد هزيمة حزيران (يونيو) ٦٧ اعتقد الموارنة أن لبنان سيكون خالصاً لهم بالفعل أو بالقوة فجاءت المقاومة الفلسطينية لتعطي الشارع الإسلامي فرصة جديدة لمواصلة الصراع - مهما كانت طبيعة المقاومة - فلم يحتمل الموارنة ضياع الفرصة ولو مؤقتاً من ايديهم وكان لا بد لهم من القتال دفاعاً عن امتيازاتهم وعن رؤيتهم للبنان المسيحي المستقل عن قضايا المنطقة، المحايد لإسرائيل والمستفيد من ثروات البترول المتصاعدة وصديق الغرب الحميم..

وعلى الأبواب كانت أزمةالشرق الأوسط تتقدم في منحنيات جديدة عقب حرب اكتوبر ٧٣، فقد تحرك الأميركيون بكل ثقلهم من أجل ترتيب أوضاع المنطقة من جديد..

ولأن الغرب وإسرائيل ينظرون للقضية من خلال أجهزة الكومبيوتر وإحصاءات المؤسسات الاستعمارية فهم دوماً لا يدركون إلا قوى الصراع المادية البحتة.. ففي منتصف السبعينات قرروا أن اللاجئين الفلسطينيين المتواجدين خارج الأرض الفلسطينية سيكونون هم أكبر العقبات في وجه التسوية الشاملة، ولم يدركوا بطبيعة الحال أن بذرة المد الإسلامي التي تفتحت عقب نكبة ١٩٦٧م ستزهر وروداً صلبة ورائعة مع نهاية السبعينات.

وهكذا طرح عبقري السياسة الأمريكية السباق هنري كيسينجر تصوره للتسوية بقيام حرب أهلية في لبنان - حيث الموارنة جاهزون للقتال دفاعاً عن تصورهم للبنان المسيحي الغربي وعن امتيازاتهم فيه - على أن تنتهي هذه الحرب بانقسام لبنان إلى لبنان ماروني صاف ولبنان إسلامي يتم في داخله استيعاب اللاجئين الفلسطينيين في لبنان.

وهكذا التقت الأماني الإسرائيلية بالأهداف المارونية بالتخاذل والتهاوي للأنظمة العربية ضمن مخطط أمريكي دقيق ودموي..

واشتعل لبنان بالحرب ابتداء من العام ٧٥ ومازال حتى الآن ينتظر السياسة الأمريكية أم الأعاجيب على الكرة الأرضية لتحل له أزمته..

وقفت المارونية السياسية بتنظيماتها وبمساندة إسرائيل والغرب والفاتيكان وبعض الأنظمة العربية إلى جانب ووقف الشارع الإسلامي مع بعض التنظيمات القومية الاشتراكية واليسار الماركسي ومنظمات المقاومة والحركة الإسلامية اللبنانية بقيادة فتحي يكن على جانب آخر واستمر الصراع..

وسنعرض هنا وبسرعة لأهم أطراف الصراع مع توضيح رؤيتهم لحل المسألة اللبنانية، حريصين في ذات الوقت على وضع ذلك تحت منظار إسلامي علمي من خلال فهم حركة التاريخ في الوطن الإسلامي وفي لبنان بالذات.

أهم أطراف المارونية السياسية طوال فترة الحرب ـ ومازال ـ كان حزب الكتائب الذي يقوده بيار الجميل وقد طرح الحزب الدولة الفيدرالية كحل للمسألة اللبنانية، أي تقسيم إداري بين المسيحيين والمسلمين في ظل نظام دولة واحدة شكليا.. بينما قدم حزب الوطنيين الأحرار بقيادة شمعون فكرة تقسيم لبنان إلى ثلاث ولايات ضمن دولة واحدة، الولاية الأولى وتشمل المناطق ذات الأكثرية المسيحية في جبل لبنان والولاية الثانية وتشمل المناطق ذات الأكثرية الإسلامية أما الولاية الثالثة فتشمل المناطق ذات التوازن السكاني بين الطرفين.

ولا يختلف الحل الذي طرحته الرهبانيات المارونية عن الرؤية السابقة للكتائب والأحرار. المهم في النهاية أن التنظيمات المارونية تقدم رؤيتها للمسألة اللبنانية من خلال فهمها الديني والعنصري للبنان ذاته.. أي أنها جميعاً تتحرك في برامجها نحو تقسيم لبنان وتجزئته من أجل أن يكون هناك نظام ماروني مستقل، بداية في إطار فيدرالية لبنانية ونهاية في إطار التجزئة الجديدة التي ستشمل المنطقة.

وعلى الجانب الثاني من دائرة الصراع يقف تحالف التنظيمات القومية الاشتراكية مع اليسار الماركسي والذي يشمل الحزب التقدمي الاشتراكي، والحزب الشيوعي

والحزب القومي السوري الاجتماعي، وطرفا من حزب البعث وحزب العمل القومي الاشتراكي، وعدة تنظيمات ناصرية ومنظمات أخرى صغيرة.. وقد طرحت هذه التنظيمات برنامجها على أساس إلغاء النظام الطائفي في لبنان في ظل علمانية شاملة تلغي أي اعتبار للانتماء الديني. ويرى قادة هذه المنظمات أن العلمانية هي الحل الأمثل لمشكلة لبنان وتقدم شعبه وتجنب انقسام أرضه!!

والتنظيمات القومية والماركسية تقدم العلمانية منسجمة بذلك مع أصولها الفكرية وانتمائها التاريخي، فهي جميعاً حصيلة للهجمة الغربية التي بدأت مع الحملة الفرنسية ومازالت مستمرة على الوطن الإسلامي.. مرة يقودها الغرب الرأسمالي، ومرة يقودها الغرب الشيوعي ولكنها في النهاية تهدف إلى تصفية الحس الإسلامي التاريخي لدى الجماهير بعد أن نجحت في تصفية سلطة الإسلام كنظام حكم ممثل بالخلافة الإسلامية..

وفوق أن العلمانية لن تحل المسألة اللبنانية لأنها تغفل تماماً البناء الماروني الواحد والانتماء لأوروبا في تكوينه، فوق هذا، فإن العلمانية تصب في النهاية نحو الهدف الماروني من أجل لبنان أوروبي منفصل عن بحر الجماهير الإسلامية الروح من حوله.

إن الحل الذي يقدمه الوطنيون القوميون والماركسيون، هو حل نظري قومي للمسألة اللبنانية لأنه يغفل أو يتغافل عن جوهرها في أنها جزء من مشكلة الوطن الإسلامي الذي يدورُ فيه الصراع بحدة بين الإسلاميين واللاإسلاميين، متحالفين مع الغرب من أجل استمرار تجزئة الوطن وتصفية جوهر جماهيره الإسلامي..

وكطرف مستقل تقف الحركة الإسلامية اللبنانية لتقاتل طوال سنوات الحرب ضد التحالف الصليبي الغربي مقدمة شهدائها على طول الوطن وعرضه من خلال فهم حقيقي لجوهر الصراع، طارحة الدستور الإسلامي وعودة لبنان إلى سوريا الكبرى، تمهيداً لإقامة الدولة الإسلامية الشاملة على أرض الوطن الإسلامي كحل

لمشـاكل لبـنان، وهي تـعي بذلـك الإمكانيـة الوحيـدة لتصـفية الخـرافات المارونـية العنصـرية والإمكانية الحقـيقية للاستقـلال عن الغرب.. وذلك ضمن تـصور دقيق لحقوق أهل الـذمة في الإسلام، حيث لا ظلـم على الاطلاق لأي إنسان غيـر مسلم وحيث القيمة الإنسانية للتواجد الإنساني مهما كانت العقيدة..

وأخيـراً ما الذي يـضير المسـيحي إذا حـكم بدسـتور إسلامي إن كـانت حقـوقه مكفولة في ظله طالما أنه دوماً سيحكم بدستور غير مسيحي في ظل عدم قدرة الدين المسيحي على تقديم رؤية كاملة لتنظيم العلاقات بين البشر.

ولكن الظروف الموضوعية للحركة الإسلامية اللبنانية تجعلها غير قادرة الآن على فرض تصورها لحل المشكـلة اللبنانية، رغم إدراكنا أن متغيـرات كثيرة تبرز الآن قد تجعل هذه الظروف تتحرك نحو وضع أفضل للحركةالإسلامية في المستقبل.

طوال خمـس سنوات من الحرب لم يـستطع أي طرف فـي لبنان حسم المـعركة لصـالحه.. فالجمـاهير الإسـلامية غاب عـنها أن سلاح المـقاومة الـذي يسـاندهـا في الحرب هو سلاح مؤقت لأن المقاومة الفلسطينية في لبنان لم تقدم سلاحها دفاعاً عن لبنان إسلامي وإنما قدمتـه كقوة سياسية تدور ضمن لعبة التسويـة في المنطقة، ولعل أهم دليـل على ذلك أن المـقاومة الفـلسطيـنية دخلـت الحرب اللبـنانية وهـي تطرح فلسطين من النهر إلى البحر كهدف لها، ثم خرجت من الحرب اللبنانية وهي تدعو إلى إقامة دولة فلسطـينية على جزء فقط من أرض فلسطين ـ الضـفة الغربية وقطاع غزة ـ ومن يدري؛ فلعل المستقبل يحمل لـنا تنازلات جديدة تصل إلى قبول الصيغة الأمريكية الأوروبيـة للتسوية الشاملة الـتي ستؤدي في النهاية إلى تـوطين جزء كبير من اللاجئين الفلسطينيين في لبنان والأردن وسوريا، ومن ثم تكوين لبنان الفيدرالي أو تقـسيم لـبنـان تماماً. الجـميع يـدرك أن المخططـات الأمريكـية غـير مقـدسة وأن الشعـوب بشيء من الوعي والـدم، قادرة على الصمـود في وجهها كمـا حدث في لبنان، أو إسقاطها كما حدث في إيران.

الدراسة الرابعة

القضيــة الفلسطينيــة

هي القضية المركزية للحركة الإسلامية.. لماذا؟

تتفاوت مواقف الإسلاميين من القضية الفلسطينية الي درجة تثير الدهشة، فمنهم من يتجاهلها وكأنها - كقضية سياسية- لا تتجاوز قضية الخلاف بين عجمان ورأس الخيمة.. ويتصورون- وكطريقتهم المعتادة في التصور- أن قيام دولة إسلامية في المنطقة سينهي المشكلة تماما وسيحسم الصراع الطويل، ويعيد فلسطين لأهلها خلال ساعات.. ولو سألت هؤلاء عن الدولة الإسلامية التي يرونها لا تسمع منهم إلا قولا واحدا: أن ذلك ليس من شأننا التفكير فيه أو التخطيط له، علينا نحن العمل والعمل فقط.. وهؤلاء للأسف يجهلون مرحلتهم ويجهلون أدواتهم ذلك لأنهم يجهلون جوهر الصراع الدائر على أرض الوطن الإسلامي الآن، قبل جهلهم بالقضية الفلسطينية وموقعها من المرحلة ومن دائرة الصراع..

ومن الإسلاميين من يتصدى للقضية الفلسطينية ويقترب منها ومن دوامة الصراع السياسي حولها، مقدما موقفه كتعبير عن الموقف الإسلامي- كما يظنه- ومراوحا في ذلك بين التنازل السياسي في التحليل والرؤية الى جزئيات استطاعت الدول الكبرى أن تقدمها لنا على أنها هي كليات القضية، وبين الموقف اللاتحليلى والعاطفي الذي يرى أن فلسطين هي أرض المقدسات الإسلامية وأن الأيدى الإسلامية المتوضئة هي التي ستحررها، وكفي الله المؤمنين شر الدراسة والوعي والتحليل.

والحقيقة أن تلك المواقف جميعها التي بنيت على فهم سطحى- أو على عدم فهم أصلا- لمهمات الحركة الإسلامية المعاصرة ولأصول القضية الفلسطينية، هي مواقف غير أصلية في تراث الحركة الإسلامية، فعندما تقدم الإمام الشهيد حسن

(*) المصدر: المختار الإسلامي - العدد رقم (١٣) - يوليو ١٩٨٠).

البنا رحمة الله عليه إلى فلسطين ليضع على أرضها قواعد إخوانية جديدة وعندما قدم الإسلاميون خيرة شبابهم شهداء على ارض فلسطين بين ٤٧-٤٨ كانوا في الحقيقة يكرسون شعلة الوعى المضيئة للقضية الفلسطينية كقضية مركزية للحركة الإسلامية.. تلك الشعلة التي تقدم الشيخ المجاهد عز الدين القسام في منتصف الثلاثينيات في أول محاولة لإضاءتها.

وعلينا أن نلجأ وبدقة إلى حركة التاريخ فوق أرض الوطن الإسلامي كأداة تملكها وتسيرها سنن الله المؤثرة في هذا الكون، لنحاول استبصار جذور الوطن الإسلامي ككل، ذلك إن أردنا فعلاً أن نعي مرحلتنا وأن نعى أهدافنا وأدواتنا وإن أردنا أيضاً أن نقترب مرة أخرى من شعلة الوعى والثورة التي حاولها القسام وحسن البنا.

فلسطين وحركة التاريخ الحديث:

لقد حكمت الدولة العثمانية فلسطين كجزء مهم من الأرض الإسلامية. وعندما بدأت التوجهات اليهودية الصهيونية إلى فلسطين في نهاية القرن الماضى، أعيد التشكيل الإدارى في المنطقة لتصبح فلسطين وحدة إدارية تابعة مباشرة للصدر الأعظم في اسطمبول.. هكذا كان المنظور الإسلامي يتعامل مع الأرض الإسلامية، ولم يكن قد برز بعد مفهوم الحدود التاريخية للوطن الذي سيشكل بعد ذلك أسس الاتجاهات الوطنية في المنطقة العربية، كما أنه سيشكل أساس الفكر التوسعي الصهيوني ولكن الصراع الحاد المتواصل بين الإسلام كمجتمع ونظام وبين اللاإسلام كتيارات فكرية واجتماعية ـ الذي استمر طوال القرن التاسع عشر على أرض الوطن الإسلامي ـ كان قد استطاع على مشارف القرن العشرين أن يقدم نتائج في غاية الخطورة.. فمنذ الحملة الفرنسية وحتى الحرب العالمية الأولى، والغرب يحاول وبكل الوسائل تدمير الحائط الإسلامي الصلب، الذي يمنع سيطرته على مكامن الثروة في العالم، ويشكل تهديدا أصيلا له ولقيمه وبنيان نظامه.. وهكذا فقد استخدم الغرب حرابه العسكرية وبعثاته التبشيرية ومدارسه العلمانية، ضمن هجمة عريضة ومتواصلة كان أخطر أدواتها تلك النماذج من أبناء المجتمع

الإسلامي التي هزمت روحيا وفكريا، وعملت كأدوات لعلمانية الغرب وأطروحاته السياسية القومية وبالذات ضد وطنهم.. وهكذا ومع بداية القرن العشرين كان حزب الاتحاد والترقى يدعو إلى قومية طورانية في تركيا. وكانت الجمعيات والأحزاب العربية مثل «العربية الفتاة» و«جمعية العهد» و«جمعية بيروت الإصلاحية» و«حزب اللامركزية». وأخرى كثيرة، تدعو إلى قومية عربية ودولة عربية مستقلة عن دولة الخلافة..

وعلى الجانب الآخر كانت الحركة الصهيونية ـ كتعبير عن الفكر اليهودى التاريخي ـ تحدد ملامحها السياسية في أوروبا كحليف أصيل سياسيا و«فكريا» للاستعمار الإمبريالي ضد ثروات الشعوب وللهجمة الغربية ضد الإسلام ووطنه..

وهكذا ولدت الحركة القومية العربية ابنا شرعيا للهجمة الغربية ضد الوطن الإسلامي، وبدأت الحركة الصهيونية كجزء أصيل من تلك الهجمة بكل ملامحها..

في ظل تلك المرحلة بدأت الاتصالات بين الشريف حسين ممثل الحركة القومية العربية، والسير مكماهون «ممثل صاحب الجلالة ملك بريطانيا».. قدم الشريف رؤيته للمستقبل ضمن تكوين مملكة عربية مستقلة عن الدولة العثمانية، تضم المنطقة العربية شرق قناة السويس والجزيرة العربية. إلا أن «مكماهون» رفض الدخول في تفاصيل الحدود، وبعد إلحاح وافق على ذلك مستثنيا فلسطين وبعض أجزاء بلاد الشام الأخرى من الدولة المطلوبة.. ولم يقدم البريطانيون أية ضمانات حقيقية للأحلام القومية العربية ، ورغم ذلك دخل القوميون العرب الحرب إلى جانب بريطانيا وضد الدولة العثمانية.. لقد كانت المملكة العربية التي أرادها الجيل الأول من القوميين العرب، نكوصا للوراء عن الدولة الإسلامية الكبيرة والشاملة لعدة قوميات.. وفي ظل الحرب العالمية الأولى، احتلت بريطانيا فلسطين وأعلن وعد بلفور ـ أو عرفه العرب ـ ونصب المؤتمر السورى الذي ضم ممثلين عن سوريا الكبرى بما فيها فلسطين «فيصل بن الشريف حسين» «ملكا» على سوريا الكبرى محاولين بذلك سبق الأحداث.. وعندما هزمت حكومة فيصل أمام القوات

الفرنسية ثم قبوله وعـائلته للتسوية البريطانية بإعلانه مـلكا على العراق.. نسى ذلك الجيل من القوميين العرب ـ الذين كانوا في أغلبهم ينتمـون إلى طبقة كبار الملاك ـ إلى حد ما تلك الفكرة القديمة لتأسيس دولة عربية كبرى، وتوزعت اهتماماتهم بين دولة سورية تضم فيما تضمه فلسطين وبين أوطان صغيرة مستقلة.. لقد وقف القوميون من كبار الملاك في شرق المنطقة العربية من الوطن الإسلامي مع فكرة الاستقلال عن الدولة العثمانية، كتعبير عن هزيمتهم الفكرية والروحية والنفسية أمام فكر الغرب القومي العلمانى، وكتعبير أيضا عن طموحاتهم باستقلال اقتصادي عن الحكومة المركزية في اسطمبول.. إذ لا خوف من المستقبل ما داموا هم الذين سيحكمون دولة المستقبل تلك.. هذا هو الإطار العام الذي حكم حركة الصراع في المنطقة ككل بين الحربين أو بين وعد بلفور والنكبة الأولى ١٩٤٨..

فكيف سارت الأمور داخل فلسطين في تلك الفترة؟

فلسطين.. أولئك الزعماء وذلك الانهيار:

صاحب نهاية الحرب الأولى ازدياد الهجرة اليهودية إلى فلسطين بعد الاحتلال البريطانى وإعلان وعد بلفور مباشرة.. وقد تحركت الجماهير الفلسطينية بحسها التاريخي ضد الهجمة. ولكن الوجهاء والملاك الذين قاموا بالانفصال عن الدولة العثمانية متحالفين مع بريطانيا، عادوا مرة أخرى ضمن ظروف تدهور سياسي وحضارى شامل ليقودوا الجماهير وحركتها.. فأنشئت الجمعيات الإسلامية والمسيحية في المدن الفلسطينية(يلاحظ هنا ظلال العلمانية).. وقادها الوجهاء والتجار.. وقد عقد ممثلو تلك الجمعيات المؤتمر الفلسطيني الأول في يناير ١٩١٩ وكان عدد المؤتمرين ٢٧ منهم ١١ أصدقاء لبريطانيا و(٢) أصدقاء لفرنسا و(٢) عن المستقلين و(١٢) من أنصار الوحدة القومية العربية، وذلك حسب تقرير ضابط مخابرات بريطانى في فلسطين.. وكان واضحا أن المؤتمر ورئيسه (موسى كاظم الحسينى) سيقفون موقف المهادنة من بريطانيا وأن اتجاه المؤتمر العام سيفهم الصراع على أنه صراع مع الصهاينة فقط.. وعندما أعلنت بريطانيا الانتداب على فلسطين وعينت الصهيوني «هربرت صموئيل» مندوبا ساميا لها في القدس، ليسرع في

تنفيذ وعد بلفور بقيام وطن قومي لليهـود.. قام صموئيل بتشكيل مجلس استشارى له مـن اليـهود والمسـلمـين والمسيـحيين ، وكـان أبرز أعـضاء المجلـس من الـعرب «إسماعيل الحسينى وفريح أبو مدين، وسـليمان ناصيف وعبدالرازق طوقان». وهم جميعا ينـتمون إلى فئة الوجهاء والملاك أصدقـاء بريطانيا.. نفس هذه الفـئة ستشكل الحزب الوطني بقيادة عارف الدجانى وراغب النشاشيبى وسليمان الفاروقى، ليكون أداة ضد الوطن ومـع بريطانيا.. لقد قـام الفلسطينـيون بثلاث انتفاضات دمـوية قبل مطـلع الثـلاثينـات، كانت الأولـى سنة ١٩٢٠ والـثانيـة سنة ١٩٢٣ وكـانتا فـي ظل أطروحات الزعماء إياهم ـ انتفاضتان ضد الـتواجد الصهيوني فقط ـ ولكن في عام ١٩٢٩ وعندما حاول اليـهود الاقتراب من المقدسات الإسلاميـة في القدس، ثارت الجماهير متجاوزة قياداتها ضد اليهود وضد بريطانيا ورجالها وشرطتها ومؤسساتها الحكومية. لقد أصبح واضحا رغم تضليل الزعماء من الملاك والوجهاء، أن الصراع ضد الهجـمة بطرفيهـا بريطانيا والحركـة الصهيونية مـعا.. وعلى رأس التنـظيمات الداعية إلـى مهاجمة بريـطانيا، كانت جمـعية الشباب المـسلم في حيفـا ذات الصلة الوثيقة بالشيخ القسام.. وفي مطلـع العام الحادى والثلاثين عقد في القدس ما سمى بالمؤتمر الإسلامي، الذي سيـطرت عليه نفس العناصر القياديـة.. وبالتالى فإن المؤتمر رغم شمولية تمثيله للمسلمين في العالـم من سنة وشيعة في المنطقة الـعربية والهند وإيران، إلا أنـه لم يستطع أن يـتقدم بالـصراع إلى الإمـام.. وعقب المـؤتمر مبـاشرة أصبحت التـيارات السياسية في الـساحة الفلسطيـنية واضحة ومميزة: فقـد حافظت العناصر القومية التقليدية على أفكارها ومنهجها في العمل ضمن حزب الاستقلال «عجاج نويهض، وأسعد داغر، وعزة دروزه وصبحى الخضرا».

وشكل الـوجهاء أصدقاء بـريطانيا حـزب الدفاع الوطنـي «راغب النشاشـيبى»، وقدمت عائلـة الحسينى رؤيتها الـوسطية الوطنية ضـمن الحزب الوطني الفلـسطيني «جمـال الحسين» وبمـباركة المـفتي «الحاج أمـين» وكان الحزب مـزيجا مـن الأحلام القوميـة وآمال الاستقلال الوطـني وشيئا من الحـس الإسلامي.. ولكن جمـيع تلك الاتجاهات لـم تكن قادرة ـ نظـرا لانتمائها إلـى المواقع الفكـرية اللاإسلاميـة ـ على

تحديد جوهر الصراع والتقدم نحو حسمه وكان لابد للجماهير بحسها الإسلامي وبوعيها التاريخي أن تقدم رؤيتها ومنهجها، فكانت حركة عز الدين القسام (سندرس الحركة في مقال لاحق). ويستمر الصراع في تصاعده بين الجماهير من جهة وبريطانيا والحركة الصهيونية من جهة أخرى بينما قيادات الوجهاء لا تزال تتسلق أكتاف حركة الجماهير كزعامة رسمية. وعندما تفجر الصراع بشكل شامل وعنيف سنة ١٩٢٦ تشكلت قيادة الثورة من «عونى عبدالهادى، أحمد حلمى باشا، وراغب النشاشيبى وجمال الحسينى وعبداللطيف صلاح وحسين الخالدى»، وبالتالى ظلت نفس الوجوه ونفس الممارسة فقد كانوا ممثلين لمرحلة بأكملها، فعندما كانت الجماهير تقدم دمها على ساحة الجهاد، كانوا هم خارج الساحة يقودون المعركة! وبعد ستة أشهر من الجوع والقهر والدم جاءوا هم وخلفاؤهم من الزعماء العرب في الممالك العربية(مصر والأردن والسعودية والعراق) ليأمروا الجماهير بوقف المعركة لأن الصديقة بريطانيا ستتفهم مطالبنا في جلسات التفاوض القادمة!!

ولم تنته المرحلة فقد شهدت الأربعينات الذرة الأولى للصراع على فلسطين، وبحلول العام ١٩٤٧ كان الاستعمار الغربي بكل قواه ـ ضمن لحظة حاسمة من الهجمة على الوطن الإسلامي ـ يقف وراء الحركة الصهيونية ومعها من أجل قيام إسرائيل.. وعلى الجانب الآخر كانت الزعامات الملكية العربية ووجهاء وملاك فلسطين.. لقد نشأوا في أحضان الهجمة الغربية، وقادوا قبل خمسين عاما عملية تحطيم الدولة الإسلامية وهم اليوم يقفون ضد الغرب والحركة الصهيونية.. هل يوجد أي مجال للاستغراب والدهشة؟!.

وكان يومها أيضا بإمكان الجماهير الإسلامية أن تقدم معها وجها حقيقيا وأصيلا ولذا فقد دخلت الفصائل الإسلامية الاخوانية من مصر وسوريا والأردن إلى منتصف ساحة الصراع، وحين كان الجميع يهزمون ويتراجعون كان الإسلاميون يثبتون ويستشهدون ولكن المرحلة كانت أكبر من طاقاتهم.

واستطاع التحالف الصهيوني الغربي في النهاية إقامة دولة إسرائيل على أرض فلسطين كتجسيد مجتمعي حي ومستمر للهجمة الشرسة ضد الوطن الإسلامي،

وسقطت كل الرؤى القديمة لمستقبل المنطقة بعد هزيمة الدولة الإسلامية.. سقطت لأن قياداتها لم تخض في الحقيقة معركة ضد الغزو بل كانت في جانبه ـ بقصد أو بدون قصد ـ وكانت تتزعم معركة زائفة للصراع لم تع جوهره. فحتى سنة ١٩٢٩ كانت تلك القيادات تصور اليهود فقط كطرف للصراع، بينما الجماهير بحسها الإسلامي تشعر أن بريطانيا هي أيضا الطرف.. وحين دعا أئمة المساجد الجماهير إلى عدم دفع الضرائب لحكومة بريطانيا الكافرة كتصعيد للصراع، وقفت القيادات من الملاك والوجهاء ضد الدعوة خوفا على أملاكهم من رد الفعل البريطاني. وحين تقدمت الحركة الإسلامية الثورية بقيادة الشيخ القسام رافعة السلاح في وجه بريطانيا لم تتكلف تلك القيادات المزعومة مجرد السير في جنازة الشهداء. وفي حمى معارك النكبة الأولى كانت الجماهير تستشهد وهم يتفاوضون، وكانت الجماهير تجوع وهم يتقاسمون ما بقي من الأرض وكانت الجماهير بإسلامها مصممة على مواصلة الصراع وهم يوقعون اتفاقيات الهدنة. وكان لابد أن تسقط أنظمتهم الواحد تلو الآخر وأن تسقط أطروحاتهم ومناهجهم، فقد قادوا المرحلة من بداية القرن إلى النكبة الأولى فلم يعطوا الأمة إلا الجوع والتضييع وفقدان الذات وتكريس قواعد الهجمة الغربية الاستعمارية على أرض فلسطين، وعلى طول الوطن الإسلامي وعرضه بأحزابهم وأفكارهم وقيمهم وهزيمتهم.. كانوا جزءا من الهجمة لا يتجزأ.

من النكبة الأولى إلى النكبة الثانية:

كان من الطبيعي أن تتصدى الحركة الإسلامية لقيادة المرحلة التالية، إلا أن ظروف نهاية الأربعينات وبداية الخمسينات السياسية والاجتماعية والاقتصادية وعنف التدخل الغربي في الوطن الإسلامي لم تسمح لها بذلك ـ وليس هنا مجال دراسة تلك الأسباب بالتفصيل ـ وقد انتهت النكبة الأولى بتوجيه ضربات قوية إلى آمال الجماهير وإلى إسلامها وإلى أرضها، وتقدمت إلى السلطة العناصر العسكرية في انقلابات متواصلة لتقدم أطروحاتها القومية الجديدة، وتوثق علاقتها بالغرب ـ سواء الرأسمالي أم الشيوعي ـ وتدعي أنها جاءت لتعيد للأمة وحدة أرضها

ولتبنى مستقبلها ولتحقق لها العدل الاجتماعي والرفاهية والتقدم.. ولكن انتماءها القومي العلمانى في الخمسينيات وانتماءها الاشتراكى العلمانى في الستينات، كانا يحددان موقعها تماما من قضية الصراع على أرض الوطن الإسلامي.. لقد كانوا أطروحة جديدة فقط للهجمة الغربية ضد الإسلام.. ومع الغرب دائما سواء الشيوعى أم الرأسمالى ضد استقلال أمتهم وكانوا مع القهر والاعتقال والاغتيال ضد إسلام الأمة وحرية مفكريها ورجالها.. وكانوا مع رفاهيتهم وأرصدتهم ضد طموحات الأمة في النمو والتقدم والرفاهية. كان هذا هو إطار المرحلة التالية من النكبة الأولى في ٤٨ إلى النكبة الثانية في ٦٧. وحتى على النطاق الفلسطيني البحت، فقد نمت نفس الاتجاهات الممثلة للأنظمة العسكرية العربية. وفي حمى الغياب الكامل للوعى في تلك المرحلة، غاب مرة أخرى الوعى الجوهرى والتاريخي الصحيح للقضية الفلسطينية، بل إن مختلف الاتجاهات الموجودة الآن على الساحة الفلسطينية، ضمن إطار منظمات المقاومة تعود بأصولها إلى تلك المرحلة وربما قبلها بقليل.. وكانت النكبة الثانية في صيف ذلك العام الصعب ١٩٦٧ انهيارا شاملا للثوريين الاشتراكيين من العسكر، ولأنظمتهم ولمناهجهم ولتضليلهم.. لقد سقطوا أولا حين ضاعت وعودهم في ظل ممارساتهم وسقطوا ثانيا حين قدموا بقية الأرض والتاريخ فداء لوجودهم وبقاء تسلطهم على روح أمتنا.

وكان لابد عقب النكبة الثانية أن تعود الأمة إلى أصالتها وإلى حسها الإسلامي ووعيها التاريخي.. تتحسسه وتتلمس به طريقها بعد سنوات التضييع والسقوط. كان لابد أن تدرك أي منحدر خطر قد وصلت إليه بعد أن ضيعوا هويتها الإسلامية، وبعد أن أسلمت قيادها لأعدائها وتلاميذهم الشرعيين.. ومع مطلع السبعينات كان المد الإسلامي الشامل في الوطن الإسلامي، هو الرد الطبيعى والعملى على المراحل السابقة التي أودت بأمتنا إلى نكبتين مروعتين في أقل من عشرين عاما.. وتكشفت ساحة الصراع عن تيار إسلامي متصاعد يتقدم لحسم هذا الصراع لصالح اصالة الأمة واستقلالها وتقدمها الحقيقى، وعلى الجانب الآخر كانت تقف قوى الغرب الاستعمارية وامتدادها من أنظمة وأحزاب قومية واشتراكية ووطنية بجانب إسرائيل كتجسيد للهجمة ضد الإسلام.

وتبقى فلسطين قضيتنا المركزية:

إن التاريخ الحديث للقضية الفلسطينية يكشف لنا عن وجهين أو خطين في غاية الوضوح والأهمية هما:

الأول: أن القضية الفلسطينية بما وصلت إليه، كانت جزءا من ملامح القيادات اللاإسلامية التي تعاقبت على التصدى الانتهازى لقيادة حركة الجماهير، أو التي تسلمت السلطة طوال الفترة التالية لهزيمة الدولة الإسلامية في مطلع هذا القرن.. تلك القيادات التي تمثل التراجع المستمر أمام التحدى الصهيوني الغربي الذي جاء ليلغى التاريخ، ويسقط وعى الأمة ويهدم الحائط الإسلامي الصلب ويستولى على الأرض والثروة والمستقبل.. كما أن فشل تلك القيادات في سنة١٩٤٨، ثم في سنة ١٩٦٧، ثم عجزها عن مواصلة الصراع ـ كنتيجة لعجزها عن فهمه ـ قد أدى بها كما نرى الآن إلى قبول أي شيء كحل للقضية.. ويدل على ذلك ما نراه من ممارسة الجميع وإعلانهم عن مشاريعهم لحل القضية ابتداء من الأنظمة العربية بكل أصنافها، إلى من يدعون قيادة الفلسطينيين بكل انتماءاتهم، ويبدو الإسلام وحده كدين والإسلام وحده كتاريخ وحضارة ونظام وممارسة هو القادر على مواجهة الأزمة وفهمها وقيادة حركة الصراع وحسمه ذلك أنه هو الطرف الحقيقى، والمستهدف، وهو وعي الأمة وحسها.

أما الوجه الثاني: فإن الهجمة اللاإسلامية وطرفها الأساسى وهو الغرب، لم يستطع أن يقيم إسرائيل ككيان كامل ـ فكرا ونظاما ..حضارة وهدفا ـ إلا عندما استطاع أن يثبت مؤسساته وأجهزته وتياراته في منطقة الوطن الإسلامي وحولها، وكانت إسرائيل بالتالى جزءا هاما مركزيا من هجمته على الوطن الإسلامي.. وأمام الحركة الإسلامية اليوم.. إما الوعى بالهجمة والتصدى لها بكافة جوانبها وامكانياتها وأدواتها، وإما أن تبقى في مكانها تراوح بين التقدم مرة والتراجع مرات.. إما أن تعى جوهر الصراع تماما ودور القضية الفلسطينية فيه، وإما أن تتعرض لأسوأ الحقب على أرض الوطن الإسلامي ـ تلك التي تلوح في الأفق ـ وهي الحقبة الإسرائيلية.

القسام.. الرائد الأول لطلائع الحركة الإسلامية في فلسطين:

في ضحى أحد أيام التاريخ المشهود، وقف سيد شباب أهل الجنة الحسين بن علي في ساحة كربلاء ليقدم لنا مشهدا سيبقى في ذاكرة التاريخ للأبد رمزا إنسانيا فذا للشهادة في سبيل الحق والعدل والواجب.. وبعد ثلاثة عشر قرنا من الزمان وفي ضحى أحد الأيام المشرقة وعلى طريق التواصل الممتد ـ تواصل واستمرار هذا الدين العظيم ـ يجيء رائد حسيني آخر يدعى عز الدين القسام.. يرفع كفه الصغيرة.. كف عجوز جاوز الستين من العمر في وجه الغزو الصليبي القادم.. في وجه بريطانيا القبيح وتابعتها الصهيونية.. ويسقط القسام شهيدا حسينيا فوق جبال فلسطين.. وتشرب الأرض دمه الطاهر ويمتص الشجر روحه المشتعلة.. فيدخل في قمع الفقراء.. وفي خوابي الماء.. يأتي إلى دمنا نارا مقدسة وفرحا لا ينتهي.

ما أعجب هذ اللقاء بين القسام والحسين.. قلة مؤمنة قليلة في مواجهة جيوش جرارة ولكنه انتصار الواجب المقدس في صراع الواجب والإمكان.. روح واعية مسئولة في وسط بحر من اللامبالاة والتقاعس.

وكما كان الحسين في فجر الحركة الأولى كان القسام في العشرينات والثلاثينات من هذا القرن رمزا للإيمان والوعي والثورة والإصرار على عدم المساومة ورفض رشوة المستقبل المؤمن.

القسام والقساموں رمز للإيمان:

كان القسام عالما مسلما مؤمنا لا يفتر عن ترديد آيات الجهاد والآيات التي تدعو للنضال والتضحية، وداعيا الناس كما يقول ديفيد هيرست في كتابه «البندقية وغصن الزيتون» إلى «محاكاة أبطال الإسلام في عهوده الأولى». ويضيف هيرست «وأخذ يبحث في كل مكان يذهب إليه وعلى وجه الخصوص داخل المساجد عن حواريين له بين الرجال الورعين الذين يخشون الله».

وهكذا كان القسام يختار أصحابه من أهل الدين والعقيدة الصحيحة الذين كان كل واحد منهم يحمل نسخة من القرآن الكريم في جيبه، ويتخذه قدوة له كما

كانوا يرون السعادة في الاستشهاد والانتقال للحياة الأخرى، للتمتع بما أعده الله للمجاهدين والشهداء من نعيم..

كما يروى سكان قرية بعبدا - حيث كان يرابط المناضل المسلم وإخوانه - أن القساميين كانوا يلجأون في النهار إلى الكهوف يصلون ويقرأون القرآن، وفي الليل يخرجون إلى القتال «الرابطة العربية - عدد ١٣».. ويروى إبراهيم الشيخ خليل أحد إخوان القسام، أن القائد الشهيد كان يدعو إلى الجهاد على أساس دينى والجهاد في سبيل الله واستخلاص الوطن ودفع الظلم عن المواطنين. ثم يقول «كان هناك شعار واحد تنطوى تحته كل مفاهيم الثورة» هذا جهاد: نصر أو استشهاد.. ويقول عبدالوهاب الكيالى إن الشيخ القسام كان يخاطب الجماهير رافعا شعار: كتاب الله في يد والبندقية في اليد الأخرى.

وفي أحد المراجع الصهيونية أن القسام وإخوانه الثلاثة الذين استشهدوا معه في المعركة الفاصلة قد وجدت فوق جثثهم نسخ من القرآن الكريم.. وعندما ينشر أحد القساميين «صبحى ياسين» أسماء أربعين من البارزين من إخوة القسام نجد أنه يسبق أسماء ٣٦ منهم لقب شيخ.. كل هذا اضطر شيوعيا فلسطينيا «عبدالقادر ياسين» أن يقول: «وهذا يؤكد أن الدين كان ضمير حركة القسام»..

ويصل إيمان القسام إلى الذروة في تلك اللحظة التراجيدية الخالدة ، بينما قوة بريطانية ما بين ٤٠٠ - ٦٠٠ رجل تحاصره هو وعشرة من إخوانه.. كانت المعركة قد بدأت في الصباح واستمرت حتى الظهر.. وأثناء احتدامها حاول الغزاة إغراءه بالمال والوظائف حتى أنهم عرضوا عليه منصب نائب المفتى.. ولكن البطل المسلم أجابهم «لن نستسلم.. إن هذا جهاد في سبيل الله والوطن» ثم التفت إلى رفاقه قائلا: «موتوا شهداء»..

القسام رمز للوعي:

لم يكن القسام طوال مراحل نضاله مجرد مقاتل صلب وعنيد فحسب، بل كان أيضا مفكرا واعيا يتمتع برؤية ناضجة وواضحة على المستوى الاجتماعي والمستوى السياسي، حيث خاض نضالا مستمرا قبل أن يخرج للقتال.

أدرك القسام أن الأمة الجاهلة لن تستطيع أن تقاوم أخطبوطا يسخر العلم لخدمة كل أغراضه، فكان رجلا عالما تولى التدريس في المدرسة الإسلامية بحيفا وفي المساجد - خاصة مسجد الاستقلال - وكان ينشر أفكاره بين العمال والفلاحين والباعة وكانت تجربته بتأسيس مدرسة ليلية لتعليم الأميين من الشعب تجربة رائدة على المستوى الاجتماعي.. ويقال إن القسام اهتم بالمرأة وحاول تطوير وعي النساء اللواتي كن على علاقة قوية بالتنظيم السياسي، من أجل أن يصبحن عضوات عاملات.

منذ أن استقر القسام في حيفا دخل معترك النشاط الاجتماعي، فانتسب إلى جمعية الشبان المسلمين حيث انتخب رئيسا لها بعد ذلك، كما استغل فرصة عمله كمأذون شرعى فكان يحضر الأفراح للتعرف على الجماهير وفهم نفسياتها مما سهل عليه الاتصال بسائر الطبقات.

كان القسام يقاوم بشدة إنفاق أموال الأوقاف على بناء الفنادق، وتزيين المساجد في وقت يشتد فيه الصراع مع العدو، وفي وقت يزداد فيه تشريد وطرد الفلاحين بسبب عجزهم عن مقاومة الضغوط الاقتصادية التي تعرضوا لها..

هذا على الجانب الاجتماعي أما على الجانب السياسي فقد اشتدت حركة القسام وفعالية تنظيمه السياسي في ظل هجرة إسرائيلية متزايدة، وفي ظل تسرب كثير من أراضى الفلاحين الفلسطينيين إلى اليهود، الذين كانوا يتمتعون بحقوق ومزايا عانى العرب على الطرف الآخر من غيابها تماما.. ففى حين كان العرب يخسرون أرضهم كان اليهود يكسبون هذه الأرض.. وفي حين ترتفع أجور العمال اليهود، كانت أجور العمال العرب لا تزال منخفضة.. وفي حين كان العمال اليهود يتمتعون بالتنظيم النقابى، حرم العمال العرب من هذا وعانوا من غياب التأمينات ومن التخلف والبطالة، بينما عاش اليهود في ظل هذه الضمانات التي تقدم لهم الحماية.. كل هذا في ظل استمرار الاحتلال البريطانى، الذي وقف وراء الأطماع اليهودية بلا حد وحارب وسخر من آمال العرب بلا حد أيضا..

هذا من جانب، أما على الطرف الآخر، فإن قيادة الحركة الوطنية الفلسطينية كانت تعانى من الانقسامات والصراعات الحادة، التي كان من أهمها الخلاف التقليدى المستمر بين عائلة الحسينى وعائلة النشاشيبى، اللتين تصدتا لقيادة الحركة الوطنية في تلك الفترة.. وكانت هذه القيادات في الأغلب الأعم جبانة مترددة تسعى وراء مصالحها الذاتية، ولهذا كانت تحاول عدم الاصطدام ببريطانيا مكتفية بتقديم الشكاوى والبيانات لها، ومتغافلة عن الضحايا الذين تقدمهم الجماهير في المظاهرات والاضطرابات.. وكانت دوما تحاول صرف الأنظار عن هذا الدور الرئيسى الأول لـ «بريطانيا» معتبرة أن اليهود هم فقط العدو! وأنه لابد من التفاهم مع بريطانيا كى تقف بجانبنا ضد اليهود متناسية أو جاهلة أن الصهيونية ليست أكثر من وجه إمبريالى آخر لبريطانيا.. وأن كليهما تجسيد للتحدى الغربي الحديث في أعز أجزاء الوطن الإسلامي، باختصار كان يعز على الكثير من العناصر البرجوازية الفلسطينية أن تقاوم بريطانيا التي تربت في أحضانها.

في ظل كل هذا الجو جاء القسام.. هاربا من حكم عليه بالإعدام لاشتراكه في ثورة ضد عشائر صهيون في سوريا.. وكعالم مسلم ثورى وكمفكر مناضل أدرك أن بريطانيا هي العدو الأول.. وأن أساليب النضال السلبية قد اهترأت ولم تعد تنطلى على أحد، خاصة بعد هبة البراق الشهيرة (١٩٢٩) .. ولكنه أدرك أن هذه الأمة التي حاول أعداؤها عزلها عن الإسلام - ايديولوجيتها الثورية الوحيدة - لن تكون مستعدة للجهاد بدون إعداد خاص، وأن هذه المهمة لن تتصدى لها إلا طليعة ثورية مسلمة.. وأن تنظيما «صلبا» وفعالا ضمن نظرية ثورية واضحة من أهم عوامل الانتصار على عدو متقدم كما وكيفا!

القسام رمز للثورة:

من الصعب طرح مفهوم الثورة والوعى، إلا من خلال علاقة جدلية بين الاثنين، ولذلك كان من الصعب علينا أن نتحدث عن الوعى والثورة منفصلين.. نقصد أن الحديث تحت هذا العنوان، هو امتداد تحت العنوان السابق.. امتداد للغة واحدة ومضمون واحد..

بدأ القسام في تقدير الموقف، ومسح المنطقة التي سينطلق منها، وكانت هذه المنطقة هي شمال فلسطين حيث الظروف الموضوعية أكثر نضوجا.. رغم إيماننا بأن الاقتصار على شمال فلسطين فقط.. كان نقطة ضعف جعلت من السهل على العدو تطويق الحركة عسكريا بعد ذلك..

وهكذا أخذ القسام يتنقل من قرية إلى أخرى يراقب الناس ويجتمع بهم، ويقال أنه كان يراقب المصلين وهو على المنبر، ويتصل بالعناصر التي كان يرى فيها استعدادا طيبا للعمل.. وبعد ذلك أخذ في تنظيم الأفراد أو الطلائع السرية الأولى للتنظيم، وكان الفرد من هؤلاء يخضع لفترة من المراقبة والاختبار قبل تجنيده، وانضمامه إلى مجموعة سرية تضم خمسة أفراد عليها نقيب حيث تتم لهم اجتماعات سرية دورية، لإعدادهم تربويا بدراسة تمثل الإسلام فكرا وسلوكا حركيا وسياسيا ثم عسكريا، وكان يشترط في العضو أن يشترى السلاح على حسابه الخاص وأن يدفع ما يستطيع للتنظيم، وكان الاشتراك الشهرى للفرد ١٠٪ من دخله وكان هذا الفرد يكتب وصيته ساعة قبوله كعضو فعال في التنظيم.

وهكذا أصبح القساميون تنظيما حديديا، يضم العناصر الطليعية النخبوية من الشعب الفلسطيني.. ورغم أن تنظيم القسام لم يكن تنظيما طبقيا أو فئويا.. فقد كان فيه الفقراء وميسورو الحال معا.. إلا أن القسام كان يرى في العمال والفلاحين أصدق الفئات وأكثرها استعدادا للبذل والتضحية.. ولكن يجب أن نرفع من أذهاننا أن الدافع الرئيسى وراء تحرك القساميين هو القهر الاقتصادي فلم يكن هؤلاء أكثر الطبقات معاناة.. فالذي يسلح نفسه كان قادرا اقتصاديا والقسام نفسه كان يتمتع بوضع اقتصادي مستقر، ولكن الإيمان في قلوب هذه الطليعة، والوعى بخطورة التحدى والمعركة كانا العامل الأهم وراء تكوين تنظيم «الجهادية».

واستمراراً في بناء التنظيم الثورى ـ الطليعى والسرى ـ انبثقت عن التنظيم خمس لجان أو وحدات:

١ ـ وحدة الدعوة للثورة وتعبئة الجماهير وكان يتزعمها الأستاذ الشيخ كامل القصاب.

٢ ـ وحدة التدريب والإعداد العسكرى وكان يتزعمها ضابط مسلم خدم في جيش الدولة العثمانية.

٣ ـ وحدة شراء وتخزين وتأمين السلاح ويتزعمها الشيخ حسن الباير والشيخ نمر السعدى.

٤ ـ وحدة الرصد والمخابرات ومهمتها التجسس على الإنجليز واليهود.

وكان من بين أفرادها عمال في المصالح الحكومية ودوائر البوليس، وقسم يعمل مع اليهود للتعرف على نشاطهم السرى وأحزابهم، ومن أفراد هذه الوحدة الشيخ ناجى أبو زيد.

٥ ـ وحدة الاتصالات السياسية والخارجية وعرف من أفرادها الشيخ محمود سالم المخزومى، وقد اتصلت هذه الوحدة بقنصل إيطاليا في القدس وبقنصل تركيا بقصد شراء أسلحة حديثة.

وكان من بين أفرادها عمال في المصالح وهم أحد وجهي العملة في حركة القسام، أما الوجه الآخر فكان النظرية الثورية حيث النضوج الفكري ووضوح الرؤية.

١ ـ استطاع القسام فهم وتحليل المجتمع والظروف السياسية بشكل متقدم، واستخدم هذا التحليل في اختيار لحظة التفجير المناسبة فلم يكن متعجلا حينما عرض عليه بعض إخوانه إعلان الثورة بعد انتفاضة أو «هبة البراق» لعدم كفاءة التنظيم وعدم نضج الظروف.. كما أنه رفض رغبة بعضهم في جلب المال بالعنف مؤمنا ومعلنا أن الجماهير ستنحاز للثورة فور قيامها.

٢ ـ مخالفا قيادة الحركة الوطنية التي تأمل خيرا في بريطانيا، رأي القسام أن بريطانيا هي العدو الرئيسى ، وأن الصهيونية تابعة لها وأن النضال السياسي السلبي لم يعد يجدى نفعا ولابد من اعتماد الكفاح المسلح أسلوبا للنضال.

٣ ـ كما كان القسام واضحا وصائبا في تحديد العدو فقد كان عليه أن يحدد الحليف الحقيقى، ورغم إيمانه بأن العرب المسلمين في الأقطار المجاورة هم بعد استراتيجى للشعب الفلسطيني وثورته، إلا أن المشاكل التي كانت تعانى منها هذه الأقطار تحت وطأة الاستعمار، جعلته يقتنع بأن على الشعب الفلسطيني أن يعتمد على نفسه أولا.. وداخليا، رأي أن العمال والفلاحين هم أصدق حليف للثورة وللاستمرار بها .. ولهذا رأينا في القيادة العليا للتنظيم بائعى «جاز» متجولين هما العبد قاسم ومحمود زعرورة.. كما أنه لم يغفل أهمية الحاج أمين الحسينى كأكثر قيادات الحركة الوطنية الفلسطينية وطنية نسبيا، ولذلك حاول الاتصال به، وكان هذا لاعتقاد القسام أيضا أن الحاج أمين لا يزال مركز حركة الجماهير في كل فلسطين.. ولكن القسام خاب أمله كما يروى إخوانه فلم يجد في المفتى أكثر من رجل وطني متمرد لم يرتق إلى مستوى المسلم الثورى.. ربما أخطأ المفتى في تحليله للأمور أو أخطأ في اختيار الأسلوب الأمثل ولكنه من الواضح أيضا أنه كان يخشى على مصالح عائلته، مما جعله يحجم عن اختيار الكفاح المسلح كطريق أمثل للنضال في تلك المرحلة «علما بأن تغييرا في موقفه قد حدث بعد ذلك».. وكان رده أن الوقت لم يحن بعد لمثل هذا العمل، وأن الجهود السياسية التي تبذل تكفي لحصول عرب فلسطين على حقوقهم.. ورغم أن مصادر الهيئة العربية العليا أشارت بعد ذلك إلى أن القسام كان قريبا جدا من المفتى الذي كان يدعمه، إلا أن إخوان القسام يؤكدون أن القسام لم ينتم لغير تنظيم «الجهادية» الذي أسسه، وأنه اتصل فعلا بالمفتى الذي رفض حتى أن يعينه واعطا متنقلا كى يعد للثورة معتذرا «أننا نعمل لحل القضية سلميا»، وهكذا فهم القسام كرائد طليعى ثورى مسلم أنه في مرحلة كهذه ـ مرحلة البحث عن الاستقلال والحرية ـ لابد من الدم والثورة في حين رفعت البرجوازية شعار الحكمة والتعقل!!

٤ ـ حدد القسام طبيعة المعركة من خلال وضوح فكري، حين حدد معسكر العدو ومعسكر الثورة، وحين حدد مهام ومراحل النضال التي يمكن تقسيمها إلى أربع مراحل:

١ ـ مرحلة الإعداد النفسي وتعبئة الجماهير واستمرت ثلاث سنوات.

٢ ـ مرحلة إعداد وتجهيز الحلقات السرية والتي بدأت منذ سنة ١٩٢٥ وفيها كان يتم إعداد التنظيم الطليعي تربويا وسياسيا وعسكريا.

٣ ـ مرحلة اختيار صلابة التنظيم ومدى فعاليته، وفيها استطاع القساميون تصنيع القنابل «الشيخ أحمد الغلاييني»، واستخدامها وكذلك القنابل في بعض المعارك المحدودة، ومحاولات الاغتيال للضباط الإنجليز ومن يتعاون معهم.

٤ ـ مرحلة إعلان الثورة: والتي بدأت ليلة ١٢ نوفمبر ـ تشرين ثاني ـ سنة ١٩٢٥ ليلة خروج القسام من مدينة حيفا إلى قرى جنين لأجل تشكيل المراكز الثورية.. هذا الأسلوب الذي اعتمدته الثورة الجزائرية المسلمة بعد ذلك بعقدين من الزمان، وكذلك اعتمده أرنستوشي جيفارا في بوليفيا بعد ذلك بثلاثين عاما، وهكذا خرج القسام ليدعو الشعب على نطاق واسع للاشتراك في الثورة، ويقال إنه كان ينوي بعد اشتعال الثورة من جبال جنين أن يتقدم ويحتل مدينة حيفا ويعلن ميلاد ثورة شعبية كبرى!

ولكن ماذا حدث بعد ذلك؟!

أشرنا إلى القنابل التي صنعها القساميون واستعملوها في معاركهم الاختبارية الأولى، حيث فجروا منازل بعض الحراس اليهود عام ١٩٣٣ وقتلوا بعضا منهم.. ثم فاجأوا اليهود في مستعمرة عتليت وقتلوا عددا آخر، وتصدوا بعد ذلك لسيارات كانت تحمل عمالا من اليهود قرب قرية الياجور، وقبل ليلة الخروج المشهورة باع القساميون حلي زوجاتهم وأكملوا تسليح أنفسهم بالرصاص والبنادق، ثم انطلقوا إلى جبال جنين وفي الطريق قتل أحدهم حارسا يهوديا كان قد تعرض لهم.. وقبل أن تتنامى حركة القسام وضمن ظروف غير محسوبة وغير مقصودة، فاجأت المعركة الفاصلة الجميع بمن فيهم الإنجليز أنفسهم.. ودارت المعركة بين قوة تقدر ما بين ٤٠٠ ـ ٦٠٠ بريطاني والقسام وعشرة من إخوانه فحاصرتهم تلك القوة.. واستمرت المعركة حوالي ٦ ساعات.. طلبوا منه الاستسلام.. ولكن القسام العظيم «رمز الأحرار وعدم المساومة» صاح بهم إننا لن

نستسلم.. هذا جهاد في سبيل الله.. أغروه بالمال ومنصب نائب المفتي.. ولكن المناضل المسلم سخر من رشوة المستقبل المؤمن هذه.. وصاح في إخوانه «موتوا شهداء».. وهكذا استشهد القسام واقفا كأعظم أبطال الملاحم في التاريخ الإنساني، وما إن علمت الجماهير بخبر استشهاده حتى خرجت تنعيه في المساجد والمآذن وفي كل أنحاء الوطن المحتل.. وسارت في جنازته المهيبة وحملت نعشه إلى مسافة عشرة كيلو مترات، وكان طبيعيا أن تقف أغلب قيادات الحركة الوطنية موقفا جبانا حتى من جثمان الرجل العظيم، فرفضت الاشتراك في توديعه، عدا أكرم زعيتر الذي دعاها أن تفعل ولكن دون جدوى.. واكتفت بالبرقيات التقليدية الباهتة، ووجهوا مذكرة إلى السلطات البريطانية جاء فيها «أنهم إذا لم يتلقوا عن مذكرتهم جوابا يمكن اعتباره مرضيا فإنهم سيفقدون كل ما يملكون من نفوذ على أتباعهم، وعندئذ تسود الآراء المتطرفة غير المسئولة وتتدهور الحالة سريعا».

وهكذا مر القسام العظيم ومضة رائعة في تاريخ أمتنا بعد أن قدم بدمه المثل والقدوة فكان أول بداية للعمل المسلح الثوري والمنظم.. بعيدا عن وهم الكبار وهيمنة القيادات التقليدية التي كشفت حركة القسام وجهها القبيح والمتردد، ولئن حاول الكثير اليوم طمس معالم هذه الشخصية الإسلامية الفذة في ظل طفح الأفكار العلمانية الوطنية واليسارية، فإننا نعلن بكل وضوح أن القسام لم يكن، إلا رائدا طبيعيا إسلاميا.. وأن القساميين الحقيقيين قادمون مع الفجر الجديد، وأن الشيوعيين الذين يحاولون طمس هويتنا، لم يقفوا يومها إلا في صف اليهود داعين العرب إلى التضامن معهم كما يقول وولتر لاكو في كتابه «الشيوعية والقومية في الشرق الأوسط».. بل أن ماركسيا فلسطينيا «ناجى علوش» يقول في كتابه «الحركة الوطنية الفلسطينية» إن الحزب الشيوعى ساهم في أثناء هبة البراق في الدفاع عن الأحياء اليهودية واتهم السلطات البريطانية بالمسئولية عن المذابح كما أسماها.

هذه رموزنا وهذا تواصلنا.. من محمد بن عبدالله ـ ﷺ ـ إلى آخر الشهداء فأين رموزهم؟!..

هذه رموزنا يا شباب الإسلام علينا عبء تجديدها وحمل راية تواصلها على الطريق إلى الله.

الدراسة الخامسة

إيران الثورة والدولة

مما لا شك فيه أنه كلما تقدمنا لدراسة الثورة الإسلامية في إيران فإننا نجد أنفسنا أمام حدث عظيم، وظاهرة ومعجزة في التاريخ الحديث: أن يطرح دين مرّ على ظهوره أربعة عشر قرنا من الزمان طرحا ثوريا وديناميكيا فذا؛ ومن خلال مضمون اجتماعي وسياسي وثقافي شامل..

لقد بدا الأمر غريبا خاصة على أسماع مفكري الغرب ومنظريه .. تلامذته وحواريه الذين أجهدوا أنفسهم على مدى أكثر من قرن في النقل والتقليد تحت شعارات الدراسة والتحليل والبحث العلمي! ليقولوا لنا إن الإسلام السياسي كان مرحلة تاريخية مضت إلى غير رجعة وأن الفكر الإسلامي هو سبب تخلفنا.. إن لم يكن هو الذي جاء بالاستعمار وتحالف معه!

لقد أسقط في أيدي هؤلاء جميعا.. من أقصى اليمين إلى أقصى اليسار.. أذهلتهم المفاجأة.. وإن كانوا على الجانب السياسي مازالوا يقاتلون بشراسة في ظل الدعم الاستعماري المتواصل فإنهم على الجانب الثقافي والفكري جزء منهم أغلق مكاتبه وحوانيته في انتظار من يأتي ليفك طلاسم الحدث المعجز، والجزء الآخر لا يزال ـ وتحت إغراءات شتى ـ يحاول أن يلوي عنق الحقيقة.

ولمزيد من الدراسة إحيل القاريء إلى الملف المهم الذي نشرته المختار الإسلامي (عدد ١٠) عن الثورة الإيرانية التي سنحاول الحديث عنها هنا من ثلاث زوايا:

١ ـ الثورة كمهمات وقضايا.

٢ ـ عملية احتلال السفارة ودلالتها.

٣ ـ السلطة والفكر اللاسلطوي.

(*) المصدر: مجلة المختار الإسلامي(العدد ١٤ ـ السنة الثانية ـ أغسطس ١٩٨٠).

الثورة: مهمات وقضايا

أولا: لقد عانى الشعب الإيراني كغيره من شعوب الوطن الإسلامي من عمليات الاستلاب الروحى، على يد الاستعمار، وحركته التغريبية الواسعة في محاولة لضرب الهوية الإسلامية، وشل فعالية هذا الدين العظيم في نفوس أتباعه، ومارس الاستعمار في هذا المضمار وسائل لا حصر لها، كان من أشدها خطورة مازرعه في وطننا من تنظيمات تحمل أيديولوچيات مختلفة، وقد لا تحمل حيث يتم تبديد طاقات شباب الأمة.. وكثيراً ما تكون هذه التنظيمات غطاء للجواسيس والعملاء، وقد أدركت قيادة الثورة أن مواجهة ظاهرة الاستلاب الروحي هي من أهم مهامها من أجل بناء مجتمع إسلامي مستقل يستطيع مواجهة التحديات.. ولهذا كانت الدعوة الملحة للإمام الخميني، ولمفكر الثورة الأول الشهيد على شريعتي للمسلمين، هي مواجهة أزمة الاستلاب الروحي هذه، وتجاوزها وتأكيد وبعث الذات الإسلامية التي غطتها عقود طويلة من محاولات التغريب والعلمنة.. كما كانت[الثورة الثقافية] التي أعلنها الإمام قبل أسابيع قليلة حلقة من مخطط دقيق، وطويل لتحرير الفرد، والمجتمع المسلم، وتطهيره من كل آثار الاستعمار الفكري والثقافة التي تمثلت في الهزيمة الروحية المدمرة، وفي قيم الخنوع والاستهلاك والترف التي صدرها لنا.

ثانياً: لقد تعرضت إيران ككل الوطن الإسلامي لعمليات النهب الاستعماري لثرواتها ومقدراتها.. فرغم ملكيتنا لشرايين الحياة الاقتصادية من مواد خام وغيرها فإنهم كانوا يتقدمون، ونحن نتأخر.. يتمتعون أو يعانون بترف ما بعد الصناعة، ونحن في أحسن الأحوال نرتد حيوانات استهلاكية، وفي أحيان أخرى لا يجد أطفالنا لا المأوى ولا الطعام.. ومنذ البداية وقفت الثورة لمحاولات النهب هذه بالمرصاد، وأخذت زمام المبادرة في حياتها الاقتصادية.. تخلصت من الوسطاء، واحتكاراتهم وهي تبيع بترولها.. تخلصت من الدوران في الدائرة الخبيثة للشركات المتعددة الجنسية التي تخمد أنفاس الوطن الإسلامي.. كما جاءت جماهير الثورة بعالم اقتصادي مبدع على رأس سلطتها التنفيذية.

ثالثاً:القضية الثالثة التي تواجهها الثورة هي قضية الأمن، والاستقرار الداخلي.. وبداية يجب أن نفهـم أن ما حدث في إيران ليس انقلابا عسكريا جـاء ليغير جنرالا بآخر، أو أن قائدا مصلحا جاء ليعيد ترتيب بعض الأمور.. إنه نظام قديم ينهار تماما ونظـام مخـتلف تمـام الاختـلاف يأتي.. مـؤسسـات دولة قـائمة تـتحـطم بأكـملـها ومؤسسات جديدة تنمو.. فهكـذا الحركات الكبرى في تاريخ الأمم لابد أن تحدث هزات اجتماعيـة وسياسية ضخمة تمهد لـتغيرات شاملة، فهي لم تـأت لتربت على ظهر الـوضع القائم أو تمـسه مسا رقيـقا بل جاءت لتـفجره.. تتخـلص منه نهـائيا.. وبالـتأكيد لـن يكون هذا أمـرا سهلا.. يتـم بين عشـية وضحاهـا.. بل سيكـون أمرا ضروريا حدوث فترة فراغ بين الوضعين المتـناقضين وإلا فأي نقلة هذه رغم أنه من الواضح أن فترة الفراغ هذه تبدو قصيرة، ونموذجية بشكل معجز.. فلم تأكل الثورة بنيها كـما يحدث عادة، بل إنه في فترة عـام تم التخلص من الكثير مـن مجموعات الثـورة المضادة وتم إعـداد الدسـتور وصوتـت له الجمـاهير الـتي صـوتت لصـالح الجمهورية الإسلاميـة وانتخبت رئيس الجمهورية ومجلـس الشورى[البرلمان]، وما زالت القيادة الإسـلامية تتمتع بنفس المـكانة والتأثير الذي صاحب قـيام الثورة، هذا في حـين أننا كـنا نرى حـتى في الانـقلابات المـطبوخـة سلفـا ـ حيث يـبقى الجـهاز الإدارى للدولة كـما هو في الغالـب ـ أن التصفيات تكـون كبيرة وانقلابـات اليمن والسودان والعراق وحتى انقلاب ٢٣ يوليو فـي مصر شاهد على ذلك، وفي الثورة الروسية فـإنه بعد خمس سـنوات من المذابح والحرب الأهـلية لـم تستـقر الأمور.. واستمرت الفوضى في فرنسا إبان الثورة الفرنسية لأكثر من ثماني سنوات..

وفي هذه الحالة ولإننا أمام نموذج وطني فريـد يحاول تدعيم بناءه الثوري في ظل عملاقين شرسين.. بعيدا ومستقلا عنهمـا على غير العادة، حيث تصر طلائع الثورة الإسلامية أن ثورتـها ليست انتقالا من معـسكر إلى آخر في إطار لعبـة الوفاق لأنها جاءت أصلا لتقويض أساس النظام الذي يمثل إحدى هذه الصيغ الوفاقية.. في هذه الحالـة فإننـا نرى أن كلا الـعمـلاقين يقـومان بجـهود مستميته فـي إثارة القـلاقل والاضطرابات في طريق الثورة للتخلص مـنها..أو كل يجرها إلى معسكره.. ولهذا فإنه من المتوقع أن تستمر هذه المحاولات التي تنتظم في عدة محاور.

١ ـ الأقليات[راجع المختار الإسلامي عدد ٢ أغسطس ٧٩].

٢ ـ مجموعات السافاك المنتشرة داخل وخارج إيران وكذلك بعض التنظيمات الإرهابية التي تحمل نفس المضمون كتنظيم[الفرقان] الذي أسسه ماركسي قديم ذو ميول أمريكية يدعي[داريوش همايون] وكان وزيرا للإعلام في عهد الشاه السابق..وقد تمت تصفية هذه المنظمة من قبل حراس الثورة.

٣ ـ بعض العملاء من أمثال سيء الحظ بختيار وحسن نزيه اللذين فرا إلى الخارج ويحاولان بدعم من أموال أمريكا والشاه تأسيس جبهات معارضة تحت تغطيات إعلامية كبيرة.

٤ ـ التنظيمات اليسارية خاصة[حزب توده] و[فدائى خلق] والمجموعة الأخيرة تقاتل بجانب الأكراد كما أنهم يخرجون العشرات من فتياتهم للشوارع بين الحين والآخر في محاولة يائسة لإظهار معارضة الشعب الإيراني لرجال الدين.. ورغم هذا فإنه يسمح لهم بالمشاركة في انتخابات مجلس الخبراء وكذلك مجلس الشورى حيث قدموا مرشحيهم الذين كان[كيشت كار] أبرزهم.. هذا في وسط تشنج هذه الحركات عن دكتاتورية رجال الدين.. والجدير بالذكر أنه قبض على بعض زعمائهم بتهمة التجسس لصالح الاتحاد السوفيتي.

٥ ـ الحركات الليبرالية.. سواء الجبهة الوطنية أم ما انشق أو تشكل في ظلها من تنظيمات ليبرالية علمانية تحظى بعطف الولايات المتحدة.

رابعاً: وحدة قوى الثورة الإسلامية.. وسنتحدث عن هذا بعد قليل تحت عنوان[السلطة والفكر اللاسلطوي].

عملية احتلال السفارة ودلالتها

في رأينا أن حادثة أو موقعة احتلال السفارة الأمريكية في طهران كانت أهم الأحداث منذ يوم ١٢ فبراير ١٩٧٩ ـ يوم انتصار الثورة ـ وسنحاول إيجاز أبعاد هذا العمل كما يلي.

* عاشت الإدارة الأمريكية طيلة مراحل الثورة الإيرانية انقساما داخل صفوفها كعادتها في السنوات الأخيرة أمام القضايا المهمة [عدا قضية فلسطين بالطبع] وانقسمت إلى صقور وحمائم كما يقولون، ولا يعنينا هنا إن كان الصقور هم بريجنسكى ومجموعته وأن الحمائم هم سايروس فانس ومجموعته بقدر ما يعنينا أن خلافا قد حدث بالتأكيد جعلها تدرك متأخرة أن رحيل الشاه أصبح حتميا لا محالة ولهذا تحركت تبحث في أوراقها عن بدائل:

* أرسلت رسلها إلى[نوفيل لوشاتو] علها تستطيع أن تفهم هذا العجوز الذي يرتحل صوته الساحر على أشرطة الكاسيت فيوقف الدبابات عن الحركة.. بينما تتقدم الجماهير بالملايين لتغير وجه الأرض.. أرسلت رسلها عساها تفهمه أو تستميله هو أو من حوله.. ولكنها وجدت أمامها ثوريا زاهدا يعيش على البطاطس واللبن.. يستلهم روح الحسين[الذي لم تفهم عقولهم الإلكترونية مغزى ثورته بعد].. وتسكنه الشهادة.. جوهر شخصيته هو الإصرار على عدم المساومة ورفض المهادنة، فتركوه ظانين أنه في أسوأ الأحوال فإن الرجل جاء ليفتي لا ليحكم.

* في نفس الوقت كان الجنرال [هاوزر] في طهران ليمسك بما اعتقد الأمريكيون أنه أخطر أوراقهم على الإطلاق..ألا وهو الجيش الإيراني.. هذه المؤسسة القومية العلمانية.. صاحبة التوجه الأمريكي الشاهنشاهي القذر والذي كان يعتبر من أهم ركائزهم في المنطقة.. لقد فهم الأمريكيون أن مؤسسة صنعت في أمريكا لا يمكن أن تحمل أي توجه إسلامي بل إنها ستسحق هؤلاء الذين أهانوها في الشوارع من رجال الدين والفقراء ولكن في الوقت المناسب، ولهذا كان لابد من الحفاظ على وحدة الجيش حتى يأتي هذا الوقت المناسب عندما تهدأ غضبة الجماهير.

* لم ينس الأمريكيون أن يصدروا الأوامر لعملائهم بالانخراط في صفوف الثوريين المسلمين خاصة من اعتقد أنهم من المعتدلين حتى يتقدموا ويؤدوا دورهم في الوقت المناسب أيضا.

* كل هذا في ظل التحليل الأمريكي الذي يعتبر أن الجمهورية الإسلامية على الطريقة الإيرانية[الخمينية] هي مجرد مرحلة أو ظاهرة مؤقتة.. راهنوا على فشلها.. وربما هذا هو الذي دفع السفير الأمريكي في طهران إلى أن يقول في الشهر الأول لانتصار الثورة أن الأمريكيين عائدون بعد ٦ أشهر. لقد ظن هؤلاء أن الإمام الخميني هو [آية الله الكاشاني] وأن انتلجنسيا الثورة الإسلامية [أبو الحسن ومجموعته] هي نفسها«مصدق»١٩٥٣.. كما ظنوا أن المرحلة ما زالت تحتمل طرح الإسلام ـ ان كان لابد من ذلك ـ برموز من أمثال أمراء العصر الحديث[!!] أو الجنرال ضياء الحق [الذي قاد الجيش الأردني في سبتمبر ١٩٧٩ ضد المقاومة الفلسطينية].. هذا في الحين الذي أدركت الجماهير فيها أن رموز الثورة الإسلامية الحقيقية أكثر أصالة وبساطة وأنها تعبر بحق عن مصالحهم وعواطفهم.

ولكن السياسة الأمريكية ليست طوباوية أو مثالية بحيث تترك هذه الظاهرة للتصارع مع حركة التاريخ[!] ثم تسقط وحدها، لقد كان عليها أن تمد يدها القذرة وبسرعة إلى كل مكان تستطيعه لتعجل الانقلاب الذي تطمح إليه.

* وعلى الجانب الآخر أدركت الثورة الإسلامية أنها كثورة إنسانية أصيلة تمثل وتتزعم معسكر الحق والإيمان لابد أن تبقى في تماس وصراع مستمر مع هذا العدو الرئيسي [الشيطان الأكبر] الذي يمثل معسكر الشرك والطاغوت[الولايات المتحدة].. هذا العدو الذي يطاردها ويحيك حولها الدسائس.. ولذلك وجدنا الإمام الخميني يقول قبل احتلال السفارة بأيام[إننا ينبغي ألا نهادن اعداءنا.. يجب علينا أن نستنفد قواهم وندمر مصالحهم].

* كانت السفارة الأمريكية في طهران طيلة الوقت ولسنوات طويلة خلت أهم مركز تجسس أمريكي ربما في كل الوطن الإسلامي.. وكان ريتشارد هلمز مدير المخابرات المركزية السابق وسفير أمريكا بعد ذلك في عهد نيكسون وإلى عام ١٩٧٧ هو المشرف على حركة التجسس هذه في المنطقة.. فالقواعد العسكرية الكاملة والمطارات السرية داخل إيران التي اكتشفت بعد العملية الأمريكية الفاشلة والقذرة في صحراء تاباس.. هذه القواعد من المضحك أن يقال أنها أنشئت بعد

احتلال السفارة.. لقد كان كل شيء يتم تحت إشراف السفارة التي كانت دولة تقع على مساحة ٣٥ فدانا. ورغم أن الموظفين والجواسيس داخل السفارة استمروا في حرق وإتلاف الوثائق السرية لمدة ثلاث ساعات وبأجهزة خاصة قبل سيطرة الطلبة السائرين على نهج الإمام إلا أن وثائق مهمة وكثيرة تم العثور عليها تثبت تدخل السفارة وبشكل مباشر في إعداد الاضطرابات.

* بعد صلاة فجر الرابع من نوفمبر ١٩٧٩ انطلق حوالى مئة وخمسون من الطلبة السائرين على نهج الإمام واحتل هذا الشباب المسلم الطاهر أحد أهم أوكار التجسس في العالم.. واهتز كل شيء..كل شيء وكأن يدا قوية جبارة أمسكت الكرة الأرضية وهزتها بعنف.. أمريكا التي ارتهنت إيران والوطن الإسلامي لعشرات السنين.. أمريكا الآن الرهينة.. والسيد كارتر يقف منكس الرأس ليقول:«من أعماقي أتضرع إليك يا إلهي.. استجب لصلواتي» إذن هكذا!! وصاحت أبواق أمريكا.. ورد العملاء صداها:«الأعراف الدولية»..«القانون الدولي» إذن هكذا! أي قانون دولي.. ألم يسمع أحد منكم عن وطن بأكمله وشعب بأكمله ارتهنه اليهود ولا يزالون لأكثر من ثلاثين عاما تحت سمع وبصر ودعم أمريكا نفسها.

وعمت الفرحة الشعوب المسلمة والمستضعفة في حين قابلت حكومات الوطن الإسلامي الأمر بالاستنكار! وفي إيران كانت الهزة أكبر مما يتصورون.. سقطت كل العناصر المعتدلة التي حاول الامريكيون التسلل إلى صفوفها.. وصعدت عناصر أكثر راديكالية.. وسكتت الأصوات العملية.. وتراجع الأكراد قليلاً.. وتوارى بعث العراق خجلا [ولكن إلى حين].. ومر مشروع الدستور وانتخابات الجمهورية ومجلس الشورى في ظل زخم ثوري غير عادي جددته عملية احتلال السفارة حيث التفت الجماهير حول قيادتها.. وازداد إحساس الجماهير بحاجتها إلى الوحدة والنظام لمواجهة التحدى الغربي الذي ازداد شراسة.. مزيدا من العمل والإنتاج.. مزيدا من الاكتفاء الذاتي.. مزيدا من التقشف والتخلص من العادات الاستهلاكية والبرجوازية التي صدرتها لنا حضارتهم المترفة، وإلى الأمام لصنع إيران مستقلة ومعتمدة على نفسها.

يقول أبو الحسن بني صدر «.. هناك ثقافة لاسلطوية تحاول حل السلطة المتكاملة والمتمركزة والتي تعيد انتاج نفسها والإسلام هو هذه الثقافة اللاسلطوية وهو الطريق للقضاء على السلطة المنظمة والمبنية والتي تتكرر عبر التاريخ في كل أوجهها: السلطة السياسية والاقتصادية والثقافية والاجتماعية» ثم يقول«ما قمنا به وما نحاول متابعة القيام به هو تنقية ثقافتنا من العناصر السلطوية» ثم يقول في مكان آخر«ولذلك أنا أول رئيس جمهورية يأكل ويشرب وينام ويتكلم مع الشعب، على عكس كل ما ذكر في الكتب عن أن الرئيس يجب أن يحافظ على مسافة بينه وبين الشعب وأن لا يظهر كثيرا ولا يتحدث كثيرا.. لقد أبرزت العكس لأن رئيسا قريبا من الشعب يصبح أكثر فعالية ويمكنه كلما واجهته مقاومة من أحد مراكز السلطة أن ينادي الشعب ليلغي هذا المركز.. وبذلك لا يعود الرئيس محتاجا إلى قوات الأمن والشرطة السرية..الخ».

وأبو الحسن هذا هو الذي كتبت[المختار الإسلامي](عدد ٣ سبتمبر ٧٩) متنبئة بفوزه قبل أكثر من ستة شهور من هذا الفوز.. فقد كتبت تحت عنوان[إيران الثورة.. القوى الفعالة] فذكرت أن المجموعة الثالثة من مجموعات القوى الثورية الإسلامية هي مجموعة الانتلجنسيا الثورية الإسلامية «مجموعة باريس» وأهم أفرادها هو أبو الحسن بني صدر الأقرب إلى الإمام الخميني فكرا وممارسة، ثم قالت [المختار الإسلامي] (إن مجموعة باريس هي أكثر مجموعات الثورة قدرة على ممارسة الحكم الإسلامي والتقدم به بدعم متواصل من رجال الدين) وإن أثبتت الأحداث صدق رؤيتنا فإننا ما زلنا نحمل نفس الرؤية ونصر عليها.كيف؟

لقد فاز أبو الحسن بني صدر بأغلبية كبيرة في حين إنه كان يواجه مجموعة من المرشحين الأقوياء منهم مرشح حزب الجمهورية الإسلامية[أكبر الأحزاب.. ٣ ملايين عضو ويرأسه دكتور في الفقه الإسلامي(بهشتي) الذي يتكلم الألمانية والإنجليزية والعربية بجانب الفارسية] وأمام مرشح هو صهر للإمام الخميني وابن أخت الإمام موسى الصدر.. وكذلك أمام مرشح الرأسمالية وكبار التجار. لقد

حمل هـذا الفوز دلالة عميـقة.. تشير إلـى مدى ما يتمـتع به هذا الشعـب من وعى وإرادة حرة مـستقـلة وفاعلـة. أن يرفض مـرشح حزب يـنتمي لـه ٣ ملايين عـضو ليـختار مرشـحا مستـقلا هو ضمـانه للمـستقبـل أيضا.. وهكـذا جاءت الجماهـير باقتصادي ومفكر ثـوري على رأس سلطتها التنفيذية، جـاءت بالرجل الذي أستطاع طيلـة الوقت طرح كافة الـقضايا الداخـلية والخارجيـة مستلهمـا التعاليـم والأفكار الإسلاميـة وبشكل تـكاملي جـعل الجماهـير تلتـف حوله في مـراكز الاقتراع كـما اعتادت أن تلتف حوله في الخمسينيات.

ولكن ماذا عن الخلاف بين حزب الجمهوريـة الإسلامي ومجموعة أبو الحسن.. من الواضح أن كـلا من الطرفين يلتزم بـالخط الثوري الإسلامي الذي أعـلنه الإمام الخميني، ولكن من الواضح أيضا أن لكل منـهما أسلوبه الخاص في التعبير عن هذا الالتـزام، فرجال الديـن والجماهـير الشـيعية الـتي عاشـت طيلـة حياتهـا في جبـهة المعـارضة منـتظرة مصير الحسـين تعيـش الثورة فـي وعيهم، ولا وعـيهم أهـم من الدولة.. أما الانتلجنـسيا الإسلامية[مجموعة أبو الحسن] والتـي تعلمت في أوروبا وأمريكا فقد عادت تحمل في داخلها أشـكال بناء الدولة والاستمرار في الثورة وأن بناء الدولة هو دعامة تقدم الثورة.

إن هذا هو جوهر الاختلاف، الذي تلاه اختلاف فـي أسلوب التعامل مع بعض المشاكل، ولكن الذي أصـبح واضحا أنه حتى خلافا مثل هذا قد يـؤخر مسيرة تقدم بناء الـدولة التي هي دعامـة الاستمرار في الثـورةكما ترى الانتـلجنسيا الإسـلامية، ولذا فإننـا نعيد ما كتـبته المختار الإسلامي(سـبتمبر ـ ١٩٧٩ عدد ٣) «أن مـجموعة باريس[مجموعة أبـو الحسن] هي أكثر مجموعات الثورة قـدرة على ممارسة الحكم الإسلامي والتقدم به بدعم متواصل من رجال الدين»، وهذا يعنى أن جبهة إسلامية موحدة هي المطلب الأساسى والأول لتحقيق وحدة قوى الثورة والانتصار النهائي.

وبعد: يقول البروفيسور الأمريكي[جيمس بـل] في مجلة[بوليتك انترناشيونال] (عدد ٦ ـ ١٩٨٠) بعد أن يشبه إيران بمريض في دور النقاهة«لقد وجد هذا المريض معنى جديدا للحياة، بعد أن عثر على كرامته وكبريائه، أنه يمتلك كل مقومات الحياة

من موارد طبيعية هائلة، وقد علمته التجارب كيف يواجه المحن.. إن الدول التي ستساعد إيران على التغلب على آلامها، وتضميد جراحها.. ستحصل على مكاسب جمة إما الدول التي تسخر منها اليوم، فإنها تضر بمصالحها لأنه سيأتى اليوم الذي ستؤكد في إيران ذاتها كعضو مهم ومستقل في المجتمع الدولي».

ونحن نقول أنه يجب على الجماهير والحركات الإسلامية أن تفهم أن تحديات وصعوبات تواجه هذه الثورة بحجم الشر الطافح فوق الأرض.. كل الأرض.. وإن تجربة إسلامية إنسانية فذة وعظيمة تبدأ، وإن هؤلاء السذج من المسلمين الذين يقولون دعونا ننتظر.. ونرى أين سينتهون.. لم تعرف الخير من الشر بعد.. هؤلاء لا يعرفون ولن يعرفوا.. هؤلاء من يملك منهم نية حسنة أو نية سيئة سواء.. إنهم يقفون في جبهة الاخطبوط الطاغوتي.. وإنهم بالتأكيد سيبقون دوما على هامش التاريخ.



الدراسة السادسة

تركيـــــــا

مسيرة العودة إلى الله وليل الجنرالات

في الصباح المبكر ليوم الجمعة ١٢ سبتمبر الماضي افتتح الجنرالات الأتراك يوم الشعب التركي بوجوههم البهية !! وبالبيان رقم واحد، ولم يفاجأ أحد.

ثم أعلن الجنرال كنعان عفرين قائد الانقلاب العسكري أن مجلس الأمن القومي الذي يتولى رئاسته والذي يضم قادة الأسلحة الثلاثة والشرطة سيتولى كافة السلطات لحين تشكيل حكومة تتولى الأمور.

وفي نفس اليوم قالت وكالة رويتر في رسالة لها من أنقرة إن من بين الأسباب الرئيسية للانقلاب هو تصاعد التيار الإسلامي، وخصوصاً بعد الاجتماع الحاشد الذي دعا إليه حزب الخلاص الوطني بزعامة نجم الدين أربكان في قونيا حيث ارتدت الجموع الملابس التركية التاريخية التي ارتبطت بالدولة العثمانية الإسلامية، وقد رفعت شعارات كتبت باللغة العربية تعالت معها الهتافات «عاشت تركيا إسلامية» و «الحكم للقرآن» ثم تطورت لتقول «يسقط الإلحاد» و «الموت لأعداء الإسلام واليهود» . وقد كان هذا التجمع التظاهري يجري تحت عنوان «إسلامية القدس وشجب القرار الإسرائيلي بضمها». وقالت رويتر إن صور هذا الإجتماع على صفحات الصحف قد سببت قلقاً للعسكريين الذين ساروا على مبادئ وتقاليد وضعها مصطفي كمال أتاتورك.

ما الذي حدث في تركيا حتى يضطر العسكريون المحترمون إلى الاعتداء على الديمقراطية التركية التي بناها أتاتورك؟! ولماذا كل هذا الرعب من إسلام الأمة التركية، ألم تكف سنوات النصف قرن الماضية بكل تعسفها وإرهابها وقوانينها ورجالها للقضاء على الإسلام وإرساء دعائم اللادينية؟

(*) المصدر: مجلة المختار الإسلامي (العدد ١٧ ـ السنة الثانية ـ نوفمبر ١٩٨٠).

إن تركيا في القلب.. في قلب الإسلاميين جميعاً تسكن وتشتعل من جديد وتعود لوجهها الحقيقي .. وعندما ظن الغرب أن إيقاف رجلهم أتاتورك لصوت الآذان على مئذنة أيا صوفيا وأن تعسفه وإرهابه ومنعه النساء من ارتداء الزي الإسلامي وأمره بارتداء القبعة بدلاً من الطربوش وأن قوانينه العلمانية ستدخل تركيا الإسلامية إلى النسيان.. عندما ظن الغرب ذلك كان القلب الإسلامي واثقاً تماماً من قيام الإسلام مرة أخرى لأن سنن الله الفاعلة في الكون لا يوقفها بشر.

١ ـ تركيا المعاصرة ..من سقوط الخلافة إلى وجه العسكر

تسير في اسطمبول فتجد قبر محمد الفاتح ومسجده وتجد حديث الرسول ﷺ «لتفتحن القسطنطينية فلنعم الأمير أميرها ولنعم الجيش ذلك الجيش» فترفع يديك داعياً .. أن الحمد لله رب العالمين. واسطمبول هي القسطنطينية، عاصمة الدولة الرومانية الشرقية التي كسر جدارها السلطان محمد الفاتح وجند الدولة العثمانية الصائمون قبل خمسة قرون .. وقد بنى السلطان المسلم قصراً له في المدينة مازال قائماً حتى الآن، نقش على بابه كلمة الإسلام الجامعة: لا إله إلا الله، وفيه كانت تدبر شئون العالم الإسلامي ردحاً من الزمن .. ومنه كانت تنطلق جيوش المسلمين إلى جميع أنحاء الدنيا مجاهدة في سبيل الله، تنشر النور والهداية والعدل أينما حلت وحيثما ضربت..

هنا في هذه النقطة من العالم وضع الإسلام دعائم راسخة له .. في نفوس البشر ووجدانهم وفي أزقة الشوارع وعلى أسوار البيوت وقمم المآذن .. وهنا أيضاً بدأ الصراع العنيف بين حضارة الإسلام وبين علمانية الغرب الصامدة التي تحاول امتلاك الأرض والسيطرة على شعوبها وثرواتها.

على أبواب القرن العشرين كان السلطان المسلم عبد الحميد يحاول قصارى جهده الصمود بالدولة العثمانية في وجه الغرب .. ولكن الهجمة على الإسلام التي تقدمت بحراب الاستعمار الغربي وبعثاته التبشيرية وبأبناء الوطن الإسلامي المستلبين روحياً وحضارياً لصالح الاستعمار، هذه الهجمة استطاعت في النهاية

إزاحة السلطان المسلم وتولية حزب الاتحاد والترقي اللاديني للسلطة، حيث زج بالدولة في غمار الحرب العالمية الأولى ليخسرها ولتستبيح القوى الغربية الأرض الإسلامية وتقسمها فيما بينها.

وفي تركيا أدت سلسلة المؤامرات الغربية والصهيونية إلى أن يستلم السلطة ضابط صغير مشبوه الأصل والعلاقات والفكر هو كمال أتاتورك، الذي سينشئ حزباً يسميه «حزب الشعب» ثم بعد عام من إنشاء الحزب ـ سنة ١٩٢٤ ـ سيقوم بإلغاء الخلافة. وبدأ أتاتورك في كشف الملامح الحقيقية لوجهه وشن حملة إرهابية قمعية على كل ما يشير إلى الإسلام بصلة .. وفي المؤتمر الثالث لحزبه ـ حزب الشعب ـ سنة ١٩٣٤ ستتحدد مباديء الحزب الستة الممثلة في النظام الجمهوري ـ النزعة القومية ـ الديمقراطية ـ إشراف الدولة الشامل ـ اللادينية ـ الإصلاحية.

حاول أتاتورك وتلاميذه من الكماليين تدمير كل ما هو إسلامي في تركيا فقاموا بإلغاء الأبجدية العثمانية العربية وجاءوا بأبجدية لاتينية وأغلقوا عدداً كبيراً من المساجد وتركوا الآذان الشرعي لتدوي تركيا (تاكرى أولودر) بدلاً من الله أكبر وعدلوا دستورهم ليحذفوا منه اسم الجلالة، وتدخلوا في زي الجماهير ففرضوا القبعة الأوروبية ومنعوا زي المرأة الإسلامي..

كانت هجمة شرسة ضد انتماء الأمة وحسها التاريخي الإسلامي .. ورغم قبول الكماليين بالمعارضة الشكلية الممثلة بحزب الترقي الجمهوري في العشرينات ثم الحزب الحر الجمهوري في الثلاثينات إلا أن سيطرة العناصر الإسلامية على أحزاب المعارضة كان يؤدي بها إلى التصفية في النهاية.

وبعد وفاة أتاتورك ١٩٣٨م تولى عصمت أينونو زميله وصديقه رئاسة الجمهورية والحزب الذي داهمته الحرب الثانية بمتغيراتها الكبيرة في توزيع القوى السياسية في العالم.. فقد أصبحت الشيوعية خطراً داهماً يتهدد النظام من الشمال وبدأت القوميات والأقليات داخل تركيا في التململ من جديد في ظل مشاكل اقتصادية محتدمة .. وغابت بريطانيا كمرشد ووالد للسلطات اللاإسلامية في

الوطن الإسلامي لتحل محلها الولايات المتحدة الأمريكية وعاد الإسلاميون لتنظيم أنفسهم في البلاد.

وقد أدرك أينونو طبيعة ما يحدث فقام والكماليون بالسماح ـ قليلاً ـ لاتجاهات المعارضة بالتعبير عن نفسها .. وهكذا أسس أربعة رجال استقالوا من حزب الشعب حزباً جديداً هو الحزب الديمقراطي في مطلع ١٩٤٦ والرجال هم جلال بايار وعدنان مندريس والأستاذ محمد فؤاد كوبريلي عميد كلية الآداب ورفيق قور التاره.

وسار الحزبان معا في السنوات الأولى وكان واضحاً أن الحزب الديمقراطي لا يخرج عن كونه اتجاهاً مختلفاً داخل حزب الشعب. فالديمقراطية بمفهومها الغربي، واللادينية والحس القومي كانت أصولاً واضحة في الحزب الديمقراطي.

في ذلك الوقت كانت جماعة طلاب رسائل النور «نورجو» التي تتبع الشيخ سعيد النورسي، قد وصل عدد أعضائها إلى أكثر من مليون تركي، يتتلمذون على حوالى ١٣ رسالة، كتبها الشيخ ما بين ١٩٢٨ و ١٩٥٠ وهي الفترة التي تحددت فيها إقامته، وقد تضمنت هذه الرسائل عرضاً واعياً للإسلام.

وقد قام عدنان مندريس الذي كان يعتبر الدينامو الحقيقي للحزب الديمقراطي بالاتصال بجماعة نورجو وأبدى في رسائله إليهم عواطف إسلامية. وفي انتخابات ١٩٥٠ تقدم مندريس والحزب الديمقراطي ببرنامج وافق عليه الأمريكيون كاختبار لما تبقى من الإسلام لدى الشعب التركي، كان برنامجاً بسيطاً إلى أقصى حد وتضمن وعوداً بعودة الآذان باللغة العربية والسماح للأتراك بالحج، وإعادة تدريس الدين في المدارس وإلغاء تدخل الدولة في ملابس النساء ... وقد توقع الخبراء الأمريكيون للبرنامج الفشل التام.

وعند إعلان نتائج الانتخابات تبين أن مندريس فاز بـ ٣١٨ مقعداً وأن أينونو وحزب أتاتورك حصلوا على ٣٢ مقعداً فقط.

وكان واضحاً أن تركيا بعد خمسة وعشرين عاما من محاولات تحطيم إسلامها، قد اختارت الإسلام مرة أخرى. والمؤكد أن جماعة نورجو ساندت الحزب الديمقراطي ومندريس في انتخابات ١٩٥٠.

وقد سيطر الديمقراطيون على السلطة حتى ١٩٦٠ وكان مندريس «يحكم على حبلين» فهو يعكس انتماء حزبه العلماني ولم يستطع التخلي عن بعض الإسلام الذي حاوله من قبل والذي كان يدرك تماماً أنه سبب توليه السلطة.

ولكن الغرب ممثلاً في الولايات المتحدة لم يكن على استعداد لخسارة تركيا التي كانت تمثل أخطر قواعده في زمن الحرب الباردة والصراع على مناطق النفوذ بين الغرب الرأسمالي والغرب الشيوعي .. وكانت الستينيات بداية وعي الإمبريالية الأمريكية على خطر الإسلام كدين وعقيدة وأيديولوجية تحرر للشعوب في العالم.وقد رافق ذلك الإدراك الأمريكي هجمة عنيفة على الإسلام في كل الوطن الإسلامي (في أريتريا وزنجبار وفي أندونيسيا والفلبين وفي مصر وسورية).

وهكذا ففي نفس العام الذي توفي فيه الشيخ النورس (١٩٦٠) قام الجيش التركي بالاستيلاء على السلطة بقيادة جمال كورسيل وبإيعاز أمريكي ليعلق «جلال بايار» عدنان مندريس بحبال المشانق متهماً مندريس بالعمالة لأمريكا والانحراف عن جمهورية أتاتورك!!.

وبعد أن اطمئن العسكر إلى تدمير الطلائع الإسلامية في البلاد قاموا بتسليم السلطة مرة أخرى إلى حزب الشعب: حزب أتاتورك.

بعد ذلك بقليل وعندما ظهر سليمان ديميريل على رأس حزب العدالة ـ كوريث للحزب الديمقراطي ـ كان واضحاً تماماً أن الزعيم المعارض الجديد قد فهم إلى أقصى حد ظاهرة مندريس، ولذا ورغم أن ديميريل حاول استمالة الأمة إليه ببعض الشعارات الإسلامية وبوقوفه موقف «المتجنب» للتورط مع إسرائيل في حرب يونيو، إلا أن ديميريل كان علمانياً أصيلاً مؤمناً بالطريقة الغربية للحياة والحكم أقصى اليمين... وإن كان هناك خلاف حقيقي بين حزب العدالة وحزب الشعب فهو إيمان

ديميريل وحزب العدالة بـالانفتاح الاقتصادي المطلق بينما يتـجه حزب الشعب نحو الاقتصـاد الموجه من الـنظام، وخاصـة بعد أن استـولى ايجفـيت على قـيادة الحزب ونحى به منحى اشتراكياً في محاولة من أبناء أتاتورك لامتصاص الاتجاهات الجديدة بين الشباب التركي.

وهكذا تميزت تركيا في الستينات بمـواصلة الهجوم ضد التيارات الإسلامية مع إبقـاء الباب مـوارباً لـلاتجاهات الأخـرى. وخلال فتـرة قصـيرة كان وجـود حزب الشعب ثم الـعدالة ثم عدة تنظيمات يسارية بدءا من كرادلة شيوعي مـوسكو حتى التنظيمات الماوية ثم بروز حركة العمل القومي كتنظيم تركي عنصري يقوده جنرال سابق يدعـى ألب أرسلان توركيس، ويدعـو إلى قومية ونهضـة تركية ويعتبـر هتلر مثلاً أعـلى له .. كان وجود كـل هذه التنظـيمات يعـطى الخارطة الـسياسية التـركية شكلاً فسيفسائياً، ساهم فيه أيضاً وجود أقليات عرقية مثل الأكراد والأرمن.

وما كادت الستـينيات تنتهي حتى كـانت الأزمة الاقتصادية الطاحنـة قد عصفت بتـركيا، وأدى عـدم التـوازن الحضاري والـسياسـي الناتج عـن تفشـى الـتنظيـمات والأحزاب اليساريـة واليمينية، إلى عنف سياسي ملحوظ في كل أنحـاء تركيا.. في وقت كان فيـه مهندس مسلـم يحاول تنظيـم النواب ذوي الاتجاهات الإسلامـية في البرلمان التركي لـيؤسسوا حزباً أسموه حزب النظام الوطـني (١٩٧٠)، ولكن انقلاباً عسكرياً ثانياً سيعاجل الجميع ليحـل الحزب ويحاكـم مؤسسه البروفيسور نجم الدين أربكان أستاذ الميكانيكا في كلية هندسة اسطنبول.

مرة ثانية يتقدم العسكر في محاولة منـهم للحفاظ على تركيا كما أرادها أتاتورك وكما يـريدها الغـرب: تركيا اللاإسـلامية الديمـقراطية الغـربية، والجزء الـقوي من حلف الأطلـسي. ولعل النموذج الـتركي أكثر النماذج غـرابة في العالم فهـي البلد الوحيـد الذي يتقدم فيـه العسكر لاستـلام السلطـة سنة أو سنتين ريـثما تضبـط فيه الأمور ثـم يعـودون إلى الـثكنـات لتـأتي الأحـزاب العـلمانـية مـرة أخرى وتـعود الديمقراطية الغربية.. تركيا البلد الوحيد ـ ربما ـ الذي يحمي فيه الجيش الديمقراطية الغربـية كأسلوب حكـم وذلك لأن العسكريـين الأتراك ـ تلاميذ أتاتـورك وأعضاء

حلف الأطلسي - يدركون تماماً أن ذهاب الديمقراطية الغربية والعلمانية والحس القومي لا يعني إلا تقدم الإسلام..

وهكذا يعود الضباط إلى ثكناتهم ليستلم حزب الشعب السلطة من جديد ويتداول وقرينه حزب العدالة السلطة في تركيا طوال السبعينيات محاولاً كل منهما إنهاء التدهور الاقتصادي الشامل وإقرار الأمن وتقوية دعائم العلمانية بلا فائدة، حتى تصحو تركيا للمرة الثالثة صباح الجمعة ١٢ سبتمبر الماضي على الوجه القبيح للجنرال كنعان عفرين وعلى الصوت القبيح للبيان الإنقلابي رقم (١) معلناً تولي الجيش للسلطة.

٢ - ضد من ينقلب العسكر الأتراك؟

أشارت معظم المعلومات التي تجمعت عقب الانقلاب العسكري الأخير في تركيا، إلى أن أول قرار بالانقلاب كان قد اتخذ في اجتماع عسكري استثنائي لرؤساء أركان جيوش دول حلف الأطلسي،خاصة بعد أن أشار رئيس الأركان الأمريكي إلى الخوف من انتقال الظاهرة الإيرانية إلى تركيا، وبالتالي خسارة الغرب لأهم دعائم العلمانية الغربية في الشرق، ولثانى قوة عسكرية في الحلف (٥٦٦ ألف جندي تركي).

ولعله أمر واضح تماماً تلك العلاقة بين الانقلاب والحكومة الأمريكية. فالجنرال كنعان عفرين صاحب الاثنين وستين عاماً «المعتدل ذو الميول الأمريكية والذي يريد العودة بالبلاد إلى الحياة الديمقراطية والإبقاء على دور تركيا كحليف غربي على الجهة الشرقية لحلف الأطلسي، وعلى الجهة الغربية للعالم الإسلامي» كما قالت نيوزويك في ٢٢ سبتمبر.. هذا الجنرال لا يستطيع أن يخفي علاقته بأمريكا، خاصة إن علمنا أن الإذاعة الأمريكية قد نشرت خبر نجاح الإنقلاب قبل إعلان البيان رقم ١ في أنقرة بأربع ساعات.

ولعله لم يعد غريباً أو مستهجناً لدى شعوب العالم الثالث أن تقوم أمريكا أو روسيا بين وقت وآخر بضبط الأوضاع في إحدى مناطق النفوذ ، وذلك لأن العالم الثالث يبدو وكأنه ليس إلا مزرعة جيدة تصب ثرواتها في بطون السادة الغربيين!!

● إن تركيا هي النقطة الأخيرة في هلال الأزمات الممتد من أندونيسيا إلى البسفور، تلك المنطقة التي تقطنها أغلبية ساحقة من أبناء الوطن الإسلامي، والتي تبحث عن انتمائها وملامحها الحقيقية بعد أن جاءها الغرب بحرابه ووعوده بالتقدم ثم غادرها تاركاً التخلف والجوع وسالباً الثروات.

● وفي عمق هلال الأزمات، ومباشرة على الجانب الشرقى لتركيا، كان دوى الزلزال الإسلامي في إيران، هو الصوت الأكثر ارتفاعاً في الأذن الغربية، فقد بدا واضحاً أن أبناء المنطقة قد عرفوا طريقهم إلى الاستقلال الحقيقى وإلى الأسلوب الناجح والمتوازن للتقدم والنمو.

● وفي محاولة لإيقاف المد الإسلامي، كان لابد أن تضرب الثورة الإسلامية في إيران مباشرة ـ الاعتداء الذي يقوده صدام ـ على الأرض الإيرانية، وأن تضرب بشكل غير مباشر بتحطيم كل إمكانيات التحول نحو الإسلام في أرض الوطن الإسلامي. وقد كتبت النيوزويك في عددها المشار إليه، أن بعض المحللين يعتقد أن القادة العسكريين الأتراك قد تلقوا تحذيراً من بعض الجهات، يشير إلى القوة المتنامية لالتحام الجماهير التركية بحزب الخلاص الوطني الإسلامي وبقائده أربكان.

كان ذلك هو الإطار الخارجى العام الذي حكم تحرك العسكر الأتراك أخيراً. أما على الصعيد الداخلى فقد كانت هناك مؤشرات واضحة نحو انهيار النظام العلمانى تماماً إن استمرت الأوضاع على ما كانت عليه.

● فقبل الانقلاب مباشرة كان هناك حوالى ثلاثة ملايين عاطل عن العمل يتجولون في شوارع المدن التركية. وفي نوفمبر الماضى عندما تسلم ديميريل السلطة من حزب الشعب كانت تركيا على وشك الإفلاس التام. وقد أشار المراقبون الاقتصاديون إلى أن كل الإنتاج التركي لم يعد يكفي لسد حاجة تركيا من النفط.

● مائة وعشرون في المائة، هو الرقم الذي وصلته درجة التضخم، والمنحنى في تصاعد مستمر، وقد حاول السيد أوزال الوزير المسئول عن الشئون الاقتصادية في

حكومة حزب العدالة الأخيرة أن ينقذ الأوضاع على طريقة نصائح البنك الدولى الشهيرة في العالم الثالث، فخفض سعر الليرة التركية ٣٣٪ وأوقف تماماً زيادة الأجور في الصناعات الوطنية وطلب مساعدات وقروضا من الدول الغربية. فكانت النتيجة هبوطا حادا في حجم الإنتاج الصناعي، وتصفيقا حادا من الاقتصاديين الغربيين الذين مازالوا حتى الآن ينصحون القادة العسكريين بخبرات المحترم أوزال.

● في عهد وزارة إيجيفيت طبقت الأحكام العرفية على ثلاث عشرة مقاطعة تركية بعد أن وصل عدد ضحايا أعمال العنف اليومية بين اليمين واليسار إلى ثلاثمائة قتيل يومياً، ثم شملت هذه الأحكام عشرين مقاطعة (في تركيا ٦٧ مقاطعة) في عهد ديميريل، ولكن التدهور الأمني كان مازال مستمراً.

كان واضحاً أن تشرذماً حقيقياً قد أصاب المجتمع التركي، وأن هناك تناقضا لم يعد من الممكن حله بين أحاسيس وحاجات ملايين الجماهير وبين سياسات الحكومات المتوالية.. فمحاولات ربط الاقتصاد التركي باقتصاد الغرب وجعله رديفاً ومكملا له؛ كانت قد أدت إلى تدمير الاقتصاد الزراعي - الاقتصاد التركي - ثم أدت إلى إنشاء صناعات متوسطة كمالية تغرق السوق باحتياجات المجتمع العلماني .. وأخيراً إلى إنشاء صناعات ثقيلة غير مناسبة لتكوين المجتمع وبدون كوادر صناعية وعمالية حقيقية - فكانت المحصلة تدهوراً اقتصادياً شاملاً، وتفشى البطالة وما يرافقها من ظواهر اجتماعية خطيرة.

ولقد رافق ذلك محاولات الاتجاه العلماني الحاكم [حزبي الشعب والعدالة] لتدمير حس الشعب الإسلامي بل وفصله عن تاريخه وقيمه، وفرض قيم ومفاهيم ومناهج حياة مخالفة مما أدى إلى اختلال التوازن النفسي والمجتمعي.

وهكذا فقد انتهت محاولات ضم تركيا إلى الكتلة الغربية وتدمير إسلامها، إلى تدمير قواعد الأمن والنظام في المجتمع، وإلى انتشار الرشوة واللصوصية والدعارة والبطالة، وإلى تدمير الاقتصاد الوطني بشكل ليس له مثيل في أي دولة أخرى حتى

وصلت ديون تركيا إلى نصف دخلها القومي، ومن المتوقع أن تصل هذه الديون في نهاية الثمانينات إلى تغطية الدخل القومي تماماً. وأيضاً إلى ربط تركيا بالأحلاف ومعاهدات الأمن الأوروبية، حتى انها لا تستطيع حل مشاكلها الوطنية مع جارتها اليونان أو حتى التخلص من تلك المشاكل، وأخيراً إلى جعل الجيش التركي الذي بني خصيصاً كجزء من المؤسسة العلمانية اللاإسلامية وكجزء من جبهة الأمن الغربية، جعل هذا الجيش سيفاً متسلطاً على رقبة الجماهير وأحلامها نحو التغير والثورة.

وتلك هي لحظة الحسم.. فمنذ الإنذار العسكري الموجه إلى قادة الحزبين الكبيرين في تركيا في بداية هذا العام .. وحتى الآن ازدادت الفوضى الاجتماعية والاقتصادية والأمنية، بينما استمرت عملية التحول إلى الإسلام تجري في المجتمع التركي بثقة واشتعال ... وكانت هناك إشارتان أسرعتا في التحرك العسكري:

الأول: نجاح نجم الدين أربكان في تكتيل أكثرية برلمانية استطاعت إسقاط وزير خارجية ديميريل نظراً لسياسته اللاإسلامية تجاه الصراع ضد إسرائيل وقضية القدس.

الثاني: ذلك التجمع الجماهيري الذي قاده حزب الخلاص بقيادة أربكان في مدينة قونيا في اليوم التالي مباشرة لإسقاط وزير الخارجية ـ أي يوم ٦ سبتمبر ـ حيث هتفت الجماهير مع إسلام تركيا، وحاكمية القرآن وضد الإلحاد واليهود، وقد رفضت الجماهير الإسلامية الوقوف للنشيد الوطني الأتاتوركي.

وهنا لم يكن هناك مفر من تدخل الجنرالات، فالجمهورية التركية التي أرادها أتاتورك لادينية وقومية وجزءاً من الغرب، كانت تتحلل وتتفسخ ويجرى في عمقها تحول إبداعي إلى الإسلام.

وهكذا تتحدد مهمة العملية الانقلابية الأخيرة ..فليس هذا انقلاباً ضد سليمان ديميريل وحزب العدالة، الذي دعا بوضوح إلى تقدم العسكر للسلطة في الفترة الأخيرة.. وليس هذا انقلاباً ضد حزب الشعب وبولنت إيجيفيت ـ الذي حرص

وزوجته قبل الذهاب مع العسكر ليلة الانقلاب على توصية الأصدقاء ليعتنوا بقططهم السعيدة ـ ذلك لأن جنرالات أتاتورك لا يمكن أن ينقلبوا على حزب أتاتورك وهم القادمون ـ كما كانوا دائماً ـ من أجل الحفاظ على ما تبقى من جمهورية المؤسس بقيمها وهياكلها. ليست هذه إذن عملية تغيير في بنية أو مسيرة الجمهورية التركية كما أرادها أتاتورك، ولكنها محاولة متشابكة الأطراف والمصالح والانتماء، محاولة غربية أمريكية وتركية وعلمانية أرادها حلف الأطلسي والأحزاب العلمانية التركية، لينفذها العسكر من أجل اللحاق بما تبقى من الجمهورية المنهارة التي تتقدم جماهيرها نحو الإسلام.

ولذا فإن الجنرالات القادمين إلى السلطة يوزعون الوعود للجماهير يميناً وشمالاً في محاولة لاستمالتها، فهم يدعون أنهم جاءوا للقضاء على الفوضى الأمنية ـ مازالت عمليات الاغتيال جارية في الشوارع ـ وأنهم جاءوا لضمان القروض الغربية وضبط التدهور الاقتصادي وتشغيل العمال ورفع رواتبهم، ثم أنهم أكدوا على عودتهم لثكناتهم بعد تأكدهم من أن الأحوال قد استقرت والجمهورية قد حفظت من كل سوء، خاصة «التطرف الدينى» كما يقول جنرال كنعان.

ولكن الجماهير الإسلامية في تركيا تدرك الآن أن القضية الحقيقية ليست فيمن يشكل وجه السلطة، لأن المسألة ليست أنك مع التأميم أو ضده.. ولا هي في السماح للأرصدة الأجنبية بالدخول أم لا، ولا هي أيضاً في الوقوف ضد تيار الاغتيالات أو التفرج عليه. المسألة هي بالتأكيد تغيير شامل لبنية المجتمع التركي الفكرية والإقتصادية والاجتماعية، وليس الإصلاح هو الحل وإنما الثورة.

وإذا كانت الأحزاب والمؤسسات العلمانية التي حكمت طوال نصف قرن لم تستطع إنقاذ تركيا الأرض والمجتمع والإنسان من التدهور المستمر بعد كل تجاربها الفاضلة السابقة، فهل تستطيع ذلك المؤسسة العسكرية التركية؟. ذلك هو السؤال الذي تعرف الجماهير التركية الإجابة عنه.

٣ ـ حزب الخلاص الوطني .. الإسلام في وجه العلمانية:

كان د. أربكان يختتم لقاءه بالجماهير التركية في أحد الاجتماعات الصاخبة قائلاً: « نحن سنفتح جامع آيا صوفيا للصلاة فيه، لن نقبل أن تصبح تركيا مستعمرة غربية أو أوروبية أو شيوعية، نحن لنا ماض مجيد «نصر من الله وفتح قريب» . وهنا دوى صوت الجماهير الإسلامية بالهتاف «يامعمار الشرق .. يا أربكان.. إننا نريد تركيا إسلامية نريد صناعة ثقيلة ، نريد معارف إسلامية».

ويوماً بعد يوم كان التيار الإسلامي المتقدم حول حزب الخلاص الوطني الإسلامي في تركيا يكسب آلاف الجماهير في ممرات الكليات الجامعية .. وفي شوارع المدن المكتظة بالفقراء والعاطلين .. وعلى سفوح الهضبة التركية الإسلامية في أنقرة، في اسطنبول، في أضنة .. وفي قونيا .. في كل المدن التركية أصبحت «الله أكبر» تدوى لتصعق آذان الطغاة الذين ظنوا أن دين الله قد انتهي.

كانت نهاية الخلافة الإسلامية التي أعلنت رسمياً سنة ١٩٢٤ على يد كمال أتاتورك في تركيا، نهاية تراجيدية محزنة لمسيرة النظام الإسلامي المتواصل على مدى أربعة عشر قرناً، لم تتم هذه النهاية بسهولة كما قد يروج البعض الآن فقد قاتل المسلمون دفاعاً عن نظامهم طوال أربعة قرون متواصلة دفاعاً مريراً وبكل الوسائل .. ولكنها سنن الله الفاعلة في هذا الكون مضت لتؤكد للأمة الإسلامية أن محصلة الانحرافات عن منهج الله لن تأتي إلا بزوال سيطرة الأمة ونظامها. وكان دور القوى العربية الفتية التي زحفت عقب عصر النهضة على وجه الأرض الجميل لتلوثه وتشوه ملامحه، دوراً فاعلاً إلى حد كبير في سقوط نظام الخلافة لتدمر ما تبقى من حس الجماهير الإسلامية من إسلام وما في انتمائها وأخلاقياتها من لجوء إلى منهجه، وكانت الأنظمة العربية القومية ونظام أتاتورك وسلطة رضا شاه الكبير !! نماذج كاملة لمحاولات تدمير الحس والانتماء الإسلاميين. وبعد أن استطاع الغرب والقوى الصهيونية زرع الكيان الإسرائيلي في قلب الوطن الإسلامي كتجسيد حي مستمر لنموذج الهجمة ضد الإسلام، كان لابد أن تنتقل وسائل هدم الانتماء الإسلامي من المحاولات الفكرية والثقافية والاجتماعية إلى

أسلوب التصفية الدموية النهائية لكل أطروحات النهوض من أجل مجتمع ونظام إسلامي جديد، فكان انقلاب كورسيل في تركيا .. ومحاولات التصفية البشعة لمسلمي أندونيسيا والفلبين وأريتريا.. والضم الدموى لزنجبار المسلمة إلى تنجانيقا الصليبية .. الخ ..الخ. وقرب نهاية الستينات كانت إسرائيل كيان الهجمة الحي ـ والتي اتخذت من أنقرة وأسطنبول وطهران الشاه وكمبالا مراكز لممارسة نشاطها ضد الإسلام، كانت إسرائيل تتقدم في الأرض الإسلامية مرة أخرى لتبدأ حقبة الظاهرة الإسرائيلية بتتويج نفسها على وجه التاريخ المعاصر. وها هو حوالي النصف قرن بعد تصفية نظام الخلافة الإسلامية قد مر، وأصبح واضحاً أن أنظمة الغرب التي تسلطت على رؤوس أمتنا لم تعد حتى قادرة على الادعاء بأنها تستطيع تقديم أي شئ لمستقبل الأمة أو لحاضرها. وفي غمرة الفشل الكبير حاولوا جميعهم تغيير الأقنعة.. ولكن جماهير الأمة الإسلامية كانت تدرك أن أقنعة التغيير هي التي تحاول السيطرة لأن أقانيم الجوع والقهر والتسلط والهزيمة مازالت هي الأصل.

ومن بين الآلات الخربة ومن جوف شقوق المزارع العطشى.. من صدور الأمة الجائعة ومن عمق ملامح الوعي للشعوب الثمانين .. كان الإسلام يتقدم ليكون أداة التغيير والبناء الجديد وأطروحة أمتنا للإنسانية جمعاء.

وفي تركيا كان أستاذ شاب للميكانيكا في الجامعة التركية ـ حصل على درجة الدكتوراة من ألمانيا الغربية وينتمي إلى عائلة متدينة ـ يحاول أن يفعل شيئاً وسط التدهور والفوضى الشاملة .. يقول عنه ألبوم الجامعة أنه أثناء دراسته كان يكثر من:

١ ـ الصلاة.

٢ ـ عمل المشروعات.

استطاع في مايو ٦٩ الفوز برئاسة اتحاد الغرف المالية والتجارية والصناعية التركية، لكن وزير التجارة رفض الاعتراف بالفوز وصدر الأمر للشرطة بإخراج د. أربكان من مبنى الاتحاد ... ولكنه استطاع أن يفوز في الانتخابات البرلمانية كنائب عن قونيا تحت شعار «تركيا الوطنية المحافظة على تراثها المقدس» .. وفي داخل

المجلس استطاع أربكان أن يجمع النواب الإسلاميين معاً ويؤسس حزب النظام الذي نص برنامجه على قيام نهضة معنوية ومادية شاملة في تركيا، وقد أصبح معروفاً أن حزب النظام مدافع صلب عن الإسلام .. وفي اجتماع الحزب الأخير قبل انقلاب ٧١ أهملت صورة أتاتورك التقليدية تماماً .. ولكن جنرالات الانقلاب العسكري الثانى .. قاموا بحل الحزب وتقديم أربكان للمحاكمة.

وفي عام ١٩٧٢ قام أربكان بتأسيس حزب الخلاص الوطني الذي ترتكز أهدافه على المباديء التالية:

١ ـ السلام والأمن في الداخل.

٢ ـ امتزاج الأمة بالدولة.

٣ ـ تركيا الكبيرة من جديد.

٤ ـ النهضة الأخلاقية.

٥ ـ النهضة المادية.

ويرى حزب السلامة ضرورة اتباع تركيا للنظام الرئاسي حيث يجتمع في شخص واحد رئاستا الجمهورية والوزراء، ويتم انتخابه عن طريق البيعة العامة .. ويرى الحزب في المجال الاقتصادي ضرورة إلغاء الربا بكل حزم ويرفض بوضوح المنهجين الاشتراكي والرأسمالي اللذين ينهجهما كل من حزب الشعب والعدالة. وقد أعلن الحزب برنامجاً شاملاً للتصنيع كان مثاراً للدهشة داخل تركيا وخارجها. وفي مايو ٧٥ أصدر أربكان بياناً قال فيه [إن تركيا ستتحول من بلد ينتظر قطع الغيار من الدول الأخرى إلى دولة تصدر إنتاج صناعاتها الثقيلة.. نحن نريد تركيا الرائدة وليس تركيا التابعة .. إن الصناعات الجديدة لن تتركز في اسطنبول كما هو حادث الآن بل ستكون منبثة في الأناضول .. كما أن العامل سيكون شريكاً في المصنع الذي يعمل به] .. وعندما أتيحت للحزب الفرصة في المشاركة في الوزارة رفع شعار مصنع لكل ولاية وأرسى بالفعل أساس عدة مصانع ضخمة في عدة ولايات

.. وبجهـود حزب السلامة فـي الحكومة ارتـفع عدد المدارس الإسلامـية إلى ١٧٢ مدرسة وشن الحزب حملة قاسية على المطبوعات المخلة بالآداب.

وفي مواجهة العلاقات التركيـة الأوروبية أكد الحزب على أن السوق الأوروبية المشتركة من شأنها إهدار العزة التركية. ومن أجل تماسك إسلامي شامل دعا أربكان إلى توثيق عـلاقات تركيا بشعوب المـنطقة الإسلامية .. وقد وقـف الحزب بصلابة ضد تدمـير سياسـة الأحلاف ومع الاستقـلال الوطني الكـامل .. وكان موقـفه تجاه الأزمة القبرصية موقـفاً إسلامياً استقلالياً كاملاً من أجل اسـتقلال قبرص وإسلامها .. وكان دوماً مع قطع العلاقات قطعياً مع إسرائيل.

ومـن الواضـح أن هنـاك عدة مـلاحظـات يلـتقـطهـا المراقـب لحزب الـسلامـة وبرنامجه:

الأولى: أن الحزب واع بالظروف الصعبة التي تحيط بـالعمل السياسي في تركيا في ظل القـوانين العلمانيـة اللاإسلامية التي استـطاعت الأحزاب اللادينيـة فرضها علـى المجتـمع التـركي ولـذا فإن الحزب حـريص عـلى عـدم التورط فـي المسـاءلة القانونية طالما كانت وسائل التعبير ممـكنة في إطار آخر .. فالحزب قد يستخدم تعابير النهضة المعنوية أو الأخلاقية أو ماضي تركيا المجيد للتدليل على توجهه الإسلامي .. هذا رغم أن اجـتماعات الحـزب الجماهيـرية تدوي فيـها باستـمرار هتافـات وآمال الجماهير الإسلامية، حيث تصبح المساءلـة القانونية لمئات الألوف من البشر درباً من العبث أمام السلطات.

الثانية: أن نجم الـدين أربكان وحـزب الخلاص علـى وعي تام بـأزمة التخـلف والقهـر الاجتماعي الذي تـعاني منه الجمـاهير التركيـة وجماهير الوطـن الإسلامي ككل. ولذا فقد تقدم ببرنامج اجتماعي واقتصادي شامل حاول تطبيقه كلما أتيحت له الـفرصـة .. وهذا البـرنامـج بالـذات هو ما عـجزت كـثير مـن أجنـحة الحـركة الإسلامية عن طرحه.

الثالث: إن حزب الأمة خاض غمار العمل السياسي من أوسع أبوابه وكان بذلك رداً تاريخياً على سقوط نظام الإسلام السياسي على نفس الأرض التركية.

ورغم الإمكانيات الضئيلة لحزب السلامة، فقد استطاع حتى منتصف عام ٧٦ أن يكسب ٤٨ مقعداً من مقاعد البرلمان البالغة ٤٥٠ مقعدا.. وأن يصبح بالتالي محور السياسة التركية حيث لم يستطع كل من حزبي العدالة والشعب الحصول علي أغلبية برلمانية تمكن أيا منهم من تشكيل الحكومة بدون ضمان تأييد حزب الخلاص الوطني.

وفي انتخابات ٧٧ اتفق الحزبان اللاإسلاميين [العدالة والشعب] على تقديم موعد الانتخابات بشكل مفاجيء، وشنا حملة لا أخلاقية على حزب الخلاص وزعيمه أربكان وقاما بتعديل القانون الانتخابي بشكل يسمح بتقليص دور الحزب الإسلامي. ورغم ذلك فقد تم يوم الجمعة ٢٢/ ٤/ ٧٧ وعقب الصلاة انضمام خمسة آلاف مواطن إلى فرع الحزب في اسطنبول، وفي قونيا انضمت ٣٧٥ قبيلة بكل أفرادها وكذلك ١٥٦ قبيلة في كرانياء .. ثم أعلن ٧ من زعماء حركة العمل القومية الفاشية الانتقال إلى حزب الخلاص الوطني.. واستبشارا بالمد الجماهيري ألقى عبد الكريم دوغره أحد قادة الحزب خطابا قال فيه [الحمد لله رب العالمين الذي جعل من أبناء تركيا خادما لدينه الحنيف].

وهنا جن جنون أعداء الإسلام وبدأت حرب الشائعات ومورس التزييف بشكل واضح مما أدى إلى خسارة ٢٦ مقعدا من مقاعد الحزب رغم أن جماهيره قد ازدادت.

ولكن حزب الخلاص استمر محوراً للعمل السياسي في تركيا مما أدى بحزب العدالة إلى دعوته لحكومة ائتلافية يقدم فيها الحزب ٨ وزراء من ٢٨ وزيراً في أغسطس من نفس العام ١٩٧٧.

واستمر حزب الخلاص الوطني في تحقيق الانتصارات واستمرت جماهير الشعب التركي المسلم في الالتفاف حوله مع إدراك عميق لجوهر الصراع من أجل

الإسلام.[إننا في صراع عقائدي وما دمنا جزءا من الأمة الإسلامية، فلابد من النظر إلى قضايانا بمنظار الإسلام] هكذا تحدث أربكان.

ومع نهاية العام الماضي أدرك الزعيم الإسلامي أن المؤسسة العسكرية التركية تحاول جاهدة انتهاز أول فرصة للانقلاب والسيطرة على السلطة وذلك لمواجهة المد الإسلامي المتحقق في ظل نهضة إسلامية شاملة في المنطقة، ولذا وافق أربكان على منح الثقة البرلمانية لحكومة ديميريل، مع رفض دخول ائتلاف حكومي معها وذلك كمحاولة منه للمحافظة على الاوضاع كما هي لحين اقتراب موعد الانتخابات القادمة التي كان من المتوقع أن يحقق فيها الحزب انتصارات ساحقة.. ولكن أربكان وقف بعنف في وجه كل السياسات الخاطئة للحكومة، بل إنه قاد عملية سياسية ذكية قبل الانقلاب استطاع فيها إسقاط وزير الخارجية واقالته كرد على سياسة وزارته الموالية لإسرائيل، والتي لم تقف وقفة حقيقية من مشروع ضم إسرائيل للقدس الإسلامية. وفي الاجتماع الجماهيري الحاشد في قونيا قبل أسبوعين من الانقلاب الأخير طالب أربكان بعنف حكومة ديميريل بقطع علاقات تركيا بإسرائيل وهتفت الجماهير المسلمة بإسلامية القدس، وسقوط الالحاد والصهيونية، ودوت صيحاتها[عاشت تركيا إسلامية].. وهنا فقد العسكريون أصدقاء أمريكا وأعضاء مجلس دفاع حلف الأطلسي توازنهم.

وفي فجر الجمعة ١٢ سبتمبر الماضي كان أول عمل يقوم به جنرالات الانقلاب العسكري الأخير، هو اعتقال الزعيم المسلم الكبير د. أربكان ووضعه في إحدى الثكنات العسكرية، وسط هوس عسكري وغربي ضد الإسلام وضد أربكان وحزب الخلاص الوطني.. بينما كانت همسات الجماهير الفقيرة تتسلل إلى الأفق الفسيح[نحن نحبك يا أربكان].

إن سنن الله التي تحكم حركة الكون والبشر هي السائدة دائما وأبدا، وعندما تدرك الأمة هويتها وتنحاز إلى إسلامها بعد كل سنوات التضييق والقهر من القوى اللاإسلامية، تكون مرحلة الإسلام هي القادمة.

ونحن الآن نتقدم نحو[العالمية الإسلامية الثانية] حيث تتفاعل إمكانيات الإنسان المؤمن بمشيئة الله وارادته.. ومحاولات طغيان الجنرالات في تركيا أو هوس صدام حسين أمام الثورة الإيرانية وانكشاف ما يسمى بحكام العالم الإسلامي وحقدهم على الإسلام ومرحلته الآتية، لا يمكن إلا أن يكون دلالة على تأكيد الحقيقة التي تتفاعل الآن على أرض الوطن الإسلامي الكبير.. من طنجة إلى جاكرتا.



الدراسة السابعة

في ذكرى مرور عامين على انتصار الثورة الإيرانية
رحلة الدم الذي هزم السيف!!

كانت السيدة الإيرانية تمضي وسط الجموع في[بهجت زهراء] تضع بهدوء زهرة التيوليب فوق قبر أخيها ثم تصيح:«قم يا أخي.. لقد انتصرنا.. عاد الإمام.. رحل الطغاة.. سنبني الجمهورية الإسلامية.. لقد انتصرنا.. انتصرنا» وأجهشت بالبكاء..

وفي نهاية العام الماضي كان المعلق الفرنسي الشهير[إيريك أرلو] يزور إيران ويمضي ٢٤ ساعة كاملة على جبهة الحرب ثم يعود إلى باريس ليكتب «هذه الثورة لا تشبه إلا نفسها.. ليس لها نظير في العالم.. ولا يمكن مقارنتها بأي ثورة أخرى.. ولهذا عجز الغرب عن تقييمها»..

لكن رحلة الثورة لم تكن ببساطة هذه الكلمات.. كانت عناء فوق طاقة البشر وملحمة خلود لا يصنعها إلا رساليون محمديون حقيقيون.. يا إلهي.. أي مجد يتفلت من بين أصابع كف الإمام.. وينتظرك يا أمة الإسلام.. يا كل أمة الإسلام..

مع نهاية القرن الثامن عشر كانت الثورة الصناعية في أوروبا تبدأ دورتها.. ثم جاءت الحملة الفرنسية لتتوج هذه الدورة وليأخذ التقدم الصناعي غير الراشد شكلا استعماريا شرسا طبع الحضارة الغربية أبداً، وهي تجثم طيلة قرنين من الزمان فوق أرض الوطن الإسلامي وتنحّي الحضارة الإسلامية إلى زوايا النسيان.. وان كانت مصر قد عانت طويلا منذ البداية من هذا الحضور الغربي.. إلا أن أي مراقب مطلع لا يسعه إلا أن يقرر أن هذا الحضور كان ـ لحكمة شاءها الله ـ أعم وأكثر طغيانا في إيران المسلمة.. لقد كانت عملية التغريب هناك تسير حثيثا في كل مكان ومجال وربما لحكمة شاءها الله أيضا كان الحضور الغربي يتمثل في أكبر وأخطر

(*) المصدر:مجلة المختار الإسلامي (العدد ٢١ ـ السنة الثانية ـ مارس ١٩٨١).

القوى الشيطانية على وجه الأرض أمريكا وإسرائيل.. كانت الحضارة الغربية تظن أنها توجه ضرباتها النهائية والأخيرة للحضارة الإسلامية المنهارة حين وجهت الثورة الإيرانية أول سهامها للغرب وحققت أول انتصار للإسلام في العصر الحديث، لقد عادت الحياة إلى هذا الجسد الذي ظنوه وقد أصبح جثة هامدة.. إنه يستفيق من جديد.. ينهض رائعا وفتيا.. ومن أين؟! من حيث كان تأثيرهم الشيطاني أشد وأقوى وأشرس ما يكون.

إن مرحلة تجيء.. لقد اكتشفنا ذاتنا.. وها نحن ننهض بعد قرنين من المهانة والذل وبعد قرون من التخلف والجهل.

ويبقى السؤال المهم: كيف تحقق الانتصار؟! والإجابة هنا لن تعدو المحاولة لأنها أكبر من أي مقال أو حتى كتاب عادي، وبداية سنتفق على أن عملية الثورة كانت عملة ذات وجهين متكاملين.. ورغم أنه من الصعوبة بمكان تسمية كل وجه على حدة دون تداخل، ومن الصعوبة بمكان الفصل بين وجهي عملة متكاملين إلا أننا سنحاول رغم عدم دقة التعبير اعتبار الوجه الأول كأنه الشروط الاجرائية أو المرحلية أو الموضوعية التي حققت الانتصار، واعتبار الوجه الآخر النظرية الثورية.

الشروط الموضوعية :[الوجه الأول]

١ ـ القيادة الرسالية:

والتي تمثلت كأفضل ما يكون في شخصية الإمام الخميني الذي جاءت مراحل حياته معبرة أصدق تعبير عن الشخصية الإسلامية التي جاء الإسلام ليقدمها للبشرية سراجا منيرا وقدوة فذة.. فهو بداية مسلم شديد الالتزام.. ثوري ذو بصيرة نفاذة وحس ورؤية صائبة في أحلك الظروف.. شجاع لا يعرف المساومة أو التخاذل، مسكون بعذابات المسلمين واوجاعهم، في صدره إحساس الحسين بالمسئولية وفي دمه رؤية الحسين الفذة لمعنى الشهادة، رفض منذ البداية أن تكون الثورة كحركة مصدق حركة وطنية ذات مطالب جزئية، وبقى طيلة الوقت يطرح بديناميكية مذهلة معاداة الثورة والمسلمين للشيطان الأكبر ـ الامبريالية الأمريكية ـ

والسرطان الإسرائيلي الذي أكد مرارا علي أهمية التخلص منه نهائيا.. وكذلك سقوط الشاه الذي ارتبط جدليا بتلك القوى، فهو يعلن بإصرار أن هذا النظام غير شرعي، ثم ينتقل إلى موقع آخر معلنا أنه دمية أمريكية مرتبطة عضويا بإسرائيل، وأخيرا لا مصالحة معه ولا مساومة ولابد من تدميره نهائيا.

وبقى تأثيره على الجماهير كثوري ومرجع أعلى فوق كل تأثير كما سنرى بعد قليل.. وعندما كانت المواجهة تحتدم وكانت بعض الفصائل تطالب بمواجهة القنابل بالقنابل، والنار بالنار واعلان الحرب المسلحة، كان هو بوعيه وحسه التاريخي الصادق ومسئوليته يعلن [الدم سيهزم السيف] لأنه يفهم أن المواجهة المسلحة الشاملة ستقود إلى مجازر لا يعلم أحد سوى الله هولها.. كان يستحدث المظاهرات المليونية في مواجهة الجيش.. وكان يطلب من الجماهير أن تنثر الزهور فوق الجنود وأن تقدم الحلوى لهم في الشوارع، كان يعتبر الاضرابات أعمالا مقدسة، كل ساعة منها تعتبر خدمة كبرى تسدي للأمة الإسلامية، وفي اليوم الذي سبق يوم الانتصار النهائي كان يفتي بحرمة العودة إلى البيوت والبقاء فيها وبوجوب البقاء في الشوارع لأن الدم سيهزم السيف ولأن[حياتكم في موتكم قاهرين،..وموتكم في حياتكم مقهورين إلا أن خير الموت القتل] كما قال أمير المؤمنين الإمام علي كرم الله وجهه.

٢ ـ علماء الدين والمفكرون الثوريون:

وكان لهؤلاء دور كبير في إعداد الجماهير وتربيتها وتثقيفها ورد سهام التغريب عن صدورها من خلال عملية تصفية نفسية وثقافية شاملة تطرح نظاما إسلاميا جديدا ينمو ويتعاظم بمعزل عن ديمقراطية الغرب واشتراكية الغرب أيضا والتي سكنت الشرق إلى حد كبير.. كل ذلك من خلال وعي عميق بطبيعة هذين النظامين ومواقفهما الأيديولوچية. لقد قدمت الثورة بما في ذلك سنوات الإعداد والتكوين تجربة فكرية وثيقة ومدروسة بقيادة مفكرين كالدكتور الشهيد علي شريعتي والشهيد آية الله مرتضي مطهري الذي بكى الإمام وهو ينعيه للأمة قائلا:«لقد كان مطهري ثمرة حياتي» وكذلك مفكرين كمحمد حسن طبطائي وبزرجان وأبو الحسن بني صدر وطالقاني وآخرين باركهم الإمام الخميني وهم يمهدون الطريق

أمام تقدم الثورة التي اعلنت افلاس تجارب القرون الأخيرة الماضية وعقمها وبشرت ببعث إسلامي جديد ومستقبل إنساني واحد.

٢ ـ التنظيمات

(أ) التنظيمات السياسية والنقابات:

لقد انتشرت هذه المنظمات في كل إيران وكانت في أغلبها إسلامية ولكن التنظيم الأشمل والأقوى والأكثر عراقة كان في المرجعية وفي الشكل الهرمي لتنظيم علماء الدين الذي يقف علي قمته مرجع التقليد الأعلى ـ الإمام الخميني في المرحلة الحالية ـ وفي حالة سقوط أو تهاوي أي تنظيم سياسي أو هروب جميع التنظيمات السياسية تحت الأرض كانت المرجعية تبقي الملاذ الأهم الذي لا يتزعزع، حيث بقيت المساجد التي لا يمكن هدمها أو غلقها مركزا للتأثير: التلقي.. والتوعية.. والثورة وأهمية المرجعية بالإضافة إلى تأثيرها الهائل على الجماهير يكمن في تمتعها بالاستقلال الاقتصادي وفعاليتها الاجتماعية، وكونها مؤهلة لتكون مستقلة دينيا وسياسيا.. وقد قامت التنظيمات السياسية بدور إعلامي كبير قبل وأثناء الثورة واستقطبت الكثير من المثقفين الإيرانيين واشرفت علي اصدار البيانات وشرح أفكارها في الداخل والخارج وتنظيم الإضرابات والدعوة والمشاركة في إعداد المظاهرات.

(ب) التنظيمات الثورية والمسلحة:

وكان لها دور كبير ومهم في تنفيذ برنامج وخطة الثورة وفي كسر حواجز الخوف لدى الجماهير، وكانت على جانب كبير من الدقة جعلت صحيفة عربية باريسية[المستقبل] تعترف في عددها ١٠٤ «ما هو سر هذا التنظيم الذي يكفي فيه أن يعطي الخميني أمرا بإجراء تظاهرة في يوم معين حتى يكون مليونا شخص ـ أكثر أو أقل ـ قد نزلوا إلى الشوارع في الموعد المضروب يهتفون كلهم بنفس الهتافات ويحملون يافطات متجانسة من حيث الشعارات ويسيرون معا في طريق واحد إلى هدف واحد». وعلق وقتها البروفيسور اليهودي موشيه شارون مستشار رئيس وزراء إسرائيل للشؤون العربية في حديث مع صحيفة يديعوت أحرونوت الإسرائيلية علق قائلا:[ما من قوة في العالم تضاهي قوة الإسلام.. من حيث قدرته

علـى اجتذاب وإثارة الجـماهير.. وهـو يشكل الـقاعدة الوحـيدة للحـركة الوطنـية الإسلامـية].. ولـقد كـان لهـذه التـنظـيمـات الدور الـرئيـسي فـي تجهـيز وإعـداد التظاهرات العنيـفة وتدمير المؤسسات السلطوية ومراكز الـنفوذ الأمريكية وضرب عملاء النظام وأركانه مما أثلج صدور الجماهير التي كانت ترى جلاديـها يتساقطون ودفعها للتقدم وكسر حاجز الخوف وهي ترى الانتقام يأتي سريعا.

وقد قامت هذه التنظيمات بمجملها بتفتيت الجيش ـ جدار الشاه الأخير ـ وذلك عن طـريق استـقطاب بـعض صغـار الضـباط والجنـود واغتيـال بعض الجنـرالات المدافعين عن النظام وتنظيم المظاهرات المليونية لشل حركته.

ونحن أخيرا لا ننكر وجود بعض التنظيمات غير الإسلامية التي أحاطها الإعلام الغربي بضجيج مفـتعل ولكننا نؤكد أنه لم يكن لها أي دور قيـادي أو تنظيمي فعال مقارنة بالدور الإسلامي.. بل إنها كانت تستـمد شرعيتها من ادعائها مساندة الإمام، إلى الدرجـة التي روى فيـها أحد زوار طهـران أن سائق تاكـسي كان يتـحدث عن الثورة وأجاب الزائر حين سأله عن هويته السياسية«أنا من حزب توده السائرين علي نهج الإمام»!!

النظرية الثورية:[الوجه الآخر]

في حين كان محور حركة الإخوان المسلمين كحركة رائدة في الوطن الإسلامي هو تـربية الـفرد وكـان محور الحـركة الكـبرى الأخرى ـ الجـماعـة الإسلاميـة في باكستان ـ هو مواجـهة التحدي الفكري فان محور الحركـة الإسلامية في إيران كان يدور حول فـكرة الجهاد بما يشـمله هذا المعنـي من تربية للـفرد ومواجهة للـتحدي الفكري. مـن هذا المنطلق تقـدمت الحركة الإسلامية فـي إيران في صياغة نظـريتها الثورية، والتـي جاءت منبثقة من الإسـلام كأصالة وتراث وتاريخ كمـا جاءت ثمرة سنوات طويلة من التطور السياسي والروحي والفكري:

١ ـ طرحت الحركـة الإسلامية بقيـادة الإمام الخميني فـكرة[الجمهورية الإسـلامية] منهية بذلك أزمنـة طويلة من الحديث عن القبول بإصلاحات دسـتورية بانتظار

عودة الإمام الغائب الذي سيملأ الأرض عدلا بعد أن ملئت ظلما وجورا«فقد تمر ألوف السنين قبل أن تقتضي المصلحة قدوم الإمام المنتظر». كما قال الإمام الخميني:[في طول هذه المدة المديدة هل تبقى أحكام الإسلام معطلة؟] ثم أجاب في النهاية[إذن فإن كل من يتظاهر بالرأي القائل بعدم ضرورة تشكيل الحكومة الإسلامية فهو ينكر ضرورة تنفيذ أحكام الإسلام ويدعو إلى تعطيلها، وهو ينكر بالتالي شمول وخلود الدين الإسلامي الحنيف]..«الحكومة الإسلامية في ٢٦،٢٧» وفي نفس الوقت وقف الإمام الخميني موقفا نقديا وواعيا من دستور سنة ١٩٠٦ عندما اعتبر أن العلماء قد تم خداعهم بإضافة عبارتين ذاتي صبغة دينية إلى نسخة مزيفة من الدستور البلجيكي.

٢ ـ انطلقت الحركة الإسلامية في إيران من خلال رؤية تحليلية للنظام وأدواره ووسائله ولمراكز القوى المؤثرة في المجتمع ومن خلال فهم علمي للواقع، رافضة الأفكار الهلامية المجردة التي تفصل بوعي وبدون وعي وحتميا بين التصورات الذهنية والعمل السياسي الثوري، وكانت تفهم بدقة معنى الآية الكريمة«والذين جاهدوا فينا لنهدينهم سبلنا..» ولهذا كانت تمزج بين الفكر والممارسة من خلال منظومة جدلية رائعة تخطو بالثورة إلى آفاقها المرجوة، وفي كل هذا كانت تتبنى مطالب الجماهير: حليفها الحقيقي بل جسدها.. كانت تنطلق من أوجاع الامة وتعبر عن آمالها وطموحاتها.

٣ ـ ولأن الإمام الحسين كان رمز الحركة وجذوتها المشتعلة فقد اعتمدت بوعي رؤيته للثورة والتزمت بها، وأعلنت أن الثورة عمل غير مؤجل وأن الوجوب فوق الإمكان، وأن مهادنة العدو والهروب من مواجهته حتى تكتمل ما تسمى بالقدرة المكافئة هو وهم يشل الحركة ويقتلها ويسمح للطرف الآخر بالنمو والتعاظم ويجعله دوما في الوضع الأفضل للانقضاض.

إن الذي يتعود النوم طويلا لن يملك الفرصة لتنمية عضلاته وبالتالي لن يتمكن من الحركة، ناهيك عن الحركة القوية الفعالة.. لقد فهمت الثورة أنها لن تنمو إلا بالصدام مهما كان الصدام بسيطا في البداية، نقول بسيطا حتى لا يفهم البعض أن المقصود هو المواجهة الشاملة منذ البداية.

٤ ـ لم يكن بالإمكان أن تتحول كل مسائل الثورة إلى فصيل واحد متجانس يحمل نفس الرؤية تجاه كل القضايا والجزئيات كما أنه لم يكن ممكنا تحقيق الانتصار في ظل الفوضى والانقسام.. ولهذا كان توجيه الإمام الخميني في النجف الأشرف منذ أكثر منذ أربع سنوات إلى قيام جبهة إسلامية واحدة تقف وراءها كل فئات الأمة، فشرط الانتصار كان مرهونا بقيام هذه الجبهة التي يتم التنسيق بين فصائلها لمواجهة العدو المشترك، بقي أن نشير إلى أن فصائل قليلة غير إسلامية وجهت بنادقها إلى نفس العدو ولكن الإمام الخميني لم يعلن تحالفه معها ولم يهادنها لأنه أولا يرفض منطلقاتها وثانيا يشك في نواياها وتوجهاتها وثالثا يحمل هو والجماهير المسلمة ذكريات أليمة عن التاريخ الأسود لبعضها، سواء حين خانت الجماهير وتحالفت مع الشاه أو حين كانت غطاء للنشاط الأمريكي أو حين أفشت أسرار بعض المنظمات الإسلامية واغتالت بعض قياداتها. وبقى الإمام الخميني قبل وبعد انتصار الثورة ينعتهم بأبناء الشيطان.

الثورة.. التأثير محليا.. إسلاميا.. دولياً:

لا يتسع المجال هنا للحديث عن كل جوانب وانعكاسات الثورة الإيرانية وسنكتفي بإلقاء الضوء على بعض الجوانب الحركية والفكرية.

١ ـ حققت الحركة الإسلامية في إيران ما فشل فيه الكثيرون من الإسلاميين وهو إيجاد حركة سياسية فعالة، قادرة على إسقاط النظام السياسي المقابل ومهما كان شرسا وقويا.

٢ ـ أسقطت من أذهان الجميع ـ خاصة مسلمي ومستضعفي العالم ـ ذلك الرعب من الدول والقوى الكبرى.

٣ ـ كما جاء الانتصار ليسقط الكثير من التبريرات والمفاهيم حول كيفية صياغة نظرية ثورية للحركة الإسلامية ويبرز مفاهيم جديدة مضيئة وبذلك قدمت للحركات الإسلامية في العالم رصيدا ضخما من التجربة والإبداع الحركي.

٤ ـ أسقطت مقولة استحالة قيام حكومة إسلامية في هذا العصر وأثبتت عمليا أنه لا يمكن قيام حكومة حقيقية وجماهيرية في منطقة الوطن الإسلامي إلا إذا كانت حكومة إسلامية شكلا ومضمونا، كما أسقطت الكثير من المقولات الفكرية التي كانت تطفو علي السطح بدءا بمقولات الماركسيين إن الدين أفيون الشعوب ورجعية رجال الدين وبقية المسلمات والبديهيات الماركسية!!! وانتهاء بمقولة بريجنسكي عن انتهاء زمن الثورات الشعبية.

٥ ـ طرحت مفهوم وحدة المسلمين[الجامعة الإسلامية] من خلال مفاهيم سياسية واضحة بعد عقود طويلة من التغريب وانزواء هذه الفكرة إلى الظل.

٦ ـ قدمت نموذجا ونمطا حضاريا جديدا للبشرية جمعاء بعد إفلاس كل قيم الشرق والغرب.. حتى أن المفكر الفرنسي الشهير روجيه جارودي يصرح «الثورة الإسلامية في إيران، تقدم نموذجا جديدا لتنمية الإنسان والمجتمع يتلاءم مع التراث الروحي لشعوبها، وهو سر كراهية الغرب لها» ويقول في موضع آخر «لقد وضع الخميني نمط النمو في الغرب في قفص الاتهام».. «الخميني أعطى حياة الإيرانيين معنى». كما يقول البروفيسور الأمريكي ريتشارد كوثام أستاذ العلوم السياسية في جامعة بتشبرج بعد مقابلته للإمام في باريس: «الخميني يدعو إلى إسلام اجتماعي، وإن الشعب يجب أن يحصل على حريته من أجل تطوير شخصيته الوطنية».

السنة والشيعة.. ضجة مفتعلة

في الوقت الذي كان الإمام الخميني يعلن «طالما أن صيحة لا إله إلاالله محمد رسول الله لاتجلجل في كل أذن من هذا العالم فسيبقى هناك نضال.. وحيثما كان نضال ضد المستكبرين سنكون موجودين». في هذا الوقت كان الصهيوني القذر هنري كيسنجر يصرح «الثورة الإيرانية مأساة بالنسبة للغرب» وكان بريجنسكي يعلن في ولاية كولورادو الأمريكية «إن انبعاث الإسلام يهدد الاستقرار في الخليج الفارسي.. إن واجب الولايات المتحدة أن تتخذ الخطوات المناسبة وأن تعد الخطط طويلة الأمد لتمنع انتشار الثورة الإسلامية وتحفظ الأمن والاستقرار في المنطقة»!!

وهكذا فالغرب ضد إسلام التغير الاجتماعي الثوري الذي يجمع المسلمين ويوحدهم علي طريق الأمة الواحدة القوية والمستقلة، ومع إسلام شاه إيران وضياء الحق والملك الحسن الذي صرح للتليفزيون الفرنسي بوقاحة تليق بأمير مؤمنين مزيف مثله: «إن كان الخميني مسلما فأنا ملحد».. الغرب مع إسلام هؤلاء وغيرهم من عملائه الذين يروج لإسلامهم المتفتح وغير المتعصب!! ولهذا يتحرك دون كلل على أكثر من مستوى لضرب الثورة، وإحداث هذه الضجة المفتعلة حول خلاف السنة والشيعة والتي ينفخ في نارها صباح مساء، ونحن بداية نطرح أمام سكان الوطن الإسلامي السؤال التالي: الذين يهاجمون الثورة الإيرانية هل يفعلون هذا لكونها إسلامية أم يفعلونه لكونهم يسمونها شيعية؟

إن كانوا من الصنف الأول أي أعداء الإسلام فقد كفونا عناء الرد عليهم في مثل هذا المقال.. أما إن كانوا من الصنف الثاني فإنا والله لا نجد لهم يوما في التاريخ الإسلامي نستطيع ان نجالسهم فيه.. لأنهم سيبقون دوما خارج هذا التاريخ سواء بالمفهوم الزماني، أي إذا كان زمانهم ما قبل بعثة محمد عليه أفضل الصلاة والسلام، أم بالمفهوم السياسي والثقافي ونقصد إسلامهم ـ غير واعين ـ بعملية غسيل المخ التي يشرف عليها الغرب وهنا نطرح سؤالا آخر.. ألا يدري هؤلاء أن شقة الخلاف بين المعتزلة وأهل السنة هي أشد من تلك التي بين السنة والشيعة، ومع ذلك لم نسمع عن فقيه إسلامي أفتى بعصيان أمير المؤمنين إن كان معتزلا [المأمون مثلا كان معتزلا] وكان الأصل هو السمع والطاعة لمثل هذا الأمير حتى لو كبل أحمد بن حنبل (رضي الله عنه) بالقيود وجلده بالسياط وألقاه في غياهب السجن.

ولقد ناقشت المختار الإسلامي (عدد ١٠) جوهر الخلاف الفقهي بين جناحي الأمة السنة والشيعة ونود هنا أن نطرح الموضوع من زاوية أخرى.

في الوقت الذي رأي فيه الإمام الخميني وحدة قوى الشر في العالم رأي أيضا ووضع نصب عينيه وحدة الأمة الإسلامية.. ولهذا كان من بين هتافات الثورة [لا شيعية ولا سنية. ثورة.. ثورة إسلامية].

وعندما وصل إلى باريس وسئل عن أصول الثورة قدم الإمام رؤيته الثورية الفذة«إن السبب الذي قاد إلى انقسام المسلمين إلى سنة وشيعة يوما ما لم يعد قائماً اليوم.. كلنا مسلمون.. هذه ثورة إسلامية.. نحن جميعا إخوة في الإسلام».

وعندما توجه الحجاج الشيعة إلى مكة أمرهم أن يفعلوا كما يفعل علماء السنة قائلا:[افعلوا كما يفعلون حتي لو اعتقدتم أنه خطأ.. يجب أن تتبعوهم] وعندما انعقد الملتقى الرابع عشر للفكر الإسلامي في الجزائر وقف الأستاذ السيد خسرو شاهي ممثل الإمام ليقول[.. الأعداء أيها الإخوة لا يفرقون في ذلك بين سني وشيعي.. إنهم يريدون القضاء على الإسلام كفكرة وأيديولوجية عالمية ولذا فإن أي دعوة أو عمل لتفريق الصفوف باسم السنة والشيعة يعني الوقوف إلى جانب الكفر ضد الإسلام والمسلمين وهي بالتالي كما أفتى الإمام الخميني حرام شرعا وعلى المسلمين التصدي لها].

ويروي المفكر الباكستاني المسلم كليم صديقي أنه عندما كان مع مجموعة من المسلمين العام الماضى في طهران بينهم مولانا مفتي محمود، يقول الدكتور صديقي«بقى مفتي محمود في ساحة المسجد الخارجية عندما حضر وقت الصلاة ربما ليتجنب الصلاة خلف عالم شيعي، وفي الداخل كان علماء الشيعة يقدمون عالما سنيا ليؤم الجمع في الصلاة»!!

وفي التليفزيون الإيراني كانت تعقد الندوات لشرح أفكار الإمامين الشهيدين حسن البنا وسيد قطب والحديث عن دورهما الرائد في الحركة الإسلامية.. وقرأت إذاعة طهران علي مستمعيها النص الكامل لكتاب سيد قطب الهام«معالم في الطريق» على حلقات.. وعلى الجانب الآخر نجد العلامة أبو الحسن الندوي يصرح لمجلة الاعتصام[محرم ١٣٨٩] في حديث له عن التقريب بين السنة والشيعة قائلا«وإذا تم هذا العمل ـ يقصد التقريب ـ سوف يحدث انقلابا لا يوجد له نظير في تاريخ تجديد الفكر الإسلامي». وفي مجلة الدعوة (عدد ٣٩ « أغسطس ٧٩» أجاب مولانا أبو الأعلى المودودي على سؤال لمجلة الدعوة عن رأيه في الإمام الخميني والثورة الإيرانية فيما يمكن اعتباره فتوى يصدرها عالم مجتهد أجمعت

الحركة الإسلامية على أنه واحد من أبرز روادها في هذا القرن أجاب قائلا«وثورة الخميني ثورة إسلامية والقائمون عليها هم جماعة إسلامية وشباب تلقوا التربية في الحركات الإسلامية وعلى جميع المسلمين عامة والحركات الإسلامية خاصة، أن تؤيد هذه الثورة كل التأييد وتتعاون معها في جميع المجالات».

أما الذين يهمهم أن يستمعوا إلى رأي الازهر فهذا شيخ الأزهر يعلن وعلى صفحات صحيفة«الشرق الاوسط» ٢/ ٢/ ١٩٧٩[الإمام الخميني أخ في الإسلام ومسلم صادق] ثم يقول«إن المسلمين باختلاف مذاهبهم إخوة في الإسلام والخميني يقف تحت لواء الإسلام كما أقف أنا».

وأخيرا هذا هو موقف الإخوان المسلمين في بيان أصدره تنظيمهم الدولي موجها إلى الشعب العراقي حول الحرب الدائرة.. يقول البيان «إن هذه الحرب ليست حرب تحرير للمستضعفين من الرجال والنساء والولدان الذين لا يملكون حيلة ولا يهتدون سبيلا، فشعب إيران المسلم قد حرر نفسه من الظلم والاستعمار الأمريكي والصهيوني في جهاد بطولي خارق وبثورة إسلامية عارمة فريدة من نوعها في التاريخ البشري وتحت قيادة إمام مسلم هو دون شك فخر للإسلام والمسلمين».بعد كل هذا هل يمكن أن يعي المسلمون بشكل عام وجماهير الحركة الإسلامية بشكل خاص ما يحاك لهم، هل يمكن ان ندرك أي شيطان هذا الذي ينفخ في نار الخلاف كي تستمر التفرقة بين الشعوب الإسلامية.. وليتم عزلها بحيث تواجه في النهاية جلاديها وهي منفردة. إن القوى الشيطانية تريد ضرب الثورة التي من خلالها نكتشف كيف إن استلهام الإسلام يمكن أن يخلق تغييرا جذريا وحقيقيا في واقعنا السياسي والاجتماعي وفي واقع المنطقة والعالم بأسره لصالح القوى الإسلامية والمستضعفين.

الحرب الإيرانية ـ العراقية:

«أيها الإيرانيون.. يا من كنتم تطمحون بتصدير ثورتكم.. نعتقد أن الوقت لم يعد حتى مناسبا. ولم يعد كافيا لإخراج الأعداء من بيوتكم!» يبدو أن هذا هوحال الشيطان الأكبر«أمريكا» التي تقف وراء كواليس الحرب تفرك يديها سرورا وتخرج

لسانها بعد أن أرسلت صدام حسين ليناوش الإمام رمز الإسلام.. نعم هذا هو جوهر الحرب.. فالقوى الشيطانية التي هالها وأفزعها انطلاقة شعب مسلم ومستضعف وتمرده علي هيمنتها وجبروتها، تريد أن تعاقب شعب إيران على حيويته وثورته واندفاعه. تريد إذلاله ليبقى عبرة لكل الشعوب التي ستختار طريق الاستقلال الحقيقي.. والتي ستحاول النهوض من كبوتها.. ويريدون هذا الشعب المسلم متألما صارخا.. بائسا وسط الدمار ووسط الحرائق التي تطوع هذا الصدام بإشعالها لهم.. يريدون رأس الثورة بأي ثمن.. فهل يعقل أن تشتعل النار في منطقة تزود العالم بثلثي احتياجاته البترولية بينما يقف هذا العالم مكتوف الأيدي، بل ومبتسما، لقد ملأوا مخازنهم البترولية بشكل جنوني قبل اندلاع الحرب التي لم تحدث أي تغير حقيقي في سعر البترول بينما كانت حرب بين دولتين غير بتروليتين كحرب أكتوبر كافية لمضاعفة الأسعار فورياً!!.

حتى الذهب الذي تعود أن يهتز أمام حوادث الاختطاف العادية استقر بقدرة ساحر وكأن لم يحدث شئ يزعج العالم، أما الاضطراب المالي الذي صاحب حركة البنوك في الخليج مع بدايات الحرب، فقد كان يصب في شريان الحضارة الغربية مزيدا من الدم ومزيدا من الترف، ولقد فعلوا كل شئ بحيث تسقط الثورة(!) ولا تتوقف مصانعهم عن الحركة، ولا يموت أبناؤهم من البرد، ولهذا وجدنا بريجنسكي يعلق في التليفزيون الأمريكي(٩/ ٥/ ٨٠) على موضوع أمن الخليج قائلا: «إننا لا نرى أي تضارب في الفهم حول أمن الخليج بين الولايات المتحدة والعراق»... ووجدناهم يرسلون بيل ايجلتون كقائم بالأعمال الأمريكية في بغداد ليقوم بدور مهم في هندسة الدور العراقي بعد أن قام بأدوار مهمة أخرى وبفعالية في موريتانيا وليبيا وعدن.

أما على الجانب المحلي فالنظام العراقي الذي تنازل في اتفاقية الجزائر عما يسميه الآن حقوقه الوطنية يفهم بحكم تركيبته الطاغوتية والذيلية للاستعمار.. مدى خطورة الانبعاث الإسلامي وتأثيراته الثورية على المنطقة ولذلك يريد أن يستغل ما اعتقده فترة ضعف وفرصة قد لاتتكرر لضرب وإسقاط ـ أو على الأقل تحجيم ـ

هذا المد الإسلامي الثوري.. إضافة إلى رغبة صدام حسين في أن يصبح Mini Super Power[قوة عظمى محلية] في المنطقة..

وتمر الشهور ولا يستطيع هذا الصدام الغارق حتى أذنيه في مستنقع الحرب أن يعيد ما أسماه بحقوقه الوطنية بل هو مستمر في قتال نظام إسلامي أسقط الشاه حليف إسرائيل الاستراتيجي، وضرب مصالح إسرائيل وطاردها في كل مكان ووقف بكل ثقة مناصراً لقضية العرب المركزية: فلسطين، كما أعلن منذ اليوم الأول أن على قمة همومه الإسلامية مواجهة أمريكا[في الوقت الحالي فإنه على قمة قضايانا الإسلامية تأتي المواجهة مع أمريكا] فأين الخدمة التي يقدمها نظام البعث ـ بعد ذلك ـ لقضايا العروبة التي يزعم تبنيها، اللهم إن كان إعادة النفوذ العسكري الاقتصادي الامبريالي إلى المنطقة بهذا الشكل القوي والخطير هو حماية للأخوة العرب كما يقول آخرون غيره!!

أما قضية عنصرية الفرس أو الإيرانيين فليست أكثر من مهزلة اعلامية ومزحة سخيفة ساقطة، فالذين حولوا الإمبراطورية الشاهنشاهية إلى جمهورية إسلامية وتخلصوا من كل الرموز الفارسية والساسانية وأحلوا محلها آيات القرآن والأحاديث الشريفة، الذين يهاجمون الأحزاب القومية والعلمانية والذين صرخوا في وجه الإنجليز[أيها الكلاب أخرجوا من بلادنا] في حين كان والد صدام حسين يعمل خادما في السفارة البريطانية في بغداد.. هؤلاء ليسوا عنصريين.. هؤلاء ليسوا أحفاد رستم ياعدو سعد ودين سعد.. ولو أردنا أن ننتقل بالحوار إلى مستوى آخر لقلنا لك إن الإمام الخميني وأبو الحسن بني صدر ليسا فقط من أصل عربي ولكنهما أيضا ينتميان إلى بيت النبوة العظيم.

أما الذين يتساءلون متى تنتهي الحرب فنقول لهم أن الاستعمار يريدها طويلة منهكة، والله سبحانه وتعالي يريد لدولة الإسلام أن تعيد بناء نظامها الاجتماعي والسياسي تحت وهج الحرب كما حدث لدولة صدر الإسلام، فلا تقلقوا واستمعوا لهذا الصحفي اليوناني جورج مارقس يقول:[ما شاهدته في طهران والمدن الإيرانية الأخرى اثر في بشدة وجعلني أجرؤ على القول إن العراق لن

تكسب هذه الحرب أبدا حتى لو حرك[....] كل الجيش(...) ولو قدم الاتحاد السوفيتي مزيدا من طائراته الحربية لصدام حسين] ثم استمعوا لأحد شباب حرس الثورة يقف في ديزفول بين أطلال المساجد والمدارس والمستشفيات التي دمرها البعث وهو يقول«إننا مصممون على الدفاع عن المدينة حتى آخر قطرة من دمائنا.. سنتشبث بهذه الأرض بأظافرنا.. يمكنهم تدمير كل شيء، ننام في العراء وتحت الخيام.. لكننا سنعود لنبني كل شيء».

الرهائن.. والعار الأمريكي:

كلما وددت الكتابة في موضوع الرهائن يبرز أمامي وبسرعة حال الصحافة العربية.. والتي لا تليق فعلا بأمة على وجه الأرض.. كل الصحافة الهارب منها قبل المرابط.. الهارب إلى باريس ولندن بحثا عن الحرية كما يزعم، وفي حقيقته يهرب من عشيق مسلح إلى عشيق بترولي ثرى يدفع أكثر في مقابل جماهير الفقراء المقهورين الذين تتحدث افتتاحيات هذه الصحف عن تنويرهم وتوعيتهم!!.. طبعا في جلسات الأفيون والحشيش والعربدة على الصفحات الباقية، أما الصفحات المرابطة، ونقصد في القصور الجمهورية والبلاط الملكي فرائحتها تزكم الأنوف[والضرب في المسطول حرام].. أقول هذا لأن هذه الصحافة كانت تمتهن الحرف العربي حرف القرآن المقدس وتتكلم بحقد شديد دونه حقد كارتر وريجان وهي تتكلم حول قضية هؤلاء الجواسيس الذين عاثوا فساداً وفتنة داخل إيران قبل أن يحتل الطلبة السائرون على نهج الأمام وكرهم المقام على مساحة ٣٥ فدانا كاملة..في عملية بطولية على طريق التصفية النفسية العامة التي ستقود الألم.. على طريق تحرير عقول الجماهير من وهم الكبار الذي يجثم على أرواح المستضعفين.. هذه السفارة «التي لم يتصور الناس أنه يمكن حتى قذفها بحجر» كما قال الإمام الخميني، هذه السفارة التي كانت تختار أسماء أعضاء البرلمان الإيراني أيام الشاه الذي كتب يقول بعد سقوطه [إن قائمة أسماء أعضاء البرلمان كانت تقدمها لنا أمريكا عن طريق سفارتها.. وكان علينا اعتمادها]، هذه الثورة التي رغم اشتعال الثورة وسوء العلاقات مع أمريكا وما أسموه بالفوضى وغياب السفير نفسه، كان

فيها يوم الهجوم عليها أكثر من سبعين جاسوسا! [٦ هربوا عن طريق سفارة كندا، ١٢ أفرج عنهم منذ البداية، اضافة إلى الـ ٥٢ الآخرين].. ونحن لا نقول جواسيس جزافا.. لا.. فهذا الاستاذ فتحي رضوان ينقل في صحيفة الشعب(٢٧/ ١/ ٨٠) عن صحيفة فرنسية أنها نشرت أسماء الجواسيس الاثنين والخمسين وأمام اسم كل منهم الجريمة أوالجرائم التي ارتكبها ضد إيران، وهذه النيوزيك الأمريكية في عدد ٢ فبراير ١٩٨١ تقول ما نصه الحرفي«كانت واشنطن تخشى أن يكشف الطلبة(المتطرفون !) عن العمليات التجسسية للرهائن وتتم محاكمتهم».

وبعد كل هذا يطلع علينا أنذال ومهرجون وحتى أصحاب عمائم ليلقوا علينا موعظة«الأساليب الإنسانية في معاملة البعثات الدبلوماسية» خاصة إن كانوا رسل حضارة وأبناء للسيد الأمريكي الذي لا يسئل عما يفعل!، بينما هم غافلون تماما عن التعذيب الوحشي الذي تعرض له الطلبة الإيرانيون في الشوارع والسجون الأمريكية في نفس وقت احتجاز الجواسيس.. غافلون عن أن طالبا مسلما عمره ٢١ عاما واسمه«محمد رضا شمس تبريزي» قبض عليه بوليس أوكلاهوما ثم سلمت جثته بعد ١٤ ساعة!! ليدعي مكتب التحقيقات الفيدرالية بعد ذلك أن هذا الشاب المخلص المتدين قد انتحر!!.. وعندما خرج الطلبة الإيرانيون في لندن متظاهرين من أجل اطلاق سرح إخوانهم في أمريكا كشف البوليس البريطاني عن أسنانه القذرة التي طالما نهش بها جسدنا الإسلامي حتى أنه كسر في أحد شوارع المدينة العريقة!! كسر العمود الفقري لفتاة مسلمة دمها أعز علي الله من كل مملكتهم الكافرة المستكبرة.

ومع ذلك لم يتكلم أحد إلا عندما أعلنت أمريكا أن ١٢ رهينة من بين ٥٢ آخرين قد تعكر مزاجهم النفسي من إثر الاحتجاز مع أن الاحصائيات الامريكية الرسمية تشير إلى أن ٢٥٪ من الشباب الامريكي يعانون من أمراض نفسية.. لقد فعلت أمريكا كل ما في وسعها لإطلاق سراح جواسيسها بدءا بالغزو الفاشل إلى دفع صدام حسين لضرب الثورة مرورا بمحاولات الانقلابات المتكررة وبعمليات الحصار والمقاطعة الاقتصادية وعندما فشلت وأوشك أن يأتي إلى البيت الأبيض

هذا الريجان في تمخض الجبل ولا نجد إلا فأرا تنكشف المسرحية التي تؤلفها وتخرجها مجموعات الضغط الصناعية في أمريكا والغرب لتخويف العالم ببلطجي قضي ليلة تنصيبه الأولي بطريقة تليق بزعيم أكبر قوة شيطانية في الأرض، قضاها راقصا في تسع حفلات.. ومخمورا إلى ساعة متأخرة من صباح اليوم الثاني حسب رواية مراسل مونت كارلو في واشنطن.

قبل أن ينكشف ما يجب ستره استنفرت أمريكا كل قواها.. مدراء بنوكها.. خبراء المال فيها.. حتى أن النائب الأول لوزير خارجيتها قرر الإقامة في الجزائر إلى أن تنتهي القضية.

وإذا كانت عملية احتجاز الرهائن تضيف مجداً جديدا وفخرا لثورة الإسلام والمستضعفين فإن لحظة إطلاق سراحهم كانت تمثل إنجازا ثوريا رائعا..فقد فعلها الإيرانيون في وقت لم يكن في أمريكا سلطة رسمية أو رئيس دولة كأنهم يقولون لكارتر.. نحن لا نخاف من نارك وإلا كنا سلمناك الرهائن قبل أيام أو أسابيع وكأنهم يقولون للبلطجي الجديد: لا نطمع في جنتك وإلا كنا سلمناك الرهائن بعد استلامك السلطة لتهنأ بالمجد!!

بقيت كلمات قليلة نقولها للذين يدعون الإشفاق علي الثورة والخوف من عزلتها.. كلمات قالها الإمام للطلبة السائرين على نهجه«إننا لم ننهض للثورة من أجل أن نملأ بطوننا، ولهذا فإنهم لن يستطيعوا أن يسكتونا عندما يهددون بفرض المجاعة علينا.. لقد نهضنا من أجل الإسلام كما فعل محمد ﷺ في صدر الحركة الأولي.. ولم نعان شيئا بالمقارنة بما عاناه وواجهه الرسول ﷺ».. بل إنه يقول لهم[طالما أنكم لستم معزولين فإن أدمغتكم لن تعمل].

كلمة أخيرة:

أيها المسلمون.. في يوم ما وقف حفيد الرسول الأعظم.. الحسين بن علي ليطلق صيحته التي ذهبت في الزمان حجة خالدة [ألا هل من ناصر ينصرنا.. ألا هل من ناصر ينصرنا]..

لبيـك يا سيد شباب أهـل الجنة لبيـك يا ابن بنت رسول الله، والله لا يـخذلك إلا جاهل.. إلا حاقد.. إلا عدو لجدك ودين جدك عليه أفضل الصلاة والسلام.

لبيـك ولينقض الـشيطان الأمريكي ما شاء.. ولـينقض الشـيطان الروسـي فهذه أرض الله.. إرث للـمستـضعـفين.. وطالما أن باب الموت مـفتـوح فلن يمـروا.. لن يمروا.. لن يمروا.

اللهم ها قد بلغت.. اللهم فاشهد

الدراسة الثامنة (*)
معالـــم فــي الطريـــق
للشهيد سَيد قطب(**)

كانـت الجماهيـر تبحـث عنه كخـبزها الـيومي، وكان ورثـة البولـيس السيـاسي يطاردونه كشبح يقـض مضاجعهم، كان الشباب المؤمن يحملـونه تحت ثيابهم.. في جيوبهم وتحت وسائـدهم، وكانت الصحافة المأجورة تنشر صـورته(مطلوب حيا أو ميتـا) كأنه عبد الله النـديم أو أي بطل وطني مطـارد، كان المؤمنون يـتناقلون كلـماته همسا، وكان صوت المذيـاع الفاجر يتوعد من شاهده ولم يبلغ بـالويل والثبور.. إنه واحد من أخطر الكتب الإسلامية في القـرن الأخير، كان ولا يزال وسيبقي إلى فترة طويلـة من أشد الكـتب تأثيـرا على مسيرة الحركة الإسـلامية في هـذه المنطقـة. إنه الكتاب الذي قتل رجلا كتبه، وأحيا جيلا تربي عليه.. إنه«معالم في الطريق» آخر ما كتب الإمام الشهيد[سيد قطب].

وسيد قطـب واحد من ثلاثة مفكـرين يشكلون مثـلثا خيرا في الفـكر الإسلامي الحديث في النـصف الثاني للقرن العـشرين.. الآخران هما المفكر الجـزائري المسلم مالك بـن نبي والدكتـور الشهيد عـلى شريعـتي مفكر الـثورة الإيرانية الـفذ، ذهب ثلاثتهم إلى الغرب المسكون بحمى العداوة للإسلام فكانت رحلتهم نقيضا لآخرين سبقـوهم، فالأزهري المـعمم رفاعـة الطهطـاوي عاد من باريـس مذهولا من«عـربة الرش»، والشيـخ طه حسين وقف عاجزا ومهـزوما أمام الشك الديكارتـي، أما سيد قطب فقد اكتشف حـسن البنا وآمن بأفكاره عندما كان في قـلب أمريكا، وكان على

(*) المصدر: المختار الإسلامي ـ العدد(٢٢) ـ السنة الثانية ـ ابريل ١٩٨١.

(**)قمنا بتبويب هذه المراجعة الوافية والمحيطة لـكتاب(معالم في الطريق) ضمن الـدراسات، نظراً لأن المجهود المبـذول فيهـا والمنهـج المستـخدم مع الـتحليـل وشمولـية النـظر يضـعها فـي مصاف الـدراسة العـلمية في كتاب(معالم في الطريق) وليـس فقط(المراجعة)

(معد الكتاب)

شريعتي يقف في «الكوليج دي فرانس» يكتشف ذاته ويكشف الآخرين بشكل معجز.. كان يصيح في وجه البروفيسور الكبير داخل قاعة المحاضرة «من أجل أن يشبع عاملكم وصاحب عملكم سلبتمونا كل ما نملك وأبقيتمونا جياعا». أما مالك فقد أمضى في أوربا أكثر من ثلاثين عاما. لم يكن فيها مبهورا من نظافة الشوارع ولا عاجزا أمام نظريات علم الاجتماع، بل متأملا يحلل. ويضع «شروط النهضة» للمجتمع الإسلامي القادم، ولم يكن بين الثلاثة رجل دين واحد فقد كان سيد قطب أديباً وناقداً قال عنه أستاذ للأدب في الجامعة الأمريكية في بيروت «لو لم ينحرف سيد قطب إلى السياسة لكان مدرسة فريدة في النقد الأدبي الحديث»، وكان علي شريعتي عالما في الاجتماع، أما مالك فكان مهندسا كهربائيا تخرج من كبريات المعاهد العلمية في باريس

في منتصف الستينات كانت العلمانية في الوطن الإسلامي تصل إلى ذروة طغيانها وجبروتها، بل إن واحدا من أهم رموزها «عبد الناصر» كاد.. بل توج فعلا كنصف إله.. في هذا الوقت بالذات كان الإمام الشهيد سيد قطب يفتح كتابه «معالم الطريق» معلنا إفلاس كل من الديموقراطية الغربية والاشتراكية الماركسية التي تراجعت كأيديولوچية وانحصرت في الدولة وأنظمتها، كان يعلن إفلاس هذه الانظمة وإفلاس «الوطنية» و«القومية» أو العلمانية التي صدرها الغرب إلي الوطن الإسلامي.. وكان إعلان الإفلاس هو طريق البداية.. بداية رؤية جديدة وقيادة جديدة للبشرية، ولكن الإفلاس لم يكن في الجانب المادي بل في خسارة الغرب لرصيد «القيم» الذي كان يؤهله لقيادة البشرية، ولا يملك أحد غير الإسلام تقديم قيم صالحة وفعالة ومنهج ماض.. إن دوره يجيء والبشرية في أشد الساعات حرجا واضطرابا، ولكن كيف يمكن أن يؤدي دوره وهو الذي لا يتمثل اليوم في مجتمع أو أمة وليس أكثر من عقيدة مجردة، إن الطريق يبدأ بإعادة الوجود للأمة التي ستقود العالم، وإعادة الوجود يتطلب بعث الأمة وتحريرها من ركام الأجيال والتصورات وركام الأوضاع والأنظمة التي لا صلة لها بالإسلام.. ولكن المسافة بين

محاولة«البعث» وتسلم«القيادة»مسافة شاسعة لأن الأمة غابت طويلا عن الوجود والشهود ولأن البشرية لا تفرط بسهولة في العبقرية الأوروبية التي أبدعت علما وثقافة وأنظمة وإنتاجا ماديا، وخاصة أن ما«يسمى بالعالم الإسلامي»يكاد يكون عاطلا من كل زينة..«ولكن لابد مع هذه الاعتبارات كلها من البعث الإسلامي مهما كانت المسافة شاسعة بين محاولة البعث وبين تسلم القيادة، فمحاولة البعث الإسلامي هي الخطوة الأولى التي لا يمكن تخطيها»..[العبارة الأخيرة أستندت إليها المحكمة أثناء محاكمة الإمام الشهيد].

إننا نتقدم لقيادة البشرية ونحن نحمل مؤهلا آخر غير الإبداع المادي الذي يجب أن نحاول فيه جهدنا كضرورة ذاتية.. والمؤهل الذي نحمله هو العقيدة والمنهج وأن تتمثل هذه العقيدة والمنهج في مجتمع مسلم يتحرر فيه الناس من عبادة بعضهم البعض بعبادة الله وحده والتلقي من الله وحده، ولكن كيف تبدأ عملية البعث؟. لابد من طليعة تعزم العزم وتمضى في الطريق.. لابد لهذه الطليعة من نظرية ثورية أو كما أسماها«معالم في الطريق» ويكون منوطا بهذه المعالم أو النظرية الثورية تحديد:

١ ـ منظلقات هذه الحركة الطليعية[نقطة البدء في الرحلة الطويلة]..

٢ ـ أهدافها[صلب غايتها].

٣ ـ تحديد وسائلها ومراحل حركتها [أين تلتقي مع الناس وأين تفترق.. كيف تخاطب هذه الجاهلية بلغة الإسلام وفيم تخاطبها؟].

٤ ـ تحديد مفاهيمها، خصائصها، طبيعة دورها ووظيفتها، وكذلك تحديد شكل النضال ضد الجاهلية القائمة [كما تعرف طبيعة موقفها من الجاهلية].

٥ ـ رؤية تحليلية للنظام القائم وأدواته ووسائله ومراكز القوي المؤثرة فيه [خصائص الجاهلية من حولها].

وهذه النظرية الثورية أو المعالم لابد أن تنبثق من القرآن وتوجيهاته وحركة جيله الأول الذي رباه محمد ﷺ.

وبعد أن يتساءل عن ظاهرة عدم تكرار ذلك الجيل الصحابي يطرح أسبابا ثلاثة مهمة:

١ ـ صفاء النبع القرآني صنع الجيل الأول، واختلاط النبع كان يرافق ثقافة وتصورات الأجيال التالية.. والمقصود بصفاء النبع هنا هو التلقي عن القرآن في التصور والمنهج، وليس المقصود ما تصوره البعض من عزلة عن المناهج الأخرى وعدم اطلاع عليها. فعمر رضي الله عنه عندما كان يقرأ في صحيفة من التوراة لم يكن يطلع فقط وإنما كان يبحث عن حل لمسألة واجتهد في وقت لم يكن فيه التشريع قد اكتمل بعد، والرسول ﷺ لم ينهه عن الاطلاع وإنما نهاه عن الاتباع «لو كان موسى حيا بين أظهركم ما حل له إلا أن تبعني».. والاطلاع والمعرفة لا يوجب الاتباع وإنما البحث عن حل لمسألة هو الذي يقود لذلك.. ويؤكد هذا قول الشهيد في فصل«التصور الإسلامي والثقافة»:«إنه [المسلم] قد يطلع على كل آثار النشاط الجاهلي»، وسنشرح هذا في حينه.

٢ ـ منهج التلقي للتنفيذ صنع الجيل الأول، ومنهج التلقي لمجرد الدراسة والمتاع والمعرفة والثقافة خرج الأجيال التالية.

٣ ـ كانت لحظة إسلام إنسان الجيل الأول تعني تحولا حقيقيا لعهد جديد حيث تقوم العزلة الشعورية الكاملة بين حاضر المسلم وجاهليته، ليس بمعنى عزلة التعامل اليومي ولكن بمعنى الانخلاع من عرف الجاهلية.. قيمها، تصوراتها وعاداتها.. الانخلاع من الولاء لها ولقيادتها.. والولاء للتجمع الإسلامي الجديد ولقيادته.. ولأن ثقافة الناس اليوم غير إسلامية.. كذلك تصوراتهم.. تقاليدهم.. فنونهم.. آدابهم.. شرائعهم وقوانينهم فإن على الطليعة التي ستواجه الجاهلية[الجاهلية ليست مرحلة زمنية مرت ولكنها أوضاع اجتماعية وثقافية وسياسية ترفض الاهتداء بهدى الله وتستبدل بهديه شرائع الطواغيت].. على هذه الطليعة:

١ ـ التجـرد في فترة الحـضانة والتـكوين من مـؤثرات الجاهلـية [ومرة أخرى لـيس التجـرد هنا هو الجهل وعـدم معرفة العالـم.. العالم الذي سـنتجاوز تناقـضاته ونهديه سواء السبيل، ان هذا التصور الساذج خطأ وخطر في آن واحد، كما إنه في النهاية مستـحيل!]، إن التجرد يعني رفض قيم الجاهلـية(التي عرفناها) وأن نستمد تصورنا من النبع القرآني الخالص الذي لم تشبه شائبة.

٢ ـ التعامل مع آيات القرآن وكأنها تتنزل الآن من خـلال منهج التلقي للتنفيذ وليس مجرد الدراسة، وهذا هو الأسلوب الأمثل لنمنع تحول الإيمان إلي نزعة فردية، ونبقيه وهجا وقوة وفعلا.. أي روح قرآنية تمارس دوما التركيب المبدع.

٣ ـ مقاومة ضغوط المجـتمع الجاهلي.. رفض تصوراته.. تقالـيده.. قيادته.. ورفض الاصطلاح مع واقعه..

٤ ـ أن تفهم هذه الطليعة ان هذا الواقع الجاهلي يناقض المجتمع الإسلامي ويحرمها بالقـهر من تطـبيق منهـج الله في حياتهـا، وبالتالـي فليس أمامـها إلا تغيـيره من أساسه، وبداية فهذا يتطلب:

(أ) الاستعلاء على قيمه وتصوراته.

(ب) ألا تتنازل عن قيمها ولا تعدل فيها لتلتقي معه في منتصف الطريق.

(جـ) أن تستعد لتقديم التضحيات الباهظة.

* * *

ثلاثة عشر عاما كاملة والقرآن يقرر في نفـوس المسلمين حقيقة الألوهية وحقيقة العبودية والعـلاقة بينهما.. إنها قضـية الإنسان الخالدة لأنها قضيـة الوجود الإنساني والمصير الإنساني على توالي الأزمان، ولكن لماذا بدأ بهذه القضية: إخلاص العقيدة لله متمثلة في لا إله إلا الله رغم العناء الشديد الذي واجهته الحركة بسبب طرحها:

× ألـم يكن أسهـل على محمد ﷺ أن يبعثـها قضية قومية تحرر الأرض الـعربية من الروم والفرس فيقف وراءه العرب ـ بدلا من أن يضطهدوه ويعذبوه ـ ثم يطرح

قضية التوحيد في النهاية! كلا.. إن الله يعلم أن هذا ليس هو الطريق لتحرير الإنسان، هذا الطريق الذي يبدأ بأن تتساوى جميع الأجناس تحت راية الله وتصبح جنسية العقيدة هي جنسية البشر، إن الله يعلم أن الطاغوت هو الطاغوت، عربيا كان أم فارسيا أم رومانيا.

* ألم يكن باستطاعته أن يعلنها ثورة اجتماعية يجمع بها الفقراء وهم الأغلبية ضد الأغنياء الذين سرقوا قوتهم وحقوقهم، وبعد أن يتولى قيادة هذه الأغلبية التي تحمل مضمونا اجتماعيا يسعى لإقرار عقيدة التوحيد.. كلا.. فالله يعلم أن العدالة الاجتماعية لابد أن تنبثق من تصور اعتقادي شامل.. يرضاه البشر عن طواعية.. يستقر في قلوبهم وهم يتطهرون ثم يجري علي أيديهم، وهنا تصبح للعدالة الاجتماعية قيمة حقيقية ووظيفة حقيقية بعيدا عن الفوضى والشعارات المزيفة.

* ثم لماذا لم يعلنها دعوة إصلاحية في مجتمع يعاني من أزمات اخلاقية علي أكثر من مستوى حيث الظلم والخمر والميسر والدعارة.. وبالتأكيد كان سيقبل عليه جمهرة صالحة تطهر نفسها ويستطيع أن يطرح عليها بعد ذلك عقيدة لا إله إلا الله، كلا.. فالله يعلم أن الأخلاق التي لا تقوم علي عقيدة تقرر القيم والموازين لا تقرر نصرا حقيقيا ولا تقدما حقيقيا.. وإلا لما قدم للبشرية هذا النموذج الحضاري المنقذ.

هكذا استمر القرآن الكريم يطرح قضية لا إله إلا الله، ومن خلال جانبين مهمين في طبيعة هذا الدين:

١ ـ بناء العقيدة.. أي تمكينها وشمولها واستغراقها لشعاب النفس الإنسانية كضرورة من ضرورات النشأة الصحيحة، وهكذا دون التطرق إلى تفصيلات النظام أو الشرائع.. أي أنه لم يطرح في مكة برنامجا شاملا في الاقتصاد والسياسة.. قبل أن تستقر العقيدة في القلوب وينصاع البشر لله حاكما ومشرعا،ولكن الذي

يجب أن يفهمه الجميع ان القرآن ـ ومنذ اليوم الأول ـ لم يغفل عن إصدار التوجيهات الاجتماعية والسياسية والاقتصادية، فأولى آيات القرآن الكريم(سورة العلق) تطرح قضية حضارية هي إحداث التوازن بين الغيب والعلم، بل وتوحيد القراءتين.. الأولي باسم الغيب.. والثانية باسم العلم، الأولى باسم الله والغيب [باسم ربك الذي خلق]..(حرف الباء)، والثانية بمعية الله [وربك الأكرم]..(حرف الواو) بل واعتبر تجاوز إحدي القراءتين على الأخرى طغيانا.. لم يغفل القرآن حتى في تلك المرحلة المكية عن إصدار توجيهات أكثر دلالة سياسيا واقتصاديا واجتماعيا[أم لهم شركاء شرعوا لهم من الدين ما لم يأذن به الله] الشورى ٢١ [وأمرهم شورى بينهم] الشورى٣٨.. السلطة التي تستند إليها هذه الموازين والقيم وتقرر الجزاء الذي تملكه هذه السلطة.. قبل هذا تظل القيم متأرجحة وكذلك الأخلاق بلا ضابط ولا سلطان ولا جزاء.

وهكذا لم يرسل الله محمدا ﷺ ليعلنها ثورة قومية.. عدالة اجتماعية.. أو دعوة إصلاح للاخلاق..وانما أرسله ليقرر في القلوب حقيقة لا إله إلا الله قبل كل شئ.. وبعدها تتطهر أرض العرب من الرومان والفرس ليقوم سلطان الله وليس سلطان العرب.. وقامت العدالة الاجتماعية باسم الله فتطهر المجتمع من الظلم الاجتماعي وكذلك تطهرت النفوس والأخلاق.

وهكذا ارتفعت البشرية في نظامها وفي أخلاقها وفي حياتها كلها إلي قمة سامقة لم ترتفع إليها من قبل. إن أي انحراف عن هذا المنهج سواء بإعلانها دعوة قومية أو اجتماعية أو اصلاحية اخلاقية ما كان يكفل الشورى[وأمرهم شوري بينهم] الشورى ٣٨..وهو أيضا ينذر ويتوعد المطففين الذي يلعبون باقتصاد الناس وأرزاقهم[سورة المطففين].. وفي الآيات الثلاث الأولي المكية من سورة الماعون يجعل الله دع اليتيم وعدم الحض علي طعام المسكين«قضية اجتماعية واقتصادية وحتى سياسية» يجعلها صنوا للتكذيب بالدين.

أقول هذا حتي لا نحمل كلمات الإمام الشهيد هنا أكثر من مدلولاتها.. وأخيرا فهو نفسه الذي كتب«معركة الإسلام والرأسمالية»و«العدالة الاجتماعية في الإسلام».

٢ ـ الإسلام منهج عملي حركي جاد.. منهج يتعامل مع الواقع وليس نظرية تتعامل مع الفروض.. منهج يطرح التشريعات لحالات واقعة فعلا في مجتمع يعترف ابتداء بحاكمية الله.. في مجتمع يملك المسلمون فيه سلطانا علي أنفسهم. فالله سبحانه لم ينزل نظما وشرائع ـ أي مواد دستورية ـ يختزنها المسلمون لتطبق عند قيام الدولة في المدينة(!) لأن الإسلام لا يفترض مشكلات يضطر بعدها لافتراض حلول. إنه يواجه الواقع وأي واقع.. واقع جديد مختلف تماما.. واقع يصنعه منهج الإسلام.. له مشاكله الخاصة وملابساته وظروفه الخاصة، وهكذا فصياغة القوانين والتشريعات(الدستور) في وقت يرفض المجتمع فيه تحكيم شرع الله أمر غير واقعي وغير جدي..مهزلة أن تصنع دستورا يشمل مواد وقوانين تفصيلية لمجتمع لم يتشكل بعد أو لمجتمع يرفض الإسلام أصلا.. وربما كانت التجربة الإسلامية في إيران المثل الأوضح فقد آمنت الجماهير بعقيدة لا إله إلا الله.. تقدمت وأسقطت الطواغيت تحت هذا الشعار، ثم صوتت لصالح الجمهورية الإسلامية أو الاستعداد لقبول شرع الله[وهي تفهم قواعده وأصوله وتوجيهاته].. ثم جاء الدستور الإيراني في النهاية.

ولكن كيف عالج القرآن قضية العقيدة في تلك الفترة.. هل كانت نظرية باردة بين دفتي كتاب.. هل كانت لاهوتا.. هل كانت جدلا كلاميا كالذي سمى«بعلم التوحيد».. كلا.. فالقرآن جاء ليطهر الإنسان.. ينقذ فطرته من الركام.. يفتح منافذ الفطرة كي تتلقي وتستجيب. ومن هنا كانت معركة القرآن معركة حية واقعية لا تناسبها نظرية جاهزة بين دفتي كتاب أو جدال ذهني قائم على منطق شكلي«علم التوحيد» ولا لاهوت يقبع في الزوايا الضيقة.. لقد جاء القرآن ليبني العقيدة في ضمير الجماعة المسلمة التي سيخوض بها المعركة مع الجاهلية ورواسبها (الضمير

والأخلاق والواقع).. ولهذا كان لابد لبناء العقيدة أن يكون فعلا وممارسة وأن يظهر في صورة تجمع عضوي حيوي.. أي تنظيم يباشر الحياة متمثلا في الجماعة المسلمة.. وهكذا تتضح لنا شيئا فشيئا ربما أخطر أطروحات الإمام الشهيد. إن بناء ونمو الجماعة في واقعها الحركي هو الترجمة الحية لبناء ونمو العقيدة أيضا، وهما لم يكونا منعزلين ولم يسبق أحدهما الآخر.. لم يرسل الله نظرية ليجلس محمد ﷺ وثلة من أتباعه لدراستها وتحليلها قبل طرحها للممارسة والتطبيق [إن هذا من طبيعة نظرية كالماركسية حوتها دفات كتاب وضعه مثقف قضى حياته بين رفوف الكتب ثم جاء من يتبنى النظرية ويؤسس حزبا يحملها]. إن طرح العقيدة الإسلامية بشكل نظري مجرد للدرس والمعرفة خطأ وخطر (بالقياس إلي الإسلام) في نفس الوقت ويشكل ظاهرة غريبة علي طبيعة هذا الدين.. إن الذين يريدون صياغة نظرية ثورية [إسلامية] كاملة قبل أن يبدأوا حركتهم إما أن يفشلوا أو أنهم لن يبدأوا أبداً.. وفي الحالين سينتهون كظاهرة منحرفة عن منهج الإسلام. فهذه النظرية لن يصوغها إلا الجهد والعرق والممارسة الثورية الملتزمة وليس مجرد البحث والدراسة، لأن كل نمو نظري يسبق النمو الحركي الواقعي ولا يتمثل من خلاله خطأ وخطر في نفس الوقت.. إن الجهد والعرق والممارسة هي الضمانة الأكيدة أمام ظهور نظرية صائبة.. «والذين جاهدوا فينا لنهدينهم سبلنا»العنكبوت ٦٩ «إنهم فتية آمنوا بربهم وزدناهم هدى. وربطنا على قلوبهم إذ قاموا فقالوا ربنا رب السماوات والأرض..». الكهف (١٣،١٤).. لاحظ« آمنوا»، «فزدناهم».. «ربطنا».. «قاموا»«قالوا».. إنها الإشارة إلى الجدل بين النظرية(العقيدة)والممارسة(التجمع الحركي والحي).

وحين يطرح المفكر العظيم أن الله سبحانه كان يريد بناء الجماعة والحركة بالعقيدة وأن يبني العقيدة بالجماعة والحركة، حين يطرح أن الله سبحانه كان يريد ان تكون العقيدة هي واقع الجماعة الحركى الفعلي وأن يكون واقع الجماعة الحركى الفعلى هو الصورة المجسمة للعقيدة، كان يعني أن العلاقة بين النظرية والممارسة

هي علاقة جدلية حية نـامية، باختصار ـ وعلى عكس النظريات الأرضية ـ ليس هنا معنى لنـظرية إسلامية ثورية بدون واقع وتجـمع حركي عضوي يتفاعل مـع الجاهلية المقابلـة ومع رواسبها في أذهـان أفراد هذا التجمع.. ولا يـنسى الإمام الشهـيد سيد قطب أن يحذر المسلمين المخلصين من الوقـوع فريسة الضغوط الجاهلية التي تحاول إحراجهم فتسألهم تقديم حلول لمشاكـل غير إسلامية(!) صنعها واقع غير إسلامي، إن للإسلام منهجه الربـاني الخاص في عملية التغيير وهو حـين يرفض المنهج الذي يبني هذه التصورات يلزمنا بمنهجه كما التزمنا بعقيدته ونظامه.

كان هدف الدعـوة الإسلامية ليس فقط تـعريف الناس بالإله الواحـد وإنما أيضا عبوديتهم له ونبذ ربـوبية الخلق.. هدفها إخراجهم من سلطان العـباد في حاكميتهم وشرائعهم وقيمهم وتقاليدهم إلى سلـطان الله وحاكميته، هدفها أن يخضع الإنسان بشطريـه اللاإرادي(الفطري) والإرادي لتوجيـه الله.. فالتصور الإسلامي يـقوم علي أساس أن الوجـود كله من خلق الله وأن الإنـسان جزء من الوجود الـكوني، وأنّ الله سن الشريعة لتنظيم حياة الإنسان الإرادية تنظيـما متناسقا مع حياته الطبيعية، وهكذا فالـشريعـة جزء من الـناموس الإلـهي العـام الذي يحـكم فطـرة الإنسان والـوجود وينسقها كلها جملة واحدة.. كل كلـمة من كلمات الله وكل أمر شطر من الناموس العام يتنـاسق معه فالالتزام بالأمر[الشـريعة] ناشيء من ضرورة تحقيق الـتناسق بين حياة الإنسان وحركة الكون الذي يعيش فيه، فوق إنه اعتقاد يتحقق به إسلامنا.

ولكـن المسلم فـي رحلته لـطلب الشـريعة الإلـهية وتحكـيمها فـي حياته يـواجه بالجاهلية التي ترفض هذا المطلب وتـقوم على التصادم بين الجانب الإرادي في حياة الإنسان والجـانب اللاإردي(الفطري)، وحـيث أن المواجهة هـنا تصبح واجبـا شرعا وعقلا فلـنا أن نسأل كيف ستتـم المواجهة؟ بداية هذه الجاهـلية تتمثل في نـظرية قد تكون نظرية ماركسيـة أو نظرية رأسمالية أو نظريات مشوهة مسروقـة عنهما كتلك المسماة «الاشـتراكية العربـية» مثلا. . وأحيانا لا تـوجد نظرية علـى الإطلاق كحال أغلب دول الـوطن الإسلامي اليـوم، ولكن من المؤكد أن هـذه الجاهلية كـانت دوما

ممثلة في تجمع حركي (مجتمع) له قيادته وتصوراته وتقاليده، مجتمع عضوي يتحرك دائما واعيا أو غير واع للمحافظة على كيانه ومحاربة عناصر الخطر التي تهدد وجوده[عندما بدأت نظرية أتاتورك تهتز في تركيا تقدمت المؤسسة العسكرية ـ أقوى العضلات في جسد الجاهلية التي دشنها أتاتورك ـ لحماية النظرية من الخطر الذي هددها [الإسلام].. ولأن واجب المسلم الشرعي وقدره هو إلغاء هذه الجاهلية التي تقوم على (نظرية) وتجمع حركي فلابد أن تتمثل حركته في (نظرية) وتجمع حركي مقابل مكافيء لها في القوة أو أقوى، لأن النظرية المجردة لا تغير واقعا.. فعندما يكون المطلوب إلغاء الوجود القائم وإقامة وجود آخر يخالفه في طبيعة منهجه وكل جزئياته فلابد أن تتمثل المحاولة الجديدة في تجمع عضوي حركي أقوى نظريا ـ تنظيميا واجتماعيا ـ من المجتمع الجاهلي القائم فعلا، ومن هنا تنبع أهمية ان يفهم الذين يقرأون هذه المعالم ويسترشدون بأفكار الإمام الشهيد هذه الجاهلية.. كنظرية وكتنظيم ومؤسسات وعلاقات اجتماعية هم مقبلون على تغييرها، فهل يعقل أن تغير شيئا تجهل طبيعته وتركيبته..هل يمكنك مقاومة جاهلية تجهل أدواتها ووسائلها.. ومن ناحية أخرى فالنظرية الإسلامية المتمثلة في لا إله إلا الله والتي تعني إفراد الله سبحانه بالألوهية والربوبية والحاكمية..هذه النظرية أو القاعدة النظرية إن كانت مجردة فليست ترجمة للإسلام الذي هو حياة وواقع حي يتفاعل مع واقع آخر، ومن هنا يرفض الإسلام أن يعتنق أتباعه نظريته بينما هم أفراد ضمن كيان عضوي جاهلي يدينون له بالولاء لأنهم بذلك يعملون على تقوية مجتمع يعملون نظريا على إزالته!! يبقون خلايا حية تمده بعناصر البقاء بدلا من تقويض وجوده واقامة المجتمع المسلم، إن وجود تجمع عضوي حركي مقابل للجاهلية يدين بالولاء لله ورسوله ولقيادة إسلامية رشيدة ينخلع من الولاء لغيرها.. هوالترجمة الحقيقية للعقيدة والنظرية الإسلامية، فالمجتمع المسلم لا يتحقق بالنوايا الحسنة ولا بمجرد قيام النظرية في قلوب الأفراد مهما كثر هؤلاء.

* * * *

بعد أن يورد الإمام الشهيد سيد قطب تلخيصا لمراحل الجهاد في الإسلام نقلا عن ابن القيم في«زاد المعاد» والذي يقسم أهل الأرض إلى ثلاثة أقسام: مسلم مؤمن ـ مسالم آمن ـ خائف محارب.. بعد ذلك يتكلم عن السمات الأصيلة والعميقة في المنهج الحركي لهذا الدين:

١ ـ الواقعية الجدية: فهو حركة تواجه الواقع البشري بوسائل مكافئة لوجوده الواقعي.. بالدعوة والبيان لتصحيح التصورات والمعتقدات وبالقوة والجهاد لإزالة الأنظمة التي تحول بين الناس والحق.. إنها حركة لا تكتفي بالبيان في مواجهة السلطان المادي وفي نفس الوقت لا تستخدم القهر المادي لضمائر الأفراد.

٢،٣ ـ الواقعية الحركية: فهو حركة ذات مراحل، لكل مرحلة وسائلها المكافئة وأهدافها المرحلية، إنه لا يطرح نظريات مجردة وبالتالي لايمكن أن يواجه الواقع بوسائل متجمدة، ومن هنا اعتقادي أن الرأي القائل بأن تحقيق الأهداف المباشرة وغير المباشرة المرحلية والنهائية مرهون بقوالب جاهزة ووسائل أعدت سلفا هو أمر مرفوض من خلال هذه السمة التي يطرحها سيد قطب، ليس معنى هذا أن الوسائل المتجددة ستكون منفصلة عن المنطلقات والأهداف.. على الإطلاق لا.. إن الوسائل مرتبطة جدليا بهذه المنطلقات والأهداف.. وأي انفصام بينهما انحراف يقع فيه الكثير من العاملين في الدعوة الإسلامية كهؤلاء الذين يسيرون مغمضي الأعين جاهلين منطلقاتهم وأهدافهم المرحلية زاعمين أنهم يمتلكون وسائل الرسول عليه الصلاة والسلام وطريقه القويم وهذا عينه هو السمة الثالثة التي يطرحها الشهيد قائلا: إن هذه الحركة الدائبة والوسائل المتجددة لا تخرج عن قواعده المحددة وأهدافه المرسومة.

٤ ـ الضبط التشريعي للعلاقات بين المجتمع المسلم وسائر المجتمعات الأخري كما جاء في تقسيمة ابن القيم في«زاد المعاد»(مسلم مؤمن ـ مسالم آمن ـ محارب خائف)، وهذا ينطلق من أساس أن الإسلام لله هو الأصل العالمي الذي علي البشرية كلها أن تفيء إليه أو تسالمه بجملتها فلا تقف في طريقه.

ثم يستمر في عرض رؤيته عن هذا الدين كإعلان عام لتحرير الإنسان في الأرض من العبودية لهواه وللعباد وإعلان ربوبية الله للعالمين. إن إعلان ربوبية الله تقتضي الثورة الشاملة على حاكمية البشر بكل أشكالها وأوضاعها وهذا لا يتم بمجرد البلاغ؛ لأن المتسلطين على رقاب العباد والمغتصبين لسلطان الله لا يسلمون في سلطانهم بمجرد البلاغ والبيان. إن إعلان التحرير هذا ليس إعلانا نظريا فلسفيا سلبيا .. بل إعلانا حركيا واقعيا ايجابيا يجب أن يتحقق وبالتالي لابد من أن يأخذ شكل الحركة إلى جانب شكل البيان وذلك ليواجه الواقع البشري بوسائل مكافئة، البيان يواجه العقائد والتصورات والحركة تواجه العقبات المادية الأخرى وفي مقدمتها السلطان السياسي القائم على العوامل الاعتقادية التصورية والعنصرية والطبقية والاجتماعية والاقتصادية المعقدة والمتشابكة، فأي سذاجة أن يتصور أحد أن دعوة تعلن تحرير النوع الإنساني في كل الأرض ثم تقف أمام العقبات الهائلة التي تعترض طريقها باللسان والبيان فقط.. إن الإسلام لا يكره الناس على اعتناق عقيدته، ولكن الإسلام ليس مجرد عقيدة.. إنه إعلان لتحرير الإنسان للإنسان بهدف إزالة الأنظمة التي تقوم على أساس حاكمية البشر للبشر وعبودية الإنسان للإنسان، إن النظام الذي يحكم البشر يجب أن تكون قاعدته العبودية لله وذلك بتلقي الشرائع منه وحده، ثم بعد ذلك يعتنق الفرد في ظل هذا النظام ما يعتنقه من عقيدة، أي يصبح الدين كله لله، والدين يحمل مدلولا أشمل من العقيدة فهو المنهج والنظام الذي يحكم الحياة ويعتمد علي العقيدة ولكنه أشمل منها..وهكذا فالجهاد الإسلامي لم يكن يوما عملية دفاعية، إنه يحمل في ذاته مبررات التحرير العام للإنسان.. يحمل مبررا ذاتيا في طبيعة منهجه الواقعي ولا يقف مدافعا وإلا فقد أهم مبررات وجوده.. إنه على عكس ما اعتبره بعض الباحثين الإسلاميين المعاصرين المهزومين تحت ضغط الواقع.. هؤلاء الذين غشى أبصارهم التصور الغربي لطبيعة الدين فاعتبروه مجرد عقيدة في الضمير أو نحلة قوم وليس منهجا أرسله الله للحياة البشرية.

٥ ـ إن كانت العبودية لله هي شطر الركن الأول في العقيدة الإسلامية فإن التلقى عن الرسول ﷺ في كيفية العبودية هو شطرها الثانى وهذا يقودنا لتحديد بعض القضايا الأساسية لهذا الدين:

* طبيعة المجتمع المسلم:

إن المجتمع الذي يدين بدين العبودية لله وحده ضمن هذه الشروط الثلاثة:

١ ـ الإيمان بوحدانية الله عقيدة في الضمير.. فهو الموجود وجودا حقيقيا وهو الفاعل فعلا حقيقيا، وليس الطبيعة أو أين الله!! وليس دورة رأس المال أو صراع الطبقات.

٢ ـ التوجه لله وحده بالشعائر التعبدية «قل إن صلاتى ونسكى ومحياى ومماتى لله رب العالمين» الأنعام ١٦.

٣ ـ تلقى الشرائع والقوانين عن الله سبحانه ورفض كل شرائع وقوانين البشر والطواغيت «أم لهم شركاء شرعوا لهم من الدين مالم يأذن به الله» الشورى ٢١.. «وما أتاكم الرسول فخذوه وما نهاكم عنه فانتهوا» الحشر ٧.هذه هي الشروط الثلاثة كى يكون المجتمع مسلما لأن تخلف أحدها يعنى تخلف الإسلام نفسه عن الوجود لأنه عقيدة وعبادة وشريعة.

ولكن كيف ينشأ هذا المجتمع المسلم:

١ ـ جماعة من الناس قررت أن عبوديتها الكاملة لله وحده في الاعتقاد والشعائر والشرائع.

٢ ـ تنظيم حياة الجماعة على هذا الأساس فلا يبقى في ضميرها أحد غير الله ولا شعائر توجه لغيره ولا قوانين إلا منه.

٣ ـ يبدأ الأفراد بعد ذلك في الانتقال من العبودية لغير الله إلى العبودية له وحده في داخل هذا المجتمع الذي تكون فعلا.

٤ ـ على المجتمع الجديد أن يوفر الإمكانات والظروف الموضوعية التي تجعله قادرا على مواجهة الضغط الجاهلي فيسعى لتملك قوة الاعتقاد وقوة الخلق وقوة التنظيم والبناء الجماعي.

بعد ذلك يطرح الشهيد تصوره عن المجتمع الجاهلي، إنه كل مجتمع لا يخلص عبوديته لله وحده.. ويدخل تحت هذا التعريف المجتمعات الشيوعية والوثنية واليهودية والنصرانية وأخيرا تلك المجتمعات التي تزعم لنفسها أنها مسلمة! فهي وإن كانت في الغالب لاتعتقد بألوهية أحد غير الله وتعتقد أن له وحده الشعائر التعبدية.. إلا أنها لاتدين له بالحاكمية في حين أن الله يقول عن الحاكمية: «ومن لم يحكم بما أنزل الله فأولئك هم الكافرون» المائدة ٤٤، ويقول عن المحكومين «ألم تر إلى الذين يزعمون أنهم آمنوا بما أنزل إليك وما أنزل من قبلك يريدون أن يتحاكموا إلى الطاغوت وقد أمروا أن يكفروا به» إلى أن يقول «فلا وربك لايؤمنون حتى يحكموك فيما شجر بينهم ثم لا يجدوا في أنفسهم حرجا مما قضيت ويسلموا تسليما..»

* * * *

تحت عنوان «الإسلام هو الحضارة» يشير الإمام الشهيد إلى المفكر الجزائرى المسلم مالك بن نبى دون ذكر اسمه، والذي اعتبر أن حذف الشهيد لكلمة «متحضر» من عنوان كتاب كان تحت الطبع «مجتمع إسلامي متحضر» اعتبر مالك هذا التعديل ناشئا من «عملية دفاع نفسية داخلية عن الإسلام».. والحقيقة أن هناك فرقا بين المفكرين ولكنه الفرق بين وجهتى نظر متكاملتين وليستا متناقضتين، فلم يغفل سيد قطب الشروط الموضوعية اللازمة لبناء الأمة أو الحضارة الإسلامية ولكنه لأسباب كثيرة كانت الشروط الذاتية تبدو أكثر وضوحا في أعماله فالشروط التي صنعت [الجيل القرآنى الفريد] هي المنطلق.. كذلك لم يغفل مالك الشروط الذاتية هذه وكان يتحدث عن الدفعة الإيمانية التي انطفأت نارها.. وضروة إضرامها من جديد، وكان إنسان [مابعد الموحدين] العقيم الذي تحدث عنه مالك هو الذي

لاحظه سيد قطب ورآه رأي العين حين تكلم عن إنسان [الجيل القرآنى الفريد] الذي عليه أن يجدد ذاته ويتجاوز «إنسان مابعد الموحدين» وقابليته للاستعمار.. لم يغفل مالك هذه الشروط الذاتية ولكن لأسباب كثيرة أيضا كان البحث عن الشروط الموضوعية أكثر وضوحا في أعماله، كان يبحث في تجاوز التناقضات القائمة من خلال تركيب مبدع لفكرة الأمة الوسط ويرى أن هذا التجاوز لن يتحقق إلا بارتفاع المسلم ـ الشاهد على العالم بالتقى والورع والصدق والوعى ـ إلى مستوى الحضارة كى يصبح معاصراً حقا.. لقد كان سيد ومالك يمثلان بصدق جناحى الحركة الإسلامية في المشرق والمغرب كما قال المفكر الإسلامي المعاصر توفيق الطيب. وبخصوص الخلاف الوارد بينهما هنا فأستطيع أن أؤكد إنه كان خلافا في المصطلح.. أي خلافا على [تعريف الحضارة] لغة على الأرجح وليس مضمونا.. الحضارة الإنسانية كما يقول سيد هي التي تقتضى التحرر الحقيقى الكامل للإنسان.. التحرير من العبودية لغير الله، والمجتمع الإسلامي هو الذي يحقق هذا التحرر فهو بداية يجمع الناس على آصرة العقيدة والتصور والفكر وليس آصرة الجنس واللون والقوم والأرض فهذه الأشياء لاتمثل الخصائص العليا للإنسان.. إنها الروح والفكر خصائصه العليا.. والإنسان يبقى إنسانا بعد الجنس واللون والقوم والأرض ولكنه لايبقى إنسانا بعد الروح والفكر وهو يملك بمحض إرادته أن يغير عقيدته وتصوره ومنهجه وفكره ولا يملك أن يغير لونه ولا جنسه أو يحدد مولده في قوم أو أرض، وبالتالى فالمجتمع الذي يتجمع فيه الناس على أمر يتعلق بإرادتهم الحرة واختيارهم الذاتى هو المجتمع المتحضر.. المجتمع الإسلامي هو الوحيد الذي رابطة العقيدة فيه هي رابطة التجمع الأساسية، الكل فيه أنداد يلتقون على أمر شرعه الله لهم ولم يشرعه أحد من العباد، وإنسانية الإنسان هي القيمة العليا في المجتمع الإسلامي وليست «المادة» والمادة لايحتقرها المجتمع الإسلامي.. لا في صورتها النظرية ولا في صورة الإنتاج المادى الذي يعتبر من مقومات الخلافة في الأرض عن الله، ولكنها ليست القيمة العليا التي تهدر فيها خصائص الإنسان ومقوماته كما يحدث في

المجتمعات الجاهلية حيث تهدر كرامة الفرد وحريته: الأسرة ومقوماتها.. الأخلاق وحرمات المجتمع.. إلخ.. من أجل توفير الإنتاج المادى.إن للإسلام أخلاقه التي تميزه عن الحيوان ينشئها ويصونها في كل مجتمع يهيمن عليه سواء كان في طور الزراعة أم الصناعة.. البداوة أم الرعى.. فقيرا كان أم غنيا، إنه مجتمع ربانى يقوم فيه الإنسان بالخلافة عن الله في أرضه على وجهها الصحيح.. ولا يعتبر الإبداع المادى وحده حضارة فالإبداع المادى يكون وتكون معه الجاهلية إن لم يحقق خصائص الإنسان العليا.. «أتبنون بكل ريع آية تعبثون. وتتخذون مصانع لعلكم تخلدون. وإذا بطشتم بطشتم جبارين. فاتقوا الله وأطيعون» الشعراء ١٢٨ ـ ١٣١. وبعد.. فالمجتمع الإسلامي وليد الحركة.. الحركة فيه مستمرة.. تحدد وظائف الأشخاص ومراكزهم.. وهذه الحركة ابتداء تتمثل في العقيدة الآتية من الله للبشر تنشىء لهم تصورا خاصا للوجود والحياة والتاريخ والقيم والغايات.. إنها حركة آتية من خارج نطاق الأرض.. محورها الإنسان.. وهذا الإنسان الواحد لايتلقى العقيدة وينطوى على نفسه.. إنه سينطلق بها.. فهذه طبيعتها الحية، إن الدفعة الحية التي وصلت بها هذه العقيدة إلى القلب ستمضى في طريقها قدما، وحين يؤمن بها ثلاثة تقول لهم العقيدة.. أنتم الآن مجتمع إسلامي مستقل لا يدين للجاهلية بالعقيدة ولا تسوده قيمها.. وهكذا ينشأ المجتمع الإسلامي.. الثلاثة يصبحون عشرة.. مائة.. ألفا.. ثم اثنى عشر ألفا.. ويتقرر المجتمع الإسلامي.

***

في أحد فصول الكتاب «التصور الإسلامي والثقافة» يحاول الإمام الشهيد إيضاح مدلول الحاكمية وعلاقته بالثقافة فيعلن أن مدلول الحاكمية في التصور الإسلامي لا ينحصر في تلقي الشرائع القانونية من الله وحده.. إن شريعة الله تعني كل ما شرعه الله لتنظيم حياة البشر، وهذا يتمثل في أصول الاعتقاد وأصول الحكم وأصول الأخلاق وأصول السلوك وأصول المعرفة ايضا.. إن الأمر في الحاكمية هو أيضا الرجوع في شأن النشاط الفكري والفني إلى التصور الإسلامي وإلى مصدره

الرباني، فالمسلم لا يملك أن يتلقى في أمر يختص بحقائق العقيدة: التصور العام للوجود.. العبادة.. الخلق.. السلوك.. القيم والموازين.. المباديء والأصول في النظام السياسي والاجتماعي والاقتصادي.. تفسير بواعث النشاط الإنساني وحركة التاريخ الإنساني، لا يملك المسلم إلا التلقي من ذلك المصدر الرباني.. لا يتلقي إلا عن مسلم يثق في دينه وتقواه وممارسته لعقيدته في واقع الحياة، المسلم يملك أن يتلقى في العلوم البحتة والنواحي الفنية في الإدارة والحرب عن المسلم وغير المسلم..أما فيما يتعلق بتفسير النشاط الإنساني.. ما يتعلق بالنظرة إلى نفس الإنسان وحركة تاريخه.. تفسير الكون ونشأة الحياة فلا يجوز للمسلم إلا أن يتلقى عن مسلم.. وهنا يبرز سؤال استهلك جهدا ووقتا كبيرين من جهد ووقت الحركة الإسلامية: هل يباح لنا.. هل يحق لنا كمسلمين آمنا بالإسلام عقيدة وعبادة وشريعة.. آمنا بأن الحاكمية لله.. هل يحق لنا أن نطلع على آثار الفكر الجاهلي؟ أجاب المتنورون: نعم وإلا فكيف سنعرف الجاهلية وانحرافها ثم نصححه ونقومه.. وأجاب التقليديون أو المحافظون[عن عجز وليس عن قوة] أجابوا وتحت شعار:[إذا عرفت الحق فلماذا أعرف الباطل!] لا.. هذا رجس من عمل الشيطان!.. وجاء أخيرا سيد قطب ليعلن أنه«أي المسلم» قد يطلع على كل آثار النشاط الجاهلي، ولكن ليس بهدف أن يكون منه تصوره ومعرفته في هذه الشئون كلها.. إنما ليعرف كيف تنحرف الجاهلية.. ليعرف كيف يصحح ويقوم هذه الانحرافات البشرية ويردها إلى أصولها الصحيحة في مقومات التصور الإسلامي.. وأضيف إلى ما قاله الإمام الشهيد أن المسلم إن لم يعرف الجاهلية عن عمد وسبق إصرار وبالتالي عن وعي وحذر فإنها قد تدخل إلى عقله بل ودمه! فيحدث الانفصام والازدواجية في شخصيته، ويقول عمر رضي الله عنه:«ينقض عرى الإسلام عروة عروة من عاش في الإسلام ولم يعرف الجاهلية». إن المعرفة مطلوبة بل واجبة، أما التلقى من غير الله فهو المرفوض، ويجب ان نفرق بين المعرفة[الاطلاع] وبين التلقي[الاتباع]..إن التلقي لا يكون إلا عن الله، والحقيقة لا تستمد إلا من الوحي، وهذا عين ما طرحه المفكر الإسلامي

توفيق الطيب في بحثه المهم «الخصائص الثابتة اللازمة والخصائص المكتسبة للحركة الإسلامية» [المسلم المعاصر ـ العدد الافتتاحي] حين قال تحت عنوان«إن حركتنا حركة ربانية»:(إن الحقيقة عندنا تستمد من الوحي المنزل على الرسول ﷺ أي من القرآن.. فمن يقول لنا إنه ينزع إلى طلب الحقيقة نقول له إننا وجدناها ونحياها فما تريد أن تتملكه تملكناه.. إن نظام المفاهيم عندنا يستمد كله من الوحي المنزل على الرسول عليه الصلاة والسلام، ويعبر عن مفاهيمنا بالمصطلح القرآني أولا فإن لم يوجد فبمصطلح مرتبط تاريخيا بالمصطلح القرآني: مصطلحات التراث، فإن لم يوجد فبمصطلح يحقق مضمون المصطلح القرآني)..(إن نظام القيم عندنا يستمد من نفس المصدر السابق كما تحقق في حياة الرسول عليه الصلاة والسلام حيث كان خلقه القرآن)..(قيمنا الجمالية تستمد أيضا من نفس المصدر وترتبط ارتباطا وثيقا بنظام قيمنا الأخلاقية، وعلى القيم الجمالية والقيم الأخلاقية معا تنهض قيمنا التربوية)، ثم يقول توفيق الطيب:«خارج نطاق المفاهيم والقيم لا يلزمنا الإسلام بشيء، فتعاملنا مع الأشياء ـ الطبيعة ـ مفتوح إلى أبعد الحدود.. ومن هنا فنحن منفتحون على العلم بكل آفاقه وعلى الصناعة الحديثة بكل فوائدها وعلى التقدم الاجتماعي والاقتصادي بكل أبعاده».. هذا التصور الإسلامي الخالص يطرحه توفيق الطيب الذي أمضي وقتا طويلا كمسلم يبحث في آثار النشاط الجاهلي، بل قضى من عمره عشر سنوات دارسا للفلسفة في ألمانيا.. ونفس التصور كان سيد قطب يطرحه في[المعالم] وسيد قطب هو الذي عاش ـ كما يقول في نفس الفصل ـ أربعين سنة يقرأ ويطلع في معظم حقول المعرفة الإنسانية قبل أن يكتمل أو يستقر تصوره الاعتقادي السليم.. وما هو بنادم على ما قضى فيه أربعين سنة من عمره.. على حد تعبيره.

* * * *

لقد جاء الإسلام ليقرر أن هناك وشيجة واحدة تربط الناس في الله، إذا انقطعت فلا صلة ولا مودة«لا تجد قوما يؤمنون بالله واليوم الآخر يوادون من حاد الله ورسوله

ولو كانوا آباءهم أو أبناءهم أو إخوانهم أو عشيرتهم» المجادلة ٢٢. لقد جاء الإسلام ليرفع الإنسان.. يخلصه من وشائج الأرض والطين، فلا وطن للمسلم إلا الذي تقام فيه شريعة الله، لا جنسية للمسلم إلا في عقيدته التي تجعله عضوا في الأمة المسلمة في دار الإسلام، وليست قرابة المسلم أباه أو أمه أو أخاه وزوجه وعشيرته ما لم تنعقد الآصرة الأولى في الخالق فتتصل من ثم بالرحم«إن الذين آمنوا وهاجروا وجاهدوا بأموالهم وأنفسهم في سبيل الله والذين آووا ونصروا أولئك بعضهم أولياء بعض» الانفال ٧٢، وهي ولاية تتجاوز الجيل إلى الأجيال المتعاقبة«.. ربنا اغفر لنا ولإخواننا الذين سبقونا بالإيمان..» الحشر ١٠، لقد جاء الإسلام ليرفض عصبية القبيلة والجنس والأرض(دعوها فإنها منتنة)، (أليس منا من دعا إلى عصبية)، وهكذا لم يعد وطن المسلم هو الأرض وإنما«دار الإسلام» الدار التي تسيطر عليها عقيدته وتحكم فيها شريعة الله وحدها، لقد حارب محمد ﷺ مكة واعتبرها دار حرب رغم أنها وطنه الذي ولد فيه ورغم أنها أهله الذين نما بينهم، وانطلق من المدينة التي أصبحت موطنه الحقيقي حيث ترفرف رايات الإسلام، إن هذا التصور الرفيع للدار والجنسية وللقرابة هو الذي ينبغي أن يسيطر على أصحاب الدعوة إلي الله.. ينبغي أن يكون من الوضوح بحيث لا تختلط به أوشاب التصورات الجاهلية الدخيلة ولا تتسرب إليه صورة الشرك الخفية.. الشرك بالأرض.. الشرك بالجنس.. الشرك بالقوم أو الشرك بالنسب..«قل إن كان آباؤكم وأبناؤكم وإخوانكم وأزواجكم وعشيرتكم وأموال اقترفتموها وتجارة تخشون كسادها ومساكن ترضونها أحب إليكم من الله ورسوله وجهاد في سبيله فتربصوا حتى يأتي الله بأمره والله لا يهدي القوم الفاسقين» التوبة ٢٤.

* * * *

الإسلام تصور مستقل للوجود.. كامل متميز.. ينبثق منه منهج ذاتي مستقل للحياة كلها، يخالف بشكل أساسي التصورات الجاهلية قديما وحديثا.. ووظيفة الإسلام أن ينشيء حياة إنسانية توافق تصوره وتمثله في صورة واقعية، وظيفته ألا

يصطلح مـع الجاهلية وتصوراتها، لم تـكن هذه وظيفته يوم جاء.. ولـن تكون اليوم، الإسلام لن يقبل أنصاف الحلول مع الجاهلـية، لأن وظيفته هي هذه القيادة، الإسلام لم يجىء ليربـت علي شهوات الناس المتمثـلة في تصوراتهم وأوضاعهم بـل ليلغي كل هـذا إلغاء، هـذه حقيـقة يجـب أن نطرحـها دوما لـلناس دون تـلعثم أو تردد، سنخاطبهم في عطف ورحمة ولكن أيضا في ثقة وقوة.. لا نتدسس إليهم ولا نربت على شـهواتهم وتـصوراتهم المنحرفة.. نقـول لهم: ما أنـتم فيه نجس والله يريد أن يطهركم.. هـذه الحياة التي تحيونها دون، والله يـريد أن يرفعكم.. ما أنتـم فيه شقوة، والله يريد أن يخفف عنكم ويرحمكم ويسعدكم.. لن نقول لهم إن الإسلام جاء من أجل تعديل هنا أو تغيير هناك.. نـحدثهم مرة عن ديمقراطية الإسلام!! وأخري عن اشتراكيته!! كلا.. إن الانتقال من الجاهليـة إلي الإسلام نقلة بعيدة واسعة، كان هذا حال مـحمد ﷺ مـع الجاهـلية مـنذ اليـوم الأول ويجب أن يـكون حـالنا الـيوم، إن الإسلام كان قويا وهو اليوم كذلك وغدا، لأن عناصر القوة تكمن في هذه الظروف وأشدها حـرجا.. إنها تكـمن في الحق البسـيط الواضح الذي تـقوم عليه، لـيس في إسلامـنا ما نخـجل منه أو نـضطر لـلدفاع عنـه أو يضطـرنا للتـقرب من ركامـهم المضطرب الـبائس، وأولا وأخيرا ندعـوهم مقابل أجر، إنـنا نتقدم لا نريـد علوا في الأرض ولا فسـادا.. نتقـدم وفي نفـوسنا يـستقـر الاستعـلاء إزاء الأوضاع والقـيم المنبثـقة من أصل غير أصل الإيمان..الاسـتعلاء علي قوى الأرض الحائـدة عن نهج الإيمان، وتقاليد الأرض وقوانين الأرض التي لم يـشرعها الله، الاستعلاء مع ضعف القوة وقلة العدد وفقر المال تماما.. الاستعـلاء مع القوة والكثرة والغنى على السواء، الاستعلاء الذي لا يتـهاوى أمام قوة باغية ولا عرف اجتماعـي ولا تشريع باطل ولا وضع مقـبول عند الـناس بدون سند مـن الإيمان، والاستعـلاء بالإيمان ليـس مجرد عزمة مـنفردة ولا نخوة دافـعة ولا حماسة فـاترة.. إنما الاستـعلاء القائم عـلى الحق الثـابت المركـوز في طـبيعة الـوجود.. الحق البـاقي وراء منـطق القـوة، فالمؤمـن هو الأعلى.. الأعلى سندا ومصدرا، فماذا تـكون الأرض كلها؟ وما يكون الناس؟ وما

تكون القيم السائدة في الأرض وهو من الله يتلقي وإلي الله يرجع وعلي منهجه يسير.. واليوم والمسلم يقف مغلوبا مجردا من القوة المادية لا يفارقه شعوره إنه الأعلي.. فالناس جميعا يموتون وهو يستشهد.. هم يغادرون إلى النار وهو يغادر إلي الجنة.. إن حكمة الله هي التي قررت أن تقف العقيدة مجردة من كل زينة وطلاء وإغراء ليقبل عليها من يقبل وهو على يقين من نفسه.. فهو يعرف أنه الجهد والمشقة والجهاد والاستشهاد.

* * * *

«إن الناس جميعا يموتون.. وتختلف الأسباب.. ولكن الناس جميعا لا ينتصرون هذا الانتصار ولا يرتفعون هذا الارتفاع ولا يتحررون هذا التحرر ولا ينطلقون هذا الانطلاق إلي هذه الآفاق.. إنما هو اختيار الله وتكريمه لفئة كريمة من عباده لتشارك الناس في الموت وتنفرد دون الناس بالمجد في الملأ الأعلى وفي دنيا الناس أيضا.. إذا نحن وضعنا في الحساب نظرة الأجيال بعد الأجيال!» هذه الكلمات لم تقل في حفل تأبين للإمام الشهيد.. إنها كلمات جاءت في الفصل الأخير من كتابه الأخير.. كلماته إلي الطليعة المؤمنة وإلي كل البشرية.. قبل أن يستشهد فينتصر ويتحرر.. ينطلق.. فيختاره الله ويكرمه فينفرد بالمجد في دنيانا وفي الملأ الأعلى.. أصدروا عليه حكم الإعدام فابتسم، حاول الطغاة أن يسلبوه استعلاءه.. أن يطفئوا سحر كلماته ويجهضوا الأجيال القادمة التي ستتربي عليها فقالوا له اطلب الرحمة.. نظر إليهم هازئا وقال: إن كنت محكوما بحق فأنا أرتضي حكم الحق، وإن كنت محكوما بباطل فأنا أكبر من أن استرحم الباطل.. لأنه كان يعلمنا قبلها بعامين وفي الفصل الأول «إن النصر في أروع صوره هو انتصار الروح علي المادة وانتصار العقيدة علي الإثم وانتصار الإيمان علي الفتنة.. انتصار يشرف الجنس البشري كله في جميع الأعصار.. وهذا هو الانتصار. كان يقول أيضا في نفس المكان «لقد كان في استطاعة المؤمنين أن ينجوا بحياتهم في مقابل هزيمة إيمانهم ولكن كم كانوا يخسرون هم أنفسهم؟ وكم كانت البشرية كلها تخسر؟ كم كانوا يخسرون وهم

يقـتلون هـذا المعـنى الكـبير، مـعنى زهـادة الحيـاة بلا عقـيدة وبشـاعتـها بلا حـرية وانحطـاطها حين يـسيطر الطـغاة على الأرواح بـعد سيطرتـهم على الأجـساد».. يا إلهي.. أشهـد أنني أفهم الآن سر عـلامة التعجب(!) الـتي جاءت في نهايـة مقدمة كتابه العظيم ولم أجد لها مبررا في البـداية، لقد كان يعدني بمعالم جديدة! يعدكم جميعا.. يعد كل المؤمنين.

بيـنما هو فـي الفصل الأخـير يصف مـصرعه واسـتشهاده ويـبحث عن مـعادل موضوعي يصور مصيره فلا يجد إلا أصحـاب الأخدود.. إنه يبدو الآن توفيقا إلهيا عجيبا.. أقرأ مصرعهم وكأني أشهد مصرعه.. لقد تحررت قلوب تلك القلة المؤمنة البعيدة في التاريخ كما تحرر قلبه، ارتفعت أرواحهم كما ارتفعت روحه.. انتكست جبـلات طغاة ذلـك الزمان وراحـوا يتلـذذون مشـهد التـعذيب المـروع العنـيف.. بخساسة لم يرتكس فيها وحش قط.. تمامـا كما انتكست جبلات طغاة هذا العصر! وهم يبطشون به وبإخوانه الأطهار.. أشـهد أني أرى[المعالم الجديدة].. انفضوا عن أعينكـم قسوة النعاس تجـدوها فيكم..«إن الحياة وسـائر ما يلابسهـا من لذائذ وآلام ومن متاع وحرمان ليسـت هي القيمة الكبرى في الميزان.. وليسـت هي السلعة التي تقرر الـربح والخسارة» وهذا هو الـطريق الذي ترسـمه نهاية المـعالم التي قال عـنها الأستاذ مـحمد علـي الضناوي فـي كتابه«الطـريق إلي حكـم إسلامي»:«لم تـتضح المبـادئ التي حددهـا الإمام الشـهيد حـسن البنـا إلا «بالمعـالم» التـي رسمها «سيد قطب»..

هذا هو الطريـق.. وهذا يا مصر كتاب سيبقـي فوق جبينك سراجا منيرا وعيونا تميمة.

* * * *

وبعد.. معذرة.. أستاذنا الإمام الشهيـد.. معذرة إني وضعت كتابك فوق طاولة البحث والتحليل.. معذرة إن كنت أصبت.. والف معذرة إن كنت أخطأت.

الدراسة التاسعة

العالم قلبه على إيران ..

وإيران قلبها على الحجر

العالم موزع بين متآمر وحاقد وشامت ومشفق وقلق .. والثورة تمتد كأنما الطوفان .. تمضى كأنما سهم القدر .. تدور كأنها خبز المساكين وفرحهم.

العالم لا يرى فوضى إلا في إيران ولا مذابح إلا في إيران، مع أن عدد المجرمين الذين نالهم قصاص الإسلام والثورة لا يتجاوز ضحايا رضا بهلوى في ساعات قليلة من ساعات أيامه السوداء، ولا يتجاوز قائمة القتلى الأسبوعية في جنوب لبنان من جراء قصف الطائرات الأمريكية التي يقودها اليهود، أما القردة الذين اعتادوا تمجيد الثورة الروسية أو الثورة الفرنسية .. فلم يحطهم أحد علماً بأن ضحايا أي من هاتين الثورتين ـ وفي اليوم الواحد أيضاً ـ كان يفوق كثيراً عدد كل المجرمين الذين سقطوا في إيران ويرق لحالهم هؤلاء القردة.

وفي معظم أنحاء العالم ـ بما فيه وطننا الإسلامي ـ يمتطى أحد الحكام كرسى التسلط ولا ينفك قائماً على رؤوس الناس لا تزحزحه إلا صاعقة فناء إلهية أو من هو أكثر تسلطاً منه وإرهاباً .... وفي إيران تقوم الجماهير بحماية خطها الإسلامي الثورى وتبعد رئيس الجمهورية بإرادتها ووعيها فلا يخجل الحاقدون من الحديث عن الإرهاب وفقدان الحس الديمقراطى (!!) في إيران.

إن الجماهير الثورية التي انحازت إلى جانب دينها العظيم تواصل الآن في إيران تصويب مسيرة الثورة الإسلامية وتنقيتها وتنجز مهمتها تلك بحسم وبدون مهادنة وبروح استشهادية فذة كما اعتادت طوال السنوات الأخيرة .. تواجه المنافقين والعملاء مواجهة كاملة وتقرر إبعاد رئيس الجمهورية عندما وجدت أنه لم يصبح قادراً على مواصلة المد الإسلامي الثورى.

(*) المصدر: مجلة المختار الإسلامي (العدد رقم ٢٧ ـ أغسطس ـ آب ـ ١٩٨١).

ماالذي حدث في طهران في الأسابيع القليلة الماضية؟

وكيف يمكن أن ننفذ إلى رؤية صائبة لما جرى؟

إن الأمور ستبدو أكثر وضوحا إذا ما حاولنا أن نمتد رأسياً ثم أفقياً، نتقصي بعض جوانب الثورة ـ طبيعتها، مراحلها المتغيرة، إشكاليتها ونقاط تماسها مع الدولة ومؤسساتها ـ ثم ننتقل إلى دراسة القوى الفاعلة والمؤثرة على الساحة الإيرانية.. كل هذا ضروري كمفتاح لحل(معضلة!) ما حدث، ؛وما يحلو للبعض أن يقول.

الثورة والدولة.. إشكالية الحركات التغييرية الراديكالية

بعد انتفاضة ٥ يونيو ١٩٦٣ التي ذهبت فداءها أرواح آلاف الشهداء.. قبض جنود الشاه على الإمام الخميني وأودع زنزانة انفرادية في معسكر عشرت آباد.. حاول الشاه يومها مقابلة الإمام الأسير، فرفض بشدة معلنا:«إنهم يريدون أن ألتقي بالشاه لكي أسقط من عين الشعب ويلوثوا سمعتي، إنهم يعلمون أن الشاه ساقط ومرفوض في نظر الشعب الذي يعتبر البحر نجساً إذا مسه الشاه.. ومن أجل ذلك فلن ألتقى بالشاه».

وهكذا كان الإمام يحدد بوضوح وفي وقت مبكر طبيعة المعادلة التي ستحكم مسار الثورة والانتصار القادم.. كان يختار بوعي أثبتت الأيام ـ ولا تزال ـ كم هو طاغ وفذ وكأنه الإلهام.. كان يختار المعادلة التي تحدد علاقة الأمة والثورة.. بالآخر.. بالعدو.. انها أصعب وأدق المعادلات.. لأن هذا الآخر.. عدو أسطوري يملك من القوة والمرونة [Flexibility] مالم تملكه قوة شيطانية على طول التاريخ البشري.. لقد كانت أمريكا ـ التي لم يكن الشاه أكثر من تابع لها ـ تملك من القوة ما يجعلها تحتمل عشرات الضوبات مهما كانت قاسية.. وكانت تملك من المرونة ما يجعلها كلما خسرت موقعاً أو فقدت ورقة من أن تنتقل إلى موقع جديد وتخرج ورقة جديدة.

في البداية لم يتصوروا أن الغضبة الجماهيرية يمكن أن تصل إلى هذا الحد من العنف والوعي أو أن الشارع الإسلامي سيقوم ولن يقعد، وأن رجال الدين

المناضلين يملكون هذه السيطرة الكاسحة على الشارع.. وبهذا كان همهم الأول بعد ذلك هو تهدئة هذا الشارع وبالتالي تفريغ الثورة.

العالم قلبه على إيران ..
وإيران قلبها على الحجر

كانت أولى أوراقهم إسقاط رؤساء وزراء مقربين من الشاه ولكن البديل لم يكن ليزيد الثورة إلا اشتعالاً، حتى توصلوا إلى أحد أهم الأوراق وهو تجهيز بختيار المعارض القديم للشاه وعضو الجبهة الوطنية ليسوي الأمور ـ بعد رفض سنجابي وبازرجان القيام بالمهمة ـ في نفس الوقت الذي يتم فيه إبعاد الشاه من مسرح الأحداث وذلك في محاولة لامتصاص النقمة وتفريغ الثورة، ومن ثم تطهير الشارع بروية وهدوء. وفعلاً أعلن الشاه عن استعداده للرحيل وأعلن بختيار عن تضامنه مع الفلسطينيين وقطع النفط عن إسرائيل ووعد بالحريات وبأنه لن يصبح شرطيا أمريكياً بعد الآن .. ولكن الإمام الذي حدد من البداية المعادلة الصعبة لم يتوان عن مواجهة حكومة بختيار وأعلن أنها«منافية للدين ولمصلحة الوطن».. ودعا الجماهير إلى التظاهر ضدها فكان ما تصوروه ورقة في أيديهم، دفعة جديدة زادت من هيجان الشارع الإسلامي في الوقت الذي كان فيه كارتر يطلب من الإمام الخميني في مؤتمر صحفي إعطاء فرصة لبختيار الذي صنعوا له رأياً عاما خارج إيران وحاولوا ربطه بالمؤسسات المنهارة للنظام ولكن دون جدوى.. ففكروا بإرسال بختيار إلى باريس لمقابلة الإمام الذي رفض بشدة رغم ضغط الكثير من العناصر الوطنية والمثقفين قصيري النظر الذي تصوروا أن لقاء كهذا سيحل كل المشاكل المعلقة.. ولكن صاحب«المعادلة الصعبة» كان يعلم أن الفخ الأمريكي يريد تفريغ الشارع والذي كان ممكناً لو وضع الإمام يده في تلك اليد الأمريكية النجسة التي لم تكن الجماهير تقبل بأقل من قطعها.

.. وهنا لاحظ الإمام أن فراغاً سياسياً خطراً قد يملأ إيران ويسمح للآخرين بحرية الحركة إن لم يتحرك هو وبسرعة، فقرر وسط إشفاق أنصاره ورفض أعدائه أن يعود إلى طهران.. ويروي أحمد الخميني أن الإمام قرر هذا رغم رفض وتردد

كل قادة الثورة من حوله خوفاً علي حياته.. ولكن القادم من فجر التاريخ ومن إشراقه بكل تجاربه، والمتأمل العظيم كان يعرف أنهم يريدون اجهاض الثورة وأن الفراغ السياسي إن حدث فسيكون قاتلاً ما لم يملأه هو شخصياً.

وهنا حاولوا تأجيل وصوله وانتقاله إلى جانب الجماهير مباشرة، مرة بغلق المطار وأخرى بتهديده ولكنه يعلن بكل حسم ووضوح: «لقد قررت العودة لأنني أرغب في سفك دمي على أرض إيران».. وهكذا مزق الإمام ورقة أخرى من أوراقهم وأعلن عن تكليف بزرجان بتشكيل حكومة مؤقتة كجسر مرحلي.

وظن الكثيرون ـ ومنهم أمريكا ـ أن الثورة التي لم يستطيعوا فهمها واستيعابها وإجهاضها ستتفرغ الآن في مؤسسات الدولة وأجهزتها.. وإن كان من الصعوبة بمكان محاصرة الهيجان العارم ومده الثوري.. فإن التعامل مع الدولة وضربها سيكون أكثر سهولة بالتأكيد خاصة أن أمريكا تمنت وعملت جاهدة لتحافظ على الجيش ذي الوجه الأمريكي والذي تصورت أنه سيكون إحدى أوراقها الساحقة والنهائية.. هذا في نفس الوقت الذي دفعت فيه بعض عملائها إلى صفوف الجناح المعتدل الذي بدا وكأنه تولي السلطة وقتها.

ولكن الإمام كان يعي أن تحول الثورة إلى دولة ليس قراراً علوياً لأنه ابتداءً ـ كرسالي محمدي ـ لا يمكن أن يكون سلطوياً ولأنه أساساً يفهم أن هذا يتم حين يستنفذ التحرك والتصعيد الثوري أغراضه في تنقية الثورة والبناء المجتمعي الإسلامي الحقيقي، وكان يعلم أخيراً أن ذلك سيحدث بشكل تلقائي. وهكذا استمر التصعيد الثوري في ظل مراقبة الإمام الجوهرية ومحاولة الإمساك بمفاتيح التوازن بين الأصل والفرع.. بين الثورة الموجودة والدولة التي يجب أن تنمو رويداً رويداً.. ذلك أن مؤسسات مختلفة تماماً ستظهر وأن الانهيار الشامل للنظام الجاهل يجب أن يسبق البناء الجديد.. وإن حلا للبعض أن يسمى ما يحدث فوضى فإن فهمنا نحن أنه فراغ ضروري يرافق مراحل الانهيار الأخيرة ويسبق البناء الجديد خاصة أننا لسنا أمام انقلاب عسكري كانقلابات جنرالات النوادي سابقا ولاحقاً، بل نحن أمام ثورة شاملة ولاحقة، بل نحن أمام ثورة شاملة متميزة ونادرة يظل من

السخف الشديد مقارنتها حتى بالثورة الروسية أو الفرنسية. وبدأت أمريكا تفهم وبصعوبة أن حلم اختراق الدولة ليس أقل صعوبة من حلم السيطرة على الثورة.

وقبل أن تفيق لتبحث عن حل جديد وورقة جديدة.. وبعد أيام قليلة من ذلك اللقاء الذي صافح فيه مهدي بازرجان يد بريزنسكي القذرة في الجزائر، كانت وكالات الأنباء وعلى طول العالم تبرق خبراً لا يقل في نظرنا عن خبر وصول الإمام إلى طهران وانتصار الثورة.. كانت معركة حقيقية كأي معارك التاريخ الإسلامي المجيد حين هزت يد الطلبة السائرين على منهج الإمام كل شيء داخل إيران وخارجها.. وتوجهت أنظار العالم إلى السفارة الأمريكية حيث كان مجد آخر يصنع.

سقطت طوابير المعتدلين(!) كما يحلو لبعضهم أن يقول، أولئك الذين كان من الصعب تمييز المخلص عن العميل في صفوفهم.. وصعد الأكثر إسلاماً وراديكالية ودخلت الثورة بذلك مرحلة جديدة.. هذا من جانب، وعلى الجانب الآخر كان العجز الأمريكي أكبر من أن تخفيه أساطيلهم وكل أجهزتهم الأسطورية عن أعين العالم وبخاصة المستضعفين الذين عمت أوساطهم الفرحة والابتهاج، وبرز الحاجز الكبير الذي أربك الأيدي الأمريكية وأعجزها عن التدخل.. هذا الحاجز الذي استمر ٤٤٤ يوماً كانت الثورة في أمس الحاجة لها لتبقى بحوزتها الجواسيس كرهينة تجعل الأمريكان يفكرون مرات ومرات قبل أن يحاولوا طرح أوراق جديدة.

في هذه الفترة كانت الثورة تصوت على الدستور الإسلامي.. تنتخب رئيس الجمهورية وتدشن ثورتها الثقافية وتنهي سنوات الاستلاب الروحي الطويلة وتتقدم على طريق إنهاء التبعية.

هذا هو مسار الثورة قبل أن يشتعل الخلاف بشكله الحاد والذي قاد إلى عزل بني صدر عن رئاسة الجمهورية.. وكي تتضح الأمور أكثر لابد من رؤية سريعة للخريطة السياسية وللقوى الفعالة في إيران.

هناك ثلاثة خطوط رئيسية يمكن من خلال رسمها تحديد هذه الخريطة السياسية بدقة:

١ ـ خط الإمام .. أو[لا شرقية ولا غربية]: ينسب إلى الإمام الخميني قوله«لا أريد أحزاباً، الشعب المسلم الملتزم هو الحزب» ولهذا فإن أغلبية ملايين الشعب الإيرانى تأتى ضمن هذا الخط وهي حسب المصطلح الإسلامي تمثل«أمة الإسلام».. وعلى رأس هذه الأمة الكثير من رجال الدين المناضلين الذين لم ينتسبوا رسمياً لأي حزب بدءاً من الشهيد آية الله المطهرى إلى أحمد الخميني مروراً بكثير من آيات الله المناضلين وأبرزهم آية الله منتظري وهؤلاء جميعاً معروفون ومتميزون رغم أنه لا يجمعهم تنظيم محدد. عندما سئل حجة الإسلام منتظري(الابن) قبل انتخابات مجلس الشورى عن توقعه للفئة التي ستحقق أكبر عدد من المقاعد قال:«أنه لا يتوقع أن يحقق هذا لا الجبهة الوطنية ولا الحزب الجمهوري ولا مجاهدي خلق.. ثم قال ولذلك ربما يفوز المستقلون السائرون على خط الإمام غير المرتبطين بأي جماعة بالأكثرية داخل مجلس الشورى».

ولكن هذا لم يمنع أن تنسب الكثير من الجماعات نفسها إلى هذا الخط.. حتى حزب توده أعلن تأييده لخط الإمام، وعندماسئل أحد قادة هذا الحزب بأنهم ينوون القفز إلى السلطة بعد وفاة الخميني بادر قائلاً«لا تقولوا بعد الخميني فإن الخميني إن شاء الله سيعيش أكثر..». ورغم تحفظ هذا القائد الماركسي على رئيس الجمهورية وقتها إلا أنه قال«وحتى رئيس الجمهورية.. نحن قلنا مادام رئيس الجمهورية على نهج سماحة الإمام فنحن معه(هكذا!!)».

ولكن هذه المناورات لن تمنعنا من تحديد آخرين يسيرون بحق على نهج الإمام أو قريبين منه، وهم كل من يؤمن«بولاية الفقيه» كما طرحها الإمام والتي تعني بتبسيط شديد ضرورة وشرعية أن يكون الفقيه المسلم مرجعاً سياسيا إضافة إلى مواجهة الشرق والغرب. ولهذا فإننا نجد على نهج الإمام كلا من: حرس الثورة، المنظمات المحلية(الكوميتات)، مؤسسة جهاد البناء، الحزب الجمهوري، الجمعيات الإسلامية، حزب الله، مؤسسة الشهداء ومؤسسة المستضعفين

هذا الخط يرفع شعار «لا شرقية ولا غربية».. توجهه السياسي والفكري، إسلامي عقائدي يعي ويؤمن باستمرار تصعيد الثورة وتصديرها سواء كنموذج أو كمساعدة محتملة.

٢ ـ نعم للشرق.. ونعم للغرب: وهؤلاء أغلبهم مسلمون يضعون إيران أولاً وتوجهاتهم تحكمها الظروف السياسية أكثر مما يحكمها التوجه الإسلامي العقائدي الراديكالي رغم فهمهم للخصوصية الإيرانية وارتباطها الجدي بالإسلام، وهم ليسوا عملاء لأي جهة أجنبية كما قد يتبادر إلى الذهن عند قراءة العنوان... وهذا يعني أنهم يسيرون كيفما سارت المصلحة الإيرانية، ومهدي بازركان أبرز ممثلي هذا الاتجاه فهو شخصية محافظة أقل التزاماً بالثورة، ويتضح هذا من كلمة الإمام التي وجهها إلى مجموعته «جبهة تحرير إيران» حين قال لهم:

«أنا أعرف أنكم مسلمون تصلون وتصومون ولكن الإسلام ليس هذا فقط.. الإسلام يعني الالتزام بالثورة».

وينتمي لهذه الحركة وهذا الخط كذلك صادق قطب زاده وإبراهيم يزدي وصادق طبطائي وعباس أمير انتظام.. وتتفاوت درجات اقترابهم من الخط الراديكالي للثورة فبينما كان يأتي وجهاً مقبولاً لدى الإمام والأمة كان الطلبة يلقون القبض على عباس انتظام بتهمة اتصاله بأمريكا ولم ينجه من الحكم بالسجن إلا إقرار مهدي بازركان أنه طلب منه القيام بالاتصال!

يضاف إلى هذه المجموعات بعض الشخصيات العامة ذات المصالح وأبرزهم تجار البازار. وهؤلاء جميعاً بالإضافة لما ذكر كانوا من دعاة ليبرالية الثورة وطرح الإنجازات الاقتصادية غير الراديكالية كبديل للتصعيد الثوري ومواجهة قوى الشر شرقاً وغرباً.

٣ ـ نعم للغرب أو نعم للشرق:

أ ـ نعم للغرب: هنا تأتي العناصر الموالية لأمريكا والغرب بدءاً من بقايا النظام وشراذمه وانتهاء بالجبهة الوطنية ومروراً بشهبور بختيار وحسن نزيه والجنرال أحمد مدني.

ب ـ نعم للشرق: هنا تأتي المجموعات الموالية للسوفيات أو على الأقل المعادية للغرب فقط.

ومنهم مجموعة حزب تودة التي لا تترك فرصة إلا لتدعي زوراً وبهتاناً أنها مع الثورة والإمام حتى أصبح زعيمها كيانوري يسمى «آية الله كيانوري»!! وهم أقدم حزب سياسي في إيران وكانوا منذ بداية تشكيلهم شديدي الارتباط والموالاة لموسكو حتى أن هناك نكتة شائعة في إيران تقول «إذا أمطرت السماء في موسكو رفع أعضاء حزب تودة المظلات في إيران».

وسر زعمهم تأييد الثورة يكمن في ضعفهم ثم هم على طول تاريخهم.. متى كانت لهم مكاتب علنية في إيران .. ومتى كانت لهم صحيفة علنية تصدر باسمهم.. إلا في ظل الثورة الإسلامية!!.

وعلى يسار حزب تودة تسقط منظمة فدائي خلق كما سقطت «حركة تحرير إيران» على يمين الثورة، وذلك من خلال ممارساتها اليسارية الطفولية..هؤلاء تأسسوا سنة ١٩٧٠ ورغم بعض مشاركتهم المسلحة للإطاحة بالشاه إلا أنهم أصبحوا الآن أكثر عناصر اليسار معاداة للثورة خاصة بعد انضمام مجموعات منهم لقتال الثورة في صف المتمردين الأكراد.

بقيت في هذا الخط منظمة «مجاهدي خلق».. وهي بدون شك أعصي على التحليل من الجميع والحديث عنها مأساوي ومحزن..هؤلاء الشباب كان من الممكن أن يكونوا مسلمين مخلصين وأولاداً طيبين ولكن؟؟

لقد تكونوا عام ١٩٦٥ بعد أن انشقوا عن حركة تحرير إيران ومهدي بازركان واعتبروا أنفسهم «جماعة الأب الطالقاني ذي الطلعة الكريمة» وكانوا في البداية مسلمين ثوريين يليقون فعلاً بالانتساب إلى طالقاني.. ولكن مجموعة اتحاد الطلبة الإيرانيين في ألمانيا (الكونفدراسيون) ذات التوجه الماركسي حاولوا التقرب منهم حوالي ١٩٦٨ بحجة الائتلاف فأرسل المجاهدون يستشيرون الإمام الذي رفض معتبراً الاتحاد غير إسلامي.

ولكن مجموعة منهم جرت الجماعة إلى الائتلاف بعد أن تم وضع قنبلة في مقر المجاهدين بألمانيا أودت بحياة عدد كبير من قادة الجماعة المسلمين المخلصين فقبل الباقون بالائتلاف عام ١٩٧٠.

بعد ذلك وقليلاً قليلاً تخلت الجماعة عن توجهها الإسلامي النقي لصالح أفكار ماركسية مادية وجيفارية إضافة إلى الإسلام الثوري(!) كما يدعون.

يقود هذه المجموعة شخصية قوية هو مسعود رجوي(٤٦ عاماً) الذي أفلت من حكم الشاه عليه بالإعدام مع مجموعة من رفاقه الذين تم إعدامهم بالفعل وذلك بواسطة شقيق له يدعي ظاظم رجوي والذي كان يعمل عميلاً مزدوجاً للاتحاد السوفيتي والشاه كما تقول وثائق وزارة الخارجية الإيرانية قبل الثورة.

ومسعود رجوي يرى في نفسه مسلماً ماركسياً(!) وأن الاقتصاد الإسلامي لن يحقق نجاحاً وأن الحكومة الحالية ليست إسلامية ثورية وأنها ستكون كذلك عندما تتحالف مع بقية القوى الماركسية.

ورغم أن بنى صدر كان قد هاجمهم في كتابه«قوة ضد العقيدة» إلا أنهم كانوا يصرحون بأنه الوحيد في النظام القادر علي تفهمهم ولذلك حاولوا دعمه في انتخابات مجلس الشورى، وعندما طالبهم الإمام بتسليم أسلحتهم قالوا إن ضمن بني صدر الأمر فسنفعل ولكن بني صدر لم يقم بذلك. ومما هو جدير بالذكر أن الإمام وصف مجاهدي خلق بالمنافقين.

والآن وقبل أن ندخل إلى جوهر الأحداث الأخيرة نسأل أين يقف بني صدر؟ والحقيقة أنني عندما ابتعدت عن التعميم لم أجد له مكاناً محدداً في أي من الخطوط الثلاثة.

فهو مفكر إسلامي ولكنه ليس على خط الإمام إن كانت«ولاية الفقيه» والالتزام بها شي مفتاح للدخول إلى هذا الخط.. وهو يميل إلى إعطاء جميع المجموعات ـ باستثناء شراذم وبقايا النظام ـ حرية في الحركة ربما على الطريقة الغربية ولكنه يكره الماركسية وبالتأكيد أكثر سلاماً وراديكالية من مجموعة حركة تحرير إيران.. وبني

صدر(٤٧ عاماً) ينتمي إلى عائلة متدينة ووالده من رجال الدين.. وقف في شبابه إلى جانب حركة مصدق وكان يجمع التواقيع لتأييد عملية التأميم.. اعتقل لفترة قصيرة خرج بعدها إلى باريس حيث درس التاريخ والاقتصاد.. له حوالي ١٧ مؤلفاً والعديد من المقالات، وكان يعتبر نفسه من نهج الإمام وقال بعد انتخابه مباشرة «إنني والإمام ننطلق معاً من فكر واحد ١٠٠٪ ولأن منطلقنا الفكري والأيديولوجي واحد ومتجانس، فلن يكون هناك أي مجال لوقوع خلاف وما حدث بين الإمام وبازرجان لن يقع بالتأكيد إن شاء الله بيني وبين الإمام، فأنا والإمام ننطلق إسلامياً وسيلة وهدفاً كما كان يفعل المسلمون الأوائل في فجر الإسلام.. أما بالنسبة لبزرجان فإن سبب خلافاته التي وقعت مع الإمام هو عدم قدرته على استيعاب الإسلام الثوري ومتطلبات المرحلة التي وصلت إليها البلاد..» ولكن الأمور لم تكن تماماً كما ذكر بني صدر.. فقد كان في نفس الوقت يطرح نفسه وريثاً لمصدق الذي تجاوزه الإمام بشكل أكثر جذرية وشمولية. وربما يعتبر من المفارقات المهمة أن إغلاق السفارة البريطانية كان أول ما فعله مصدق فيما وقف بني صدر ضد احتلال السفارة الأمريكية واحتجاز جواسيسها، ربما لأنه كان يرى أن مواجهة أمريكا تتم بالبناء الداخلي وإنهاء التبعية الاقتصادية وربما أيضاً لأنه أحس أن مركز قوة جديد ومنافس ظهر أمامه يدعمه الإمام..

بني صدر أيضًا لم ينضم رسمياً لأي تنظيم سياسي في حياته وكان يقول أن الجماهير هي تنظيمه وكان يسعى إلى تحقيق أهدافه عن طريق صناعة التيارات التي كانت تستنفد أغراضها وتنتهي حال تحقيق هدفها المرحلى المرسوم... عندما رحل إلى أوروبا تعامل في البداية مع مجموعة يسارية ماوية.. ثم تعامل مع مجموعة الجبهة الوطنية ثم ربطته علاقات بالإمام الخميني، وعندما اشتعلت الثورة كان تياره يضم بعض مجموعةالطلبة والأنتلجنسيا الإيرانية المنتشرة في أوروبا وبعض رجال البازار في داخل طهران. ومع انتصار الثورة كان هذا التيار قد حقق أغراضه.. فبدأ بني صدر في صنع تيار جديد ـ فترة انتخابات الرئاسة ـ شاركت فيه بالإضافة إلى المجموعات السابقة عناصر متعددة من رجال الدين كجمعية رجال الدين المناضلين

والذين كان منهم آية الله طاهر إمام جمعية أصـفهان وآية الله مدني إمام جمعية تبريز وآية الله صدوقي إمام جمعية يزد.. بل إن الطلبة الذين احتلوا السفارة قالوا إنهم قد أعطوه أصواتهم في الانتخابات.

ونجح بنـي صدر في الوصول إلى رئـاسة الجمهورية وبـدأ مهمته في إعـادة بناء الدولة ومؤسساتها ولكنه اكتشف أن كـرسي الرئاسة أضيق مما يجب.. وبدأ الصدام الذي خشيناه حين أشرنا إلى أن تحالف بني صـدر والأنتلجنسيا الإسلامية مع رجال الدين المجـاهدين سيـدعم تقدم الـثورة، ولكن بـني صدر الذي وجـد أن التصعـيد الثوري من قبـل رجال الدين والطلبة لا يـزال في أوجه.. ارتكب أكبر أخطـائه على الإطلاق حين تحالف مع مجاهدي خلق كتيار جديد قاده هذه المرة إلى الفشل.

خصوم بنى صدر الذين لم ينكروا عليه إسلامه ولكنهم قالوا إنه سياسي أكثر منه رجل عـقائدى..يرفـض احتجاز الـرهائن ويرفـض تصدير الـثورة ويريد عـلاقات طبيعية مع الشيـطان الأكبر أمريكا ولـم يعد يهتم بالشعـار الذي رفعته الثورة «الموت لأمريـكا».. وهـا هو يسـقط فـي شراك المنـدسين حـوله ويـهاجم «الـقصـاص» في السـجون مـعتبـراً إياه قـهراً وتعـذيباً.و الأهـم أن هذا الـشاب الذي لـم يتـربَّ في الحوزات العـلمية الديـنية ولم يعـرف آدابها وأصولـها ذهب إلى أوروبا ونـهل من علومها وفكرها، وهاهو يعود اليوم ليقف حاجزا بين رجال الدين والجماهير ويسعى لتقليص تـأثيرهم على الشارع ويبدو غـير متحمس قط لفكرة «ولايـة الفقيه»: ملاذ الأمة في زمن التغريب الصعب وفي كل زمان.

وطوال الفترة السابـقة للأزمة الأخيرة كان الإمام يقف موقفًـا متوازياً يحول دون طغيان طرف على الآخر حتى جاءت حادثة الشغب في جامعة طهران أثناء إلقاء بني صدر خطاباً له في ذكرى مصدق.. حيث قام بنى صدر بأمر أصدقائه بإلقاء القبض على مـثيري الشغـب وقام بقراءة أسمـائهم من بـطاقاتهم الـتي أحضرت إليـه على المنصة وظهر أن أغلبهم من العاملين فـي مكتب رئيس الوزراء وقد تبين بعد تحقيق دقيق أن البطـاقات كانت مزيفة وأن مجاهدى خـلق كانوا وراء العملية مـن بدايتها إلى النهاية.بعد هـذه الحادثة اجتمع الإمام بجميع الأطراف وتم تشكـيل لجنة ثلاثية

مكونة من حجة الإسلام د.محمد يزدى عن الإمام،وآية الله مهدوى كانى (وزير الداخلية الآن)عن الحزب الجمهورى وآية الله إشراقى (صهر الإمام) عن بنى صدر، وقدمت اللجنة تقريرها إلى الإمام...ولم يكن التقرير في صالح بنى صدر بل أن آية الله إشراقى استقال من اللجنة احتجاجاً على بنى صدر لأنه لم يستطع إقناع الأخير بوجهة نظره،بل إن «جمعية رجال الدين المناضلين»التي وقفت مع بنى صدر أثناء الانتخابات تراجعت عن تأييدها له ووقفت إلى جانب الحزب الجمهورى.ووجه الإمام نداءه إلى بنى صدر أن يبتعد عن حركات اليسار المنافقة وقال له «عد إلى القانون ..عد إلى القرآن ولاتسبب خلافات قد تعزلك عن الشعب...إننى أكن الحب لمعظمكم وأريد لكم أن تمتثلوا للقانون»

والآن وقبل أن تصل الأمور إلى ذروتها..هل من جديد خلف الستار..أو أين كان الشياطين الكبار؟

الدول الكبرى والخلاف الإيرانى:

منذ البداية لم تكن الدول الكبرى غائبة فهي إما تراقب وتعد وإما تتدخل سافرة أو من وراء ستار... كانوا دوماً يتمنون استمرار الخلاف ويؤججون ناره في انتظار اللحظة المناسبة.

١ ـ الاتحاد السوفيتى:

بالنسبة للروس كان الأمر حرجاً.. فرأس الحربة التي يعتمدون عليها أي حزب تودة ما زال ضعيفا، وسيحتاج إلى فترة أخرى من الوقت يدعم فيها موقفه داخل المجتمع الجديد ومؤسساته ولذلك فإنهم يرغبون في أن يشارك في قطف الثمرة التي توقع ستالين ـ قديما ـ أن تسقط في فمه ناضجة!!!

٢ ـ الولايات المتحدة:

أمريكا موجودة في إيران منذ ثلاثين عاماً، وعندما سقطت أوراقها رحلت تاركة عملاءها هنا وهناك.. أمريكا كانت في نوفيل لوشاتو وقبل نوفيل لوشاتو تراقب وتدفع بأوراقها ولكنها دوما كانت تصطدم بصلابة الإمام الثائر.. وإصراره ووعيه

الفذ، وكان هذا أشد مايزعجها فيه ويدفعها دوما لتطويقه والتشهير به ووضع سلطته موضع تساؤل داخل إيران.. ووضعه كرمز موضع تشكيك خارج إيران وأمام المسلمين والمستضعفين في العالم.

كان أشد مايزعجها أن الرجل يرفض أن يتكلم باسم الأمة الإيرانية.. إنه يؤمن بوحدة دار الإسلام وأمة الإسلام وأن هذه الحدود صنعها الاستعمار ويرى ـ مثلا ـ في الشعب العراقى المسلم أخا للشعب الإيرانى المسلم وأن صدام حسين ليس أكثر من زنديق كافر بينما المسلمون أولى ببعض.

ولهذا أصبح الهاجس الأمريكي ـ بعد فشل أوراق الدس الأولى ـ هو البحث عن بطل قومي في إيران يوقف تصدير الثورة. ولكنها أدركت أن هذا البطل القومي في ظل الخصوصية الإيرانية لابد أن يحمل عطاءً إسلاميا. ولكنهم أصبحوا يعون أن نظير هؤلاء في إيران (كريم سنجانى مثلاً) غير مقبول بسبب الخصوصية الإيرانية حيث من الصعب ألا تكون مسلماً هناك.

إذن لابد من الغطاء الإسلامي.. شيء على طريقة ضياء الحق في ظل دعم بعض المراجع أو رجال الدين المحافظين. انهم قد يقبلون بأى شيء عدا وجه الإمام ونهجه الثورى النقى.. بل انهم قد يقبلون ببنى صدر كمرحلة تضع سلطة الإمام موضع تساؤل وتبعد رجال الدين المجاهدين عن مركز التأثير «ليس حباً في بنى صدر ولكن كرهاً في علـى» ولأنهم من البداية يفضلون التعامل مع دولة مؤسسات وليس مع ثورة لايجدون منفذا لاختراقها.

إذن، هل نستطيع القول إنهم هم الذين عجلوا بتفجير النزاع وإثارة الصدام بين الحزب الجمهورى وبنى صدر.. من أجل ترك البلاد في حالة من الفوضى أو الفراغ تمهيداً لوصول البطل القومي أو الدكتاتورى الإسلامي؟ هل عمل عملاؤهم ـ سراً ـ كسعاة فنقلوا مخططات كل طرف إلى الآخر مبالغاً فيها أو مشوهة بما يخدم مخططهم؟ وهل كان تقرير لجنة التحكيم وحده سببه عزل بنى صدر عن قيادة

الجيش أم أن هنـاك أسبابا أخرى؟ وأخيرا ألم يـجر مجاهدو الشعب بـنى صدر إلى الدمار كما قال الإمام؟

من المؤكد أن الإمام لم يكن يريد أن ينتهي أول رئيس للجمهورية الإسلامية هذه النهـاية المأساوية.. ولقـد آسف حقا لعزلـه ولكن يبدو أنـه لم يكن هناك أمـام الثورة طريق ثالث. لقد خاطـبه الإمام قائلا «لو كنت قد سمعت نصيـحتي لما كان ذلك قد حدث ولكنك تفتقر إلى الحاسة السياسية.. رغم أنك ترعرعت في خضم السياسة إنك لم تستمع إلى نصائحى وقد جـروك إلى الدمار» ثم قال الإمام «على الرغم من كل جهـودى لم يدرك بنى صـدر ماقلتـه عندما طلـبت منه الابتـعاد عن المنـافقين» «هناك دائما مجال للاعتذار.. ولا أود أن تدمر نفسك أكثر من ذلك».

هكذا تمـت الأمور وكما سـبق وقلنـا قبل عام وقـبل عامين عـلى صفحـات هذه «المجلـة» فإن جبهـة موحدة تضـم بنى صـدر ورجال الدين هـي المطلب الأسـاسي والأول لتحقيق وحـدة قوى الثورة والانتصار النهائى.. ولـكن يبدو واضحاً الآن أن الذي يده فـي الماء ليس كالـذي يده في النار وأن مـسار الثورات لاتحدده الأمـنيات وأن عملـية التحول الثـورى المستمر الـتي تميز كل الـثورات العظيمـة أمر ضرورى وحتمى وعندما يتعلق الأمر بالإسلام في هذه الحقبة التاريخية فالأمر أكثر ضرورة.. إن ماحدث كان تثبيتا لدعائم الثورة التـي كان رجال الدين المناضلون روحها وعقلها ومحركها الأول، والذين كان من الواجب أن تستمر مـسئوليتهم الرسالية عنها وهم كذلـك دوماً الـضمانـة الأقوى لاسـتمرار ثـورة الإسلام فـي إيران وقيـام المجتـمع الإسلامي الرسالى الكامل. وسواء فضلنا الطـريقة التي تم التعامل بها مع بنى صدر أو لم نفضـلها فإننا نعـى جيداً أنه في ظل طغيـان الدول الكبرى ستبـقى كف الإمام الصلبـة وخط الإمام المتميز مـلاذ المسلمين جميعـاً وأملهم في الانتصـار والظهور، ذلك أنه هو خط الإسلام الشامل والمستقل.

وأخيرا ألايجدر بنا أن نتعلم كيف يمكن في ظل دولة الإسلام أن تتحقق فعلاً الحاكمية لله ولشرعه والسلطة للأمة وتوجهها كيف يمكن أن تسقط حتى سلطة رئيس الجمهورية عندما ترى الأمة أنها انحرفت عن المنهج الإسلامي الثورى الحقيقى الذي أرادته.

* * * *

كل صباح تطلع الشمس في طهران.. جميلة كما ينبغى أن تكون.. تسير الجموع في الشوارع تبصر الأشياء حولها، ترفع كفها في وجه الخطأ والانحراف والنفاق وتضم إلى قلوبها نماذج الصعود الإسلامي الكبير.

كل صباح تطلع الشمس في طهران.. جميلة كما ينبغى أن تكون.. تصرخ الجموع في الشوارع: لا للتبعية.. الموت للشيطان الأكبر في واشنطن وموسكو.. نستشهد وتبقى جمهورية إسلام الثورة.. وتعطى الشمس مزيدا من الجمال.

ويدعى العالم أن قلبه على إيران.. وإيران قلبها على الحجر.. ذلك أن إيران قلبها مع الإسلام والمستضعفين في كل بقاع العالم.

الدراسة العاشرة:

السنة والشيعة.. ضجة مفتعلة ومؤسفة

منذ مطلع القرن التاسع عشر والوطن الإسلامي يواجه التحدي الغربي الحديث.. التحدي الذي أفرزته الثورة الصناعية البرجوازية والحقد الصليبي القديم وكانت الحملة الفرنسية تشكل طلائعه الأولى. لقد أسقط هذا التحدي نظامنا السياسي المتمثل في الخلافة واحتل أرضنا واستمر في غزونا أخلاقياً وفكرياً طارحاً بدائله العلمانية الهزيلة.. وقبل أكثر من ثلاثين عاماً حقق هذا التحدي أخطر مهماته حين أفرز الدولة العبرية في القلب من الوطن الإسلامي وعلى الجانب الآخر أوصل عملاءه وتلامذته إلى السلطة التي اغتصبها.

وتشكل هذا من خلال منظومة جدلية خبيثة.. فتكريس التحدي لا يتم إلا بقيام إسرائيل وقيام الأخيرة يستدعي إسقاط الخلافة واستمرارها يستدعي أن تكون أنظمة الحكم في الوطن الإسلامي عميلة للاستعمار وتابعة له، فهي إفرازه الطبيعي والمنطقي وهي وجه العملة الآخر عندما تكون إسرائيل وجه العملة الأول.

هكذا بدأت الأمور وحتى سنوات قليلة مضت كان التحدي الغربي يظن أنه يوجه ضرباته النهائية.. القاتلة للحضارة الإسلامية المنهارة (!) حتى وجهت الثورة الإسلامية في إيران أول سهامها للغرب وحققت أول انتصار للإسلام في العصر الحديث. لقد عادت الحياة إلى هذا الجسد الذي ظنوه قد أصبح جثة هامدة.. فها هو يستفيق من جديد وينهض رائعاً وفتياً.. ومن أين؟ من حيث كان تأثيرهم الشيطاني أشد وأقوى وأشرس ما يكون.. لقد اكتشفنا ذاتنا وهانحن ننهض بعد قرنين من المهانة والذل وبعد قرون من التخلف والجهل.

ها هي الثورة الإسلامية تتقدم لترسم مفاهيم عدة منها:

(*) المصدر: مجلة الطليعة الإسلامية العدد(صفر) ـ لندن ـ (كانون الأول ١٩٨٢).

١) أسقطت من أذهان الجميع ـ خاصة مسلمي ومستضعفي العالم ـ ذلك الرعب من الدول والقوى الكبرى.

٢) قدمت نموذجاً ونمطاً حضارياً جديداً للبشرية بعد أن وضعت النمط الغربي في قفص الاتهام. يقول المفكر الفرنسي الشهير روجيه جارودي (لقد وضع الخميني نمط النمو في الغرب في قفص الاتهام) ثم يقول (الخميني أعطى حياة الإيرانيين معنى).

٣) أكدت على الدور التاريخي الذي سيلعبه الإسلام الثوري في حياة شعوب المنطقة بعد أكثر من قرن من محاولة إزاحة الإسلام عن السلطة والتأثير.

ولكن هل يترك الغرب وعملاؤه الثورة لتمضي في طريقها.. تتصدى له وتكسر شوكته؟ هل سيسكتون عن الفرحة التي سكنت الأمة وكأنها الغيث الذي يصيب الأرض الجدباء بعد طول انتظار؟ وهل يسمحون لهذا الشوق الإسلامي الذي فجرته الثورة أن يأخذ مداه؟

لقد هالتهم انتفاضة هذا الشعب المسلم وثورته المستحيلة فحاولوا جاهدين أن يحولوا بين الإسلاميين الثوريين وبين وصولهم للسلطة، وعندما فشلوا تحركوا على عدة محاور مختلفة ومتشابكة.

١) بدأوا في إثارة الأقليات المختلفة مستغلين ماأسموه مرحلة الفوضى التي تمر بها الثورة.

٢) دعم المجموعات الإيرانية المعارضة.. سواء الشراذم الملكية والسافاكية أم بعض التنظيمات العلمانية التي حملت السلاح لمحاربة الثورة.

٣) الحصار الاقتصادي والسياسي الذي تزعمته أمريكا وأوروبا الغربية وبرز بوضوح أثناء أزمة الجواسيس الرهائن.

٤) شن الغزو الخارجي عن طريق استخدام صدام حسين والجيش العراقي المغلوب على أمره.

٥) إثارة الفتنة بين جناحي الأمة المسلمة ـ السنة والشيعة ـ في محاولة أخيرة لمحاصرة المد الثوري ومنع تأثيره من الوصول إلى المناطق السنية سواء الغنية بالبترول أم تلك التي تواجه إسرائيل.

واستمرت المؤامرات.. في حين تم سحق تمرد الأقليات بحزم وتم القضاء على شراذم الملكيين وفلول المعارضة العلمانية وفي حين واجهت الثورة الحصار إلى الحد الذي يستبشر الإمام به خيراً ويقول للطلبة السائرين على نهجه «إننا لم ننهض للثورة من أجل أن نملأ بطوننا». ولهذا فإنهم لن يستطيعوا أن يسكتونا عندما يهددون بفرض المجاعة علينا. لقد نهضنا من أجل الإسلام كما فعل محمد ﷺ في صدر الحركة الأولى. ولم نعان شيئاً بعد بالمقارنة بما عاناه وواجهه الرسول ﷺ» ثم يقول: (طالما أنكم لستم معزولين فإن أدمغتكم لن تعمل).

أما الغزو الخارجي فقد ارتد إلى صدر منفذيه ألماً وحسرة وهزيمة ساحقة. لكن لابد من الاعتراف أنه رغم كل هذا، فإن المحور الخامس للمؤامرة المتمثل في إثارة الفتنة بين السنة والشيعة قد حقق بعض النجاح وإن كان إلى حين، لأن الأمة ستدرك سريعاً أي شيطان هذا الذي ينفخ في نار الفتنة، وستدرك أنها مفتعلة وأن الاستعمار يريد عزل الشعوب المسلمة بحيث تواجه جلاديها في النهاية منفردة.

لقد بدأ بعضهم يشن حملة مشبوهة ومفاجئة ضد الثورة الإسلامية التي اكتشفوا أخيراً أنها (ثورة شيعية) وأن (الشيعة فرقة ضالة أو كافرة) وأن آية الله الخميني الذي قالوا أنه هز العروش وهو يجلس فوق سجادته أصبح أيضاً (ضالاً كافراً) (!) وبدأ يتكرر أمامنا مشهد الشاب المسلم (!) الذي يحمل كتاباً سعودياً مليئاً بالمغالطات والافتراءات. يحمله من مسجد إلى مسجد يشرحه للناس ويبشر بما به من أضاليل.. أدرك أن بعض هؤلاء الشباب يتحرك بحسن نية متوهماً أنه يعمل لله تماماً كما أُدرك أن الطريق إلى جهنم مليء بمثل هذه النوايا الحسنة.. فمتى يكتشف هؤلاء الشباب أنهم وبحسن نية ينفذون مخططاً استعمارياً وأن عليهم أن ينقذوا أنفسهم قبل فوات الأوان.

إن موقف بعض الإسلاميين المعادي للثورة يفرض على الأمة أن تقف منهم موقف الشك والريبة.. من منطلقاتهم، من دوافعهم ومن أغراضهم.

بل إن موقفهم الغريب هذا يضع الحركة الإسلامية أمام مأزق خطير لم تتعرض له من قبل لأن أداء الثورة داخل صفوف الحركة الإسلامية يفقدهم مبرر وجودهم وليس أمام الحركة الحقيقية إلا أن تلفظهم إن آجلاً أم عاجلاً.

إن الذين يريدون أن يقتلوا النموذج الإيراني الفذ داخل الشخصية المسلمة وفي هذا الوطن المحتل بالذات لن يقتلوا إلا أنفسهم، فهم يقفون أمام حركة التاريخ المتقدم ويتصدون لثورة إسلامية يقودها إمام هو (فخر للإسلام والمسلمين) كما جاء في أحد بيانات التنظيم الدولي للإخوان المسلمين.

ولا أدري إن كان غريباً أم لا ماحدثني به أحد الشباب المسلم الذي زار أكثر من بلد إسلامي فلم يجد أبشع من هذا الهجوم الذي يشنه بعض (الإسلاميين) في هذا الوطن المحتل ضد الثورة، في حين أنه لم يجد شعباً أكثر ترحيباً وحماساً للثورة من الشعب الفلسطيني.

بعد هذه المقدمة فإنني أسعى في هذا البحث القصير إلى أن أضع أمام المسلمين بشكل عام وقواعد الحركة الإسلامية بشكل خاص، بعض الحقائق المهمة. لن أحاول أن اجتهد في رأيي لأقول إن الشيعة والسنة إخوة في الإسلام فرقتهم اجتهادات في فهم الكتاب والسنة لا تمس إخوتهم ولا تخرج أحدهما في نظر الآخر عن ملة الإسلام. لن أحاول أن أسوق الأدلة الشرعية التي لا تنتهي على صدق هذه المقولة الواضحة الأكيدة فهذا مجال بحث آخر أصبحنا نضطر إليه في هذا الزمن الذي عم فيه الجهل والتعصب الحزبي المقيت.. ولكني سأتناول الموضوع من زاويةأخرى مكملة وهي محاولة سرد مواقف وآراء لقادة ومفكرين وزعماء مسلمين تجمع الحركات الإسلامية على إمامة الكثير منهم.

إنني أفهم جيداً أن موقف بعض قواعد الحركة الإسلامية المعادي للثورة والمثير للضجة المفتعلة حول السنة والشيعة ليس موقفاً جذرياً أصيلاً ولكنه موقف طارىء

فرضه آخرون (!) على هذا الشباب المخلص الطاهر بعد أن وضعوه في دوامة الشك واليأس وهو يكتشف أخيراً أن الثورة التي أوقدت آماله وأشعلتها ليست ثورة إسلامية ولكنها شيعية وأن الشيعة (كفار).. وهذا هو محب الدين الخطيب صاحب الكتاب السعودي سيء السمعة الذي أعيدت طباعته مرة أخرى في هذا الوطن (٥٠٠٠ نسخة!!!) ها هو يورد الدليل تلو الدليل على كفرهم وضلالهم وخروجهم عن الإسلام: (إن لهم قرآناً غير الذي بين أيدينا). وغير ذلك من الأضاليل والترهات.

إن السيد الخطيب، الذي ينشر البعض أفكاره المغلوطة الضالة المضلة في حين يتناسون أفكاره المضادة لإسلاميين أعلام في حركاتهم.. هو الذي حارب دولة الخلافة الإسلامية فعمل مع إحدى الحركات القومية ـ طلائع الشباب العربي ـ وعندما انكشف أمره أثناء وجوده في الآستانة للتعليم عام ١٩٠٥ فر إلى اليمن وعندما أعلن الشريف حسين الثورة العربية التحق بها ثم حكمت عليه دولة الخلافة بالإعدام. ولم يعد إلى دمشق إلا بعد هزيمة الأتراك ودخول الجيش العربي(!) إلى دمشق فتولى إدارة أول جريدة عربية فيها (العاصمة).

نعود الآن لمحاولة استعراض مواقف وآراء الحركات الإسلامية والمفكرين الإسلاميين من هذه الفتنة الحرام والضجة المفتعلة المؤسفة.

الإمام الشهيد حسن البنا.. رائد الحركة الإسلاميةالمعاصرة هو واحد من الرواد الذين عايشوا فكرة التقريب بين الشيعة والسنة فكان من المساهمين في أعمال (جماعة التقريب بين المذاهب الإسلامية) التي ظن البعض أنها مستحيلة، وظن البنا وثلة من رجال الإسلام ومشايخه العظام أنها ممكنة قريبة واتفقوا أن يلتقي المسلمون جميعاً (سنيهم وشيعيهم) حول العقائد والأصول المتفق عليها وأن يعذر بعضهم بعضاً فيما وراء ذلك من أمور لا تكون شرطاً من شروط الإيمان ولا ركناً من أركان الدين ولا إنكاراً لما هو معلوم من الدين بالضرورة.

ويقـول عبد الـكريم الشـيرازي في كـتاب الوحـدة الإسلاميـة ـ وهو عبـارة عن مقالات لـعلماء من الشـيعة والسنـة قد نشرت في مـجلة رسالة الإسلام الـتي كان يصدرها الأزهر ـ يـقول الأستاذ الشيرازي عن جـماعة التقريب ص٧: لقـد اتفقوا على أن المسلم هو من يعتقد باللـه رباً وبمحمد نبياً ورسولاً لا نبي ولا رسول بعده , وبالقـرآن كتاباً وبالـكعبة قبـلة وبيتاً محـجوباً وبالأركان الخـمسة المعروفـة وبالإيمان بالبعث وبالعـلم بما هو ضروري في الدين.. وكانت هذه الأركان ـ الـتي ذكرنا على سبيل الحـصر ـ هي موضع اتفاق بـين المجتمعين من ممثـلي السنة بمذاهبـهم الأربعة المعروفة وبين ممثلي الـشيعة بمذهبيها الإمامية والزيديـة. وقد شارك في هذه الجماعة شيخ الأزهـر والمرجع الأعلى لـلافتاء وقتهـا الإمام الأكبر عـبدالمجيد سلـيم والإمام مصطفي عبد الرازق والشيخ شلتوت.

وليس أمامـنا معلومات دقـيقة عن الدور الخاص الـذي قام به الإمام الشـهيد في هذا الشأن ولكن أحد مـفكري الإخوان المسلمين ـ الأستاذ سالم الـبهنساوي ـ يقول في كـتابه (الـسنة المـفترى عـليهـا) ص٥٧ (منذ أن تـكونت جـماعة الـتقريـب بين المذاهب الإسلامـية والتي ساهم فـيها الإمام البنا والإمـام القمي والتعـاون قائم بين الإخوان المـسلمـين والشـيعة وقـد أدى ذلك إلى زيـارة الإمام نـواب صفوي سـنة ١٩٥٤ للقاهرة).

ثم يقول في نفس الصفحة أيضاً (ولا غرو في ذلك فمناهج الجماعتين تؤدي إلى هذا التعـاون). كما أنه من المعـروف أن الإمام البنا قد قابـل المرجع الشيعـي آية الله الكاشاني أثـناء الحج عام ١٩٤٨ وحدث بينهمـا اتفاق تشير إليه إحـدى شخصيات الإخوان المسلمين المهـمة اليوم وأحد تلامذة الإمام الشهيد وهو الأسـتاذ عبد المتعال الجبري الذي ينقل في كتاب (لماذا اغتيل حسن البنا ـ الطبعة الأولى ـ دار الاعتصام) ص٣٢ (ينقل عن روبيـر جاكسون) قوله (ولو طال عمر هذا الرجـل (يقصد حسن البنا) لكـان يمكن أن يتحقق الكـثير لهذه البلاد خاصـة لو اتفق حسن البنـا وآية الله الكاشـاني الزعيم الإيـراني على أن يزيلا الخـلاف بين الشيعـة والسنة.. وقد الـتقى الرجلان في الحجـاز عام ٤٨ ويبدو أنهما تفـاهما ووصلا إلى نقطة رئـيسية لولا أن

عوجل حسن البنا بالاغتيال).. ويعلق الأستاذ الجبري قائلاً (لقد صدق روبير وشم بحاسته السياسية جهد الإمام في التقريب بين المذاهب الإسلامية فما باله لو أدرك عن قرب دوره الضخم في هذا المجال.. مما لا يتسع لذكره المقام).

نستنتج من هذا عدة حقائق مهمة منها:

١) ينظر كل من السني والشيعي إلى الآخر على أنه مسلم.

٢) اللقاء والتفاهم بينهما وتجاوز الخلافات ممكن ومطلوب وهو مسؤولية الحركة الإسلامية الواعية الملتزمة.

٣) قام الإمام الشهيد حسن البنا بجهد ضخم على هذا الطريق.

ويروي الدكتور إسحق موسى الحسيني في كتابه (الإخوان المسلمين.. كبرى الحركات الإسلامية الحديثة) أن بعض الطلاب الذين كانوا يدرسون في مصر قد انضموا للجماعة.

ومن المعروف أن صفوف الإخوان المسلمين في العراق كانت تضم الكثير من الشيعة وعندما زار نواب صفوى سوريا وقابل الدكتور مصطفى السباعي المراقب العام للإخوان المسلمين هناك اشتكى إليه الأخير من أن بعض شباب الشيعة ينضمون إلى الحركات العلمانية والقومية، فصعد نواب إلى أحد المنابر وقال أمام حشد من الشيعة والسنة (ومن أراد أن يكون جعفرياً حقيقياً فلينضم إلى صفوف الإخوان المسلمين).

ولكن من هو نواب صفوى؟ إنه زعيم منظمة (فدائيان إسلام) الإسلامية الشيعية. وينقل الأستاذ محمد علي الضناوي في كتابه (كبرى الحركات الإسلامية في العصر الحديث) ص١٥٠ عن الصفوي قوله:

أولاً: الإسلام نظام شامل للحياة

ثانياً: لا طائفية بين المسلمين.. أي بين السنة والشيعة.

ثم ينقل عن نواب قوله أيضاً (لنعمل متحدين للإسلام ولننس كل ماعدا جهادنا في سبيل عز الإسلام.. أما آن للمسلمين أن يفهموا ويدعوا الانقسام إلى شيعة وسنة؟).

وفي كتاب (الموسوعة الحركية) ص١٦٣ يتحدث الأستاذ فتحي يكن عن زيارة نواب صفوى للقاهرة والحماس الشديد الذي قابله به الإخوان المسلمون ثم يتكلم عن صدور حكم الإعدام عليه من قبل الشاه قائلاً (كان لهذا الحكم الجائر صدى عنيف في البلاد الإسلامية وقد اهتزت الجماهير المسلمة التي تقدر بطولة نواب صفوى وجهاده وثارت على هذا الحكم وطيرت آلاف البرقيات من أنحاء العالم الإسلامي تستنكر الحكم على المجاهد المؤمن البطل الذي يعتبر القضاء عليه خسارة كبرى في العصر الحديث). وهكذا يصبح مسلم شيعي في نظر الأستاذ فتحي يكن كأحد أعظم شهداء الإخوان بل إنه يعتبر نواب وصحبه باستشهادهم ، قد انضموا إلى قافلة الشهداء الخالدين الذين سيكون دمهم الزكي الشعلة التي تنير للأجيال القادمة طريق الحرية والفداء.. وهذا الذي كان.. فما أن دار الزمان دورته حتى قامت الثورة الإسلامية في إيران ودكت عرش الطاغية (الشاه) الذي تشرد في الآفاق وصدق الله تعالى حيث يقول (ولقد سبقت كلمتنا لعبادنا المرسلين إنهم لهم المنصورون وإن جندنا لهم الغالبون).

وفي كتابه (الإسلام فكرة وحركة وانقلاب) يقول الأستاذ فتحي يكن بعد أن أعلنت إيران الشاه اعترافها بإسرائيل ص٥٦ (لا بد للعرب أن يتلمسوا في إيران نوابا وإخوانا نوابا.. لكن الدول العربية لم تدرك هذا حتى الآن.. ولم تعلم بأن الحركة الإسلامية هي وحدها التي تدعم قضاياه خارج العالم العربي.. فهل لإيران اليوم من نواب؟).. إذن الأستاذ يكن ينتظر نوابا فلماذا ـ بالله ـ تورمت أنوف واحمرت أنوف عندما جاء نواب ومن هم أعظم من نواب؟.

أما مجلة (المسلمون) التي كان يصدرها الإخوان المسلمون.. فهي في العدد الأول المجلد الخامس ـ ابريل ١٩٥٦ ص٧٣ تقول تحت عنوان (مع نواب صفوى): والشهيد العزيز ـ نضر الله ذكره ـ وثيق الصلة (بالمسلمون) وقد نزل ضيفاً في دارها بالقاهرة أيام زيارته مصر في كانون الثاني سنة ١٩٥٤.

ثم تنقل المجلة ص٧٦ رأي نواب في اعتقال الإخوان الذي يقول فيه (إنه حين يضطهد الطغاة رجال الإسلام في كل مكان يتسامى المسلمون فوق الخلافات المذهبية ويشاطرون إخوانهم المضطهدين آلامهم واحزانهم. ولا شك في أننا بكفاحنا الإيجابي الإسلامي نستطيع إحباط خطط الأعداء التي ترمي إلى التفريق بين المسلمين إذ إنه لا ضير في وجود الفرق المذهبية وليس بوسعنا إلغاؤها.. إنما الذي يجب أن نعمل على إيقافه ومنعه هو استغلال هذا الوضع لصالح المغرضين). وفي نهاية المقال تنقل المجلة عن نواب قوله (إننا متأكدون أننا سنقتل إن لم يكن اليوم فغداً ولكن دماءنا وتضحياتنا سوف تحيي الإسلام وتحفزه إلى النهوض. إن الإسلام بحاجة إلى هذه الدماء والتضحيات اليوم ولن ينهض بدونها أبداً).

وقبل أن نترك هذا الجانب من علاقة الإخوان المسلمين بالشيعة نشير إلى أن المراقب العام للإخوان المسلمين في اليمن الشمالي وحتى عامين مضيا كان شيعياً وهو الأستاذ عبد المجيد الزنداني، وأن عدداً كبيرا من الإخوان في اليمن الشمالي هم من الشيعة. والآن نعود مرة أخرى إلى موضوع جماعة التقريب لنستمع إلى عضو بارز في الجماعة هو الإمام الأكبر محمد شلتوت شيخ الجامع الأزهر الذي يقول (لقد آمنت بفكرة التقريب كمنهج قويم وأسهمت منذ أول يوم في جماعتها) (الوحدة الإسلامية ص٢٠) ثم يقول ص٢٣ (وها هو الأزهر الشريف ينزل على حكم مبدأ التقريب بين أرباب المذاهب المختلفة فيقرر دراسة فقه المذاهب الإسلامية سنيها وشيعها دراسة تعتمد على الدليل والبرهان وتخلو من التعصب لفلان أو فلان) ويواصل حديثه ص٢٤ (وكنت أود لو أستطيع أن أتحدث عن الاجتماعات في دار التقريب حيث يجلس المصري إلى جانب الإيراني أو اللبناني أو العراقي أو الباكستاني أو غير هؤلاء من مختلف الشعوب الإسلامية، وحيث يجلس الحنفي والمالكي والشافعي والحنبلي بجانب الإمامي والزيدي حول مائدة واحدة تدوي بأصوات فيها علم وفيها تصوف وفيها فقه وفيها مع ذلك كله روح الأخوة وذوق المودة والمحبة وزمالة العلم والعرفان).

ويشير الشيخ شلتوت إلى أن هناك من حارب فكرة التقريب ظانين أنها تريد إلغاء المذاهب أو إدماج بعضها في بعض، فيقول: حارب هذه الفكرة ضيقو الأفق كما حاربها صنف آخر من ذوي الأغراض الخاصة.. السيئة ولا تخلو أية أمة من هذا الصنف من الناس، حاربها من يجدون في التفرق ضماناً لبقائهم وعيشهم وحاربها ذوو النفوس المريضة وأصحاب الأهواء والنزعات الخاصة.. هؤلاء وأولئك ممن يؤجرون أقلامهم لسياسات مفرقة لها أساليبها المباشرة وغير المباشرة في مقاومة أية حركة اصلاحية والوقوف في سبيل كل عمل يضم شمل المسلمين ويجمع كلمتهم.

وقبل أن نترك الأزهر نستمع إلى الفتوى التي أصدرها بخصوص المذهب الشيعي وتقول في جزء منها (إن مذهب الجعفرية المعروف بمذهب الشيعة الإثني عشرية مذهب يجوز التعبد به شرعاً كسائر مذاهب أهل السنة فينبغي للمسلمين أن يعرفوا ذلك وأن يتخلصوا من العصبية بغير حق لمذاهب معينة.. فما كان دين الله وما كانت شريعته بتابع لمذهب معين أو مقصورة على مذهب فالكل مجتهدون مقبولون عند الله تعالى).

ومن جماعة التقريب إلى موكب لا ينتهي من المفكرين الإسلاميين نبدأهم بالشيخ محمد الغزالي الذي يقول في كتابه (كيف نفهم الإسلام) ص١٤٣ (ولم تنج العقائد من عقبى الاضطراب الذي أصاب سياسة الحكم ذلك أن شهوات الاستعلاء والاستئثار أقحمت فيها ماليس منها.. فإذا المسلمون قسمان كبيران شيعة وسنة مع أن الفريقين يؤمنان بالله وحده وبرسالة محمد ﷺ، ولا يزيد أحدهما على الآخر في استجماع عناصر الاعتقاد التي يصلح بها الدين وتلتمس النجاة).

ثم يقول في نفس الصفحة (ومع أني أذهب في كثير من إحكامي على الأمور مذاهب غير ما يرى الشيعة فلست أعد رأيي ديناً يأثم أي مخالف له وكذلك موقفي بالنسبة لبعض الآراء الفقهية الشائعة بين السنة).

وفي ص١٤٣ يقول (وكانت خاتمة المطاف أن جعل الشقاق بين الشيعة والسنة متصلاً بأصول العقيدة! ليتمزق الدين الواحد مزقتين وتتشعب الأمة الواحدة إلى شعبتين كلاهما يتربص بالآخر الدوائر بل يتربص به ريب المنون! إن كل امرىء يعين على هذه الفرقة بكلمة فهو ممن تتناولهم الآية: (إن الذين فرقوا دينهم وكانوا شيعاً لست منهم في شيء إنما أمرهم إلى الله ثم ينبئهم بما كانوا يفعلون) «الأنعام ١٥٩».. وأعرف أن المسارعة بالتكفير ميسورة في باب الجدل وأن إلزام الخصم بالكفر نتيجة رأي يقول به أمر سهل في حمى النقاش). ثم يقول الشيخ الغزالي ص١٤٤ ـ ١٤٥ (فإن الفريقين يقيمان صلتهما بالإسلام على الإيمان بكتاب الله وسنة رسوله ويتفقان اتفاقاً مطلقاً على الأصول الجامعة في هذا الدين، فإن اشتجرت الآراء بعد ذلك في الفروع الفقهية والتشريعية فإن مذاهب المسلمين كلها.سواء في أن للمجتهد أجره أخطأ أم أصاب). ثم يواصل قائلاً (وعندما ندخل مجال الفقه المقارن ونعيش الشقة التي يحدثها الخلاف الفقهي بين رأي ورأي أو بين تصحيح حديث وتضعيفه نجد أن المدى بين الشيعة والسنة كالذي بين المذهب الفقهي لأبي حنيفة والمذهب الفقهي لمالك أو الشافعي).. (نحن نرى الجميع سواء في نشدان الحقيقة وإن اختلفت الأساليب). أما في كتاب (نظرات في القرآن) للشيخ الغزالي أيضاً فإننا نجده يورد أقوالاً لأحد علماء الشيعة في هامش ص٧٩ يقول عنه : من فقهاء الشيعة وأدبائهم الكبار. وقد تعمدنا إيراد كلامه كله لأن بعض القاصرين يفهمون أن الشيعة قوم غرباء عن الإسلام منحرفون عن صراطه. وسيأتي في باب الإعجاز مايزيد معرفة (بالقوم). ويقول في هامش ص١٥٨ عند تعريفه بعالم آخر (هبة الدين الحسيني): من علماء الشيعة الأجلاء وقد تعمدنا نشر الخلاصة كاملة ليستبين القارىء المسلم مبلغ فقه هذا العالم بطبيعة الإعجاز وبالتالي مبلغ تقديس الشيعة لكتاب الله).

إذن هكذا يتحدث الشيخ الغزالي ـ واحد من أهم مفكري الإخوان المسلمين ـ عن الشيعة طارداً كل الأوهام الساذجة ليبدد بنور الحقيقة ظلام الجهل والحقد

والمصالح الأنانية. أما الدكتور صبحي الصالح فيقول: في كتابه (معالم الشريعة الإسلامية) ص٥٢ (وفي أحاديث أئمة الشيعة أيضاً أنهم لم يرووا إلا مايوافق السنة مكانة عظمى تلي كتاب الله بين مصادر٢٨٣ النبوية) ثم يقول (وأن السنة لديهم لها التشريع).

أما الأستاذ سعيد حوى فيتحدث في كتاب الإسلام ج٢ ص١٦٥ عن التقسيمات الإدارية في دار الإسلام حال اتساعها فيقول: إن الواقع العملي للعالم الإسلامي أنه مؤلف من مذاهب فقهية كل مذهب يغلب على بقعة.. وأمام هذا الواقع هل هناك مانع شرعي يمنع من ملاحظة هذه المعاني في التقسيمات الإدارية فالمنطقة ذات اللسان الواحد يكون لها ولاية، والمنطقة الشيعية تكون لها ولاية، والمنطقة ذات المذهب الفقهي الواحد يكون لها ولاية وتختار كل ولاية حكامها منها مع الخضوع للسلطة المركزية المتمثلة في الخليفة.

وهذا اعتراف واضح صريح من أحد أعلام الإخوان المسلمين اليوم بأن تعدد المذاهب ـ بما فيها الشيعة ـ لا يمس إسلام الناس ولا دينهم وأن الشيعة يكون عليهم أمير منهم في ظل دار الإسلام.

وفي كتاب (إسلام بلا مذاهب) يقول الباحث الإسلامي الدكتور مصطفى الشكعة ص١٨٣ (الإمامية الإثنا عشرية هم جمهور الشيعة الذين يعيشون بيننا هذه الأيام وتربطهم بنا نحن أهل السنة روابط التسامح والسعي إلى تقريب المذاهب لأن جوهر الدين واحد وله أصل ولا يسمح بالتباعد). ثم يتحدث عن هذه الطائفة التي تشكل أغلبية سكان إيران اليوم وعن اعتدالهم فيقول ص١٨٧ (فهم يبرأون من المقالات التي جاءت على لسان بعض الفرق ويعدونها كفراً وضلالاً).

أما الشيخ الجليل الإمام محمد أبو زهرة فيقول في كتابه (تاريخ المذاهب الإسلامية) ص٣٩ (لا شك أن الشيعة فرقة إسلامية إذا استبعدنا مثل السبئية الذين ألهوا علياً ونحوهم ـ من المعروف أن السبئية كفار في نظر الشيعة ـ ولا شك أنها في كل ماتقول تتعلق بنصوص قرآنية أو أحاديث منسوبة إلى النبي ﷺ وهم يترددون إلى من يجاورونهم من السنيين ولا ينافرونهم).

وفي كتاب (المدخل لدراسة الشريعة الإسلامية) يقول الدكتور عبد الكريم زيدان أحد أهم الإخوان المسلمين في العراق ص١٢٨ (ويوجد المذهب الجعفري في إيران والعراق والهند وباكستان وفي لبنان وله أتباع في الشام أيضاً وغيرها من البلاد. وليس بين الفقه الجعفري والمذاهب الأخرى من الاختلافات أكثر من الاختلافات بين أي مذهب وآخر).

والأستاذ المستشار سالم البهنساوي واحد من مفكري الإخوان الذين تعرضوا لهذا الموضوع بإسهاب في كتابه المهم (السنة المفترى عليها) يقول ص٦٠ رداً على الذين يزعمون أن للشيعة مصحفاً غير مصحفنا (إن المصحف الموجود بين أهل السنة هو نفسه الموجود في مساجد وبيوت الشيعة) وفي ص٢٦٣ يقول.. (أن الشيعة الجعفرية (الإثنى عشرية) يرون كفر من حرف القرآن الذي أجمعت عليه الأمة منذ صدر الإسلام). ويواصل في مجال رده على محب الدين الخطيب وإحسان ظهير في موضوع تحريف القرآن فيورد رسالة على الصفحات من٦٨ ـ ٧٥ تحمل آراء للعديد من علماء ومجتهدي الشيعة حول هذه المزاعم، فينقل عن الإمام السيد الخوئي ص٦٩ : المعروف بين المسلمين عدم وقوع التحريف في القرآن وأن الموجود بين أيدينا هو جميع القرآن المنزل على النبي الأعظم ﷺ. وينقل عن الشيخ محمد رضا المظفر: وهذا الذي بين أيدينا نتلوه هو نفس القرآن المنزل على النبي ومن ادعى فيه غير ذلك فهو محترق أو مغالط أو مشتبه وكلهم على غير هدى فإن كلام الله (لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه). ثم ينقل قول الإمام كاشف الغطاء (وأنه لا نقص فيه ولا تحريف ولا زيادة وعلى هذا إجماعهم).

وهناك آراء كثيرة يمكن الرجوع إليها على الصفحات المذكورة. أما الروايات غير الصحيحة التي قد يستند إليها البعض فهي مدانة ومرفوضة ويوجد مثيلها عند أهل السنة وهي عندهم أيضاً مرفوضة ومدانة (ارجع ص٧٤) وفي صفحة ٦١ يناقش الأستاذ البهناوي قضية العصمة فيقول:

(إن العصمة التي ينكرها أهل السنة لو فهمها الفريقان على أساس ماكان عند الأئمة الإثنى عشر ماوجد بين الفريقين ما يؤدي إلى أن يكفر كل منهما الآخر.. لأن

ما عند هؤلاءالأئمة ليس خروجاً عن الإسلام في معتقدات أهل السنة. فإن الإقرار بالعصمة إنما أنكرها نظرياً لأنها لم ترد في النصوص التي يعتقد بصحتها والمعلوم أن الكفر إنما يترتب على إنكار الثابت من القرآن والسنة مع علم المنكر بذلك.. فإن جهل أو اعتقد بعدم صحة الرواية لا يكون قد كفر إذا لم تقم عليه الحجة الشرعية).

ومن الأستاذ البهناوي إلى الأستاذ أنور الجندي وكتابه (الإسلام وحركة التاريخ) حيث يقول ص٤٢٠ (وقد كان تاريخ الإسلام حافلاً بالخلافات والمساجلات الفكرية وبالصراع السياسي بين السنة والشيعة.. وقد حرص الغزو الخارجي الممتد منذ الحروب الصليبية إلى اليوم على أن يغذي هذا الخلاف وأن يعمق آثاره حتى لا تلتئم وحدة عالم الإسلام. وكانت حركة التغريب وراء الإيقاع بين السنة والشيعة وتفريق كلمتهم وإذكاء الخصومة بينهم وقد تنبه السنة والشيعة جميعاً لهذه المؤامرات وعملوا على تضييق شقة الخلاف).

هل فهمنا إذاً من يثير هذه هذه الفتنة الحرام.. من الذي يستفيد منها.. هل فهمنا أن الشيطان هو الذي يدعو لفرقتنا وأن نكفر بعضنا بعضاً بينما الخلاف أقل بكثير مما يتصور بعض الذين وقعوا في حبائل هذا الشيطان. يقول الأستاذ الجندي ص ٤٢١: (والحق أن الخلاف بين السنة والشيعة لا يزيد عن أن يكون خلافاً بين المذاهب الأربعة) وحتى لا نقع في وهم أن السنة والشيعة شيء واحد وإنه لم يوجد في تاريخهم غلاة نقرأ ص٤٢١ للأستاذ الجندي (ومن الحق أن يكون الباحث يقظاً في التفرقة بين الشيعة والغلاة، هؤلاء الذين هاجمهم أئمة الشيعة أنفسهم وحذروا مما يدسونه).

أما الأستاذ سميح عاطف الزين صاحب كتاب الإسلام وثقافة الإنسان فقد فكتب كتاباً اسمه (المسلمون.. من هم) يناقش فيه موضوع السنة والشيعة ويقول في مقدمته ص٩ (ولا أخفي عليك أيها القارىء الكريم أن الذي دعانا لتأليف هذا الكتاب هو التفرقة العمياء الحاصلة في مجتمعنا اليوم وأخصها التفرقة الواقعة بين المسلم الشيعي والمسلم السني والتي يجب أن تكون قد تبخرت مع تبخر الجهل..

ولكن مع الأسف مازال لها بعض الجذور في النفوس المريضة لأن غرسها كان محكماً من قبل الفئة التي حكمت العالم الإسلامي على أساس من التفرقة وممن هم أعداء هذا الدين ومن المنتفعين الذين أبوا أن يعيشوا إلا كما تعيش الطفيليات على دماء الغير، وسأسرد لك في هذا الكتاب ياأخي المسلم الشيعي وياأخي المسلم السني أهم حقائق الاختلاف على فهم الكتاب والسنة والشيعة والتي لم تكن يوماً من الأيام اختلافاً على الكتاب والسنة بل كانت اختلافاً على فهم الكتاب والسنة) وفي نهاية الكتاب يقول الأستاذ سميح عاطف الزين ص ٩٨ـ ٩٩ (بعد أن اطلعنا على أهم الأسباب التي عصفت بهذه الأمة نختم هذا الكتاب بقولنا: إنه من الواجب علينا كمسلمين ـ وخاصة في عصرنا هذا ـ أن نرد زيغ الذين اتخذوا المذاهب الإسلامية سبيلاً للتضليل واللعب بالعقول وزيادة الشك. وعلينا أن نمحو روح الطائفية البغيضة، وأن نقطع السبيل على الذين يروجون الخصومة في الدين حتى يعود المسلمون كما كانوا جماعة واحدة متعاونة متحابة لا جماعات متعددة متنابذة متباغضة وعليهم أن يتشبهوا بتسامح وتعاون الخلفاء الراشدين).

هذا وقد كان أبو الحسن الندوي يتمنى إحداث تقارب بين الشيعة والسنة وهو يقول لمجلة الاعتصام الإسلامية المصرية (محرم ١٣٩٨هـ) (وإذا تم هذا العمل ـ يقصد التقريب ـ سوف يحدث انقلاباً لا يوجد له نظير في تاريخ تجديد الفكر الإسلامي).

وفي كتاب (تحديات أمام العروبة والإسلام) يتحدث الأستاذ صابر طعيمة ص٢٠٨ قائلاً (ومن الحق أن يقال أنه ليس بين الشيعة والسنة من خلاف في الأصول العامة فهم جميعاً على التوحيد وإنما الخلاف في الفروع .. وهو خلاف يشبه ما بين مذاهب السنة نفسها (الشافعية والحنفية) فهم يدينون بأصول الدين كما وردت في القرآن الكريم والسنة المطهرة. كما يؤمنون بكل مايجب الإيمان به ويبطل الإسلام بالخروج منه في الأحكام المعلومة من الدين بالضرورة.. ومن الحق أن السنة والشيعة هما مذهبان من مذاهب الإسلام يستمدان من كتاب الله وسنة رسوله).

أما علماء اصول الفقه فيعتبرون أنه لا إجماع ان لم يوافق مجتهدو الشيعة تماماً،

كما أنه لا إجماع إذا لم يوافق مجتهدو السنة. يقول الأستاذ عبد الوهاب خلاف في كتاب (علم أصول الفقه ـ الطبعة ١٤ ص٤٦): «إن للإجماع أربعة أركان لا ينعقد شرعاً إلا بتحققها وتأتي هذه الأركان:

أن يتفق على الحكم الشرعي في الواقعة جميع المجتهدين من المسلمين في وقت وقوعها بصرف النظر عن بلدهم أو جنسهم أو طائفتهم، فلو اتفق على الحكم الشرعي في الواقعة مجتهدو الحرمين فقط أو مجتهدو آل البيت أو مجتهدو أهل السنة دون مجتهدي الشيعة لا ينعقد الاتفاق العام بين جميع مجتهدي العالم الإسلامي في عهد الحادثة ولا عبرة بغير المجتهدين».

فإذا كانت موافقة الشيعة ضرورية لحصول إجماع المسلمين فهل يبقون بعد ذلك فرقة ضالة وفي النار؟!!

ويقول الأستاذ أحمد إبراهيم بك في كتابه (علم أصول الفقه وتاريخ التشريع الإسلامي ـ طبعة دار الانصار) يقول في الجزء الخاص بتاريخ التشريع ص٢١ (والشيعة الإمامية مسلمون يؤمنون بالله ورسوله وبالقرآن وبكل ماجاء به محمد صلى الله عليه وسلم ومذهبهم هو السائد على البلاد الفارسية). ثم يقول ص٢٢ (ومن الشيعة الإمامية قديماً وحديثاً فقهاء عظام جداً وعلماء من كل علم وفن وهم عميقو التفكير واسعو الاطلاع ومؤلفاتهم تعد بمئات الألوف، وقد اطلعت على الكثير منها) ويقول في هامش نفس الصفحة (يوجد في الشيعة غلاة خرجوا بعقيدتهم من دائرة الإسلام ولكن هؤلاء غير ملتفت إليهم من جمهور الشيعة الإمامية).

وبعد كل هذا السيل من الشهادات التي لا تنتهي لعلماء الأمة أود أن أشير إلى أولئك الذين حاولوا ترديد فتوى ابن تيمية ضد الرافضة ـ والتي تضم العديد من فرق الشيعة ـ وحاولوا سحب هذه الفتوى على الشيعة الإمامية الإثني عشرية ـ وبالتالي استغلالها ضد الثورة الإسلامية في إيران ـ لقد وقع هؤلاء في عدة أخطاء هامة:

١) لم يتساءلوا لماذا لم يجدوا في تاريخ الإسلام قبل ابن تيمية مثل هذه الفتوى رغم أن ابن تيمية جاء في القرن السابع الهجري.. أي بعد أكثر من ستة قرون لظهور الشيعة.

٢) لم يستوعبوا ابن تيمية والتناقضات التي واجهها المجتمع المسلم وهو يواجه الغزو الخارجي.

٣) لم يحاولوا في غمرة حقدهم على الثورة الإسلامية في إيران وموقفهم السياسي منها .. لم يحاولوا تقصي إذا ماكانت كلمة (الرافضة) التي ذكرها ابن تيمية تنسحب على الشيعة الإمامية الإثني عشرية ام لا؟ يقول الأستاذ أنور الجندي في كتابه الإسلام وحركة التاريخ ص٤٢٢ (والرافضة غير السنة والشيعة). ويستعرض الإمام محمد أبو زهرة في كتابه (ابن تيمية) بعض فرق الشيعة مثل الزيدية والإثنى عشرية دون أن يشير إلى أي موقف سلبي لابن تيمية منها ولكنه عند ذكر الإسماعيلية يقول ص١٧٠ (وهذه الفرقة هي التي كان لابن تيمية منها مواقف ضد بعض المنتمين إليها.. فقد حاربهم بعلمه ولسانه وسيفه..) ولهذا نجد الإمام أبو زهرة يسهب في دراسة هذه الفرقة بسبب موقف ابن تيمية منها كما يقول.

كان هذا موقف بعض الحركات والقيادات الإسلامية من هذه الضجة المفتعلة حول قضية الشيعة والسنة.. أما الثورة الإسلامية الإيرانية التي اشتعلت مع مطلع عام ١٩٧٨ فقد أيقظت روح الأمة المسلمة على طول المحور الممتد من طنجة إلى جاكرتا وتطلعت الجماهير المسلمة إلى طهران وقم وفي ذاكرتها انتصارات صدر الإسلام المذهلة.. ومع تقدم الثورة كان استقطابها للجماهير يزداد، هذه الجماهير التي كانت تعبر عن بهجتها وفرحتها في شوارع قاهرة المعز ودمشق الشام وفي كراتشي والخرطوم وفي استامبول ومن حول بيت المقدس وفي كل مكان تواجد فيه الإسلاميون. في ألمانيا الغربية كان الأستاذ عصام العطار أحد الزعماء التاريخيين لحركة الإخوان المسلمين والمعروف بإخلاصه وطول جهاده وطهارته الثورية.. كان الرجل الذي قضى عمره لم يهادن حاكماً ولم يقترب من قصر أمير يكتب كتاباً

كاملاً يتناول تاريخ الثورة وجذورها، ويقف بجانبها مؤيداً ويبرق أكثر من مرة للإمام الخميني مهنئاً ومباركاً ومؤازرا. وانتشرت أحاديثه المسجلة على أشرطة الكاسيت المؤيدة للثورة بين الشباب المسلم. كذلك قامت مجلة (الرائد) التي يصدرها بدور مهم في تأييد الثورة وشرح موقفها. وفي السودان كان موقف حركة الإخوان المسلمين وموقف شباب جامعة الخرطوم الإسلاميين من أروع المواقف التي شهدتها العواصم الإسلامية حيث خرجوا بمظاهرات التأييد، وسافر الدكتور حسن الترابي ـ زعيم الحركة في السودان والذي اشتهر بسعة ثقافته وحنكته السياسية ـ إلى إيران حيث قابل الإمام معلناً تأييده للثورة وزعيمها.

وفي تونس كانت مجلة الحركة الإسلامية (المعرفة) تقف بجانب الثورة.. تباركها وتدعو المسلمين جميعاً لمناصرتها ووصل الأمر إلى أن كتب زعيم الحركة الإسلامية هناك الأستاذ راشد الغنوشي في نفس المجلة مرشحاً الإمام الخميني لإمامة المسلمين، مما أدى إلى إغلاق المجلة بعد ذلك واعتقال زعماء الحركة على يد حكومة بورقيبة. ويعتبر الأستاذ الغنوشي أن الاتجاه الإسلامي الحديث (تبلور) وأخذ شكلاً واضحاً على يد الإمام البنا والمودودى وقطب والخميني تمثل أهم الاتجاهات الإسلامية في الحركة الإسلامية المعاصرة (كتاب الحركة الإسلامية والتحديث ـ راشد الغنوشي ـ حسن الترابي) ص١٦، ويعتبر في ص١٧: أنه بنجاح الثورة في إيران يبدأ الإسلام دورة حضارية جديدة.

ويقول في ص١٧ من نفس الكتاب تحت عنوان ماذا نعني بمصطلح (الحركة الإسلامية): ولكن الذي عنينا من بين ذلك الاتجاه الذي ينطلق من مفهوم الإسلام الشامل مستهدفاً إقامة المجتمع المسلم والدولة الإسلامية على أساس ذلك التصور الشامل: وهذا المفهوم ينطبق على ثلاثة اتجاهات كبرى: (الإخوان المسلمون، الجماعات الإسلامية بباكستان وحركة الإمام الخميني في إيران).

وفي ص٢٤ يقول (لقد بدأت في إيران عملية لعلها من أهم مايمكن أن يطرأ في مسيرة حركات التحرر في المنطقة كلها وهي تحرير الإسلام من هيمنة السلطات العاملة على استخدامه في وجه المد الثوري في المنطقة).

أما في لبنان فقد كان تأييد الحركة الإسلامية للثورة من أكثر المواقف وضوحاً وعمقاً ووقف الأستاذ فتحي يكن زعيم الحركة ومجلته الفذة (الأمان) من الثورة موقفاً إسلامياً ثورياً مشرقاً. وزار الأستاذ يكن إيران أكثر من مرة وشارك في احتفالات وألقى المحاضرات في تأييدها.

وفي الأردن أعلن الأستاذ محمد عبد الرحمن خليفة المراقب العام للإخوان المسلمين تأييده للثورة قبل وبعد زيارته لإيران.. كما طالب إبراهيم زيد الكيلاني الملك حسين بأن يتنكب طريق الثورة (!). وأنشد الأستاذ يوسف العظم قصيدته الشهيرة التي نشرت في أكثر من مجلة ومنها (الأمان) ودعا فيها إلى مبايعة الإمام الخميني.

أما في مصر فقد وقفت مجلات (الدعوة) و(الاعتصام) و(المختار الإسلامي) إلى جانب الثورة مؤكدة إسلاميتها ومؤيدة لها ولزعيمها. وعندما بدأ غزو صدام لإيران كتبت الاعتصام على غلافها (عدد ذو الحجة ١٤٠٠هـ ـ اكتوبر ١٩٨٠) (الرفيق التكريتي.. تلميذ ميشيل عفلق الذي يريد أن يصنع قادسية جديدة في إيران المسلمة) وفي ص١٠ من نفس العدد كتبت الاعتصام تحت عنوان (أسباب المأساة):

(الخوف من انتشار الثورة الإسلامية في العراق) ثم قالت (ورأى صدام حسين أن فترة الانتقال التي يمر بها جيش إيران وتحوله من جيش إمبراطوري إلى جيش إسلامي هي فرصة ذهبية لا تتكرر للقضاء على هذا الجيش قبل أن يتحول إلى قوة لا تقهر بفضل العقيدة الإسلامية في نفوس ضباطه وجنوده). وفي عدد (محرم ١٤٠١هـ ـ ديسمبر ١٩٨٠) كتب الأستاذ جابر رزق أحد أبرز صحفيي الإخوان المسلمين في الاعتصام ص٢٦ معللاً أسباب الحرب يقول (إن الوقت الذي اندلعت فيه هذه الحرب هو ذاته الوقت الذي فشلت فيه كل الخطط الأمريكية التآمرية على ثورة الشعب الإيراني المسلم) ويقول ص٢٧ (وقد نسي صدام حسين أنه سيقاتل شعباً تعداده أربعة أضعاف الشعب العراقي وهذا الشعب هو الشعب المسلم الوحيد الذي استطاع أن يتمرد على الإمبريالية الصليبية اليهودية) ثم يواصل حديثه (والشعب الإيراني بكامل هيئاته ومنظماته مصمم على مواصلة الحرب حتى النصر

وحتى إسقاط البعث الدموي.. كما أن التعبئة الروحية والنفسية بين كل أفراد الشعب الإيراني لم يسبق لها مثيل والرغبة في الاستشهاد تأخذ صورة التسابق والإقدام، والشعب الإيراني واثق تماماً في ان النصر في النهاية سيكون للثورة الإيرانية المسلمة).

ثم يشرح الأستاذ جابر رزق هدف الاستعمار من الحرب محاولاً إسقاط الثورة فيقول (.. وبسقوط النظام الثوري الإيراني يزول الخطر الذي يتهدد هذا النوع من الطواغيت الذين يرتجفون من تصورهم احتمال ثورة شعوبهم ضدهم وإسقاطهم مثلما فعل الشعب الإيراني المسلم ضد الشاه العميل). وفي نهاية المقال يقول: (ولكن حزب الله غالب.. ولكن لا بد من الجهاد والاستشهاد ولينصرن الله من ينصره إن الله لقوي عزيز).

إذاً هذا هو جوهر الحرب وليس مايردده أبناء الحقبة السعودية وبعض الطيبين الذين لا يدرون عن هذا العالم شيئاً قائلين إن إيران الشيعة تريد الانقضاض على النظام السني في العراق.. كم هو محزن هذا العمى وكم هو مجرم من يزرع هذا الجهل والحقد في قلوب الناس.

وفي عدد (صفر ١٠٤١هـ ـ يناير ١٩٨١) كتبت الاعتصام على غلافها (الثورة التي أعادت الحسابات وغيرت الموازين) وفي ص٢٩ تساءلت المجلة (لماذا تعتبر الثورة الإيرانية أعظم ثورة في العصر الحديث) وفي نهاية المقال الذي كتب بمناسبة الذكرى الثانية للانتصار الإيراني وبعد أن تكلم الكاتب عن قوة الجيش الإمبراطوري ووسائله القمعية قال (ومع ذلك انتصرت الثورة الإيرانية بعد أن سقط آلاف الشهداء.. وكانت بذلك أعظم ثورة في التاريخ الحديث بفعاليتها ونتائجها الإيجابية وآثارها التي أعادت الحسابات وغيرت الموازين).

ومن مصر إلى موقف التنظيم الدولي للإخوان المسلمين الذي وجه بياناً (إلى المسؤولين عن الحركات الإسلامية في كافة أنحاء العالم) وذلك أثناء أزمة الجواسيس الرهائن، جاء فيه (ولو كان الأمر يخص إيران وحدها لقبلت حلاً وسط بعد أن تبينت ما حولها، ولكنه الإسلام وشعوبه في كل مكان وقد أصبحت أمانة

في عنق الحكم الإسلامي الوحيد في العالم الذي فرض نفسه بدماء شعبه في القرن العشرين لتثبيت حكم الله فوق حكم الحكام وفوق حكم الاستعمار والصهيونية العالمية) ويشير البيان إلى رؤية الثورة الإيرانية لمن يحاول أن يفت في عضدها على أنه واحد من أربعة: (إما مسلم لم يستطع أن يستوعب عصر الطوفان الإسلامي ومازال يعيش في زمن الاستسلام، فعليه أن يستغفر الله ويحاول أن يستكمل نقص فهمه بمعاني الجهاد والعزة في الإسلام.. وإما عميل يتوسط لمصلحة أعداء الإسلام على حساب الإسلام متشدقاً بالأخوة والحرص عليها.. وإما مسلم إمعة يحركه غيره بلا رأي ولا إرادة.. وإما منافق يراهن بين هؤلاء وهؤلاء) (انظر صورة البيان).

وعندما بدأ الغزو الصدامي لإيران المسلمة أصدر التنظيم الدولي للإخوان المسلمين بياناً وجهه إلى الشعب العراقي هاجم فيه حزب البعث الملحد الكافر، على حد تعبير البيان الذي قال أيضا (إن هذه الحرب أيضاً ليست حرب تحرير للمستضعفين من الرجال والنساء والولدان الذين لا يملكون حيلة ولا يهتدون سبيلاً، فشعب إيران المسلم قد حرر نفسه من الظلم والاستعمار الأمريكي الصهيوني في جهاد بطولي خارق وبثورة إسلامية عارمة فريدة من نوعها في التاريخ البشري وتحت قيادة إمام مسلم هو دون شك فخر للإسلام والمسلمين) ثم يتكلم البيان عن أهداف العدوان الصدامي قائلاً:

(ضرب الحركة الإسلامية وإطفاء شعلة التحرير الإسلامية التي انبعثت من إيران) وفي نهاية المقال يقول مخاطباً الشعب العراقي (اقتلوا جلاديكم فقد حانت الفرصة التي مابعدها فرصة. ألقوا أسلحتكم وانضموا إلى معسكر الثورة، الثورة الإسلامية ثورتكم).. أما موقف الجماعة الإسلامية في باكستان فقد تمثل في فتوى مولانا أبو الأعلى المودودى التي نشرت في مجلة الدعوة ـ القاهرة عدد٢٩ أغسطس (أب) ١٩٧٩ ـ رداً على سؤال وجهته إليه المجلة حول الثورة الإسلامية في إيران، حيث أجاب العالم المجتهد الذي أجمعت الحركة الإسلامية على أنه واحد من أبرز روادها في هذا القرن قائلا: (وثورة الخميني ثورة إسلامية والقائمون عليها هم جماعة إسلامية وشباب تلقوا التربية في الحركات الإسلامية وعلى جميع

المسلمين عـامة والحركات الإسلامية خاصـة أن تؤيد هذه الثورة وتتعـاون معها في جميع المجالات.

إذن هذا المـوقف الـشرعـي من الـثورة كمـا يطـرحه المـودوي: وجوب الـتأيـيد والتـعاون إن كنانـريد أن نلـتزم بالإسلام.. أمـا معاداة الـثورة وشن حـرب صليبـية مشبوهة ضدها ومـن مَن؟ من مجموعات محسوبة على الحـركة الإسلامية.. فهذه مختلقة شرعية لفتَوى المجتهد الكبير..

أما موقف الأزهر فقد أعلنه شيخ الأزهر السابق في حديث مع صحيفة (الشرق الأوسط) التي تصدر في لندن وجدة (عام ٧٦) قائلاً (الإمام الخميني أخ في الإسلام ومسـلم صـادق) ثم يـقول (إن المسـلـمـين باخـتلاف مذاهـبهـم إخوة فـي الإسلام والخميني يقف تحت لواء الإسلام كما أقف أنا).

وفي كتـابه الأخير الـذي يتداوله شبـاب الحركة الإسلاميـة (أبجديات الـتصور الحركي لـلعمل الإسـلامي) يستـعرض الأستاذ فـتحي يكـن مؤامرات الاستـعمار والقوى الـدولية ضد الإسلام فيـقول ص٤٨ (وفي التاريـخ القريب شاهد عـلى ما نقول ألا وهو تجربـة الثورة الإسلامية في إيران.. هـذه التجربة التي هبـت لمحاربتها وإجهاضهـا كل قوى الأرض الكافرة ولا تزال بسـبب أنها إسلامية وانهـا لا شرقية ولا غربية). ترى لمن يستمع الشباب المسلم اليوم: إلى أبي الأعلى المودودي والأستاذ فتـحي يـكن أم إلى أنـصاف المـتعلـمين ومـدعي الإسلام وأحـيانـاً ذوي الأغراض المشبوهة!!

وآخر مابين أيدينا ماقالته مجلة (الـدعوة) المهاجرة إلى النمسا ـ العدد ٧٣ رجب ١٤٠٢ ـ مايو ١٩٨٢ ـ ص٢٠ (وفي العالم اليوم اليقظـة الإسلامية الشاملة التي كان من آثارها الثورة الإسلامية في إيران التي استطاعت ـ رغم عثراتها ـ أن تقوض أكبر الإمبراطوريات عراقة وأشدها عتواً وعداء للإسلام والمسلمين).

وهكذا فإن مجلـة (الدعوة) وفي عدد من آخر أعدادها تعتبـر أن الثورة الإيرانية هي ثورة إسلامـية، وأنها أثر من آثار الـيقظة الإسلامية الشـاملة التي أشرنا إلـيها في

بداية هذا البحث.. أما العثرات فهي في نظري الصعاب التي يحاول الاستعمار أن يضعها في طريق الثورة للتأثير على مسيرتها والتي من واجب المسلمين الملتزمين العمل على إزالتها.

هذا موقف علماء ومفكري الحركات الإسلامية السنية.. أما على الطرف الآخر فنكتفي بكلمات للإمام الخميني قالها بعد وصوله إلى باريس إجابة على سؤال يتعلق بأصول الثورة قال: (إن السبب الذي قاد المسلمين إلى سنة وشيعة يوماً ما لم يعد قائماً.. كلنا مسلمون.. هذه ثورة إسلامية.. نحن جميعاً إخوة في الإسلام). وفي كتاب (الحركة الإسلامية والتحديث) ينقل الأستاذ الغنوشي ص٢١ قولة الإمام الخميني (إننا نريد أن نحكم بالإسلام كما نزل على محمد ﷺ لا فرق بين السنة والشيعة لأن المذاهب لم تكن موجودة في عهد رسول الله ﷺ.

وفي الملتقى الرابع عشر للفكر الإسلامي الذي عقد في الجزائر قال ممثل الإمام الخميني السيد خسرو شاهي (الأعداء أيها الاخوة لا يفرقون بين سني وشيعي إنهم يريدون القضاء على الإسلام كفكرة وأيديولوجية عالمية ولذا فإن أي دعوة أو عمل لتفريق الصفوف باسم السنة والشيعة تعني الوقوف إلى جانب الكفر وضد الإسلام والمسلمين، وهي بالتالي كما أفتى الإمام الخميني حرام شرعاً وعلى المسلمين التصدي لها).

هل يمكن بعد كل هذا أن نفهم جوهر الثورة ومهماتها التاريخية وواجبها الإلهي.. إن الإسلام ينبعث من جديد في مواجهة التحدي الغربي الحديث ويتولى الإسلاميون الإيرانيون اليوم بجانب كل الإسلاميين الواعين الملتزمين حمل راية الانبعاث من أجل تحقيق انتصار الإسلام في الأرض ومن أجل تحقيق الغاية القصوى من حياتنا: مرضاة الله عز وجل. ولنستمع إلى المفكر المصري النصراني والماركسي غالي شكري الذي في هجومه على الثورة الإسلامية يوضح جزءا من مهمتها الإلهية يقول في مقال نشرته (دراسات عربية) ونقلته عنها مجلة البيادر السياسي الصادرة في القدس - عدد ١١ في ١/ ٢/ ١٩٨٢ - ص٣٦ (وكان من المفارقات - وبعضها لا يزال واضحاً أمام العيون - مفكرون عرفوا بتاريخهم

الماركسي يتحولون في غمضة عين إلى إسلاميين عتاة .. مفكرون ينتمون بحكم شهادة الميلاد إلى المسيحية يتحولون في لحظة إلى مسلمين متطرفين، مفكرون ينتمون بحكم ثقافتهم إلى الغرب وحداثته يتحولون بلا قيد أو شرط إلى شرقيين متعصبين).

(وهكذا تحت راية الخميني تجمهرت صفوف من المثقفين العرب باسم إعادة النظر إلى المسلمات وباسم العودة إلى الأصالة بعد طول غربة وتغريب واغتراب وباسم (الفشل الذريع الذي منيت به الماركسية أو العلمنة أو الليبرالية أو القومية). انتهى كلام غالي شكري الذي استطاع في معرض هجومه وسخريته من المد الخميني أن يفهم جوهر الثورة أكثر من دعاة مسلمين. ! !

وفي نهاية المقال لا يسعنا إلا أن نردد مع الإمام الخميني كلمة قالها منذ حوالي سبعة عشر عاماً في خطبة له في جمادى الأول ١٣٨٤هـ:

(الأيدي القذرة التي بثت الفرقة بين الشيعي والسني في العالم الإسلامي لا هي من الشيعة ولا من السنة .. إنها أيدي الاستعمار التي تريد أن تستولي على البلاد الإسلامية من أيدينا والدول الاستعمارية، الدول التي تريد نهب ثرواتنا بوسائل مختلفة وحيل متعددة هي التي توجد الفرقة باسم التشيع والتسنن).

الدراسة الحادية عشرة

أربعة أعوام على انتصار الثورة الإسلامية

سيكون من الصعب علينا في هذه الصفحات القليلة، أن نقدم رؤية كاملة لما يحدث في الجمهورية الإسلامية في إيران ومن حولها، فالمسألة تتعدى المكان الصغير، لتشمل العالم بأسره وتتعدى شؤون الشعب المسلم في إيران، لتشمل الأمة الإسلامية كلها. ورغم ذلك، فقد حاولنا، من خلال المقالين التاليين أن نركز الضوء على أهم ماحدث خلال العام الرابع ومازالت آثاره تتفاعل إلى الآن.

في المقال الأول تحدثنا عن المتغيرات الرئيسية داخل الجمهورية الإسلامية في العام الرابع من عمرها، ويهمنا أن نشير هنا إلى أننا أغفلنا مسألتين لا تقلان أهمية عن المسائل التي عالجناها: الأولى هي إعلان وزارة (للحرس الثوري) في الحكومة، المؤسسة الإسلامية الثورية التي استمرت طوال الأعوام الماضية كمؤسسة مستقلة لا تمثل في أجهزة الحكومة الرسمية. وقد أدركنا أن هذه المسألة تحتاج إلى حديث طويل حول الدولة والثورة.. طبيعة كل منهما وعلاقتهما ببعضهما البعض وخاصة داخل الوطن الإسلامي.. ولما كان المجال لا يسمح الآن بمثل هذا الحديث فإننا نرجو أن تتاح لنا فرصة قادمة لمعالجة هذا الأمر.

أما المسألة الثانية المهمة والعاجلة: فهي علاقة الجمهورية الإسلامية بالجماهير المسلمة خارج إيران.. فقد لوحظ أن هذه العلاقة قد تصاعدت وازدادت وثوقاً رغم المؤامرات العديدة، بل وأخذت في التحول من الطبيعة العاطفية البحتة السابقة إلى علاقة أكثر وعياً وتفهماً خاصة في المناطق العربية. ولكن الذي لوحظ كذلك وبقلق شديد من معظم المراقبين المسلمين، أن العلاقة بين الجمهورية الإسلامية والتنظيم الدولي للإخوان المسلمين ـ أحد أهم التنظيمات الإسلامية في المنطقة العربية ـ قد تردت في العام الأخير إلى درجة سيئة، وقد أغفلنا قاصدين معالجة هذه المسألة حتى لا نثير صيحات الاحتجاج من هنا وهناك. وأيضاً حتى لا

(*) المصدر: مجلة الطليعة الإسلامية ـ العدد (٢) (شباط/ ١٩٨٣)

نفتح باباً جديداً للمؤامرة من خلال ازدياد الجدل حول هذه المسألة. جميعنا يذكر أن زيارات العديد من الشخصيات الإسلامية من الإخوان لم تنقطع في السنوات الأولى للثورة عن إيران، ونحن نثق أن حواراً إسلامياً صادقاً حول مسائل الخلاف لن ينهيها فقط، بل وسيؤدي إلى تصاعد الوعي والعمل الإسلامي في المنطقة.

١ ـ المتغيرات الرئيسية في العام الرابع

في العام الرابع من عمر الجمهورية الإسلامية أثبت الإسلاميون قدرة الإسلام العظيم والأمة الإسلامية على الصمود في مواجهة كل قوى الطغيان العالمية، وأصبح واضحاً أن الحكومة الإسلامية في إيران، تجاوزت بخطوات واسعة الخط الحرج، وازدادت علاقتها بجماهير الأمة وثوقاً، وأن الذين حلموا أو توهموا أن مؤامرة الحرب أو سقوط بني صدر أو إجرام المنافقين وإرهابهم من أمثال رجوي، ستنهي الحكومة الإسلامية، جميعهم يقفون الآن ووجوههم في حلوقهم يبحثون عن أخطاء الأصنام الغربية في مناهج التحليل التي كانت تقودهم في ضلالهم.

ورغم أهمية رصد أحداث العام الماضي وإنجازاته على أرض الإسلام في إيران بشكل تفصيلي وتحليل كامل لأهمية هذه التجربة القصوى وضرورة استيعابها من كل آباء الحركة الإسلامية في العالم. إلا أننا هنا ـ ولصعوبة ذلك في هذا المجال المحدود ـ سنقتصر على رصد المتغيرات المهمة والرئيسية التي طرأت على تكوين الحكومة الإسلامية في إيران سواء في داخلها أم حولها.. داخل الساحة الإيرانية، أم عبر الدائرة المتسعة للوطن الإسلامي ككل.

أ ـ الحرب.. أضخم المتغيرات:

مع نهاية ١٩٨١ كان عام قد مر على الهجوم الصدامي على الثورة الإسلامية وكانت قوات الغزو قد توغلت إلى عمق كبير داخل الجمهورية الإسلامية مستغلة تفكك الجيش على إثر انتصار الثورة الإسلامية وعدم اكتمال عملية بناء قوات الحرس الثوري الإسلامي. وقد بدا أن الموقف في غاية الصعوبة فقد سقطت العديد من المدن المهمة وبعض الحقول النفطية وأصبحت قوات صدام على مشارف

الأهواز وديزفول ومحيطة بالمدينة النفطية المهمة (عبدان) من عدة جوانب. ورغم أن عام ٨١ كان عام الامتحان الكبير لقدرة الإسلام والمسلمين على الصمود في إيران، إلا أن امكانيات التجاوز والمدد الإلهي العظيم قد أحاطت بقوات إسلامية وهي تتحرك من أجل رد العدوان. وما أن اكتمل العام الثالث من عمر الجمهورية الإسلامية حتى كانت الانتصارات الكبيرة قد دوت في سماء المنطقة وحركت الآمال العظام في صدور المستضعفين مرة أخرى، بعد أن حاولت القوى الإمبريالية تحطيم هذه الآمال. فقد تم بعد عمليات (دارخوين) فك الحصار عن عبدان، وتطهير كل المنطقة شرق نهر قارون ثم حررت مدينة بستان بعد عملية عسكرية كبيرة وسريعة مما جعل الإمام الخميني يطلق عليها اسم (فتح الفتوح). ومن فبراير إلى مايو ١٩٨٢ انهت القوات الإسلامية الجزء الأكبر من مهام التحرير عندما استطاعت في عمليات (بيت المقدس) أن ترفع راية لا إله إلا الله على مئذنة المسجد الجامع في مدينة (خونين شهر).

في مسار يوم تحرير (خونين شهر) تيقن المسلمون في كل أنحاء العالم من نصر الله العزيز، ففي طهران أقيمت صلوات الشكر في الشوارع، وتدافعت الجماهير إلى مطابع الصحف اليومية لتلتقط الطبعات الإضافية، وفي الخليج كان المسلمون يرتعشون من نشوة الانتصار، وهم يحاولون التقاط إذاعة طهران بكل الوسائل الممكنة، وفي بيروت أطلقت آلاف الطلقات في الوقت الذي ارتفعت فيه أصوات التكبير من مآذن المساجد.. وفي الوطن المحتل في الجامعة الإسلامية اصطف الطلاب في ساحة الجامعة بمدينة غزة يستمعون إلى أحد مدرسيهم وهو يتحدث عن الإمداد الغيبي العظيم في معارك الإسلام المعاصرة..

ويوماً بعد يوم تواصلت الانتصارات الإسلامية على طريق إزاحة قوى الطغيان وإقامة الجمهورية الإسلامية، ولكن خلف الانتصارات العسكرية الكبيرة كان لا بد أن نبحث عن دلالات هذه الانتصارات وعن آثارها في منطقة الوطن الإسلامي والعالم:

* أكدت هذه الانتصارات أن الحرب كانت خيراً كما قال الإمام في أيامها الأولى وأنها كانت أداة العناية الإلهية الكبرى، فقد استطاعت أن تكشف ضعف القوى الليبرالية وهزالها وعدم قدرتها على مواصلة خط الثورة الجذرية الكاملة.. كما أنها ساهمت مساهمة رئيسية في بدء العمل الجاد والنشط، من أجل بناء اقتصاد ومستقبل بعيداً عن القوى الكبرى وهيمنتها على الاقتصاد العالمي ونهبها لخيرات المستضعفين، كما أن هذه الحرب واصلت عملية الشحن والتثبيت لأمة إسلامية ثورية.

* مرة أخرى أعيد إلى العالم الجيش الإسلامي كما كان في عصر محمد صلى الله عليه وسلم، فقد تضاءلت أهمية الجندي المحترف وأعيدت صيغة الأمة المجاهدة حيث لا فرق بين الجماهير المسلحة والجماهير غير المسلحة، فالأدوار يتم تبادلها باستمرار وبغير توقف. وأصبحت (أفواج الحرس الثوري) و(متطوعو المستضعفين) أسلوباً جديداً لم يعرفه العالم من قبل إلا في صدر الإسلام ودليلا على عملية التواجد الجماهيري الدائم في ساحة الحرب.

* أنهت هذه الحرب وبشكل كبير تلك الفكرة القائلة بأن على من يريد كسب أي حرب أن يكسب في البداية دعم احدى القوى الكبرى. ففي هذه الحرب قاتلت الجماهير بأسلحة عادية بسيطة في معظم الأوقات وبدون أي دعم من أي قوة من القوى الكبرى، ولم تملك من السلاح إلا ذلك الذي كان شراؤه ممكناً من الأسواق الحرة وبدون أي ضغوط سياسية، وكان واضحاً أن الإنسان هو الذي حسم نتائج الحرب وليس السلاح.

* عبر هذه الحرب أصبح للدولة الإسلامية ثقل عسكري وسياسي بارز في منطقة الوطن الإسلامي وفي العالم كله، وتوقفت ـ بالرؤية الشاملة ـ حالة التدهور العام في وطننا الإسلامي، فأمام قوة العلو والإفساد الإسرائيلي ترتفع يوماً بعد يوم قوة الجمهورية الإسلامية ويتأكد التفاف الجماهير حول خط إسلامها العزيز وتتحدد ملامح طريق طهران ـ القدس.

* كان النظام البعثي العراقي وبالتحديد منذ منتصف السبعينات يحاول أن يقوم

بآخر عملية إحياء للفكرة القومية العربية، بعد أن دمرت الهزائم والإحباطات والسلطوية المحاولة الناصرية التي أقام السادات على روحها أكبر عزاء فرعوني، وقد أغرت المحاولة الصدامية الكثير من عجائز الفكرة القومية ومروجيها، فجاءت الحرب لتنهي هذه المحاولة وتكشف الوجه القبيح والدموي لمدعي الفكرة القومية، وأصبح الإسلام وحده قوة الفعل والتأثير الرئيسية في المنطقة.

إن هذه الحرب كانت أكبر بكثير مما تصورها بعضنا سواء فيما كان الاستعمار يأمله من ورائها أم فيما هو ناتج عنها من آثار في مستقبل الوطن الإسلامي، ولعل أجيالنا القادمة التي ستنعم بإذنه تعالى بالحياة في وطن عظيم تظلله راية الله لن تنسى أن صعود الإسلام المعاصر قد بدأ يوماً من تحت المنازل المهدمة في ديزفول وهويزه وخور مشهر.

ب ـ انحسار قوى التخلف والقوة المضادة للإسلام:

منذ الأيام الأولى لانتصار الثورة الإسلامية بدا أن هناك قوتين داخليتين لن تستطيعا السكوت على تقدم الثورة الإسلامية واستقرارها، القوه الأولى من خارج الدائرة الإسلامية وهي مجموع تيارات اليسار ومجاهدي خلق والليبراليين الغربيين، أما القوة الثانية فهي من داخل الدائرة الإسلامية وهي بالتحديد اتجاه شريعة مدارى ومجموعة (الحجتية) ومن هم قريبون منها.

القوة الأولى لا يحتاج عداؤها للإسلام إلى توضيح فهي أصلاً جزء من اتجاهات التغريب في الوطن الإسلامي التي تم استلابها لصالح الفكر الغربي سواء الرأسمالي أم الشيوعي.. وأمام التفاف الجماهير حول خط الثورة الإسلامية الأصيل فقد فقدت توازنها وبالتدريج كشفت عن وجهها القبيح والمعادي للإسلام.. ففي البداية أصدقاء السفارة الأمريكية الرسميين وحملة الفكر الشيوعي من فدائيي خلق ثم مجاهدي خلق وبني صدر وأخيراً اتجاه الليبراليين الديمقراطيين مثل قطب زادة وأصدقائه.

أما القـوة الثانية فلأنـها من داخل الدائرة الإسـلامية فإن موقـفها قد يثيـر بعض الاستغراب والـدهشة وخاصة بالنـسبة لمعظمنا مـن أهل السنة الذين قـد لا يملكون اطلاعاً كافياً على الفكر الإسلامي الشيعي السياسي.

وسنحـاول هنا أن نوضـح الأمر باختـصار شديد: النـظرية السـياسية الإسـلامية السنية تركزت حول فكرة الإجماع، وكان أول من قال بهذا الإمام الشافعي ـ رحمة اللـه علـيه ـ كمـا يذكـر د. ضياء الـدين الريـس في كـتابه (الـنظـريات السـياسـية الإسلامية) فـيما ارتكزت النـظرية السياسـية الإسلامية الشـيعية على فـكرة النص، وبانتهاء عصـر الأئمة توزع الرأي إلى اتجاهين: اتجاه يقول بـعدم تدخل الإسلام في سياسـة الأمة والحرص علـى تربية الـناس إسلاميـاً.. بانتظـار ظهور الإمام المـهدي، والاتجاه الآخر يقول بأن علـى فقهاء الأمة مسؤولية القيام بشـؤون الإسلام السياسية والإشراف على تطبيـق شريعة الله كاملة في المجتمـع.. وهذا الاتجاه هو الذي يدعو إلى ما اصطلح عليه بـ(ولاية الفقيه). وقد ظل الاتجاه الأول سائداً بين علماء الشيعة المسلـمين إلى أن تحرك الإمـام الخميني فـي حركته ١٩٦٣م وبدأ مـواجهته الـكبرى لنـظام الشاه وأيـضاً لاتجاهات الـتغييـب داخل الحوزة الـعلميـة.. ولم يترك فـرصة واحدة سـواء في إيران أم فـي سنوات مـنفاه في الـنجف إلا وأكـد دور ومسؤولـية علماء الأمة فـي النهوض من أجل تطبيـق شريعة الله ومواجهة الـطواغيت، وذلك إلى أن انتصرت الثورة الإسلامية في ١٩٧٩.

وقد أظهـرت الوقائع التـفاف الجماهيـر حول قيادة الإمام الخـميني وسيـادة مبدأ ولاية الفقيه، والتغييرات الكبيرة التي بدأت داخل إيران من أجل جمع شتات الأمة الإسلاميـة كلها مـن سنة وشيـعة، وكانت فـكرة ولاية الفـقيه نفـسها من أهـم هذه الخطوات، إلا أن كل هـذا لم يسعد البعض، فـأمثال شريعة مداري الـذين حرصوا دائماً على أبعاد الإسلام عـن سياسة الأمة والذين كانت مكانتهم العـلمية توفر لهم الملايـين من الأتـباع قد أزعـجهـم إلى حد كـبيـر التفـاف الجمـاهير حـول القـيادة الإسلامية للإمام الخميني، ومجموعة (حجتـية) الذين بنوا تصورهم كله على فكرة (الانتظار للإمام المهدي)، أذهلتهم حركـة الأمة من أجل اقامة دين الله ورفع رايته.

وهكذا بدأت الحرب المضادة للثورة الإسلامية بإشاعة الشائعات: إن الخميني جاء ليحطم مذهب آل البيت، وإن حكومته ستقضي على التشيع، ووزعت الكتب وحاول البعض إثارة الاضطرابات في بعض صلوات الجمعة وكل ذلك لاستفزاز عواطف الأمة ضد خط الإمام الخميني وقيادته.

وكان هناك خياران في مواجهة كل هذه القوى والتيارات: الأول أن تواجه بعنف ويتم تصفيتها بشكل مبكر، والحقيقة أن هذا لو كان حدث لقلل ربما عدد الضحايا الذي خسرته الجمهورية الإسلامية في الأعوام الأخيرة في حربها ضد قوى التخلف وقوى الكفر والنفاق في الداخل.. ولكنه بلا شك ماكان كافياً لأن يوضح كل الحقائق للأمة وتأكيد التفافها حول الخط الإسلامي الأصيل، وهذا هو ماحققه الخيار الثاني حين تركت قيادة الثورة كل القوى لتكشف هي عن وجهها القبيح والمعادي للإسلام والتابع للغرب وأعوانه وذلك من خلال تأكيد التصور الإسلامي الصواب ومواصلة عملية تثوير الأمة وتعميق الروح الوحدوية لديها. وهكذا ويوماً بعد يوم اضطرت كل قوى النفاق والتخلف، أمام ضغط وتسارع التحول الإسلامي الثوري الشامل، إلى أن تعلن عداءها للإسلام وللثورة ولاستغلال الأمة وأن ترتكب العديد من الجرائم التي جعلتها تحت طائلة القانون كما جعلتها هدفاً لغضبة جماهير الأمة.

في العام الرابع من عمر الجمهورية الإسلامية دمرت الجماهير وقواها الإسلامية بشكل رئيسي قوى وهياكل منظمات المنافقين مثل (مجاهدي خلق) و(بيكار) و(فدائيي خلق).. كما تم تطهير معظم أجهزة الجمهورية من أفراد حزب «تودة» المندسين، وكشفت مؤامرة قطب زاده ومجموعته، فيما قام علماء الحوزة العلمية بكشف حقيقة شريعة مداري وعزله عن المرجعية، كما ضربت محاولات التفرقة بين شيعة وسنة في داخل البلاد، وأدت عمليات التوعية وانصهار الجماهير في المؤسسات الثورية الإسلامية إلى تحويل تيار الحجتية إلى تيار هامشي لا أثر له في المجتمع الإسلامي.

جـ ـ الخروج من الأزمة الاقتصادية:

منذ بداية الظهور الإسلامي في إيران والاقتصاد أحد المجالات المهمة التي حاولت القوى الكبرى تحطيم قوة الصعود الإسلامي من خلاله، وأيضاً محاولة إبقاء حالة التبعية الاقتصادية للغرب التي كانت حكومة الشاه تدفع البلاد إليها. وقد بدأت الحرب الاقتصادية بإعلان حالة المقاطعة وحصار إيران اقتصادياً بعد تطهير وكر التجسس الأمريكي فيما كان يدعى بالسفارة الأمريكية في طهران. ثم بدأ تركيز قوات صدام بشكل رئيسي على تحطيم المنشآت النفطية ومصافي البترول لقطع المنفذ الرئيسي للاقتصاد الإيراني. والحقيقة أن عامي الحرب الأولين (٨٠ ـ ٨١) جعلا البلاد تمر بأزمة اقتصادية ليست بالسهلة.. ولكن وعي الأمة وثقتها بالله وتعاظم روحها الإسلامية الفذة جعلها قادرة على الصمود طوال شهور الأزمة ومن ثم على تجاوزها.

فقد تواصلت الجهود لإنهاء التبعية الاقتصادية بإبداع الصناعة الملائمة لظروف الوطن الإسلامي ودفع الزراعة إلى الأمام بعد أن دمرتها حكومات الشاه ومحاولة تحقيق اكتفاء زراعي كامل بعد أن كانت البلاد تستورد معظم خبزها من الخارج.

وفي إحصائية لشهر أكتوبر عام ١٩٨٢م، أعلن أن الصادارت الإيرانية غير النفطية خلال الشهر نفسه قد ارتفعت إلى ١٧١١٦ طناً بقيمة ٢١٢٩ مليون ريال وبزيادة ١٧٪ من حيث الكمية و١١٪ من حيث القيمة، وذلك بمقارنتها مع شهر أكتوبر من العام الماضي.

ومع نهاية العام ١٩٨٢م أعلنت أوبك في إحصاءاتها الرسمية أن صادرات إيران من النفط قد بلغت ٢,٥ مليون برميل يومياً وأنه سيصل مع الشهور الأولى لعام ١٩٨٣م إلى ثلاثة ملايين برميل يومياً في حين أنه لم يكن قد تجاوز ٨١٦٠٠٠ برميل يومياً في عام ١٩٨١.

ورغم المحاولات التي تقوم بها السعودية لإغراق السوق النفطي العالمي ومنع إيران من تصدير نفطها إلا أن السياسة الإسلامية لبيع النفط وعقد العديد من

العقود ذات الكمية الصغيرة مع دول العالم الثالث والابتعاد عن أسواق الدول الكبرى، قد أفشل محاولات السعودية تماماً بينما تأثرت دول الخليج تأثراً كبيراً بالسياسة السعودية وبدأت فعلاً تعاني من أزمات العجز وفقدان السوق.

وقد أشارت كل من الجارديان والإيكونوميست والواشنطن بوست في شهر ديسمبر الماضي إلى أن الفائض النقدي الإيراني قد يصل إلى حد لم يصله من قبل في الشهور القليلة القادمة وذلك بعد دفع أثمان كل المستلزمات العسكرية والمدنية للبلاد.

وهكذا ويوماً بعد يوم يتأكد الإمداد الغيبي العظيم ويتزايد ثبات أقدام الإسلام والجمهورية الإسلامية في إيران.

د ـ مجلس الخبراء.. ذروة الإنجازات:

في ٢٤ صفر الموافق ١٠/ ١٢/ ١٩٨٢ ورغم سوء الأحوال الجوية فقد تدفقت الجماهير المسلمة في إيران إلى صناديق الانتخاب بالملايين وذلك من أجل انتخاب ٨٣ عضواً لمجلس الخبراء. الإقبال الجماهيري على التصويت كان هائلاً في مدينة (أشنوية) الكردية الملاصقة للحدود العراقية، حيث كانت نسبة التصويت ٩٥٪ وقد اضطرت الجهات المسؤولة إلى تمديد مدة الانتخابات لفترةعشر ساعات إضافية في محافظتي أذربيجان الغربية وكردستان بسبب الإقبال المنقطع النظير الذي شهدته مراكز الاقتراع. ماذا يعني هذا الإقبال المدهش من قبل كل فئات الأمة وطوائفها وماهي أصلاً مهمةمجلس الخبراء ودلالة وجوده؟

مجلس الخبراء يتشكل أساساًمن ٨٣ عضواً يعرفون بالأخلاق الحسنة والمعارف السياسية والاجتماعية ويعتقدون بنظام الجمهورية الإسلامية، وينبغي أن يكونوا ملمين بمبادىء الاجتهاد الإسلامي، إلى الحد الذي يستطيع فيه العضو منهم أن يشارك في تحديد الفقهاء القادرين على قيادة الأمة والثورة الإسلامية. باختصار، هم أهل الحل والعقد كما نقول نحن أهل السنة، مهمتهم الاساسية هي انتخاب قيادة الأمة (شخص واحد أو مجلس من ثلاثة أو خمسة أفراد) على أن تتوافر في هذه

القيادة شروط العدالة والفقه والتقوى ومعرفة العصر والشجاعة والتدبير، أي أن المجلس يبحث في موضوع خلافة الإمام الخميني، وذلك يعني كسر كل المؤامرات والدعاوى التي تترصد بالجمهورية الإسلامية وتزعم أن الجمهورية الإسلامية ستنتهي بنهاية الخميني.

الإمام الخميني قال في رسالته للأمة حول المجلس: (إن في هذا المجلس صلاحا للعباد والبلاد.. وأنه لتقوية الزعامة الإسلامية لا لإضعافها..). ولنا أن نلاحظ مايلي حول تشكيل مجلس الخبراء الذي تم في الشهر الأخير من عام ٨٢:

* إن المجلس دلالة جديدة على أن (ولاية الفقيه) قد قفزت بالفقه السياسي الإسلامي الشيعي خطوات كبيرة نحو توحيد النظرية السياسية الإسلامية لدى كل من السنة والشيعة، فشروط عضوية المجلس والشروط الواجب توافرها في القيادة وطريقة انتخاب أعضاء المجلس، وأيضاً تحديد شخصية القيادة هي في مجموعها لا تخرج عما اشترطه فقهاء أهل السنة حول هذه المسألة، وذلك واضح فيما كتبه (الماوردي) من القدماء ورشيد رضا وضياء الدين الريس من المحدثين.

* إن المجلس سيقطع الطريق على كل المؤامرات التي تترصد الجمهورية الإسلامية في حالة وفاة الإمام ـ أدامه الله ـ الذي التفت حوله جماهير الأمة.

* إن تشكيل المجلس يعني انتهاء عملية بناء المؤسسات الدستورية الإسلامية مما يدل على استقرار الحكم الإسلامي وثباته في إيران رغم كل دعاوي المتآمرين.

* إن ذلك الاقبال الهائل على عملية الانتخابات من كل فئات الأمة وطوائفها يعني بالتأكيد هزيمة كل مؤامرات التفريق في الداخل بين عناصر الأمة الإسلامية وطوائفها.

* إن الانتخاب المباشر لأعضاء مجلس الخبراء من قبل الأمة يعني أن الإسلام يضع الأمة دائماً في مكان المسؤولية على مصيرها ومستقبل إسلامها.

في إحدى المناسبات أكد الإمام الخميني على أن: (هتافات الله أكبر التي تصدح في كافة أنحاء إيران الإسلام مزلزلة عروش المستكبرين هي التي ينبغي على الأعداء

أن يتمنوا موتها في حناجر أبناء الشعب ليخمد لهيب الثورة، لا أن يتمنوا غياب الإمام الخميني عن ساحات الأحداث).

ذلك أن هذا الذي يشتعل ويتصاعد في منطقة الوطن الإسلامي هو الإسلام وليس الخميني، والإسلام باق إلى يوم القيامة.

٢ ـ الإطار الجديد للحرب المضادة للإسلام

منذ اليوم الأول لانتصار الثورة الإسلامية في فبراير ١٩٧٩ وحتى الآن لم تتوقف المؤامرات ضدها بل تتصاعد يوماً بعد يوم.. كما تتصاعد إلى جانب الهجمة على الثورة الإسلامية في إيران هجمة شرسة على كل أجنحة الحركة الإسلامية في مختلف انحاء الوطن الإسلامي، ذلك أن الغرب بطرفيه الرأسمالي والشيوعي وبقيادة الشيطان الأكبر أمريكا يدرك تمام الإدراك خطورة المد الإسلامي المعاصر وخطورة النهضة الإسلامية البادية في الأفق، حيث أن الصعود الإسلامي وانتصار منهج الحق الالهي لن يكون إلا على حساب هيمنة الباطل الغربي على مقدرات العالم وخاصة منطقة الوطن الإسلامي.

في العام الأول لانتصار الإسلام في إيران حاول الغرب تسريب بعض عناصره إلى السلطة، كما حاول استمالة العناصر الليبرالية ذات الصبغة الإسلامية، ولكن الجماهير الإسلامية الواعية أسقطت المؤامرة. فالعميل الأمريكي عباس أمير انتظام يمضي الآن عقوبة السجن على جرائمه التي لم تكن إثارة النعرات العنصرية (فرس ـ عرب) إلا واحدة منها فقط. كما أن العملية الفذة التي قام بها الطلبة المسلمون باحتلال وكر التجسس الامريكي فيما كان يسمى السفارة الأمريكية في طهران، تلك العملية التي أحاطها المدد الغيبي الكبير كانت الضربةالأخيرة إلى حكومة بازرجان الضعيفة التي غطتها شوائب الليبرالية ومنعتها من مواكبة مد الجماهير الثوري.

في العام الثاني للجمهورية الإسلامية وعندما أحس الغرب الكافر بأن الإسلام يثبت أقدامه يوماً بعد يوم في إيران دفع صدام إلى حربه المسعورة على جمهورية

الإسلام ومطلع نهضته على أبواب القرن الخامس عشر الهجري، وظن الكثيرون أن الضربة الأخيرة وأن الجيش المفتت والحرس الذي كان في مرحلة التكوين لن يستطيعا أبداً إيقاف الزحف الجنوني لقوات صدام المدعمة بكل العون الغربي الشرير. وخلال أسابيع قليلة كانت قوات العدوان قد وصلت إلى أبواب الأهواز وديزفول وقطعت نهر قارون إلى ضفته الشرقية محاصرة مدينة عبدان، وصدام يهدد بإسقاط حكومة الإسلام وبأن قواته مستمرة حتى بندر عباس.. حتى في إيران وقف البعض حيارى لا يدرون ما الطريق. وإذا بالإمام يتحدث إلى الأمة مطمئناً (بأن الحرب خير) ومؤكداً أن الإسلام سيلطم صدام لطمة لن ينساها أبداً. الكثيرون غفلوا عن المدد الإلهي العظيم وعن وعد الله لعباده بالنصر والتمكين والرباط على القلوب وغفلوا أيضاً عن ثقل الجماهير المؤمنة عندما تثق بوعد الله وتخوض الصراع بكل قواها وفئاتها.. يومها لم يفهم كلام الإمام جيداً بل ظن البعض من أعداء الله أن (الخميني يهذي في لحظات النزع الأخير). وقبل شهور وعندما وقف أبناء الحرس وتعبئة المستضعفين يرفعون راية (لا إله إلا الله) فوق أعلى مئذنة في خونين شهر، أدرك الجميع ما كان يعنيه الخميني وبدأ البحث الاستعماري عن طريق لإنقاذ صدام.. ولكن إلى أين؟

في العام الثالث من حياة الجمهورية الإسلامية وفيما البلاد كلها تخوض حربها الصعبة ضد العدوان الصدامي بدأت المؤامرات تأخذ صبغة جديدة ـ هذه المرة داخل النظام الإسلامي نفسه ـ موقعة في حبائلها رئيس الجمهورية بني صدر الذي سقط أسيرا لبعض مفاهيمه النظرية ولمخطط محكم أحاطته به العديد من القوى المضادة للإسلام في الداخل والخارج.. ولكن بني صدر وحده هو الذي هرب من البلاد وبقيت الجماهير المليونية من حزب الله ترفع راية الله. وكان مؤلماً حتى العظم أن تفقد الأمة في أسابيع قليلة العشرات من أعز أبنائها في مؤامرة الارهاب والاغتيال والتصفية التي قام بها المنافقون، فودعت باكية آية الله بهشتي ومحمد منتظري المسلم الأممي الذي اعتبر الوطن الإسلامي كله قريته الصغيرة ولم تبق بقعة من باكستان إلى فلسطين إلى لبنان إلى المغرب لم تعرف وجهاً من وجوه نشاطه. ثم

ودعت الأمة ابنها ورئيسها رجالي.. وقامت من جديد تصنع للإسلام العزيز قاعدته الصلبة.

في العام الرابع وأمام انتصارات الإسلام المتصاعدة في إيران وأمام محاولات النهوض الإسلامي المتكررة في بقية أنحاء الوطن الإسلامي، في سوريا وفي مصر وفلسطين وأفغانستان.. توصل الفكر الاستعماري إلى أن الفرصة الأخيرة أمامه هي أن يقطع الارتباط الوثيق بين الجمهورية الإسلامية والجماهير المسلمة خارج ايران ـ وخاصة داخل المنطقة العربية ـ بعد أن اعتراه اليأس من تدمير الإسلام داخل إيران. ففي المنطقة العربية أغلبية سنية فيما إيران ذات أغلبية شيعية فلتكن إذاً ورقة الطائفية التي استخدمت بنجاح كبير في القرون القليلة الماضية من قبل الاستعمار الأوروبي الغربي، لتكن هذه الورقة هي الإطار الجديد للحرب المضادة للإسلام وسور الحصار الذي سيبنى ليفصل بين الجماهير المسلمة في إيران والجماهير المسلمة في المنطقة العربية وباقي الوطن الإسلامي. وفي شهور قليلة طبعت العشرات من الكتب من قبل أقلام سنية وشيعية تذكر بالخلاف بين الشيعة والسنة وتصنع من الاختلافات البسيطة وهماً من دلائل التكفير والخروج عن الإسلام. ولكن هذا الاسلوب لم يؤد وظيفته كما ينبغي، فالجماهير المسلمة الواعية أدركت أن تلك الكتب وتلك الأقلام لا تريد وجه الله ولا تبغي مرضاته، ثم لماذا الآن تفتح هذه الأبواب المشبوهة؟ لقد أدركت جماهير الأمة بوعيها وبإلهامها أن المقصود ليس الحفاظ على الإسلام وعقائده وإنما ضرب الإسلام وثورته ونهضته.

ولأن خطر المد الإسلامي أكبر من أن يتحمله الغرب فقد بدأت في الشهور الأخيرة أساليب جديدة لاستخدام ورقة الفرقة والتجزئة تظهر إلى السطح.

ففي إيران عدة ملايين من السنة وللسنة علماؤهم من الواعين الملتزمين بخط الثورة الإسلامية والحريصين عليه، كما أن هناك البعض من مدعي العلم والمتسلقين على بساطة بعض جماهير المسلمين وأصحاب المصالح، تماماً كما أن في الشيعة أمثال شريعة مداري و(نجمن حجيته) التي تمثل التاريخ المتخلف ذا الأفق الضيق والمحدود والتي أصبحت الآن تقف على هامش الساحة بعد ازدياد الوعي

الإسلامي لدى الملايين من الشعب المسلم الثوري. ونظراً لأن قوى الهجمة المضادة للإسلام لن تهدأ في صراعها ضد الصعود الإسلامي حتى يهيمن دين الله ومنهجه على العالم بأسره فإن هذه القوى استغلت التركيبة المعقدة للشعب الإيراني وبدأت تحاول إثارة مسألة الشيعة والسنة بطريقة جديدة.

في العدد الصادر يوم ١٨ ديسمبر ١٩٨٢ من مجلة (المجلة) تحقيق بقلم أمير طاهري حول الشيخ عثمان النقشبندي أحد شيوخ الطرق الصوفية في المنطقة السنية من إيران. يهاجم النقشبندي الإمام الخميني ويعلن أنه خرج من إيران ليبدأ في قيادة أتباعه ضد نظام الخميني من الخارج. كما أن هناك محاولة أخرى لإقامة ضجة حول مسألة فرض الإقامة الجبرية على الشيخ أحمد مفتي زاده. ولأن قضية الشيخ مفتي زاده هي الأكثر أهمية فسنؤجل الحديث حولها إلى مابعد مناقشة مسألة النقشبندي.

من المعروف أن الطرق الصوفية قد ازدهرت ازدهاراً كبيراً في نهاية العصر العثماني الإسلامي ، وكان لذلك أسباب ونتائج ليس هذا موضع الحديث عنها، والحق أن للصوفية تاريخاً طويلاً من الجهاد والدعوة في الوطن الإسلامي الحديث.. ولكن ماحدث في الفترة الأخيرة أن بعض مشايخ الطرق الصوفية وفي ظل الجهل والتخلف قد أغرتهم مكتسبات المشيخة فأصبحوا يتصرفون في وطننا وبين أمتنا، وكأنهم سادة إقطاعيون يسلبون حقوق الجماهير المستضعفة ويعيشون مرفهين مترفين على عرقها وكدها، وذلك تحت شبهات من التدين والولاء للإسلام. والشيخ عثمان النقشبندي أحد مشايخ الطريقة الصوفية النقشبندية المنتشرة في أجزاء من تركيا وإيران والعراق، وهو يتصرف في مناطق أتباعه تصرف السيد المطاع في أراضي الناس وأموالهم ومصائرهم ويعتبر أن لا سلطة هناك فوق سلطته.. والأسوأ من ذلك أن أبناءه الذين أغرتهم هواية السلطة والتسلط لا يتورعون عن القيام بأي شيء في تلك المناطق يؤكد هيمنتهم على البشر. في عصر الشاه لم يكن للنظام أي اهتمام بما يفعله الرجل فمنهجه واضح أن لا تدخل في الشؤون السياسية مادامت هيمنته على أتباعه مستمرة ومتواصلة، ونظام الشاه لم يكن ليهتم كثيراً بما يفعله النقشبندي وأمثاله فالمنطقة بعيدة عن العاصمة وليست

ذات جدوى اقتصادية كبيرة وكل ماكان بعيداً عن عاصمته وأفراحها وعن مصايفه وفسقها لم يكن ذا أهمية، وهكذا تعايش الشاه بسلطته مع الصوفية وطرقها. بعد الثورة الإسلامية وتصاعد التوجه نحو المناطق المستضعفة ـ تحت توجيهات الإمام ـ بدأت المشاكل في الظهور سواء في المناطق السنية أم في المناطق الشيعية. وأمام تعسف الإقطاع القبلي ولا إنسانيته لم تقف الحكومة الإسلامية صامتة أبداً وواجهت الجرائم بحزم وبما يفرضه العدل والواجب الإسلامي. وفي العديد من المناطق الشيعية والسنية تحطمت أوكار الإقطاع وتقدم الإسلام نحو المستضعفين لتحريرهم وإنقاذهم من القهر الاجتماعي والفكري.. والحقيقة أن الموضوع لم يثر الكثير من الضجة في الإعلام العالمي الذي تعود على مهاجمة الإسلام في إيران.. إلا أن مسألة النقشبندي اعتبرت فرصة سانحة لفتح باب من الحرب المضادة على الجمهورية الإسلامية فالرجل صوفي سني ومسألة (شيعة ـ سنة) هي الإطار المناسب لأهداف القوى الاستعمارية الآن. ولذا فقد أسرع أمير طاهري الصحفي السابق في (إطلاعات) الإيرانية في زمن الشاه والذي يعمل الآن في (المجلة) و(الصنداي تايمز) والذي كان معروفاً تماماً بعلاقته الوثيقة بدوائر السافاك التي كانت تسلمه المقالات الجاهزة لنشرها في الصحيفة، أسرع طاهري إلى مقابلة النقشبندي وأسرعت (المجلة) إلى إفراد صفحتين للمقابلة. والحق يقال أن المنشور في المقابلة قد كفانا مؤونة النظر والتحليل فالرجل يقول: (إنهم أنشأوا محطة إذاعة ماريفان في الآونة الأخيرة وهي لا تستخدم إلا لمهاجمة أسرتي) وهو بالطبع لم يذكر لماذا؟ لم يذكر للقراء جرائم أبنائه وتعديهم على حقوق الناس. ويقول أيضاً: (لقد ظللت دائماً على رأيي في أن رجال الدين يجب ألا يتدخلوا في السياسة اليومية. واليوم وقد أصبح الخميني رجلاً سياسياً يعمل بشكل سافر فإنه ليس هنالك من سبب يدعوني إلى تغيير مبادئي).. ولا نجد هنا من داع للتعليق على مايدعيه الرجل من فهم للإسلام يخالف أصول الإسلام الأساسية ولكننا نسأل: إن لم تكن السياسة هي السبب فما الذي يدعوه إذن لمعارضة الثورة والخروج من إيران لإعلان الحرب ضدها؟ فالشيخ عثمان زاهد في السياسة ولكنه ـ بدون شك ـ غير زاهد في

الأراضي والأموال والتسلط الاجتماعي الذي كان يمارسه وهذا هو بالتحديد ما دعاه إلى الخروج. الغريب أن ما قصده طاهري من المقابلة كان إثارة مسألة الشيعة والسنة ولكن النقشبندي في حديثه لم يجد ما يتهم به الإمام إلا إنه رجل سياسة وأنه رجل دين شيعي غير معتمد في شيعيته.. ونحتار نحن القراء بين المؤامرات وأجزاء المؤامرات.!!

قضية النقشبندي واضحة لا تحتاج إلى مزيد من الاهتمام ولكن القضية الأهم هي مسألة الشيخ الكردي السني أحمد مفتى زاده الذي وضع منذ شهور تحت الإقامة الجبرية، فيما سجن بعض أتباعه ولم يتقرر بعد هل سيقدمون لمحاكمة أم سيفرج عنهم بعد حين. الخبر نشرته الشقيقة الكبرى (مجلة الدعوة) الصادرة من فيينا في عددها الأخير تحت عنوان مثير على صفحتين، ذاكرة أن الشيخ أحمد مفتي زاده كان دائماً من المؤيدين للثورة، وقد قاتل وأتباعه ضد المنحرفين الانقساميين في المنطقة الكردية في الشهور الأولى للثورة، وقد كان له بعض المطالب التي سعى إلى تجميع علماء السنة في إيران قبل عدة شهور ضمن مجلس شورى في طهران ليبحثوها ويعلنوها للحكومة، وأن الاجتماع دعي إليه مندوب من وزارة الداخلية ولكن الحكومة لم تراع تاريخ الرجل، وسارعت إلى القبض عليه وايداعه السجن منذ عدة شهور وحتى الآن. هذا باختصار ما نشرته الشقيقة الدعوة. والحق يقال أننا في (الطليعة الإسلامية) قد قررنا أن نرفع صوتنا في هذا العدد ضد تصرف الحكومة الإيرانية فالرجل ليس قاسملو ولا عز الدين الحسني والجميع يعرف أنه وقف مع الثورة الإسلامية منذ الأيام الأولى.. ولكننا خلال الأسابيع الماضية قمنا بتحري الأمر والتدقيق فيه من عدة مصادر ووجهات نظر فوجدنا أن الأمر مختلف إلى حد ليس ببسيط عما نشرته (الدعوة) ونحن ندرك بثقة أن الصورة الكاملة الصحيحة لو كانت قد توافرت للأخوة في (الدعوة) لما كان موضوع الشيخ مفتي زاده قد أخذ الصورة التي نشر بها.

الشيخ أحمد مفتي زاده هو ابن الشيخ مفتي زاده.. وقد كان الوالد عالماً جليلاً وكبيراً من علماء السنة المسلمين في المنطقة الكردية من إيران، وبعد وفاة الوالد

تسلم الابن مكانه وخاصة في إدارة المعهد الـديني في ساننداج وقد انتقل ولاء أتباع الوالد إلى الابـن في منطقة تـتسم بعلاقات الـولاء القبلي وملـيئة بالمشاكـل والعقد التاريخية. ويقول الكثيرون أن الشيخ أحمد رجل فاضل ولكنه أبداً لم يكن في مثل حكمة وعلم والده، ولكنه وقف منذ بداية الثورة الإسلامية في إيران مع خط الإمام الخميني.. ولأنه يعرف جيداً أن عز الدين الحسيني لم يكن إلا لعبة في يد الشاه فقد رفض موقـفه المعارض لـلثورة. كمـا أن مسؤوليـته الإسلاميـة قد منعـته من تأيـيد قاسملو وجماعته الذين تربطهم روابط عديدة بالدوائر الاستعمارية العالمية، والذين يحملون تصوراً غربيا لا علاقة له بـالإسلام. وفي السنة الأولى للثورة وحين احتدم الصراع بـين أعداء الإسلام والحكومة الإسـلامية في المنطـقة الكردية وقف الـشيخ أحمد مع الحكومةالإسلامية وقاتل أتباعه مع الحرس الثوري ضد أعداء الثورة.

في ذلك الـوقت أو قبله بـقليل أرسـل الشيخ أحمـد مبعوثاً إلـى العالم والمـفكر المسلم الكبير أبو الأعلى المودودي ـ رحمة الـله عليه ـ يسأله الرأي. فأجابه المودودي قائلاً: (يا شيخ أحمد هذا وقت الواجبات فأدوا واجبكم تجاه ثورة الإسلام وبعد أن يستقر حكم الإسلام طالبوا بالحقوق).. ولكن الشيخ أحمد لم يلتزم طويلاً بنصيحة المودودى رحمه الله، وسرعان ماأعلن قائمة بالمطالب للحكومة معطياً إياها مهلة١٥ يوماً للإجابة.. وكان مـن هذه المطالب إنشاء جامعة في سانـنداج تحت إشرافه وعدة مشاريع ثـقافية وعمرانـية تحتاج إلى سنـوات للإعداد لها فمـا بالك بإنشائـها. وكان المرحوم آية الله بهشـتي على علاقة دائمة بالشيخ أحمد وقال يـومها: (الشيخ أحمد جيد لكنه عجول). المهم تمت تهدئة الوضع بعد إنذار الـ ١٥ يوما، ودارت أحداث متعـددة في كردستان طـلب على إثرها الـشيخ مفتـي زاده من الحكومة أن تـوفر له مكاناً خارج سانندا ج لأنـه لم يعد باستطاعته مواجهة الضغـط الذي تمثله الجماعات المنحـرفة والتي كانـت تدفع إلى الـبسطاء كمـيات هائلة مـن الأموال التي حـصلت عليـها من العـراق وغير العـراق لتحريـضها علـى العصيـان، ولم ترغب الحـكومة الإسلامية في أن تكون علاقتها بالشعب علاقة الرشوة فرفضت أن تستخدم الوسيلة ذاتها. وبناء على طلب الشيخ أحمد وفرت الحكومة له منزلاً في كرمنشاه بعيداً عن منطقة الصراع وصرفت رواتب لأتباعه المتفرغين وكان له كامل الحرية في الاتصال

بجماعته بكردستان أو أن يحضروا إليه في أي وقت، واستمر الأمر على هذا الوضع، في حين واصلت الحكومة المركزية محاولاتها لتعزيز الأمن والاستقرار في كردستان ومطاردة العملاء والخارجين فيما كانت قوافل (جهاد البناء) مستمرة في الوصول إلى القرى بغير سلاح إلا الجرارات وأدوات البناء لمساعدة المنطقة المحرومة على النهوض. وكل يوم يسقط من شباب (جهاد البناء) العديد من شهداء معركة النهضة الحضارية الإسلامية في كردستان.

ولكن الأمور لم تستمر على ماهي عليه مع الشيخ مفتي زاده.. ففجأة عاود الشيخ أحمد همهماته وحديثه عن مطالب جديدة وبدا أن هناك اتصالات في الخفاء للترتيب لشيء ما، وإذا بالشيخ يعلن أنه دعا بعض العلماء السنة من سانندج وبلوشتان وتركمانستان (من عشرين إلى ثلاثين) اضافة إلى حوالي مابين ٢٠٠ ـ ٣٠٠ من أتباعه، إلى اجتماع في منزله بكرمانشاه ـ وليس في طهران كما نشر من قبل ـ والحقيقة أن الشيخ مفتي زاده لم يأخذ تصريحاًمن الحكومة لعقد الاجتماع بل إن قائد الحرس ومحافظ كرمانشاه نصحاه بألا يفعل مثل ذلك ولكنه رفض طلبهما وأصر على عمله. وفي الاجتماع تلا بياناً شديد اللهجة مطالباً بمجلس شورى جديد في البلاد يتقاسمه الشيعة والسنة بالتساوي وتعديلات في الدستور وتغيير الأذان في كل أنحاء البلاد برفع (أشهد أن علياً ولي الله) من الآذان، ومهدداً في بيانه باستخدام السلاح ضد الحكومة إن لم تنفذ المطالب فوراً. بعدها اضطر المحافظ والحرس إلى التدخل لفض الاجتماع وقد اعتقل الموجودون وأفرج عن معظمهم بعدها بقليل حين اتضح أنه لم يكن لهم أي دور في المسألة، واعترف بعض أعوان الشيخ أحمد بتلقيهم أموالاً من دولة عربية، وأن المسألة كانت أكبر حتى مما تصوره الشيخ أحمد.. والمؤكد أن أحداً لم يسيء إليه بأي شكل من الأشكال والمسألة أنهيت بهدوء والموضوع بأكمله الآن أمام رأيين: الأول أن يفرج عن الجميع بعد أن أصبح واضحاً لهم ولغيرهم كم كان عملهم بعيداً عن روح الإسلام، والثاني أن يقدموا للمحاكمة وأمام قاض سني كما ينص الدستور بتطبيق فقه المذاهب الإسلامية أيا كانت حيث تتواجد أكثرية من أتباع المذهب.

هذا هو شريط الأحداث الذي جرى في مسألة الشيخ مفتي زاده، أما خلفية الأحداث فهذا ماسنبحثه الآن:

منذ حوالي سنة أو يزيد بدأت حملة متوازية من نشر الكتب المسطرة من موقف شيعي وسني على مايبدو عليها، يطعن فيها الشيعة بالسنة ويطعن السنة بالشيعة وقد طبعت كتب مشبوهة وسيئة السمعة في مصر والخليج وباكستان والأرض المحتلة وإيران نفسها، وبدا واضحاً أن الأمر ليس صدفة فقد بيعت الكتب بأسعار لا يمكن أن توازي قيمتها بل وأحياناً وزعت مجاناً كما حدث في موسمي الحج الأخيرين وكان لا بد أن يتساءل المخلصون: لمصلحة من هذا؟

وقد تزامنت مشكلة الشيخ مفتي زاده مع هذه الأحداث، ومطالبه التي أعلنها يعرف هو شخصياً قبل أي شخص آخر أنها غير منطقية وغير معقولة: فمسألة الآذان يعرف الجميع أن هذا الجزء منه ليس واجباً لدى علماء الشيعة ولا يعتبر إلا جزءاً من الأذان تعود الناس عليه لمئات السنين، بما يجعل مسه بشكل مبكر وسريع أمر غير معقول وغير منطقي وقد يثير الكثير من عواطف الناس، فإن كانت المسألة مسألة التقريب فالملاحظ أن هناك العديد من الخطوات التي أعلنها الإمام الخميني من أجل وحدة الأمة، من إقامة صلاة الجمعة إلى التغيير الجوهري الذي طال مجالس العزاء وأوقف بشكل نهائي مسائل التفرقة التي كان يشجع عليها حكام الجور، ودعوته المتواصلة إلى تكافل الأمة وبث روح الوحدة بين جماهير المسلمين الشيعة في إيران حتى أصبحت الصلاة خلف إمام شيعي أو سني مسألة عادية بين المسلمين في إيران وخارجها، وأيضاً إعطاء العديد من المناسبات الدينية الشيعية مدلولاتٌ وحدوية إسلامية مثل (أسبوع الوحدة) و(يوم المستضعفين).. الخ. كما أن مسألة التقريب ليست بالمسألة الهينة التي يمكن أن تؤخذ فيها خطوات مفاجئة وتحل ببيانات التهديد من هذا الطرف أو ذاك فما زرعه التخلف والاستعمار على مدى قرون طويلة يحتاج منا صبراً واناة وبحث حتى يمكن حله. أما مطلب حل مجلس الشورى وتقسيمه بالتساوي بين الشيعة والسنة في إيران فهو أصلاً مطلب غير منطقي وغير واقعي وهو كذلك لا ينم إلا عن روح طائفية أو عن طقس

مؤامرة. وقضية تعديل الدستور قضية ليست بالجديدة وهي مهمة مجلس الخبراء الذي لم يتم انتخابه إلا قبل شهر واحد فقط والجميع يأملون في أن يسعى المجلس في أقرب فرصة إلى حل هذه المشكلة التي أعلن منذ مدة طويلة أن الإمام الخميني أوصى بحلها.

ولكن كل مامضى لا يفي لتوضيح الصورة تماماً، ولنتمكن من ذلك فلنبحث عن الوجه الآخر للمشكلة: هل كان الشيخ مفتي زاده هو وحده طرف الأحداث الأخيرة أم أن هناك هجمات أخرى؟ لقد اعترف بعض أتباع الشيخ بأنهم تلقوا أموالاً من الخارج وأن ماتم كان حسب تخطيط مسبق من بعض الجهات التي تدعي الإسلام ويهمها أن ترى مشاكل المسلمين تتفاقم ومحاولات وحدتهم تسقط، والمفاجأة في الموضوع أن شبكة من المعممين الشيعة يقدر عددهم بحوالى ١٥ ـ ٢٠ فرداً أُلقي القبض عليهم أيضاً بنفس التهمة، تهمة تلقي أموال من الخارج ونشر الدعايات والكتب السيئة التي تدعو للتفرقة بين المسلمين الشيعة والسنة، ولكن أحداً لم يشر إلى هذه المسألة لأن إثارتها خارج إيران قصد بها عزل الثورة الإسلامية عن جماهير الملايين من المسلمين السنة في المنطقة العربية بالذات. وحتى يزداد الأمر وضوحاً فالذين تم اعتقالهم من الشيعة ينتمي بعضهم إلى اتجاه (نجمن حجتيه) المتخلف ذي الأفق المحدود والذي وجهت له الثورة الإسلامية ضربات موجعة بنشر الفكر الثوري الإسلامي وبطرح ولاية الفقيه، فأعادته إلى حجمه الطبيعي كقوة هامشية في المجتمع الإسلامي داخل إيران. وقد وزع هؤلاء البيانات والكتب التي تتهم الحكومة القائمة في إيران بالابتعاد عن مذهب آل البيت (!) وأنها دولة غير شيعية (!) وتحارب المذهب الشيعي (!) بل والأكثر من ذلك اعتبارهم آية الله العظمى المنتظري سنياً وليس شيعياً (!) كما أشاعوا أفكاراً للتفريق بين السنة والشيعة.. وسنذكر هنا اسماً واحداً من هؤلاء لعله يكفي لتوضيح حجم المؤامرة، وهو محمد رضا مامقاني المعتقل الآن مع الآخرين الذين سيقدمون جميعاً لمحكمة الإسلام حسب أوامر الإمام المعلنة بأن لا فرق بين أحد أمام القانون الإسلامي.

نرجو أن نكون بذلك قد أوضحنا جانباً من صورة المسلمين في كل مكان، فالمؤامرة تتحرك بهدوء وهي مستمرة مادام الحق في تصاعده والإسلام في نهضته، ذلك أن كل القوى من أعداء دين الله ومنهجه، كل القوى التي يرعبها أن يتحرك المستضعفون من المسلمين ويستلموا زمام أمرهم ويدحروا إلى الأبد قوى التسلط الغربية وأدواتها.. هؤلاء جميعاً مستمرون في محاولتهم لتثبيط الصعود الإسلامي وإيقاف قيام الجماهير المسلمة.

إن أهدافهم واضحة: فقد كانت تجزئة الوطن الإسلامي إلى عشرات الوحدات الصغيرة وتجزئة الأمة إلى مذاهب وفرق وطوائف متناحرة، كانت هذه التجزئة إحدى أهم أدواتهم في السيطرة الاستعمارية والهيمنة والنهب على مر القرون، واليوم وبوادر وحدة الأمة أرضاً وشعباً تلوح في الأفق لن يكون أمامهم إلا المواصلة من جديد لإبقاء التجزئة والتناحر والشقاق.

فلتعِ جماهير الأمة حجم المؤامرة.. وليعِ أبناء الحركة الإسلامية أدوارهم ولنقف جميعاً في مواجهة الغرب ومؤامراته فهذا لن يكون إلا عصر الجماهير المسلمة.. عصر انتصارها.. عصر صعودها.. وعصر هيمنة منهج دينها الحق.

الدراسة الثانية عشرة

التاريخ لماذا..؟

كان التاريخ ولايزال قضية الإنسان منذ الأزل يـؤثر فيه ويصنعه ضمن الظروف الموضوعية التي تمر بها مراحل التاريخ البشري..

ضمن النواميس الكونية التي وضعها الله سبحانه..

وعندما تتعـرض أمة ما لهزة عنيفة في حياتـها فإنها إما تهب من نومهـا لتنظر في تاريخـها تبحـث من جديد شروط وجـودها.. وإما أنهـا تهب من نومـها لتنـظر إلى التاريخ شذراً تتهمه ثم تعود ثانية إلى سباتها العميق.

وهكذا أيضاً.. عندما تستغل أمة أو جماعة فإنها تتنبه بداية إلـى تاريخها، فتتقدم تدرس وتحلل وتـنقد.. تعيد الـترتيب والصيـاغة لتتعرف عـلى مواقفها الحـالية، ثم تنطلق إلـى آفاق المستقبل.. بينمـا في الجانب الآخر ـ أي في حالة العـجز والضياع ـ تنام الجماعات عن تاريخها، بل وتقف منه موقـفاً سلبياً ومتهماً.. من هنا ندرك نحن ـ الأبناء الحقيقيين ـ أهـمية وعي التاريخ وانه المفتاح الذي بين أيديـنا كي نفهم وعي ماضينا ونعي دروسه وتجاربه وعبره، وبالتالـي نؤثر في حاضرنا ولا نكتفي بالجلوس في مقاعد المتفرجين...

هذا الفهم وهـذا التاريخ كلاهما سيقودان بـالتالي إلى امتلاك المستـقبل... ولقد عانينا كثيراً تراجع وعينا التاريخي ففقدنـا حسّنا بهويتنا وأصالتنا ووقفنا عاجزين عن تحديد مواقع أقدامنا ناهيك عن إمكانية استشراف المستقبل...

وكمـا عاش الوطـن الإسلامي بعـمومه هـذا الغيـاب فإن الكثـير من الحـركات الإسلامـية لم تفـلت من هذا الـشراك ولئن كـنا حتـى وقت قريب نـعتقد أن تـلك الحـركات قـد أدركت الـشرط الـذاتـي لوجـودها، وإنـهـا لم تـدرك بعـد الشـرط الموضوعي... فقد كنا نرتكب مغالطة كبيرة لسببين:

(*) المصدر: مجلة الطلـيعة الإسلامية (العدد ١١ ـ تشرين ثان ـ ١٩٨٣) جدير بـالذكر أن هذه الدراسة اشترك في إعدادها أيضًا مع الشهيد رفيق جهاده الباحث الفلسطيني أحمد صادق (معد الكتاب).

١ـ كيف يمكن أن يقال عن إنسان غاب وعيه التارخي أنه اكتشف ذاته أو اكتشف الشرط الذاتي لوجوده.

٢ـ إن هذا التصور جهل بالعلاقة الجدلية القائمة بين وعي الذات ووعي الموضوع، وهكذا فإنه بالرغم من غلالة الثقة التي تغلف تصرفات الكثير من التنظيمات داخل صفوف الحركة الإسلامية اليوم فإننا نجد هذه التنظيمات ـ وتحت الدراسة الموضوعية ـ تعيش في حالة اغتراب وضعت أفرادها في دوامة انهيار القيم وفوضى المفاهيم ومن ثم اليأس في أحيان كثيرة...

ومن هنا كان اهتمامنا بالتاريخ ليس كمفردات للتسلية والمتعة والانبهار أمام سيرة السلف الصالح، ولكن كاستمرار يخضع للدراسة والتحليل والنقد من خلال منهج خاص ورؤية خاصة.. أي من خلال صبغة خاصة ارتضاها الله سبحانه وتعالى (صبغة الله ومن أحسن من الله صبغة).

ورغم أن الحركة الإسلامية ـ في مفهومها الحديث ـ لم تتبلور بشكل واضح إلا بعد أن حدث التماس الخطير بين الحملة الصليبية التي قادها ذلك الشاب الكورسيكي المغامر نابليون بونابرت وبين الوطن الإسلامي، إلا أننا لا نستطيع أن نغفل دور الحركة الوهابية كبادرة أولى ناضلت على طريق العودة إلى نقاء السلف الصالح فكانت أول حركة جادة بعد مرور قرون على ظهور المجدد العظيم ابن تيمية.

ولأننا ننظر للحملة الصليبية التي قادها نابليون كنقطة بداية في أخطر التحديات التي واجهها الوطن الإسلامي منذ ظهوره فإننا سنبدأ من هنا تأريخنا للحركة الإسلامية دون إغفال الوهابية كحركة رائدة..

رغم الشهداء الذين قدمتهم الجماهير الإسلامية مؤكدة أصالتها في مواجهة طلائع الغزو الصليبي الأولى قبل ان تتمكن تلك الطلائع من الاستقرار في مصر كجزء مهم من الوطن الإسلامي، إلا أن الصدمة كانت قاسية ونحن نكتشف أي عزلة وجمود وعجز عن الاجتهاد والتجديد كنا نعيش.. الأمر الذي مكن لتلك

الطلائع والأجيال التي تلتها أن تفعل فعلتها فتسقط النظام السياسي الإسلامي.. تسقط تطبيقنا لشريعتنا بعد أن نفذت إلى عيوننا ومسام جلودنا عبر البعثات التي أوفدت إلى باريس واوروبا ثم عادت لتدمر أخلاقنا وثقافتنا، وليحمل بعضها ـ ربما بحسن نية في البداية ـ الرؤية الغربية للحياة والتحديث، هذه البعثات التي استمر تتابعها في أفواج، إلى أن تمكن هذا التحدي.. الغزو .. الاستعمار من تكوين جيل من المفكرين يحملون أسماءنا وأفكاره.. أجسادهم على أرضنا وقلوبهم مشدودة إلى هناك... وما هذا الطفح القذر على سطح الوطن الإسلامي من مفكرين مهزومين وكتاب كلاب وقردة إلا استمرار آخر لهذا التتابع.. وهكذا ما إن أخذت الأمور أمامنا تتضح شيئاً فشيئاً حتى وجدنا أنفسنا إزاء خمسة أوضاع أو خمسة فئات كانت إفرازاً للتحدي أو رداً عليه بشكل أو بآخر:

١ ـ **المسلمون التقليديون:** الذين غابوا عن الوجود والشهود تماماً وعاشوا في حالة اغتراب تام عن الذات والموضوع ومن سمع منهم بالتحدي القادم أحس من بعيد أنه شر محض، وبقي الدعاء على المنابر لسلاطين رحلوا منذ قرون.

٢ ـ **المسلمون السلفيون المحافظون:** كالوهابية والمهدية والسنوسية وسنتكلم عنهم بإسهاب بعد قليل.

٣ ـ **المسلمون السلفيون المتنورون:** بقيادة جمال الدين الأفغاني وسيأتي الحديث عنهم أيضاً...

٤ ـ **المجموعة الرابعة:** وهو ما اصطلح بعض الكتاب على تسميتهم بـ(المسلمون العلمانيون)...

ونعتذر عن استخدام هذا المصطلح للتناقض الذي يحمله، حيث من الضروري استخدامه وبشكل مؤقت للتمييز بين المجموعتين الثالثة والخامسة... ولكي نكون أكثر وضوحاً نقول:

إن الكلمة الأولى من الاصطلاح تعني أن أفراد هذه المجموعة انتسبوا تاريخياً إلى الإسلام بينما تعني الكلمة الثانية حقيقة موقفهم.. وجوهر تفكيرهم رفض

للإسلام كبعث حقيقي وكسلطة حقيقية، والاقتراب من الرؤية الغربية في فصل الدين عن الدولة. وطلائع هذه المجموعة وإن كانت قد وقفت موقفاً مشترطاً من العلمنة في البداية بحيث تتوقف هذه عند حدود العقيدة إلا إنها تدريجياً وبشكل منطقي انتهت فيما بعد إلى حمل الرؤية العلمانية الكاملة...

ويأتي على رأس هذه المجموعة (قاسم أمين، سعد زغلول، احمد لطفي السيد، وطه حسين)...

٥ ـ المسيحيون المغتربون والمتغربون: (والمصطلح هنا كما هو الحال في المصطلح الذي اطلق على المجموعة السابقة للدكتور هشام شرابي، مغتربون لأنهم أحسوا بالغربة عن الوطن الإسلامي ومتغربون لأنهم أدركوا ان تمسكهم بقيم وأهداف الغرب ورؤيته الحضارية إنقاذ لهم من معاناة الغربة في الوطن الإسلامي).

ولقد قاد هؤلاء محاولات العلمنة في وطننا لأنهم فهموا أنه من المستحيل حل مشكلة اغترابهم فيه دون علمنة الرؤية التاريخية وعلمنة المؤسسات والأسس التي يقوم عليها المجتمع والدولة، أي ضرب عملية بعث الإسلام كأيديولوجية قادرة على الفعل في وجه التحدي القادم.. (فرح أنطون، شبل شميل، ولويس عوض)...

وحيث أننا هنا بصدد دراسة الحركة الإسلامية الحديثة في مواجهة التحدي الغربي الحديث بمرحلتيه الكبيرتين ـ الأولى تبدأ بالحملة الفرنسية وتمتد حتى عام ١٩٢٨م، والثانية بدءاً منذ عام ١٩٢٨ م وحتى الآن ـ فإننا سننظر إلى المجموعتين الثانية والثالثة على أنهما كانتا تكونان ما نصطلح على تسميته بالمرحلة الأولى من مراحل الحركة الإسلامية الحديثة..

لقد كان السلفيون بشقيهم المحافظ والمتنور أو الثوري.. كانوا أول رد حقيقي على التحدي القادم، ودلالة على القدرة الفذة التي لهذا الدين على التجاوز والفعل فكانت هذه الحركة وبحق عاملاً أساسياً في اليقظة الإسلامية الحديثة، قاومت الغزو الفكري، وناضلت ببسالة ضد المخططات الصليبية الاستعمارية. ولا ننسى في

غمار الحديث عن هذه المرحلة أن ننوه بالدور الذي قدمه الغزالي وابن تيمية وابن قيم الجوزية لهذه الحركة وفي هذه المرحلة رغم ظهورهم قبلها بقرون..

فإذا نظرنا لكل مجموعة على حدة، وجدنا أن الوهابيين الذين ظهروا في منتصف القرن الثاني عشر، أي قبل مجيء الحملة الفرنسية بحوالي نصف قرن (ولد محمد بن عبد الوهاب سنة ١٧٠٣م) كانو يمثلون أول رفض قوي للفساد الذي عم المجتمع الإسلامي ومحاولة جادة للعودة بالإسلام إلى صفاته الأولى، التي سادت عهد الرسول ﷺ والخلفاء الراشدين والسلف الصالح.. ورأى ابن عبد الوهاب أن مشكلة المسلمين هي في ضعف عقيدتهم وأن الحل هو العودة إلى القرآن الكريم والسنة، وحارب البدع وأنكر تأويل القرآن ودعا المسلمين إلى الزهد والتقشف والجهاد من أجل بناء المجتمع الإسلامي، كما فتح باب الاجتهاد الذي ظل قبله مغلقاً لقرون طويلة...

ثم كانت الحركة السنوسية (مؤسسها محمد بن علي السنوسي ١٧٨٧ ـ ١٨٥٩) والتي كانت متأثرة إلى حد كبير بالوهابية من ناحية العودة بالإسلام إلى صفاته الأولى والعودة إلى القرآن والسنة، ومحاربة البدع وفتح باب الاجتهاد، ولكنهم آمنوا أيضاً بالرؤية والاتصال والكشف التي تحدثت عنها الصوفية... وقدر لهذه الحركة أن تنجح في إصلاح المجتمع البدوي، وتحويله إلى مجتمع متعاون ومنتج وأن تقيم سلطة إسلامية على مناطقها، وأن تنشر العلم عن طريق زواياها المنتشرة في صحراء أفريقيا وأن تصل إلى القبائل الوثنية هناك ناشرة الإسلام فيما بينها... ورغم الخطأ الذي ارتكبه المهدي الابن ـ ١٨٥٩ : ١٩٠٢ ـ بمحاولة الابتعاد عن المنازعات إلا أن الحركة وتحت قيادة الابن نفسه اضطرت إلى إعلان الجهاد ـ عندما وضع تقدم العدو الفرنسي في الصحراء الأمور في نصابها ـ فأصبح لا مفر من الحرب والجهاد كسبيل للاستمرار..

وإضافة إلى ذلك فقد كانت هناك المهدية في السودان (ولد المهدي الأول ١٨٤٤ ـ ١٨٨٥) والتي نادت أيضاً بالعودة بالإسلام إلى نقائه الأول وبالتوحيد بين مذاهب أهل السنة وبمحاربة البدع ومحاربة الفساد السياسي، وقد قام المهدي بعد

أن جمع حوله الأنصار واستتب له الأمر بإعلان الثورة ضد الإنجليز، واستطاع أن ينزل بهم هزائم كبيرة، وقد كان ينوي أن يتوجه إلى غزو مصر بعد احتلال الخرطوم وعين وقتها ولاة على الشام ومراكش، دون أن تصل سلطته السياسية لأكثر من حدود السودان.

ولم تقتصر الحركة السلفية المحافظة على هذه الاتجاهات الكبرى فقط، بل كانت هناك الألوسية في العراق نسبة إلى (أبي الثناء الألوسي) الذي نادى بتنقية الدين من الشوائب واتباع السلف الصالح في مسائل العقيدة، وكانت هناك أيضاً حركة الشوكاني صاحب نيل الأوطار في اليمن (ولد سنة ١٧٦٠م)، والتي كانت في حقيقة الأمر صدى للوهابية في شبه جزيرة العرب، وفي المغرب كانت هناك حركة المولى سليمان الذي حمل له الحجاج دعوة محمد بن عبد الوهاب فأعجب بها وعمل على نشرها، وكذلك المولى حسن ثم الشيخ أبو شعيب الدكاني والشيخ ابن العربي العلوي، ولكن برغم الدور العظيم الذي قام به السلفيون المحافظون فإنه من الصعب عليهم أن يتجاوزوا أزمة التحدي الغربي الحديث، وذلك لتخلفهم عن إدراك الشرط الموضوعي، الأمر الذي أدى إلى فقدهم لسلاح مهم وخطير في المعركة الكبرى، وهذا هو عين ما أدركه السلفيون المتنورون بقيادة الثائر العظيم جمال الدين الأفغاني (١٨٣٩ ـ ١٨٩٦) الذي حدد منذ البداية (كل مسلم مريض دواؤه في القرآن).

وكان من أهم القضايا التي طرحها ضرورة البعث الإسلامي وأن يفهم المسلمون دينهم الفهم الصحيح ويطبقوا تعاليمه، وفي نفس الوقت كان مهتماً بجعل الوطن الإسلامي قوة سياسية ناجحة وظل يصرخ في كل مكان داعياً المسلمين إلى النهضة ورفض الاحتلال ومحاربته... كما رفض الإصلاح التربوي الذي اعتمده بعد ذلك تلميذه محمد عبده كوسيلة حاسمة للتغيير واعادة مجد الإسلام مؤمناً بالثورة السياسية وبأنها الوسيلة المثلى لإعادة الإسلام.. وقد قامت مجلته (العروة الوثقى) بتحليل وضع المسلمين وسبب تأخرهم وشرحت معنى الخلافة وأسباب تدهورها ودعت للمحافظة عليها بصفتها آخر معقل لتجميع الأمة الإسلامية، وقد كان يأمل خيراً في ثورة المهدي وفي تغيير الوضع في إيران وإصلاح الخلافة.

ويكتب ألبرت حوراني في كتابه (الفكر العربي في عصر النهضة) قائلاً: (ترك الأفغاني في جميع من عرفوه انطباعاً قوياً ولو لم يكن مبهجاً عن رجل مخلص لعقيدته عنيد ومتقشف، سريع الغضب للشرف والدين، عفيف يستحيل ترويضه)، ويقول عنه محمد عبده (أشد من رأيت محافظة على أصول مذهبه).

ورغم أن الآراء كادت تجتمع على أن الأفغاني كان شيعياً إلا أن مذهبه الذي كان يعنيه الإمام محمد عبده هو المذهب الحقيقي.

وقد كان ينادي دوماً بإزالة الخلافات بين المسلمين حتى تلك التي بين الشيعة والسنة.

ودعا أكثر من مرة الفرس والأفغان إلى الاتحاد رغم كونهم شيعة وسنة...

ولكن يبدو أن الأفغاني.. هذه العبقرية الفذة.. قد جاء فرداً متميزاً متقدماً على عصره، حيث يعم الجهل والتخلف وترك الاجتهاد والتخاذل عن الجهاد في مرحلة المد الاستعماري الصليبي في كل الوطن الإسلامي... ولكن على الرغم من ذلك فإن أطروحاته بقيت مناراً لأجيال ستأتي...

ويقف مع جمال الدين الأفغاني في هذه المرحلة كسلفي متنور الإمام محمد عبده خاصة في المرحلة الأولى من حياته حيث تأثر بجمال الدين الأفغاني تأثراً بالغاً وكان أحياناً كثيرة الناطق الرسمي باسمه، والمعبر عن أفكاره (لم يكن الأفغاني يحب الكتابة كثيراً..) وعندما نفي الأفغاني بعد دخول الإنجليز مصر، دخل محمد عبده السجن لوقوفه ـ وأخيراً ـ بجانب حركة عرابي ومشاركته فيها، لينفي بعدها إلى خارج البلاد حيث يلتحق بالأفغاني وينتقل من بيروت إلى باريس فلندن وتونس.. ويحاول محمد عبده بعد ذلك دخول السودان عن طريق مصر متنكراً للاتصال بالمهدي ولكنه يفشل ويعود إلى بيروت ثانية... وفي عام ١٨٨٨م عاد الإمام محمد عبده إلى مصر ثانية ليبدأ مرحلة جديدة في حياته وضح فيها تماماً غياب تأثير الأفغاني وتبنيه للاتجاه الاصلاحي التربوي، ورفضه للنضال السياسي كوسيلة

للثورة. وهكذا لم تكن هذه المرحلة من حياته فوق الشبهات خاصة أنه عاد بعد نفيه إلى العمل الرسمي، بعد أن تعهد بـالهدوء تجاه الخديوي للورد كرومر الذي توسط له في إرجاعه إلى عملـه.. وقد وقف منه المناضل المسلم مصطفي كـامل موقفاً نقدياً رافضاً فـي هذه المرحلة وعاب عـليه اهتمامـه بالنفوذ الـرسمي، وفي المقابـل شكك محمد عبده في النتائج المرجوة لنضال مـصطفي كامل السياسي. والذي يدعنا نقول أن المرحلة الثانية من حياة الإمام محمد عبده ليست فوق الشبهات ليس فقط ما ذكر بل أيضاً تـخرج طابور من العلـمانيين كانوا قد تـتلمذوا على يد الإمـام.. ولا ينفي ذلك زعم رشـيد رضا ـ تلـميذ الإمام عـبده ـ والذي يعـتبر أيضـاً رائداً سلفـياً بأن هؤلاء قد خرجوا على خط الإمام. وقبل أن ننتهي من الحديث عن هذه المرحلة لابد من الإشارة إلـى حلقة الـشيخ طاهر الجـزائري (١٨٥١ ـ ١٩٢٠) في سوريـا حيث كانت قضـية البعث الإسلامي، وتجاوز أزمـة التحدي ووحدة العالـم الإسلامي هي موضوع الحـلقة المركزية.. كـما لا يمكننا أن نـغفل عناصـر ثورية إسلامية ومـتنورة كمصطفـي كامل وعبد الله النديم وكذلـك محمد إقبال في باكسـتان الذي دعا إلى تضافـر العقل والـوجدان والارادة لبنـاء مجتمـع إسلامي وذلك مـن خلال فلسـفة جديدة ومنظومة شعرية رائعة...

وهكذا انتـهت مرحلة بكـاملها، لتبـدأ مرحلة جديدة تحـت ظل خطر الليـبرالية العلمانية المتصاعدة فكرياً وسياسياً وتحت ظل الخطر الناجم عن سقوط دولة الخلافة وتحت تأثـير أفكار الأفـغاني ورشيـد وإقبال وتيـار الجماعة الإسـلامية بشـكل عام، مرحلـة جديدة تبدأ عام ١٩٢٨ هـي مرحلة التـنظيم الاجتـماعي الفعال الـذي تمثل بحـركة الإخوان المـسلمـين في مصـر والعالـم العـربي لتـشمل بـعد ذلك الـوطن الإسلامي وحركة الجماعة الإسلامية في باكستان والهند.

وإذا كان الأفغاني يقف علماً على رأس المـرحلة الاولى فإن الإمام الشهيد حسن البنا يقف علماً على رأس المرحلة الثانـية... هذه المرحلة التي تميزت إلى ثلاثة أجيال بدءاً من عام ١٩٢٨م...

الجيل الأول (١٩٢٨ ـ ١٩٤٩) أو جيل البعث:

وفيه طرح الإمام الشهيد الإسلام بكل شموله شريعة تنظم كل جوانب الحياة من اقتصاد وسياسة واجتماع بالإضافة إلى كونه عقيدة وعبادة، وخلال عشرين عاماً استطاع الإمام أن يبعث هذه الأمة من تحت الركام، وأن يطور مفاهيم الحركة خلال هذه الفترة بتسارع ثوري متقدم، مستلهماً القرآن والسنة وسيرة السلف الصالح بالإضافة إلى الممارسات اليومية التي كانت تصوب هذه المفاهيم. وقد استطاع هذا الجيل من الحركة إعادة الثقة إلى الفرد المسلم وللمثقف المسلم وللمجتمع المسلم، ولطرح الإسلام بشكل ثوري ضد البدائل العلمانية التي طرحها الاستعمار منذ ظهور التحدي وحتى ذلك الوقت... ولقد كانت حرب فلسطين التي خاضتها الحركة الإسلامية تتويجاً لوعي وفهم ذاك الجيل لطبيعة التحدي الغربي الحديث، الذي بدأ يتجسد في فلسطين صداماً عسكرياً محتوماً... ولكن تنطلق رصاصات غادرة في فبراير عام ١٩٤٩ ويتوقف نبض الإمام لتبدأ ملامح جيل جديد...

الجيل الثاني (١٩٤٩ ـ ١٩٦٧م) جيل التردد والمحنة:

لا نستطيع أن نقول إن عملية البعث التي بدأت مع الجيل الأول قد توقفت ولكن مما لا شك فيه أن ضربة قاسية ـ وقاسية جداً ـ قد وجهت الى الحركة الإسلامية التي وقعت في الحيرة والتفكك (يراجع النصوص الأولى من كتاب حسن عشماوي «الإخوان والثورة»).

وبقدر ما كانت هزيمة ١٩٥٤، ذات أبعاد خارجية، فإنها كانت وبنفس القدر ـ بل أشد ـ تحمل عوامل داخلية بحتة.. وفي جانب من جوانب التحليل فإنها كانت تعني أن الحركة الإسلامية طيلة خمس سنوات لم تستطع استيعاب الضربة التي وجهت إليها باغتيال الإمام الشهيد.. بل في ظل تخبط واضح استطاع انقلاب يوليو ١٩٥٢م أن يحدث انقساماً داخل حركة الإخوان المسلمين مستميلاً بعض العناصر حتى تلك التي كانت في الجمعية التأسيسية أو في مكتب الإرشاد.. ورغم أن الضربة كانت قد وجهت عام ١٩٥٤ إلا أن التحليل التنظيمي لهذا الجيل أصبح

ظاهراً للعيان في نهاية الخمسينات، حيث خرج من المعتقلات الكثيرون ممن تنكروا للتنظيم وأحنوا رؤوسهم للسلطة بينما بقيت بعض العناصر في الجهاز الخاص وأقلية اخرى تعاني من قسوة إرهاب السلطة التي سحبت البساط من تحت أقدام الحركة الإسلامية.

لا ننكر قسوة المد العلماني الرهيب في تلك المرحلة وظهور ما يسمى بالحركات الوطنية الثورية سواء بسقوط الإمبراطورية الهولندية في أقصى الشرق في أندونيسيا أم بسقوط فرنسا في ريف المغرب و الجزائر، وذلك على الجانب العربي. وإن كان الإسلام هو الذي أشعل روح الجهاد على قطبي هذا المحور وامتداده (محور طنجة جاكرتا حسب تعبير المفكر المسلم مالك بن نبي) فإن الملامح الإسلامية كانت تتوارى باقتراب استلام ما سميت بالقيادات الوطنية للسلطة.. حتى أوشكت هذه الملامح على الاختفاء تماماً..

وبالإضافة الى ما تقدم فإن هذا يعود أيضاً للغياب التام للحركة الإسلامية كحركة ثورية تملك نظرية متكاملة في مواجهة تكنولوجيا الغرب وعملائه ولعدم وضوح الرؤية كنتيجة لغياب التحليل العلمي وفوضى للمفاهيم التي لم تستطع أن تتصور الهدف والمنطلق والوسيلة، بالإضافة لغياب الوعي التاريخي وانعدام التثقيف السياسي لكوادر الحركة.. أي باختصار الجهل بأغلب عناصر المعادلة الرئيسية المطروحة: معادلة التحدي الغربي الحديث للوطن الإسلامي..

كما واجه هذا الجيل ايضاً بالإضافة لتفشي هذه الظواهر الوطنية المسماة ثورية.. واجه ظهور اليسار أو ما عرف بالعقائد الاجتماعية ذات المحتوى التقدمي، كموضة جديدة تحمل جاذبية خاصة ولكنها هنا أيضاً وقفت سلبية عاجزة عن طرح البديل وغابت من أمام هذا السيل الجارف... وسط كل هذا عاش الجيل الثاني منكفئاً على ذاته.. يجتر آلامه وأمجاد السلف الصالح البعيد والقريب بل ووقف متهماً رافضاً لمحاولات التجديد.. ولكن قبل أن نترك هذا الجيل لابد من الإشارة إلى محاولة حزب التحرير الإسلامي للخروج من دائرة المحنة و التردد...

ولكن هل استطاع الحزب ان يخرج فعلاً.. والى أي درجة، وما الذي قدمه؟ كل هذا لابد من ان يكون مجال دراسة موسعة ان شاء الله...

أما المحاولة الأخرى فهي المحاولة الجادة للشهيد سيد قطب لإنقاذ الحركة الإسلامية بطرح مفاهيم بشكل محدود جذري وثوري.

ولكن هذه المحاولة التي تمثلت في الشكل التنظيمي الذي طرحه سيد قطب في كتابه الرائد (معالم في الطريق) بالإضافة الى تفسيره العظيم (في ظلال القرآن).. هذه المحاولة ستترك آثارها الحقيقية على الجيل الثالث وعلي شباب هذا الجيل أكثر مما انعكست على الجيل الثاني الذي فشل في استيعابها بل ووقف منها موقف المتشكك والمتردد والمتهم.. ومع قولنا بجدية وعظمة هذه المحاولة فإننا نقف موقفاً نقدياً صارماً تجاه من اسموا أنفسهم بالقطبيين ومن ساروا على دربهم في التأويل المتعسف لأفكار سيد قطب..هذا التعسف الذي قاد في النهاية الى ظهور (جماعة المسلمين) أو ما يسمى (بالتكفير والهجرة).

الجيل الثالث (١٩٦٧)م وحتى الآن.. أو جيل الوعي و الثورة:

وفجأة تكشف كل شيء في سماء المنطقة وتبين أن هذا المد الثوري الوطني لم يكن إلا خدعة كبرى في حياتنا، فجأة تبين أن الاستعمار الذي انسحب عسكرياً، عاد أشد خبثاً بالوسائل الاقتصادية والسياسية ووسائله الخفية الاخرى... وأن ما سمى بمرحلة الثورة الوطنية لم تكن إلا فترة كمون سلخ فيها الاستعمار جلده وعاد أشد شراسة.. فجأة اتضح أن الدول الاستعمارية ازدادت ترفاً، وأننا ازددنا تخلفاً فتقدموا كمجتمعات منتجة وانحدرنا كحيوانات استهلاكية.. لقد كانت نكبة٦٧ تحولاً دراماتيكياً مذهلاً جمد كل شيء في مكانه لتصحو أمتنا على نعي مرحلة بأكملها..نهاية قاسية قادت إليها مرحلة طويلة من التبديد والضياع.

ولكن هل كان على العدو أن يستسلم.. هل كان على قيم الخنوع والاستهلاك التي فرضتها التكنولوجيا أن تنسحب من حياتنا بسهولة، وهل كان على الثورة

الإيرانية أن تمر علـى طريق مفروش بالزهـور لأجل أن تحقق انتصارها المـذهل على قيم الخنوع والاستهلاك..

انتصار الإيمان و الطهارة و الروح في عصر التكنولوجيا.. بالتأكيد لا.. بل بدا أن الامور تسير بشكل أسـوأ في البداية.. فالأنظمة العميلة الـتي أبرزت تلونت بوجوه مختلفة.. وأصبحت المخابرات الأمريكية، أو هـيئة الأمن القومي الفرنسية موجودة بشكـل رسمي أو شبـه رسمي، مسيطرة علـى مجريات الأمـور في كثيـر من دول الوطن الإسلامي ومناطق اخرى في أمريكا اللاتينية وأفريقيا.. هذا بالإضافة للوجود السرطاني في نفس المنطقة للشركات الاحتكارية المتعددة الجنسية..

(إن الإسلام وحده كديـن وحضارة هو الشرط الوحيـد لبقائنا واستمـرارنا كأمة وثقافة في وجـه التحدي الغربي الحديث، السـياسي و الثقافي على الـسواء) (توفيق الطيب)...

وهكذا سيـتجاوز جيل الوعي والـثورة مرحلة المحنة والـتردد، وسيتقدم بعـملية البعث إلى نهاياتها المـنطقية مستلهما في المنطقة العربيـة بالذات تجربة الإمام الشهيد حسن البنا، ويقدم أطروحة الوعي والثورة والشهادة...

لقد كان ظهور هذا الجيل أمراً حتمياً عـلى الصعيدين الداخلي والخارجي، ولم يكن بالإمكان استمرار السكونية و الجمود وتصلب الشرايين...

لم يكن بالإمكان استمرار غياب مثل هذا الجيـل والبدائل الاستعمارية العلمانية تتـهاوى وتسـقط...ومـنذ البـداية كان عـلى هذا الجـيل أن يخـوض معـركته عـلى مستويـين، الأول حيث المعركة الحاسـمة مع الجاهلية والطـواغيت والبقايا المـهترئة للبدائل التي طرحهـا الاستعمار، والثاني حيث المعركة التي قد يـضطر لدخولها مع الأجنحة المتخلفة في الحركة الإسلامية نـفسها، هذه الأجنحة التي عجزت عن فهم نفسها وفهم الآخرين وفهم العصر والعلاقات القائمة.. أو تلك الاجنحة التي تركز على جانـب من الإسلام أو تلك وتهـمل الجانب الآخر، أو تلـك التي تقبل مـهادنة

الأنظمة الكافرة وتراهن بذلك على الجانب المظلم المتنحي من التاريخ، كما يحدث في الأردن ومصر الى حد ما.

إن أمام جيل الوعي والثورة مهام شاقة في اعداد نفسه... وأحداث البعث الإسلامي والاستمرار في الثورة بعد ان يحدد المفاهيم والمنطلقات والوسائل والأهداف بشكل علمي من خلال الدراسات العميقة الجادة والتحليل والنقد.. ذلك أن الوعي هنا يعني الوعي العميق بالإسلام وبالمشكلات الإسلامية المعاصرة وهذا يتطلب منا إيمانا أساسه المعرفة.. وعملاً أساسه العلم... ووعياً سياسياً بواقع العصر... والتزاماً خلقياً بمعايير الإسلام..

الدراسة الثالثة عشرة:

المقاومـــة الإسلاميـــة:

المنطلقات والدوافع

السؤال اللبناني.. حديث الناس ينام معهم، ويوقظهم مع كل النشرات الإخبارية.. علامات الاستفهام والدهشة تملأ البيوت.. الشوارع.. المدارس والمعاهد. قبل أكثر من ربع قرن ـ ورغم صيحات القومية العربية المترددة من المحيط إلى الخليج ـ كتب بن جوريون في يومياته «إن نقطة الضعف في التحدي العربي هو لبنان.. إن نفوذ المسلمين يمكن إسقاطه بسهولة ثم تقوم هناك دولة مسيحية تنتهي حدودها عند الليطاني وتتحالف مع إسرائيل». واليوم وفيما الانهيار العربي يصل مداه يعلن أوري لوبراني منسق النشاطات الإسرائيلية في لبنان وسفير إسرائيل السابق في طهران الشاه: أن لبنان قد تتحول إلى جمهورية إسلامية خلال خمس سنوات.

ليس سهلا وليس بالإمكان أن نرصد هنا وتفصيلا التغيرات التي قادت إلى هذه القفزة المفاجئة في الفكر السياسي الإسرائيلي لأن أسئلة مهمة أخرى تحتاج إلى مزيد من التأمل أو محاولة الإجابة، هل كان عليهم أن يتلقوا الضربة من حيث لم يحتسبوا، هل عاد للصراع الحقيقي وجهه التاريخي بعد عشرات السنين من التمويه؟ هل هو بداية الأفول والعلو وإفساد بني إسرائيل وهل هؤلاء الاستشهاديون «الانتحاريون!» هم طلائع «عبادالله» الذين جاسوا يوما «خلال الديار» يعودون اليوم «ليسؤوا وجوههم..».. هل كان على زعيم أكبر دولة عربية أن يذهب إلى القدس بل إلى آخر العالم في كامب ديفيد لتدشين سلام مدنس.. هل كان على قاهرة العروبة والإسلام.. قاهرة المعز أن تحتضن العلم الإسرائيلي فيما الاستشهاديون في جبشيت والنبطية يحيلون قراهم الفقيرة إلى جحيم حقيقي يحرق

(*) المصدر: مجلة الطليعة الإسلامية (العدد ٢٧/ ٢٨ ـ أيار ١٩٨٥).

وجوه المحتلين، فيهرولون على غير هدى؟ وهل هي مجرد مصادفة أن يتحقق الحلم الفلسطيني «الثورة الشعبية» التي نظروا لها طويلا في نفس الوقت الذي «اقتنع!!» فيه رئيس منظمة التحرير الفلسطينية بأنه ليس أمامه إلا الدخول في كامب ديفيد!! هل هذه مجرد مفارقات أم أنها حركة التاريخ التي تقضي بأنه ليس على المنهار إلا أن ينهار وعلى الزبد أن يذهب جفاء قبل أن تنبثق الأرض عما ينفع الناس.

ولكن كيف حدث هذا.. ما هي خلفيات الحدث؟.. هل يمكن أن يصبح لبنان جمهورية إسلامية، وهل ما يحدث ظاهرة شيعية خاصة كما يريد الإعلام الغربي أن يقول، أم أنها ظاهرة إسلامية عامة.. هل هو حزب الله أم أنها حركة أمل؟ وهل هو المحامي الباريسي نبيه بري أم أنه المجاهد الشيخ محمد حسين فضل الله الذي يقرر مصير الجنود الإسرائيليين بنفس السهولة التي يحرك بها حبات مسبحته؟ ولماذا يغيب الدور العربي، وأين يبدأ الدور الإيراني وأين ينتهي.

رغم أن المسلمين في لبنان تتجاوز نسبة حضورهم ٦٥٪ من عدد السكان إلا أنهم تركوا منذ الأربعينات المنصب الأهم «رئاسة الجمهورية» للمسيحيين بشكل عام وللموارنة بشكل خاص في حين بقي منصب رئيس الوزراء «للسنة» ورئيس مجلس النواب (للشيعة) والمنصبان في أقوى الروايات شرفيان مقارنة بالمنصب الأول.. أما مجلس النواب نفسه فيتم اقتسام مقاعده مناصفة.

والمسيحيون هناك موارنة ـ روم أرثوذوكس ـ كاثوليك ـ أرمن ـ انجيلوية ويمثل الموارنة القوة الرئيسية من هذه القوى (حوالي نصف مليون) وتتوزع هذه القوة على الكتائب (آل الجميل) الوطنيين الأحرار (كميل شمعون) جيش التحرير (سليمان فرنجية) والكتلة الوطنية (إدة) وحراس الأرز (سعيد عقل).. وعلى الجانب الإسلامي فهناك السنة (٣/٤ مليون) والشيعة (أكثر من مليون) ويمكننا تقسيم الشارع الإسلامي السني إلى ثلاثة توجهات أساسية:

١ ـ التوجه الإقطاعي الارستقراطي المتمثل في القيادات التقليدية والتي حافظت على علاقات متوازنة مع الموارنة أصحاب النفوذ من أيام رياض الصلح

(السني) وبشارة الخوري (الماروني) في الأربعينات وحتى الآن ومنهم عائلات كرامي ـ سلام ـ اليافي ـ الصلح.

٢ ـ القوى الشعبية ذات التوجه القومي أو اليساري، وتتنازع سوريا وليبيا هذه الساحة.

٣ ـ التوجه الإسلامي الملتزم والذي تمثله بشكل أساسي الجماعة الإسلامية (المفكر الإسلامي الاستاذ فتحي يكن) وحركة التوحيد ١٩٨٠ (الشيخ سعيد شعبان) إضافة إلى تجمع العلماء وعدد من رجال الدين الملتزمين، وهذا التوجه الأخير هو الممثل الحقيقي للتسنن في حين يبقى انتساب التوجهين الأولين للسنة مجرد انتساب تاريخي فارغ من أي مضمون أيديولوجي إسلامي. وحتى اغتياله في مارس (آذار ١٩٧٦) كان الزعيم الدرزي كمال جنبلاط هو الشخصية الأكثر تأثيراً داخل الشارع الإسلامي!!! وذلك بسبب غياب القيادة الإسلامية الملتزمة عن الساحة وعدم فعالية الشخصيات التقليدية.

ورغم أن الشارع الإسلامي الشيعي يبدو ـ ولأسباب تاريخية ـ أكثر تماسكا إلا أننا كنا نلاحظ داخله نفس الخطوط الثلاثة السابقة في الشارع الإسلامي السني، مع بداية السبعينات بدأ نفوذ الإمام موسى الصدر (القادم من إيران إلى لبنان) في التزايد والتأثير على نفوذ التوجه الإقطاعي الارستقراطي الشيعي (آل الأسعد وحماده والخليل رؤساء مجلس النواب التقليديون). في منتصف السبعينيات أنشأ الإمام موسى الصدر (الأب الروحي للشيعة) حركة أمل وكانت الساحة اللبنانية تخلو تقريبا من ميليشيات مسلحة إذا استثنينا جماعة «فتيان علي» الذين كانوا يستلهمون أفكار الإمام محمد باقر الصدر، وعند تأسيس حركة أمل تم انتخاب حسين الحسيني رئيسا لها وهو شخصية ليبرالية وإن كان ملتزما بمصالح الطائفة الشيعية وهذا ما يميزه عن القيادات القومية واليسارية في الشارع السني. وفي مؤتمر لاحق تم انتخاب المحامي نبيه بري رئيساً للحركة (ولد في المهجر ـ درس الحقوق في باريس ـ تزوج من أمريكية طلقها منذ سنوات).

والآن وقبل الاستمرار في عرض سيناريو التطورات اللاحقة، وبعد هذا العرض الموجز لما يهمنا ذكره من القوى المتواجدة على الساحة اللبنانية قبل سنوات، لابد من وقفة قصيرة مع حدث مهم هز الوطن الإسلامي والعالم بأسره قبل سنوات وله علاقة مباشرة بالتطورات اللاحقة في لبنان.

في عام ١٩٧٩ انتصرت الثورة الإسلامية الإيرانية وفي مكان لم يتوقعه الكثيرون فالوجود الغربي في إيران كان في أوجه. ورغم كل المحاولات الأمريكية للحيلولة دون انتصار الثورة إلا أن (الطلقة التي جاءت من القرن السابع الميلادي إلى القرن العشرين) كما وصف الصحفي محمد حسنين هيكل آية الله الخميني استقرت وبجدارة في القرن العشرين.. حاول الغرب ضرب الثورة، ثم حاولوا ضرب الدولة أو محاصرتها على الأقل حتى لا تمتد عدواها إلى خارج إيران، أي حاولوا إبطال مفعول الطلقة القادمة من صدر الإسلام لتبدد ظلمة هذا الليل الجاثم فوق الوطن الإسلامي.. وكانت وسائلهم غير الحصار والمقاطعة وإثارة الأقليات والحرب كانت محاولة عزل إيران عن بقية مسلمي العالم.. عن بقية المليار مسلم والتي كانت عدوى الشورى كافية لتحركهم وبقوة لتدمير النفوذ الغربي في المنطقة للأبد وتحقيق استقلال حقيقي ونهضة حقيقية في ظل الإسلام.. إذن عزل إيران الخميني عن بقية المليار مسلم هو الحل وإن لم تفلح حرب صدام، ففتنة السنة والشيعة جاهزة وسدنتها جاهزون وبدأ مسلسل الأوراق الخبيثة يقذف الشارع السني بالسخام والأكاذيب ويصفع العقل السني ليل نهار بحملة شرسة لم يشهد تاريخنا لها مثيلا «هؤلاء شيعة.. كفار.. يحرفون القرآن ويرفضون السنة ويسبون الصحابة رضوان الله عليهم» ووصل الأمر بجامعة محاصرة في وطن محتل أن تصدر عنها مذكرة تدعو لمحاربة الشيعة أحفاد المجوس!!

وهكذا استطاعوا ولو جزئيا.. ولو مؤقتا التأثير على قطاع مهم في الشارع السني ولكنهم بالطبع فشلوا تماما في التأثير على الشارع الشيعي داخل إيران.. وكان لبنان حيث يزيد المسلمون الشيعة على المليون نموذجا حيا لما يمكن أن تصنعه الثورة الإسلامية من تأثير على المسلمين وضد الغرب المستعمر.. لقد عادت الروح..

وانتقل المد الإسلامي والجهادي من طهران إلى حدود فلسطين وبدأت في لبنان رحلة العودة إلى الإسلام وفي الشارع الإسلامي عموما والشارع الشيعي علي وجه الخصوص، وأصبح لرجال الدين المناضلين كالإمام محمد حسين فضل الله وراغب حرب وغيرهم دور كبير في قيادة الجماهير.. حتي حركة أمل لم تنجو من المد الإسلامي المتزايد الذي لم يجد صعوبة كبيرة في التغلغل داخل صفوفها، والتأثير على شبابها إلى حد بلورة وتمايز مجموعات إسلامية ثورية وملتزمة داخلها، كأمل الإسلامية التي قادها حسين موسوي. وهكذا أخذت الأمور في النضوج وبدأ حزب الله في التشكل، وهو ليس حزبا بالمعنى الاصطلاحي للحديث كما يتصور الآخرون خاصة من العرب إنه تجديد للمصطلح القرآني «.. حزب الله..» الذي يشير إلى سواد الأمة الملتزمة، إن الإمام محمد حسين فضل الله ليس زعيما سياسيا لتنظيم اسمه «حزب الله»، كما أكد هو نفسه مرارا ولكنه اليوم الأب الروحي للمسلمين الشيعة في لبنان الذي يعني مجرد التزام أحدهم بالإسلام دخولا تلقائيا إلى ما يسمى «حزب الله»، ويصبح بهذا جنديا ينتظر الأمر بدون مواثيق مكتوبة ولا استمارات عضوية!!



في يونيو (حزيران) ١٩٨٢ بدأ الغزو الإسرائيلي للبنان مما عرف وقتها بحملة سلامة الجليل! أسفر الغزو في حينه عن مجموعة من الحقائق الجديدة أهمها: تدمير البنية العسكرية لمنظمة التحرير الفلسطينية ـ إخراج الثورة الفلسطينية من لبنان ـ دفع القيادة البراجماتية ـ من م. ت. ف إلى مزيد من الارتماء في أحضان الحكام العرب والبحث عن الحلول السلمية ـ ظهور الانشقاق سواء داخل فتح أم المنظمة ككل.. وعلى جانب آخر كان من الحقائق الجديدة تزايد التسلط والهيمنة المارونية على لبنان، وكان انتخاب بشير الجميل رئيسا للجمهورية هو الذروة. ما من شك أن الوضع كان يبدو وقتها كنكسة استراتيجية في المعركة ضد الاستعمار في المنطقة وكدنا نعترف بأن الهيمنة الأمريكية على المنطقة أصبحت حاسمة وأقوى من أي وقت مضى.. ولكن الوضع بالتدريج أصبح محتملاً لسبب واحد هو تفجير الثورة

والمقاومة الإسلامية من شمال لبنان إلى جنوبه وإلا فإن كل شيء كان يبدو مظلما ويدعو للأسى والألم.

في الشمال (طرابلس) كان عالم الدين الأزهري الشيخ سعيد شعبان يقود حركة التوحيد التي تأسست عام ١٩٨٠ من تحالف جند الله وحركة المقاومة الشعبية إضافة إلى الشيخ نفسه وجماعته (كان الشيخ حتى السبعينات على علاقة وطيدة بالإخوان المسلمين قبل أن يخرج بشكل منظمته الجهادية). في بيروت كان الشيخ ماهر حمود والذي كان إمام جمعة في مسجد صيدا قبل أن يهرب من محاولة القبض عليه في فبراير (شباط ٨٣) والذي أصبح إمام الجمعة في مسجد جامعة بيروت العربية كان يقود «تجمع علماء المسلمين» من السنة والشيعة (الشيخ زهير كنج والشيخ علي الحازن «شيعة» الشيخ صلاح الدين أرقه دان والشيخ سالم اللبابيدي «سنة») وبدأ التجمع في تنظيم اللقاءات والاحتفالات والتظاهرات ودعم حركة المقاومة الإسلامية وإصدار مجلة «الوحدة الإسلامية».

أشارت الإذاعة الإسرائيلية (نشرة ٣٠ , ١١ صباح الثلاثاء ١٩/ ٣/ ٨٥) إلى اشتباكات كانت عنيفة بين جماعة الشيخ حمود والكتائب في صيدا.

في البقاع كان أكثر من ٤,٠٠٠ من حراس الثورة الإيرانيين الذين وصلوا في صيف ١٩٨٢ وتم حجزهم وقتها في سوريا كانوا يشاركون المسلمين في بعلبك في تحويل المدينة إلى جمهورية إسلامية.. كما كانت تسمي وكالات الأنباء بعلبك وكما فعل سعيد شعبان في طرابلس. في صيدا كان رجال الدين المسلمين من السنة والشيعة يبعثون حركة المقاومة الإسلامية. وعلى امتداد كل الجنوب المحروم كانت القرى المسلمة الفقيرة تعلن عن غضبها ضد المحتلين. في صور كان مقر الحاكمية الإسرائيلية يدمر وفي بيروت كان نسف مقر الوحدات العسكرية الصليبية والمتعددة الجنسيات نصرا تاريخيا لحركة الجهاد الإسلامي كما كان دخول القوات الإسلامية إلى بيروت الغربية في فبراير ٨٤ بعد معارك طاحنة مع الجيش اللبناني والكتائب منعطفا مهما في الوضع اللبناني. وهكذا وبين دهشة كل المراقبين في العالم تحول لبنان حيث النفوذ الماروني ـ الأمريكي ـ الإسرائيلي المتعاظم.. تحول إلى

قلعة إسلامية ترمي أعداءها بالحمم وتحيي في قلوب المسلمين ذكريات المواجهة بين الإسلام والصليبيين قبل أكثر من ثمانية قرون، إن الحضور الإسلامي الشعبي والمسلح يعيد اليوم تشكيل الدولة اللبنانية بعيدا عن الهيمنة المارونية.. لقد خرجت القوات الاستعمارية (الأمريكية والأوروبية) مهرولة بعد أن تجرعت ذل الهزيمة وسقط اتفاق ١٧ أيار الاستسلامي الذي وقعه أمين الجميل مع إسرائيل، وتحول الغزو الإسرائيلي إلى أسوأ كارثة في تاريخ إسرائيل القصير الحديث على حد تعبير النيويورك تايمز. ولخص زئيف ستيف المراسل العسكري الشهير لصحيفة هآرتس نتائج الغزو في أنها أضعفت الإسرائيليين والمسيحيين وجعلت من لبنان بلدا عربيا أكثر من أي وقت مضى، وأصبح على قادة إسرائيل أن يحددوا كل يوم موعدا لإنهاء الانسحاب أسرع من الذي حددوه بالأمس، لقد أصبح الضمير الإسرائيلي مجللا بالعار في نفس الوقت الذي احتل فيه الرعب أرواحهم. أحد كاتبي افتتاحية صحيفة هآرتس ـ ولديه ابن يحارب في لبنان ـ كتب معلقا على الهجوم الاستشهادي بالقرب من المطلة «إنك تبدأ سماع الهذيان بخصوص الجريمة الشنيعة والحرب ضد الإرهاب وتتعجب: ترى ما الذي يتكلمون عنه. إن الشيعة يقاتلون من أجل أرضهم بالطريقة الوحيدة التي يعرفونها وحسب القواعد السلوكية السائدة هناك والشخص الذي لم يكن من الواجب أن يكون هناك ولم يكن من الواجب أن يتواجد هناك من البداية هو ابني».

والآن أين ومتى ستقف هذه الحرب؟.. هذا الجهاد؟

واهمون أولئك الذين يظنون أنها ستقف عند حد لأنهم لا يفهمون بواعثها.. فمن الواضح أن تصعيد الجهاد المسلح ضد الاحتلال مستمر وأن شعار طرد قوات العدو دون قيد أو شرط لا تنازل عنه.. إن بقاء جبهة الجنوب مفتوحة على مستوى طرد الاحتلال وعلى مستوى الجهاد بات أمراً واضحاً على لسان المقاومة الإسلامية.

إن ما يسمى بسياسة القبضة الحديدية أو سياسة العقاب الجماعي لن تثمر غير مزيد من الدم الذي سيروي شجرة الثورة والحرية والجهاد.

الدراسة الرابعة عشرة

حرب الخليج والقضية الفلسطينية

ما أن سكتت المدافع في حرب الخليج الأخيرة وانتهى الامريكيون وحلفاؤهم من مرحلة الهجوم العسكري ضد العراق حتى بدأوا هجومهم الثاني الذي يشمل دائرة أمن الخليج ودائرة مستقبل العراق، كما يشمل دائرة القضية الفلسطينية. إنهم بصدد بناء نظام إقليمي جديد يناسب ويلائم كامل هيمنتهم وسيادتهم على النظام الدولي الجديد الذي برز بعد انتهاء الحرب الباردة وتراجع الاتحاد السوفيتي. ولذا كان الهدف من هذه الحرب تدمير العراق وقوته التي تجاوزت الحد المسموح به لدولة عربية أو إسلامية، كان الهدف الدفاع عن النفط والتحكم في كميته وأسعاره، كان الهدف مواجهة حالة النهوض العربي والإسلامي في المنطقة، كما كان الهدف الدفاع عن الكيان الصهيوني وحمايته وتكريسه جنباً إلى جنب مع حالة التجزئة.. انها حرب إعادة تكريس الهيمنة الغربية على العالم. وأمريكا بعد نجاحها العسكري تحاول ترجمة كل هذا من خلال مزيد من الهيمنة السياسية والأمنية وعبر أربعة أهداف أساسية تضعها نصب عينها:

١ ـ تحقيق أمر واقع مستقر يحمي الأنظمة الموالية للغرب ويكرس تبعيتها وسياساتها الموالية.

٢ ـ تحقيق توازن عسكري جديد يمنع بروز أية قوة عربية أو إسلامية يمكنها تهديد مصالح أمريكا والكيان الصهيوني، وسيستدعي هذا القضاء على أي طموح عربي ـ إسلامي لبناء قاعدة صناعية علمية ذات إمكانات عسكرية.

٣ ـ تعزيز مكانة الدولة اليهودية سياسياً ودبلوماسياً وعسكرياً وتحسين علاقاتها بأصدقاء أمريكا خاصة مصر والسعودية ودول الخليج وتركيا، وتحسين العلاقات العسكرية الأمريكية الإسرائيلية بتقديم التقنية الحديثة والأسلحة الحديثة إضافة إلى إنهاء المقاطعة الاقتصادية الخليجية للكيان الصهيوني.

(*) المصدر: ألقيت هذه الدراسة في (المؤتمر الشعبي العربي الإسلامي ـ الخرطوم ٢٥/ ٤ ـ ٢٨/ ٤/ ١٩٩١).

٤ ـ التصدي لحركة النهوض الإسلامي ومحاولة احتواء وتحجيم الحركة الإسلامية باعتبارها العدو الأول والأساسي لاستمرار الهيمنة الأمريكية والعمل على عزلها عن الشارع العربي الإسلامي عبر تحسين الأوضاع الاقتصادية والمعيشية للدول الفقيرة لسحب قضية الظلم الاقتصادي والاجتماعي من أيدي الإسلاميين، وعبر تعزيز دور المؤسسة الدينية الرسمية وفقهاء السلطان وعبر الضغط على الأطراف التي تمول الحركات الإسلامية وتساعدها بهدف إيقاف الدعم المالي والمعنوي لإضعاف البني التنظيمية لهذه الحركات والتقليل من فعاليتها، كما ستحاول التغلغل داخل هذه الحركات لفهم أسلوب عملها وتخريبها، وستضع كافة العقبات لمنع تطور ونمو الحركة الإسلامية.

هذا على المستوى العربي ـ الإسلامي العام وعلى مستوى المنطقة أما على المستوى الفلسطيني فنحن نعرف أن أزمة الخليج انفجرت في آب ـ اغسطس ١٩٩٠ فيما القضية الفلسطينية تعاني من حصار ثلاثي الأبعاد:

١ ـ تزايد هجرة اليهود السوفييت واستمرارها بشكل غير مسبوق في تاريخ المسألة الفلسطينية.

٢ ـ تجاهل أمريكي ـ أوروبي شبه كامل للانتفاضة وحصارها عربياً ودولياً وترك فلسطيني الداخل نهباً للسياسة الصهيونية الساعية إلى إخماد الانتفاضة.

٣ ـ انقسام عربي واضح وعودة الساحة العربية إلى سياسة المحاور والنزاع الداخلي.

وهكذا ما أن انفجرت الأزمة حتى بدا واضحاً أنه من الصعب بل ربما من المستحيل الفصل بين ما يدور في الخليج وبين القضية الفلسطينية، لقد كان واضحاً أن القوى الموجهة للتحالف تتعمد إهانة الفلسطينيين وتجاهل حقوقهم وتنكر عليهم حتى ما أقرته لهم ما يعرف «بالشرعية الدولية»، ومع اشتداد الأزمة بدأت شيئاً فشيئاً تترك آثارها المباشرة على القضية الفلسطينية وعلى الانتفاضة أيضاً.

اقتصادياً:

١ ـ خسر الاقتصاد الفلسطيني العائدات التي كانت تحول من الكويت حيث يسكن ٤٠٠ ألف فلسطيني يعمل من بينهم ١٥٠ ألفا تقدر تحويلاتهم بـ٤٢٥ مليون دولار سنوياً، وفي الدول الخليجية الأخرى كانت التحويلات تصل إلى١٤٢ مليون دولار وهكذا خسر أهل الضفة والقطاع ٥٦٧ مليون دولار من التحويلات فقط.

٢ ـ عودة الآلاف من الفلسطينيين من دول الخليج ـ والكويت خاصة ـ سيرفع نسبة البطالة بمعدل مابين ٣٥ إلى ٤٠٪ وهذه العودة ستؤدي إلى زيادة في الاستهلاك دون زيادة في الإنتاج المحلي في ظل الظروف الصعبة للانتفاضة وبالتالي زيادة في الأسعار وأعباء جديدة.

٣ ـ حدوث أضرار بالغة بقطاع الصادرات الفلسطينية خاصة الزراعية والتي كانت تصدر إلى الكويت ودول الخليج والعراق والأردن وتقدر هذه الصادرات بـ٤٩ مليون دولار.

٤ ـ انخفاض قيمة المدخرات الفلسطينية للعاملين في الكويت أو فقدان بعضها وانقطاع المعونات التي كانت تحصل عليها م.ت.ف من دول الخليج والعراق.

٥ ـ الأضرار البالغة التي لحقت بالعديد من المؤسسات الفلسطينية المحلية بما فيها المستشفيات والجامعات والكليات والمعاهد والمجالس البلدية والقروية والجمعيات الخيرية وغيرها ممن كانت تتلقى مساعدات مباشرة أو غير مباشرة من دول الخليج.

٦ ـ انخفاض المساعدات المالية الأجنبية المقدمة إلى الأراضي المحتلة والتي كانت تقدمها مجموعة من الدول الغربية من رؤوس أموال خليجية في الأصل.

أما على المستوى السياسي:

١ ـ فقد أصبح واضحاً أكثر فأكثر في المنطقة، قلة الاهتمام بمصير الفلسطينين ومستقبلهم وبما يعانونه من اضطهاد يهودي، لقد حاول بعضهم عبر وسائل إعلام فاسدة ومشتراة أن ينزع عن القضية الفلسطينية نقاءها وطهارتها وسموها

في ضمير وقلب قطاعات من الأمة بزعم أن الفلسطينيين وقفوا مع احتلال العراق للكويت وكانوا مع تدميرها وسرقتها واغتصابها. كما أصبح لدى بعض العرب استعداد لقبول حلول غير مقبولة فلسطينياً ولم يكن هذا التأييد الواضح والقوي على لسان السعودية لرحلة بيكر ومشاريعه إلاّ نموذجاً سيتكرر.

٢ ـ بدأت بعض الدول والأنظمة العربية إعادة النظر في موقفها من الدولة اليهودية ودورها الإقليمي. فالشعور السابق بأنها دولة توسعية وعدوة يتحول اليوم إلى شعور بأن هنالك مصالح مشتركة تجمع الطرفين وأن الدولة اليهودية يمكن أن تلعب دوراً إيجابياً، ومفيداً في استقرار، وبقاء هذه الأنظمة، وفي استقرار علاقتها مع الولايات المتحدة.. وقد تقوم السعودية والكويت على سبيل المثال بإيقاف العمل بإجراءات المقاطعة الاقتصادية ضد الكيان الصهيوني.

٣ ـ من المؤكد أن القضية الفلسطينية تعيش اليوم أصعب ظروفها وأصبح مطلوباً شطب م.ت.ف وإضعافها وتفريغها من أي محتوى وطني، ولم يعد أمام المنظمة إذا لم تتماسك، وتتبنى سياسات أكثر نضالية، وتنضم إلى تحالف عربي إسلامي ناهض، إن لم تفعل ذلك لن يبقى أمامها سوى تقديم مزيد من التنازلات والانضمام نهائياً إلى المعسكر المصري الأمريكي. لقد نجح النظام العربي الرسمي وعبر القنوات الإقليمية والدولية في جعل خيار التسوية خياراً فلسطينياً ومن تنازل إلى آخر وجدنا أنفسنا في حيز استراتيجي ضيق، ورغم الفصام الذي تم أثر الأزمة بين المنظمة، والأطراف العربية والدولية التي كانت المنظمة تسترضيها بالتنازلات إلا أن المنظمة حتى الآن تتبنى نفس السياسات التي وضعت لأجل إرضاء تلك الأطراف. وهنا أحب أن أؤكد أن خيار التسوية هذا ليس سوى وهم وتبديد للجهد والوقت (سراب يحسبه الظمآن ماء حتى إذا جاءه لم يجده شيئاً) ويبقى البديل الآخر: التماسك واستمرار المقاومة والنضال والجهاد هو البديل الحقيقي الوحيد.

٤ ـ لقد استعاد الكيان الصهيوني تعاطف الشارع الغربي والأمريكي معه ومع مشاكله الأمنية، وسيساهم هذا التعاطف في منع أي ضغط رسمي على الكيان الصهيوني لأجل تقديم تنازلات سياسية للفلسطينيين أو تخفيف السياسة اليهودية القمعية.

٥ ـ إذا كانت فكرة الدولة الفلسطينية المستقلة قد نجحت في السنوات الماضية في التغلغل إلى داخل نخب أمريكية ويهودية وعربية وأوروبية، فلم يعد وارداً اليوم استعداد هذه النخب لقبول هذه الفكرة.. وباتت الكونفدرالية مع الأردن أو حتى الحكم الذاتي أكثر شعبية في أوساطها.

إذا أضفنا إلى كل ما سبق ما يتعرض له الفلسطينيون من اضطهاد في دول الخليج وخاصة الكويت لأدركنا حجم المأساة الفلسطينية المتجددة.. ومع ذلك فإن كل هذه الظروف الصعبة تضع شعبنا المجاهد في فلسطين وجهاً لوجه أمام العدو الصهيوني بدون أوهام وبعيداً عن شعارات التضامن الكاذب، حتى خسارة التعاطف الدولي يجب أن تعنى بالنسبة لنا خسارة هذا الاحتضان القاتل الساعي لتصفية قضيتنا وبالتالي نحن خسرنا القيد، وفي نفس الوقت فإن أمريكا لن تستطيع فرض هيمنة سياسية على المنطقة في المدى المتوسط والبعيد فموضوع الصراع العربي ـ الإسرائيلي سيبقى على حاله مشيراً ومؤكداً أن أمريكا الأب والحليف والصديق للكيان الصهيوني. إن الإدارة الأمريكية غير قادرة على بلورة سياسة متوازنة فيما يتعلق بالصراع العربي ـ الصهيوني وبالتالي غير قادرة على نزع فتيل التوتر في المنطقة وبالتالي غير قادرة على استيعاب امتصاص النقمة الشعبية التي تزايدت بعد حرب الخليج.

ومن ناحية أخرى وبنظرة سريعة نجد أن الولايات المتحدة قاتلت بجانب أنظمة ديكتاتورية تقمع شعوبها وتضطهدها في حين كانت الأنظمة التي عارضت الحرب أقرب إلى الديمقراطية أو السماح ببعض الحريات العامة، وهكذا ففي حين تطلق الحرب تفاعلاتها وتهدد شرعية هذه الأنظمة وتعزز دور الشارع والجماهير فإن أمريكا تضع نفسها في خدمة وحماية بقايا آخر الديكتاتوريات في العالم بما يعنيه

ذلك من مـأزق لدولة تزعـم أن رسالتهـا في العالـم الديمقراطـية! وحمايـة حقوق الإنسان.

أما من ناحيـة اقتصادية فسيبـقى هناك تناقض بين مـصلحة منتجي الـبترول وبين أنظمة حليفة للولايات المتحدة.. فهـؤلاء يريدون تعويض خسائرهم من خلال سعر معقـول (ومحترم) للـبترول في حـين سيبقى المـستهلكـون وعلى رأسهـم الولايات المتحدة الامريكية راغبين في توفر البترول بكميات كبيرة وأسعار رخيصة.

أما العـنصر الرابع والأكـثر أهميـة فيتجسـد في العامل الـديني الإسلامـي ففي الوقت الذي تحاول فـيه أمريكا والغرب فرض منظـومة من القيم والمفاهيـم الغربية فإن مـا يجـري هو تحول مـعاكس يـؤكد تمـسك الجمـاهيـر بمنظـومة القـيم والمـثل الإسلامية.. وفي حين كانـت أمريكا ترتكب جرائمها البشعـة في الكويت والعراق كانت الجماهير تشـعر بأنه لابد من القطع الكامل مع الغـرب بلا مساومة وحتى بلا أي حل وسط.. وفي نفس الـوقت تتنامى حركات النهوض الإسـلامي لتشكل درع الأمة الصلب في مواجهة هذا التحدي الصليبي الجديد.

وهكذا فإن عدم قدرة أو عدم رغـبة أمريكا في حل المعضلة الفلـسطينية ووقوف أمريكا بـجانب أبشع الأنظمـة الديكتاتورية وضـد حقوق الإنسان العربـي والمسلم اضافة إلى استمرار تنـاقض المصالح فيما يخص موضوع البتـرول في سياق المسألة الاقتصادية، وأخيراً قوة الإسلام كعنصر صمود وتفجير، ستجعل من تحقيق انتصار أمريكي أو استمـرار الهيمنة الأمريكية أمـرا في غاية الصعوبة بل هو أمـر مستحيل وسيـكون حدوث صـدام حضاري ثـقافي أمـرا حتـميا.. وعـلى الجانـب السيـاسي والجهادي سـيكون بإمـكاننا أن نـفتح مزيـداً من الثغـرات في جبهـة العدو لـينزف وينزف حتى يرحل عن بلادنا.

أيها السادة إسلاميـون وقوميون ووطنيون: ما ينبغي أن نذكركـم به في النهاية أن الانتفـاضة الشعـبية المبـاركة في فلسـطين مازالت حـيّة وقوية ومـستمرة وإنـها أهم الثغرات للنفاذ فـي عمق جبهة العدو الذي يحاصرنا اليوم فـي كل العواصم ولكنه

لن يستطيع ذلك في فلسطين، حيث جوهر الصراع الكوني وحيث التماس بين تمام الحق وبين تمام الباطل وحيث الانتفاضة الثورة.. المعجزة، الانتفاضة التي يجب النظر إليها كمشروع استراتيجي للتحرير ورأس رمح لقيام عربي وإسلامي شامل نحو حسم الصراع مع العدو وليست أداة تحريك نحو تسوية ظالمة وليست مشروعاً للاستثمار العاجل والصغير.. وهذا يتطلب أن تكون استجابة قطاعات الأمة سواء على مستوى الدول أم المنظمات والحركات والاتجاهات الشعبية بمستوى ذلك، دعماً للشعب الفلسطيني في الداخل على كل المستويات وحماية الانتفاضته وخياره في مواصلة الصراع بأشكال ووسائل متعددة.

كما يجب أن يكون واضحاً أمامنا أن التسوية المطروحة تستبعد كل الخارج الفلسطيني بما فيه «م.ت.ف» وأصبح الأمر من منظور أمريكي صهيوني لا يتجاوز مسألة أقلية قومية صغيرة هي فلسطيني الداخل، تعيش في ظل دولة وأكثرية هي الدولة اليهودية وليست قضية شعب عربي مسلمة اغتصبت أرضه وطرد منها ليقام عليها كيان استيطاني عنصري غاصب.. ولذا فإنني أؤكد مرة أخرى أن علينا أن نتخلص من أوهام السلام السراب، السلام المدنس، إن هذا الوطن العزيز والمقدس والصغير ـ فلسطين ـ لا يتسع لأكثر من شعب واحد وعلينا أن نختار من سيكون.

ومن هنا فنحن ننطلق من هذا المكان داعين لتوحيد كل قوى الأمة وقوى الشعب الفلسطيني بشكل خاص بمختلف اتجاهاته الفكرية والسياسية على أساس:

١ ـ الصراع مع التحالف الغربي ـ الصهيوني صراع يمس كينونة الأمة ووجودها وهويتها وحقها التاريخي في وطنها وبلادها وقرارها المستقل.

٢ ـ إنه بدون حسم مسألة الصراع على فلسطين فكل محاولات الأمة للنهضة والاستقلال ستجهض أو تحاصر أو تدفع الأمة تكاليفها مضاعفة من التضحيات والزمن على السواء.

٣ ـ في حين يمكن أن نختلف حول طريقة إدارة الصراع على المستوى التكتيكي فلابد من الإجماع حول أهداف وقضايا الأمة الإستراتيجية الكبرى مثل فلسطين.

٤ ـ ونحن ننطلق لإنجاز هذا المشروع نطلب من القوى الوطنية والقومية والإسلامية أن تعلن التزامها بأن الصراع مع الخارج له الأولوية المطلقة وأن الاختلافات الداخلية السياسية والأيديولوجية تحل بالحوار بعيداً عن العنف.

كما أن القوى القومية والوطنية مطالبة بالاعتراف بدور الإسلام التاريخي والمعاصر والمستقبلي كعقيدة ونمط حياة لمعظم جماهير أمتنا، وأن تقر بالواقع العالمي الجلي في أن القوة الرئيسية التي ما زالت واقفة ومرشحة لمواصلة الصراع مع الغرب ومشروعه في الهيمنة والسيطرة هي قوة الإسلام وشعوبه، وأن هذه القوة هي المرشحة لقيادة تحالف المستضعفين والمظلومين في العالم أجمع خلال العقود القادمة من أجل عالم أكثر عدالة.

الدراسة الخامسة عشرة

ماهي حركة الجهاد الإسلامي في فلسطين؟

حركة الجهاد الإسلامي في فلسطين حركة إسلامية فلسطينية مقاتلة تبلورت تنظيمياً في مطلع الثمانينات داخل فلسطين المحتلة، بعد أن كانت حواراً فكرياً وسياسياً امتد منذ منتصف السبعينات في أوساط بعض الطلبة الفلسطينيين الدارسين وقتها في مصر. وقد شمل هذا الحوار مسائل منهجية تتعلق بفهم الإسلام والعالم والواقع وكيفية رؤية وفهم التاريخ بشكل عام والتاريخ الإسلامي بشكل خاص.

كان الفهم المنهجي للإسلام كعقيدة وأصول دين وفقه وشريعة واستناداً إلى القرآن والسنة هو نقطة البدء. كما كان وعي الحركة المبكر بالتاريخ وإحساسها العميق بهذه الموضوعية سبيلاً لرؤية العالم على حقيقته مما سهل استيعاب ووعي اداة التغيير وصولاً إلى إدراك خصوصية فلسطين في الإشكال الإسلامي المعاصر.. واعتبارها بالتالي القضية المركزية للحركة الإسلامية والأمة الإسلامية. وقد استند هذا الاعتبار إلى فهم قرآني كان أوضح مايكون في سورة (الإسراء) كما في مواضع عديدة أخرى من القرآن الكريم والحديث النبوي الشريف. كما ساهم الفهم المنهجي للتاريخ والواقع في الوصول إلى هذه المقولة (مركزية وخصوصية فلسطين).. فحركة التاريخ المعاصر تتجسد في التحرك الاستعماري الممتد إلى قرنين من الزمان ضدالوطن الإسلامي. هذا التحرك الذي تمحور وتمركز أخيراً في فلسطين بعد أن أنجز مهماته في إسقاط النظام السياسي الإسلامي وإنشاء الدولة القطرية وتكريس التغريب كنمط ثقافي وحياتي في العديد من المجتمعات الإسلامية من مصر إلى إيران إلى تركيا. كما يؤكد الواقع أن ذروة الشر والاستقطاب الاستعماري الشيطاني تتجسد على أرض فلسطين عبر الكيان الصهيوني المتحالف مع الغرب الاستعماري.

(*) المصدر: نشرة المجاهد ـ فلسطين(الإعداد: ١٤٦ ـ ١٤٧ ـ ١٤٨ ـ ١٤٩، بتاريخ حزيران ـ تموز ١٩٩٢).

مع نهاية السبعينات كان الحوار الفكري والسياسي - المشار إليه - في أوساط بعض الشباب الفلسطيني المسلم المثقف أثناء دراستهم في مصر يتحول إلى مناخ سياسي تنبثق عنه نواة تنظيمية، اندفعت لاحقاً باتجاه فلسطين المحتلة لأجل بناء الحركة الإسلامية الثورية المحاطة بالجماهير الواعية المتحمسة لخلاص الذات والوطن تحت راية الإسلام. كان الهدف تحقيق الفريضة الغائبة بحل الإشكالية التي كانت قائمة وقتها حيث وطنيون بلا إسلام وإسلاميون بلا فلسطين. فالحركة الوطنية الفلسطينية استثنت الإسلام كأيديولوجية وغيبته عن برامجها أما الحركة الإسلامية التقليدية فلأسباب عديدة موضوعية وذاتية كانت تؤجل الإجابة عن السؤال الفلسطيني وتؤجل الجهاد في فلسطين.. فجاءت حركة الجهاد الإسلامي في فلسطين لتجيب عن السؤال الفلسطيني إسلامياً ورفعت شعارات: الإسلام والجهاد وفلسطين، الإسلام كمنطلق والجهاد كوسيلة وفلسطين كهدف للتحرير.

وقد مرت حركة الجهاد الإسلامي منذ انطلاقتها حتى الآن بثلاث مراحل أساسية، شملت الأولى العمل الجماهيري والسياسي والإعلامي والتعبوي كما شهدت الثانية الجهاد والقتال المسلح ضد العدو. ومن ٦/ ١٠/ ١٩٨٧ دخلت الحركة مرحلتها الثالثة بانطلاقة الانتفاضة الشعبية في فلسطين.

المرحلة الأولى: وهي التي تلت عودة واستقرار النواة الأولى التي تم تشكيلها أثناء الدراسة في مصر، أي عودتها واستقرارها في داخل فلسطين. وقد شهدت هذه المرحلة عملاً جماهيرياً وسياسياً وإعلامياً وتعبوياً كانت الأرض الفلسطينية متعطشة إليه. فها هي تشهد خطاباً إسلامياً ثورياً وجهادياً يمهد الطريق لتحقيق الفريضة الغائبة وطالما اشتاقت إليه الجماهير الفلسطينية المؤمنة.

في تلك المرحلة برز الدور الطلابي للحركة في كافة جامعات ومعاهد الضفة والقطاع. وفي نهاية عام ١٩٨١ تم تشكيل كتلة (الإسلاميين المستقلين) الطلابية في الجامعة الإسلامية بغزة كممثلة لحركة الجهاد الإسلامي. وقد حققت نتائج إيجابية في أول انتخابات جرت في كانون ثاني (يناير) ١٩٨٢ رغم مُضي فترة قصيرة على تواجد الحركة.

وسرعان ماانتشرت الفكرة في أغلب المخيمات الفلسطينية وكافة المدن وعدد كبير من القرى وتمركز أنصار الحركة ـ إضافة إلى الجامعات ـ في العديد من المساجد. ومنذ مطلع ١٩٨٢ بدأت الحركة في إصدار مجلة (النور) في مدينة القدس وهي مجلة تابعة لجمعية الشباب المسلمين في القدس كانت قد توقفت لأكثر من عام عندما اتفق بعض الأخوة في حركة الجهاد مع إدارة الجمعية سراً على إصدار المجلة. وفعلاً استمرت المجلة في الصدور بشكل متقطع حتى نهاية ١٩٨٢م وكانت تعبر عن الموقف الحركي الأيديولوجي والسياسي للحركة. ومع نهاية ١٩٨٢م بدأت تصدر في بريطانيا مجلة (الطليعة الإسلامية) معبرة عن نفس الخط الأيديولوجي والسياسي. وخلال أيام قليلة من صدورها في لندن كان يُعاد طباعتها سراً في القدس لتوزع في جميع أنحاء فلسطين تاركة آثاراً مهمة على الشارع الفلسطيني مما دفع السلطات الصهيونية إلى البحث عن كيفية طباعتها وتوزيعها، فقامت تلك السلطات بحملة اعتقالات في شهري أغسطس وسبتمبر١٩٨٣ شملت العشرات من أبناء الحركة كان من بينهم الدكتور فتحي الشقاقي. وقد استمر التحقيق معهم لخمسة شهور كاملة في أسوأ ظروف التعذيب وسميت تلك القضية بقضية (الطليعة الإسلامية) وتحولت مطبوعاتها إلى واحدة من أهم القضايا السياسية والأمنية في تلك الفترة. وتحول التحقيق على مدى الشهور الخمسة من قضية مطبوعات وتحريض على الثورة والجهاد إلى البحث عن هياكل تنظيمية سياسية وأمنية، وكذلك البحث عن سلاح وخلايا عسكرية.

وتعتبر هذه المجموعة الإسلامية التي ضمت العشرات من أبناء حركة الجهاد الإسلامي أول تنظيم إسلامي يتم اعتقاله منذ الاحتلال الصهيوني للضفة الغربية وقطاع غزة عام ١٩٦٧ . فالموقف الإسلامي التقليدي كان حتى ذلك التاريخ١٩٨٣ يتجنب الصدام السياسي أو الأمني المباشر مع سلطات الاحتلال!!

في تلك السنوات شهدت ليالي القدر في المسجد الأقصى المبارك تجمعات وتظاهرات حاشدة برعاية حركة الجهاد الإسلامي كما أخرجت الحركة الجماهير

الفلسطينية في العديد من المناطق لصلاة العيد في العراء تعبيراً عن التحدي للاحتلال.

وهكذا تعاظم دور الحركة في تلك المرحلة على الجانب التعبوي الدعوي والسياسي والإعلامي عبر دورها في الجامعات والمساجد في كافة المدن والقرى والمخيمات.

المرحلة الثانية (الجهاد المسلح): منذ البداية كان الجهاد المسلح ضد العدو الصهيوني هو المبرر الأساسي لنهوض حركة الجهاد الإسلامي، ورغم أهمية الإسهامات الفكرية التي قدمتها الحركة والخط السياسي الإسلامي المتميز، إلا أن هذا الأمر ـ أي الجهاد المسلح ـ بقي الأهم بالنسبة لحركة إسلامية فلسطينية نهضت لتشكل إضافة حقيقية جديدة ولتحل الإشكالية التي كانت قائمة بين وطنيين بلا إسلام!! وإسلاميين بلا فلسطين!!

ولذا فمع الأسابيع الأولى لحضور الحركة داخل فلسطين ومنذ بدايات المرحلة الأولى كان يتم ـ وفي ظل أعلى درجات السرية ـ تنظيم خلايا عسكرية مسلحة تابعة للحركة، فالفصل بين المرحلتين لم يكن فصلاً آلياً. ومع إنطلاقة الجهاد الإسلامي فقد كان العمل السياسي والتعبوي والجماهيري يتعاظم بالطبع.

في صيف عام ١٩٨١ تم تنظيم أول خلية مسلحة. ولكن خلال الأعوام ١٩٨٣/ ١٩٨٤/ ١٩٨٥ كان العمل المسلح يبدأ تدريجياً وبطيئاً وفي سرية تامة. ورغم أن العدو في حملة اعتقالات عام ١٩٨٣ ـ قضية الطليعة الإسلامية ـ كان يثير بقوة أثناء التحقيق موضوع الخلايا العسكرية المسلحة ووجود سلاح لدى الحركة، إلا أن التحقيق فشل فشلاً تاماً في التقدم بهذا الاتجاه.

في ٢/ ٣/ ١٩٨٦ قبض العدو على الدكتور فتحي الشقاقي للمرة الثانية وذلك بعد أسبوعين على آخر عملية عسكرية نفذتها الحركة في ساحة فلسطين بمدينة غزة في ١٨/ ٢/ ١٩٨٦ وكانت هجوماً بالقنابل على تجمع للجنود الصهاينة أثناء تغيير (تبديل) الدورية التي كانت ترابط في نفس المكان الذي استشهد فيه مواطن

فلسطيني قبل يوم واحد من هذه العملية على يد الجنود الصهاينة، وقداعتبرت الجماهير أن هذه العملية البطولية الجريئة جاءت رداً على استشهاد الشاب العكلوك في ساحة فلسطين بمدينة غزة، وقد سبق اعتقال الدكتور الشقاقي ورافقه الكشف عن ثماني عمليات عسكرية نفذتها الحركة وكانت آخر عملية في ساحة فلسطين في ١٨/ ٢/ ١٩٨٦.

عام ١٩٨٦/ ١٩٨٧ كان عام الإسلام المجاهد في فلسطين.. ففي الوقت الذي كان فيه العمل الوطني الفلسطيني (قبل الانتفاضة) يدخل عنق الزجاجة ويعاني من إحباطات متعددة كانت حركة الجهاد الإسلامي تقود الجهاد المسلح وتنفذ أهم العمليات العسكرية.

وتوالت العمليات بدءاً من عملية البراق ٦/ ١٠/ ١٩٨٦ (سرايا الجهاد الإسلامي) إلى عملية الشجاعية ٦/ ١/ ١٩٨٧ ومروراً بعمليات الطعن بالسكاكين وعملية الهروب الكبير من سجن غزة المركزي ـ التي قادها المجاهد مصباح الصوري والمجاهد محمد سعيد الجمل وضمت ستة من مجاهدي الحركة ـ وعملية قتل الكولونيل رون طال قائد الشرطة العسكرية في قطاع غزة في ٢/ ٨/ ١٩٨٧ والتي وصفها إسحق رابين وزير الحرب آنذاك (بأنها عملية استثنائية وسيكون الرد عليها استثنائياً) وغير ذلك من العمليات البطولية التي توجها أبطال الشجاعية البواسل محمد الجمل، سامي الشيخ خليل، زهدي (فايز) الغرابلي، أحمد حلس بعمليتهم البطولية واستشهادهم الفذ وكان قد سبقهم مصباح الصوري شهيداً قبل ذلك بأيام.

لقد كان أبطال الشجاعية هم الذين قادوا الهروب الكبير من سجن غزة المركزي في٥/ ٧ / ١٩٨٧ وهو السجن الذي يعتبر من أهم سجون الوطن المحتل وقلعة لكل من الجيش والشرطة والمخابرات الصهيونية.. ولذا كان هروب ستة مجاهدين من هذا السجن ـ القلعة ـ ضرباً من ضروب المعجزة ورغم محاولات العدو المستميتة للبحث عنهم إلا أنهم ضربوا جذورهم في أعماق الشعب الذي احتضنهم لخمس شهور كاملة وهم ينفذون أخطر العمليات العسكرية على أبواب الشجاعية..

وكانت الملحمة: الشبان المؤمنون الأطهار وحفظة القرآن والذين كان الناس يتسابقون للصلاة من ورائهم، التقوا وجهاً لوجه مع العدو الصهيوني، رفعوا سلاحهم وبنادقهم وحدقوا في عين عدوهم وأطلقوا النار، فكان دمهم إيذاناً بدخول الشعب مرحلة جديدة، ودخول حركة الجهاد الإسلامي مرحلة جديدة هي الانتفاضة.

المرحلة الثالثة: الانتفاضة (٦/ ١٠/ ١٩٨١).

لقد كان دم أبطال الجهاد الإسلامي المسفوح على أبواب مدينة غزة في ذلك اليوم هو رسالة البرق التي فجرت المكنون الفلسطيني العظيم وكانت الشرارة التي أشعلت سنوات الاحتلال بقهرها وسواد لياليها، كما أطلقت خبرات النضال الفلسطينية التي تراكمت على مدى سبعين عاماً.

كانت خيبة الأمل الفلسطينية في الواقع العربي الرسمي تلك الأيام تأخذ مداها، وكان الإسلام يرتفع عنواناً للمرحلة ويتجذر عميقاً في وجدان الشعب ويعود ليقود مسيرة الجهاد من جديد.

إن حركة الجهاد الإسلامي لم تصنع الانتفاضة، لأن الانتفاضة أكبر من كل الهيئات والأحزاب والمنظمات والفصائل. وهي أيضاً لم تحدد ساعة الصفر في انطلاقها، لأنه لايمكن لأحد أن يحدد ساعة انطلاق المعجزة ولكننا نؤكد أن الخروج الجماهيري الحاشد إلى الشوارع كان حلمنا منذ اليوم الأول. وعندما نادت الحركة لتفعيل الشعائر الدينية، ودعت إلى صلاة العيد في العراء واحتفالات ليلة القدر في المسجد الأقصى، كانت تحلم بأن ترى الجماهير تخرج إلى الشوارع حاشدة لتبدأ مسيرة الجهاد.

ولذا فمنذ السادس من تشرين، واكبت حركة الجهاد الإسلامي الانتفاضة ساعة بساعة ويوماً بيوم، وأصدرت البيانات والمنشورات داعية الجماهير إلى الخروج والمقاومة والجهاد على درب شهداء الشجاعية. وجاء يوما ٨ و٩/ ١٢/ ١٩٨٧ ليكونا يومى تصعيد شامل ويومى تصميم وصلت فيه الانتفاضة إلى كل مدينة وقرية

ومخيم في الضفة الغربية وقطاع غزة. ومن يعود إلى الأدبيات الفلسطينية والعربية مابين ٦/ ١٠/ ١٩٨٧ إلى ٩/ ١٢/ ١٩٨٧، سيجد أن الحديث كان يدور عن انتفاضة الشعب الفلسطيني في الوطن المحتل. لقد جاءت حادثة المقطورة قرب جباليا في ٨/ ١٢/ ١٩٨٧ فرصة لتنقل التوتر والمصادمات في القطاع وبعض أنحاء الضفة ليشمل كل مكان، وحادث المقطورة جاء على خلفية مقتل مستوطن صهيوني في قطاع غزة على يد مجاهدي الجهاد الإسلامي.. وقد جاء تصريح لإسحق مردخاي في ديسمبر (كانون أول) ١٩٨٧ يعزي أعمال الانتفاضة وتصاعدها إلى حادثة المقطورة وكذلك إلى قرار إبعاد الشيخ عبد العزيز عودة، الذي كان صدر في ١٧/ ١١/ ١٩٨٧م.

لقد تحملت حركة الجهاد الإسلامي مع الجماهير عبء التصدي للاحتلال خلال الأسابيع الأولى من الانتفاضة، حتى نهضت بقية القوى الإسلامية، والوطنية لتشمل الانتفاضة كافة القوى والفئات والطبقات. ولقد دفعت الحركة ثمن ذلك غالياً، عندما اعتقل أهم كوادرها مبكراً، وأبعد بعض قيادييها، ومورس ضدها أشد أنواع البطش وتعرضت لحملات من التجاهل والتعتيم.

ولكن هذا لم يزد حركة الجهاد الإسلامي إلا قوة ، وقد استعصت على الاجتثاث حسب تعبير المفكر الصهيوني ميخائيل سيلغ: (إنها الحركة التي ماإن تجتثها في مكان حتى تنمو في مكان آخر).

لقد استمرت مشاركة الجهاد الإسلامي بفعالية، خلال خمس سنوات تقريباً ومازالت مصممة ـ إن شاء الله ـ على تصعيد الانتفاضة والسير على طريق الجهاد مادام الاحتلال قائماً. إن مشاركة الجهاد الإسلامي في الانتفاضة لم تكن على حساب العمل على صعيد التحرك السياسي، والتعبئة الجماهيرية أو الجهاد المسلح الذي استمر رغم كل الدعوات لوقف الجهاد المسلح ضد العدو.

ما هو موقف حركة الجهاد الإسلامي من منظمة التحرير الفلسطينية؟

ولدت م.ت.ف على يد النظام العربي الرسمي ممثلاً بقرار القمة العربية رقم (١/ ١٩٦٤) وبمسعى ناصري إلا أنها جاءت أيضاً تحت ضغط فلسطيني بحثاً عن التمثيل وإبراز الهوية الوطنية.

عُقد المجلس الوطني الفلسطيني الأول في القدس (٢٨/ ٥/ ١٩٦٤) حيث تم الإعلان عن تأسيس المنظمة وإقرار ميثاقها القومي الفلسطيني. وفي عام ١٩٦٦ تمت إزالة السيد أحمدالشقيري عن قيادة المنظمة وتولت الفصائل الفلسطينيةالمقاتلة (بزعامة فتح) ـ والتي برَز دورها بعدنكبة ١٩٦٧ ـ قيادة المنظمة. وتم تحديد المرحلة الحالية من نضال الشعب الفلسطيني بأنها مرحلة كفاح وطني. كما تم التأكيدعلى ماسمي بالشرعية الثورية وتمثيل المنظمة لقوة الثورة الفلسطينية.. كما تم التأكيد بشكل قاطع على رفض كل مشاريع التسوية للقضية الفلسطينية.

أعطت تلك الأيام للفلسطينيين شعوراً قوياً بالذات والهوية الوطنية ولكن شيئاً فشيئاً بدأ المشروع الوطني الفلسطيني (المنظمة) يغادر منطلقاته الأساسية، حتى وصل في أقل من ربع قرن إلى الإقرار بشرعية العدو الصهيوني على ٨٠٪ من أرض فلسطين واستعد لقبول نوع من الحكم الذاتي على الخمس الباقي من الأرض، إضافةً إلى هذا التراجع السياسي الكبير فقد سادت فوضى الأيديولوجيا صفوف المنظمة قبل أن تخسر الأيديولوجيا تماماً في السنوات الأخيرة. أما الفساد الإداري والفشل التنظيمي فهو الأمر الذي لا ينكره فصيل واحد من منظمة التحرير.

في ظل هذه الأزمة الخانقة كان لا بد من البحث عن مخرج أو بديل!

* * *

لا يوجد في أدبيات حركة الجهاد الإسلامي في فلسطين مايشير إلى أنها طرحت نفسها بديلاً عن منظمة التحرير الفلسطينية. ولا يوجد في أدبياتها معارضة واضحة لإمكانية اعتبار المنظمة إطاراً جامعاً لقوى شعبنا السياسية.

ولكـن الحركـة كانت تـعتـبر أنه مـن حقـها وواجـبها طـرح أيديـولوجيـا باعـثة مقاتلةمقابل فوضى الأيديولوجيا وتغريبها ثم انسحابها. ورأت حركة الجهاد أن هذه الأيديولوجيا الحية الباعثة هي الإسلام عقيدة الأمة ومحور تاريخها وتراثها، الإسلام الذي استثنته فصـائل المنظمة بعمومها، ومنها من حـاربه بلا هوادة في مرحلة ما إن لم يكن في كل وقت.

كما اعتبرت حركـة الجهاد الإسلامي أن فلسطين ـ كل فلسـطين ـ قاسم مشترك يجمع كافة القوى السياسية المناضلة لأجل تحريرها وأكدت على إمكانية التعاون بين هذه القوى بغض النظر عن مسألة الأيديولـوجيا ورغم أهمية هذه المسألة. إن أهمية وخطورة وقـداسة القضيـة الفلسطـينية في حـد ذاتها، وإن وحدة الجامـع الحضاري لكـافة القـوى السيـاسية الـفلسـطينيـة بغض الـنظر عـن تفصـيلات أو اجتـهادات أيديولوجية.. إن كل هـذا يسمح بل يستدعي ويؤكد على ضـرورة لقاء كافة القوى الفـلسطيـنية في مـواجهة العـدو الصهيـوني ولأجل تحريـر كامل فلـسطين بالجـهاد المسلح.

ومن هنا لم ينصـب خلاف الجهاد الإسلامي مع المنظمة على كـونها إطاراً جامعاً لقوى الشـعب الفلسطيـني السياسية أم لا، ولكـنه انصب على المحتـوى والمضمون. فقوة ومصداقية وشرعية م.ت.ف كإطار سياسـي أو تنظيمي جامع لا يتأتى من عدد سفاراتها أو من تواجدها في المحافل الدبلومـاسية بل يمكن أن يأتي فقط من تصعيد الكفـاح المسلح واسـتنفار الأمـة وتجسيد وحـدتها وتعـبئة طاقـاتها وقواهـا المجاهدة كشرط لازم لـكسر وتجاوز تـوازن القوى الظالـم والمستنـد على التجـزئة والهيـمنة الاستعمارية، وصولاً إلى إعادة بناء توازن قوى فـي صالح قضيتنا العادلة والذي هو أيضاً شرط لازم لأي إنجاز على المستوى الدولي.

إن حركة الجهاد الإسـلامي ترى أن الخطر الأكبر علـى شعبنا وقضيتـه يكمن في تمزيق بـرنامج وتوجهـات نضالنا وجهـادنا قبل أن يكـون في هيكلـية م.ت.ف وفي ضعف بنيانها.

إن وحدة الخط النضالي وصلابته أسبق من وحدة الإطار. فما فائدة أن نطلب من جميع القوى السياسية الفلسطينية الالتزام في إطار منظمة التحرير إذا كان برنامج منظمة التحرير يعلن ويكرس التفريط بحق شعبنا في وطنه وبحقه في الجهاد والكفاح المسلح لأجل تحريره.

ومن هنا ترفض حركة الجهاد الإسلامي المساومة على عدد من المقاعد في المجلس الوطني الفلسطيني أو على ضمانات تنظيمية أو إدارية لأن المسألة الأهم والأولى تكمن في صلابة الخط الجهادي وبرنامج النضال.

إن رفض الاعتراف بشرعية العدو الصهيوني على أي شبر من فلسطين واعتبار الكفاح والجهاد المسلح طريقاً لتحرير فلسطين وعدم التنازل عن الميثاق الوطني الذي أكد على حق الشعب الفلسطيني في كامل وطنه، وإعادة الاعتبار للإسلام كإطار لصراعنا الحضاري ضد الهجمة الصهيونية، هي الشروط التي تراها حركة الجهاد الإسلامي ضرورية للتعاون مع كافة القوى الفلسطينية ضمن إطار جامع كمنظمة التحرير.

ولكننا نود أن نؤكد أن خلافنا الأيديولوجي والسياسي مع أي طرف أو جزء من أجزاء شعبنا الفلسطيني لا يمكن حسمه إلا بالحوار الفكري والسياسي، بعيداً عن العنف، فالعنف فقط ضد العدو الصهيوني.

الدراسة السادسة عشرة

هل «إسرائيل الكبرى» مشروع علماني؟

العالم يتبادل التهنئة بمناسبة نقل خمسة عشر ألفا من اليهود الفلاشا إلى فلسطين المحتلة من أثيوبيا، والسيد بوش يشرب الأنخاب فرحاً بإنجاز هذه المهمة التاريخية التي أطلق هو نفسه شرارتها، فيما يطرد الفلسطينيون إلى خارج حدود وطنهم وسط استنكارات باهتة لا أهمية ولا معنى لها، هدفها تغطية عورات المجتمع الدولي ليس إلا، أليست هذه المقارنة وحدها كافية لتكشف زيف الغرب وحجم جريمته، فأي حق لهذا الأثيوبي في فلسطين التي لم تطأها قدماه ولا أقدام أجداده ـ في اي يوم- كي يحمل وسط صخب الغرب وفرحته إلى قلب الأمة فيما يقتلع الفلسطيني من أرضه وجذوره الممتدة إلى آلاف السنين ثم يلقى في العراء بلا وطن وبلا هوية يتنابذه الأعداء والأشقاء.

أي عالم هذا الذي أقر رأي معادلة للقوة ضده تحكمها أمريكا، أمريكا التي تتحدث عن ضرورة عدم الاستيطان في الأراضي العربية المحتلة (الضفة الغربية وقطاع غزة) وتتحدث أحياناً عن الأرض مقابل السلام، وهي المنوط بها دفع القسط الأكبر من تمويل هجرة اليهود السوفييت واستيعابهم في فلسطين، وهي التي قامت أخيراً بتوجيه وتسهيل هجرة آخر الفلاشا من أثيوبيا إلى فلسطين المحتلة كما قامت بتسهيل هجرة أول الفلاشا قبل سنوات.

للعرب الكلام والسلام المطرز في الصحف، وللكيان الصهيوني الهجرات والأموال والسلاح وكل أدوات النفير، وهي ـ أمريكا ـ تريد السلام ولكن لاتريد الضغط ـ أي ضغط ـ على الكيان الصهيوني ولكنها عندما تريد هجرة اليهود السوفييت لاتبقي قناة ولا وسيلة للضغط على الروس إلا وتفعلها اقتصاديا

(*) المصدر: مجلة اللواء الأردنية(٢٩ مايو ١٩٩١) ـ ونشرت في نشرة الحوار ـ التي يصدرها ملتقى الحوار العربي الثوري الديمقراطي ـ العدد الأول ـ تشرين ثان ـ نوفمبر ١٩٩٢.

وسياسيا، دوما كانت أمريكا مستعدة لأن تفعل اي شيء في سبيل ذلك، يمكنها أن تسكت عن تحرك الدبابات السوفيتية في جمهوريات البلطيق، أما إبطاء الهجرة فلا ولعل هذا أن حدث يستدعي إيقاظ السيد بوش من نومه على سبيل المثال.

ماذا تريد أمريكا إذن؟!

لقد جاءت حرب الخليج التي قادتها أمريكا بخلل خطير في توازن القوى في المنطقة لصالح العدو الصهيوني، وها هي الهجرات التي تقودها أيضا أمريكا تصنع وقائع ديمجرافية جديدة في فلسطين التي يطرد أهلها بشتى الوسائل، ثم تتحدث أمريكا عن الأرض مقابل السلام والله يعلم أنها مجرد محاولة لتسلية العرب حتى يبتلعوا هزيمة الخليج طلقة طلقة، فلماذا يعطي العدو الأرض إن كان يتمتع بالسلام فعلا وبحماية اليانكي الأمريكي حتى بات العرب هم الأكثر حاجة للسلام ولماذا يعطي المنتصر شيئاً إلى المهزوم.. متى كان هذا من طبيعة الحروب وخصائص معادلات القوة.

لقد بات واضحاً أن مشروع إسرائيل الكاملة أو «إسرائيل الكبرى» ليس سوى مشروع أمريكي طالما أن أمريكا هي التي تمده بكل عناصر قوته وكل احتياجاته الأساسية من تكثيف للهجرات وحشد للبنين إلى المال والاقتصاد إلى الغطاء السياسي.. أما العرب، فعرب الاعتدال لهم معسول الكلام وعرب التطرف -إن بقي فيهم رمق- فلهم الرصاص والحصار، ولكليهما نفس المصير في نهاية الطريق.

يأكل الأمة حكاما ومحكومين.. رسميين وشعبيين.. هذه هي أمريكا وهذا مشروعها، وهي ليست قدراً نذل له الاعناق فنحن نملك من قوة الروح والمادة ما يجعلنا نصرخ: لا.. هذه الأمة لن تركع إنه والله لصبر ساعة حتى يطل فجرنا ويشرق زماننا الموعود.

الدراسة السابعة عشرة

الانتفاضة بين التفجير الإسلامي والاستثمار العلماني

عندما اندلعت شرارة الانتفاضة ـ الثورة مع نهايات العام ١٩٨٧م لم يكن بوسع أحد يومها أن يتصور أننا أمام حدث كبير سيقلب الموازين ويعيد ترتيب أشياء عديدة في المنطقة، بل أن تسميتها بالانتفاضة يشير الى ظن الكثيرين أن ما حدث لن يستمر طويلا ولن يكون شاملاً وأنها ليس أكثر من رد فعل مؤقت.

العدو الصهيوني الذي أربكه ما حدث اعتبرها أحداث شغب عابرة لن تعمر أكثر من أيام معدودة.. وعندما قال سياسي صهيوني في ندوة تليفزيونية - وبعد أسبوعين من تفجر واندلاع الانتفاضة - إن هذا تمرد مدني وعصيان، رد عليه مشارك صهيوني أكثر تطرفا: إن التمرد في رأسك فقط هذا ليس أكثر من شغب.. بل إن وزير حرب العدو إسحق رابين والقادم من أمريكا وقتها صرح بأنه سيسحق هذا الشعب في أيام قليلة، ولكن بعد شهرين كان شامير يقول إن هذه حرب حقيقية.. هؤلاء لايريدون غزة والخليل فقط، هؤلاء يريدون يافا وحيفا أيضاً.. وبعد عدة شهور كان رئيس أركان العدو دان شومرون يقول: إن معجزة لن توقف الانتفاضة أما رابين نفسه فقد صرح مرات عديدة أن القوة وحدها لايمكن أن توقف الانتفاضة .

القيادة الفلسطينية الرسمية في تونس فوجئت بما حدث، بل وصل بها الأمر إلى أن تظن في البداية وأن هناك مؤامرة تستهدفها أو تستهدف شرعيتها المهتزة، خاصة وأن يوم ١/ ١/ ١٩٨٨م قد مر بدون أحداث تُذكر رغم النداءات المتكررة الداعية التي تميز هذا اليوم، بل وصل الامر برئيس قسم الشؤون العربية في صحيفة «يديعوت أحرونوت» إلى أن يكتب في نفس اليوم قائلاً: لا نفوذ لعرفات في قطاع غزة وأن قبضته في الضفة الغربية مهتزة.

(*) المصدر: غير معلومة مصدر النشر.. وبسؤال المتابعين علمنا أنها نشرت خلال عام ١٩٩٢في مجلة (العالم) وفي مجلة (فلسطين المسلمة).

ولكـن م.ت.ف تحركت بـعد ذلك فـي كل اتجاه مـسكونـة بالأمانـي أن تستـمر الانتفاضـة ولو لأيام ترد بها اعتـبارها بعد أن تم تجاهلـها في مؤتمر عمان (نـوفمبر/ تشرين ثاني ١٩٨٧م).

أما النـظام العربي والـذي كان متورطا فـي الحرب العراقيـة الإيرانية، فلـم يكن يتوقع أن يرى نـار الحرب المقدسة تشتعـل في بيت المقدس، فبعـد أن كان قد نفض يديه من فـلسطين التي لم يـعد يطرحها - حتـى في إعلامه - كأولوية كـما تعود أن يفعل في العقود الماضية.. هذا النظام شعر بإرباك شديد وخشية من أن يمتد الطوفان من بيت المقدس الى بقية العواصم.

كل هؤلاء فـوجئوا أما شعـبنا في فلـسطين فقـد كان كمن يصـعد سلماً.. كـلما تجاوز درجة في السلم احـترقت وأصبح من غير الممكن العـودة الى الوراء، لم يبق أمامه من خـيار سوى الصعود والاستـمرار وتصعيد الثـورة . وهنا علينا أن نـقر أننا أمام ثورة حقيقية بكل معنى الكلمة وأننـا أمام تغيير نوعي ومتميز في مسار الصراع مع المشروع الصهيوني... إنه مفترق الطـرق الأصعب أمام الحركة الصهيونية، فهذا الشعب الفلسـطيني الذي كان يتم دائما تناسـيه عند صياغة البرامج الصهـيونية منذ نهاية القرن التاسع عشر إلى الأن يؤكد أنه أكثـر الظواهر حيوية في المنطقة وأنه ليس بالإمكان تجاوزه وليس بالإمكان نفيه وليس بالإمكان تحوله الى شعب من العبيد لأنه حي وحر وسيد. كانت الحركة الصهيونية توهم العالم وحتى اليهود بأن فلسطين بلا شعب وأنها فـقط بانتظارهم وذلك حتـى لاتقع في إشكالية الإجـابة عن سؤال: ماذا ستفعلون بالشعب الفلسطيني الذي يعيش فوق أرض فلسطين؟ أو إشكالية طرد أو إبادة أهل هذه البلاد.

كانت جولدا مائير إحدى رواد الحركة الصهيونية ورئيسة الوزراء السابقة للعدو تقول «ليس هناك شعب إسمه الشعب الفلسـطيني» بل إن ميلاد طفل فلسطيني كان خنجراً في خاصرتها كما حاولت أن تقول مرة.

ورغم القوة والفعالية التي تميزت بها الحركة الصهيونية إلا أنها بخصوص الشعب الفلسطيني كانت تتبع تكتيك النعامة المشهور الذي يظن أن عدم رؤية المشكلة أو التغافل عنها يعني زوال هذه المشكلة أو حلها، ولكن بعد قرابة قرن على نشأة الحركة الصهيونية وأقل من نصف قرن على قيام الكيان الصهيوني.. تتكشف شيئاً فشيئاً نقطة الضعف في هذا المشروع الصهيوني، ويتأكد كم كانت النعامة مخطئة بل وبلهاء أيضاً وأن ساعة الحقيقة قد دقت وأنها اليوم أقوى وأوضح من اي وقت مضى، وأنها المواجهة لامفر. إنه مأزق حضاري وتاريخي وسياسي كبير هذا الذي يعيشه الكيان الصهيوني اليوم.. إضافة الى مأزق الرعب الأمني الدائم، لأن المشكلة ليست مجرد القنبلة الديمجرافية المرتقبة ولكن أيضاً ما يحدث اليوم من إجلاء الغبار عن الهوية الفلسطينية ذات المضمون العربي الإسلامي.

وهكذا فنحن من جديد أمام ثورة حقيقية، وصفها رابين ضمن سياق تصريحاته المرتبكة، والمتناقضة بأنها «حرب أهلية» فرد عليه أحد العسكريين الصهاينة «لا. إنها حرب عصابات من نمط جديد»، ووصفها المعلق العسكري الصهيوني يورام بيري: بأنها حرب ثورية على غرار الحرب الفيتنامية والجزائرية وسماها بالحرب السابعة قائلاً «إن صعوبة تصنيف هذه الحرب وفهمها ليس أمراً عفوياً، فهذه حرب تختلف عن كل الحروب الست السابقة، إنها حرب من نوع جديد، لم يعرفه الجيش الإسرائيلي من ذي قبل» كما إن أوجه الشبه بينها وبين أحداث ١٩٣٦ ضعيفة جداً.

اما المعلق الإسرائيلي زئيف شيف فيقول بعد شهرين من الانتفاضة في ١٢/ ٢/ ١٩٨٨ إن ما يحدث «إنما هو حرب استنزاف جديدة، إنها حرب استنزاف من نوع آخر، لم نتعوده من قبل خلال جميع حروبنا.. إنها مثل كل حرب موجهة بالدرجة الأولى ضد القوات المسلحة للدولة، ولكن ليس ضد الجيش «الإسرائيلي» وحده فالمستهدف إنما هو الجيش «الإسرائيلي» والجمهور بأسره ـ الشعب ـ وكما واجهنا حرب الاستنزاف في بداية السبعينات في جبهة قناة السويس وفي مرتفعات الجولان وغور الأردن فإن هذه الحرب تنطوي على قدر كبير من

التدمير».. بل إن عنصر المفاجأة هنا أكبر مما في حرب أكتوبر/ تشرين أول ١٩٧٣ وذلك كما يرى زئيف شيف نفسه الذي سبق وسمى حرب تشرين بالزلزال، حيث يقول «إن المفاجأة الأخيرة (الانتفاضة) كانت مذهلة أكثر فلم تنجح «إسرائيل» في العام ١٩٧٣ في فهم ما كان يجري في القاهرة ودمشق، وفي سنة ١٩٨٧ لم تنجح «إسرائيل» في ملاحظة ما يحدث في بيتها.. في حجرة نومها».

وهكذا وبعد أربعة عقود من الزمن على النكبة الأولى بضياع فلسطين عام ١٩٤٨ وبعد عقدين على النكبة الثانية بسقوط بيت المقدس عام ١٩٨٧ وبعد سلسلة من التحولات التي عاشتها المنطقة تحت الهيمنة الأمريكية حتى كاد أن ينطفئ بريق القضية أو يطويها النسيان في المحافل الدولية، في ظل هذا جاءت الانتفاضة ـ الثورة ـ لتتميز بين ثورات الشعوب المعاصرة وعن غيرها من الأساليب التي واجهنا بها العدو سابقاً، ولكنها ليست نبتاً غريباً أو طارئاً بل تأتي في تاريخنا الفلسطيني تتويجاً لتاريخ طويل من النضال والجهاد الذي مارسه شعبنا ومازال منذ انتفاضة العشرين والحادي والعشرين من هذا القرن الى هبة وثورة البراق في العام ١٩٢٩ الى ثورة القسام وخروجه الى أحراش يعبد وإعلانه الجهاد والثورة الى الإضراب الكبير وثورة ١٩٣٦ الى ملاحم ١٩٤٨ التي سطرها الثوار والمجاهدون من فلسطين وغيرها، الى تجارب العمل الفدائي والمقاومة منذ منتصف الستينات الى انتفاضة مارس ـ آذار ـ ١٩٧٩ ضد توقيع الصلح بين النظام المصري والكيان الصهيوني فيما عُرف باتفاق كامب ديفيد، الى انتفاضة إبريل ـ نيسان ١٩٨٢ أثر الهجوم الذي شنه الجندي الصهيوني جودمان على المسجد الاقصى الى انتفاضة ديسمبر ـ كانون اول ١٩٨٦ إثر مقتل صهيوني في القدس واستشهاد طالبين في بيرزيت الى انتفاضة فبراير ـ شباط ١٩٨٧، وغيرها وغيرها من الانتفاضات والمواجهات ضد العدو الصهيوني في زمن الاشتباك المستمر منذ الحرب العالمية الأولى وحتى الآن.. وهكذا تؤكد الانتفاضة أنها جاءت في سياق نضال وجهاد شعبنا المتواصل وهي في نفس الوقت تأتي في سياق جهاد الأمة العربية والإسلامية ضد المشروع الاستعماري منذ مطلع القرن التاسع عشر والى الآن.

ولسنا هنا في مجال مقارنة الانتفاضة ـ الثورة بتلك الثورات المعاصرة فهي تلتقي مع بعضها في مزايا وتـختلف عنها في مزايا.. وفي الحالين تشكل نـسيجاً خاصاً بها يجعلها لاتشبه إلا نفسها.. إنها تتميز في طبيعة كونها مركز الصراع الكوني بين تمام الحق وبين تمام الـباطل، بين الإسلام ومشروعه الـناهض القائم على الحـق والكرامة والسلام وبين المشروع الغربي الصهيوني القائم على الصراع والتفسيخ والعدوان.

كما تتميز بشموليتها، إذ شملت كل الوطن بتفاوت مُبرر بين الضفة والقطاع من ناحية وبين المناطق المحتلة منذ ١٩٤٨ ونكاد نجزم أن من أهم أسباب التفاوت هذا ما كررتـه م.ت.ف في سيـاساتها وإعـلامها مـن أن الانتفـاضة يجب أن تـنحصـر في الضفة الـغربية وقطاع غزة مـع ما سببه ذلك من آثار سـلبية على شعـبنا في الأرض المحتلـة منذ ١٩٤٨ والذي قـدم من الدعم والإسنـاد ـ وأيضا المشـاركة الفاعـلة من وقت لآخر ـ ما هو مفخرة له.

كما شملـت الانتفاضة ـ الثورة مختـلف الفئات والطبقات مـن عمال وفلاحين وطلاب ومـثقفـين وتجار وبمشـاركة المخيـمات والمـدن والقرى والـرجال والنـساء والفتيان والأطفال إضافة الى أن المسيحي وقف بجانب المسلم تحت نفس الراية.

والانتفـاضة أيضا تـتميز بـصلابتهـا واستمرارهـا.. إذ مضى علـيها عامـان قوية شامخة وكأنها تفجرت بالأمس بالرغم مـن كل أساليب الإرهاب والبطش والتنكيل التـي مارسها الـعدو ضد شعـبنا والذي كـان دائماً يبـتكر وسائـل جديدة ومبـدعة لمواجهة أساليب العدو.

كما لايجب أن ننسى أن الـثورة الانتفاضة تشتعل فوق أرض يشكل شـعبنا فيها أقلية عددية مقارنة باليهود في حين أن الـعدو ـ إضافة الى تفوقه العددي ـ يتمترس خلف كل أنواع السلاح في دولة عصرية وحديثة.

الشعب والعدو وجهاً لوجه

في المـراحل الأولى للانـتفاضة كـانت مراهنـة قيادة الـكيان الصـهيوني عـلى أن

الحركة الجماهيرية لن تخرج عن الهبات السابقة لشعبنا التي تكررت بين وقت وآخر منذ بداية الاحتلال وأن نارها سرعان ما تخبو ليعود واقع الإلحاق الاقتصادي والإحباط السياسي والقهر السياسي ليسيطر على شعبنا في الوطن المحتل، بل إن وزير حرب العدو إسحق رابين تجرأ وأعطى وعداً بإخماد الثورة الجماهيرية خلال أيام قليلة، ولكن ما إن تيقن العدو من أن الانتفاضة ـ الثورة قد ضربت جذورها في الحياة الفلسطينية حتى تواصلت واتسعت إجراءاته العقيمة واحدة تلو الأخرى.

استخدم العدو في مرحلة مبكرة حرب البيانات حيث قام ضباط أمن العدو وعملاؤه بإلقاء آلاف النسخ من البيانات بأسماء تنظيمات فلسطينية إسلامية ووطنية محاولاً أن يخلق بذلك حالة من الإنقسام والإضطراب بين صفوف شعبنا فيما يخص فعاليات الانتفاضة أو علاقات القوى السياسية ببعضها البعض، ولكن شعبنا ميز بوعي عميق وبحدس لايخطئ لغة العدو وخطابه في البيانات المصطنعة، ولقد ساعدت حالة التسييس العالية لشعبنا مساعدة كبيرة في عملية التبيين والتمييز.

وكان العدو المجرم قد استطاع منذ بداية السبعينات في ظل ما زرعه من فقدان الثقة العام وما أشاعه من تدهور أخلاقي أن يشكل شبكات من العملاء من ضعاف النفوس الذين رضوا لأنفسهم خيانة شعبهم وبيع أرواحهم بثمن بخس، ومع اندلاع الانتفاضة أطلق العدو شبكات عملائه كأداة حيوية لمخططاته العميقة في مواجهة الجماهير.

وقد اتسمت المرحلة الأولى من الانتفاضة بقيام أعداد متزايدة من العملاء تحت ضغط الحالة الجماهيرية المتصاعدة والروح الإسلامية البارزة للانتفاضة ـ الثورة بإعلان توبتهم علانية في المساجد وعودتهم الى صفوف الأمة، ولكن مع استمرار ما تبقى من فئة العملاء على غيّها اضطرت قوى شعبنا الى تسديد ضرباتها الى غور العملاء وكان التوجه الجماهيري الثائر الى منزل العميل محمد عياد في قباطية بمنطقة جنين ٢٤/ ٢/ ١٩٨٨ وإعدامه أمام العالم نقطة تحول بارزة جعلت كثيراً من العملاء المترددين يسلمون أسلحتهم الى سلطات العدو ويسارعون كمن سبقوهم

الى التوبة، وقد فشلت حتى الأن كل محاولات العدو لتشكيل طابور خامس من العملاء وإعادة تجربة الانقسام الفلسطيني الداخلي في سنوات ثورة ٣٦-١٩٣٩.

ولكن مراهنة العدو على شق الصف الفلسطيني في الداخل كانت على الدوام جزءاً أساسياً من مخططاته لإجهاض الانتفاضة ـ الثورة، فحاولها مرة عبر تشجيعه لبعض الشخصيات والقيادات المحلية الهامشية على أحد مواقع ومواقف لا تنطبق بالضرورة مع الإجماع الشعبي العام، وحاولها مرة ثانية بالتركيز على بعض الانقسامات والصدامات العابرة بين القوى السياسية الفاعلة خاصة بين بعض الإسلاميين من جهة وقوى وطنية من جهة اخرى، ولكن شعبنا المجاهد وقواه السياسية الفاعلة كانت تفوت الفرصة على العدو المجرم، فقد التزمت معظم القيادات في النهاية بالإجماع الشعبي عندما رأت تصميم شعبنا على مواصلة انتفاضته بلا تراجع، كما استطاعت القوى السياسية وأمام النبع الأخلاقي الهائل للانتفاضة أن تجد حلاً أو آخر لخلافاتها.

مارس العدو أيضاً متجاهلاً الرأي العام وكل الأعراف الإنسانية حرباً مباشرة وبشعة ضد شعبنا، فقد أطلق النار على الأطفال والنساء والشيوخ حتى وصل عدد شهداء الانتفاضة مع نهاية عامها الثاني إلى أكثر من سبعمائة شهيد وعشرات الآلاف من الجرحى والآلاف العديدة من المعتقلين الذين يعيشون ظروف اعتقال لاتقل وحشية عن تلك التي شهدتها معسكرات الاعتقال النازي، وذلك في ثلاثة معسكرات جماعية كبيرة موزعة بين صحراء النقب وهضاب الخليل وشاطئ غزة إضافة الى معتقلات فرعية أصغر.

وواصل العدو سياسة الإبعاد التي كرسها قبل سنوات الانتفاضة ـ الثورة بإبعاد حوالي ستين من قيادات وفعاليات الانتفاضة الى خارج فلسطين.

كما صعَّد العدو من استخدامه لقوانين الاحتلال المتعسفة واللاشرعية وأصبح أمراً عادياً أن يحكم على من يقذف حجراً على جنود الاحتلال بالسجن لمدة تتراوح

بين ثلاث وخمس سنوات وغرامات مالية فـادحة على ذويه، في نفس الوقت الذي استمرت فيه سلطـات الاحتلال تهدم منازل المتهمين بأقل التـهم الأمنية أثراً. وعلى مستوى آخر وفـي محاولة لتفتيت تماسـك القوة الشعبية في الداخـل، لجأ العدو الى فصل كامل للضفة عن القطاع ومنع الانتـقال الحر بينهما كما لجأ في حالات عديدة الى عزل وتطويق مناطق بأكملها لعدة أيام.. إمـا بقصد التجويع والقهر النفسي وإما بقـصد منع الاتـصال بالخـارج، وقد رد شعبـنا بإبـداع وصمود مـذهلين علـى كل أساليب العدو، وحـافظ على قـنوات الاتصال بـين الضفة والـقطاع وبين الـداخل والخارج مفـتوحة ومستـمرة وبقنوات مبـتكرة ومتعـددة. على أن أهم المعـارك التي خاضها شعبـنا في عامي الانتفاضة ضد الـعدو كانت في مجال التعلـيم والاقتصاد. على المسـتوى الأول بادر العدو منذ الشـهور الاولى للانتفاضة ـ الـثورة الى إغلاق الجامعات نهائيـاً ، ثم تبع ذلك إغلاق المدارس لشهور طويلـة. ولكن أهداف العدو في هذا المجال ردت الى نحره فقد تحول الـ ٤٨٠ ألفاً في الضفة والقطاع الى رصيد جديـد لفعـاليـات الانتفـاضة ـ الثـورة كما انـتقـلت مراكـز التجـمع والـتخطـيط والانطـلاق الجمـاهيريـة من المدارس والجـامعـات الى المسـاجد.. وعلـى المسـتوى الاقتصادي حـاول العدو وما زال قهر الانتـفاضة ومحاصرتـها اقتصادياً وماليـاً عبر سلسلة متزايدة من الاجراءات منها:

- منع بيع المنتجات الزراعية للضفة في القطاع أو العكس أو تصديرها للخارج.
- عدم زيادة حصص المياه المقررة للمناطق المحتلة وقطع المياه والتيار الكهربائي لأيام عديدة مما ساهم في تعطيل العديد من المعامل والمصانع والورش الصغيرة.
- مصادرة المزيد من الأراضي وتسليمها للمستوطنين.
- منع دخول الأموال من الخارج.
- فرض الضـرائب وتحصيـلها بطريـقة تعسـفية حيث وصـل عدد الضرائـب التي يفرضهـا العدو على شعـبنا في الوطن المحـتل إلى ١٤ نوعاً. وقدرت حـصيلة

الضريبـة التي يجنيهـا الاحتلال من أهلنا فـي الضفة والقطاع عـام ١٩٨٦ بمبلغ ٧٤٥ مليون دولار.

- قيام المستوطنين بتخريب وتسميم الزراعات الفلسطينية في الضفة والقطاع.

- تقييد حركة صيادي الأسماك.

- ربط فرص العمل المتاحة للعمال وأصحاب الورش والصناعات الصغيرة بوجهة نظر سلطات العدو الأمنية والسياسية في الأشخاص والعمال.

- قمع العدو لكل محاولات التكافل بين شعبنا في الضفة والقطاع وأهلنا في مناطق ١٩٤٨، وقد ساهم فـي إكمال حلقات الحصار الاقـتصادي لشعبنا مـا قامت به السلـطات الأردنية فـي نهاية يولـيو/ تموز ١٩٨٨ من قـطع سلطاتـها القانـونية والإدارية، ومـا أدى إليـه ذلك مـن انخفـاض حاد فـي دخل قـطاع واسـع من الموظفين والى انخـفاض أكبر في قيمة الدينار الأردني، مـع كل ما جاء به ذلك من آثار مدمرة على قيمة المدخرات والقدرة الشرائية لشعبنا.

وفي مواجهة هـذه المعركة برهن شعبنـا وبصلابة وبعد عامين من الانـتفاضة أنه قادر على الصمود والمواصلة.

لقد طور شعبنا أساليب مواجهته المباشرة للعدو في ساحة الانتفاضة ـ الثورة من مرحلة لأخرى طبقاً لقدراته وضمن إطار مواصلة الانتفاضة.

فبعد المـسيرات الحاشدة التـي تميزت بها الانتـفاضة في الأيام والأسابـيع الأولى وبعد المـواجهات الشاملـة مع قوات العدو الـتي حدثت في نـفس الفترة، انتـقلت الجماهير تحت ضغط أساليب العدو الجديدة في البطش والتنكيل الى مرحلة أخرى استمرت فـيها المواجهات والإضرابـات، ولكن مع تناوب فـي أدوار المدن والقرى والمخيـمات ودون تـظاهرات حـاشدة عـدا جنازات الـشهـداء وبعض المـناسـبات واستخدمت الزجاجات الحارقة بكثافة أشد.

هذا وكان قد روج في أثناء شهور الانتفاضة الأولى لأطروحة مفادها استبعاد العمل العسكري لما يسببه ذلك من رد فعل صهيوني شديد باتجاه المزيد من القوة والقمع. إلا أن طابع الانتفاضة المميز عن كل الحركات الجماهيرية المشابهة في تاريخ العالم الحديث وتواصلها بلا نهاية لأكثر من عامين وحرص العدو على استخدام سياسة القتل بلا حساب ضمن خطته للردع والقهر النفسي، جعلت من الضروري أن يأخذ الكفاح والجهاد المسلح دوره في المعركة.. هذا الكفاح والجهاد الذي لايجب أن يتوقف في أية مرحلة كانت من مراحل النضال ضد العدو الذي قام أصلا على العنف والإرهاب.

دور حركة الجهاد الإسلامي

وعلى مستوى آخر طاردت جماهيرنا العدو في داخل المنطقة المحتلة منذ ١٩٤٨ وشنت عليه حرباً نفسية واقتصادية شملت خطف وقتل جنوده وإخفاء جثثهم مع ما في ذلك من دلالة مثبطة على المستوى الديني اليهودي؛ كما شنت حرب حرائق واسعة النطاق بلغت أكثر من ١٥٠.٠٠٠دونم، مما جعل العدو يصرخ.. إن هؤلاء لايريدون غزة والخليل بل يافا وحيفا والناصرة أيضاً.

وهكذا ولأول مرة منذ أربعين عاماً يقف العدو الصهيوني أمام مأزق حضاري وتاريخي من التأزم والتفسخ الاجتماعي يصل إلى مداه داخل المجتمع الصهيوني.

المنجزات

يبقى استمرار الانتفاضة ـ الثورة لعامين كاملين في مواجهة دولة حديثة وعصرية وجيش حديث وقوي وجهاز أمن من أخطر الأجهزة في العالم، يبقى استمرارها ضربا من المعجزة خاصة إذا ما لاحظنا الحصار الدولي والعربي من حولها، فهذا الاستمرار والانتشار والتصاعد يشير الى حيرة العدو وارتباكه، وهذا ما لم يحدث من قبل كما يشير الى قوة الإرادة الشعبية وقوة المخزون الروحي والإيماني الذي يطلق كل هذا الفعل ويحافظ على استمراريته وصموده، فأخيراً

اكتشف الشعب الفلسطيني المجاهد موطن القوة فيه في نفس الوقت الذي اكتشف فيه موطن الضعف في العدو، فضرب ضعف العدو بقوته «وقتل داوود جالوت...».

وفي عمق الجماهير، برز الاستشهاد كقيمة عظيمة فارشاً ظلاله الإسلامية العميقة على حياة الناس واستعدادهم للمزيد من الاستشهاد الذي أصبح عادة يذهبون إليها كما يذهبون إلى اعمالهم ومدارسهم.

وعلى المستوى الأخلاقي هزم الشعب هجمة العدو اللاأخلاقية، واندحرت هجمة العدو لإغراق المجتمع الفلسطيني بالفساد والمخدرات، وأصبحت المرأة جزءاً لايتجزأ من نضالات الشعب وتضحياته، تقاتل في الشوارع وتعيد بناء دورها في المنزل كإدارية ومنتجة ومدبرة، بل وتستشهد وتطارد لأسابيع ،وشهور، تعتقل وتعذب ويُفرج عنها لتعاود العمل والنضال من جديد.. أما العمال الذين حاول العدو خلال عشرين عاما أن يربطهم بعجلة اقتصاده ودفعهم لنمط حياة استهلاكي. فقد أصبحوا أداة الانتفاضة الضاربة في شوارع الوطن، وفي ضرب اقتصاد العدو بعد ان تخلصوا كغيرهم من نوازع الاستهلاك التي زرعها العدو في المجتمع.

وفي إطار استنهاض الجماعة والمجتمع عاد للمسجد دوره التاريخي في حياة الناس كمركز للتجمع والتعليم والمشاورة والتعبئة، وتخلي الناس تدريجياً عن اللجوء الى مؤسسات الحكم والسلطة التي يهيمن عليها العدو، وعادوا في مشاكلهم الى العلماء والقيادات الإسلامية والوطنية والشخصيات الجهوية المخلصة. كما خاض شعبنا معركة ذات أبعاد نهوضية كبرى في مجال التعليم.. ففي حين أغلق العدو المدارس والجامعات أقيمت الفصول الدراسية في المساجد والمنازل وتحت الأشجار بل تم تخريج كل طلاب السنوات الأخيرة في الجامعات ومازالت هناك أقسام في بعض الجامعات تعمل بسرية حتى الآن، بل إنه جرى تطوير لمناهج التعليم بما يتفق مع المرحلة الجديدة، ولولا تراجع العدو في معركة

التعليم وإقدامه على فتح المدارس من جديد لـبرزت تجربة تعليمية نهضوية في الوطن المحتل تستحق التأمل والدراسة.

ولكن مجالات الاقتصاد والزراعة والصناعة كانت هي المجال الذي برزت فيه قوى النهوض كما لم تبرز في مكان آخر، ولعل التجربة الفلسطينية في عامي الانتفاضة في هذا النطاق تعتبر إسهاماً واقعياً وفعليا في الجدل العربي الإسلامي الطويل حول إشكالية النهضة والاستقلال.

كما جسدت الانتفاضة ـ الثورة وحدة الشعب وقواه الفاعلة على الأرض.. فرغم الخلافات الفكرية والسياسية بين اطراف عدة إلا أن الجميع وجه جهده وضرباته باتجاه العدو مما نزع فتائل تلك الخلافات ليعطيها حجمها الحقيقي أمام عدو شرس يسعى للقضاء على الجميع.

وكسرت الانتفاضة ـ الثورة ما سمي بالخط الأخضر ـ أي الحد بين شعبنا في الأرض المحتلة منذ ١٩٤٨ وبين الضفة والقطاع المحتلين منذ عام ١٩٦٧ ـ وأكدت وحدة هذا الشعب ووحدة مصيره من خلال الدعم والاسناد والمشاركة القوية لأهلنا في الجزء المحتل منذ ١٩٤٨.

وأعادت الانتفاضة ـ الثورة القضية الفلسطينية الى مركز الأحداث في العالم وجعلتها من جديد القضية المركزية للأمة العربية والإسلامية.

الدراسة الثامنة عشرة

الاستقلال والتبعية في الحوض العربي - الإسلامـــــي.. رؤيـــة نهضويـــة

مقدمة:

ليست الأزمة العربية الحالية بوجوهها المتعددة (سياسية وثقافية واقتصادية.. الخ) نتاج إشكاليات حديثة الجذور، أو أخطاء أو هفوات في خيارات الأمة السياسية أو الأيديولوجية. إنها أزمة لا تتعلق بالإرادة الذاتية بشكل خاص، وبالتالى فإنها لن تحل بمجرد تغيير قناعات معينة، وهي أزمة يقع نصف عبئها علينا كأمة وقيادات ولكن نصفها الآخر، بل أكثر من النصف، يقع على الآخر - الغرب - كنظام وثقافة وسياسة.

إن جذور هذه الأزمة تعود الى أكثر من قرنين من الزمان، بل إن مايتعلق بنا فيها يعود الى زمن أبعد من ذلك. فقد كانت بدايتها في لحظة الخلل في ميزان القوى بين عالم الإسلام، والدولة العثمانية منه بشكل خاص، وبين أوروبا الغربية والصناعية الإمبريالية الناهضة مدنياً والجائعة للسيطرة والنهب.

إن السؤال حول ما إذا كانت الأمور تتعلق بتقدم غيرنا وتأخرنا وانحطاطنا، أو أن الآخر مارس النهب والسيطرة فاستقوى علينا، ليس لأننا تأخرنا بل لأننا لم نحمل داخلنا بذرة السيطرة والنهب، قد أصبح سؤالا أكاديميا الآن أكثر منه مدخلا لحل الأزمة. ذلك أن الأمر الأهم أن أمتنا في المرحلة التالية للعصر السلجوقى، ومنذ حوار الغزالى - ابن رشد الشهير، مالت لتعطيل ماهو عقلانى في وعيها الجمعى حتى ضعف وانزوى، وربما كان التأخر التكنولوجى هو السبب الرئيسى في الضعف والانزواء.. بل يمكن التدليل على أن المستوى التكنولوجى بمعناه الأعم لم يكن على درجة من السوء بالشكل الذي درجنا على تصويره، ولكن تعطيل العقلانية، ودور

(*) المصدر: مجلة منبر الشرق - القاهرة(العدد(٨) - يوليو/ تموز ١٩٩٣).

الفكر في صناعة السياسة أدخل عصياً غليظة في آلية اتخاذ القرار السياسي، مما عطل هذه الآلية ووصمها بالجمود، وجعل صنع القرار حكراً في أيدي جهاز الحكم (بمعناه الضيق كسلطة أبوية فوقية) وبالتالي في أيدي القوى الهابطة تاريخيا، ونفي وغرب القوى الصاعدة عن المشاركة في السلطة (بمعناها الأوسع)، مما جعل الدولة التقليدية تعيش في عزلة شعبية وتفقد قدرتها على تمثيل الفكر الجمعي للأمة، وجعلها تلجأ للآخر في تقوية وجودها، مما أدى في النهاية الى سهولة وقوعها في الاستعمار المباشر الذي جرت اليه الأوطان والشعوب. ولذا جاءت صدمة المواجهة بيننا وبين أوروبا الحديثة، أوروبا حاملة المشروع، في نهاية القرن الثامن عشر وبداية الذي يليه صدمة مضاعفة الأثر فلم نجد الآخر أقوى وأكثر تعقيدا وتقدماً فحسب، بل كنا عاجزين عن أن نجدد أنفسنا فيما.كانت السمات والدوافع الإمبريالية لأوروبا لا تسمح بتجديد ذاتنا وبنائها على نسق يحصن بلادنا وشعوبنا أمام أساطيل الآخر وثقافته وقناصله وتجارته.

إن هذا مايجعل الأزمة التي تواجه الأمة اليوم أعقد من أية أزمة واجهتها منذ ظهور الإسلام. فلم يعد الأمر يتعلق بتحديد خيارات جديدة للأمة، بل بإعادة بناء كامل لها. ولم يعد الأمر يتعلق بإرادة تحرير وتصنيع في بلادنا فحسب، بل بنضال طويل ومرير يقنع الآخر ـ الغرب ـ سلماً أو حرباً بأن نظامه مشوه ومعاد للإنسان، وأن العلاقة بيننا وبينه يجب تشكيلها وبناؤها من جديد وعلى أسس جديدة. كما لابد أن تناضل الأمة داخليا ضد كل مراكز القوى السياسية وغيرها، التي ارتبطت بهذه العلاقة المشوهة بيننا وبين الغرب وربطت مصيرها بها، وهو مايتطلب القدرة والجرأة على التجديد من الداخل بقراءة معطيات الواقع من أجل تفكيك نظرية البنية الاجتماعية وبنية السلطة، وهو مايؤدى الى النجاح في وضع خطة منهجية فكرية لاتقوم على نسخ التجارب الأخرى، بل على ربط الموروث الذهني الفاعل اجتماعيا ـ وهو في حالتنا العقيدة الإسلامية ـ مع العلاقات الميدانية السارية (نظام تعليمى، اقتصادي، اجتماعى، سلطوى) حتى نخرج من مأزق انفصام الشخصية والنفاق بين ماهو رسمى وماهو شعبى.

التبعية تاريخياً

استؤنف الرد الأوروبى العسكرى على العالم الإسلامي منذ القرن السادس عشر من قبل أسبانيا والبرتغال، ولكن محاولتهما لكسب مواقع قدم ثابتة وواسعة في بلادنا أجهضت. ثم عادت الكرة في القرن التالى على جبهة المواجهة مع روسيا القيصرية التي توسعت في القرم ثم عادت في القرن الثامن عشر لتستولى على معظم القرم وعلى رومانيا وشواطىء البحر الأسود. ومنذ مطلع القرن التاسع عشر بدأت خسائر المسلمين الواحدة بعد الأخرى، فقد انسحب العثمانيون من اليونان وخسروا معظم المغرب العربى ومصر والسودان وسواحل البحر الأحمر وقبرص لصالح بريطانيا وفرنسا، في حين استولت الأولى على الهند وساحل الخليج وبحر العرب وعدن. وما إن انتهت الحرب العالمية الأولى حتى كان العالم الإسلامي كله محتلاً ماعدا السعودية وتركيا الحديثة وإيران.

ولكن نظام السيطرة الأجنبية كان له وجه آخر. ففى ثلاثينيات القرن الماضى، ومع دخول السفن التجارية الى أساطيل التجارة الأوروبية، فرضت القوى الاستعمارية على الدول العثمانية تخفيضا حادا في رسومها الجمركية، وتدفقت السلع الى أسواق بلادنا لتعود السفن الغربية محملة بمدخرات الأمة وبالذهب والفضة. ومع نهاية القرن كانت قيمة الواردات الى بلادنا قد تجاوزت الصادرات فانهارت الحرف والصناعات المحلية حتى أصدرت حكومة الاتحاد والترقى قانونا رسمياً في ١٩١٣ بإلغاء الروابط الحرفية، وقوضت بالتالى أحد أعمدة نظامنا الاجتماعى وأحد أهم الأدوات التي كان يمكن أن تشكل نواة نهوضنا الصناعى الحديث.

ولكن المشكلة الجوهرية كانت في رد فعلنا الفكرى والثقافي. فلأن السياسي أصبح منذ زمن بعيد في تاريخنا يحتل الموقع الأعلى والمتقدم فقد كان رد الفعل الأول على أزمة اختلال ميزان القوى مع أوروبا في القرن الماضى هو رد فعل رجال السياسة والحكم. أحمد وفيق باشا وخير الدين التونسى ورجال حقبة التنظيمات العثمانية هم الذين وضعوا بذور تصورنا الفكرى لتلك المرحلة.. هم الذين قالوا إن الحل يأتى بتوفيق أو تركيب بين موروثنا الفكرى وقيم أوروبا الجديدة. وغاب عنهم

وعن الجيل التالى لهم مثل على مبارك ومحمد عبده وجيل الحركة الإصلاحية بشكل عام، أن نهوض الأمم لابد أن يقوم على قيم أساسية أصيلة، وأن أوروبا الجديدة كانت تحمل مشروعاً للاستعمار والهيمنة والسيطرة، وأنها لن تسمح لعالم الإسلام أن ينهض من خلال الاستعانة بها صناعياً وإدارياً وعسكرياً.

وقد تداعى هذا الخطأ الأولى في العقود التالية إلى أن برزت قوى واتجاهات تنادى صراحة بالتخلي عن كل موروث والخضوع الكامل لقيم الغرب ومنظوماته، وغاب عن هؤلاء أن التاريخ - قديمه وحديثه - لم يشهد أمة نهضت بالركوع أمام عدوها، بل العكس، إن مثل هذا الخيار أدى إلى أن تنتهي أمم بأكملها وتنقرض حضارياً وثقافياً وفي أحيان أخرى بشرياً. من ناحية أخرى، ومنذ انطلق المشروع الاستعمارى الأوروبى، أدرك صناع القرار الأوروبيون في لندن وباريس - وحتى في فيينا وبطرس بورج - الأهمية الجيوبولوتيكية لقوس المتوسط الجنوبى الشرقى، أي مصر وفلسطين. وبعد محاولة محمد على الجريئة في ثلاثينات القرن الماضى أدركت لندن بشكل خاص أن تأمين إمبراطوريتها النامية في آسيا وأفريقيا يستدعى تأمين المفصل المصرى - الفلسطيني. لقد بدأت الدعوات لتأسيس كيان قومى يهودى في فلسطين منذ ١٨٤٠ على يد رئيس وزراء بريطانيا (بالمرستون) وذلك قبل نصف قرن من تأسيس الحركة الصهيونية. ولم يكن غريبا بالتالى أن يكون القرار السياسي الأول - أي وعد بلفور - بتأسيس الكيان الصهيوني في ١٩١٧ هو قرار بريطانى. فيما بعد اكتشف النفط في بلادنا، ونهضت حركة تحرر وطني في معظم أقطارنا، فاضطرت القوي الاستعمارية الى أن تتراجع تراجعاً تكتيكيا: أن تنسحب بجيوشها وأساطيلها في معظم بلادنا، على أن يستمر نظام الهيمنة والسيطرة مرتكزا على عدة أنظمة فرعية:

١ - تجزئة العالم الإسلامي، وخاصة قلبه العربى، إلى وحدات متصارعة مقطوعة عن بعضها البعض، يشعر كل منها بالحاجة للأجنبى.

٢ - تسليم مقاليد دولة الاستقلال الى نخبة متغربة، أو صديقة، أو حتى عميلة للعواصم الغربية الاستعمارية، وإحاطة هذه النخبة بقطاع واسع من الكتاب

والصحافيين والتجار ورجال الفكر والتعليم والإدارة الذين لايعرفون مرجعية لهم سوى المرجعية الحضارية الغربية، سواء كان ذلك بحسن نية أو سوئها.

٣ ـ منع المنطقة وخاصة كياناتها الكبرى،سلماً أو حرباً، من إنجاز أهداف النهوض المدنى وتحقيق المنعة العسكرية، واستغلال الثروات لصالح الشعوب ومستقبلها، بل قامت الدول الاستعمارية ـ ومازالت ـ بالعمل على امتصاص هذا الفائض في سوق واقتصاد وحركة نهوض الكيانات الأخرى. كما استخدمت القوي الغربية ثقلها الصناعى وسيطرتها على المنظومات النقدية والاقتصادية العالمية لأحكام ارتباط اقتصاد بلادنا بعجلة الاقتصاد والنقد الغربي.

٤ ـ جاء إنشاء «دولة إسرائيل» في البداية كضمان للممرات الاستراتيجية في المنطقة واستجابة للمصالحة التاريخية بين اليهودية والمسيحية الأوروبية البروتستانتية، ولكنها تحولت فيما بعد الى حارس لنظام التجزئة وأداة قمع في يد السيطرة الغربية ضد القوى والأنظمة «الراديكالية» أو الداعية للتحرر من هيمنة الخارج، ويراد لها في المرحلة القادمة من خلال مشروع السلام والتطبيع الشامل معها، أن تلعب دوراً رئيسياً في دعم النخب المتغربة وقيمها وأخلاقها في بلادنا، وأن تساهم سلماً، بعد أن كانت تساهم حرباً، في السيطرة على ثروات المنطقة وأسواقها.

٥ ـ على أن جسم الجماعة ـ الأمة ـ في بلادنا أصبح يئن أيضا تحت وطأة الانقسامات الاجتماعية، وانهيار النظام الاجتماعى التقليدى أمام هجوم التحديث الذي لجأت إليه دولتنا منذ مرحلة التنظيمات العثمانية في منتصف القرن الماضى وحتى الآن. إن بلادنا تعانى من انقسام الفكر والثقافة والمرجعيات الأيديولوجية، وتعانى من انقسام القوى الاجتماعية على السواء.. فقد أدى تقويض الحرف والأوقاف وتحديث القضاء والتعليم والجيش ونزع ملكية الأرض من عامة الأمة وتوزيعها على فئات صغيرة ـ إضافة لارتباط أسواقنا بالخارج ـ إلى تهميش طبقة العلماء التي حرست نظامنا

الاجتماعي لقرون، وإلى نشوء فئات اجتماعية ـ مثل التجار وكبار الضباط وقطاع من المثقفين ـ مرتبطة بطبيعتها بالخارج، والى تشكيل أنظمة قضاء وتعليم في حالة صراع وصدام مع قيم الأمة ومثلها ومصالحها. وفي النهاية،وبعد أن سقطت شرعية الاستقلال التي تمتعت بها الدولة الحديثة في السنوات التالية لخروج الجيوش الأجنبية، وهو الصراع الذي تجند الدولة الحديثة في بلادنا له كل أدوات القمع التي تملكها، اكتملت بالتالى دائرة الصراع والانقسام الداخلى، وأصبح هذا الانقسام الذي ولد من رحم اختلال ميزان القوى مع أوروبا في القرن الماضى، أصبح هو أيضا أحد أسباب استمرر هيمنة الخارج.

التبعية نظام متماسك

إن من الضرورى أن نعى أنه لايمكن تشبيه نظام التبعية بالحبال التي تربط بلادنا بالخارج، بل الأصح أن تشبه بشبكات متداخلة، والأكثر صحة أن نراها كشبكة من الأوعية الدموية، تمتد في كل أجزاء حياتنا وبلادنا. تتغذى من مائنا وهوائنا وتصب لصالح الآخر، ولأنها شبكات متسعة متشعبة عميقة الجذور فلا يمكن التخلص منها دفعة واحدة، أو بضربة واحدة، أو في عقد واحد أو اثنين.. وباعتبارها متصلة بالنظام العالمى كله، عالم سيطرة الغرب الأطلسى على آسيا وأفريقيا وأمريكا اللاتينية وأوروبا الشرقية، وعلى مايسمى بالمؤسسات الدولية، فإن إنجاز مشروع تقويضها ـ أي إنجاز مشروع الاستقلال ـ لابد أن يعتبر مشروعاً عالميا.

إن من الملاحظ أنه فيما عدا الولايات المتحدة وروسيا فإن حجم جيوش معظم الدول الأوروبية أصغر من حجم جيوش عدد كبير من دول العالم الثالث. ولكن الواقع يشير الى أن دول أوروبا الغربية بشكل عام تمارس درجة من السيطرة والهيمنة على قطاع واسع من دول العالم الثالث. إن الجيش التركى الذي تستخدم دولته لإحكام السيطرة الغربية على شرق المتوسط هو أكبر حجما من جيش بريطانيا وفرنسا مجتمعين.

من ناحية أخرى نرى كيف أن دولاً عربية وإسلامية قد اختارت النظام الإسلامي وتحررت بالتالى أيديولوجيا وسياسيا الى درجة كبيرة، ولكن ضعف بنيات دولة

التجزئة وشراسة نظام الاقتصاد والتوزيع العالمي، جعلها دولاً مدينة بمليارات الدولارات.. وهو الأمر الذي يجعل من استقلالها جزئيا وغير متكامل.

ان هذا هو مايجعلنا نؤكد على تماسك نظام التبعية، الذي نشأت دوائره بشكل متقاطع في مرحلة زمنية واحدة من القرن الماضى.. ويستدعى هذا التماسك الوعى بأن عملية الاستقلال لابد أن تواجه دوائر التبعية جميعها، كلاً على حدة، ومعاً في الآن نفسه.

إن استقلالاً سياسيا بدون التخلص من التبعية الثقافية وبدون نمط مستقل للتنمية سرعان ما سينهار تحت وطأة الضغوط.

وأي محاولة للاستقلال الاقتصادى ولامتلاك ناصية القرار السياسي في ظل حدود الدولة الوطنية الصغيرة ـ دولة التجزئة ـ سيكون ضرباً من المناورة مع التاريخ. كما أن محاولة إيهام الذات بأن الكيان الصهيوني محدود الخطر بمنطقة جغرافية وعلى شعب معين، هو انحراف في رؤية التاريخ والواقع على السواء. إذ أن استمرار بقاء هذا الكيان سيكون خطراً على الناس وعلى ثقافتهم وعلى استقلال المنطقة وعلى خياراتها في التنمية والنهضة.

على أن مشروع الاستقلال في النهاية هو مشروع تغيير ميزان القوى العالمى أي هزيمة نظام الهيمنة واعادة دول المنظومة الغربية الى حجمها الحقيقى، ومساعدة شعوبها ـ سلماً أو حرباً ـ على التخلص من رؤيتها المشوهة لنفسها وللعالم: الرؤية القائمة على مركزية الغرب وعلى الثقافة العنصرية وعلى مفاهيم سيادة الرجل الأبيض، وهو مايستدعى تحالفاً عالمياً بين المظلومين وأن يكون مشروع استقلالنا ذا ارتباط باستقلال الشعوب الأخرى.

نحو مشروع نهضوى استقلالى

إن المسألة الأساسية التي يجب على قادة الأمة وعلمائها وزعمائها أن يروها هي أن النهضة والاستقلال لايمكن أن يتحققا بمجرد نشر وعى وثقافة استقلالية، فقد كانت روح الأمة وطموحها مسكونة ـ ومازالت ـ بالنزوع نحو إنجاز مشروع الاستقلال.

إن النهضة هي متغير على أرض الواقع وفي داخله، ولإنجاز مشروعها لابد من أن تضرب الأمة وقادتها وزعماءها في ملامح هذا الواقع بمثابرة واستعداد عميق للتضحية، وإيمان واسع بأن ظهرها على الجدار.

وكما ضرب النحات في الصخر، فإن كل متغير مهما صغر في الواقع يأخذنا قدما الى مرحلة التشكيل المبدع في صورته الأخيرة، ولكن وفي مراحل عديدة، سيكون دمنا هو البديل عن عرق النحات.

ولهذا فإن كل ما له علاقة بتنمية الوعى وإعادة بنائه في النقاط التالية لابد أن يرى في محدودية أثره وهامشيته، مالم يرتسم في الواقع، مدعوما بمصداقية نضالية، وكمتغير حقيقى.

١ ـ السعى الى ودعم تشكيل والعمل على انتشار وتوسع المنظمات والتجمعات الأهلية التي تجعل من مقاومة النفوذ الأجنبى بكل أشكاله، ودعم الثقافة والقيم الوطنية والإسلامية والحفاظ على ثوابت الأمة التاريخية، هدفا لها. ويجب أن يتم هذا النشاط ـ ما أمكن ـ مستقلاً عن الأنظمة الحاكمة مهما كان الرأي في هذه الأنظمة إيجابيا، حتى لاتقيد معايير الدبلوماسية العالمية وواقع ميزان القوي الدولى حركة هذه المنظمات والتجمعات، والعمل شعبيا ورسميا على بناء تحالف قوى الأمة السياسية، وخاصة تياريها الرئيسيين: الإسلامي والقومي، والتركيز على المسائل الموحدة وتأجيل نقاط الخلاف.

٢ـ التحرك لإعادة بناء الإجماع الداخلى وتقوية القطاع الأهلى، ويستدعى ذلك إعادة الروح الى الحرف والصناعات الأهلية، وإعادة بناء قطاع الوقف وتوسيعه الى دوائر التعليم والطباعة والنشر والصحافة والصحة، بحيث يبرز كقطاع ثالث بجانب القطاعين العام والخاص ويساعد على تقوية جسم الأمة واستقلالها، والعمل علي قيام ثورة زراعية جادة وواسعة حتى تصل الأمة إلى مرحلة الاكتفاء الغذائى ، والتأكيد على شعار «نأكل مما نزرع» وتقوية الصلات الاقتصادية فيما بين العرب والمسلمين ودول العالم الثالث، بحيث يؤكد

الزعماء قبل العامة أن الأمة لابد أن تضحى برفاه الصناعة والتقنية من أجل الاستقلال والكرامة، إذ لابد من اعتبار الآلة والتقنية الصينية أو المصرية أو الهندية ـ إن توافر خيار الأولوية لنا ـ قبل الآلة الأوروبية أو الأمريكية، مهما كان الفرق بين المستويين.

من أجل نظام عالمى عادل للعلاقات الاقتصادية

ربما كان محور المظلومية القائمة في النظام الاقتصادى العالمى هو ما يسمى بالاستفادة من فائض القيمة التاريخى، وهو المكاسب التي حصل عليها الغرب من جراء حروب الغزو التي قام بها ضد مراكز الحضارة في الشرق بدءا من الحروب الصليبية،حيث نجح في استنزاف ثلاث قارات هي آسيا وأفريقيا وأمريكا اللاتينية،بما في ذلك الثروات المادية والإمكانات البشرية والثقافية، وتكديس هذه الثروات في الدول الصناعية الغربية.

ويمتاز النظام الاقتصادى العالمى الجديد بالنسبة للدول الفقيرة بما يلى:

١ـ مزيد من المديونية.

٢ـ مزيد من الاستنزاف للثروات الطبيعية وتدمير البيئة.

٣ـ مزيد من الاحتضار للزراعة،وبالتالى المزيد من النزف السكانى للريف وما يتبعه من اكتظاظ مدنى هائل في محيط بيئوى لا يحتمل.

٤ـ صناعة تراوح مكانها في حدود ضيقة.

٥ـ مزيد من البطالة وتفشى الطفيلية.

٦ـ مزيد من الارتفاع في معدلات التضخم.

٧ـ مزيد من الاستقطاب الاجتماعى بين أقلية من السكان تستأثر بمعظم الدخل القومى،مقابل أكثرية متسعة تعيش تحت خط الفقر والجوع.

٨ـ من المنتظر أن يأتى النظام الاقتصادى العالمى الجديد بعصر من الاضطرابات الاجتماعية التي لا تنتهي.وبينما ستجد الأنظمة نفسها في مواجهة مع

الشعب،ستكون أكثر حاجة إلى الاعتماد على الدول الصناعية الكبرى والغرب عموماً في تأمين النظام واللجوء إلى مزيد من القمع والتبعية.

ومن الملاحظ بالنسبة لأوروبا خصوصاً أنها تغطى العجز في علاقاتها مع أمريكا واليابان بالفائض الذي تجنيه من مبادلاتها مع العالم الثالث وبلدان الشرق (صفقة الأسلحة الأخيرة بين بريطانيا والسعودية مثلاً)،وهي بحاجة للاحتفاظ بعلاقات غير متكافئة في ميدان تبعيتها الخاصة،من أجل أن تلعب دورها في الرأسمال العالمى المسيطر.كما أن أوروبا لم تتمايز عن استراتيجية الولايات المتحدة وأداتها المخلصة (إسرائيل)،وقد أظهرت حرب الخليج بشكل مأساوي هذا الخيار الأوروبى،والهدف هنا هو إبقاء العالم العربى في حالة قصوى من الهشاشة والتعرض،بحيث تتعامل مع الوحدة العربية أو الإسلامية بوصفها كابوساً مزعجاً،وتجهد للإبقاء على الأنظمة المتخلفة (الخليجية خصوصاً) وللحفاظ على التفوق العسكري (الإسرائيلى) المطلق ورفض حق الفلسطينيين في الوجود.

لقد حاولت دول العالم الثالث الخروج من أسر الهيمنة عبر نضالات تحررية، انتهت بانهيار رموز العالم الثالث وحركة عدم الانحياز. ودخول العالم الثالث في إطار الاستيعاب والضبط المباشر مع دخول النفط كسلاح في يد أمريكا منذ عام ١٩٧٣ ـ الذي أفاد في هيمنة أمريكا علي أوروبا ـ تم ربطه بالبترودولار، ولم تنجح محاولات الحوار بين الدول الفقيرة والدول الغنية في تحقيق شيء منذ انعقاد الدورة الاستثنائية السادسة للجمعية العامة للأمم المتحدة في أيار(مايو) ١٩٧٤، والمؤتمر الوزاري لدول عدم الانحياز في ليما عام ٧٥، ومؤتمر القمة الأول لدول الأوبيك في الجزائر، ثم مؤتمر داكار حول المواد الأولية في آذار(مارس) ١٩٧٥، ثم الدورة الاستثنائية السابعة للأمم المتحدة في أيلول(سبتمبر) ٧٥، ومؤتمر الأمم المتحدة الرابع للتجارة والتنمية الذي عقد في أيار(مايو) ١٩٧٦، ومؤتمر باريس الذي عرف بحوار الشمال ـ الجنوب في شباط(فبراير)٧٦، والمؤتمر الثاني لحوار الشمال ـ الجنوب في كانكون(المكسيك)، وأخيراً مؤتمر البيئة في العام الماضى في المكسيك الذي منعت فيه أمريكا امكانية إجراء حوار حقيقي لصالح الدول الفقيرة.

ولكن المطالب التي تقدمت بها الدول الفقيرة ما زالت صالحة عملياً لتشكيل برنامج حد أدنى لتحقيق وضع أفضل للنظام الاقتصادي العالمي، وهي مطالب يمكن إجمالها فيما يلي:

١ ـ حق كل دولة في السيادة الدائمة والتامة على مصادر ثرواتها القومية، وحقها في استعمال جميع الوسائل من أجل تحقيق ذلك.

٢ ـ تحسين حدود التبادل لمصلحة الدول النامية من خلال وجود علاقة عادلة بين حركة أسعار المواد الأولية الأساسية من جهة، وبين المنتوجات المصنعة من جهة ثانية.

٣ ـ تشجيع جمعيات المنتجين من الدول وجعلها تؤدي دوراً فاعلاً في إطار التعاون الدولي.

٤ ـ تأكيد أهمية التصنيع بالنسبة إلى الدول النامية وضرورة حصوله على دعم ومساعدة دوليين، وخصوصاً تسهيل دخول منتجات البلدان النامية الصناعية إلى أسواق البلدان المتقدمة، مع ضرورة وعي الدول الفقيرة بأن ازدياد حجم المبادلات فيما بينها هو الأجدى على المدى البعيد، مهما انخفض حجم العوائد والمداخيل من جراء ذلك.

٥ ـ تحويل التقنيات الحديثة إلى الدول النامية ضمن شروط مالية وفنية ميسرة.

٦ ـ ضبط ومراقبة نشاط الشركات المتعددة الجنسيات في البلدان النامية.

٧ ـ مشاركة الدول النامية في اتخاذ القرارات التي تتناول العلاقات الدولية، لاسيما منها المتعلق بتنظيم التجارة الدولية وإصلاح نظام النقد العالمي. كذلك ضرورة التأكيد علي حرية انتقال التكنولوجيا، وإسقاط مبدأ(بوش) الذي يحظر نقل التكنولوجيا إلى الدول المتخلفة.

ومن جهة أخرى يجب علي الدول العربية والإسلامية والعالم الثالث عموماً أن تسعى لإقامة نظام اقتصادي وتعاون مشترك قادر على خلق قيم إنسانية جديدة في

العلاقات الدولية تتجاوز الإرث الاستعماري وتقطع الطريق علي النظام الجديد. ويمكن في هذا المجال للدول العربية والإسلامية أن تحقق تعاونا فيما بينها سواء عن طريق تجمع يخلف حركة عدم الانحياز ويمتلك آليات فاعلة، أو منظمات إقليمية ذات نسق مختلف من العلاقات، أو غير ذلك.. ومن الضروري الخروج من أشكال التعاون والتكامل الاقتصاديين التي تتبناها الدول الفقيرة والمتخلفة عن الأشكال التقليدية التي جربتها البلدان المتقدمة فيما بينها، والتي لا تؤدي سوي إلى مزيد من ارتباط الدول الفقيرة بالدول الغنية، كمناطق التجارة الحرة، والاتحادات الجمركية والأسواق المشتركة، لأن الدول الكبرى قادرة علي استقطابها وجعلها تدور في محورها، كما حدث مع الأوبيك وغيرها. كذلك يجب النضال ضد بنك النقد الدولي ودوره الاستعماري، والعمل على حل مشكلة المديونية.

الاستقلال الاقتصادي والتنمية المستقلة

إن الاستقلال الاقتصادي، والاستثمار المستقل للثروات القومية، والتنمية المستقلة والسوق المشتركة، هي عناصر مشتركة لمتحد جامع هو السياسة الاقتصادية، لذلك فإن الفصل بينهما هو فصل عملي وليس نظرياً. ومن هنا سنتحدث عن هذه العناصر في صيغة مدمجة، دالفين إليها من واقع العلاقات الاقتصادية العربية ـ الإسلامية فيما بينها.

إن الواقع العربي الإسلامي يمر بمرحلة من التخلف، والتخلف مصطلح يدل على واقع تاريخي ومفهوم تاريخي محدد، ولا يملك صفة الإطلاق. ومن السائد في أيديولوجيا الخطاب الاقتصادي والنهوض العربي أن يجري الحديث عن التخلف والتقدم كصفتين مطلقتي الدلالة، مما يعني عدم إمكان الخروج من التخلف إلا بفعل تغييري عنيف(الثورة أو الانقلاب). ولكن دراسة متأنية تكشف عن عدم دقة هذا التصور، إذ على الرغم من ترابط العلاقة بين التقدم والتغيير الجذري، إلا أن آليات التغيير قد تأتي بشكل غير ملموس وغير عنيف، وهو استنتاج يقدم الأمل في جدوي العمل التنموي في ظل علاقات التخلف السائدة عربياً وإسلامياً.

ونلاحظ أن تمزق الاقتصاد والتنمية العربية يعكس أحد التوجهات الأيديولوجية التي تحكم الخطاب«التنموي» في الفكر العربي المعاصر، بحيث جرى الربط بين الاستقلال الاقتصادي والاستقلال السياسي على نحو قاطع. ورغم مشروعية هذا الربط، إلا أن الاستقلال الاقتصادي بحاجة إلى بنية اقتصادية تستطيع أن تنهض بهذا الاستقلال، وهي بنية مسبقة، بمعنى أن بناءها يتم في مرحلة سابقة على الاستقلال الاقتصادي، لأن التغيير الذي يحصل على مستوى السلطة لا يستتبع إلغاء البنية الاقتصادية السابقة بالضرورة، وهو يستفيد ويبقى على التراكمات والثروات والإنجازات السابقة على لحظة التغيير«كما نشهد حالياً في روسيا وميراثها من الاتحاد السوفيتي».

وفي واقعنا العربي فإن الحالة الاقتصادية الهشة التي ورثتها أنظمة الاستقلال(أو أنظمة التجزئة) ساهمت إلى حد كبير في تكريس التبعية وتقوية أواصرها مع الآخر. واكتشاف النفط في الدول النفطية مسألة شكلية أو غير جذرية. بحيث بقيت علاقات الإنتاج غير ممسوسة إلى حد كبير. ولم تعد علمي الدول المؤممة بأكثر من فائض القيمة، وهو الفائض الذي لم يشكل قاعدة اجتماعية. ولكنه شكل رصيداً لبناء أجهزة الدولة فقط. فأخذت النخب الحاكمة - علي اختلاف أنظمتها - في تركيز توظيف ما تبقى بتصرفها من فائض في إقامة مظاهر الدولة«الحديثة»: جيوش، أجهزة أمن داخلي، ومختلف الإدارات الحكومية التي ملأتها بالموظفين. فكانت التنمية عبارة عن توظيف أفضل الظروف الحياتية السائدة في الغرب للنخب الحاكمة وللفئة الاجتماعية التي أخذت تنمو حولها: مساكن وخدمات علي أنواعها - صحية وتربوية وثقافية - ومواصلات.. إلخ وبشكل عام فقد تم نقل الاستهلاك والترف الباهظ من الغرب. وما يجره ذلك من ويلات على صعيد تشويه القيم واستنفاد المصادر الطبيعية، وهي ويلات بدأت الدول الصناعية نفسها في معاناتها. وهو ما يتطلب إجراء تغيير جوهري في القيم المادية التي يقوم عليها رخاؤها. ومع أن فرص الاستثمار واسعة جداً في العالم العربي، إلا أن المعوقات مثل مايدعي(بالمخاطر التجارية) منتشرة جداً بشكل يمنع إمكان تحقق هذه الفرص. وأهم هذه المعوقات:

١ ـ انعدام السياسات الاقتصادية الثابتة والمستقرة، والتي تتخذ القرارات الاقتصادية والسياسية أيضاً من خلال النقاش الحر وتبادل الرأي والمعلومات والمبادرات الشخصية والجماعية.

٢ ـ التخلف عن عصر الاتصالات والمعلومات التي يضعف ويصعب انتقالها.

٣ ـ النقص الشديد في التقنية العالية وفي معاهد التخطيط وفي المختبرات.

٤ ـ عدم مراعاة البيئة الانتاجية(الوسيطة) بين المؤسسة أو البنية التقنية الفوقية، مما جعل التنمية الصناعية المحدودة مصدر العديد من المشاكل الاقتصادية والاجتماعية الجديدة، وأهمها الهجرة من الريف إلى المدن، وظهور أحزمة الفقر والجوع، وانتشار البطالة المقنعة وغير المقنعة، والتضخيم الكبير في قطاع خدمات لا يفيد الإنتاج بل يعوقه.

التنمية المستقلة

ترتبط التنمية المستقلة مع التحديث كتحد تجب مواجهته، ليس في الحركة الإنتاجية فقط، ولكن في الحياة التي نعيشها يومياً أيضاً. ولكن ارتباط السياسة العربية بالسياسة العالمية الغربية كان ذا علاقة عكسية: مع ازدياد التبعية يزداد الابتعاد عن التحديث والدخول في وقع التخلف والاغتراب. وعلى الصعيد الصناعي انشد الاقتصاد القومي أكثر بعري الاقتصاد الغربي المسيطر واندفع أكثر في بنية وخدمة الرأسمال العالمي المسيطر، فإذا الوطن العربي ـ نسبياً ـ من أكثر مناطق العالم اعتماداً علي استيراد السلع الصناعية، إذ تصل وارداته إلى أكثر من ثلاثة أضعاف وارداته الزراعية التي هي كبيرة جداً، و٩٨٪ من صادراته تنحصر في المواد الخام الزراعية والمعدنية(النفطية بشكل أكبر)، بينما لا تتعدي نسبة السلع الصناعية المصدرة ٢٪ من مجموع الصادرات، وهذا النمط الاستهلاكي أدى إلى ابتلاع الموارد من النقد الأجنبي، وزاد في إفقار القطاعات الانتاجية الاخرى وفي عجز ميزان المدفوعات وتعاظم الديون الخارجية التي لم يشهد لها العالم مثيلاً من قبل في الحجم والثقل.

وهذا يتطلب:

١ ـ بناء قاعدة إنتاجية قادرة على النمو والتطور في ظل شروط، أهمها قدرتها على تأمين حاجاتها من الموارد المحلية بأكبر قدر ممكن.

٢ ـ تأمين حاجة الغالبية العظمى من أفراد المجتمع لإشباع حاجاته الأساسية(وليس حاجات الاستهلاك المقلد).

٣ ـ تأمين منافستها الدولية في تصريف منتجاتها في الخارج بحسب تخصصها في الإنتاج في ميدان تقسيم العمل الدولي(بما يناسبها وليس حسبما يفرض عليها).

٤ ـ الإنفاق علي مؤسسات البحث والتطوير العلمي.

السوق المشتركة

قد تكون أداة مادية ملموسة تقود إلى منافع التكامل الاقتصادي العربي، ولكنها ليست شرطاً لهذا التكامل، إذ إن القدرة على بناء سوق مشتركة ـ شبيهة بالسوق الاوروبية ـ غير واقعية وغير مضمونة النجاح. فالسوق الأوروبية المشتركة قامت كنتيجة طبيعية لاحتياجات التصنيع الأوروبي وتكامله، خاصة بين المواد الخام(المعدنية خاصة) والمصانع، وفي الحالة العربية فإن التجربة تكاد تكون نسخاً غير مدروس لهذه التجربة، وهو ما يجعلها محكومة بالتبعية للنظام العالمي مسبقاً، أو يحكم عليها بالفشل قبل إنشائها وهو الحاصل حتى الآن. ولكن ما يمكن تسميته بالمشروع الاقتصادي العربي المشترك، يظل صيغة أعم وأكثر حظاً في النجاح، بحيث يؤدي إلى تدفقات سلعية أو خدمية فيما بين الدول العربية، مثل المشروعات المقامة وفقاً للقوانين السارية المفعول في إطار أطراف عربية في بلدين عربيين أو أكثر، سواء أكانت مؤسسات قطاع عام أم مختلط أم خاص، وتستهدف القيام بنشاط إنتاجي أو تجاري أو مالي أو خدمي أو غيره، من شأنه أن يحقق منافع اقتصادية لأقطار عربية ويعزز التشابك والتلاحم بين اقتصاديات هذه الأقطار، ويزيد في متانة الروابط والعلاقات الاقتصادية والتبادل فيما بينها.

ومن أسباب عدم نجاح العمل المشترك(إضافة إلى ما هو سياسي وثقافي):

١ ـ ضيق الأفق الاقتصادي للقطاع الخاص.

٢ ـ ضيق الأفق السياسي للقطاع العام.

٣ ـ دور النفط كعامل سلب في العلاقات الاقتصادية العربية.

٤ ـ نقص المرافيء وشبكات الطرق والجسور.

٥ ـ نقص الكوادر البشرية الماهرة.

٦ ـ قلة الأسواق المالية، وضيق محدودية القائم منها وعدم تكاملها.

٧ ـ الانعدام الكلي تقريباً لحرية حركة رؤوس الأموال العربية الخاصة من الأقطار العربية المختلفة.

٨ ـ محدودية أدوات الاستثمار نوعاً وحجماً.

بالإضافة إلى ضرورة التخلص من السلبيات المذكورة، يجب التنبه إلى معالجة نظام السفر والحركة بين الدول العربية وفتح الحدود وإعطاء المواطنين العرب حق التملك والإقامة. كذلك ربط الدول الإسلامية التي تمثل بعداً حقيقياً بالسوق العربية، وكذلك التعاون مع دول العالم الثالث والدول الفقيرة، ومحاولة التعويض عن السوق الأمريكية والأوروبية الغربية بالبديل الياباني والصيني والكوري والفيتنامي والكوبي للتخلص من الهيمنة والتبعية.

الاستثمار المستقل للثروات القومية

يرتبط هذا المجال التنموي بالاستقلال الاقتصادي، ولكن استقلالية القرار السياسي تلعب دوراً مهما هنا، من حيث تأمين القدرة على الاستقلال التنموي، خاصة أن النفط هو أكبر ثروة قومية عربية، وقد رأينا في التجارب السابقة أن الدول الصناعية الكبرى ترفض وتحارب هذه الخطوة. والحقيقية أن النفط لم يستغل من أجل تنمية عربية مستقلة، بل جرى الاعتماد عليه كلياً وليس توظيفه في خدمة

السياسة الاقتصادية، مما جر الويلات على الدول النفطية بشكل خاص، وعلى المحيط العربي ـ الإسلامي عموماً، من أجل تأمين هذا المصدر الحيوي للطاقة في خدمة المصالح الغربية. ولم تسخر أدوات الانتاج التي تطورت في ظل الطفرة النفطية من بترودولارات ورؤوس أموال وعمالة من أجل قيام تجمع اقتصادي في المنطقة العربية ـ الإسلامية، لأن منظمات التنسيق والتخطيط الانمائي والمشاريع المشتركة أدخلت الاقتصاديات العربية في مسلسل مستديم من التبعية والتخلف، كما سخرت كأدوات طيعة لتحقيق طموحات برجوازية عربية ذات طبيعة طفيلية أو فئة وسطاء وسماسرة في خدمة الرأسمال العالمي (الغربي)، وللحد من وظيفة تنموية لهذه الأدوات عبر تشجيع القطاع الخاص و(لبرلة) الاقتصاد. في خضم هذا المأزق الذي شهده العمل الاقتصادي العربي المشترك ـ والذي تنامي أكثر في أواخر السبعينات ـ بخاصة في ظل ظروف سياسية جد سيئة كان يعيشها النظام الإقليمي العربي ـ تحطمت أطروحة (الفوائض المالية العربية)، وتراجع الخطاب العربي السائد حول التكامل الاقتصادي والسوق المشتركة، وبلغ هذا التراجع أوجه على جميع المستويات ـ وخاصة من حيث محددات الاندماج الاقتصادي العربي ـ مع بداية الثمانينات، ومع دخول العلاقات الاقتصادية العربية في مرحلة جديدة أطلق عليها مرحلة «ما بعد النفط».

من أجل الاستثمار المستقل والتنمية يجب الانطلاق من الخصوصية العربية الإسلامية، والكف عن الجري وراء نسخ تجارب جزئية عن الغرب تزيد من التبعية والإلحاق، وهو ليس مطلباً انعزالياً لا تاريخياً، ولكنه مطلب قد يجد أعذاره في دراسة الواقع العربي الإسلامي ومحدداته البيئية الخاصة لتشكيل تعاونيات محلية شبيهة بروابط الحرف والصناعات الأهلية وأنظمة الوقف التي كانت سائدة قبل الاستعمار. ويمكن الاستدلال بدعوة مالك بن نبي إلى البحث عن طريق ثالث، أو بالدعوات المعاصرة إلى تمعن الظاهرة اليابانية والتجربة الصينية، والتأمل في تجربة السارفودايا في سيريلانكا، التي تمكنت من تغيير وجه البلد وانتشرت في أكثر من ٢٣٠٠ قرية وشملت ملايين السكان واعتمدت علي التراث الديني والشعبي

للمناطق البوذية، وكذلك دراسة تجربة غاندي في الاستقلال عن الاقتصاد البريطاني.

الوحدة العربية والاستقلال

لابد من وضع مسألة الوحدة على ذروة جدول أولويات المفكرين والدعاة والعلماء والتنظيمات السياسية والدول، ونقل ذلك إلى أرض الممارسة الفعلية. ويستدعي هذا إعادة العمل بقاعدة الأمة التاريخية: «تقديم الوحدة على العدل».. إذ يجب أن نسير جميعاً إلى خيار الوحدة مهما كان اعتقادنا بأن في ذلك الخيار بعض الهضم لحقنا فيما نراه - فكريا أو سياسياً أو مادياً - صواباً. ولابد أن ينعكس هذا على إنهاء حالة الصراع والتدافع بين القوى والمنظمات، وعلى تقليص حالة التشرذم السياسي، وقبل ذلك وبعده لابد من إعادة الروح إلى حركة الجماهير الوحدوية التي كانت سمة الخمسينات والستينات. إن هناك فروقاً في هذه المرحلة بين مستوى المعيشة في كل بلد عربي أو إسلامي عن البلد الآخر، وكذلك في مستويات التعليم أو الخدمات.. الخ. إن هذا الأمر المؤقت والعابر في معظم الحالات، لابد ألا يمنع حكومة ودولة وشعباً ما من اختيار الوحدة مع دولة وشعب آخر. ومن ناحية أخرى لابد أن تلتزم قوي الأمة السياسية والشعبية بقاعدة أساسية هي أنه في الوقت الذي لابد أن يكون فيه خيار الوحدة خياراً شعبياً وألا يفرض بالقوة والعنف من القوى على الضعيف، لما في ذلك من تقويض لقيم الوحدة ذاتها، فإن دخول جيش عربي إلى أرض دولة عربية أخري يجب النظر إليه داخل الحدود العربية - الإسلامية كشأن عربي - إسلامي خاص. وإلى جانب ذلك لابد من العمل ضد كل اتجاهات تجزئة الوضع العربي - الإسلامي القائم الآن، مهما كانت راية هذه الاتجاهات التي تحملها: إسلامية أو طائفية أو عرقية(كما في حالة العراق أو السودان). وبشكل مماثل يجب العمل ضد إقامة أية كيانات جديدة منفصلة في المنطقة (الصحراء المغربية مثلاً) مهما كان الموقف من القوى التي تدعو لذلك.

إن الأطر الرسمية الحالية، كالجامعة العربية ومؤسساتها والمؤتمر الإسلامي ومؤسساته، لابد أن تري من زاوية إيجابية، وأن تستخدم لتعزيز التضامن وإلزام

دولها الأعضاء بمواثيقها وقيمها، في الوقت نفسه الذي يتم فيه النضال من أجل تطويرها أو إنجاز مشاريع وحدوية خارجها.

٩ ـ يشهد الفضاء العربي ـ الإسلامي الآن نهضة فكرية بارزة، وقد بدأ عقل الأمة في تقديم إجابات حيوية على العديد من إشكالات التحدي، ولكن مجال الاستقلال الفكري واسع وممتد، خاصة في ظل تطور أجهزة وقنوات الاتصال والتأثير العالمية.

إن المسألة الجوهرية في هذا المجال هي حرية الفكر وحرية التعليم، فإن استطاعت الأمة أن تحصل علي حقها في المجالين بحيث لا يصبح الفكر والتعليم حكراً بيد الدولة، فإن عقل الأمة وعمق ارتباطها التاريخي بقيمها سيكون قادراً على إيقاف الاختراق الثقافي، وإنجاز مرحلة واسعة من الاستقلال. ولكن، كما أن حرية الفكر والتعليم مطلب للشعوب، فعلي القوى السياسية المعارضة أن تحيّد المجالين إلى أقصى حد ممكن، حتى لا يصبحا مجالاً للصراع مع الأنظمة من جديد، وتستخدم المعارك مع «السياسي» لقمع الفكري والتعليمي.

من ناحية أخرى، وفي الوقت الذي لابد أن يواجه فيه الغزو الفكري والثقافي، فإن حركة نقد وإعادة بناء واستلهام ما هو معاصر من التراث، هي أمر مساو في الأهمية.

تحرير الأرض من الوجود الأجنبي

لقد أصبحت ظاهرة الاستعانة بالخبراء الأجانب في المجالات العسكرية وتأجير القواعد العسكرية للقوى الغربية، أو حتي الاستعانة بالجيوش الأجنبية، أمرا مقبولاً في بعض الدوائر، بل هناك من ينظر الآن لهذا التنازل عن السيادة الوطنية على صفحات الكتب والمطبوعات. إن على المفكرين والعلماء والقيادات الوطنية أن تناضل ضد هذه الاتجاهات بكل السبل الممكنة.

كما لابد من استنفاد كل أساليب النضال الشعبي ضد ما تبقى من الوجود الأجنبي أو ما يعاد زراعته قبل اللجوء إلى أية وسائل أخري، وذلك حتى لا تعزل القوي المناضلة عن قطاعات الشعب الواسعة.

إن مشكلة متصاعدة بدأت تبرز منذ سنوات أمام المسلمين، تتعلق أساساً بوضع الأقليات الإسلامية في بلدان غير إسلامية خارج منطقة المركز الإسلامي، كما في الهند والفلبين والصين(وكما كان في يوغسلافيا). في معظم هذه المناطق، وبدرجات متفاوتة تتحرك الأقليات الإسلامية من أجل حريتها وحقوقها، وأحياناً من أجل الانقسام.

إن نضال الأمة اليوم ضد الامبرياليات الغربية نضال عالمي في جوهره، ويحتاج إلى حلفاء وإلى توسيع جبهة النضال. وينبغي على الأمة أن تطرح تصوراً يناسب المرحلة بخصوص هذه الأقليات، ويقوم على احترام وحدة البلدان الصديقة وعلى احترام حقوق المسلمين. إن الصين والهند مثلاً مرشحتان لأن تكونا حليفتين مهمتين لنضالنا، ولم يكن انقسام الأقليات المسلمة(كما في حالة باكستان) دائما بالأمر الإيجابي عندما يرى بمقاييس التاريخ.

استقلال القرار السياسي وتحرير فلسطين

يرتبط استقلال القرار السياسي العربي ـ الإسلامي بسيرورة تحرير فلسطين.. إذ لم تكن مصادفة أن يقدم الغرب وعد بلفور في الوقت الذي كان فيه يدمر بنيان الدولة العثمانية، ويجتاح المنطقة عسكرياً ويخضعها إلى شبكة علاقات قائمة على التبعية والارتهان السياسي. لقد عمد الآخر إلى«شن حربه الشاملة» ضد الوطن العربي ـ الإسلامي، وتكريس«القابلية للاستعمار» في نفوسنا، وتدمير منابع القدرة الداخلية، وذلك بتحطيم المكونات العقدية والفكرية والحضارية للمجتمع الإسلامي، وتغيير أنماط المعيشة والإنتاج فيه بما يخدم مصالحه ويحقق التبعية له.

وعمد الآخر إلى خلق مؤسسات موازية ومعادية(لنا) يديرها تلامذة له ومأخوذون بثقافته، ولم تكن سوى محاكاة مشوهة وناقصة لمؤسسات الغرب، في سعي منه لتدمير العقل المسلم وحشوه بمفاهيم الغرب، ليقطع كل طريق على عملية التفكير في إعادة بناء المجتمع الإسلامي المقاوم. فمجرد تدمير المؤسسات الإسلامية

مع بقاء العقل الإسلامي في يقظة، كفيل بمحاولة البدء من جديد، وكفيل بنجاح المؤسسات الإسلامية وإعادة بنائها من جديد.

لكن «إسرائيل» وجدت لتمارس وظيفة مستمرة دائبة هي ضرب «النفسية العربية ـ المسلمة» وتحويل ميدان المعركة الحقيقية إلى ميادين وهمية تستنفد الجهد والطاقة. وقيام دولة «إسرائيل» أهم وأخطر وأعنف أشكال الحرب الشاملة.. إذا بقيامها واستمرار وجودها في القلب من الوطن الإسلامي، تكون الهجمة الغربية قد نفذت أهم وأخطر مهماتها، فنحن هنا لا نواجه مجرد تحد عسكري أو مجرد تحد فكري، وإنما نواجه استيطانياً عدوانيا في مكان مهم وحساس من الوطن الإسلامي، يعطي للصراع كل أبعاده التاريخية والحضارية والعقدية والفكرية، إضافة إلى الأبعاد العسكرية والسياسية والاقتصادية. ومع «إسرائيل» لم تعد ثقافة الأمة فقط هي المهددة بل وجودها برمته. واليوم وبعد مرور أكثر من أربعة عقود على الإعلان عن كيان «إسرائيل» يتكرس أكثر فأكثر الدور الصهيوني في المنطقة، حيث يضرب العدو ويتحرك معتبراً أن حدوده الزمنية تشمل باكستان وإيران حتى شمال أفريقيا، ومن تركيا حتي جنوب السودان، ومعتبراً كل ما بين ذلك ـ على الأقل ـ قابلاً للتدخل الصهيوني اقتصاديا وعسكريا وأمنياً، والمطالبة بلعب دور أكبر في سياسات المنطقة، وفي الإسهام في ثقافاتها، والغزو الدبلوماسي للأقطار الإسلامية الأضعف مقاومة ووعياً لخطورة الدور «الإسرائيلي»، والإصرار على تكريس وجودها في المنطقة كقوى كبرى، وهو الأمر الذي ترفعه المفاوضات العربية ـ الصهيونية إلى مستوى أعلى من الخطورة والنفاذ. لذا ليس نافلاً أن يركز «الإسرائيليون» على التطبيع السياسي والاقتصادي والثقافي كهدف أساس «لعملية السلام» قبل مسألة الأمن أو الجغرافيا، وهم في هذا المجال مخلصون تماماً لوظيفتهم الاستعمارية المرتبطة مباشرة بالغرب الأوروبي والأمريكي. وأهم آليات هذه الوظيفة هو تعزيز «القابلية النفسية للاستعمار» عبر التطبيع والإقرار (المغلوب علي أمره) بهيمنة الكيان العدواني والغريب في المنطقة.

تبعاً لهذه الجردة السريعة، يمكن استنتاج أن استقلالية القرار السياسي تستوجب توافر «الشرط النفسي» لدى أبناء الأمة لتصفية «القابلية للاستعمار والتبعية»، وهو نفس الشرط الواجب للنهوض بمعركة تحرير فلسطين. وهي معركة ليست الجيوش ولا الأنظمة مادتها الأساسية وجنودها، ولكن الأمة بطاقاتها وبفكرتها الشاملة عن نفسها وعن الآخر. إذ عندما تعتقد الأمة بقدرتها واستعدادها النفسيين على مواجهة الآخر والانفكاك من أسر تبعيته والارتهان له، تبدأ في تحقيق استقلالها السياسي، وتنهض في الوقت نفسه لمعركة تحرير فلسطين انطلاقاً من أن فلسطين هي القضية المركزية للأمة العربية والأمة الإسلامية، حيث استطاع الاستعمار الغربي الحديث ـ الذي أطلقته الحملة الفرنسية في نهاية القرن الثامن عشر ـ بعد حوالي قرنين من الزمن أن ينشيء الكيان الصهيوني، الذي أصبح مركز الهجمة الغربية ضد الحوض العربي ـ الإسلامي ومركز المشروع الاستعماري. ومن هنا فإن فلسطين تأتي في قلب ومركز المشروع المضاد: المشروع العربي ـ الإسلامي. فالمعركة ليست فقط بين الشعب الفلسطيني والكيان الصهيوني، إنها معركة كل الأمة ضد الغرب المستعمر الذي يمد الكيان الصهيوني بكل أسباب الحياة والرعاية والحماية، وبدون انتظام طاقة الأمة في مسير ونهج موحد فسيبقي الخلل في توازن القوي قائماً ومستمراً لصالح العدو. ومن هنا تأتي أهمية استقلال القرار السياسي والقضاء علي جذور ومنابع التبعية بكافة أشكالها، ونظم مفردات قوة الأمة التي تكمن في هذا العدد البشري المتعاظم وهذا الموقع الجغرافي المتميز والإمكانات المادية الهائلة ـ إضافة إلى التاريخ والموروث الحضاري العربي ـ الإسلامي المستند إلى أيديولوچيا حية باعثة ـ قادرة علي بعث الأمة وتفجير إمكاناتها ونظمها في كينونة فاعلة ومؤثرة.

إن مسألة تحرير فلسطين هي مسألة مشروع ينظم إمكانات الأمة ويرد علي حرب العدو الشاملة بحرب شاملة ثقافية وفكرية واقتصادية وأمنية وعسكرية. ويبقي دور المجاهدين في فلسطين، وهو إحياء فريضة الجهاد ضد العدو ومشاغلته واستنزاف طاقاته وكشف وجهه البشع، وتدمير ما يستطيعون من قدراته وإدامة الصراع حياً حتى وحدة الأمة وتحقيق النصر، والتصدي لمؤامرات تصفية القضية التي يوجهها الغرب.

الدراسة التاسعة عشرة

التحرك والفكر السياسي الفلسطيني أمام مسار التسوية

تشهد القضية الفلسطينية تطورا لم تشهد له مثيلا من قبل، فبعد عشرات السنين من النضال والجهاد العسكري والسياسي تتوجه القيادة الفلسطينية الرسمية لتعطي التفاوض السياسي والدبلوماسي الأولوية المطلقة في العمل. لقد تحرك الفلسطينيون باتجاه واحد منذ سنوات طويلة فكان حضورهم في مدريد وفي مفاوضات التسوية نتيجة ودلالة وليس البداية.

لقد كان ظهور م.ت. ف في منتصف الستينات ثم سيطرة المقاومة الفلسطينية عليها في العام ١٩٦٨ نقطة تحول مهمة في مسيرة الشعب الفلسطيني، والذي حاول لأول مرة منذ العام ١٩٤٨ أن يمسك قضيته بيده بعيدا عن هيمنة وشروط النظام العربي. في البداية، كان واضحا أن العربي وبعد هزيمة ١٩٦٧ قد تخلى عن فكرة تحرير كامل فلسطين واعتبر دوره في حرب تشرين أول (اكتوبر) ١٩٧٣ هي أقصى الجهد الذي يمكن تقديمه في مثل هذه المرحلة التاريخية.

وقد وضعت نهاية حرب ١٩٧٣ م.ت.ف أمام خيار خطير وهو أن تسعى ضمن إطار الشروط الدولية لتمثيل الفلسطينيين في تحرك السلام الذي بدأ الحديث عنه في ذلك الحين وعبر عنه في حينها مؤتمر چنيف أو أن تترك ذلك للأردن.. وقد حسمت م.ت.ف الأمر بتوجهها الاستراتيجي الجديد الذي أعلنه المجلس الوطني الثاني عشر الذي عقد بالقاهرة ١٩٧٤ وأقر البرنامج السياسي المرحلي ذا النقاط العشر. لقد افتتح هذا البرنامج مسلسل التنازلات حين ترك هامشا مفتوحا لتسوية جزئية وهو يشير إلى(أن م.ت.ف ستناضل بكافة الوسائل وعلى رأسها الكفاح المسلح لتحرير الأرض الفلسطينية وإقامة سلطة الشعب الوطنية المستقلة المقاتلة على كل جزء من الأرض الفلسطينية التي يتم تحريرها وهذا يستدعي إحداث المزيد من

(*) المصدر: قدمت هذه الدراسة كورقة بحثية إلى المؤتمر الثالث لدعم الانتفاضة في بيروت بتاريخ ٢٤/ ١٢/ ١٩٩٣.

التغيير في ميزان القوى لصالح شعبنا ونضاله).. وبعيدا عن البلاغة والصياغة فقد شكل هذا النص حجر الزاوية في التحرك السياسي الفلسطيني حتى قرارات المجلس الوطني الذي عقد بالجزائر في تشرين ثاني ١٩٨٨.

وقد تمت مكافأة م.ت.ف على موقفها ذلك عربيا ودوليا، إذ تم الاعتراف عربيا بـ م.ت.ف ممثلا شرعيا وحيدا للشعب الفلسطيني ودوليا بدعوة المنظمة ـ بصفتها ممثلة للشعب الفلسطيني ـ لحضور مداولات الأمم المتحدة بصفة مراقب في مطلع الثمانينات.. ثم عربيا بإقرار مشروع فهد الذي عرف لاحقا بقرار قمة فاس (فاس الثانية) وخاصة بعد الاجتياح الإسرائيلي لبيروت وخروج المقاومة الفلسطينية منها. كان هذا القرار يشكل أول اعتراف عربي جماعي ورسمي بدولة الكيان الصهيوني ولو بشكل ضمني وهو يؤكد على حق دول المنطقة في العيش بسلام. وفي الدورة السادسة عشرة التي عقدها المجلس الوطني الفلسطيني بالجزائر في شباط (فبراير) ١٩٨٣ تم الإقرار فلسطينيا بقرارات قمة فاس وفي عام ١٩٨٥ تم توقيع اتفاق عمان الذي يجعل الأردن شريكا في التحرك السياسي الذي يخص الفلسطينيين ويخص الضفة الغربية وقطاع غزة.. ولكن سرعان ما ألغي هذا الاتفاق تحت ضغوط عدة منها ضغط فصائل معارضة وكذلك إصرار المنظمة على دورها المرفوض (كان ولا يزال) أمريكيا وإسرائيليا.

وهكذا ما إن جاءت الانتفاضة حتى كانت م.ت.ف والمشروع الوطني الفلسطيني في وضع لا يحسد عليه، فالمشروع الوطني الفلسطيني يفتقد الأرض التي يقف عليها في حين تستمر المنظمة كمؤسسة عربية رسمية تقع فريسة المحاور العربية وتلعب لعبتها وذلك في نفس الوقت الذي يسترد فيه النظام العربي زمام المبادرة. لقد أصبح واضحا أن م.ت.ف بحاجة إلى دعم عربي رسمي وأنها لا تستطيع الاستمرار بغير ذلك. إن الموقف يستدعي الأزمة حقا، والمشروع الوطني الفلسطيني بعد أن اجتاز أكثر من منتصف الطريق: طريق الاتجاه الواحد، والعمل الدبلوماسي والتنازلات السياسية المجانية، هذا المشروع يعيش تناقضا استراتيجيا مع الطرف الذي يفترض أن يكون سنده الاستراتيجي.

شكلت الانتفاضة مخرجا حيويا لـ م.ت.ف وللمشروع الوطني ككل، فقد عادت فلسطين إلى قلب الاهتمامات العربية، وفتحت إمكانات جديدة للمنظمة بعد أن تيقن الأردن من صعوبة بناء دور مستقل وسارع إلى فك الارتباط الإداري والقانوني مع الضفة الغربية، وتحركت الولايات المتحدة ـ عبر رحلات وزير خارجيتها حينها جورج شولتز ـ باتجاه تسوية في المنطقة.. ولكن الانتفاضة جاءت معها بتحديات غير مسبوقة للقيادة الفلسطينية منها بروز دور إسلامي مهم في الضفة الغربية وقطاع غزة وانتقال مركز الثقل من الخارج إلى الداخل الفلسطيني وقد كان هذا مستمرا ببطء منذ الخروج الفلسطيني من بيروت في العام١٩٨٢ ولكن تكرس بفعل الانتفاضة.

لم تتصور قيادة م.ت.ف عندما قامت الانتفاضة طريقا آخر غير الذي كانت تسير فيه منذ سنوات.. طريق التسوية، التسوية الجزئية ولم يكن العقل الفلسطيني الرسمي بقادر على الإبداع وقد بات أسير الرسمية العربية وأسير المعادلة الدولية والإقليمية، وبالتالي تم طرح الانتفاضة في سوق التسوية على أساس من تحسين الموقف الفلسطيني التفاوضي، وهكذا بدلا من التعامل مع الانتفاضة كمشروع استراتيجي للنهضة والتحرير، وكمحاولة قوية وجادة لاستنهاض الأمة تم التعامل معها كمشروع للاستثمار العاجل والسريع بل كغطاء للدخول إلى التسوية كما تبين أخيرا.

ولقد جاءت قرارات المجلس الوطني الفلسطيني التاسع عشر الذي عقد بالجزائر (تشرين ثاني ١٩٨٨) متطابقة مع هذا التصور وهذا الفهم ومعيدة إلى الاذهان حديث أنور السادات القديم حول أن ٩٩٪ من أوراق اللعبة هي بيد أمريكا.. وبات هذا هو المنطق الفلسطيني الرسمي ومن هنا كان الاعتراف بالقرار ٢٤٢ والاعتراف بشرعية الكيان الصهيوني في المساومة على الكفاح المسلح وذلك لأجل الجلوس على طاولة الحوار مع الطرف الأمريكي الذي قبل الحوار مقابل الشروط السابقة ولكنه سرعان ما أوقف الحوار لأسباب واهية بعد أن نجح في جر م.ت.ف إلى مزيد

من التنـازلات. لقد كان الهدف من هذا الحـوار كما جاء على لسان عـضو المجلس الوطني الفلسطيني إبراهيم أبو لغد "تفريغ م.ت.ف من محتواها الوطني."

في ذلك الوقت كان التحرك الأمريكي نحو التسوية قد وصل إلى طريق مسدود بين نقاط بيكر ومشروع شامير للحكـم الإداري الذاتي، كما كانت الهجرة اليهودية تتـسع وكـان الاستقـطاب يـزداد داخل الوطـن المحتـل بين الوطـني والإسـلامي أو بالتحديد بين نهج التسوية والنهج المعارض لها.

في هـذا الوقـت جاءت أزمـة الخلـيج وجاءت الحـرب التـي أضعـفت المـوقف الفلـسطيني علـى عدة مستويات فـقد خسر الفـلسطينيـون اقتصاديا وفرضـت على عشرات الآلاف مـنهم هجرة جديـدة وفرض عليهـم حصار سياسي عـربي ودولي وأصبحوا يواجهون تهديدات وتحديات عديدة منها:

١ ـ إنكار وتهديد وجودهم كشعب وكأمة. فالمنطق الإسرائيلي وإلى حد كبير المنطق الأمريكـي أيضا بات ينـظر إليهم كـأقلية قوميـة عليها أن تـقبل العيـش في ظل أكثريه يهودية.

٢ ـ الـتوسـع الإسرائـيـلي.. فـعلـى الـرغم مـن الـتنـازلات التي قـدمهـا العـرب والفلسطينيون فإن أهداف وأطماع الكيان الصهيوني التوسعية ازدادت شراهة، وأصبح الأردن نفسه مهددا وليس مجرد الضفة والقطاع.

٣ ـ الخشية الفلسطينية من الاستخدام الوحـشي وغير المقيد وغير المتكافيء للقوة من الطرف الإسرائيـلي دون مبالاة بأية قيمة اخـلاقية بل بعدم مبالاة بمـسألة الدعم السياسي طالما أن الهدف هو إخماد المقاومة.

٤ ـ سياسـة خلق حقائق جـديدة باستمـرار في الأراضي المحتلـة تتمثل في سـياسة الاستيـطان، الاغتيالات، الـسجن لمدد طويـلة، الإبعاد، حـظر التجول لـفترات طويلة، تـدمير البيوت، إغلاق المدارس والجـامعات، فرض الضرائب الـباهظة والغـرامات، إضافة إلـى تدمير الاقـتصاد الـفلسطـيني وبـنى المجتمـع التحتـية وكذلك إنكار الحقوق الإنسانية والسياسية.

٥ ـ شبح الإبعاد الجماعي (الترانسفير) وهي الرغبة المكبوتة لدى الحركة الصهيونية وهي من ضمن البرنامج السياسي لثلاثة أحزاب مشاركة في الحكومة الحالية (تسوميت، موليدت، هتحيا).

٦ ـ الهجمات العسكرية ضد الخارج الفلسطيني من تجمعات ومؤسسات وقيادات ومواقع.

٧ ـ الهجرة اليهودية.

٨ ـ المخاوف من صراعات داخلية عنيفة داخل الصف الفلسطيني نفسه على خلفيات سياسية وحزبية.

٩ ـ استمرار تدخل الدول العربية في الشأن الفلسطيني الداخلي وإحداث مزيد من الانقسامات والمحاور.

في نفس الوقت الذي كان الفلسطينيون فيه يعيشون هذه الهواجس والتحديات كانت الولايات المتحدة الأمريكية مع نهاية حرب الخليج ترى نفسها على قمة الدنيا متفردة.. فقد انهار التوازن الدولي الموروث عن الحرب العالمية الثانية وانتهت الحرب الباردة لصالح الغرب الرأسمالي وأدت حرب الخليج نفسها إلى انهيار عربي بالغ في مقابل تفوق إسرائيلي وهجرة يهودية واسعة.

في هذه الظروف أرادت الولايات المتحدة أن تفرض سلامها الذي يكفل لها استمرار الهيمنة والنفوذ ويكفل حماية الكيان الصهيوني وحماية الأنظمة التابعة لها ويضرب أي نوازع للمعارضة الإقليمية، وأصبح الأمريكيون يخشون أو يدركون أن استمرار الاحتلال الإسرائيلي يحمل في طياته بذور عدم استقرار يهدد المصالح الأمريكية والإسرائيلية بعيدة المدى، فالوضع الراهن يولد وضعا متقلقلا قادراً على الانفجار في شكل عنف واسع متبادل في أي وقت.

إن مخاطر استمرار تسابق التسلح واحتمالات تصاعد الانتفاضة والخوف من تعزيز دور قوى النهوض العربي والإسلامي جعل أمريكا تفكر في أنه لابد من التوجه نحو التسوية، تسوية شاملة لمسألة الصراع العربي الإسرائيلي والقضية

الفلسطينية .. أو على الأقل نزع فتيل الانفجار منها بوصفها أهم عوامل اللااستقرار في المنطقة.. فالاستقرار بات مطلبا أمريكيا في زمن التفرد الأمريكي.

لقد قام بيكر وزير الخارجية الأمريكي بثماني جولات لمنطقة الشرق الأوسط خلال شهور قليلة مهدت في النهاية الطريق لعقد مؤتمر مدريد ولكن على أساس من رفض مشاركة م.ت.ف ـ ومن دون الخارج الفلسطيني ومن دون القدس ـ وعلى أساس أن تكون المفاوضات ثنائية مباشرة بين كل طرف عربي والطرف الإسرائيلي وبدون وسطاء وعلى أساس أن مشاركة الدولتين الكبيرتين تقتصر على يومي الافتتاح وبلا صلاحيات لمراقب الأمم المتحدة. وأخيرا هذه المفاوضات لا تؤدي إلى قيام دولة فلسطينية.

لقد كانت م.ت.ف تدرك طبيعة الموقف الذي تمر به، وتدرك حجم القرار الذي يطلب منها اتخاذه، ولذا فقد حرصت على أن يكون المجلس الوطني الفلسطيني هو المؤسسة التي تأخذ القرار وحرصت على تمثيل جميع القوى الفلسطينية وخاصة القوى الإسلامية.. ولكن عدة اجتماعات بين قيادات من م.ت.ف وحركة حماس واتصالات أخرى مع حركة الجهاد الإسلامي فشلت جميعها في إحضار القوتين الإسلاميتين الرئيسيتين، كما فشلت الاتصالات التي تمت مع جبهة الإنقاذ التي رفضت الحضور بشروط قيادة م.ت.ف.

وهكذا غابت جميع القوى الإسلامية المجاهدة والفاعلة في ساحة الانتفاضة كما غابت فصائل وطنية مناضلة، بل وغاب عدد كبير من أعضاء المجلس الوطني المعين. كما رفض عدد لا بأس به حضور مقررات المجلس خاصة الجبهة الشعبية لتحرير فلسطين وبعض المستقلين وأفرادا من حركة فتح نفسها. وإذا أخذنا بالاعتبار أن عددا من الذين قالوا نعم قالوا تحت الإكراه والابتزاز فإن كل ما سبق يؤكد على عدم شرعية قرار الذهاب إلى مدريد.. وعندما تجتمع عشر فصائل فلسطينية في طهران قبل مؤتمر مدريد وبعد شهر واحد من اجتماع المجلس الوطني الفلسطيني في الجزائر لتعلن رفضها المشاركة في مؤتمر مدريد وتندد بانعقاده فإن هذا دليل آخر على عدم مصداقية القرار الفلسطيني الرسمي بالمشاركة. لقد بقيت فتح

وحدها إضافة إلى الحزب الشيوعي الفلسطيني على استعداد للذهاب إلى آخر الطريق، لقد قاموا بترتيبات وجهود كبيرة لإخراج عناصرهم إلى الشارع الفلسطيني ولوضع أغصان الزيتون في فوهات بنادق جنود الاحتلال، ولأسباب إعلامية رخيصة ساومت قيادة حركة فتح على الانتفاضة وأحدثت بلا شك شرخا عميقا في الوجدان الفلسطيني.. فأي معنى لغصن الزيتون في فوهة بندقية قتلت أطفالنا وأهلنا بالأمس وهي تفعل ذلك اليوم وغدا.

في اليوم الثاني من أيام مدريد استمع العالم إلى خطاب الطرفين الأساسيين الإسرائيلي والفلسطيني، ومثلهما رجلان كل منهما في السبعينات من عمره، اكتسى خطاب الأول بمنطلقات التاريخ، التاريخ الخاص الذي كتب على أرضية الصراع ونفي الآخر. قال شامير «شهد هذا القرن خطة إبادة نفذت على أيدي النظام النازي وكنا دون وطن أو حماية، ولكن الكارثة هي التي جعلت المجتمع الدولي يعترف بمطالبتنا القائمة على حقنا في أرض إسرائيل.. وفي الواقع جاءت ولادة دولة إسرائيل من جديد بعد وقت قصير جداً من الكارثة، جعلت العالم ينسى أن مطالبتنا هذه قديمة، إننا الشعب الوحيد في أرض إسرائيل خلال اربعة آلاف سنة». كان شامير يعرف حدود مشروعه اللامحدود لذا فهو لا يتحدث باسم دولة إسرائيل وإنما باسم الشعب اليهودي. أما الخطاب الثاني فقد جاء مسكونا بأزمة المشروع الوطني الفلسطيني، مفتقدا لعدالة التاريخ ومجللا بنص الاستجداء السياسي. قال عبد الشافي: ليس هناك في الشرق الأوسط شعب زائد خارج حدود الزمان والمكان، بل هناك دولة أخطأها الزمان والمكان ألا وهي دولة فلسطين. إن حلم المشروع الوطني الطويل جاء وقت التخلي عنه.. ويكمل عبد الشافي "دولتنا هذه وهي في مرحلة المخاض قد طال انتظارها ولابد لدولتنا أن تقوم الآن وليس غدا، ومع ذلك فإننا على استعداد لقبول المرحلة الانتقالية شريطة ألا تتحول هذه المرحلة الانتقالية إلى حل دائم."

إن القيادة الفلسطينية تذهب إلى مؤتمر التسوية دونما خيارات بديلة في جعبتها بل وأصبحت وكأنها تساوم على ضعفها. يقول بسام أبو شريف المستشار السياسي

لرئيس م.ت.ف تعليقا على مسألة الضمانات الأمريكية للطرف الفلسطيني "إن الضمانة الأهم هي استمرار الولايات المتحدة في العملية السلمية". لقد تحركت قيادة م.ت.ف ولأكثر من خمسة عشر عاما باتجاه واحد وهي اليوم تريد الانتفاضة غطاء لخيار السلام والتسوية وليس بديلا في حالة الفشل. فكيف يمكن لمن يضع غصن الزيتون في البندقية التي أطلقت عليه النار بالأمس. أن يعود لقذف جنود العدو بالحجارة. إن خطيئة أخرى تقدم عليها قيادة م.ت.ف وهي تكرس انقساما في الشارع الفلسطيني وعلينا أن نعترف أن الانقسام تجاوز هذه المرة الأحزاب والنخب المثقفة إلى الشارع بسبب عملية الإيهام التي صورت أن ٤٥ دقيقة من الكلام لحيدر عبد الشافي مقابل ٤٥ دقيقة من الكلام لإسحق شامير يعني أننا نجحنا وأن ميزان القوى قد تعدل. ولكن سرعان ما بددت ردهات الخارجية الأمريكية في واشنطن هذا الوهم فقد سارعت فتح إلى تشكيل اللجان السياسية الداعمة كما قالوا للوفد الفلسطيني المفاوض.. وبعيدا عن خلفيات تأسيس هذه اللجان في البداية فإنها تتحول أو ستتحول بالتدريج إلى بديل عن القيادة الوطنية الموحدة، وكأننا دخلنا إلى مرحلة ما بعد الانتفاضة، مع العلم أن القيادة الوطنية الموحدة لم تعد قائمة فعلا منذ أكثر من ثمانية أشهر. وما يصدر اليوم باسمها بات يعبر عن وجهة نظر فتح في تونس، فيما الجبهة الشعبية والديمقراطية قد باتت تصدر بياناتها منفردة أو بالتنسيق مع قوى إسلامية ووطنية أخرى.

وهكذا يمكن تقسيم القوى الفلسطينية فيما يخص مؤتمر التسوية إلى:

١ ـ الذاهبون إلى التسوية ويمثلون جماعة رئيس م.ت.ف وجماعة الحزب الشيوعي الفلسطيني.

٢ ـ الرافضون للتسوية من داخل م.ت.ف وعلى رأسهم الجبهة الشعبية لتحرير فلسطين وإلى حد أقل الجبهة الديمقراطية.

٣ ـ الرافضون للتسوية من خارج منظمة التحرير الفلسطينية، وتشمل:

أ ـ القوى الإسلامية ممثلة في حركة المقاومة الإسلامية (حماس) وحركة الجهاد الإسلامي في فلسطين.

ب ـ القوى الوطنية خارج م.ت.ف مثل جبهة الإنقاذ التي تشمل الجبهة الشعبية ـ القيادة العامة ـ فتح الانتفاضة ـ الصاعقة ـ الحزب الشيوعي الثوري إضافة إلى حركة فتح ـ المجلس الثوري.

في الماضي كانت الانقسامات حول وسائل العمل أو حول الأهداف المرحلية تنحصر في دائرة التنظيمات والنخبة السياسية، بيد أن الانقسام الفلسطيني اليوم يشير إلى انهيار الإجماع الوطني الفلسطيني التاريخي وسواء ضاق هذا الانقسام أم اتسع فإنه أيضا يمس القواعد الشعبية.

إن ذهاب م.ت.ف أو جزء منها إلى مفاوضات التسوية بدون خيارات بديلة يؤكد أن القيادة الفلسطينية لن ترجع عن خيار التسوية حتى لو فشلت الجولة الحالية للتفاوض، وبالتالي فإنها مرشحة للهبوط بشروطها إلى الأسفل، وهذا صحيح طالما أن العدو وحده هو الذي يستطيع أن يترك خيار المفاوضات إلى الحرب بينما لا يملك الفلسطينيون ذلك.

تقول السيدة حنان عشراوي في مقابلة مع التليفزيون الأردني عشية الذهاب إلى مدريد ١٩٩١: صحيح يمكنك النظر إلى الظروف الموضوعية والقول بأن الفلسطينيون ضعفاء نسبيا، وذلك أننا لا نمتلك أسلحة ولا نمتلك موارد طبيعية ولا توجد لدينا أموال، ولا يوجد لدينا حلفاء من بين الدول الكبرى، والظروف حولنا ليست مساعدة على الوصول لسلام عادل من جهات عديدة، ولكن في نفس الوقت فإن هذه مرحلة جديدة في تفكيرنا السياسي.. فقد قررنا أنه بدلا من أن نكون سلبيين، بدلا من أن ندع الآخرين يقررون عنا، فإننا قد أخذنا زمام المبادرة بأيدينا.

بقيت كلمة أخيرة وهي أن منطق هؤلاء (الواقعيين جدا)! لا يمكنه إنقاذ ما يمكن إنقاذه ولا يمكنه إنقاذ شيء. ونحن مثله نلحظ صعوبات الوضع الدولي والإقليمي

المرافقة لحالة الانهيار في المنطقة، من انهيار الاتحاد السوفيتي والتفرد الأمريكي إلى انهيار الوضع العربي بعد حرب الخليج والخلل الاستراتيجي الذي ازداد لصالح العدو الصهيوني، إلى الحصار المفروض على الانتفاضة الباسلة في الوطن المحتل على كافة الأصعدة اقتصاديا وسياسيا واستيطانيا.. ولكن هذا لا يجعلنا نقبل بما هو مطروح ولا يفرض علينا التعلق بقطار التسوية أو على الأقل تغيير الظرف الموضوعي الصعب سواء في حياتنا أم في حياة جيل آخر، فهذه حجة باطلة لأن الظرف الموضوعي سيتغير على أية حال وقد علمنا القرآن والتاريخ ذلك ولكن علينا أن نقدر ونحن نعلم خيارنا اليوم ما هو الأفضل لشعبنا وأمتنا حاضرا ومستقبلا: أن نشهد تغيير الظروف الموضوعية في حالة من التسليم والتبعية والخضوع أو أن نعيش هذا التغيير ضمن حالة من النهوض والقيام والمقاومة تكون في حد ذاتها أحد عوامل التغيير. كما أننا نعتبر حجة رفع المعاناة عن شعبنا كمبرر للالتحاق بقطار التسوية وقطار الحكم الذاتي حجة فاسدة، إذ كيف سترفع المعاناة في ظل الهيمنة الصهيونية، كيف سترفع المعاناة وجميعنا يعلم ما هي مهمة وهدف الحركة الصهيونية في فلسطين وفي المنطقة، أليس قبولنا تسهيلا لهذه المهمة ولهذا الهدف بل تكريسا للاحتلال والمعاناة لا رفعها.

إن مشروع الحكم الإداري الذاتي وبالصيغة التي يطرحها رئيس وزراء العدو إسحق شامير لا يبغي سوى حل مشاكل إسرائيلية بحته، لا يبغي سوى إعطاء الشرعية للاحتلال وتقنينه وهو يمهد به لإعلان ضم الأراضي في الضفة الغربية وقطاع غزة إلى دولة الكيان الصهيوني، في حين يكون السكان في الضفة والقطاع قد ارتبطا بشكل أو بآخر بالأردن وحملوا جوازات سفر أردنية واعتبروا إما أقلية قومية في داخل الكيان الصهيوني وإما جالية أجنبية تابعة لدولة مجاورة.

الدراسة العشرون

إرهاب المثقفين ضد الإسلاميين

يغلب على الكتابات حول الأصولية وهم العلم. أن نظرة سريعة إلى الكم الهائل من المقالات والكتب التي تعالج هذا الموضوع، وهي مادة أصبحت غزيرة وتراكم عاما إثر عام، تجعلنا نخرج بانطباع حول القيمة الموضوعية والعلمية لهذه المعالجات. فهي تدّعي الموضوعية والعلمية في الطرح، ربما من أجل تجنب الشبهة حول الموقف المعادي (أو المناصر) للظاهرة التي تعالجها، ولكنها لا تنجح في ذلك تماما. لأن النظرة العلمية والموضوعية تتطلب في البداية تحديد أداة المعالجة؛ هل هي أداة محايدة تصدر عن المنهج الاجتماعي السياسي في التحليل أو عن علم مقارنة الأديان أو هل هي أدوات أنثروبولوجية أو غير ذلك؟. ومن أجل تحقيق شرط الانتساب إلى أي من هذه المساقات العلمية، على الباحث أن يحدد مصطلحاته بالدرجة الأولى. وعدا كتابات قليلة عالجت المصطلح، فإن عموم ما يُكتب يخضع لتسليم مسبق بالمعنى الدعاوي لـ«الأصولية». وهو تعبير يختزن في داخله الإدانة المسبقة والتوصيف، ويماهي بين مجموع ما يسميه «الظواهر الأصولية» من مسيحية أويهودية أو إسلامية. وهذا ينفي بداهة عن التعبير إمكان التوظيف العلمي المجرد. كما أن معالجة هذا الموضوع خاضعة للتوظيف التحريضي ضد الظاهرة الإسلامية، بعيدا عن أي سياق تاريخي أو علمي أو موضوعي، ومثال على ذلك ما كتبه الدكتور رفعت السعيد، تحت عنوان «الإرهاب في التأسلم السياسي .. مفروض أم مفترض».

يضع الدكتور السعيد في البداية مجموعة انطلاقات «اصطلاحية» يعطيها ثوبها المعرفي من نسجه وتفصيله، في غياب أي مرجعية منهجية.. فيعرف الأصولية

(*)المصدر: كتبت هذه الدراسة بتاريخ ١/ ٥/ ١٩٩٤. وكان المفترض أن تلقى في الندوة التي أعدها(ملتقى الحوار العربي الثوري الديمقراطي) عن (الإرهاب) كتعقيب على بحث للدكتور ـ رفعت السعيد الأمين العام لحزب التجمع المصري.. إلا أن الندوة ألغيت ولم تعقد حتى اليوم (١٩٩٦).

بالعودة إلى الأصل، مجافيا بذلك النشأة المعرفية لهذا المصطلح، ودون أن يحدد المقصود بالأصول التي ينفي على «الأصوليين» الارتباط الصادق بها. فهل هذه الأصول هي القرآن الكريم والسنة الشريفة؟ أم أنها ما كتبه المفسرون والفقهاء الأوائل؟ أم أنها سيرة الخلفاء الراشدين والصحابة التابعين وممارساتهم التاريخية؟. الدكتور السعيد لا يفصل الأمر ولا يحدد أين فارق «الأصوليون» الأصول وأين تلاقوا معها. إنه يكتفي بنفي انتساب «الأصوليين» للأصل، وكفي.

ويعرف التطرف أيضا تعريفا لغويا، دون أن يكلف نفسه عناء بحث الظاهرة من حيث مدلولها الاجتماعي والسياسي، وبيئتها التاريخية، أو النبش في حالات التطرف التي ورد ذكرها كثيرا في التاريخ الإسلامي، أو في البحث عن الموقف الشرعي من التطرف، رغم وجود ملامسات لهذا الموضوع في الفقه الإسلامي يعرفها متوسطو المعرفة بالإسلام فقها أو تاريخا.

وكذلك يفعل مع مصطلح «السلفية»، الذي يبسره ويختزله ويخرجه من أي سياق تاريخي أو علمي، فيقول إن السلفيين هم الراغبون بالاقتداء بالسلف الذي هو المسلمون الأوائل. ولا نعود ندري ما الذي يميز الجماعات السلفية المختلفة من الوهابية والسلفية غير الوهابية والتبليغ والدعوة والسلفية الإخوانية عن الانقاذيين في الجزائر أو عن حزب الله في لبنان أو عن حزب التحرير.. الخ القائمة!. والصحيح أن السلفية كمصطلح تعني اتجاها إسلاميا محددا ومدرسة إسلامية في التفكير لها منابعها التاريخية، العقائدية والفقهية المحددة، كما أن لها سياق تطور مختلفا عن مدارس إسلامية أخرى.

وأخيرا يلغي الفرق الاصطلاحي بين «الإسلاميين» و«المسلمين»، ليدعي أن الذين يدعون أنهم جماعات إسلامية ينفون عن الآخرين صفة الإسلام ويحتكرونها لأنفسهم، وهذا ادعاء باطل للأسباب التالية:

أولا: أن كلمة مسلم هي اسم جنس في اللغة، بينما إسلامي هي «نسبة» كما هو واضح تماما. كما نقول العرب والقوميون العرب، فهؤلاء الأخيرون لا ينفون عن

سائر العرب عروبتهم ويحتكرونها عندما تسموا بالعروبيين أو القوميين. وقديما كتب أبو الحسن الأشعري كتابه المهم «مقالات الإسلاميين» دارسا وباحثا في الفرق والنخب الإسلامية دون أن ينكر في ذلك على عامة المسلمين إسلامهم. واليوم لا يوجد من بين الجماعات الإسلامية القائمة فئة لها وزن تكفر الآخرين وتنفي عنهم إسلامهم. وفي النهاية يتمنن الدكتور السعيد على الإسلاميين «الحركة الإسلامية ـ التيار الإسلامي ـ الجماعات الإسلامية» فيمنحهم صفة «المتأسلمين»، ويقول -ببساطة- إن هذا الوصف يعني الذين يحاولون التشبه بالإسلام ولكنهم لا يطابقون الإسلام ذاته. إن هذا شيء يتأرجح. ويزيد فيقول أنه حريص على دقة المصطلح، وهذا الحرص دفعه لأن يصم الإسلاميين بالنفاق، لأن الذي يتشبه بالإسلام وهو ليس منه في العرف الإسلامي، بل في القرآن الكريم منافق.. وهذه صفة بالنسبة للمسلمين أسوأ من الكفر. وهاهو الدكتور الذي يدعي أن الجماعات الإسلامية تكفيرية يظهر بوجه تكفيري سافر لا يكتفي بإخراج الجماعات الإسلامية من الانتماء للحضارة وللإنسانية ولكنها يخرجها من الإسلام، دون أن يحدد معايير للمسلم الصحيح حسب وجهة نظره، بل دون أن يقول لنا ما هو الإسلام. على الأقل فإن الجماعات التكفيرية «الهامشية»تضع مفاهيمها الخاصة للإسلام التي على أساسها تكفر الناس.

والأهم أن الدكتور السعيد في دراسته يطلق مصطلح «التأسلم السياسي» بدون أي مرجعية معرفية لهذا المصطلح بحيث لم نعد ندري سوى المعنى السطحي أو الهزلي للتسمية. وهو لا يقول لنا متى وكيف بدأ «التأسلم السياسي» ومن أطلقه. هل حسن البنا هو بداية الخيط، أم يمكن أن يشمل رشيد رضا ومحمد عبده وجمال الدين الأفغاني بصفتهم دعاة الجامعة الإسلامية ورواد الحركة الإسلامية الحديثة وأساتذة حسن البنا على التوالي. وإن كان مصطلح السعيد جاء في سياق الخلط بين الإسلام والسياسة، فهل سيشمل هذا عصور التاريخ الإسلامي المختلفة - حيث تلازمت الشريعة والدولة- وصولا إلى صدر الإسلام وعصره الأول؟ لا شك في أن هذا ما يضمره رفعت السعيد دون أن يعطي توضيحا ودون أن يجيب على الأسئلة السابقة.

والكاتب يدلل على استخلاصاته وأحكامه القطعية التي يطلقها جزافا بحق الناس من خلال استشهادات محرفة وانتقائية، بل ومفبركة، كما سنرى لاحقا.

«التأسلم السياسي والإرهاب»

بعد أن يضع الدكتور السعيد الحركة الإسلامية كافة تحت عنوان «التأسلم السياسي»، يعتبر تحصيل حاصل ارتباط هذه الحركة بالإرهاب، ويبدأ بشرح من أين يأتيها هذا الوباء.

أولا: من حذف «من»:

يعتبر الدكتور السعيد أن كثيرا من جماعات التأسلم السياسي تتعامل معنا، بل وتتعامل مع بعضها البعض بعد حذف «من»، فتقول أنها «جماعة المسلمين» وليست جماعة «من» المسلمين، وطالما أنها جماعة المسلمين، فمن خالفها يُضرب بحد السيف، ومن هنا يأتي الإرهاب، فقط لمجرد حذف «من»!. والحقيقة أنه لم يُعرف أحد في التاريخ الإسلامي المعاصر كله يحذف «من» هذه سوى قلة لا تكاد تُذكر، ولا تكاد تبين بين أجيال وجمهور الحركة الإسلامية العريضة. والمقصود كما ذكر الدكتور نفسه ما سمي جماعة التكفير والهجرة أو جماعة المسلمين بزعامة شكري مصطفي التي ظهرت بمصر في السبعينات والأرجح أنها انقرضت تقريبا قبل الدخول في عقد التسعينات، فكيف تصبح مجموعة هامشية خارج سياق التاريخ الإسلامي، كيف تصبح في عرف الدكتور أغلب الحركة الإسلامية -نحمد الله أنه لم يقل كل- أو كما يسميها «كثير من جماعات التأسلم السياسي»؟. كان أجدر بالدكتور السعيد البحث عن أسباب أخرى لهذا «الإرهاب»، وعلى سبيل المثال فالمجموعات التي تشن ما يسميه بالإرهاب في مصر وهي حصرا (الجماعة الإسلامية وجماعة الجهاد) لم يصدر عن أي منهما ما يفيد حذف «من» الإرهابية، حتى هذه المجموعات نفسها لا تمثل من حيث الحجم الجسم الرئيسي أو التيار الرئيسي داخل الحركة الإسلامية المصرية.

ثانيا: تسييس الدين، أو تديين السياسة كسبب من أسباب الإرهاب:

حيث يرى الدكتور السعيد أن الدين إلهي وشمولي، كلي الصحة.. والسياسة فعل إنساني والخلط بينهما هو محاولة لإعطاء حصانة دينية لأفكار أو أقوال أو مواقف سياسية تحتمل الصحة والخطأ. فهل يعني هذا باعتباره أن الدين شأن غير بشري، وأن لا علاقة للدين بالبشر، وأن العلاقة القائمة ليست أكثر من ضرب من ضروب التخيل والخيال. هل علينا إذا دخلنا ساحة السياسة أن نتخلص من كل ما هو ديني، وإذا دخلنا ساحة الدين أن نتخلص من كل ماهو سياسي. الإسلام مثلا يدعو أتباعه إذا ما احتلت أرضهم أن ينفروا للجهاد، ويحرم عليهم القعود أو التولي عند الزحف ويدعوهم إلى إعداد العدة والقوة لمواجهة العدو، فهل هذا شأن ديني لا علاقة له بالسياسة. الإسلام يضع أسسا للتحاكم بين البشر والقضاء ومبادئ للتملك والعلاقات الاقتصادية والاجتماعية، فهل يبقى هذا شأنا دينيا لا علاقة له بالسياسة؟!. الدولة «السياسة» مثلا، تتدخل في المناهج الدراسية في المدارس وبعض هذه المناهج يمس مباشرة عقائد دينية ومنظومة الأخلاق، فهل مناهج الدراسة مجرد شأن سياسي لا علاقة له بالدين. الغريب أن يعترف الدكتور السعيد بأن الدين شمولي كلي الصحة ثم ينزع عنه أي بعد سياسي، مخافة أن يحصن «الإرهابيون» أفكارهم السياسية بغطاء ديني. إن هذا الفصل التعسفي بين ما هو ديني وما هو سياسي نابع من غياب تعريف منهجي لكل منهما، أو هو بقصد إبعاد الدين عن الحياة، أي استبعاد ما لا يُبعد أو يُستبعد، فالسياسة للمسلم هي عملية process تجسيد الإسلام والشريعة في دولة، والدين هو أيضا الشريعة والقانون، فالقرآن يصف قانون فرعون وشريعته بقوله «دين الملك» عندما يتحدث عن نبي الله يوسف عليه السلام، قائلا: «.. ما كان ليأخذ أخاه في دين الملك إلا أن يشاء الله» - سورة يوسف، آية ٧٦- ، بل يقول للكافرين «لكم دينكم ولي دين». الشيء الآخر الذي لا بد أن يدركه الدكتور السعيد هو أن السياسة لا تستنبت في الهواء وقيم السياسة لا يمكن أن تصدر إلا عن معتقدات المجتمع وإيمانه، وإلا أصبحت السياسة نفيا للذات وللهوية الوطنية.

وبدون مقدمات، ينتقل الدكتور السعيد من تسييس الدين كسبب للإرهاب، إلى اعتبار حسن البنا واضعا لنظرية التكفير! لأن حسن البنا -في نظره- يقول: «إن المسلم الذي يرضى بحياتنا .... ويتفرغ للعبادة ويترك الدنيا والسياسة للعجزة الآثمين ... كلا إنه ليس بمسلم». والأستاذ البنا -إن صح ما نقله الدكتور السعيد- يقصد عدم اكتمال إسلام الشخص إذا ما اقتصر إيمانه على العبادة فقط، وهذا مجاز طالما استخدم، إذ يقول الرسول ﷺ «لا صلاة لجار المسجد إلا في المسجد» والمقصود كمال وتمام الصلاة وليس حقيقتها ومشروعيتها، ويقول الرسول ﷺ أيضا: «من تعلم الرمي ثم نسيه فليس منا»، ويقول أيضا «من فعل كذا أو كذا فليس منا» والمقصود التقريع والتخويف وليس نفي صفة الإيمان والإسلام والانتساب للجماعة والأمة. ويستمر في مقارعة حسن البنا -نموذج التأسلم السياسي في نظره- عندما يترجم كلمة الخصومة (ستخاصمون هؤلاء جميعا) إلى الجهاد بالسيف. مرة أخرى نجد الخلط اللغوي المقصود عندما يترجم الخصومة إلى الجهاد ويدعي أن القول بدعوة البنا أتباعه إلى مخاصمة الذين يختلفون معهم هو دعوة إلى جهادهم بالسيف، وهذا أمر لا تحتمله اللغة ولا المنطق فقد يكون بين السعيد وبين البعض خصومة سياسية أو فكرية ومع ذلك يتعاون معهم في بعض جوانب العمل السياسي ولا يقاتلهم وهذا لا يعني انتفاء الخصومة!.

وينقل الدكتور السعيد عن البنا قوله في هذا الجهاد «أول مراتبه إنكار القلب ـ لاحظ إنكار القلب هذه ـ وأعلاها القتال في سبيل الله، وليس في الدنيا جهاد بلا تضحية، ومن قعد عن التضحية معنا فهو آثم» وهذا النص ليس واردا في رسالة «دعوتنا في طور جديد» كما ادعى السعيد في اقتباسه، وبعد جهد يمكنك أن تكتشف أن الجمل الثلاث التي وردت في هذا النص قد وردت متفرقة ومتباعدة في «رسالة التعاليم» لحسن البنا، جمعها الدكتور السعيد في فقرة واحدة ليس فقط دليلا على غياب المنهج بل على غياب الأمانة العلمية أيضا. والغريب في هذا النص، تعليق السعيد «لاحظ إنكار القلب هذه» وكأنه يستغرب أن يكون إنكار المسلم للظلم ولو بقلبه نوعا من الجهاد هو أُولى مراتبه أو أضعف الإيمان.

ولا ندري أي عيب في أن «يتغزل» البنا بالقوة، خاصة وهي تسير جنبا إلى جنب مع الحق. مع أن النص الذي نسبه للبنا هو حكمة قائل نقلها البنا (رسائل حسن البنا ـ ص ١٣٨).

ودفاعا عن الحزبية والتعددية والديمقراطية يشن الدكتور السعيد هجومه ضد «نموذج التأسلم السياسي» حسن البنا، مندذا بدعوته ضد الحزبية «الحزبية ليست أصلا في النظام النيابي»، كما ينسب للبنا، وهذا النص غير وارد وإن جاء في نفس السياق. (راجع ص ٣٦٦ من رسائل البنا - مشكلاتنا في ضوء النظام الإسلامي). ورغم أنه ليس من شخص بعينه حجة على الإسلام والحركة الإسلامية، إلا أن حسن البنا كان دائما مع الشورى ومع اختيار ممثلي الأمة عبر الانتخاب. ففي نفس الرسالة المذكورة «مشكلاتنا..» التي ينقل عنها الدكتور السعيد أكثر من مرة محرفا، يرسي حسن البنا موقف التيار الأساسي والرئيسى في الحركة الإسلامية فيما يخص الشورى فيقول في ص ٣٦٣: «إن الدعائم التي يقوم عليها نظام الحكم الإسلامي ثلاث: مسؤولية الحاكم، وحدة الأمة، احترام إرادتها» وهذا وحده من كلام البنا يدحض كل أقوال السعيد عن «التأسلم السياسي» الداعي إلى دولة دينية وحاكم مقدس لا يخطئ، فالحاكم مسؤول أمام الأمة وواجب عليه احترام إرادتها. يقول البنا أيضا في رسالة المؤتمر الخامس (ص ٢٧٤ من الرسائل): «إن الباحث حين ينظر إلى مبادئ الحكم الدستوري التي تتلخص في المحافظة على الحرية الشخصية بكل أنواعها وعلى الشورى واستمداد السلطة من الأمة، وعلى مسؤولية الحكام أمام الشعب ومحاسبتهم على ما يعملون من أعمال، وبيان حدود كل سلطة من السلطات.. هذه الأصول كلها يتجلى للباحث أنها تنطبق كل الانطباق على تعاليم الإسلام ونظمه وقواعده في شكل الحكم.»

أما النقد الذي يوجهه البنا إلى الأحزاب فموجه إلى حالة حزبية في مصر «أهلكت الحرث والنسل» «ليست أكثر من سلسلة انشقاقات أحدثتها خلافات شخصية بين نفر من أبناء الأمة..» «انعقد الإجماع على أن هذه الأحزاب لا برامج لها ولا مناهج ولا خلاف بينها في شيء أبدا إلا في الشخصيات» (مشكلاتنا في

ضوء النظام الإسلامي، رسائل البنا، ص ٣٧٤). وبالنسبة للنصوص التي ينقلها الدكتور السعيد عن البنا في هذا المجال، فهي ليست دقيقة وأحيانا غير واردة في مصدرها الأصلي. ثم ينقل عن البنا أنه يعتبر التعددية قرين الكفر «فالوحدة جزء أساسي في حياة المجتمع الإسلامي لا يتساهل فيها بحال، والإسلام يعتبر الخلاف فرقة والفرقة قرين الكفر»، في حين أن النص الأصلي للبنا يقول: «وأما عن وحدة الأمة، فقد أبنت أن الإسلام الحنيف يفترضها افتراضا ويعتبرها جزءا أساسيا في حياة المجتمع الإسلامي لا يتساهل فيه بحال، إذ أنه يعتبر الخلاف والفرقة قرين الكفر، كما قال تعالى: ﴿يا أيها الذين آمنوا إن تطيعوا فريقا من الذين أوتوا الكتاب يردوكم بعد إيمانكم كافرين﴾ أي بعد وحدتكم متفرقين، وكما قال رسول الله ﷺ «لا ترجعوا بعدي كفارا يضرب بعضكم وجوه بعض» فعبر بكلمة الكفر عن الفرقة والخلاف، وأن يضرب بعضهم وجوه بعض» (مشكلاتنا في ضوء النظام الإسلامي، رسائل البنا، ص ٣٧٢). وهكذا يتضح أن المقصود بالخلاف والفرقة هو الصراع والتقاتل، أما في التعددية وتعدد الآراء فيقول البنا: «إن الخلاف في الفرعيات أمر ضروري لا بد منه إذ إن أصول الإسلام آيات وأحاديث وأعمال تختلف في فهمها وتصورها العقول والأفهام. لهذا كان الخلاف واقعا بين الصحابة أنفسهم وما زال كذلك وسيظل إلى يوم القيامة» ثم يشيد البنا بحكمة الإمام مالك الذي قال: (فإذا حملتهم -أي الناس- على رأي واحد تكون فتنة) وحسب البنا أيضا «ليس العيب في الخلاف ولكن العيب في التعصب للرأي والحجر على عقول الناس وآرائهم» (رسالة المؤتمر الخامس، من رسائل البنا، ص ٢٥٢). فهل هذا الإيمان بحرية الإنسان في التعبير عن رأيه يقود إلى العنف والإرهاب، أم ما يقوله انجلز «إن البروليتاريا بحاجة إلى الدولة، لا من أجل الحرية بل من أجل قمع خصومها» (مختارات لينين، الجزء الثاني، الدولة والثورة، ص ٢٨٧).

أما ذروة التشويه والتحريف فتبدو عندما يقول رفعت السعيد إنه لا مانع لدى البنا من أن يكون هناك انتخاب لأهل الشورى بشرط حاسم ومحدد (إن أهل الشورى يكونون إما من رجال الدين وإما من الرجال المتمرسين على القيادة مثل

رؤساء العائلات والقبائل ولا تكون الانتخابات مقبولة إلا إذا أسفرت عن اختيار أناس من هذين الصنفين). انتهي كلام البنا الذي استشهد به واقتبس منه السعيد الذي يتمادى ويمعن في التشويه عندما يقول (هل أحتاج إلى التركيز على الجملة التي تبدأ: ولا تكون الانتخابات مقبولة إلا إذا ...) مع أن هذه الجملة ليست واردة مطلقا عند البنا، بل إن النص كله من بنات أفكار السعيد واختراعه، وهاكم النص الأصلي: «وأما عن احترام رأي الأمة، ووجوب تمثيلها واشتراكها في الحكم اشتراكا صحيحا، فإن الإسلام لم يشترط استبانة رأي أفرادها جميعا في كل نازلة، وهو المعبر عنه في الاصطلاح الحديث بالاستفتاء العام .. ولكنه اكتفي في الأحوال العادية «بأهل الحل والعقد»ولم يعينهم بأسمائهم ولا بأشخاصهم، والظاهر من أقوال الفقهاء ووصفهم إياهم أن هذا الوصف ينطبق على ثلاث فئات هم:

١- الفقهاء المجتهدون الذين يعتمد على أقوالهم في الفتيا واستنباط الأحكام.

٢- وأهل الخبرة في الشوؤن العامة.

٣- ومن لهم نوع قيادة أو رئاسة في الناس كزعماء البيوت والأسر وشيوخ القبائل ورؤساء المجموعات.

فهؤلاء جميعا يصح أن تشملهم عبارة «أهل الحل والعقد».ولقد رتب النظام النيابي الحديث طريق الوصول إلى أهل الحل والعقد بما وضع الفقهاء الدستوريون من نظم الانتخاب، وطرائقه المختلفة - والإسلام لا يأبى هذا التنظيم ما دام يؤدي إلى اختيار أهل الحل والعقد» (مشكلاتنا في ضوء النظام الإسلامي، رسائل البنا، ص ٣٧٧).

ثالثا: الخلط بين الدين والفكر الديني:

وتحت هذا العنوان يعيد الدكتور السعيد ما سبق وذكره تحت عنوان تسييس الدين أو تديين السياسة مكررا نفس عبارات أن الدين ينتمي إلى مطلق الصحة والفكر الإنساني نسبي الصحة. والخلط موقف متعمد يستهدف إضفاء قداسة على موقف أو فكر قد يحتمل الخطأ. وبدلا من حسن البنا، يقتبس هذه المرة من ممثل آخر

لتيار «التأسلم السياسي»! على حد تعبيره، هو أبو الأعلى المودودي. ولمواجهة داء التحريف المستمر ننقل عن المودودي في كتابه «الخلافة والملك» تحت عنوان مبادئ الحكم الإسلامي (ص ٤١) قوله: «وخامسة قواعد الدولة الإسلامية حتمية تشاور قادة الدولة وحكامها مع المسلمين والنزول على رضاهم ورأيهم وإمضاء نظام الحكم بالشورى» وفي هذا النص ما يكفي لدحض كل ما ذكره الدكتور السعيد في هذا الموضوع.

والمودودي الذي شارك دائما -بجماعته التي أسسها ١٩٤٣- في الانتخابات الديمقراطية التي كانت تجري في الباكستان، والذي لم يعرف عنه أي نمط من أنماط العنف، هو الذي يقر بحق أبناء الأمة الواحدة في التعدد إذ يقول: «إن اختلاف الآراء حقيقة ملازمة للحياة الإنسانية ولذلك فمن الممكن أن تظهر في الأمة -التي تجتمع على مبدأ واحد ونظرية واحدة- مدارس مختلفة يتقارب دعاتها على أي حال فيما بينهم. كما اعترف الإمام علي رضي الله عنه بحق الخوارج (حزب سياسي) في الاجتماع طالما لم يعمدوا إلى الإكراه» (تدوين الدستور الإسلامي - ص٦٢) بل يذهب المودودي إلى أبعد من ذلك حين يقرر بوضوح وحسم حرية غير المسلم عندما يقول: «سيكون لغير المسلمين في الدولة الإسلامية من حرية الخطابة والرأي والتفكير والاجتماع ما هو للمسلمين سواء بسواء، وسيكون عليهم من القيود والالتزامات في هذا الباب ما على المسلمين أنفسهم. فسيجوز لهم أن ينتقدوا الحكومة وعمالها، حتى رئيس الحكومة نفسه ضمن حدود القانون. سيكون لهم الحق في انتقاد الدين الإسلامي مثل ما للمسلمين الحق في نقد مذاهبهم ونحلهم. ويجب على المسلمين أن يلتزموا حدود القانون في نقدهم هذا كوجوب ذلك على غير المسلمين، وسيكون لهم الحرية كاملة في مدح نحلهم وإن ارتد - أي المسلم- فسيقع وبال ارتداده على نفسه، ولا يؤخذ به غير المسلم، ولن يكره غير المسلمين في الدولة الإسلامية على عقيدة أو عمل يخالف ضميرهم، وسيكون لهم أن يأتوا كل ما يوافق ضميرهم من أعمال ما دام لا يصطدم بقانون الدولة» (نظرية الإسلام وهديه في السياسة والقانون والدستور ، ص ٣٦١).

رابعا: استخدام الشعار الديني كأداة إعلام أو جذب للجمهور

وهذا سبب جديد للإرهاب في نظر الدكتور السعيد، أو هو في الحقيقة سبب آخر لضرورة نبذ الإسلام وإبعاده عن الحياة، عن الإعلام أو عن الجمهور.. متناسيا أن الإسلام، إضافة إلى كونه شريعة وقانونا، فهو عقيدة وأيديولوجيا لبعث الإنسان وإحيائه، وأن هوية المجتمع وروحه استندت إلى هذه العقيدة، وبالتالي يستحيل إبعادها عنه مهما كانت حدود المحاولة. فلماذا هذا التجديف المستحيل ضد التيار .. ضد روح الأمة؟ لماذا عزل الأمة عن أداة بعثها وإحيائها وتقويم مسيرتها بحجة أن شخصا أو آخر قد يستغل هذا الشعار لمآرب شخصية؟ ألا يمكن أن ينطبق هذا أيضا على الوطن والوطنية، إذ يأتي حكام ـ وهم كثيرون ـ ليرفعوا شعار الوطن وحمايته والذود عنه، ويكممون في سبيل ذلك الأفواه ويقطعون الأعناق والأرزاق، ويستمرون هم في نهبهم وترفهم وإفسادهم؟ سيقول الدكتور السعيد: ولكن الدين سيعطي هؤلاء المستغلين حصانة! والحقيقة أن الدين أو الإسلام يملك في داخله منظومة من القيم والأخلاق والزواجر والأحكام الشرعية الواضحة والحاسمة التي تربك الحاكم الفاسد وتجعله عرضة لغضب الأمة وخروجها وثورتها.

فدور الدين في البناء وفي المعركة والنفير والتغيير مفروغ منه، وينبغي استحضاره لا نفيه بحجة أن حضور الدين في الاعلام، وفي توعية الجمهور سيكون مبررا لاستحضار الإرهاب!.

خامسا: القول بتطبيق الشريعة

وهذا سبب آخر جديد للإرهاب في نظر الدكتور السعيد. ولا أدري كيف تكون دعوة الناس إلى تحكيم دينهم وقانونهم وشريعتهم في حياتهم سببا للعنف والإرهاب، ولا تكون دعوة الناس إلى الشيوعية سببا في ذلك مثلا. إن قال لأن الدعوة لتطبيق الشريعة تتم بالعنف والإكراه فيما الدعوة إلى الشيوعية متسامحة ديمقراطية تؤمن بالتعددية وتداول السلطة!! نقول هذا الكلام مرفوض. والتيار الإسلامي بعمومه وإجماله ينبذ العنف والإكراه سبيلا لتطبيق الشريعة. وعلى

العكس فالدولة هي التي تفرض عنفها وإرهابها، ليس فقط على الإسلاميين، بل على الناس والمجتمع لمنع تطبيق الشريعة. فإن ذكر الجزائر كنموذج قلنا إن اختيار الأمة الساحق في الجزائر كان الإسلام وتطبيق الشريعة، وعندها لجأت الدولة إلى صناديق الذخيرة ساحقة صناديق الاقتراع التي شفت عن خيار الشعب، فكان الجهاد العنيف خيار جناح محدود في التيار الإسلامي دفاعا عن خيار الشعب وعن حقه. ولم يأت هذا العنف ابتداء بل ردا على عنف الدولة واعتقالها عشرات الآلاف بلا سبب سوى انتصارهم في انتخابات ديمقراطية، ومع ذلك جلست الغالبية من التيار الإسلامي كاظمة صابرة ليس في الجزائر وحدها، بل في أغلب بقاع العالم الإسلامي وعلى رأسها مصر حيث لا ينال التيار الإسلامي حقه في حرية التعبير كغيره من الاتجاهات. أما إن ذكّرَنا الدكتور السعيد بالإرهاب اليومي في مصر، فسنقول له أن مجموعات العنف الجهادية لا تمثل أولا التيار الرئيسي داخل الحركة الإسلامية، وثانيا فإنها تفعل ذلك دفاعا عن نفسها ولم تبدأه إلا بعد اغتيالات متكررة ضد كوادرها، وأخيرا نقول إذا ضمن لهذه المجموعات نصف ما يتمتع به هو من الحقوق السياسية فإن هذه المجموعات ستلقي سلاحها فورا.

ولأجل إقناعنا بنبذ تطبيق الشريعة الإسلامية يحمل لنا تفسير الفقيه عبدالعزيز الكتاني الذي يُفسر ﴿ومن لم يحكم بما أنزل الله فأولئك هم الكافرون﴾ قائلا «أنها على ترك الحكم بجميع ما أنزل الله ويدخل في ذلك الحكم بالتوحيد والإسلام». وكأنه يريد أن يقول لا تخافوا إن نبذتم الشريعة فلن تكونوا كفارا طالما أنكم تتمسكون بالتوحيد والإسلام. ولا أدري ماذا يقصد بالإسلام هنا إن لم يكن الشريعة، وماذا يقصد بالتوحيد إن لم ينبثق عنه الالتزام بأحكام الإسلام، وهل التوحيد هوالذي يُطبق أم هو مسألة إيمانية خاصة بينما الشريعة هي التي تنزل إلى أرض الواقع وتُطبق وتكون مصداقا للحكم بما أنزل الله. على كل لا ندري لماذا لا يحيلنا الدكتور إلى مراجعه حين ينقل منها، فهو يخطيء في توصيف الكتاني ولا يذكر لنا المصدر الذي نقل عنه. ولعلم الدكتور فالشيخ عبدالعزيز الكتاني ليس فقيها ولم يأخذ عنه أغلب المفسرين كما ذكر لإعطائه حصانة وما علينا سوى

الالتزام، الشيخ الكتاني هذا محدث صوفي وليس فقيها مفسرا، عاش في القرن الخامس الهجري واشتهر عنه مؤلف «ذيل على كتاب الوفيات لابن زبر». ثم يواصل الدكتور السعيد محاولته لإقناعنا بنبذ الشريعة حينما يستشهد بالرسول ﷺ الذي يقول «أنتم أعلم بشؤون دنياكم» ولا أدري لماذا كانت الرسالة والقرآن والشريعة إن كنا أعلم بشؤون دنيانا. ونحن يمكن أن نضع ما يناسبنا من تشريعات وقوانين. الدكتور السعيد يغشنا مرة أخرى عندما لا يقول أن شؤون الدنيا هنا هي الفلاحة والزراعة والهندسة والكيمياء، والرسول صلى الله عليه وسلم عندما ذكر هذا الحديث كان يستفتي بتلقيح البلح، وليس في القضاء بين الناس وتحديد العلاقات المختلفة بينهم، وينقل الدكتور عن ابن عاشور قوله: « إن ما ينتهي إليه العقل السوي هو من الشرع» وكالعادة لا يحيلنا إلى أي مرجع، ومع ذلك فالعبارة تؤكد أن الشرع هو الأشمل وأنه لا يتناقض مع العقل السوي وهذا يدفعنا لقبول الشرع وليس نبذه. أما قصة قواعد المرور ونظام السفر بالطائرات وكم العلاقات التجارية أو الخدمية المستحدثة وعدم ورود حكم صريح وبالتالي ضرورة سن قواعد وسنن وشرائع تنظم ما لم يرد فيه نص صريح فالدكتور منزعج لأن «المتأسلمين» سيرفضون إعطاء حق سن هذه القوانين «لسائر البشر أو لمجلس نيابي ينتخبونه بل يحتكرون ذلك لأنفسهم ...». نؤكد للدكتور السعيد، كما أكد ممثلو الإسلام السياسي الذين ذكرناهم حتى الآن في هذه العجالة، أن إرادة الأمة -مباشرة أو عبر ممثليها- ستكون محل احترام التيار الإسلامي ونضاله وسعيه، وإن هذا من الدعائم التي يقوم عليها نظام الحكم الإسلامي. بل يمكننا أن نترك قواعد المرور ونظام السفر بالطائرات لخبراء من غير المسلمين وليس فقط من خارج التيار الإسلامي، فهذه مسائل فنية يستفتى فيها أصحاب الاختصاص. وللتأكيد على سلطة الأمة ودورها نورد نصا لعبدالقادر عودة الذي يورده رفعت السعيد كنموذج جديد للمتأسلم الذي يرفع «سلاح التكفير وما يتلوه من عنف وإرهاب سريع وشامل ..». يقول عبدالقادر عودة (سلطة المراقبة والتقويم سلطة مقررة للأمة، إذ يجب عليها مراقبة الحكام وتقويمهم بما أوجب عليها من الأمر بالمعروف والنهي عن

المنكر، لأنها مصدر سلطان الحكام باعتبارهم نوابا عنها فهم مسؤولون أمامها، «إن أحسنت فأعينوني، وإن أسأت فقوموني» قالها أول خليفة للنبي ورددها الراشدون من بعده تأكيدا لقاعدة من قواعد الحكم الإسلامي: مسؤولية الحكام أمام الأمة، وسيادتها عليهم في إطار سيادة الله التشريعية العليا) «الإسلام وأوضاعنا القانونية ص ٢٤٣».

أما خوف الدكتور من تطبيق الشريعة الإسلامية على الأقلية المسيحية في مصر وما رد فعلهم، فيكفي للرد عليه نفس المثل والاستشهاد الذي نقله عن ابن حزم في «كيف أن الخوارج قتلوا الصحابي عبدالله بن خباب ولكنهم في نفس اللحظة أصروا أن يدفعوا ثمن التمر الذي اشتروه من النصراني مع أنه عرضه عليهم بلا ثمن، قائلين له إن الله أوصانا بكم خيرا». فإن كان هذا سلوك وموقف مجموعة إسلامية متطرفة اشتهر عنها تطرفها وعنفها في التاريخ الإسلامي، فأحرى بنا أن نطمئن إلى موقف التيار الواسع في الحركة الإسلامية الذي لم يعرف عنه تطرف.

بقي أن نؤكد أن الدولة في الإسلام طبيعة اجتماعية وضرورة، بالإضافة إلى كونها واجبا دينيا ومصلحة شرعية، فالإسلام يحتاج كجماعة ما تحتاجه أي جماعة أخرى وهو الوازع الخارجي إضافة إلى الوازع الديني الداخلي، وهذا الوازع هو الدولة وسلطتها، وسواء جاء هذا كضرورة دينية مرتبطة بنص صريح، أو كاجتهاد أجمعت عليه الأمة فإن الإسلام كدين لا يضمن تحققه التاريخي الكامل بدون دولة، وقد جاءت هذه الدولة نتيجة طبيعية للجماعة التي أنشأها الإسلام وللروح الجمعية التي أطلقها.

حقيقة الإرهاب

إن التغريب القائم في مجتمعاتنا اليوم هو أسوأ أشكال العنف الذي تمارسه الدولة، لأنه يشمل سلخ المجتمع عن أصوله وضميره، لأجل فرض قيم الغرب ونمط حياته واستهلاكه وحداثته.. وهذا يعني إرغام الناس والتسلط عليهم. فإذا أضيف إلى ذلك قمع الدولة المباشر ومصادرة الحريات ليس فقط ضد الإسلاميين

وإنما أيضا كل المجتمع: ضد الجماعة الوطنية، وضد التماسك والنسيج الأهلي الداخلي، بل ضد نخب علمانية تشارك الدولة في المذهب (العلمانية)، فإننا نصبح أمام قمع وعنف مركب المستويات يبدأ من الصباح الباكر ولا ينتهي في كوابيس الليل المزعجة، يبدأ من صباح العمر وطفولته إلى شيخوخته المتأخرة.

ورغم ذلك فموقف التيار الرئيسي في الحركة الإسلامية ما زال رفض الاستدراج إلى العنف. هذا ما يحدث في مصر (الاخوان المسلمون) وباكستان (الجماعة الإسلامية) والأردن (جبهة العمل الإسلامي) وتونس (حركة النهضة ـ حركة الاتجاه الإسلامي سابقا) وهي الحركة التي جاء في بيانها التأسيسي عام ١٩٨١ «رفض العنف كأداة للتغيير، وتركيز الصراع على أسس شورية تكون هي أسلوب الحسم في مجالات الفكر والثقافة والسياسة، ورفض مبدأ الانفراد بالسلطة الأحادية لما يتضمنه من إعدام إرادة الإنسان وتعطيل طاقات الشعب ودفع البلاد في طريق العنف، وفي المقابل إقرار حق كل القوى الشعبية في ممارسة حرية التعبير والتجمع وسائر الحقوق الشرعية والتعاون في ذلك مع كل القوى الوطنية». وفي القانون الأساسي لحركة النهضة جاء: «دعم النظام الجمهوري وأسسه وصيانة المجتمع المدني وتحقيق مبدأ سيادة الشعب وتكريس الشورى»، وهو ما تؤكده أيضا ممارسات وبرامج حزب الرفاه (تركيا) والحزب الإسلامي (ماليزيا) والمجموعات الإسلامية في المغرب، وأحزاب الاصلاح والحق والتوحيد والعمل وغيرها في اليمن، وقد سبق الحديث عن حقيقة ما يجري في الجزائر ومصر.

وأخيرا، ولنضع البحث على قدميه، نلقي نظرة سريعة على ظاهرة الإرهاب كما يتداولها الإعلام اليوم. فقد انساق بعضنا وراء دعاية غير بريئة تروجها وسائل الإعلام العالمية لإدانة كل ظواهر التحرر الوطني والقومي، بل والإنساني تحت ذريعة مقاومة الإرهاب، محددة في ذلك المتهمين دون أن تحدد التهمة. فالحديث عن الإرهاب يشمل تنظيمات وجماعات سياسية ودولا لا يجمعها جامع سوى رفضها للغرب ولأمريكا أو رفض هؤلاء لها. إن قائمة الإرهاب لائحة أمريكية ولا علم لنا بلائحة تحدد «الإرهابيين» غيرها. وعلى هذه اللائحة دول مثل ليبيا

وإيران وسوريا وكوبا والسودان، وحركات تحرر مثل حركة المقاومة الإسلامية (حماس) وحركة الجهاد الإسلامي في فلسطين والجبهة الشعبية -القيادة العامة، وحزب الله في لبنان، وغيرها. ومن الواضح أن ما يجمع هؤلاء «الإرهابيين» هو تعارضهم مع المصالح الغربية، الأمريكية منها والأوروبية و«الإسرائيلية». ومن الطريف أن منظمة التحرير الفلسطينية كانت على رأس قائمة «الإرهابيين»، فلما رضخت لكل ما يريده «الإسرائيليون» أصبح عرفات من دعاة السلام العالمي ومنحت المنظمة صكوك الغفران. فهل هذا هو المطلوب من القوى الإسلامية ليمحو عنها الدكتور السعيد تهمة الإرهاب؟ وهل يرضى الدكتور السعيد لنفسه أن يوظف قلمه في خدمة الجهاز الإعلامي الأمريكي؟!

إن نظرة خاطفة إلى الأحداث الدولية تكشف أن أمريكا تمارس إرهابا عالميا بشعا بحق الشعوب، وليقرأ الدكتور السعيد كتاب العالم اللغوي والباحث اليهودي الأمريكي ناعوم تشومسكي حول الإرهاب، فهو كاتب لا يتهمه أحد بـ «الإصولية أو التأسلم». هل نذكر ليبيا وكوبا ونيكاراجوا وسائر دول أمريكا اللاتينية والسودان وإيران. وتزداد أمريكا إمعانا في إرهابها كلما اتسعت دائرة المنصاعين الخائفين من الصاق سمة الإرهاب بهم وحاولوا غسل أنفسهم من هذه التهمة الجاهزة بأي ثمن. وما تمارسه «إسرائيل» بحق الشعبين اللبناني والفلسطيني، ليس سوى إرهاب سافر تستخدم فيه كافة الأساليب من الاغتيال السياسي والقمع الفكري والتشويه الإعلامي والقصف العشوائي بالأسلحة الممنوعة دوليا والاعتقال العشوائي والطرد والأبعاد ..الخ. أفلا يصب اتهام المدافعين عن الأمة في وجه هذا الإرهاب «الإسرائيلي» في خدمة هذا الإرهاب؟

ويعترف كل المفكرون في العالم بأن محاولات تغيير النمط المعيشي أو الثقافي لشعب من الشعوب أو أمة من الأمم بالقوة ـ مادية كانت أو معنوية ـ هو نوع من الإرهاب وحروب الإبادة، بل تنص منظمة اليونسكو على ذلك في لوائحها. ويعزو الباحثون بعض أسباب تقلص عدد الهنود الحمر في الولايات المتحدة الأمريكية إلى حروب الإبادة الثقافية التي مارستها عليهم الحكومات الأمريكية، بعد أن وضعت

البنادق الموجهة إلى صدورهم جانبا، فهل علينا أن ننتظر مصيرا كمصير الهنود الحمر؟

إن الحالة الإسلامية تكاد تقف وحيدة في ساحة المواجهة والدفاع عن حضارة الأمة ووحدتها وحريتها، بدءا من فلسطين التي يقاتل فيها الإسلاميون مشروع محو الهوية العربية لفلسطين وتحويلها إلى كانتون «إسرائيلي» وجسر لعبور الأطماع الصهيونية إلى العالم العربي والإسلامي، مرورا بالسودان التي تحارب ضد تقسيم السودان وإنشاء جيب معاد للعرب والمسلمين في جنوب السودان لا يهدد السودان وحدها بل يهدد مصر في منابع النيل، الذي لا أدري كيف سيكون عليه الوضع في مصر لو تم تقنين وصول المياه إليه أو التحكم بروافده! وحزب الله الذي يقاتل وحده من أجل تحرير الجنوب المحتل من قبل الصهاينة، والحركة الإسلامية في مصر التي تساهم بفعالية في مقاومة الغزو الصهيوني لمصر اقتصاديا وثقافيا وتكنولوجيا، ذلك الغزو الذي ما زال مستمرا ضد الشعب المصري بوسائل متنوعة من دودة القطن إلى التخريب الأخلاقي والثقافي، وصفحات الجرائد المصرية مليئة بأخبار هذا الغزو ومخاطره ومنها جريدة الأهالي التي يعتبر الدكتور السعيد أحد أهم كتابها، والأمين العام لحزب التجمع الذي يصدرها.

إن الدفاع عن الأمة واتخاذ الموقف الصحيح تجاه قضاياها المصيرية ومواجهة الأخطار المحدقة بها، يحتم على المثقفين أن يرصدوا مواطن هذا التهديد وعوامل النهوض، وألا يعملوا على تجزئة صف الأمة وتحويل المعركة عن اتجاهها واختلاق أعداء ثانويين، أو محاربة هؤلاء الأعداء الثانويين، في حضور كيد دولي موحد ضد الأمة وهويتها الحضارية التاريخية.

وأخيرا فالحوار أجدى، يا رفعت السعيد، فالقطيعة والإلغاء وتكميم الأفواه هو الذي يؤسس للعنف.

•

الدراسة الحادية والعشرون

لقاء التيارات الإسلامية والقومية والديمقراطية..

فلسطينياً وعربياً

بعدُ عشرات السنين التي شهدت تصارعا بين التيارات القومية العربية والإسلامية والديمقراطية، فإن أجواء من المهادنة بل والمصالحة بدأت تلوح في الأفق، إذ يبدو أن الأطراف الثلاثة قد أنهكت من التصارع، بالإضافة إلى أنها باتت تشعر بأن وجود كل منها مهدد، وبسبب التداخل بينها وشيوعها، وبسبب ضراوة الزحف الإمبريالي وتطوره وتعقيده وتهديده لها جميعها، فقد نضجت الظروف لتواجه حقيقة القواسم المشتركة بينها.

في نهايات القرن الماضي ومطلع القرن العشرين بدت بواعث التجاذب بين التيارين الإسلامي والقومي بريئة وحجم التناقض بينهما محتملاً، وكأن الأمر لا يتجاوز المدارس الاجتهادية في أحيان كثيرة. وفي وقت لاحق، ومع تنامي التيار اليساري الديمقراطي، أخذ الصراع يشتد بين التيارات الثلاثة.

كان على الأطراف الثلاثة أن تدرك أن التناقض الحقيقي هو بينها مجتمعة، من جهة، وبين الاستعمار الذي كان حاضراً بقوة، ملموسة ويهدد الجميع. وكان عليها أن تبني، على هذه الأرضية، تحلفاتها، انطلاقاً من السياسي وليس الأيديولوجي. إذ إن الصراع على خلفية أيديولوجية كان يقود غالباً إلى نتائج مؤداها أن هذا الطرف أو ذاك غير أصيل ومرتبط، وكان يستند إلى رزمة من التوصيفات الجاهزة والأحكام المسبقة. بينما كان على السياسي أن يتفهم معنى التحالفات التي قامت في أحيان قليلة ـ ولكنها مهمة ـ من تاريخ الأمة المعاصر، بين التيارات الثلاث، ولعل أبرزها مرحلة النضال الفلسطيني ضد الانتداب البريطاني والصهيونية قبل نكبة ١٩٤٨، وهي تحالفات استوعبت حقيقة الصراع وضرورة تكاتف أبناء الأمة في مواجهة الغزو الخارجي.

(*) المصدر: أعدت هذه الدراسة عام ١٩٩٤ (ولم تنشر).

وفي الخمسينات والستينات -حتى هزيمة ١٩٦٧- كان التياران العروبي واليساري تحديدا يظنان أنهما حسما التدافع والتصارع لصالحهما وأنهما حققا نفيا مؤكدا للتيار الإسلامي.

كان الغرب يريد المنطقة على صورته، وسوقا له ولسلعه، ولذا شجع على ضرب الإسلام بدءاً من الإطار العثماني المهترىء إلى آخر مؤسسة إسلامية استطاع أن يصل إليها، ويترك بصماته هناك حتى آخر مجاهد إسلامي استطاع محاصرته ومطاردته. لقد شجع الغرب على تفتيت الإطار الإسلامي الجامع، ليس حباً في إطار قومي فاعل وحي، ولكن على أمل الإيغال في التصغير والتجزئة، وعلى أمل ملء ما يمكن أن ينشأ من فراغ أيديولوجي وفكري، وتحقيق الإلحاق الثقافي بالغرب. ولكن الصورة التي أرادها الغرب لم تتحقق إذ فشل في زرع الليبرالية، وقفز فجأة إلى الإقليمي اللقيط متجاوزاً الإطار القومي، مانعاً له ومحارباً، فالاستعمار يريد أن تعود المنطقة إلى ما قبل الإسلام الذي صهر الأقاليم والطوائف والمذاهب والحضارات الصغيرة والكبيرة في بوتقة واحدة، ومشروع الغرب القائم على منهجية الصراع يريد أن يخترق المنطقة بتمزيقها قومياً وإقليمياً وطائفياً، وبعثرتها إلى مكوناتها الأولى قبل الجامع الإسلامي الكبير.

دور التيار اليساري في هذا المجال كان متميزاً في التأثير على التيار القومي، ورفده بالمفاهيم العلمانية، أو تشجيعه على تبنيها، وبالتالي توسيع شقة الخلاف بين القومي والإسلامي، بالإضافة إلى جهود الغرب الذي استطاع أن يسقط بعض الاتجاهات القومية في براثن العلمنة التي تدعو إلى محاربة الدين وشطبه من واقع الحياة، ولكنه كان يحاول فرض دولة التجزئة القطرية إلى جانب العلمنة، مما وسع من حجم التناقض بينه وبين التيار القومي الذي ظل مصراً على دعوته إلى الاستقلال والوحدة، وهكذا في حين سقطت القوى القطرية تماما تحت حوافر الغازي وفي أحضانه، فقد وقف التيار العروبي وخاصة التيار غير المتغرب، في وجه الغرب الاستعماري كما وقف التيار الإسلامي، رغم استمرار التصارع والتدافع بين التيارين حول أولوية العروبة وجامع اللغة والتاريخ كأساس والجغرافيا كمناط،

هذا بالنسبة للتيار القومي العربي، وحول أولوية العقيدة والأيديولوجيا والهوية وتطبيق الشريعة بالنسبة للتيار الإسلامي، ولكن مع تقدم الغازي الأجنبي وتعقد أساليبه وتطورها بات واضحاً لكل من التيارين أنه ليس فهم وتحليل وتفسير كل منهما هو المهدد بالتغييب، ولكن وجودهما معا هو المهدد. إن استمرار الإسلام كعقيدة، والعرب كقوم وأمة أصبح على المحك.

ولكن حجم الخلاف بين اليساري والإسلامي كان أعمق وأشمل، بسبب اختلاف الرؤى الأيديولوجية.. ولكن سياسياً، وهذا هو الأهم، كان بسبب عالمية الدعوة اليسارية والدعوة الإسلامية، مما أدى إلى فهم خاطئ لطبيعة العالمية، فقد انتمى كل من التيارين إلى محيطه العالمي على حساب محيطه القومي، مما غيب عنه تبصر الساحة التي يعمل عليها، وأدى به إلى خوض معركة ليست هي معركته، والتغيب عن ساحة المعركة التي كان يقف عليها.

ولكن نقطة التدهور التي بلغتها مسيرة التراجع في التجربة المعاصرة للأمة أنضجت في وعي الجميع أشياء كثيرة: أصبح الخلاف المذهبي ترفاً تأباه المرحلة ويستهجنه منطق التاريخ، وتواترت دروس التجارب كي تؤلف إدراكاً متزايداً بوجوب طرح الأسباب التي تصنع الفجوة بين إرادات تتقاطع موضوعياً في الطموح إلى تغيير ما آلت إليه الأوضاع. فقد مرت الأمة في السنوات الأخيرة بعدة ظروف، لم يكن ممكناً لأحد القفز عليها أو تجاهلها، في سياق عمله السياسي.. وأهمها: ضرب القدرة الاستراتيجية العربية في حرب الخليج، وانهيار النظام العربي، وذهاب النخب الحاكمة إلى التسوية ثم إلى التطبيع، وانهيار الاتحاد السوفياتي والمعسكر الاشتراكي، بالإضافة إلى الحروب ضد المسلمين التي أخذت أبعاداً عالمية، وكأن هناك حرباً عالمياً تخاض ضد المسلمين، مما أعطى دفعاً للبعد الإسلامي وبالتالي دفع الإسلاميين إلى توسيع تحالفاتهم ـ ودفع التيارات الأخرى إلى البحث عن أسباب هذه الهجمة ضد الإسلام، الذي أصبح ـ بفعل ذاتي كامن في ثوريته وبفعل إرادة غربية تنحو إلى استبدال الخطر الشيوعي بالخطر الإسلامي ـ يتصدر واجهة الفعل السياسي.

فلسطينياً، شكلت الانتفاضة مخرجا حيويا للمشروع الوطني ككل، ومدخلاً لصياغة وعي سياسي جديد، إذ كانت الانتفاضة مناسبة ملزمة للتيارات الثلاثة لتعيد النظر في مواقفها المسبقة وصورتها عن الآخرين، وفرضت طبيعة المعركة الشعبية المفتوحة مع العدو، والتداخل الميداني بين الجميع، فرضت عليهم إقامة تحالفات وعلاقات بعيداً عن منهجية التكفير والاستثناء والنفي، واكتشفت الأطراف المختلفة أن نقاط التقاء تجمعها مع بعضها بغض النظر عن انتمائها الأيديولوجي، وأن الإسلامي المناضل أقرب إلى اليساري أو القومي من اليساري والقومي الذي يذهب نحو التسوية والاتفاق مع العدو. وكان إنشاء تحالف الفصائل العشر، ومن ثمة تحالف القوى الفلسطينية، إعلاناً عن بدء مرحلة جديدة في تاريخ العلاقة بين التيارات الثلاثة، ليس على الصعيد الفلسطيني فحسب، وإنما على الصعيد العربي أيضاً. لقد ضم تحالف القوى الفلسطينية، لأول مرة، اتجاهات إسلامية وقومية ووطنية ويسارية.. وكانت لحظة لقاء هذه القوى جميعا «لحظة إشراقة» في الحركة السياسية الفلسطينية، فقد أبدت الأطراف المختلفة قدراً كبيراً من الرغبة في تجاوز حساسيات الماضي، وفي الإقلاع عن عادة التهيب والتوجس مما يمكن أن يضمره الواحد للآخر.

لقد جسدت الانتفاضة ـ الثورة وحدة الشعب وقواه الفاعلة على الأرض فرغم الخلافات الفكرية والسياسية بين أطراف عدة إلا أن الجميع وجه جهده وضرباته باتجاه العدو مما نزع فتائل تلك الخلافات ليعطيها حجمها الحقيقي أمام عدو شرس يسعى للقضاء على الجميع. إن مراهنة العدو على شق الصف الفلسطيني في الداخل كانت على الدوام جزءاً أساسياً من مخططاته لإجهاض الانتفاضة ـ الثورة، فحاول التركيز على بعض الانقسامات والصدامات العابرة بين القوى السياسية الفاعلة خاصة بين بعض الإسلاميين من جهة وقوى وطنية من جهة أخرى، ولكن شعبنا المجاهد وقواه السياسية الفاعلة كانت تفوت الفرصة على العدو، فقد التزمت معظم القيادات في النهاية بالإجماع الشعبي عندما رأت تصميم شعبنا على مواصلة انتفاضته بلا تراجع كما استطاعت القوى السياسية وأمام النبع الأخلاقي الهائل للانتفاضة أن تجد حلاً أو أخر لخلافاتها.

لقد احتفظنا كل على حدة بموقفه الأيديولوجي وتجاوزنا هذا الأمر إلى التعاون والتنسيق الأرحب على المستوى السياسي، رغم التباينات على المستوى السياسي.. إلا أننا وجدنا قاسما مشتركا وبرنامجا وطنيا يمكن أن نخوض على أساسه النضال ضد المؤامرة التي تواجهنا وهذه مهمة الإسلامي وغير الإسلامي.. ولا يجوز أن يفرط الإسلاميون في الوطنيين ولا يجوز أن يفرط الوطنيون في الإسلاميين فليس هناك فصيل قادر على خوض المعركة بمفرده. ولكننا لم نحسم هذا التحدي أو نتجاوزه بعد، أي لم نتمكن من تحويل تحالف القوى الفلسطينية، أو تحالف مختلف التيارات إلى قائد حقيقي للشعب الفلسطيني وللانتفاضة، واعتقد أن مصداقيتنا يجب أن تعمل بقوة لاستقطاب كل شرائح الشعب الفلسطيني بحيث يكون هناك «استنهاض» للكتلة الأساسية وهي الشعب الفلسطيني بداخل فلسطين المحتلة ضد المؤامرة، دونما إهمال لدور الشتات.

إن هذا الإحساس وهذا الوعي أعادنا جميعا إلى نقطة هادئة، مهمة، وموضوعية للبدء بعيدا عن صخب التدافع والتصارع، فقد بات مدركاً، اليوم، من كل التيارات الثلاثة، مدى الإمكان النضالي لها مجتمعة، ومدى التداخل التاريخي والحضاري بين العروبة والإسلام، فلقد عاشت الأمة ثلاثة عشر قرنا لا تعرف إلا الترادف بين مصطلحي العروبة والإسلام. وهي اليوم مهددة في صميم هويتها وفي معنى وجودها، أمام مشاريع الشرق أوسطية، وأمام محاولات دخول إسرائيل في جامعة الدول العربية! أو تغيير اسم هذه الجامعة. وبالإضافة إلى أن الإسلامي مهدد في عقيدته عبر حشره في خانة التهمة الجاهزة: الأصولية والتطرف، فإن القومي مهدد بنفي العروبة ومنع حلم الوحدة، والديمقراطي محارب في صميم مشروعه الديمقراطي عبر حماية النظم الديكتاتورية والمحافظة على التخلف والتبعية بقوة التسوية ومستحقاتها. نعرف أن مرارات وخسارات سنوات وساحات التصارع بين العروبي والديمقراطي والإسلامي كبيرة، ولكن علينا ألا نجمد عند هذا الماضي القريب وجنونه وجموحه، بل ننطلق إلى المستقبل ونحن نخرج من هذا الماضي بتجربة ودرس الاخطاء والمعوقات التي لابد من تجاوزها إن أردنا أن نستمر في

الحياة وأن تكون لنا رسالة في هذا العالم. وهذه نقطة انطلاق لفهم حق التعددية والمشاركة السياسية للجميع، وضرورة تغليب المصلحة العامة على المصالح الفئوية.

إن الحوار الفكري يجب أن يستمر في حين يبقى الاجتماعي قابلا للتنوع حتى داخل نفس التيار، أما السياسي فهو مدخلنا اليوم إلى التوحيد في مواجهة الغرب.. وتأتي فلسطين في قلب هذا السياسي رغم أنها لا تنفصل عن كافة الأبعاد الأخرى من فكري واجتماعي وحضاري.

فلسطين أيديولوجيا هي الزمن العربي والإسلامي المعاصر، بل عنوان نضال الإنسان، فهل هناك ما هو أدعى للتوحيد والنهوض؟

إن فلسطين بحكم حضورها في مركز التحدي الغربي الاستعماري لشعوبنا وأمتنا، وبحكم حضورها أيضا وتاليا في مركز المشروع الإسلامي ستبقى رمزا أو دالة على حريتنا أو عبوديتنا واستقلالنا أو تبعيتنا، نهضتنا أو تخلفنا، دالة على التزامنا الإسلامي أو خسراننا وربما على إيماننا أو عدمه.. ومن هنا يصبح الالتزام بفلسطين هو القاسم المشترك الأعظم عربيا وإسلاميا وديموقراطيا أيضا، لأن الالتزام بفلسطين يعني أكبر مشاركة شعبية على المستوى الفلسطيني والعربي والإسلامي، إن هذه المشاركة الواسعة تعني إثراء الحياة السياسية بالنسبة للمستويات المذكورة، فليس معقولاً أن يكون هناك التزام حقيقي للشعب الفلسطيني بقضيته دون المشاركة الكاملة في الفعل والتفاعل السياسي من حولها، وهذا تعميق لمسيرة التشاور والديموقراطية، وليس معقولا أن يكون هناك التزام عربي مغربي أو عراقي -على سبيل المثال- بالقضية الفلسطينية دون مشاركة الشعب العربي المغربي أو العراقي في الفعل والتفاعل السياسي من حول فلسطين، وهذا يستدعي حضور أشكال وأطر وممارسة ديموقراطية تسمح لهذه الشعوب بتقديم مساهمتها ومشاركتها الجادة والحقيقية، وليس معقولا أن يكون هناك التزام إيراني أو باكستاني أو تركي دون أن نرى شعوب هذه البلدان تندفع في المشاعر دفاعاً عن فلسطين، وهذا يعني حضور الديموقراطية نظرياً وعملياً.

إن العمليـة والممارسة والخطاب الديموقراطـي مسألة في منتهي الأهـمية، خاصة كلما كان الأمر يتعلق بفلسطين، فالتعـامل غير الديموقراطي مع مسألة الانتفاضة هو الذي حولها إلى مجرد حـالة فلسطينية، وهو الذي جرجرها من الشـارع الفلسطيني العام إلـى دهاليز الأحـزاب والتنظيـمات، وهو الذي جـعل الرسميـين يستسـهلون التعامل مـعها كمـشروع للاسـتثمـار العاجـل والسريـع لا كمشروع اسـتراتيـجي للتحـرير ورأس رمح لقيام عـربي وإسلامي شامل، والتـعامل غير الديمـوقراطي مع الانتفاضـة هو الذي هيأ لبـعض الأنظمة قمـع شعوبها التـي خرجت للتضـامن مع الشعب الفلسطيني.

إن الالتـزام بالديموقـراطية يعـني مزيدا مـن الالتزام بفـلسطين، يـعني المشـاركة الأوسع، أي الديموقراطية.

وأخيراً، ونحن نشهد يقظة الوعي لدى مختلف التيارات باتجاه العودة إلى الينابيع تصالحا وتوحيدا، لابد أن نلحظ الأسس التالية:

١ - الصراع مع التحالف الغربي ـ الصهيـوني ـ يمس كينونة الأمة ووجودها وهويتها وحقها التاريخي في وطنها وبلادها وقرارها المستقل.

٢- بدون حسم الصـراع على فلسطين فكـل محاولات الأمة للنهضـة والاستقلال ستجهض، أو تحاصر أو تـدفع الأمة تكاليفها مضاعفةً من الـتضحيات والزمن على السواء

٣- في حين يمـكن أن نختلـف حول طريقة إدارة الـصراع على المسـتوى التكتـيكي فلابـد من إجـماع حول أهـداف وقضـايا الأمة الاسـتراتـيجـية الكـبرى مـثل فلسطين.

٤ ـ على التيارات العـروبية والإسلامية والديمقراطية أن تؤكد الـتزامها بأن الصراع مـع الخارج لـه الأولـويـة المطـلـقة وأن الاخـتـلافـات الداخـلـية الـسيـاسيـة والأيديولوجية تحل بالحوار بعيدا عن أي عنف.

٥- ليس من تلازم ضروري بين العروبة (القومية العربية) والعلمانية، فالعلمانية التي تعني فصل الدين عن الدولة حقيقة غربية لا تتطابق مع واقعنا العربي الإسلامي. فالقومية العربية تختلف عن القومية الغربية في مضمونها ونشأتها، كما أن الإسلام يختلف عن الكنيسة في مضمونه ودوره وآلية عمله، وبالتالي ليس بالإمكان نسخ تجربة الكنيسة مع البرجوازية الأوروبية والقوميات الأوروبية وتطبيقها على الواقع العربي الإسلامي بلا أي سند تاريخي أو اجتماعي.

العلمانية موقف منفصل عن الموقف القومي، وليس من داعٍ لافتعال رابط لا أساس منطقياً له.

٦- وكما هو مطلوب من التيار القومي والديمقراطي إعادة قراءة الحركة الإسلامية دون الإحالة على الخارج، فالحركة الإسلامية مطالبة بنفس الشيء ومطالبة بإعادة تقييم بعض التجارب القومية والديمقراطية، وتعميق تحالفاتها السياسية مع القوى الوطنية الجادة لأجل خلق جبهة عريضة في مواجهة نظام القطرية والتبعية الذي أصبح أداة طيعة في أي تشكيل أو مصير يراد للمنطقة سواء على شاكلة شرق أوسط جديد أو غيره من تصورات الغرب الاستعماري للمنطقة.

٧- إن قيام أي تيار هو تعبير عن قوى اجتماعية موضوعية، لا يمكن مصادرتها أو إلغاء دورها أو شطبها أو تهميشها بقرار ذاتي، ولا يمكن أن تجر أي ممارسة كهذه سوى إلى سيادة علاقات العنف والتشاحن الداخلي، مما يعقد الحياة السياسية والاجتماعية ويهدر جهود الأمة في معارك مفتعلة وغير مبررة.

٨- حقوق الإنسان، التنمية والتعددية، عناوين يجب أن تحظى بعناية ورعاية جهد الحركة الإسلامية، كما الحركات الأخرى.

٩- إن تحديد المواقف هو الضمانة لعدم الإنزلاق. إذ علينا أن نحدد مسطرة ثابتة تحكم العناصر الثابتة في المنهج السياسي، وفي مسيرة جهادنا، وهذا لا يتناقض مع واجبنا في تعزيز روابطنا وتحالفاتنا مع القوى الوحدوية المعادية للصهيونية،

بل يمتنها ويجعلها قائمة على أسس ثابتة ويعطيها الضمانات بأن تحالفاتنا لن تميل مع عصف رياح المتغيرات في السياسات.

١٠- في المسألة التنظيمية لابد من حوار داخلي..بداخل كل فصيل. هذا الحوار يستلهم التطورات المهمة على مختلف الصعد، ويستلهم تراث الشعب والأمة بحيث يحصل على فكر نقدي وتجديدي وحقيقي وهذا يتطلب وعاء متجانسا لأن العلاقة بين الفكر والتنظيم هي «علاقة جدلية». فليس بالإمكان حمل الفكر الثوري بوعاء أو بتنظيم غير ثوري. وليس بالإمكان حمل فكرة صحيحة وسليمة بوعاء أو بتنظيم غير صحيح يعاني من الأمراض العديدة.. أي أننا بحاجة إلى ثورة ثقافية وتنظيمية في صفوف المعارضة الفلسطينية.. وإضافة إلى التجديد الفكري التنظيمي، فلا بد من قراءة الواقع الذي نعيشه قراءة واعية ومستبصرة لتقديم الإجابات الحقيقية والشافية عن المعضلات الحقيقية.

١١- في نفس الوقت الذي يجب أن ينتهي فيه التناقض الوهمي بين العروبة والإسلام فإن القوة القومية والوطنية مطالبة بالاعتراف بدور الإسلام التاريخي والمعاصر والمستقبلي كعقيدة ونمط حياة لمعظم جماهير أمتنا، وأن قوة الإسلام هي القوة الرئيسية التي ما زالت واقفة ومرشحة لمواصلة الصراع مع الغرب ومشروعه في الهيمنة والسيطرة، وأن هذه القوة هي المرشحة لقيادة تحالف المستضعفين والمظلومين في العالم أجمع خلال العقود القادمة من أجل عالم أكثر عدالة.

الدراسة الثانية والعشرون

مركزية فلسطين والمشروع الإسلامي المعاصر

تقديم:

القضية الفلسطينية هي بدون شك أهم قضايا الوطن الإسلامي في هذه المرحلة من تاريخه، فعبر أربعة قرون كاملة ـ حتى الآن ـ كان تأثيرها يشمل كل الساحات العربية والإسلامية القريبة منها والبعيدة عنها، عبر أربعة عقود كاملة كان مايجري في فلسطين مصدر ألم عميق لكل المسلمين في العالم ومصدر جيشان عاطفي غلاب بالنسبة لهم، وبقي (تحرير القدس) حلماً مشتركاً لمليار مسلم رغم اختلاف مواقعهم الجغرافية والفكرية ورغم اختلاف لغاتهم وأعراقهم. عبر أربعة عقود من التعامل مع فلسطين صعد الكثيرون من الحكام أو هبطوا، تغيرت أنظمة وهيمنت اتجاهات فكرية وحزبية، أو تراجعت، كما سقط مئات الألوف من الشهداء وأهدرت ثروات الأمة باسم فلسطين أو رهنت مقدراتنا مرة للغرب الشيوعي ومرات للغرب الرأسمالي، وتم إلحاق أجزاء من الوطن الإسلامي بهذا الحليف أو ذاك المحور، فيما أفضل أبناء الأمة يدفعون إلى السجون والمعتقلات أو يعلقون على أعواد المشانق.

القضية الفلسطينية أهم قضايا المسلمين اليوم، كيف يمكنهم أن يتعاملوا معها وأن يطرحوا رؤيتهم لها؟ كيف يمكن أن يجعلوها هماًحقيقياً بالنسبة لهم؟ كيف يمكن أن يفهموها ويعوا أبعادها ويجيبوا على الأسئلة الساخنة فوق ساحتها؟ هل كان عبثا ـ على سبيل المثال ـ أن يقدم الغرب وعد بلفور في الوقت الذي كان فيه الغرب يدمر بنيان الدولة العثمانية ويجتاح المنطقة عسكرياً إثر الحرب العالمية الأولى وبعد أكثر من قرن من التغريب المتواصل والنهب الاستعماري؟ هل كان عبثاً أن الذين طعنوا دولة الخلافة من الخلف وعملوا على إسقاطها خدمة لبريطانيا وفرنسا هم

(*) المصدر: نشرت هذه الدراسة ككتاب محدود التوزيع عن شركة بيت المقدس ـ بيروت (حزيران ١٩٨٩).

الذين استمروا يحكمون الوطن الإسلامي بمنطق التجزئة وداخل حدود سايكس بيكو.. وهم الذين قامت إسرائيل على أكتافهم وأمام أبصارهم ولم يفعلوا سوى الهرب أمام آلاف من اليهود عام ١٩٤٨؟ هل كان عبثًا أن الأنظمة التقدمية الثورية والتي حاولت مابين النكبتين (١٩٤٨ـ ١٩٦٧) سحق عقيدة الأمة وفصم عرى انتمائها العقائدي والحضاري التاريخي هي التي أضاعت القدس وأوصلت إسرائيل إلى ضفةالأردن وشاطيء السويس، وليس بعيداً عن دمشق الشام؟ كما أنها هي نفس الأنظمة التي خرج منها زعيم أكبر العواصم العربية ليركع أمام إسرائيل متاجراً بالعقيدة والتاريخ والأرض. على مدى العقود الماضية كانت القضية الفلسطينية ميداناً للبحث والدراسة لكل الأيديولوجيات اللاإسلامية في المنطقة، فيما المحاولات الإسلامية لوعي القضية وإدراك أبعادها بقيت عاطفية بسيطة حركها ذلك الارتباط الرائع والمأساوي في وقت واحد بين فلسطين والمسجد الأقصى، دون إدراك للأبعاد الإلهية التي حملها ذلك الارتباط والتي أعطت لفلسطين خصوصية تميزت بها وتفردت. وقلما نجد ـ بل إننا على وجه التحديد لا نجد ـ في المكتبة الإسلامية دراسة تاريخية جادة وشاملة لفلسطين من منظور إسلامي، وكل مابين أيدينا الآن لا يتعدى مجال الوعظ والخطب المنبرية حول حقنا بفلسطين (وقف المسلمين وأرضهم المغتصبة) وضرورة تحريرها. ومانلحظه من دراسات إسلامية بدأت تظهر أخيراً ورغم مايبشر به من خير إلا أنها تبقى جزئية لا تفي بالغرض المطلوب الذي يجب أن تتوافر له الجهود والطاقات الإسلامية. وبداية الجهد وربما أهمه أن يتحول الموضوع الفلسطيني إلى هم داخلي للحركة الإسلامية تمارسه وتحياه وتعيشه معايشة يومية، فلا يقف فيه المسلمون موقف المتفرج فيما تدور الأرض والزمن والتاريخ.

إن تحويل الموضوع الفلسطيني إلى همّ إسلامي داخلي أمر في منتهي الأهمية والخطورة، سواء بالنسبة لمستقبل فلسطين أم مستقبل الحركة الإسلامية. وقناعتنا أن ذلك ـ على أهميته وخطورته ـ لا يحتاج إلا لقرار سياسي فقط!! يحول اهتمامات كوادر الحركة الإسلامية وقواعدها إلى ميدان المعركة الحقيقية بدلاً من ميادين

وهمية تستنفد الجهد والطاقة، وقناعتنا أن الظروف الموضوعية ناضجة بما فيه الكفاية للتفاعل مع قرار كهذا وتحقيق قفزة واسعة ونقلة بعيدة ومهمة في تاريخ الحركة الإسلامية. والدراسة التي بين أيدينا محاولة لوضع المأساة الفلسطينية في مكانها الطبيعي في مسيرة الحركة الإسلامية من خلال تحويلها إلى همّ حقيقي يحركه القرآن والتاريخ والواقع، وهي مشاركة بسيطة لن تغني عن مزيد من الدراسة والتحليل.

مركزية القضية الفلسطينية

كانت جحافل الغرب الاستعماري تتقدم باتجاه الوطن الإسلامي، فثورة الغرب الصناعية تحقق نتائج علمية ومادية باهرة تصعد إلى أوجها، والحقد الصليبي القديم لم يبرح صدر الغرب ولم يغادر دمه، وهكذا تقدم الغرب في ظل العنف المسلح الذي كان ضرورياً وأساسياً لتحقيق أهدافه، ولكنه لم يكن كل شيء في عملية اقتحام الغرب للبيت الإسلامي، لم تكن السيطرة العسكرية والسياسية والاقتصادية بقادرة على حسم المعركة، فقد بقي للأبعاد الحضارية والثقافية الدور الحاسم والكلمة النهائية لأن خلاص هذه الأبعاد وتحررها من تأثير المستعمر يجعلنا قادرين على النهوض وإفشال كل أشكال السيطرة الأخرى، سواء العسكرية أم السياسية أم الاقتصادية. ولذلك عمد الغرب إلى (شن حربه الشاملة) ضد الوطن الإسلامي وتكريس (القابلية للاستعمار) في نفوسنا، وتدمير منابع القدرة الداخلية، وذلك بتحطيم المكونات العقيدية والفكرية والحضارية للمجتمع الإسلامي وتغيير أنماط المعيشة والإنتاج فيه بما يخدم مصالحه ويحقق التبعية له.

لقد كانت حرباً شاملة، معركة شرسة تقدمت فيها جيوشه على محورين:

المحور الأول: وتضمن ثلاث مراحل:

١ ـ إسقاط النظام السياسي الإسلامي وإنهاء دولة الخلافة، فبعد أكثر من قرن من الوجود الاستعماري الغربي في المنطقة الذي شكلت الحملة الفرنسية طليعته، نجحت الهجمة الغربية في إسقاط الدولة العثمانية، آخر الدول الإسلامية ورمز الوحدة الإسلامية لقرون عديدة.

٢ ـ تدمير المؤسسات الإسلامية القائمة سواء كانت بقايا موروثة من أجهزة الدولة العثمانية أم جمعيات ومعاهد إسلامية.. تلك التي كانت من الممكن أن تشكل قوارب النجاة باتجاه التكتل من جديد لإعادة الخلافة، ولم يكتف الغرب وتلامذة هجمته بذلك، فقد عملوا على خلق مؤسسات موازية ومعادية، كانت محاكاة مشوهة وناقصة لمؤسسات الغرب.

٣ ـ محاولة تدمير العقل السليم وحشوه بمفاهيم الغرب ليقطع كل طريق على عملية التفكير في إعادة الخلافة، فمجرد تدمير المؤسساتَ الإسلامية وبقاء العقل الإسلامي في يقظة كفيل بمحاولة البدء من جديد وكفيل بنجاح المؤسسات الإسلامية والتنظيم الإسلامي من جديد.

المحور الثاني: ويتضمن ثلاث مراحل موازية للمراحل السابقة من جانب ومتممة لها في نفس الوقت من جانب آخر:

١ ـ **التجزئة**: وتفتيت الوطن الإسلامي الواحد إلى عشرات الأقاليم والوطنيات حتى أصبحت حدود سايكس بيكو هي الحدود الشرعية التي يحافظ عليها كل إقليم وأعطت المبرر لعلم جديد ونشيد وطني جديد في كل قطر، ورغم أحلام الوحدة التي انتشرت بعد ذلك إلا أن الانتقال إلى الصراعات القومية والإقليمية والحدودية المدمرة أصبح ظاهرة روتينية.. فقبل أن يمضي على تأسيس وقيام باكستان (بعد انفصالها عن الهند) ربع قرن كانت تنشطر إلى قسمين مستقلين بعد حرب طاحنة ومدمرة، والجزائر منذ استقلالها في صراع حدودي مع المغرب، وتشاد مع ليبيا، وشمال السودان مع جنوبه، وشمال اليمن مع جنوبه، وفي عاصمة واحدة كبيروت صراع دموي بين شرقيها وغربيها وفي كل شطر صراعات وطوائف متحاربة... إلخ.

٢ ـ **التغريب**: والذي بدأ منذ أول يوم للحملة الفرنسية وكان واضحاً في الرسالة الماكرة التي بعث بها نابليون بونابرت للمصريين، وكان كاسحاً في إرسال المثقفين والسياسيين الذين تمت سرقتهم لصالح الغرب وتمت تربيتهم في حضاناته ليتم في النهاية تكريس التبعية للغرب.

٣ ـ إقامة دولة إسرائيل: التي تعتبر أهم وأخطر وأعنف أشكال الحرب الشاملة، وبقيامها واستمرار وجودها في القلب من الوطن الإسلامي تكون الهجمة الغربية قد نفذت أهم وأخطر مهماتها.. فنحن هنا لا نواجه مجرد تحدّ عسكري أومجرد تحد فكري، وإنما تجمعاً استيطانياً عدوانياً في مكان مهم وحساس من الوطن الإسلامي يعطي للصراع كل أبعاده التاريخية والحضارية والعقدية والفكرية إضافة إلى الأبعاد العسكرية والسياسية والاقتصادية. وبقيام إسرائيل لا تصبح ثقافة الأمة فقط هي المهددة بل وجودها برمته، إن إقامة إسرائيل تعني أيضاً تأكيد تكريس كل المراحل السابقة: استمرار غياب النظام السياسي الإسلامي، وتدمير المؤسسات الإسلامية، واستمرار محاولة تدمير العقل المسلم، والتجزئة والتغريب.

وكل هذا جميعه يعطي للصراع مع إسرائيل تلك الخصوصية في فكر الحركة الإسلامية المعاصرة وفي ممارستها أو مانطلق عليه (مركزية القضية الفلسطينية بالنسبة للحركة الإسلامية المعاصرة). وهذا ليس شعاراً مجانياً التقط من بين خيارات متعددة وليس رفعاً لأهداف آنية أو مرحلية ولكنه الشعار الاستراتيجية التي فرضها التقاء تاريخنا الحديث والمعاصر بالمطلق القرآني (كما سنرى تفصيلاً).

فإذا كانت مهمات الحركةالإسلامية المعاصرة قد حددتها تحولات تاريخنا نحو مواجهة نتائج التحدي الغربي الحديث في التغريب والتجزئة وإقامة الكيان الصهيوني، وإذا كان الكيان الصهيوني واستمراره قد أصبح يمثل مركز التحدي ومركز الهجمة الغربية وضمانة لاستمرار هيمنتها على واقع التقسيم والتبعية والتخلف، فإن على كل أجنحة الحركة الإسلامية وعلى ملايين جماهير الأمة في كل مكان أن تمد خطاً مستقيماً من قلب جبهتها المتقدمة في معركة النهضة وفي كل إقليم من أقاليم الوطن الإسلامي، نحو المركز.. نحو القدس. إن جماهير الأمة تحمل في داخلها وجعاً خاصاً من أجل فلسطين، وذلك لأن حسها التاريخي والعقائدي يخبرها بأن هناك.. على ذلك الشريط الصغير من شرق المتوسط، تقع نقطة الصدام المركزية.. وهناك ستحسم معركة تاريخنا المعاصر. إن الوحدة على

فلسطين هي وحدة الوعي بأن بقاء الكيان الصهيوني يعني إفشال كل مشاريع النهضة، ولهذا فإن الجدل حول من أولاً: مواجهة التبعية والتغريب والتجزئة أم مواجهة الكيان الصهيوني هو جدل نظري تحكمه حسابات الربح والخسارة الآنية أكثر من السعي الجاد لبناء استراتيجية متكاملة ومتماسكة لمشروع النهضة الإسلامية المعاصرة. إن الوحدة حول فلسطين هي وحدة التاريخ مع القرآن وهي إعادة الملايين المتقدمة نحو قدرها.. هي وحدة مشروع النهضة كله. وفي القدس ـ جوهر ومركز الصراع الكوني اليوم ـ تتحدد ملامح المعركة الفاصلة بين عباد الله حملة راية الوحي وقيم الوحدة من جهة، وحملة قيم فلسفة الصراع من الجهةالأخرى، بين المتطلعين إلى وجه الله الساعين إليه وبين المتمردين على الله الذين أقاموا في الأرض أبشع نموذج حضاري في تاريخ الإنسانية.

وإن استمرالجدل حول من أولاً؟ فإننا نؤكد أن هذه الخصوصية وهذه المركزية للقضية الفلسطينية لن تعني بحال التقليل من أهمية أهداف ومهمات أخرى للحركة الإسلامية المعاصرة كقيام الدولة الإسلامية ووحدة الحركة الإسلامية وانتصار الثورة الإسلامية العالمية، على العكس تماماً (وكما سنرى من خلال هذه الدراسة) فالتعامل مع القضية من هذا المنظور هو الذي سيدفعنا باتجاه تحقيق هذه الأهداف، إن علاقة تبادلية (جدلية) واضحة وأكيدة هي التي تربط بين القضية الفلسطينية وتلك الأهداف والمهمات.

إن الحركة الإسلامية مطالبة اليوم بأن تعطي لفلسطين خصوصيتها (المنسية) وأن تؤكد على مركزيتها في النظرية والتطبيق (في فكرها وممارستها)، وهي في ذلك لا تنسى لحظة أنها إسلامية ربانية تجعل من مرضاة الله (عز وجل) غايتها القصوى وتجعل من (إحداث البعث الإسلامي في كل الأرض) غايتها الدنيا. كما تجعل هدفها البعيد تجاوز أزمة التحدي الغربي الحديث وحل المشكلات التي يواجهها المسلمون حلاً يتفق مع عقيدة الإسلام وشريعته. أما هدفها القريب فيبقى في إعادة النظام السياسي الإسلامي إلى الوجود بإقامة دولة الإسلام. والحركة الإسلامية في تأكيدها على هذه الخصوصية والمركزية ليست محكومة بمزاج إقليمي أو بمجرد

مصلحة اجتماعية أو وطنية وإنما هي محكومة بأسباب (قرآنية وتاريخية وواقعية شاملة) أوسع وأبعد من أي حدود جغرافية.. أسباب تفرض على هذه الحركة أن تجعل من فلسطين محوراً لنشاطها السياسي اليومي باعتبارها ذروة التماس بين منهج الإسلام ومنهج الغرب، وباتجاه تحقيق الغايات والأهداف السالفة.

البعد القرآني

في القرآن الكريم وفي الأثر النبوي الشريف، في التراث وفي التاريخ الإسلامي تمثل فلسطين وبيت المقدس مكاناً بارزاً وأهمية خاصة لا تخفي على أي قارىء لهذه المصادر، بل إنها تثير الاهتمام وربما الدهشة حين نلحظ الاهتمام القرآني بهذه الأرض المقدسة حتى قبل أن تطأها أقدام المجاهدين المسلمين بسنوات طويلة، بل ومنذ السنوات الأولى للدعوة الإسلامية ـ سنوات الاستضعاف والاضطهاد ـ كان سيد البشرية وقائد الأمة محمد ﷺ يقف متألماً كأشد مايكون الألم الإنساني، معذباً وحيداً فيما غلمان الطائف يشجون رأسه الطاهرويدمون قدميه بحجارتهم فيرفع يديه إلى السماء وقد أنهكه التعب وأدمته الجراح وأرهقته خيبة الأمل من أهل الطائف الذين أسمعوه ماغلظ وسمج من القول .. رفع يديه إلى السماء في صرخة مسكونة بحزن إنساني نادر ليدعو: (اللهم إليك أشكو ضعف قوتي وقلة حيلتي وهواني على الناس، يا أرحم الراحمين، أنت رب المستضعفين وأنت ربي.. إلى من تكلني، إلى بعيد يتجهمنى أم إلى عدو ملكته أمري، إن لم يكن بك على غضب فلا أبالي ولكن عافيتك أوسع لي، أعوذ بنور وجهك الذي أشرقت له الظلمات وصلح عليه أمر الدنيا والآخرة من أن تنزل بي غضبك أو يحل علي سخطك، لك العتبى حتى ترضى ولا حول ولا قوة إلا بالله).

عندما وصل محمد ﷺ إلى هذه اللحظة من الحزن والضعف البشري كان حقاً على الله أن يستضيفه ويكرمه مؤكداً له أنه سبحانه ماتخلى عنه وماغضب عليه، فيحمله (عز وجل) إلى فلسطين في رحلة جليلة عظيمة ومعجزة تؤكد عالمية هذا الدين من خلال هذا الخروج الفذ والارتباط المعجز بين مكة والقدس، بين المسجد الحرام الذي لم يكن قد أصبح مسجداً بعد وبين المسجد الأقصى الذي لم يكن

كذلك أيضاً.. هذا الارتباط الذي سيتأكد عبر قرون تالية. كل هذا بعد رحلة المستضعف البشري لتجيء رحلة بيت المقدس مهيمنة ومسيطرة ولتعطى لمحمد ﷺ من الشفافية والقوة والسمو مالم يصله بشر ولا ملك، كانت ليلة من عمر الزمان أعطت لاندفاعة المجاهدين المسلمين البواسل نحو القدس بعد ذلك بسنوات ـ وبعد ذلك بقرون وإلى الآن ـ شرعية لا تسمو فوقها شرعية وزخماً روحياً هائلاً لا ينضب، في تلك الليلة تأكدت عالمية هذا الدين الذي يحمله ذلك المستضعف الذي أدمى غلمان الطائف قدميه وشجوا رأسه.. في تلك الليلة تأكدت وحدة رسالات الحق ونبي الحق يصلي بالأنبياء.. في تلك الليلة القدسية كان فرض الصلاة عمود الدين ومظهر وحدة المسلمين الأهم، وبعيداً عن تأثير أي عناصر محلية أو إقليمية كان الأمر الإلهي باستقبال بيت المقدس في الصلاة، وهكذا لم ولن يكون عبثاً أن يعطي الإسلام لفلسطين وبيت المقدس هذه الخصوصية منذ سنوات دعوته الأولى، بل وقبل قيام دولة الإسلام في المدينة.

ويتضح هذا أيضاً في آيات قرآنية متعددة خص فيها الله سبحانه وتعالى أرض فلسطين بالبركة:

﴿وأورثنا القوم الذين كانوا يستضعفون مشارق الأرض ومغاربها التي باركنا فيها﴾ (الأعراف: ١١٧).

﴿سبحان الذي أسرى بعبده ليلاً من المسجد الحرام إلى المسجد الاقصى الذي باركنا حوله لنريه من آياتنا إنه هو السميع البصير﴾ (الإسراء: ١).

﴿ونجيناه ولوطاً إلى الأرض التي باركنا فيها للعالمين﴾ (الأنبياء: ٧١).

﴿ولسليمان الريح عاصفة تجري بأمره إلى الأرض التي باركنا فيها وكنا بكل شيء عالمين﴾ (الأنبياء: ٨١).

﴿وجعلنا بينهم وبين القرى التي باركنا فيها قرى ظاهرة وقدرنا فيها السير. سيروا فيها ليالي وأياماً آمنين﴾ (سبأ: ١٨).

﴿ياقوم ادخلوا الأرض المقدسة التي كتب الله لكم ولا ترتدوا على أدباركم فتنقلبوا خاسرين﴾ (المائدة: ٢١).

وفي تفسير ﴿والتين والزيتون وطور سنين﴾ عن أبي هريرة، رضي الله عنه، قال: أقسم ربنا عز وجل بأربعة أجبل فقال: والتين والزيتون وطور سنين وهذا البلد الأمين قال (أبو هريرة): التين طور زيتا. وفي رواية: والزيتون طور زيتا، وقال قتادة، والزيتون جبل عليه بيت المقدس (انظر في ذلك فضائل بيت المقدس لابن الجوزي، ص٧٠، ٧١، وكذلك الإنس الجليل، ج١ ص٦).

وفي الأثر النبوي الشريف مايؤكد على هذه البركة والخصوصية، عن عائشة، رضي الله عنها، عن النبي قال: إن مكة بلد عظيم، عظّمه الله وعظم حرمته وحفها بالملائكة قبل أن يخلق شيئاً من الأرض يومئذ كلها بألف عام ووصلها بالمدينة ووصل المدينة ببيت المقدس، ثم خلق الأرض بعد ألف عام خلقاً واحداً (فضائل القدس لابن الجوزي، ص٧٢).

- وعن مكحول بن ميمونة (مولاة الرسول) أنها سألت رسول الله عن بيت المقدس فقال: (نعم المسكن بيت المقدس ومن صلى فيه صلاة بألف صلاة فيما سواه)، وفي مسند الإمام أحمد بن حنبل(جزء ٦ ص:٤٦٣) إن ميمونة قالت: يانبي الله، أفتنا في بيت المقدس، فقال: (أرض المحشر والمنشر صلوا فيه فإن صلاة فيه كألف صلاة فيما سواه)، وفي الحديث الشريف أيضاً: (لا تشد الرحال إلا إلى ثلاثة مساجد: المسجد الحرام ومسجدي هذا والمسجد الأقصى) (رواه البخاري، جزء ١ ص١٨١، وابن حنبل، جزء ٢ ص٢٣٤).

- وفي مسند الإمام أحمدبن حنبل ٥/ ٢٦٩ قال رسول الله: (لا تزال طائفة من أمتي على الدين ظاهرين لعدوهم قاهرين لا يضرهم من خالفهم ولا ما أصابهم من البلاء حتى يأتيهم أمر الله وهم كذلك، قالوا: يارسول الله، وأين هم؟ قال: في بيت المقدس وأكناف بيت المقدس).

- وعن رب العزة أنه قال لبيت المقدس: أنت جنتي وقدسي وصفوتي من بلادي.. من سكنك فبرحمة مني ومن خرج منك فبسخط مني عليه) (فضائل القدس، ابن الجوزي، ص٩٥).
- وروى المشرف بسنده عن عمران بن الحصين أنه قال: قلت: يارسول الله، ماأحسن المدينة؟ قال: كيف لو رأيت بيت المقدس؟ قلت: وهل هي أحسن؟ قال: كيف لا وكل مابها يُزار ولا يزور وتُهدى إليها الأرواح ولا تهدى روح بيت المقدس لغيرها (الإنس الجليل، ج١ ص٢٣٨).

وفي تراثنا الإسلامي ما لا يعد ولا يحصى في بيت المقدس من أقوال نذكر منها مقالة الإمام علي، رضي الله عنه لصعصعة: (نعم المسكن بيت المقدس القائم فيه كالمجاهد في سبيل الله وليأتين على الناس زمن يقول أحدهم: ليتني تبنة في لبنة من لبنات بيت المقدس).

أما التاريخ الإسلامي فيبدو على مدى أربعة عشر قرناً (قبل أن تسلم القدس مفاتيحها من جديد لدورة حضارية إسلامية جديدة كما سلمت مفاتيحها من قبل لعمر بن الخطاب، رضي الله عنه) أربعة عشر قرناً من سيادة الإسلام ضمن مراكز متناوبة ومتعاقبة من دمشق إلى بغداد إلى القاهرة إلى استانبول، قبل أن تغيب هذه الريادة وتذوي شمس الخلافة ويرد الله الكرة لبني إسرائيل على عبادة المسلمين بما اقترف هؤلاء من الإثم والمعصية والتخلي عن منهج الله وتحكيم البدائل الوضعية.

لقد بعثنا الله في قلب الجزيرة العربية لنواجه في بداية صعودنا إفساد وعلو بني إسرائيل في الجزيرة العربية فنجوس خلال ديارهم ونحقق انتصارنا ودولتنا وحضارتنا ونتسلم مفاتيح القدس وندخل المسجد أول مرة.. ولكن الله عز وجل يرد لهم الكرة علينا بعد أربعة عشر قرناً من الزمان انطلاقاً من القدس ليمنحهم إلى حين علواً وإفساداً إلى أن نصحو من غفوتنا ونعود إلى المنهج الذي يهدى للتي هي أقوم ويبشر المؤمنين، بعد أن نسحق البدائل الضعيفة الوضعية ونتخلص منها إلى غير رجعة فينصرنا الله نصراً مؤزراً يتحقق بهزيمتهم وإساءة وجوههم ودخولنا المسجد الأقصى كما دخلناه أول مرة (وقضينا إلى بني إسرائيل في الكتاب لتفسدن

في الأرض مرتين ولتعلن علواً كبيراً، فإذا جاء وعد أولاهما بعثنا عليكم عباداً لنا أولي بأس شديد فجاسوا خلال الديار وكان وعداً مفعولاً، ثم رددنا لكم الكرة عليهم وأمددناكم بأموال وبنين وجعلناكم أكثر نفيراً، إن أحسنتم أحسنتم لأنفسكم وإن أسأتم فلها فإذا جاء وعد الآخرة ليسؤوا وجوهكم وليدخلوا المسجد كما دخلوه أول مرة وليتبروا ماعلوا تتبيراً) (الإسراء٣ ـ ٧).

ولقد اختلف مفسرونا في تفسير هذه الآيات اختلافاً كبيراً فمنهم من قال إن الله سلط على بني إسرائيل جالوت وجنوده، ومنهم من قال: نبوخذ نصر أو العمالقة، أو سنحاريب، أو أهل فارس أو الروم، ومن قائل العرب، يقول ابن الجوزي في فضائل القدس، ص:١٠٥ (ثم كان آخر ذلك أن بعث الله محمداً فتركهم في عذاب الجزية). ويقول الطبري في تفسيره (١٥/ ١٣٥) (ثم كان ختام ذلك أن بعث الله عليهم هذا الحي من العرب، فهم في عذاب منهم إلى يوم القيامة فهم يعطون الجزية عن يد وهم صاغرون).

كما رجح عند كثير من المفسرين أن اليهود أفسدوا أولاً بقتلهم أنبياءهم (أشعياء) وأن نبوخذ نصر البابلي هو الذي قضي على علوهم وإفسادهم الأول هذا وأنهم أفسدوا على علوهم وإفسادهم الثاني. ونظرة فاحصة للآيات ولواقع تاريخ اليهود قبل الإسلام وبعده ولتاريخ الصراع بينهم وبين المسلمين يؤكد ضعف ماذهبت إليه الروايات السابقة والتي لم ترفع أي منها إلى الرسول ﷺ. وقد نجد عذراً كبيراً لهؤلاء العلماء والمفسرين الكرام الذين عاشوا في ظل دولة إسلامية عظيمة لم يكن اليهود فيها أكثر من ذميين مشتتين وضعاف وما كان ليخطر على بالهم ـ المفسرين ـ أن يضعف سلطان الإسلام وتُمحى الخلافة من الأرض ويأتي زمن على بني إسرائيل (وهم القلة الذليلة) ليعلوا ويفسدوا ويتحكموا في رقاب المسلمين.. بل إننا نجد حكمة عظيمة لعدم إدراك المفسرين قديماً للمعنى والمغزى الدقيق من وراء الآيات لأن إدراك العلو والإفساد الثاني قبل وقوعه (فيما لو تنبه المفسرون الكرام لذلك) كان يعني أن يقف المسلمون أمام هجمة الغرب واليهود على فلسطين والوطن الإسلامي وكأنهم يقفون أمام قدر إلهي، لا حول ولا قوة لهم

بمواجهته وليس أمامهم إلا الاستسلام والتسليم به حتى يتم وتنتهي دورته!! وكان هذا كفيلاً بالقضاء على روح الجهاد والمقاومة الإسلامية الضرورية لاستمرار الدفع والصراع بين المسلمين واليهود ..فحتى لو انتصر اليهود يبقى الدفع الإسلامي وتبقى روح المقاومة كما الجمر تحت الرماد حتى إذا أدركت وفهمت الأمة المعنى الحقيقي للآيات أعطاها هذا قوة جديدة وثقة عالية بربها ودينها ونفسها وتقدمت لتحقيق الوعد الإلهي المنشود.

يقول الشيخ سعيد حوى في كتابه جند الله، ص٤١٦: (يمكن أن نفهم الآن هذه الآيات فهماً آخر غير مافهمه المفسرون قديماً، إن المفسرين لم يكونوا أمام واقعنا الحاضر من علو بني إسرائيل في الأرض وإفسادهم واستيلائهم على بيت المقدس ففسروا الآيات بأنها قد وقعت)، وقبل الحديث عما نستنتجه من مطلع سورة الإسراء نشير إلى رأي لمجلة الأزهر، نقلاً عن كتاب الشيخ عبد الحميد كشك (نفحات من الدراسات الإسلامية): (الثابت أن الإسراء وقع لرسول الله وهو بمكة قبل الهجرة، وسورة الإسراء نزلت في مكة كذلك فهي مكية الآيات.. وقد كان المسلمون يومئذ بمكة قلّة مستضعفين في الأرض يخافون أن يتخطفهم الناس، فلم يكن لبني إسرائيل يومئذ شأن مع المسلمين ولم يكن لهم أثر بمكة ولا خطر يقتضي أن يتحدث الله عنهم في سورة مكية بمثل هذا التفصيل، فما السر أن يخبر الله عن إسرائه برسوله في آية واحدة ـ أول السورة ـ ثم ينقطع بعدها الحديث عن الإسراء جملة إلى آخرها، ويبدأ الحديث عن بني إسرائيل، وماأنعم الله عليهم وعهد إليهم، وعن دور خطير يكون لهم؟؟ وماوجه المناسبة بين هذه الآيات والأحداث؟؟ السر في ذلك أن الله عز وجل يحدث عن الإسراء بقدر مايبشر به نبيّه والمسلمين المضطهدين بمكة، المستضعفين في الأرض بأن أمرهم سيمتد ويعلو وشيكاً حتى تدين لهم عاصمة الشرك وعاصمة أهل الكتاب فهو سبحانه يقول: (سبحان الذي أسرى بعبده ليلاً من المسجد الحرام إلى المسجد الأقصى) ولم يقل من مكة إلى بيت المقدس كما هو الحال، إذ الكعبة يومئذ لم تكن مسجداً وإنما كانت بيتاً تقوم حوله الأصنام ويطوف به العائدون والمشركون ولم يكن هيكل داوود وسليمان في دولة

(يهودا أو إسرائيل) مسجداً، إنما كان بيتاً يأكل بنو إسرائيل من حوله السحت ويعيثون الفساد ولكن الله عز وجل حدث عن هذا الإسراء بأنه انتقال من مسجد إلى مسجد تبشيراً للمسلمين بأن أمرهم سيعلو بحيث يصبح البلد الذي استضعفوا فيه وهانوا، وحلت حرماتهم فيه، مسجداً حراماً ودار أمن وسلام)، ثم يستمر الرأي المنشور في مجلة الأزهر ويورده الشيخ كشك في كتابه على التأكيد في تفسير آية: ﴿فإذا جاء وعد أولاهما بعثنا عليكم عباداً لنا﴾ قائلاً: (لا تنطبق هذه المرة تمام الانطباق إلا على الدور الذي قاموا به على عهد النبي وأصحابه وما عاقبهم الله وسلط عليهم فيه) ص١٠٤، ثم يقول ص١٠٥، ١٠٦ :(هذه هي المرة الأولى لاتنطبق أوصافهم إلا على أصحاب رسول الله).

(أ) فهم يستحقون شرف هذه النسبة (عباداً لنا) لأنهم الموحدون أتباع (عبده) الذي أسرى به، أما أتباع (بختنصر) أو (سابور) أو (سنحاريب).. إلخ، فاضطربت فيهم أقوال المفسرين فقد كانوا عباد وثن لا يستحقون شرف الاختصاص بالله في قوله (لنا).

(ب) وهم الذين وصفهم الله في كتابه بأنهم (أشداء على الكفار رحماء بينهم).

(ج) وهم الذين لم يكلفهم تأديب اليهود إلا أن (جاسوا خلال الديار)، أما أتباع (بختنصر) فقد ذكروا أنه قتل على دم زكريا وحده سبعين ألفاً، وأنه دخل بيت المقدس في أهله وسلب حليه. فهو (اجتياح) وليس (جوساً). ويستمر رأي (الأزهر) على نفس المنوال ليؤكد عنوان المقال (سورة الإسراء تقضي نهاية إسرائيل).

والآن، وبنظرة متأنية نجد الآيات تشير إلى:

١ ـ يعلو بنو إسرائيل في الأرض مرتين مصحوبتين بإفساد ومن المؤكد أن العلو الذي عاشوه في ظل بعض رسلهم لم يصحبه إفساد.

٢ ـ ينتج عـن هذا العلو والإفسـاد صراع ودمار وخراب . وفي الوقـت الذي يضع فيه القرآن بـني إسرائيل طرفاً واضحاً وأكـيداً في المرتين، فإنه يؤكـد أيضاً على وجود طرف آخر يتكرر نفسه في المرتين تماماً كما يتكرر بنو إسرائيل كطرف.

وقد ذكر القرآن الـكريم هذا الطرف باسمه مرة واحـدة في أول الآيات (عباداً لنا)، ثم استمرت الإشـارة إليه بضمير الغائب إلى آخر السيـاق تأكيداً على أنه نفس الطرف الذي واجه بني إسرائيل في المرة الأولى، فبعد (بعثنا عليكم عباداً لنا) تأتي الأفعال (فجاسوا)، (رددنا لكم الكرة عـليهم)، (جعلناكم أكثر نفيراً)، أي أكثر مـنهم، (ليسؤوا...)، (ولـيدخلوا...)، (وليتـبروا...) فالضميـر (محل فاعل أو مفعول) يعـود في جميع الأفعال إلى كلمة (عباداً لنـا) التي بدأ بها في الحالين معركة بين طرفين فقط.. نفس الطرفين، بين المسلمين واليهود.

٣ ـ من الواضح أن التـفسيرات الأخرى تشير إلـى مواجهة بني إسرائيـل لأكثر من قوم، فـمرة نـبوخذ نـصر ومـرة سنحـاريب ومـرة الروم ومرة الـفرس وحـتى العرب، وهذا يغايـر ما اقتضته الآيات من أن المواجهة بين طـرفين يتكرران في المرتـين بمعـنى إذا كـان صراع المـرة الأولى مـع الفـرس فصـراع المرة الـثانـية (الأخير) أيضاً معهم.

٤ ـ لم يُعد اللـه سبحانه لليهود الكـرة لا على نبوخذ نصر ولا علـى سنحاريب ولا علـى الفرس ولا علـى الروم ولم يـجعلهـم الله أكـثر نفـيراً من هؤلاء. يـقول الشيخ سعيد حـوى: (الآيات إشارة إلى أن اليهود يصبحون أكثـر نفيراً وماكان اليهـود أكثر نفـيراً من الفـرس، أما الآن فقد اسـتطاعوا أن يـستنفـروا كل أمم الأرض) (جند الله، ص٤١٧). وفي رأي مجلة (الأزهر) (ولم يكن اليهود في يوم ما أكثر نفيراً وناصراً منهم اليوم، ولـم يتمتع اليهود في تاريخهم ولا أنه في الأرض غيرهـم بمثل مايتـمتعون به من كـثرة الناصر لـهم والنافر لجـندهم...) (نفحات من الدراسات الإسلامية الشيخ كشك، ص١٠٦).

٥ ـ لقد رد اللـه الكرة لبنى إسـرائيل على المسلـمين (العرب) كما هـو واضح منذ سقوط القدس وقيام دولتهم واستمرار علوهم وإفسادهم.

٦ـ إن ردة الكرة رغـم أنها تجئ بعـد زمن من القضـاء على الإفساد الأول كـما في (ثم) التي تـفيد العطف مـع التراخي الزمني، فـإن ردة الكرة لن تستـمر طويلاً كما تفيد (الفـاء) في (فإذا جاء وعد الآخرة) والتي تفيد (الترتـيب والتعقيب) أو عندما يـصلون بعد ردة الكرة إلى ذروة عـلوهم وإفسادهم يكون هـذا نفسه إيذانـاً بالقـضاء علـى هذا العـلو والإفسـاد ومن قـبل نفـس العبـاد (عباداً لـنا) وبالـطريقة الـتي حددهـا القرآن، إذلالهـم ودخول المسـجد الذي دخلـه هؤلاء العباد قـبل ذلك في المرة الأولى وهذا ماحـدث في عهد أمير المؤمنـين عمر بن الخطـاب، رضي اللـه عنـه، وهذه الطـريقة فـي الانتصـار كمـا حددها الـقرآن تخـتلف عن الـطريقة الـتي تم بهـا الانتصار أولاً وهـي أن يجوس العـباد ذوو البأس الشديد خلال الديار.

وهكذا، فإن (ثم) التي سبقت رددنا و(الفاء) التي سبقت (إذا جاء وعد الآخرة) تشـيران إلى الواقـع الملمـوس، أي المسافة الـزمنية الـواسعة بـين القضاء عـلى علـوهم وإفسادهـم الأول في الجزيرة الـعربية وبـين ظهورهم وهـيمنتـهم، أي علوهم وإفـسادهم الثاني وكـذلك إلى المسافة الـزمنية القصـيرة التي يستـمرها علوهم وإفسادهم الثاني حتى يحين وعد الآخرة بالقضاء عليهم.

٧ ـ إن فعـل الانبـعاث الوارد فـي مطـلع الآيات يـحمـل من المعـاني والإيـحاءات والدلالات ماينبغي الوقوف عنده، فالفعل هنا يحمل إيحاءات الرضا، والرضا لا يكون من الله عـلى الوثنيين والمشركين وإنما يكون عـن المؤمنين. وقد جاءت كلمـة (بعثنا) في الـقرآن الكريم سبع مـرات كان الفاعل فيـها جميعاً هـو الله وكان المفعول به (أي المبعوثين) هم الأنبياء والمؤمنون الصالحون.

ـ ﴿وبعثنا منهم اثني عشر نقيباً..﴾ (المائدة١٢ :).

ـ ﴿ ثم بعثنا من بعدهم موسى بآياتنا إلى فرعون وملئه..﴾ (الأعراف١٠٣ :).

ـ ﴿ثم بعثنا من بعده رسلاً إلى قومهم فجاءوهم بالبينات...﴾ (يونس٧٤ :).

- ﴿ثم بعثنا من بعدهم موسى وهارون إلى فرعون وملئه بآياتنا..﴾ (يونس: ٧٥).

- ﴿فإذا جاء وعد أولاهما بعثنا عليكم عباداً لنا...﴾ (الإسراء٥ :).

- ﴿ولو شئنا لبعثنا في كل قرية نذيراً...﴾ (الفرقان٥١ :).

وواضح في جميع الآيات السابقة كيف أن كلمة (بعثنا) جاءت في سياق الرضا والمديح والثناء الذي لا يكون لنبوخذ نصر ولا للروم أو غيرهم من غير المؤمنين. كذلك استخدم فعل (بعث) في القرآن سبع مرات بنفس المعنى ـ الرضا والمديح): (كان الناس أمة واحدة فبعث الله النبيين مبشرين ومنذرين..) (البقرة٢١٣ :)، (وقال لهم نبيهم إن الله قد بعث لكم طالوت ملكاً...) (البقرة٢٤٧ :)، (لقد من الله على المؤمنين إذ بعث فيهم رسولاً من أنفسهم...) (آل عمران١٦٤ :)، (فبعث الله غراباً يبحث في الأرض ليريه كيف يواري سوءة أخيه) (المائدة٣١ :)، (أبعث الله بشراً رسولاً...) (الإسراء: ٩٤)، (أهذا الذي بعث الله رسولاً...) (الفرقان٤١ :)، (هو الذي بعث في الأميين رسولاً منهم يتلو عليهم آياته...) (الجمعة٢ :).

٨ ـ إن الطريقة التي تعامل بها الرسول (ص وصحابته الكرام مع بني إسرائيل في المدينة وفي الجزيرة العربية تنطبق تمام الانطباق على ألفاظ: (بعثنا عليكم عباداً لنا أولى بأس شديد فجاسوا خلال الديار).. إنها نفس صفات الصحابة، رضوان الله عليهم ذوي البأس الشديد ونفس أسلوب القتال في داخل ديار اليهود وكان أول صدام مع (بني قينقاع) الذين قالوا له ساخرين عندما دعاهم رسول الله للإسلام:

(يا محمد، إنك ترى أننا كقومك، لا يغرنك أنك لقيت قوماً لا علم لهم بالحرب فأصبت فرصة وإنا والله لئن حاربتنا لتعلمن أننا نحن الناس).. وهؤلاء هم الذين حاولوا مفسدين إجهار سوءة المرأة المسلمة والإساءة إليها وقتلوا المسلم الذي هب لنجدتها فحاصرهم رسول الله زمناً وكان يريد قتلهم

أربعمائة حاسر وثلثمائة دارع لولا تدخل عبد الله بن أبي سلول الذي حاول جاهداً أن يمنع عنهم هذا المصير حتى غضب الرسول أشد الغضب، ثم أمر بأن يخرجوا من المدينة ولا يجاوروه أبداً فخرجوا إلى (أذرعات) بالشام وهلك أكثرهم بها وكان هذا في السنة الثانية للهجرة. وفي السنة الرابعة للهجرة همّ بنو النضير أن يغدروا برسول الله ويطرحوا عليه صخرة ليقتلوه فخرج إليهم وقد تحصنوا بحصونهم معهم النبل والحجارة حتى ظن المسلمون أنهم غير قادرين على إخراجهم، ولكن الله قذف في قلوبهم الرعب فأخرجهم المسلمون من ديارهم وجاسوا خلالها فقطعوا نخيلهم ودمروا حصونهم: ﴿ماقطعتم من لينة أو تركتموها قائمة على أصولها فبإذن الله وليخزي الفاسقين﴾(الحشر ٥ :).

واليهود هم الذين استنفروا الأحزاب وكانوا يومها يعدون ثلاثة آلاف ولكن الله رد الأحزاب على أعقابهم خاسرين وعاد رسول الله إلى المدينة فأتاه جبريل فأمره بالرجوع إلى (بني قريظة) الذين خانوا العهد وألبوا الأحزاب، فسار إليهم وهم متحصنون في حصونهم وحاصرهم خمسة وعشرين يوماً حتى جهدهم الحصار ونزلوا على حكم رسول الله الذي ساقهم إلى خنادق المدينة فقتل كل مقاتليهم وسلب ذراريهم. وفي السنة السابعة للهجرة توجه رسول الله ﷺ إلى خيبر وكانت مدينة كبيرة تقع على بعد مائة ميل شمال المدينة جهة الشام، فجاس خلال ديارهم وفتح حصونهم المنيعة واحداً تلو الآخر إلا حصنين حاصرهما بضع عشرة ليلة حتى أيقن من فيهما بالهلاك، فنزلوا على حكمه بالخروج والإجلاء ولكنهم بعد ذلك سألوا رسول الله ﷺ أن يبقوا في خيبر ويزرعوها ولهم شطر مما يخرج منها فوافق قائلاً: (على أنا إن شئنا أن نخرجكم أخرجناكم) وظلوا كذلك فقتلوا أحد الأنصار واعتدوا على عبد الله بن عمر في عهد أمير المؤمنين عمر بن الخطاب، رضي الله عنه، فأخرجهم من الجزيرة العربية كلها.

٩ ـ تشير الآيات منذ البداية إلى أن الطرف المواجه لبني إسرائيل (عباداً لنا).. وعباداً لنا لا تشير إلى جيوش الوثنيين من فرس وغيرهم وإنما جيوش الإيمان فيستبعد أن ينسب الله إلى نفسه الوثني الأشوري، وفي مطلع سورة الإسراء أراد أن يكرم محمداً ﷺ فنسبه إلى نفسه: (سبحان الذي أسرى بعبده)، يقول الشيخ سعيد حوى: (والآيات أشارت إلى عباد الله ومسجد فالأولى أن نفهم ذلك بالعبودية الخاصة المرتبطة بالمسجد وهذه لم تكن للفرس الوثنيين الذين سلطوا على اليهود أكثر من مرة) (جند الله، ص٤١٧).

وكلمة (عباد) الواردة في القرآن كانت تعني المؤمنين أو عموم الناس.. أما في حالة إضافتها إلى الله فقد كانت تعني في الغالب المؤمنين فإذا جاءت الإضافة في سياق خطاب الله عز وجل عن نفسه (عبادنا.. عبادي) فقد كانت تعني المؤمنين، وقد جاءت كلمة عباد في صدر سورة الإسراء مضافة إلى الله بلام الاختصاص (عباداً لنا) بما يوحي بقوة هذا الارتباط وخصوصيته وفي هذا إشارة واضحة إلى إيمان وصلاح هؤلاء العباد.

١٠ ـ عندما يعيد الله لبني إسرائيل الكرة على عباده يمدهم بأموال وبنين، وكل مراقب يرى أنه بدون هذا الإمداد في الأموال علينا (كَرّة).. فالكيان الصهيوني لا يعتمد اقتصادياً على ذاته رغم تقدمه العلمي والتكنولوجي النسبي وأنه بدون إمداده بمليارات الدولارات كل عام لا يستطيع الصمود والوقوف على رجليه وإن كان المال الخارجي ـ الإمداد ـ ضروريا لاستمرار وبقاء الدولة العبرية فإن الإمداد بالبنين أمر في غاية الأهمية أيضاً وقد كان أس المشروع الصهيوني منذ نهايات القرن التاسع عشر وحتى قيام دولتهم وإلى الآن هو استجلاب المهاجرين اليهود (البنين) إلى فلسطين.. وقد أعدوا لذلك المؤسسات والأموال ودعم الحكومات القوية كما خاضوا الصراعات لتأمين هذا الإمداد الذي يأتيهم من كل مكان، وإن كان للعرب والمسلمين أموالهم وبنوهم أيضاً كما لليهود فإن الله ميز اليهود ـ في هذه الكرة ـ عن المسلمين بأنهم أكثر نفيراً والجميع يرى ويعلم كم هم أكثر نفيراً.. فهم أكثر قدرة على

حشد السلاح وتوظيف الإمكانات واستدعاء عالم الأقوياء ليقف بجانبهم وينفر معهم ضد المسلمين.. صوتهم أعلى من صوت المسلمين ودعايتهم أكثر فعالية في الصحافة والإعلام العالمي بأيديهم... وعندما يطلبون السلاح يجدونه من كل نوع وبكل كم.

١١ ـ إن سورة الإسراء لها اسم آخر هو (بني إسرائيل) فهي لم تتكلم عن الإسراء إلا في آية واحدة واستمرت تفصيلاً بعد ذلك في الحديث عن بني إسرائيل فهي في مطلعها (الآيات من ٣ ـ ٧) تتكلم عن علوهم وإفسادهم وقبل نهايتها (الآية١٠٤ :) يخاطب الله بني إسرائيل ﴿فإذا جاء وعد الآخر جئنا بكم لفيفاً﴾، وهذه حقيقة جديرة بالتأمل فاليهود الذين استمروا بعيداً عن فلسطين لآلاف الأعوام هم اليوم يعود بهم بعد هذه القرون الطويلة ويعيدهم إلى فلسطين لفيفاً ـ أي جماعات ـ ومن كل أقطار الأرض إلى القبر الكبير ليتحقق الوعد المقضي وليتم المقدور.

١٢ ـ إن المتأمل لصيغة الأفعال الواردة في الآيات التي تتحدث عن الصراع بين المسلمين وبني إسرائيل يلاحظ التعبير عن تحقيق الوعد الأول بصيغة الفعل الماضي ﴿بعثنا عليكم عباداً لنا أولى بأس شديد فجاسوا...﴾ بينما يتكلم القرآن عن تحقيق انتصار المسلمين في المرة الثانية بصيغة الفعل المضارع ﴿فإذا جاء وعد الآخرة ليسؤوا وجوهكم وليدخلوا المسجد كما دخلوه أول مرة وليتبروا ما علو تتبيراً﴾ وهذا إيحاء قرآني لطيف يمكن إضافته إلى بقية الشواهد ليشير إلى تحقيق انتصار عباد الله على بني إسرائيل ـ مرة ثانية ـ في المستقبل القريب الذي هو امتداد مباشر للحاضر.

١٣ ـ والذين يظنون أن اليهود في الجزيرة العربية لم يصلوا في عهد الرسول ﷺ إلى درجة من القوة تقودهم إلى العلو والإفساد نذكرهم فقط بمطلع سورة الحشر ﴿سبح لله مافي السموات ومافي الأرض وهو العزيز الحكيم، هو الذي أخرج الذين كفروا من أهل الكتاب من ديارهم لأول الحشر ماظننتم أن يخرجوا وظنوا أنهم مانعتهم حصونهم من الله فأتاهم الله من حيث لم

يحتسبوا وقذف في قلوبهم الرعب يخربون بيوتهم بأيديهم وأيدي المؤمنين فاعتبروا يا أولى الأبصار﴾ (سورة الحشر ١ ـ ٢).

وهكذا فقد ظن المسلمون وبينهم رسول الله أن يهود بني النضير على درجة من القوة ولن يستطيعوا إخراجهم.. كما ظن اليهود أنفسهم بسبب مناعة حصونهم وثقتهم وغرورهم أن لن يقدر أحد على إخراجهم.. وأخيراً كانت إرادة الله بأن قذف في قلوبهم الخوف تمهيداً لضربهم وهزيمتهم.

كذلك يؤكد تاريخ اليهود في الجزيرة العربية أنهم أقاموا في يثرب (المدينة) وماحولها قوة اقتصادية وسياسية وثقافية ودينية وعسكرية كبيرة كانت من الأهم في جزيرة العرب، وأنهم كانوا ينمون على حساب العرب ويغذون صراع الأوس والخزرج، كما تحكموا في أسواق المنطقة في حين بقي العرب مستهلكين وأجراء عندهم، بيدهم الذهب والفضة والكروم والبساتين والمزارع،، كما كانوا يتعالون على العرب بأنهم أهل كتاب وأهل علم وثقافة، كل هذا حولهم إلى أداة متعالية مفسدة فقد أنكروا رسالة محمد ﷺ رغم تيقنهم منها وحاولوا اغتياله بعد مولده وكانوا مصدر دعم ومساندة لمشركي قريش في حربهم ضد الإسلام، كما حاول بنو النضير قتله وتكررت المحاولة يوم خيبر في حين نقضت بنو قريظة عهدها معه.

١٤ ـ إذا كان القرآن الكريم يشير بهذا الشكل الواضح إلى ملحمة عظيمة في بيت المقدس تسفر عن انتصار عباد الله المسلمين وانحسار الشرك وذهاب علو بني إسرائيل وإفسادهم فإن السنة النبوية التي جاءت متممة ومفسرة تؤكد هذا المعنى أيضاً.. فهي تتحدث عن استمرار الصراع ووجود طائفة من المجاهدين أهل الحق في فلسطين ومن حول فلسطين، فيروي البخاري ومسلم وغيرهما أن رسول الله ﷺ قال: (لا تزال طائفة من أمتي على الحق ظاهرين ولعدوهم قاهرين لا يضرهم من جابههم ولا ما أصابهم من البلاء حتى يأتي أمر الله وهم كذلك، قالوا يارسول الله، وأين هم؟ قال: في بيت المقدس وفي أكناف بيت المقدس)، ثم يتحدث عن مواجهة المسلمين لليهود فيقول: (لا تقوم الساعة

حتى يقاتل المسلمون اليهود فيقتلهم المسلمون حتى يختبىء اليهودي وراء الحجر والشجر فيقول الشجر والحجر يا مسلم ياعبد الله هذا يهودي خلفي تعال فاقتله، إلا الغرقد فإنه من شجر اليهود). وفي رواية أخرى: (ستقاتلون اليهود أنتم شرقي النهر وهم غربيه) وقيل أي نهر الأردن وفي روايات أخرى يتكلم رسول الله ﷺ عن رايات سود تخرج من خراسان لا يمنعها مانع حتى تنصب في إيليا).. أي بيت المقدس. وأخرج الدارمي في سننه وأحمد بن حنبل في مسنده وابن أبي شيبة عن أبي قبيل قال: كنا عند عبد الله بن عمر بن الخطاب وسأل أي المدينتين تفتح أولاً القسطنطينية أم رومية؟ فدعى عبد الله بصندوق له حلق قال فأخرج كتاباً فقال عبد الله فيما نحن حول رسول الله ﷺ نكتب إذ سئل رسول الله ﷺ أي المدينتين تفتح أولاً فقال مدينة هرقل أي القسطنطينية) وجميعنا يعرف أن محمداً الفاتح فتح القسطنطينية بعد ذلك بأكثر من ثمانية قرون (١٤٥٣م) تأكيداً لنبوءة الرسول ﷺ وأن رومية (روما) لم تفتح بعد وأن ذلك سيتحقق إن شاء الله.

وما من شك في أن تحرير القدس هو البداية وإلى أن يظهر الإسلام على الدين كله ويعم الأرض ﴿ليظهره على الدين كله﴾ (آية ٩ ـ سورة الصف) وتأكيداً لنبوءة الرسول ﷺ إذ روى عنه في صحيح مسلم ومسند أحمد بن حنبل وسنن أبي داوود(٩) وابن ماجه أنه قال: (إن الله زوي لي الأرض ـ أي ضمها وجمعها ـ فرأيت مشارق الأرض ومغاربها وإن أمتي سيبلغ ملكها مازوي لي منها).

وهكذا يؤكد لنا البعد القرآني للقضية الفلسطينية بما لا يقبل الشك خصوصية هذه الأرض ـ فلسطين ـ وخصوصية هذه القضية وبالتالي مركزيتها في فكر وممارسة الحركة الإسلامية.

من قلب الجزيرة العربية انطلق المسلمون باتجاه حوض الحضارات واستطاعوا في زمن قياسي أن يقيموا دولة عظيمة ومترامية الأطراف وحضارة هي أعظم الحضارات وأكثرها تأثيراً في تاريخ البشرية.. ولقد استمرت هذه الحضارة لأكثر من ثلاثة عشر قرناً من الزمان ضمن مراكز حضارية متناوبة ومتعاقبة من المدينة إلى دمشق إلى بغداد إلى القاهرة إلى استانبول، ولقد مثلت الروح القرآنية المنبثقة عن

لقاء السماوات بالأرض انطلاقاً من حراء والمنبثقة عن المنهج التوحيدي، مثلت القوة الدافعة لحركة المسلمين وانتصاراتهم وإبداعهم المتنوع على مدى قرون عديدة، ولقد تعرض الإسلام ومنذ سنوات مبكرة بعد ظهوره إلى فتن عظيمة كانت كافية لتحطيم أقوى الدول.. ولكن الطاقة الهائلة الكامنة في منهج الإسلام التوحيدي أعطت للحضارة الإسلامية فوق العمر المديد قوة وسمواً فتجاوزت من الفتن ما تنوء تحته أعظم الجبال وأعظم الدول وأعظم الحضارات.

لقد استمر للروح القرآنية وللدفعة القرآنية تأثيرها الفذ ولقرون عديدة رغم التأثير السلبي لمسلسل الفتن والصراعات على تلك الروح وتلك الدفعة والذي كان لا بد مع الزمن أن يترك أثراً سلبياً على مسيرة المسلمين فيتركهم أحياناً فريسة للأخطار الخارجية، لكن إلى حين. ولقد كانت الحملات الصليبية التي تعرض لها الوطن الإسلامي قبل حوالي ثمانية قرون من أهم الأخطار التي تعرض لها المسلمون، لكن الدفعة القرآنية كانت لا تزال قادرة على التفاعل في الجسد الإسلامي إلى درجة تجعله قادراً في النهاية على رد الهجمات وامتصاصها.. ولكن ذلك لم يستمر طويلاً إذ تواصلت عملية الانحدار داخل بنيان الوطن الإسلامي فما أن جاءت نهاية القرن الثامن عشر ومعها جيوش الغرب حتى كانت المقابلة أشد صعوبة وأكثر مأساوية.. فالغرب كان قد حقق إنجازات مهمة بعد ثورته الصناعية وبناء نهضته الحضارية المادية فأصبح قوياً وفتياً بما فيه الكفاية، فيما الدفعة القرآنية تضمحل داخل الجسد الإسلامي وتتركه ضعيفاً قابلاً للجرح، وهكذا جاءت الحملة الفرنسية في نهاية القرن الثامن عشر والتي كانت أقل حجماً بما لا يقاس من تلك الحروب الصليبية.. ولكنها تركت من الآثار الهائلة على الجسد المنهك مازلنا نعيش آثاره حتى الآن، ورغم أنها رحلت بعد سنوات قليلة، إلا أن بنيان الأمة الضعيف كان قد تم اختراقه بالتغريب الذي بدا بسيطاً غير واضح في البداية كما هو عند رفاعة الطهطاوي.. الشيخ المعمم الذي سافر مع البعثة التعليمية التي أرسلها محمد علي إلى باريس ليؤمهم في الصلاة ويقوم بدور الإرشاد فعاد الشيخ مبهوراً أمام تقدم فرنسا وتطور قوانينها ودستورها.. مبهوراً أمام العلاقات الاجتماعية، أمام نظافة الشوارع، وعربة الرش التي تجوب الشوارع، ولكن مع

الزمن بدأ تيار التغريب أكثر وضوحاً كما لدى المثقفين الأتراك في (تركيا الفتاة) ثم (الاتحاد والترقي) ولدى المثقفين العرب في الجمعيات العربية السرية داخل حدود الدولة العثمانية مثل (جمعية بيروت الإصلاحية)، (الجمعية القحطانية)، (العربية الفتاة)، (وجمعية العهد) وأيضاً بين طبقة موظفي ناصر الدين شاه في إيران وبقية فترة الأسرة القاجارية. لقد كان الغرب في القرن التاسع عشر (التحدي الغربي الحديث) يتحرك باتجاه الوطن الإسلامي بكل ثقل حقده الصليبي القديم بالإضافة إلى ثقل العوامل الاقتصادية والسياسية.. فهو أيضاً يبحث عن المواد الخام ويريد تصريف منتجاته وبضائعه ويريد دائماً مناطق نفوذ ولكنه يصطدم بالجدار الإسلامي فيدفعه ذلك لمحاولة تدميره مبتدئاً بتوسيع قاعدة تيار التغريب بين أبناء أمتنا ومثقفيها وبالمدارس التبشيرية عن طريق السفارات والقنصليات وبحركة ترجمة لآداب الغرب وفلسفاته وفنونه (بدلاً من العلوم التطبيقية والبعثات الدراسية)..
ولكن هذا المشروع الاستعماري لم يكن أمامه في النهاية إلا استخدام العنف لإسقاط الجدار الإسلامي العظيم، والعنف كان سمة الغرب الأساسية وفي كل مراحل صراعه مع الإسلام، المهم أن الغرب هذه المرة لم يكن وحده فقد عقد تحالفاً كاملاً مع الحكومة الصهيونية التي مثلت في نهاية القرن التاسع عشر الإطار السياسي للأطروحة اليهودية الدينية الزائفة في وطن لشعب الله المختار: اليهود على أرض الله المقدسة (فلسطين). وتحالف الجميع، الغرب واليهود من جانب، وتيار التغريب من جانب ليسقطوا الدولة العثمانية فيقلبوا بذلك موازين القوى ويغيروا خريطة المنطقة السياسية والفكرية. وينكشف مسرح المنطقة عن مصطفي كمال أتاتورك في تركيا ورضا خان في إيران وأبناء الشريف حسين في المشرق العربي ومدرسة (حزب الوفد) في مصر، كانت سنوات صعبة تلك التي غطت الربع الأول من القرن الميلادي العشرين فقد كان المشروع الاستعماري يتشكل أكثر وضوحاً، وكان المشروع اليهودي هو الجزء المركزي لهذا المشروع ولكل الهجمة الغربية، فالذين أسقطوا بأيديهم دولة الخلافة خدمة للغرب هم الذين حكموا المنطقة على قواعد سايكس بيكو، وهم أنفسهم الذين قامت على أكتافهم وأمام أبصارهم الدولة العبرية، وكانوا طيلة الوقت يحاولون تدمير إسلام الأمة النقيض

الكامل والحقيقي للهجمة الغربية، وهكذا تم تنفيذ مشروع إقامة إسرائيل كأهم هدف للهجمة الغربية بل كتجسيد شامل لطغيان الغرب واستمرار وجوده في المنطقة.

وهكذا كانت إسرائيل لأن أصحاب القرار في المشروع الاستعماري أدركوا أن النخب المتغربة أضعف من أن تضمن مصالحهم وأضعف من أن تستطيع الاستمرار في المعركة ضد ضمير الأمة الإسلامي وضد عقيدة الأمة الإسلامية وضد امتداد القرون الأربعة عشر من التاريخ الإسلامي المجيد، لقد غرسوا في قلب الوطن الإسلامي هذا الكيان الغريب لضمان حالة الهيمنة الغربية وتكريس التبعية والإلحاق، وعندما فوجئت الجماهير المسلمة بالشرك الذي نصب لها في فلسطين تنبهت للمؤامرة وكشفت أبعاد النكبة ولكن الاستعمار كان أسرع إدراكاً للإشكالية الجديدة لدى الجماهير فسارع إلى تغيير الأنظمة وسرقة شعارات الأمة وأحلامها في التغيير والنهضة، فظهر إلى المسرح نمط جديد من عسكر الانقلابات السورية والعراقية جمال جورسيل (تركيا) وأحمد سوكارتو (اندونيسيا) وأيوب خان (باكستان) وكانوا جميعاً حلقات لمنهج واحد، وأصبح الهدف تصفية الإسلام نهائياً لتنفيذ أهداف الغرب ومهماته بأيدي أبناء الوطن الإسلامي أنفسهم فكانت النكبة عام ١٩٦٧ وفيها سقطت القدس مع مزيد من الجغرافيا والتاريخ فيما مزيد من مساحة العقيدة تتعرض للخطر بسبب الخلل الذي أحدثته الأفكار الغربية الوافدة داخل الإنسان العربي، والتي وضعت الانتماء التاريخي الإسلامي والوعي العقائدي الإسلامي في محل جدل لا ينتهي ولا يثمر إلا العقم، وباختصار فإن المشروع الاستعماري الذي امتد لقرنين من الزمان وحاول جاهداً قطع التواصل الحضاري والتاريخي للأمة الإسلامية، استطاع بعد قرن ونصف من وجوده في المنطقة أن ينجح في إقامة إسرائيل: أهم الأدوات وأخطرها وأكثرها فعالية في عملية قطع هذا التواصل الحضاري والتاريخي للأمة.. وهكذا يؤكد التحليل التاريخي ماسبق أن أكده التحليل القرآني من خطورة المشروع اليهودي في فلسطين.

إن التحليل التاريخي يرى في المشروع اليهودي الجزء المركزي في الهجمة الغربية والتحدي الغربي الحديث أهم مشكلات الوطن الإسلامي، وهذا تأكيد

جديد على تميز وخصوصية ومركزية القضية الفلسطينية.. تأكيد يجعل من الصعب على الحركة الإسلامية المعاصرة أن تحقق أهدافها في مواجهة آثار ونتائج الهجمة الغربية في بلادنا من تجزئة وتغريب وتبعية وإلحاق، بدون مواجهة قلب هذه الهجمة وضمانة استمرار هيمنتها في فلسطين، ولكن قبل الانتقال إلى البعد الواقعي لا بد أن نشير إلى أننا ونحن نتكلم عن إسرائيل كجزء من المشروع الاستعماري لا ينتابنا الوهم القائل: (إن إسرائيل ليست أكثر من أداة سياسية في يد الغرب).. فالحركة الصهيونية ليست أداة بالمعنى الضيق ولكنها أيضاً حليف حقيقي، وبين الطرفين (الصهيوني والغرب) أهداف مشتركة متعددة تجعل إسرائيل تبدو وكأنها مجرد أداة للغرب، إنها الأداة المتقدمة للتحالف بين الغرب والحركة الصهيونية وتبقى إسرائيل الجزء المهم الأكثر وضوحاً وظهوراً من جسد الحركة الصهيونية واليهودية الممتدة في العالم والعالم الغربي بالذات، إسرائيل هذه شريك حقيقي مهما بدت كشريك صغير.

إن كون إسرائيل الجزء المركزي في الهجمة الغربية المتواصلة ضدالوطن الإسلامي يعني أنها لا بد أن تؤدي دوراً مركزياً في العمل لتحقيق أهداف هذه الهجمة، كعزل الإسلام بعيداً عن الحياة والحكم ومواصلة العمل لتدميره على كل المستويات والتحرك الدائم باتجاه المحافظة على الرموز المتغربة النافذة والمسيطرة داخل الوطن الإسلامي ضمن عملية المحافظة الشاملة على كل مصالح الغرب في المنطقة. من هذا المنظور يجب أن نفهم الدورفوق العادي لإسرائيل والأبعاد الشاملة للخطر الإسرائيلي، ومن أبرز مظاهر هذا الخطر:

١ ـ تجسد إسرائيل وبشكل واقعي ذروة المنهج الوضعي الصراعي المضاد للإسلام.. دين السلام والحق والكرامة الذي يحترم الإنسان ويعطيه قيمة مميزة منبثقة عن الله، وهي تصعيد مستمر لمنهجية الصراع والباطل من حيث كونها دولة الحلم اليهودي الزائف كوطن لشعب الله المختار وكون هذا الشعب المختار مميز عن البشر ومنفصل عنهم، وهذا المظهر رافق اليهود على مدى القرون وكان وراء علوهم وإفسادهم كما كان وراء عزلتهم وخراب بيوتهم وهم الذين قالوا:

﴿ليس علينا في الأمين سبيل﴾ (آل عمران٧٥ :).. هم الذين أبدعوا الأنظمة الربوية أس الرأسمالية والاستغلال والاحتكار.

٢ ـ تمثل إسرائيل خطراً مباشراً ويومياً على الشعب الفلسطيني الذي اغتصبت أرضه وتشرد جزء مهم منه جيلاً وراء جيل ومن منفي إلى منفي، ومن بقي منه داخل إطار الاحتلال يعاني يومياً من الاضطهاد المستمر من قبل رجال الأمن وجنود الجيش والمستوطنين، من صاحب العمل ومن كل مستويات السلطة التي تحدد للمواطن الفلسطيني كمية الماء التي عليه أن يشربها ويروي بها زرعه إن وجد وإن لم يصادر بعد، وتحدد كمية الكهرباء التي ستمر إلى قريته أو بيته، تؤثر على مستوى طبق الإفطار والغداء والعشاء وتتدخل أحياناً في مستوى التعليم الذي يمكن له أن يصله!! أما محاولات التدمير الأخلاقي والفكري والأمني والسياسي التي تمارسها السلطة فلا تقف عند حد، باختصار إن المواطن الفلسطيني محاصر بالخطر الصهيوني المباشر واليومي الذي يحصي عليه أنفاسه ويمنعه بالقوة من ممارسة حياة كريمة.

٣ ـ تتجاوز حدود تأثير إسرائيل على المسلم الفلسطيني إلى كل المسلمين والعرب من حول فلسطين، حيث القصف الوحشي للقرى الانعزالية المعادية للإسلام وفلسطين وصولاً إلى غزو واحتلال بيروت ١٩٨٢م، واستمرار احتلال الجنوب اللبناني، وبالنسبة للأردن فإن شبح إسرائيل يؤثر في سياسته عسكرياً وسياسياً واقتصادياً كما لا يؤثر أي عامل آخر، فقد خسر الملك الأردني نصف مملكته ومنحها لإسرائيل عام ١٩٦٧ بشكل مريب، وقاسي الأردنيون بعد ذلك وإلى ثلاث سنوات متتالية من إسرائيل مباشرة، كما عانوا من قبل ومن بعد ومايزالون.

أما في مصر فقد دخلت إسرائيل كل بيت.. مرة بالحرب ومرة بالسلام المدنس، لقد عانى الشعب المصري في كل القرى والنجوع، في أبو زعبل وبحر البقر كما عانى عشرات الألوف من الجنود المصريين من أقسى الإعياء والتعب

والمهانة في صحراء الجوع والعطش... في سيناء.. واليوم عليه أن يتبسم في وجوه قاتليه ويستقبلهم ـ مرغماً ـ بالترحيب ويركن إليهم ويتبعهم.

٤ ـ كما تشكل إسرائيل خطراً حقيقياً على كل أبناء الأمة الإسلامية من طنجة إلى جاكرتا ومن استانبول إلى لاجوس، ومن أقصى الشرق إلى أقصى الغرب وذلك من خلال وعي اليهود بالإسلام كنقيض أساسي وكامل لهم مما يدفعهم إلى ملاحقة المسلمين في كل مكان. وقد قال أحد وزراء دولة إسرائيل: (لو كان الأمر بيدي لركبت دبابتي من أورشليم (القدس) وماتوقفت حتى كراتشي). إن الدور الإسرائيلي في ملاحقة المسلمين لا يقف عند حدود، من أريتريا إلى الفلبين إلى تايلاند إلى الهند إلى جنوب السودان وكل أفريقيا.

٥ ـ ويتعدى هذا الخطر حتى يصل إلى كل المستضعفين في العالم فعلاقة إسرائيل الوثيقة بقوى الاستكبار الدولي ومساعدتها للحكومات العنصرية والأنظمة الديكتاتورية في افريقيا وغيرها يؤكد خطرها على مستقبل المستضعفين في العالم إضافة إلى المسلمين.

٦ ـ تقوم إسرائيل كجزء أساسي في الهجمة الغربية ونواة للحلم اليهودي الكبير بدور مهم في تكريس واقع التجزئة القائم على أرض الوطن الإسلامي وتأكيده والدفع بإتجاه مزيد من التفتت على المستوى القومي والاقليمي والوطني والمذهبي، ويتحدث القادة والباحثون في إسرائيل عن الفروقات المذهبية في الشرق الأوسط ويحاولون إضافة المزيد منها (كالبهائية) مثلاً كما يؤكدون على الفروقات العنصرية (كالمسألة الكردية)، ويقاومون في نفس الوقت كل محاولة للتوحيد، ويمكننا أن نتحدث عن نظرية إسرائيلية متكاملة تعتمد الشكل الفسيفسائي كمرحلة انتقالية تمر بها المنطقة تمهيداً للهيمنة اليهودية على أرضية طائفية، كإقامة دولة مارونية وأخرى كردية، ودولة نصرانية، ودرزية.. وتتحول المنطقة إلى عشرات من الدول الصغيرة المتصارعة.

٧ ـ تمثل إسرائيل أيضاً كركيزة للهجمة الغربية أداة لاستمرار هذه الهجمة الغربية

وتحقيق أفضل نتائجها، وأهم وسائل الهجمة الغربية يأتي من تدمير البعد الايديولوجي للإنسان المسلم.

والثقافة الإسرائيلية التي تحاول إسرائيل تسريبها إلى أبناء الأمة الإسلامية داخل فلسطين تعتبر أهم أدوات التغريب وتدمير الانتماء الإسلامي.. فالجنس والحرية غير المنضبطة وإسقاط القيم المرتبطة بالدين وتدمير الأسرة واحتدام صراع الأجيال وتشجيع روح المجتمع الاستهلاكي بين المسلمين.. إلخ، هي في مجموعها خطوات متعددة بإتجاه تحطيم الذات الإسلامية وصناعة ذات متغربة تحمل في داخلها كل أبعاد الاستعمار.

٨ ـ وعلى المستوى الاقتصادي تستمر إسرائيل كحارسة لمصالح الاستعمار والاستكبار العالمي بقيادة الولايات المتحدة الأمريكية ومستخدمة أداتها العسكرية وتهديدها السياسي لاستمرار عملية النهب الاقتصادي لثروات الوطن الإسلامي والمواد الخام من نفط ومواد زراعية.

وهكذا يؤكد الواقع وعلى كل مستوى مدى خطورة إسرائيل التي تستخدم الوسائل والفعاليات الممكنة لتدمير الأمة وتصفيتها.. إنها خطر سرطاني يزداد ويتمدد على حساب المسلمين في كل مكان انطلاقاً من فلسطين. إن الواقع يؤكد بذلك على خصوصية الخطر الصهيوني الذي لا يجاريه خطر ومركزيته في واقع المسلمين، إنه يدفعهم وظهرهم إلى الحائط بقسوة متناهية كما يدفعهم بالتالي إلى ضرورة التنبه إلى هذه الخصوصية، فالتركيز على خصوصية القضية الفلسطينية بالنسبة لهم ليس مجرد تركيز على بعد ثقافي.. إنها خصوصية صراع يستهدف كل أشكال وجودنا.

الجزء الثاني

كتب

الخميني: الحل الاسلامي والبديل

الخميني

الحل الإسلامي والبديل

«إننا بمنطق صدر الإسلام نتحرك، فإذا قتلنا فنحن في الجنة.. وإذا هزمنا فنحن في الجنة، وإذا أوقعنا الهزيمة بأعداء الإسلام فنحن أيضاً في الجنة ومن أجل ذلك لا نخاف الهزيمة، بل إننا لا نخاف من شيء، إن النبي ﷺ هزم في بعض الغزوات، إننا نحارب بسيف الله وستستمر الحركة..»

آية الله الخميني

إهداء:

إلى رجلي القرن

الإمام الشهيد حسن البنا..

والإمام الثائر آية الله الخميني..

مقدمة:

مع انتهاء عام ١٩٧٧م كانت الظروف الموضوعية قد نضجت للثورة، محلياً: فساد هائل، وإسلامياً: وعي متزايد وتجربة فكرية وسياسية في غاية العلمية وفي إطار من الأطروحات الشيعية العصرية ـ التي اقتربت من أهل السنة ـ ضمن فترة من أنشط الفترات فكرياً في تاريخهم، ودولياً: عدم رضا غربي.

وهكذا جاء شتاء ٧٨م الذي لم يكن بارداً تماماً... فقد جاء الربيع مبكراً إلى إيران.. إنه ربيع الثورة يتسلل بروعة تاريخية لم تسجل من قبل.. ذكي الخطوات.. يتسم بوعي عصري وجمال عاشق.. إن للعمائم السوداء دور في الربع الأخير من القرن العشرين.. وللطرحات النسائية السوداء دور أيضاً..

(*)المصدر: نشر هذا الكتاب عن دار المختار الإسلامي بالقاهرة ـ عام ١٩٧٩. وهو يعد أول كتاب صدر باللغة العربية عن الإمام الخميني والثورة الإسلامية في إيران. وكان (الشقاقي) وقتها يدرس الطب في جامعة الزقازيق بمصر.

ووقف العالـم مشدوهاً، وهو يرى السيدة الإيرانية تـهبط من جبال قـم وشيراز وتبريـز إلى شوارع طهـران.. رافعة قبـضتها فـي وجه العسـكر ورافعات الـبترول واحتكارات الدول الكبرى.. إن منطق إسلام الحركة الأولى يظهر من جديد ووقف الإعلام الغربي وتـلامذته حائرين متخبطـين.. يغمسون أقلامهم في مـداد الشيطان ليكتبوا عن آية الله الذي التفت حوله ملايين الجماهير العطشى للحرية والعودة إلى الله، بيـنما هم يبحثـون كل يوم عن عذر جديد لـهذا القس المجنون جيـمس جونز صاحب مـذبحة جوايـانا الأمريكيـة. ووقف الكمـبيوتر الأمريـكي عاجزاً عـن فهم علاقة استشهاد الحسـين منذ أكثر من ١٣٠٠ عام بسقوط نظام كان يعـتبر أكثر النظم عصريةً واستقراراً في غرب آسيا.

ومع استمرار الثورة وتقدمها فإن مفاهيم جديدة تبرز ومفاهيم قديمة تختفي..

* إن الرعب المسـتمر داخل العقول المـريضة من الدول الكـبرى وتسلطها وعـنفها وتصويرها وكـأنها سيف مسلط ضد الإسـلام ومستقبله.. هذا الرعـب يتساقط الآن وتلك الخـيالات تتهـاوى فالدول الكـبرى مثلـها مثل كـل الكائنـات على الأرض يمكن أن تخطيء الحساب حتى بالكمبيوتر!

* هذه مـرحلـة الإسلام ولـذا فقد خـرجت الجـماهـير تحت ظـله.. ولـو لم تـكن مرحلته لما خرجت الجماهير بهذا الشكل من أجله.. لقد تساقطت أمام شعوب المنطـقة كل الاحتمالات.. إن تجـارب مضنية مـع الليبرالـية والاشتراكية يـعلن الآن فشلها وسقوطها.

* إن المعركـة القادمة ستكـون بين الإسلام والشيوعـية فلم تعد الـرأسمالية العـالمية تحمى أحداً ولم تـعد إطروحات التميع والـتردد والوقوف في بين تصنـع تنمية حقيقية ولا شعباً حقيقياً ولا سلطة حقيقية، ولم تعد أيضاً تحمي ثرواتنا المنهوبة. إن أجيالاً تتكون الآن في هذه المنطقة أكثر وعياً لحقائق الأمور وهي تقترب أكثر

من الإسلام تحت ظل الخطر الشيوعي القادم وينبغي ألا ننسى هنا العلاقة اليهودية بالحركة الشيوعية.. كما ينبغي أن ننظر بجدية إلى احتمال تحول التحالف الإسرائيلي الأمريكي إلى تحالف إسرائيلي سوفيتي (خاصة بعد دروس فيتنام وفرموزا وإيران).

ويبقى التساؤل الأخير.. عن احتمال عدم تسلم الحركة الإسلامية للسلطة.. سيكون من الصعب علينا وقتها أن نقول أنهم لم يهزموا في المعركة.. بل إن القضاء على الثورة في إيران وبأي شكل وبأي وسيلة يعني أن الحركة الإسلامية في العالم قد تلقت أقسى الضربات منذ عام ١٩٥٤ .. ولكن هذا لن يعني أن المسألة الشرقية قد انتهت فبالإضافة للمفاهيم الجديدة التي أشرنا إلى أنها برزت يبقى الإسلام قادراً على أن يحرك الجماهير ويعيد حقائق القوة في العالم إلى أوضاع أخرى ويقترب من السلطة وربما يمسكها.. إن أخطر القضايا ليست فقط في أن كياناً عقائدياً متماسكاً يبرز للوجود متحدياً سلسلة العقائد المادية المطروحة أمام الإنسان.. ولكن أيضاً في أن الوطن الإسلامي قد أصبح أكثر خطورة استراتيجياً واقتصادياً في زمن يطلق عليه زمن الاقتصاد.

إن حدث هذا ـ لا قدر الله ـ فالمسلم لا يعرف الهزيمة وسنردد مع الإمام الخميني:

«إننا نعرف أن جميع القوى السياسية في العالم تريد تحطيم حركتنا. لكننا نعرف في الوقت نفسه أن مسؤوليتنا الإسلامية والحكم الإلهي يفرضان علينا عدم الإغراق في القلق، إننا بمنطق صدر الإسلام نتحرك، فإذا قتلنا فنحن في الجنة.. وإذا هزمنا فنحن في الجنة، وإذا أوقعنا الهزيمة بأعداء الإسلام فنحن أيضاً في الجنة ومن أجل ذلك لا نخاف الهزيمة، بل إننا لا نخاف من شيء، إن النبي ﷺ هزم في بعض الغزوات، إننا نحارب بسيف الله وستستمر الحركة».

بسم الله الرحمن الرحيم

﴿مثل الـذين اتخذوا مـن دون الله أوليـاء كمثل الـعنكبـوت اتخذت بيـتاً، وإن أوهن البيوت لبيت العنكبوت، لو كانوا يعلمون﴾ [العنكبوت ٤١]

صدق الله العظيم

«ألا رحى الإسلام دائرة، فدوروا مع الإسلام حيث دار، ألا إن الكتاب والسلطة سيفترقان، فكونـوا مع الكتاب.. ألا أنه سيولى عليكم أمراء، إن أطـعتموهم أذلوكم وإن عصيتـموهم قتلوكـم.. قالوا : ماذا نفعل يـارسول الله؟ قال: كونـوا كأصحاب عيسى، نشروا بالمناشير، وحملوا علـى الخشب، فوالذي نفس محمد بيده.. لموتة في طاعة الله خير من حياة في معصيته».. **صدق رسول الله ﷺ**

* * *

الفصل الأول

الحركة الإسلامية والتحدي

(١)

هل انتهي عصر الأقزام والخصيان الذين طفوا منذ قرن مضى على سطح الزمان العربي والإسلامي..

هل انتهـي الزمان الذي كان أحدهـم يسمي ابنه (لـهب) حتى يدعوه الـناس (أبا لهب).. هل انتهت مـرحلة التجارب التي أنهكت أمتنـا وشلت قواها تحت أشراف الاستعمار ومن أجل إيجاد بدائل عن الإسلام.. التمسناها في فكر أعدائنا؟.

هل انتـهت مرحلة الـشعوب التي كـانت تخرج بإيـحاء من الأجهزة والـعملاء لتهتف ضد مـصالحها وتراثها وأيديولوجيتـها الحقيقية.. هل انتهت مرحـلة العسكر الذيـن يلبـسون تيـجان الأباطـرة وأحذية الجـماهـير.. هل انـتهت مـرحلة المزاعم والشعارات الـتقدمية التـي ضيعت آلاف الكيـلومترات من أرض أمتـنا وروحها..

وهل بدأت الحرب الإسلامية الكبرى على حد تعبير .الباري ماتش ـ الفرنسية (١ ـ ١٢ ـ ١٩٧٩).

(٢)

في نهاية الأربعينات وبداية الخمسينات كانت مصر تموج بحركة عنيفة مضطربة، وكانت الحركة الإسلامية تأخذ مكانها الطبيعي في قيادة الجماهير وتوشك أن تهز العرش المهتريء.. وفجأة قفز عبد الناصر إلى السلطة.. ولم تمض سوى سنوات قليلة حتى تمت تصفية القوى الإسلامية الوطنية في عملية من أبشع عمليات التصفية في التاريخ الإسلامي الحديث... ورغم زعم عبد الناصر ـ عقب الانفصال في حديث لرئيس تحرير الحوادث اللبنانية ـ الحاجة إلى ثورة ثقافية إسلامية وقوله:

بمن سأنفذ هذه الثورة.. ليتني كنت من رجال الدين!

إلا أن الحرب ضد أيديولوجية الأمة والفكر الوحيد القادر على تعبئتها في معركتها السياسية والاجتماعية قد استمرت..

ورحل عبد الناصر تاركاً آلاف الكيلو مترات في أيدي أعداء هذه الأمة.. وتاركاً مصر تئن تحت ثقل أوضاع اقتصادية متدهورة وديون زادت على العشرة بلايين دولار.

ومن مصر إلى الجزائر..أجاب هواري بومدين عن سؤال عن الذي جعله يقوم بحركته ضد بن بللا رمز الثورة ، فأجاب عام ١٩٦٦ قائلاً: لم أقدم على تحمل مسؤولية الحكم إلا بعدما رأيت مئات الآلاف من الجزائريين يسيرون في جنازة الشيخ البشير الإبراهيمي، وكأنهم يريدون أن يعلنوا كفرهم بالجديد الذي جاءهم به بن بللا.. لقد استبد الحنين بالناس إلى الماضي المحافظ.. وهم يرون مافعلته بهم يد الحاضر الثوري.

إذاً.. هكذا.. ولكن الواقع الجزائري يكذب بومدين.. ويطرح الوجه الآخر للإجابة. لقد كانت جنازة الشيخ الإبراهيمي فرصة الجماهير التي عبرت فيها عن

سخطها على الشعارات غير الإسلامية التي بدأت تطرحها ثورة المليون شهيد.. لقد كان خروج الجماهير يومها إعلاناً عن إصرار هذا الشعب المسلم على تمسكه بأصالته وتراثه.. ومن هنا كان لا بد من إجهاض هذه المشاعر.. ولهذا جاء بومدين الذي غاب بعد ثلاثة عشر عاماً تاركاً الجزائر في دوامة برامج ينذر مصيرها بما لا يحمد عقباه.. تاركاً بلداً غنياً وقد ارتفعت ديونه إلى ٦ بلايين دولار.

وفي السودان الذي كان مهداً للثورة المهدية العظيمة كان انقلاب ٢٥ مايو (آيار) ١٩٦٩ والذي حمل العسكر إلى السلطة إيذاناً ببدء عملية تصفية للحركة الإسلامية على الطريقة الناصرية وإن أثبتت التطورات الأخيرة أنهم عبثاً حاولوا..

وفي باكستان وأندونيسيا كان العسكر يظهرون كلما أوشكت الجماهير الإسلامية أن تتسلم مقاليد أمورها بنفسها.

(٣)

لقد أدرك الاستعمار من خلال كل معاركه الصليبية مدى تغلغل عقيدة الإسلام في نفوس أصحابها ومدى التفاف المسلمين في شتى أقطار الأرض حول راية القرآن وحول النظام السياسي الإسلامي الذي تمثل في الدولة العثمانية في القرون الأخيرة.. كما أدرك الاستعمار الصليبي أنه لن يستطيع مواجهة هذه الوحدة وهذا التيار الذي كان يعلن أنه لا جنسية للمسلمين إلا في دينهم لن يستطيع مواجهته بجنود ولا بعتاد.. حتى أن نابليون عندما دخل مصر في نهاية القرن الثامن عشر أعد بياناً وجهه للمصريين يقول فيه بسم الله الرحمن الرحيم.. لا إله إلا الله، لا ولد له ولا شريك له في ملكه.. من طرف الفرنساوية المبني على أساس الحرية والتسوية والسر عسكر الكبير أمير الجيوش الفرنسية بونابرت يعرف أهالي مصر جميعهم أن من زمان مديد الصناجق الذين يتسلطون في البلاد المصرية يتعاملون بالذل والاحتقار في حق الملّة الفرنساوية ويظلمون تجارها بأنواع الإيذاء والتعدي، فحضرت الآن ساعة عقوبتهم وأخرناً من مدة عصور طويلة هذه الزمرة المماليك

من بلاد الأبازه والجراكسة يفسدون في الأقليم الحسن الأحسن الذي لا يوجد في كرة الأرض كلها، فأما رب العالمين القادر على كل شيء فقد حكم على انقضاء دولتهم.

يا أيها المصريون قد قيل لكم أنني مانزلت بهذا الطرف إلا بقصد إزالة دينكم فذلك كذب صريح فلا تصدقوه وقولوا للمفترين أنني ماقدمت إليكم إلا لأخلص حقكم من يد الظالمين وإنني أكثر من المماليك أعبد الله سبحانه وتعالى وأحترم نبيه والقرآن العظيم. أيها المشايخ والقضاة والجربجية والأئمة وأعيان البلد قولوا لأمتكم أن الفرنساوية هم أيضاً مسلمون مخلصون. (في النص الفرنسي: إننا أصدقاء المسلمين الحقيقيين) وإثبات ذلك أنهم قد نزلوا في رومية الكبرى وخربوا كرسي البابا الذي كان دائماً يحث النصارى على محاربة الإسلام.. ثم قصدوا جزيرة مالطة وطردوا منها الكوالرية الذين كانوا يزعمون أن الله تعالى يطلب مقاتلة المسلمين.. ومع ذلك الفرنساوية في كل وقت من الأوقات صاروا محبين لحضرة السلطان العثماني وأعداء أعدائه أدام الله ملكه (!) ومع ذلك فإن المماليك امتنعوا عن طاعة السلطان غير ممتثلين لأمره».

وفي نهاية البيان «الواجب على المشايخ والعلماء والقضاة والأئمة أنهم يلزمون وظائفهم وعلى كل واحد من أهالي البلدان أن يبقى في مسكنه مطمئناً، وكذلك تكون الصلاة قائمة في الجوامع على العادة والمصريون بأجمعهم ينبغي أن يشكروا الله سبحانه وتعالى لإنقضاء دولة المماليك قائلين بصوت عال: أدام الله إجلال السلطان العثماني.. أدام الله إجلال العسكر الفرنساوي..».

ولكن الحملة الفرنسية بالذات هي المرحلة التي يمكن أن نبدأ بها التأريخ لعملية طرح بدائل عن الإسلام في المنطقة.

لقد كانت الثورة الفرنسية وقتها تحطم الملكية وتخرج بشعاراتها الجديدة عن الحرية والمساواة لتغزو بها العالم!! وكان اختيار مصر للأهمية الجغرافية والسياسية التي تتمتع بها في المنطقة.. وتبع الحملة الفرنسية وظهور محمد علي خروج

البعثات من مصر إلى أوروبا لتلقى العلم والمعرفة وحدث وقتها وبعدها وما زال خلط شديد بين قيم التراث وقيم المعرفة.. بين قيم التراث الباعثة والقادرة على تعبئة الأمة.. القادرة على رد التحدي والفعل في آن واحد.. وبين قيم المعرفة المرتبطة بالعلوم الطبيعية والتقدم التكنولوجي والتي يجب أن نتعلمها ونشارك في تطويرها، ولكن لا كأيديولوجيا بديلة كما طرح بعض الذين ذهبوا إلى أوروبا وبهرتهم نظافة الشوارع في لندن وباريس واعتقدوا أنه لا يمكن أن ننهل التكنولوجيا الغربية دون أبنية ومؤسسات تقوم على الرؤية الغربية.. أي المناداة بالليبرالية كأيديولوجية!

لقد كانت عملية طرح البدائل والتشكيك في الأيديولوجية الإسلامية وقدرتها على الاستمرار وحفظ الأمة هي محور الصراع الذي بدأ في القرن التاسع عشر واستمر حتى الآن.. وكان هذا مقدمة لتغيير الأوضاع السياسية التي كانت تحتم ارتباط الجماهير المسلمة برمز وحدتها المتمثل في الدولة العثمانية.. ولم تمر هذه المحاولة بسهولة فلقد وقفت لها الجماهير تحت قيادة العلماء والمفكرين والثوار المسلمين، وقفت لها بالمرصاد فهذا عرابي يثور على فساد الحكم في مصر وعلى الإنجليز دون أن يخطر في باله أن يخلع طاعة الخليفة أو يخرج عليه فهو يعرض عليه خطواته مستمداً منه السلطة في كل مايفعل كما تروى مذكراته.

وهذا الإمام محمد عبده يقول أثناء إقامته في بيروت عام ١٨٨٦ : «إن المحافظة على الدولة العلية العثمانية ثالثة العقائد بعد الإيمان بالله ورسوله، فإنها وحدها الحافظة لسلطان الدين الكافلة لبقاء حوزته وليس للدين سلطان في سواها وأنا على هذه العقيدة والحمد لله، عليها نحيا وعليها نموت».

وهاهو يؤكد في حديث له لرشيد رضا بعد انتصار الترك في حرب اليونان عام ١٨٩٧ «أن كثيراً من وجهاء المصريين يكرهون الدولة العثمانية ويذمونها وإن كان أكثرهم يحبها، وأنا أيضاً أكره السلطان.. ولكن لا يوجد مسلم يريد بالدولة سوءاً فإنها سياج في الجملة وإذا سقط نبقى نحن المسلمين كاليهود بل أقل من اليهود،

فإن اليهود عندهم شيء يحافظون عليه ويحفظون به مصالحهم وجامعتهم وهو المال ونحن لم يبق عندنا شيء، فقد فقدنا كل شيء».

وهذا مصطفي كامل أحد زعماء الحركة الوطنية في مصر يقول في خطبة له عام ١٩٠٠ أن الدين والوطنية توأمان متلازمان ويجيب عن سؤال للأمير (لاي بارنج) ـ شقيق كرومر ـ عن جنسيته بقوله: أنا مصري عثماني. ولكن عملية إجبار المسلمين على التخلي عن الإسلام كأيديولوجيا وعن الدولة العثمانية كرمز للوحدة الإسلامية استمرت بكل شراسة، فهذا أحد كتاب فرنسا يرى أنه لا حل للمسألة الإسلامية إلا بالقضاء على المسلمين ونبش قبر الرسول الكريم ونقل عظامه إلى متحف اللوفر بباريس.

وهذا (جلادستون) زعيم حزب الأحرار البريطاني يعلن أنه لن يقر للإنجليز قرار في مصر إلا بعد أن يحرقوا القرآن في قلوب المصريين.. ويشير إلى السلطان عبد الحميد مرة بقوله: عدو المسيح، وأخرى بالشيطان وهذا البريطاني (بلانت) يقول في كتابه «مستقبل الإسلام».

«إن هدم السلطنة العثمانية لا يضر المسلمين، بل إن هذا العقد العثماني ينثر ليعود عقداً عربياً أحسن وأجمل». كان هذا وراء طرح العروبة في مقابل الإسلام كبديل مرحلي أقل خطراً على الاستعمار فضلاً على مافي هذا الطرح من طعن في فكرة الوحدة الإسلامية وتقويض للدولة العثمانية تحت ستار العروبة وذلك حتى يسهل عليهم تقسيم المنطقة بينهم، بالإضافة لما سيؤديه هذا الطرح من حصر الحركة العربية بعد ذلك في آسيا لأنه لم يكن سهلاً أن تفصل العروبة عن الإسلام في أفريقيا العربية.

وكي يتحقق هذا المخطط بدأ الاستعمار يربى تلامذته بإرسالهم في بعثات إلى أوروبا أو عن طريق الإرساليات والمبشرين والمدارس والصحف التي كانوا يمولونها ويشرف عليها عملاؤهم.

ولقد توج هذا النشاط والمد الاستعماري بالثورة العربية الكبرى التي خطط لها الإنجليز ونفذوها على أعين العرب وبأيديهم.. هذه الثورة التي كانت أسفيناً في جسد دولة الإسلام. وإذا كانت الأمور بخواتيمها فإن تاريخ هذه الأمة لن يرحم هؤلاء الذين رفعوا سلاح أعدائهم في وجه أخوتهم حتى وإن تعللوا بما تعلل به الأمير علي بن الحسين عندما قال: «لم نكن سوى بداة بسطاء.. لم يسبق لنا قبل الثورة أن دخلنا في الحياة الدولية أو عاملنا الأجانب أو اتصالنا بهم من قريب أو بعيد ولقد جاءنا الإنجليز إلى الحجاز.. ولم نذهب إليهم.. جاءونا بورقة بيضاء في ذيلها ختم الإمبراطورية.. وقالوا لنا هذه ورقة رسمية فاكتبوا فيها ماتشاءون ونحن مستعدون للتنفيذ والتلبية فصدقناهم وغدروا بنا». وكذلك مارواه أمين سعيد في كتابه «أسرار الثورة العربية ومأساة الشريف حسين» عن قائد الثورة «إنه لم يعش بعد وصوله إلى الأردن سوى بضعة أيام كان خلالها فاقد الوعي والشعور وكان ينادي ويقول: هذا جزاء الذين يثقون بالإنجليز ويصادقونهم ويعملون معهم».

إن التاريخ لن يرحم بل وسيزدري كل من يحاول أن يتبع تكتيكاً أو استراتيجية منفصلة عن أيديولوجية أمته سواء أكان الشريف حسين أم طابور الزعماء والقادة الذين مافتئوا يتناوبون قيادة هذه الأمة واغتصاب السلطة فيها. وسقطت دولة الخلافة وعسكرت الجيوش الصليبية في بلادنا ولكن الاستعمار الذي يعرف أنه لا مقام لجيوشه في بلاد الإسلام بدأ يقسم هذه المنطقة ويسلمها لأعوانه وتلامذته الذين صنعهم على عينه، فالخوف من خطر البعث الإسلامي والثورة الإسلامية ظل يقلقهم ويرعبهم كما بقي ماثلاً في مخططاتهم وحساباتهم.. فرغم كل جهودهم إلا أن الجماهير والحركات الإسلامية بقيت مركز الجذب في المنطقة بمواقفها البطولية ضد الاستعمار سواء قبل سقوط دولة الخلافة أم بعد سقوطها، بدءاً من ثورة المهدي الإسلامية في السودان التي لو قدرت لها الحياة لتغير وجه أفريقيا والمشرق العربي وانتهاءً بثورة إيران الأخيرة تحت زعامة القائد الإسلامي آية الله الخميني مروراً بالزعيم الثائر جمال الدين الأفغاني الذي وقف للاستعمار بالمرصاد وطارده في كل مكان وكان أباً روحياً لكثير من المفكرين والدعاة والحركات الإسلامية.

وكذلك الثورات الإسلامية المتواصلة في الجزائر بقيادة عبد القادر الجزائري وابن باديس وجمعية العلماء، الأمر الذي جعل الميثاق الوطني الجزائري ـ وهو الميثاق العلماني ـ يقر لها بهذا الدور المهم معتبراً أن الإسلام كان الحصن المنيع الذي مكن الجزائريين من الصمود في وجه جميع محاولات النيل من شخصيتها، فقد تحصن الشعب الجزائري بالإسلام دين النضال والصرامة والعدل والمساواة واحتمى به في أحلك عهود السيطرة الاستعمارية واستمد منه تلك الطاقة المعنوية والقوة الروحية التي حفظته من الاستسلام لليأس وأتاحت له أسباب الانتصار.

وفي المغرب قام المجاهد عبد الكريم الخطابي الذي هزم الجيوش الأسبانية وواجه جيشاً فرنسياً جراراً اشترك فيه الأسطول والطيران على خط قتال امتد ٤٥٠ ميلاً.

وفي ليبيا كان للحركةالسنوسية والمجاهد عمر المختار دور مهم في مقاومةالطليان الذين جاءوا بما يقارب المائة ألف جندي لإبادة الشعب الليبي المسلم.

وفي فلسطين قاد الشيخ عز الدين القسام الذي كان تلميذاً للشيخ محمد عبده ثورة ضد الإنجليز حتى استشهد فاستمرت بعده بلا انقطاع، وفي عام ١٩٤٨ خاض الإخوان المسلمون قتالاً مشرفاً أذهل الجميع وكشف عن خطورة هذه الجماعة المؤمنة على مصالح الاستعمار والصهيونية.

ولكن الاستعمار حاول عزل كل هذه الثورات والحركات الإسلامية وقاد مع أعوانه وتلاميذ تيار التغريب حملة مضادة افتتحها فرح انطون بكتابه عن ابن رشد وفلسفته (١٩٠٢) هذا الكتاب الذي كان نسخة مشوهة عن كتاب المفكر الفرنسي «أرنست رينان» عن «ابن رشد والرشدية» (١٨٥٢) ثم تبعه علي عبد الرازق الذي طالب في كتابه «الإسلام وأصول الحكم» بفصل الدين عن الدولة مقتدياً بما فعله الأوروبيون ومتناسياً أو متجاهلاً أن الصدام الذي حدث في أوروبا مرفوض وليس منطقياً حدوثه في مجتمعنا الإسلامي لأسباب عديدة لا مجال هنا لمناقشتها.. وإن كان يكفي أن نشير إلى أن الصراع الذي نشأ بين الكنيسة ـ التي تحمل وجهة النظر المسيحية في العزوف عن الحياة والسعي وراء الكسب ـ وبين البرجوازية الصاعدة لم يكن بالإمكان حدوثه هنا.. فالإسلام بالإضافة لكونه جاء بتنظيم أكثر شمولاً في

كل جوانب الحياة الإنسانية فإنه لم يطالب أتباعه إلا بأن يكونوا أكثر فعالية في الجانب الدنيوي، وهو الشيء الذي سيشبع رغبات ويحقق طموح أي قوة صاعدة فاعلة.

ثم كان أحمد لطفي السيد الذي دعا إلى (تجنيس) الأجانب في مصر في وقت كان هؤلاء يسيطرون على الحياة الاقتصادية تقريباً وكأنه يدعو أن يمتد هذا الأثر الاقتصادي إلى الحياة السياسية. وطه حسين الذي دعا في كتابه «مستقبل الثقافة» إلى إذابة الأمة المصرية في الحضارة الأوروبية (خيرها وشرها، حلوها ومرها مايحب منها ومايكره ، ما يحمد وما يعاب) على حد تعبيره.. وهذا أخيراً لويس عوض في أهرام ٧ ابريل ١٩٧٨ يعتب علينا أننا علمنا أبناءنا تاريخ طارق وصقر قريش وصلاح الدين أكثر مما علمناهم تاريخ على بك الكبير ومحمد علي والخديوي إسماعيل..

وعلى حين كانت هذه الأفكار الليبرالية تشق طريقها في أوساط رجال الفكر والأدب كان الوجه الآخر للعملة هو وصول الأنظمة الليبرالية إلى سدة الحكم كأول بديل منظم عن الإسلام.. ولكن هذه الأنظمة ـ التي لم تستعر من الليبرالية الغربية إلا شكلها ويبدو أنه لم يكن باستطاعتها غير ذلك ـ سرعان ماأعلنت عجزها عن الاستمرار في مزاعمها عن حفظ هذه الأمة وتدعيم مسيرتها الوطنية وجاءت هزيمة ١٩٤٨ لتعلن:

١ ـ عدم وعي الأنظمة الليبرالية بطبيعة الصراع.

٢ ـ عدم قدرتها على المواجهة مع العدو للنهاية.

٣ ـ عجزها عن تحقيق التحديث ضمن استقلال وطني حقيقي.

٤ ـ عدم أصالتها وطروئها على المجتمع الإسلامي.

[ولكن تيار العلمانية والتغريب لم ييأس بهزيمة الليبرالية وحاول إنقاذ نفسه وقطع طريق العودة على الحل الإسلامي الذي لاح في الأفق فطفت ظاهرة الانقلابات العسكرية التي كان لأجهزة المخابرات الأمريكية دور الأسد فيها..

وبدأت ماسميت بالاشتراكيات الثورية تأخذ دورها كبديل جديد. وإذا كانت الأنظمة الليبرالية قد مارست دورها عن طريق وضع العوائق أمام الحركة الإسلامية ومحاولة إضعافها بالغزو والقهر الفكري أحياناً وبالعزل السياسي أحياناً أخرى فقد مارست الأنظمة الاشتراكية العسكرية دورها عن طريق التصفية الجسدية للحركة الإسلامية فضلاً عن القهر الفكري والعزل السياسي، وكان الاشتراكيون والفوضويون يعاملون الحركة الإسلامية كخصوم سياسيين (بل ودون ذلك بكثير) لا كخصوم أيديولوجيين، لأنهم ـ كأحد الأسباب فقط ـ يدركون أن المعركة بوجهها الثاني تعني سقوط الأقنعة. ولسنا هنا بصدد تقييم التجربة الاشتراكية التي سرعان ماجاءت هزيمة ١٩٦٧ لتعلن ماسبق أن أعلنته هزيمة ١٩٤٨ في المواجهة الكبرى بين الأمة العربية والإسلامية وبين الاستعمار الجديد والصهيونية في الحملة الصليبية العاشرة التي بدأت عام ١٩٤٨ وما زالت نارها تستعر.

ورغم أن شهادة الوفاة قد وقعت للأنظمة الاشتراكية العسكرية أو الثورية أو الفوضوية (سمها ماشئت) كما وقعت لشقيقتها الأخرى في تيار التعذيب «الليبرالية».. رغم توقيع شهادة الوفاة إلا أنه يبدو أن الدفن لم يتم بعد.. في محاولة يائسة لإعادة الحياة للجثث التي زكمت رائحتها الأنوف، وكما مضت سنة التاريخ على الشاه الذي حاول كأحد معاقل الليبرالية ان يستعصي على الدفن فإنها ستمضي على الآخرين.. كما سينتهي الزمان الذي يستغرق الكفاح ضد الصهيونية مناضلاً عربياً ينتمي إلى منظمة ثورية يستشهد شبابها المسلم كل يوم بينما هو يكتب لنا عن محنة إبليس في القرآن ، ألا وهو صادق جلال العظم في «نقد الفكر الديني». كما ستنتفي أصوات كهذا النشاز الذي صدر في الذكرى السادسة لنكبة ١٩٦٧ (ربما بالصدفة) عن دار العودة للماركسي العراقي هادي العلوي (في الدين والتراث) ليعلن بكل وقاحة أنه «مبدئياً ليس بين الإسلام والاستعمار تناقض فالاستعمار لا يحارب الأديان لأنها أصلاً لا تحاربه والإسلام كعقيدة لا شأن له بالاستعمار». ويصيح مرة أخرى«أن الأيديولوجية الثورية تتعارض في جوهرها مع

الدين وليس للدين بدوره أن يقدم أي مساهمة في كفاحنا الحالي ضد الاستعمار والإمبريالية».

هل قرأ هذا (المناضل) تاريخ أمته! أم أنه كمناضل ثوري لا يجوز له النظر إلى الوراء.. إن كان كذلك فإن في كفاحنا الحالي ضد الاستعمار والإمبريالية شاهداً عليه.

وقفة مع الحركة والثورة الإسلامية

في الوقت الذي كان فيه التحدي الغربي الحديث يخترق حدود بلادنا محاولاً تنحية الأيديولوجية الإسلامية عن القيادة ومحاولاً طرح بدائله، ظهرت الحركة الإسلامية كرد فعل طبيعي لهذا الغزو ولسقوط الخلافة وكان لظهورها في العشرينات كتيار اجتماعي فعال في المجتمع الإسلامي أثره الكبير.. فقد بدأت خطوات جادة على طريق البعث الإسلامي لإعادة الأمة المسلمة إلى الوجود والتأثير الدولي مرة أخرى، فنجحت إلى حد كبير في إرجاع التوازن النفسي للمجتمع الإسلامي وأدت دورها في عملية التصفية النفسية للفرد وللمجتمع الإسلامي ليتخلص من عقدة النقص تجاه التحديات القادمة. وقد عبر المفكر الإسلامي توفيق الطيب في كتيبه (مابعد النكبتين) ـ الذي صدر بعد نكبة ١٩٦٧ ـ عن المأمول من هذا الدور قائلاً: لم يعد هناك عذر لمثقف مسلم بعد اليوم أن يطالع كتاباً أوروبياً مفتوناً بل دارساً وناقداً، ولا يقف أمام لوحة لا يفهمها معجباً بل متأملاً ومتذوقاً، ولا أن يقف أمام آلة مبهوراً بل متعلماً ومسيطراً أو معللاً وربما يصبح يوماً معلماً أو كما يريده القرآن الكريم شاهداً.

ولقد نمت الحركة الإسلامية التي خرجت من وسط وبدعم الجماهير الشعبية بطريقة أدهشت المراقبين مؤكدة ماجاء في كتاب Whither Islam الذي كتبه جماعةمن المستشرقين بإشراف مستشار الخارجية البريطانية هـ. أ. جيب. «إن الحركات الإسلامية تتطور بسرعة مذهلة تدعو إلى الدهشة.. فهي تنفجر انفجاراً

مفاجئاً وقبل أن يتبيّن المراقبون من إماراتها مايدعوهم إلى الاسترابة في أمرها.. فالحركات الإسلامية لا ينقصها إلا وجود الزعامة.. لا ينقصها إلا ظهور صلاح الدين».

ولقد استطاعت حركة كحركة الإخوان المسلمين مثلاً أن تكون أكبر تجمع جماهيري فقد دخلت قرى مصر ومدنها ودخلت الجيش والجامعات، وكان السر في هذا التجمع الجماهيري على حد تعبير ماركسي مصري ـ كتب بدون حس محايد أو موضوعي مقدمة تحليلية لترجمة كتاب ريتشارد ميتشل عن الإخوان المسلمين ـ يقول «إنهم انطلقوا من أيديولوجية قادرة على جذب أوسع الجماهير ثم إنهم أثبتوا في التنظيم المحكم والقوى والفعال مهارتهم حتى أنهم سحبوا من خصومهم التقليديين ـ الشيوعيين ـ شعاراً من أهم شعاراتهم الكلاسيكية وهو شعار التنظيم الحديدي فطبقوه بينما ظل عند الآخرين في الأغلب الأعم مجرد شعار».

والثورة الإسلامية في انبعاثها كانت تسعى لتوحيد المسلم مع شخصيته ونظريته ورفض الجاهلية القائمة والطواغيت الذين صنعوا التناقض والأزمة في حياة الفرد والمجتمع الإسلامي الذي يحمل أيديولوجية ويرى واقعاً مغايراً تماماً.. واقع الظلم واللا مساواة.. والعملية التغييرية التي سيتم بها التوحيد تنتظم في قضيتين هما وجهان لنفس العملة.. فالأيديولوجية الإسلامية كمنهج رباني واقعي أخلاقي إيجابي وعالمي تتضمن حلولاً لكل مشاكل المجتمع المعاصر ولكن هذه الحلول ستبقى ثرثرة مثقفين يلوكونها في لحظات من النشوة مالم تتسلح بها الجماهير وتتحرك لتطبيقها وتناضل في سبيلها وتخوض الصراعات السياسية من أجل ذلك، وقد يتصور البعض كما تصور شاه إيران وغيره أن هذه المشاكل يمكن حلها في المجتمع الإسلامي بمجرد تحقيق الشروط الموضوعية للحل أو بعضها فقط (المال والتكنولوجيا الغربية) دون الأخذ في الاعتبار الشروط الذاتية.. هذه الشروط التي ترى فيها الثورة الأسمية وترى في استيعابها الجناح الآخر مع الشروط الموضوعية

لتحقيق النهضة، وهذا الشرط الذاتي الذي نقصد تحقيقه هنا هو تعبئة الجماهير في أي معركة سواء معارك التنمية أم الجهاد العسكري وذلك من خلال البعث الإسلامي للأمة ونفض غبار تيارات التغريب والقضاء على ظواهر الازدواجية والتلفيق والانفصام.

وهنا يبرز الوجه الآخر للعملة وهو كيفية الصياغة الثورية للفكر الإسلامي، الصياغة التي تستطيع الحركة الإسلامية بها ومن خلالها إقامة الجسور القوية مع الجماهير المسلمة بحيث تدرك هذه الجماهير معنى ارتباطها بالحركة الإسلامية ودور هذا الارتباط في الحفاظ على تاريخها وتراثها ومصالحها، وبحيث يصبح الجسد الإسلامي جسداً وحداً إذا اشتكى منه عضو تداعت له سائر الأعضاء بالسهر والحمى كما حدثنا الرسول العظيم عليه الصلاة والسلام.

وعملية الصياغة ـ التي يبدو أن الحركة الإسلامية في إيران قد نجحت فيها كما سيتبين من الفصل القادم وبقية الفصول ـ تحتاج إلى اعتماد الحوار الداخلي والنقد ـ والنقد الذاتي خطوة أولى على الطريق ـ ذلك الحوار الذي ربما عطلته حتى الآن الحساسية الشديدة لدى الحركة الإسلامية تجاه النقد والتي ربما يكمن سرها في أن الأباطيل والأكاذيب التي أشيعت عنها كانت أكبر من أن تحتمل بدون رد فعل بل كانت من الكثافة بحيث تكفي فعلاً لعزل هذه الحركة عن جماهير المسلمين خاصة وقد توفر لهذا الجو من الأكاذيب شرطان مهمان:

١ ـ غياب الحركة الإسلامية عن الساحة وصمتها القسري نتيجة لعملية الاعتقال والتصفية.

٢ ـ فقدان العقل العربي والمسلم في مرحلة تعدد الألوان ومرحلة التمويه والإرهاب حاسة النقدية.. هذا الافتقاد الذي ضرب الوعي الاجتماعي للأمة في الصميم فشله عن الرؤية الصحيحة ولو مرحلياً. وربما كان من أرخص هذه الأكاذيب وأخبثها مالفقه رفعت السعيد في كتابه عن الإمام حسن البنا (مكتبة

مدبولي ـ ١٩٧٧) والذي أهداه إلى كل من يعمل من أجل عصر تنوير جديد في مصر ويصد عنها غارات التتار الجدد .. وبخاصة مانقله على لسان الإمام الشهيد في موضوع الشورى مشيراً ببجاحة إلى أن مانقله موجود في رسالة «مشكلاتنا في ضوء النظام الإسلامي» ص٦٠ (راجع صفحة ٩٢ في كتاب السعيد وقابله على رسالة الأستاذ البنا لتدرك أي تنوير يطالب به هؤلاء ومن هم التتار الجدد).. ورغم ذلك فإنني أكرر أن هذه الحساسية يجب ألا تقف حائلاً دون المطلب الأول والأساسي داخل الحركة ألا وهو الحوار الداخلي المسموع والنقد الذاتي وهذا سيقود بالتأكيد إلى تهيئة الجو لتقديم الدراسات العلمية التحليلية للواقع الذي جاءت الحركة لتغيره.. كما سيحقق مطلباً ضرورياً آخر وهو إيجاد تصور إسلامي عن المشاكل الرئيسية في العالم الإسلامي وطبيعتها وأولوياتها، ثم برنامج موحد للعمل يبدأ من تحديد المنطلقات والوسائل ويفهم العلاقة الجدلية بينها ثم تحديد الأهداف النهائية للحركة والأهداف المباشرة وغير مباشرة.

الفصل الثاني
الإمام الخميني.. المفكر والمناضل
(١)

في فصل قادم سنتكلم عن أصول الفكر الشيعي وكيف ظهر، كما سنتحدث في فصل آخر عن تنظيمات الحركة الإسلامية في إيران ودورها. أما في هذا الفصل فسنعرض لفكر الحركة الإسلامية من خلال فكر قائدها الإمام آية الله الخميني.. هذا الزعيم الذي بدأ اسمه يطرق أسماع المسلمين والعالم منذ بداية الستينات كرمز وملهم وقائد للثورة الإسلامية في إيران والتي أصبحت نموذجاً عظيماً وفريداً في تاريخ الثورات الإنسانية.. ومنذ بداية حياته كان الإمام طالباً واسع الطموح إلى العلم متميزاً بالورع والتقوى والزهد.. وقد بدأ يظهر في الأوساط العامة والشعبية منذ الأربعينات من خلال حلقات التدريس في المدرسة الفيضية في مدينة (قم) حيث التف حوله آلاف الطلبة.. الذين لم يشغل نفسه باصطناعهم كدراويش ومريدين بل أعدهم كقواعد للاحتجاج والثورة.

وفي أثناء أزمة البترول وحكومة مصدق (١٩٥١) كان الإمام الخميني قريباً من الزعيم الإسلامي الكبير آية الله الكاشاني.. وآية الله الكاشاني هو الرجل الذي دوى صوته في جميع أنحاء الدنيا: «أيها الكلاب الإنجليز.. اتركوا لنا بترولنا واخرجوا من بلادنا».. وهو الذي كان الدعامة الروحية لثورة رشيد عالي الكيلاني في العراق ١٩٤١ وكان مع الكيلاني والحاج أمين الحسيني مفتى فلسطين يشكلون ثالوثاً يحكم بغداد في تلك الأيام، وعندما فشلت الثورة صحب الكيلاني والحسيني معه إلى إيران.

ولقد بلغ من قوة الرجل أنه عندما اغتال الفدائي المسلم خليل طهمسبي عضو منظمة «فدائيان إسلام» رزم أراه رئيس الوزراء الإيراني أن أصدر آية الله الكاشاني بياناً قال فيه «أن الرصاصات التي أردت رزم أراه قتيلاً، كانت رصاصات مباركة مصحوبة بتوفيق الله». ثم وجه رسالة مثيرة إلى الشاه يقول فيها:

هو العزيز

يا ابن بهلوي

يجب أن تعتذر لخليل طهمسبى عما لحقه من عناء من جراء القبض عليه ويجب أن تطلق سراحه بشرف وكرامة قبل أن تمر ثلاثة أيام وإلا فإن جميع المسؤولين عن القبض عليه سينزل بهم نفس العقاب الذي نزل (برزم أراه)، يجب أن تطلق سراح رجلنا المقدس خلال هذه الأيام الثلاثة، وإن لم تفعل هذا فأنت تقترب من الجحيم خطوة خطوة.

والكاشاني هو الذي بقي وراء مصدق يدعمه حتى أوصله إلى السلطة، وقصة المظاهرة الضخمة التي قادها في إيران يوم أن أحيط منزل آية الله الكاشاني بسياج من رجال الأمن لمنعه من القيام بتلك المظاهرة التي ستدعم مصدق معروفة.. يومها نظر آية الله الكاشاني إلى ولده السيد محمد كاشاني قائلاً: هاتوا الكفن. وجاءوا بالقماش الذي أعده لكفنه فلف نفسه فيه ثم تحرك بين أتباعه خارج المنزل المطوق برجال الأمن المدججين بالسلاح ووقف الجميع مشدوهين بلا حراك أمام هذا الكفن الذي يمشي على قدمين ونسي رجال الأمن مهمتهم أمام جلال وهيبة الموقف. ومر آية الله الكاشاني وسرى النبأ في طهران لتخرج أكبر مظاهرة شعبية في تاريخ إيران حتى ذلك الوقت.

وقبل أن نعود مرة أخرى إلى الإمام الخميني نشير إلى ماذكره الكاتب الأمريكي روبير جاكسون في كتابه عن حسن البنا «ولو طال عمر هذا الرجل (الإمام البنا) لكان يمكن أن يتحقق الكثير لهذه البلاد، خاصة لو اتفق حسن البنا وآية الله الكاشاني الزعيم الإيراني على أن يزيلا الخلاف بين الشيعة والسنة، ولقد التقى الرجلان في الحجاز عام ١٩٤٨، ويبدو أنهما تفاهما ووصلا إلى نقطة رئيسية لولا أن عوجل حسن البنا بالاغتيال».. هذه الإشارة تدل على ضرورة وأهمية وخطورة مثل هذا التقارب بين الكاشاني والبنا في الماضي وماهو مطلوب من تقارب بين

الخميني وبقية الحركات الإسلامية في العالم الآن. ويعلق أحد اتباع الإمام البنا على حديث جاكسون قائلاً (فما باله لو أدرك عن قرب دوره في هذا المجال (التقريب).. مما لا يتسع لذكره المقام).

ولقد كان الإمام الخميني من موقع المقرب من آية الله الكاشاني يراقب ويشارك في كل مايجري من أحداث مهمة، معداً نفسه للمهمات التاريخية القادمة.. وعندما أعلن شاه إيران (الثورةالبيضاء) قاوم الإمام الخميني الشاه بكل قوة ونشاط ليكشف زيف هذه الثورة منطلقاً من قناعته بأن السلطة الإيرانية مرتبطة أساساً بالاستعمار وتابعة له وهي بالتالي تصدر في حركتها عن أوامر وتوجيهات الاستعمار وقاد وقتها انتفاضة الجماهير الشعبية في ٥/ ٦/ ١٩٦٣.. التي قدم فيها الشعب المسلم آلاف الشهداء الذين سقطوا برصاص الشاه.. والتقى الشاه وقتها بالخميني الذي أسمعه كلاماً قاسياً لم يتحمله كبرياء الشاه فخرج الأخير غاضباً طالباً من مدير أمنه أن يأخذوا الإمام إلى تركيا حيث بقى هناك حوالي عام انتقل بعدها إلى النجف الأشرف في العراق.

(٢)

هذا ويعتبر جمهور وعلماء الشيعة أن الزعامة العليا لهم مقسمة بين الإمام آية الله الخميني الذي يتبعه أغلب المسلمين الشيعة في إيران والباكستان والهند وأفغانستان وبين المرجع الديني السيد أبو القاسم الخوئي الموجود في العراق.. ويمثل الإمام الخميني التيار المتحرك الذي يريد إعادة الحياة للدين الإسلامي كأيديولوجية تعالج جميع جوانب الحياة وذلك عن طريق إقامة الحكومة الإسلامية، بينما يمثل السيد أبو القاسم الخوئي اتجاهاً تقليدياً يحاول الابتعاد عن المعارك السياسية.

وينطلق الإمام الخميني من فهمه الإسلام بمعناه الشمولي الثوري (الإسلام هو دين المجاهدين الذين يريدون الحق والعدل. دين الذين يطالبون بالحرية والاستقلال والذين لا يريدون أن يجعلوا للكافرين على المؤمنين سبيلاً) (كتاب الحكومة

الإسلامية ـ ١٣٨٩هـ ـ ص٨) ويهاجم التصور الذي حاول الاستعمار إدخاله إلى بلادنا أثناء عملية الغزو الفكري والعسكري والقائل بأنه لا علاقة للإسلام بتنظيم الحياة والمجتمع، وبأنه فقط الحيض والنفاس، وقد تكون له أخلاقيات ولكنه لا يملك بعد ذلك من أمر الحياة وتنظيم المجتمع شيئاً. ويعتقد أن هذا التصور قد جاء من خلال النشاط الاستعماري الذي برز منذ ثلاثة قرون لأن أكبر مايمنعهم من نيل مآربهم ويضع خططهم السياسية على شفا جرف هار هو الإسلام بأحكامه وعقائده وبما يملك الناس من إيمان.

ويهاجم بسخرية وبشدة من أسماهم (المتظاهرين بالقداسة البلهاء) من رجال الدين الذين يصورون الإسلام نظاماً روحانياً لا علاقة له بالسياسة والشؤون الاجتماعية، طالباً اعتبارهم أعداء من الداخل (لأن هؤلاء لا يهتمون بما يجري ويحولون بين العلماء الحقيقيين وبين تسلم السلطة والأخذ بزمام الأمور، فهؤلاء يوجهون أكبر لطمة للإسلام..) «الحكومة الإسلامية ، ص١٤٠».. وهو يطالب بتطهير المراكز الدينية من فقهاء ووعاظ السلاطين كما أسماهم، ورفضهم قائلاً: (هؤلاء ليسوا بفقهاء.. وقسم منهم قد ألبستهم دوائر الأمن والاستخبارات العمائم لكي يدعوا الله للسلطان ويستنزلوا عليه بركاته ورحماته) .هؤلاء يجب فضحهم لأنهم أعداء الإسلام، يجب على المجتمع ان ينبذهم ففي نبذهم واحتقارهم نصر للإسلام ولقضية المسلمين، يجب على شبابنا وأبنائنا انتزاع عمائم هؤلاء من فوق رؤوسهم» لا أقول اقتلوا هؤلاء.. فلتنزع عنهم عمائمهم على الأقل (صفحة١٤٣ الحكومة الإسلامية).

كما يقول في بيان أصدره بتاريخ ٢١ شعبان من العام الماضي: يجب أن يدعو أئمة الجماعة المحترمون خطباء مؤمنين وحريصين على الحركة الإسلامية ومن ذوي الأهداف السامية لكي يتحملوا مسؤولية توعية الناس وعليهم أن يتجنبوا بشدة دعوة (وعاظ السلاطين) والأشخاص الذين يحمون مصالح النظام بعلم أو بدون علم بانتخابهم موضوعات تلهي الشعب عن القضايا الرئيسية المعاصرة.

ويقف الإمام آية الله الخميني موقفاً إسلامياً وثورياً رائعاً عندما يقف في وجه

بعض الشيعة الذين يجلسون في انتظار المهدي ليقيم حكم الإسلام وليملأ الأرض عدلاً بعد أن ملئت ظلماً وجوراً وقول البعض منهم: أنه ينبغي إشاعة المعاصي كي يظهر المهدي.. بمعنى أن الفواحش إذا لم تنتشر فإن المهدي لن يظهر. ويرد على هؤلاء قائلاً: «قد مر على الغيبة الكبرى لإمامنا المهدي أكثر من ألف عام وقد تمر ألوف السنين قبل أن تقتضي المصلحة قدوم الإمام المنتظر، في طول هذه المدة المديدة.. هل تبقى أحكام الإسلام معطلة؟ يعمل الناس في خلالها مايشاءون؟ ألا يلزم من ذلك الهرج والمرج؟ القوانين التي صدع بها نبي الإسلام ﷺ وجهد في نشرها وبيانها وتنفيذها طيلة ثلاثة وعشرين عاماً، هل كان كل ذلك لمدة محدودة؟ هل حدد الله عمر الشريعة بمئتي عام مثلاً؟ هل ينبغي أن يخسر الإسلام من بعد الغيبة الصغرى كل شيء؟ الذهاب إلى هذا الرأي أسوأ في نظري من الاعتقاد بأن الإسلام منسوخ.

فلا يستطيع أحد يؤمن بالله واليوم الآخر أن يقول إنه لا يجب الدفاع عن ثغور الوطن أو أنه يجوز الامتناع عن دفع الزكاة والخمس وغيرها أو يقول بتعطيل القانون الجزائي في الإسلام وتجميد الأخذ بالقصاص والديات. إذن فإن كل من يتظاهر بالرأي القائل بعدم ضرورة تشكيل الحكومة الإسلامية فهو ينكر ضرورة تنفيذ الأحكام الإسلامية ويدعو إلى تعطيلها وتجميدها وهو ينكر بالتالي شمول وخلود الدين الإسلامي الحنيف» (ص٢٦ من المرجع السابق).

ويعتبر أن العلم بالقانون والعدالة هي أهم أركان الإمام ويقول. فرأي الشيعة فيمن يحق له أن يلي الناس معروف منذ وفاة الرسول ﷺ وحتى زمان الغيبة فالإمام عندهم فاضل عالم بالأحكام والقوانين وعادل في إنفاذها لا تأخذه في الله لومة لائم» ص٤٧، ويقول ص١٩ «الخليفة ليس مبلغ قوانين أو مشرعاً إنما الخليفة يراد للتنفيذ»، وفي ص٢٨ «فالقرآن المجيد والسنة الشريفة يحتويان على جميع الأحكام والأنظمة التي تسعد البشر وتنحو بهم نحو الكمال». وعن وحدة المسلمين يرى الإمام الخميني ضرورة وحدة البلاد الإسلامية التي جزأها الاستعمار وحول أهلها

إلى شعوب وينظر للدولة العثمانية كدولة موحدة حاربها الاستعمار «عند ظهور الدولة العثمانية كدولة موحدة سعى المستعمرون إلى تفتيتها، ولقد تحالف الروس والإنجليز وحلفاؤهم وحاربوا العثمانيين ثم تقاسموا الغنائم كما تعلمون».. وهو وإن كان ينتقد أكثر حكام العثمانيين إلا أنه يرى أن الاستعمار كان يخشى من وصول بعض ذوي الإصلاح إلى منصة القيادة (فيبدد كل آمال الاستعماريين وأحلامهم، لهذا السبب مالبثت الحرب العالمية الأولى أن انتهت حتى قسموا البلاد إلى دويلات كثيرة وجعلوا على كل دويلة منها عميلاً لهم..) ص٣٤، ٣٥.

ويرى أن الحل وقتها كان فرض الجهاد على كل مسلم ومسلمة دفاعاً عن الدولة العثمانية عندما دخلت الجيوش البريطانية إلى البصرة بالعراق.. ويرى الإمام الخميني أن الوسيلة لتوحيد الأمة هي إسقاط الحكومات العميلة له «ثم السعي إلى إقامة حكومتنا الإسلامية وهذه بدورها سوف تكلل بالنجاح يوم تتمكن من تحطيم رؤوس الخيانة وتدمر الأوثان والأصنام البشرية والطواغيت التي تنشر الظلم والفساد في الأرض» (ص٣٥)، ويسهب الإمام في البحث عن أدلة ضرورة تشكيل الحكومة من القرآن والسنة وينتهي إلى تحريم التحاكم إلى حكام الجور كما أسماهم.. وعندما يتكلم عن الحكومة الإسلامية يرى أنها لا تشبه الأشكال الحكومية المعروفة لأنها ليست مطلقة ليستبد رئيس الدولة برأيه ولكنها دستورية.. وإن كانت ليس بالمعنى المتعارف عليه لكلمة دستوري التي تعني النظام البرلماني أو المجالس الشعبية وإنما بمعنى تقيد القائمين على الأمر بمجموعة من الشروط والقواعد المبينة في القرآن والسنة، وإن كان ممثلو الشعب والملك هم الذين يقننون ويشرعون في النظم الدستورية فإن سلطة التشريع في الإسلام تنحصر في الله عز وجل وليس لأحد أياً كان أن يشرع وليس لأحد أن يحكم بما لم ينزل الله به من سلطان، ولهذا السبب فقد استبدل الإسلام المجلس التشريعي بمجلس آخر للتخطيط (ص٤٢)، وحكومة الإسلام حكومة قانون، الحاكم هو الله وحده كما أنها ليست ملكية ولا شاهنشاهية ولا إمبراطورية تغرق في البذخ والترف.. ولكن كيف السبيل إلى

تشكيل حكومة إسلامية.. إنه سبيل النضال (فالأفكار تبدأ صغيرة ثم تكبر، ثم يتجمع من حولها الناس ثم تكتسب القوة ثم تأخذ بيدها زمام الأمور) ص١١٩.

ولهذا فهو يرى أن الحركة الإسلامية يجب أن تلتحم مع القواعد الجماهيرية وتعمل بشكل دائب على توعيتها وتنويرها وفضح أساليب خداعها وطرق امتصاص نقمتها وأساليب المتاجرة بقضاياها، ونرى ذلك في البيان الذي أصدره في ١٥ شوال بمناسبة زلزال خراسان في العام الماضي «يا كل جماهيرنا المسلمة في إيران احذروا أساليب السلطة ولا تسمحوا لحوادث الزلزال والسيول وماشابه ذلك أن تنحرف بكم عن مسيركم.. ولا تسمعوا لأبواق الشاه الدعائية واستمروا في ثورتكم الإسلامية حتى إسقاط النظام الاستبدادي القائم على إذلال الشعب وقهره وعلى رجال الدين في هذا الوقت الذي يستغل فيه الشاه حوادث الزلزال لإغفال الشعب عن قضيته، أن يتحملوا مسؤوليتهم الدينية الثقيلة في توعية الناس بهذه الأساليب الدنيئة.. وعلى السياسيين والمثقفين والجامعيين أن يؤدوا رسالتهم الإسلامية ولا يسمحوا للسلطات بأن تنحرف بالثورة أو أن تخمد جذوتها».

وعندما حاول الشاه إدخال بعض التغييرات الإسلامية الشكلية لسحب البساط من تحت أقدام رجال الدين وذلك عن طريق وزارة جعفر شريف إمامي فضح الإمام الخميني ذلك الأسلوب في بيان أصدره في ٢٣ رمضان ١٣٩٨ قائلاً «وأما إغلاق نوادي القمار فأمر لا قيمة له وأنه مكر آخر لتضليل جناح رجال الدين.. إنما يغلقون نوادي القمار باحترام الإسلام! في الوقت الذي لم تزل فيه سائر مراكز الفحشاء في مكانها!! ولا يزال الظلم والقتل والنهب تصرفات عادية لدى جلادي الشاه، بالرغم من قوانين الإسلام وآيات القرآن الكريم.!! يدعون إعطاء الحرية في الوقت الذي لم يزل أفضل وأعز أبناء الإسلام وأبناء إيران في السجون والمعتقلات وتحت التعذيب الملكي أو يعيشون في المنفي.!!».

ولقد نجح الإمام الخميني بهذا الأسلوب وأصبحت أشرطة الكاسيت ومنشوراته هي الخبز اليومي للجماهير المسلـمة في إيران. ويركز على الكلمة والدعوة في دور البعث قائلاً قبل عشر سنوات «أنتم اليوم لا تملكون دولة ولا جيشاً ولكن تملكون أن تدعوا فلـمَ يسلبكم عـدوكم هذه القدرة علـى الدعوة والتوجيـه والتبليغ. عـلينا أن نسـعى لوضع حـجر الأساس للـدولة الإسلاميـة الشرعـية فندعـو ونثبت الأفـكار ونصدر تعليماتنا ونكسب المساندين والمؤيدين لنا، ونوجد أمواجاً من التوجه الواعي والإرشاد المـنسق لـلجمـاهير لـيحصـل رد فعـل جماعـي تكون عـلى أثره جـموع المسلـمين الواعيـة المتمسـكة بدينـها على أتم الاسـتعداد للـنهوض بأعـباء تشكـيل الحكومة الإسـلامية» ص١٢٠، وينادي الإمام بالتـركيز على صفوف الجامـعيين في الدعوة لأنهم أكثـر تفتحاً من غيرهم وأشد الناس عـداوة للتسلط والعمالة والخيانة وعمليات نهب الخـيرات والثروات.. كما يدعو للاستفادة ممـا أتاحه لنا الإسلام من فرص اللقاء التي قد لا تتحقق لغير المسلمين إلا بصعوبة مثل صلاة الجماعة والحج والجمعة «فما علينا إلا أن نعتبر هذه الاجتماعات فرصاً ذهبية لخدمة المبدأ والعقيدة لنبين فيها العقائد والأحكام والأنظمة على رؤوس الأشهاد فعلينا أن نفيد من موسم الحج ونجني منه أطيب الثمار في الدعوة إلى الوحدة والدعوة إلى تحكيم الإسلام في الناس كافـة، وعلينا أن نبحـث مشكلاتنا ونكتـشف ماوضعه لها الإسـلام من حلول جذريـة» ص١٢٥ «يا أبناء الإسـلام كونوا أشـداء أقوياء في بـيان حجـتكم للـناس لتـغلـبوا عـدوكم بـكل أسـلحـته وعـسكره وحـرسه، بـينـوا الحقـائق لـلجـماهـير واستنهضـوهم، وانفخوا في أهل السـوق والشارع وفي العامل والفـلاح والجامعي روح الجهاد.. الجميع سيهبون للجهاد».

هذه كلـمات الإمام الخمـيني منـذ أكثر من عـشر سنوات نـراها واقعاً حـياً في شوارع إيـران.. نشهدهـا وقد أتت أكلـها وثمـارها في كل مـواطن.. فهذا مـراسل إحدى المجلات الأمـريكية يسأل مـواطناً عادياً لـم لا يذهب ابنه لـلمدرسة فيجيبه المواطن المسلم: أي مدرسة هذه.. لماذا لا يذهب ويـستشهد في سبيل دينه؟ وإذا كان الإمام الشهيد سيد قـطب قد دعا إلى عملية البعث هذه وفهـم كم هي شاقة وطويلة

وأعلن «وأنا أعرف أن المسافة بين محاولة البعث وبين تسلم القيادة مسافة شاسعة» فإن الإمام الخميني يضع هذا في تصوره وحسبانه فيقول «نحن لا نتوقع أن تؤتى تعليماتنا وجهودنا أكلها في زمن قصير لأن ترسيخ دعائم الحكومة الإسلامية يحتاج إلى وقت طويل وجهود مضنية».

وهو يحذر شباب المسلمين والجماهير من أكاذيب الاستعمار وعملائه مما يحاولون أن يلقونه في روعنا من أن السياسة خبث ومكر ودهاء وذلك ليصرفونا عنها ثم يعبثون هم بأمور الأمة كيفما شاءوا، كما يطالب الشباب المسلمين بأن يخرجوا من عزلتهم ويكملوا برامجهم الدراسية ويركبوا الصعاب من أجل ذلك كي يخططوا للحكومة الإسلامية التي ستقوم بعد إزالة الحكومة الجائرة التي يرى أن إزالتها ستتم بعد عملية الدعوة والبعث من خلا:

١ ـ مقاومة المؤسسات التابعة للحكومة الجائرة.

٢ ـ ترك التعاون معها.

٣ ـ الابتعاد عن كل عمل يعود نفعه عليها.

٤ ـ تأسيس مؤسسات قضائية ومالية واقتصادية وسياسية وثقافية جديدة.

* * *

وتبقى هناك قضية مهمة في فكر الإمام الخميني وممارسة الحركة الإسلامية في إيران ألا وهي موقفها من قضية فلسطين.. هذا الموقف الذي ينم عن وعي استراتيجي وتكتيكي بالغ الأثر والأهمية وهو موقف يجب أن تتأمله بقية الحركات الإسلامية لتأخذ منه الدرس والعبرة لا على مستوى النظرية فقط بل على مستوى الممارسة والتطبيق ..لأن المراوحة في المستوى النظري هي مراوغة تسمح لكل فكر فج ومائع بالبقاء كى يؤدي دوره بشكل غير صحي.

لقد فهم الإمام الخميني طبيعة ودور الاستعمار والتحدي الغربي الحديث للإسلام والغزو الفكري الذي تلاه.. وأدرك في نفس الوقت أن إسرائيل هي

التجسيد الواقعي لهذا التحدي بل هي حضور التحدي في أشد صوره كما يقول المفكر الإسلامي توفيق الطيب: «فنحن هنا لا نواجه ثقافة الغرب في تيار بل نواجهها في الإنسان الغربي نفسه .. نواجه الحضارة الغربية الحديثة في فكرها وأخلاقها وعلمها ونواجهها لا على صورة حوار سلمي بل على صورة صدام محتدم.. لأننا لا نواجهها كثقافة بل ككتلة بشرية.. كاحتلال وضعنا أمام احتمالين لا مفر منهما: الأرض أو الحرب.. والأرض تعني هنا التاريخ والشعب». ثم يستطرد المفكر الإسلامي توفيق الطيب قائلاً: (إن الإسلام كعقيدة والعرب كشعب يواجهان مصيرهما.. والمحك هو فلسطين) هذا عين ما فهمه الإمام الخميني وعين مافهمه الأستاذ أبو الأعلى المودودي في باكستان عندما أعلن أن قضية فلسطين يجب أن تكون محور الحركة الإسلامية.

ومن هنا نشأت العلاقة بين الحركة الإسلامية في إيران وفلسطين.. هذه العلاقة التي لا يمكن سبر كل أغوارها في مثل هذا الكتاب، وربما كان باستطاعتنا الإشارة لبعض جوانبها، فلقد اتهمت الحركة الإسلامية الشاه دوماً بالعمالة لإسرائيل ومساندتها، يقول الإمام الخميني في كتابه الحكومة الإسلامية: إن نظام الشاه.. يشتري طائرات الفانتوم ليتدرب عليها الإسرائيليون، وبما أن إسرائيل في حالة حرب مع المسلمين فكل من يساعدها ويساندها يكون هو بدوره في حالة حرب مع المسلمين» ص١١٤، وفي حين كان يتم تدريب بعض كوادر الحركة الإسلامية في معسكرات الثورة الفلسطينية ويقوم تعاون وثيق بين الطرفين كان الإمام الخميني يعلن عن مساعدته للكفاح المسلح ويفتي بوجوب العمل على إزالة الكيان الصهيوني ضمن فتواه التاريخية التي قال فيها:

«يجب على الدول الإسلامية وعلى عامة المسلمين ازالة عنصر الفساد ـ إسرائيل ـ وألا يقصروا في مساندة الثوار ويجوز لهم صرف الزكاة وسائر الصدقات في هذا الأمر المصيري».. وعندما حاول الاستعمار والانعزاليون في لبنان تصفية الثورة الفلسطينية أصدر نداءً يكشف فيه أبعاد المؤامرة وأكد ضرورة

توفير الدعم للـمقاومة.. وفي أثناء حرب رمضان ـ اكتوبـر ٧٣ ـ أصدر بيانين حث فيهما الشعوب والدول الإسلامية على مسـاندة الشعوب العربية في مواجهة العدو الصهيونـي المغتصب، ودعا زعماء البـلاد الإسلامية إلى الحذر من جرثـومة الفساد الصهيونية الموضوعة في قلب البلـدان الإسلامية وإلى قطع النفط عن الدول المؤيدة للصهيونيـة إزاء عدوان إسرائيل الوحشي على إخوته العرب والمـسلمين، كما حث الشـعب الإيرانـي المسـلم ألا يقـف محايـداً ودعاهـم لضرب المـصالح الأمـريكـية والإسرائيلية.

وفي رسـالة وجههـا لياسر عـرفات ـ في ١٦ شـوال الماضي ـ يقـول فيها: (إنـنا نختـلف دائماً مع الشـاه في سياسته ومـواقفه من القـضية الفلسـطينية كمـا نحارب إسرائيل وانصارها.. ونلتقي معكم في ثورتكم ضدهم).

ولقد اتـهم الإمام الخمـيني إسرائـيل بالاشتـراك في قمع الـثورة الإسلاميـة في إيران.. ففي بيان له ـ ١٥ ـ شوال ١٣٩٨ ـ يقـول فيه «إن الذين حصدوا برصاص الـرشاشـات أبنـاء الإسلام واتـباع الـقرآن الـكريم كـما هـو معـروف استـنجـدوا بالكوماندوز الإسرائيلي في قتل الجماهير الشجاعة العزلاء».

وبعد.. فهذه لمحة عن فكر الإمام الخميني والحركة الإسلامية في إيران وسنتكلم في فصـل قادم عن التـنظيم الإسلامـي نفسه، وإن كنـت أود أن أشير قبـل ترك هذا الفصل إلـى أن الثورة الإسلامية فـي إيران ثورة إسلامية بمـعناها القرآنـي الرحب.. إنها ليست ثورة طائفة دون طائفة، إن القواسم المـشتركة بين جناحي المسلمين السنة والشيعة لتكاد ـ بل هي فعلاً ـ تشكل جسد هذه الثورة بدءاً من منطلقاتها وأهدافها ووسائلها وبواعثها.. إن الخلاف المطروح بين أهـل السنة والشيعة حول إمامة الأئمة الاثنى عشر وعصمة الأئمة لا يشكل ـ لا سلباً ولا إيجاباً ـ أي تأثير في طبيعة الثورة ومسارها.

ولكن حتى تكتمل موضوعية البـحث لا بد لنا من دراسة سريعة لأصول الفكر الشيعي.

الفصل الثالث

أصول الفكر الشيعي

الشيعة واحدة من أقدم الفرق الإسلامية وأكبرها. وقد تفرعت عن الشيعة فرق عديدة ربما تجاوزت المائة ولكن الفرقة التي تعبر تعبيراً رسمياً ودقيقاً عن الشيعة هي الإمامية. وقد وقفت هذه الفرقة الأخيرة من غالبية الفرق الأخرى موقفاً نقدياً ورافضاً ومكفراً في أحيان كثيرة.. فالإمام محمد الحسين آل كاشف الغطاء الإمامي الإثني عشري يصف الخطابية في كتابه «أصل الشيعة وأصولها» بأنهم ملاحدة خارجون «ص١٢٩».. وهؤلاء هم الذين اشتطوا وقالوا بإلوهية جعفر الصادق ﴿تعالى الله عما يقولون علوا كبيراً﴾ ويقول آل كاشف الغطاء عن فرقة أخرى كالسبأية «هذه كتب الشيعة بإجمعها تعلن بلعنة (عبد الله بن سبأ مؤسس الفرقة والبراءة منه) (وهوألعن من أن يذكر).. وعبدالله بن سبأ كان قد زعم أن علياً كان نبياً ثم غلا فزعم أنه كان الهاً.

والإمامية هي الفرقة التي نقصدها عندما نتكلم عن الشيعة وهم الذين شايعوا الإمام علي رضي الله عنه على الخصوص وقالوا بإمامته وخلافته نصاً ووصاية (أي أن الله قد طلب من الرسول ﷺ أن يخلفه الإمام علي وأن الرسول الكريم قد أوصى بذلك)، وقالوا أن علياً وأولاده الأحد عشر أحق بالخلافة من كل أحد وأنهم أفضل الخلق بعد رسول الله ﷺ.. كما اعتقدوا أن الإمامة لا تخرج من أولاده وإن خرجت فبظلم يكون من غيره أو بتقية من عنده.. ويقول مفكرو الشيعة أن أول من وضع بذرة التشيع من حول الإسلام هو نفس صاحب الشريعة الإسلامية كما يقول آل كاشف الغطاء. ويقول الأستاذ محمد باقر الصدر في كتاب التشيع والإسلام (دار الزهراء ص٤٩) (أن الشيعة ولدوا منذ وفاة الرسول ﷺ مباشرة متمثلين الذين خضعوا عملياً لأطروحة زعامة الإمام علي رضي الله عنه وقيادته التي فرض النبي ﷺ الابتداء بتنفيذها من حين وفاته مباشرة.. وقد تجسد الاتجاه الشيعي منذ اللحظة

الأولى في إنكار ماإتجهت إليه السقيفة من تجميد لأطروحة زعامة الإمام علي رضي الله عنه وإسناد السلطة إليه).

هذا وقد اعتبر بعض الصحابة المخلصين في حبهم للإمام والذين رأوه أحق بالخلافة كبداية لظهور التشيع، ومن هؤلاء سليمان الفارسي وأبو ذر الغفاري والمقداد بن الأسود وعمار بن ياسر والحديث هنا عن الإمامية ينطبق تماماً على فرقة الاثنى عشرية منهم حيث أن هناك فرقا أخرى تنتمي إلى الشيعة الإمامية تختلف في قليل أو كثير:

١ ـ **الكيسانية:** نسبة إلى كيسان مولى الإمام علي.. ويقال أنهم زعموا أن محمد بن الحنفية هو الإمام المهدي وهو القائد المنتظر الذي يملأ الأرض عدلاً كما ملئت جوراً، وقد انقرضت هذه الفرقة.

٢ ـ **الأفطحية:** وقالوا بإمامة عبد الله بن جعفر الصادق وليس موسى الكاظم كما قالت الإمامية الاثنى عشرية ولا إسماعيل كما قالت الإسماعيلية وهم أخوته وقيل أنهم سموا كذلك نسبة إلى رئيس لهم اسمه عبد الله بن فطيح، وربما لأن عبد الله كان أفطح الرأس وقد مات عبد الله دون أن يخلف ولداً ذكراً.. وقد انقرضت هذه الفئة.

٣ ـ **الواقفة:** وهم الذين قالوا بإمامة موسى الكاظم ولا إمام بعده لأنه حي لا يموت، قائم يملأ الأرض عدلاً كما ملئت جوراً وقد انقرضت هذه الفئة أيضاً.

٤ ـ **الناوسية:** وقالوا بإمامة جعفر الصادق وبأنه حي لم يمت وقد انقرضت هذه الفئة أيضاً.

٥ ـ **الإسماعيلية:** وهم الذين قالوا بالإمامة لإسماعيل بن جعفر بدلاً من أخيه موسى الكاظم، ويقولون إن الأئمة بعد إسماعيل كانت أئمة مستورة لأن الإمام يجوز له أن يتستر إذا لم تكن له شوكة وقوة يظهر بها على أعدائه وإنما يظهر دعاته، وظل هؤلاء أئمة يتداولون الإمامة واحداً بعد الآخر في ستر وخفاء

حتى جاء عبد الله المهدي رأس الدولة الفاطمية فاظهر الدعوة لما أحس بالقوة، ويسمون بالباطنية لأنهم يقولون بالإمام الباطن المستور، ولقولهم «لكل ظاهر باطن ولكل تنزيل تأويل».. وقد دان بعضهم بالحلول دون تصريح وإنما قالوا بأن الإمام خلق من نور الله أو نور الله حل به ولا يزال في الهند إلى الآن طائفة من الإسماعيلية.

٦ ـ **الزيدية:** ويتبعون زيد بن علي بن الحسين بن علي ويعتبرون أقرب لأهل السنة من باقي الفرق فهم لا يقولون بالتقية كما أنهم يعترفون بخلافة أبي بكر وعمر وعثمان على أساس مصلحة المسلمين واشفاقاً من الفتنة، ويعتبرون علياً أفضل الخلق بعد الرسول ﷺ لقرابته وسابقته في الإسلام ويجيزون تولية غيره إذا كان الذي يولونه مجرباً، مجوزين إمامة المفضول مع وجود الأفضل وهم لا يقولون بعصمة الأئمة كما لا يقولون باختفائهم وهم لم يجوزوا إمامة غير أبناء فاطمة (كمحمد بن الحنفية).

ولا تزال هذه الفئة قائمة خاصة في جبال اليمن.

٧ ـ **الإمامية الاثنا عشرية:** وهم أكبر الطوائف الإسلامية بعدا عن أهل السنة ويتركزون في إيران والعراق وأفغانستان والهند وباكستان وهم يقولون بإمامة علي وولده الأحد عشر (كما سبق) نصاً ووصية.. في حين لا يرى أهل السنة أن الإمام علي قد ذكر نصاً يعتبر أن الرسول ﷺ عينه للخلافة، ولو كان لديه نص كما يقولون وذكره لما بقي الأنصار والمهاجرون على رأيهم ولبايعوه.. وإن كان بعض الشيعة يعتقد أن الصحابة (رضوان الله عليهم) قد سكتوا عن هذا القضية لأسباب سياسية مخالفين بذلك الرسول ﷺ، إلا أن آل كاشف الغطاء في كتابه أصل الشيعة وأصولها ص١١٣ يتبرأ من هذا القول قائلاً «كلا معاذ الله أن يظن بهم (يقصد الصحابة الكرام ذلك وهم خيرة من على وجه الأرض يومئذ.. ولكن لعل الكلمات لم يسمعها كلهم ومن سمع بعضها لم يلتفت إلى المقصود منها وصحابة النبي الكرام أسمى من أن تحلق إلى أوج

مقامهم بغاث الأوهام».. بل ويقول ص١١٧ أن السلطة المدنية والدينية كانت مجتمعة في الخلفاء الأولين ولم تنفصل عنها ـ على حد تعبيره ـ إلا يوم خلافة معاوية ويزيد، وتعتبر الاثنا عشرية الإمام علي رضي الله عنه أول الاثنى عشر وأن محمد بن المهدي الذي اختفي نحو ٢٦٠هـ هو آخرهم وسيعود هذا في آخر الزمان ليملأ الأرض عدلاً بعدما ملئت ظلماً وجوراً.

هذا وتقوم فلسفة الإمامة عند الإمامية الاثنى عشرية على مبادىء أربعة أساسية:

١ ـ **العصمة:** أي أن الأئمة (الاثنى عشر) معصومون من كل خطأ وزلل. ويقولون بهذا.. ويروى الإمام الكليني في كتابه الكافي عن علي رضي الله عنه قوله «لا تكفوا عن مقالة بحق، أو مشورة بعدل، فإني لست آمن أن أخطيء».. وهناك أيضاً موقف الحسين الذي كره صلح أخيه الحسن مع معاوية قائلاً «لو جز أنفي لكان أحب إلى مما فعله أخي».. ويقول الأستاذ أحمد أمين في (كتابه ضحى الإسلام جزء ٣ ص٢٢٢) «لو كان لعلي كل هذه العصمة والعلم ببواطن الأمور وخفاياها لتغير وجه التاريخ ولما قبل التحكيم ولدبر الحروب خيراً مما دبر. فإن قيل أنه علم وسكت وتصرف وفقاً لقدر فهو خاضع للظروف خضوع الناس، تتصرف فيه حوادث الزمان كما تتصرف في الناس، والرسول ﷺ يقول (لو كنت أعلم الغيب لاستكثرت من الخير وما مسنى السوء)».

٢ ـ **المهدي:** وتعني لغة وديناً الرجل الذي هداه الله فاهتدى وأخذت عند الإمامية معنى «الإمام المنتظر» وهو لا يزال غائباً بين الناس وسيظهر فيملأ الأرض عدلاً كما ملئت ظلماً وجوراً وهو محمد المهدي الذي اختفي نحو ٢٦٠ هـ. وكان الكثير من الشيعة يرى أنه لا تقوم دولة الإسلام مرة أخرى إلا بظهور المهدي.. ولكنا رأينا في الفصل السابق موقف الإمام آية الله الخميني الذي رأي في هذا الانتظار دون التحرك لإقامة حكومة إسلامية أسوأ من نسخ الإسلام، هذا

وتنكر الفرقة الزيدية قضية المهدي بالطريقة المطروحة عند الإمامية الاثنى عشرية.

٣ ـ **الرجعة**: وتعني أن الله يرجع قسماً من الأموات إلى الحياة الدنيا، ويعتقدون أن النبي ﷺ وعلياً والحسن والحسين وباقي الأئمة وكذلك بعض خصومهم من الصحابة كأبي بكر وعثمان وعمر ومعاوية!! يرجعون إلى الدنيا بعد ظهور المهدي ويعذب من اعتدى على الأئمة وغصبهم حقوقهم أو قتلهم.. ولكن الإمام آل كاشف الغطاء يقول في كتابه أصل الشيعة وأصولها «وليس التدين بالرجعة في مذهب التشيع بلازم ولا إنكارها بضار وإن كانت ضرورية عندهم ولكن لا يناط التشيع بها وجوداً أو عدماً» ص٩٩.

٤ ـ **التقية**: هي عندهم كتمان الحق سر الاعتقاد فيه مكاتمة المخالفين ترك مظاهرتهم بما يعقب ضرراً في الدين الدنيا ويروى عن الإمام جعفر الصادق قوله (من لا تقية له لا دين له) واجاز التقية في الذين عند الخوف على النفس وقد تجوز في حالة الخوف على المال وفي حالة الاستصلاح.

ويقول الإمام آية الله الخميني في كتابه الحكومة الإسلامية (ص١٤٢) : «فلا ينبغي التمسك بالتقية في كل صغيرة وكبيرة وقد شرعت للحفاظ على النفس أو الغير من الضرر في مجال الأحكام.. أما إذا كان الإسلام كله في خطر فليس في ذلك متسع للتقية والسكوت».. وتعتبر الشيعة موقف سكوت علي عن أبي بكر وعمر (رضي الله عنهم أجمعين) كان تقية وكذلك موقف الحسن من معاوية.

هذه بإيجاز المبادىء الأربعة التي تقوم عليها الإمامية الاثنا عشرية.

والسؤال الذي يواجهنا الآن ماموقف الشيعة من أهل السنة.. أي من المسلم الذي لا يأخذ بالإمامة وينكر العصمة؟

ورغم أن الإمام الكليني يقول في كتابه الكافي: «لا يكون العبد مؤمناً حتى يعرف الله ورسوله والأئمة كلهم وإمام زمانه ويرد إليه ويسلم له».. إلا أن بعضهم يفسر

كلمة لا يكون مؤمناً بأنه لا يكون مسلماً شيعياً .. ويجيب الإمام محمد الحسين آل كاشف الغطاء على هذا السؤال بشكل حاسم في كتابه: أصل الشيعة وأصولها قائلاً: «والإسلام والإيمان مترادفان ويطلقان على معنى أعم يعتمد على ثلاث أركان: التوحيد والنبوة والمعاد.. فلو أنكر الرجل واحداً منها فليس بمسلم ولا مؤمن، وركن رابع وهو العمل بالدعائم التي بني عليها الإسلام وهي خمس (الصلاة والصوم والزكاة والحج والجهاد) (الشهادة مرت في التوحيد).. فهذه الأركان الأربعة هي أصول الإسلام والإيمان بالمعنى الأخص عند جمهور المسلمين ولكن الشيعة الإمامية زادوا ركناً خامساً وهو الاعتقاد بالإمامة» ص١٢٧ .. وقد اعتبر الإمام آل كاشف الغطاء أن عدم الأخذ بالمبدأ الخامس مع الإيمان والعمل بالأركان الأربعة لا يخرج المسلم عن دائرة الإيمان والإسلام فيقول (نفس المصدر السابق) «... وإذا اقتصر على تلك الأركان (الأربعة فقط) فهو مسلم مؤمن بالمعنى الأعم يترتب عليه جميع أحكام الإسلام من حرمة دمه وماله وعرضه ووجوب حفظه وحرمة غيبته وغير ذلك، لا أنه بعدم الاعتقاد بالإمامية يخرج عن كونه مسلماً ـ معاذ الله ـ نعم يظهر أثر التدين بالإمامية في منازل القرب والكرامة يوم القيامة أما في الدنيا فالمسلمون بأجمعهم سواء وبعضهم لبعض أكفاء».

وبعد.. فمجمل القول بالنسبة للشيعة الاثنى عشرية الذين يشكلون سواد الشيعة اليوم أنهم يشهدون أن لا إله إلا الله وأنه واحد أحد ليس كمثله شيء وأن محمداً رسول الله ﷺ جاء بالحق من عنده وصدق المرسلين ويؤمن بجميع أنبياء الله ورسله وبجميع ماجاء به من عند ربه، ويقولون بإمامة علي وولده الأحد عشر وانهم أحق بالإمامة من كل أحد وأنهم أفضل الخلق بعد رسول الله ﷺ وقولهم بالإمامة هذا لا يوجب كفراً ولا فسقاً لأن إمامة شخص بعينه ليست من أصول الإسلام كما يرى أهل السنة.

وهم وإن كانوا أوجبوا إمامة الأئمة الاثنى عشر لكن منكر هؤلاء الأئمة عندهم ليس بكافر ولا بخارج عن الإسلام وتجري عليه جميع أحكامه. كما يقولون بعصمة

الأئمة الاثنى عشر وبعودة المهدي الموجود حياً بين الناس، وإن أخطأوا في ذلك أو أصابوا فهذا لا يوجب كفراً ولا خروجاً عن الإسلام.. ومن أهم مايؤخذ عليهم دعوى القدح في الصحابة الكرام ولكن بعضهم يبرأون من الغلاة ويقولون أن احترام أصحاب نبينا من احترام نبينا فنحن نحترمهم لاحترامه ،في حين يقول بعضهم أن أبا بكر وعمر وعثمان (رضوان الله عليهم) قد اغتصبوا السلطة من الإمام علي رضي الله عنه يقول آخرون منهم أن أبا بكر وعمر وعثمان اجتهدوا فأخطأوا.

هذا مذهب الشيعة الإمامية الاثنى عشرية، ولا يفوتنا أن نشير في نهاية عرض أصوله إلى الفتوى التي أصدرها الإمام الأكبر الشيخ محمود شلتوت عندما كان رئيساً للأزهر ونشرت عام ١٩٥٩ بمجلة (رسالة الإسلام) العدد الثالث من السنة الحادية عشرة ـ ص٢٢٧:

(.. إن مذهب الجعفرية المعروف بمذهب الشيعة الإمامية الاثنى عشرية هو مذهب يجوز التعبد به شرعاً كسائر مذاهب أهل السنة فينبغي للمسلمين أن يعرفوا ذلك ويتخلصوا من العصبية بغير الحق لمذاهب معينة).

الفصل الرابع

إيران من ثورة ١٩٠٦ إلى ثورة ١٩٧٨

يبدو لكثير من المراقبين أن مايحدث في إيران الآن ماهو إلا شريط معاد لما حدث في أوائل هذا القرن، حيث واجهت الأسرة القاجارية الحاكمة في ذلك الوقت موقفاً حرجاً في مواجهة مطالب المسلمين الذين وقفوا في وجه استبداد الشاه القاجاري مظفر الدين بن ناصر الدين شاه وطيشه وخضوعه للمستعمر الغاصب، حيث كانت روسيا وبريطانيا تمارسان نفوذاً وسيطرة فعلية على إيران.

وتاريخ الأسرة القاجارية في الحكم يعود إلى مؤسسها آغا محمد شاه قاجار الذي تسلم الحكم عام ١٧٩٦، وينتهي تاريخ هذه الأسرة عام ١٩٣٥ حيث عزل آخر ملوكها أحمد شاه على يد رضا شاه مؤسس الأسرة البهلوية.

وفي أثناء حكم الأسرة القاجارية هذه حدثت تغييرات كان لها أثر بعيد في تاريخ إيران، فلقد خسرت في حربين مع روسيا القيصرية بعض ممتلكاتها حول بحر قزوين وكان الحكم دكتاتورياً ظالماً، يدخل السجين إلى السجن فترة تطول أو تقصر ويخرج وهو لا يدري لماذا سجن ولماذا أطلق سراحه!

وكان الفساد والرشوة يملأن كل دوائر الدولة وكان جباة الضرائب يجدون لذة في معاقبة الممتنعين وجلدهم وهم مربوطون حول الشجر.. هذا بالإضافة للأوضاع الاقتصادية المتدهورة حيث كانت البلاد تستورد أضعاف ماتصدره وكان أصحاب الأفران يخلطون الخبز بالنشارة وقشر الأرز لدرجةأن مئات من المواطنين كانوا يموتون من جراء ذلك.. وكانت غالبية الشعب من الأميين ولم تسع الحكومة لتحسين الوضع بل أن ناصر الدين شاه (١٨٤٨ ـ ١٨٩٦) كان يقيد السفر إلى أوروبا للتعليم وله كلمة مشهورة في ذلك يقول فيها «أرغب أن يكون أبناء شعبي أغبياء بلا ثقافة إلى القدر الذي لا يعرفون معه أن بروكسل هو اسم لمدينة أم لنوع من الخضار»!.

وناصر الدين هذا هو الذي كانت له مع الزعيم الثائر جمال الدين الأفغاني صولات وجولات ولقد قتل على يد أحد مريدي جمال الدين الذي قال له عندما طعنه: خذها من يد جمال الدين.

ولقد بدأت مظاهر الاستياء من الحكم تطفو شيئاً فشيئاً حتى تحولت عام١٩٠٦ في عهد مظفر الدين شاه إلى ثورة شعبية عامة قادها علماء المسلمين في إيران.. حيث أعلنوا الاعتصام في المساجد وطالبوا بمحاكمة جميع المسؤولين في الدولة لأن مديراً لجمارك إيران ارتدى ملابس رجل دين في حفلة تنكرية.. ورغم أن الشاه مظفر الدين أرسل إليهم الفرقة الروسية القوقازية التي أشاعت الرعب والهلع إلا أن الثورة الإسلامية استمرت في تصاعدها حتى أرغمت الشاه على توقيع قانون الدستور، الذي نصت المادة الأولى فيه على أن دين الدولة الرسمي هو الإسلام حسب المذهب الجعفري وأن رئيس الدولة من هذا المذهب، والمادة الثانية نصت على منح العلماء حق مناقشة أي قانون ورده إذا لم يتفق مع الشريعة الإسلامية، ومنحت المادة الثامنة الإيرانيين المساواة التامة أمام القانون وأمنت المادة التاسعة المواطنين على أرواحهم وأملاكهم.. كما منعت المادة العاشرة اعتقال أي شخص دون أمر خطي.. ورفعت المادة ٢٢، ٢٣ الرقابة على الاتصال البريدي والبرقي، وقد بلغت مواد الدستور مع ملحقه ١٥٦ مادة.

وتم تشكيل حكومة دستورية ديمقراطية بدلاً من الحكومة المستبدة وانتخب مجلس آخر للشيوخ يضم ٦٠ عضواً.. نصفه يتم بالتعيين ونصفه الآخر بالانتخاب.

وفي أثناء اشتعال الثورة الإسلامية في إيران وجه الزعيم الثائر جمال الدين الأفغاني رسالة إلى قادة الثورة نود أن نثبت اغلب نصوصها منقولة عن مجلة «المنار» التي كان يصدرها محمد رشيد رضا.. وذلك للأهمية التي تحويها هذه الرسالة:

بسم الله الرحمن الرحيم

حملة القرآن وحفظة الإيمان، ظهراء الدين المتين ونصراء الشرع المبين، جنود الله الغالبة في العالم وحججه الدامغة لضلال الأمم، جناب الحاج الميرزا محمد حسن الشيرازي، وسائر هذه الأمة ونواب الأئمة من الأحبار العظام والعلماء الكرام، أعز الله بهم الإسلام والمسلمين وأرغم أنوف الزنادقة المتجبرين.. آمين.

طالما تاقت الأمم الأفرنجية إلى الاستيلاء على البلاد الإيرانية حرصاً منها وشرهاً، ولكم سولت لها أمانيها خدعاً تمكنها من الولوج في أرجائها وتمهد فيها سلطانها على غرة من أهلها، تحاشياً من المقارعة التي تورث الضغائن فتبعث النفوس على الثورة كلما سنحت الفرص وقضت بها الفترات، ولكنها علمت أن بلوغ الأرب والعلماء في عز سلطانهم ضرب من المحال، لأن القلوب تهوى إليهم طراً، والناس جميعاً طوع يدهم يأتمرون كيفما أمروا ويقومون حيثما قاموا لا مرد لقضائهم ولا مرد لحكمهم، وأنهم لا يزالون يدأبون في حفظ حوزة الإسلام لا تأخذهم فيه غفلة ولا تعروهم غرة، ولا تميد بهم شهوة فخنست وهي تتربص بهم الدوائر وتتقرب الحوادث.

ولما تولى هذا الشاه الحارية (الطاغية) الملك طفق يستلب حقوق العلماء تدريجياً ويخفض شأنهم ويقلل نفوذ كلمتهم حباً بالاستبداد بباطل أوامره ونواهيه وحرصاً على توسيع دائرة ظلمه وجوره فطرد جمعاً من البلاد بهوان.. فخلا له الجو فقهر العباد وأباد البلاد وتقلب في أطوار الفظائع وتجاهر بأنواع الشنائع وصرف في أهوائه الدنية وملاذه البهيمية مامصه من دماء الفقراء والمساكين عصراً ونزح من دموع الأرامل والأيتام قهراً (ياللإسلام).

فإذا اشتد جنونه بجميع فنونه فاستوزر وغداً خسيساً ليس له دين يردعه ولا عقل يزجره ولا شرف نفس يمنعه، حسب الإفرنج أن الوقت قد حان لاستملاك الأقطار الإيرانية بلا كفاح ولا قتال وزعمت أن العلماء الذين كانوا يذبون عن حوزة الإسلام قد زالت شوكتهم ونفذ نفوذهم، فهرع كل فاغر فاه يبغي أن يسرط قطعة

من تلك المملكة، فثار الحق وغضب الباطل فدمغه فخاب مسعاه وذل كل جبار عنيد، أقول الحق أنكم أيها القادة قد عظمتم الإسلام بعزيمتكم وأعليتم كلمته وملأتم القلوب من الرهبة والهيبة، وعلمت الأجانب أن لكم سلطاناً لا يقاوم وقوة لا تدفع وكلمة لا ترد وأنكم سياج البلاد وبيدكم أزمة العباد، ولكن قد عظم الخطب الآن وجلت الرزية لأن الشياطين قد تألبت جبراً للكسر وحرصاً على الوصول إلى الغاية وأزمعت على إغراء ذاك المارق الأثيم بطرد العلماء كافة من البلاد، وأبانت له أن إنفاذ الأوامر إنما هو بانقياد قواد الجيش وأن القواد لا يعصون للعلماء أمراً ولا يرضون بهم شراً فيجب لاستتباب الحكومة استبدالهم بقواد الإفرنج.. والشاه بجنونه المطبق قد استحسن هذا واهتز به طرباً.

لعمر الله لقد تحالف الجنون والزندقة وتعاهد العته والشره على محق الدين ؤاضمحلال الشريعة وتسليم دار الإسلام إلى الأجانب بلا مقارعة ولا مغامرة.

ياهداة الأمة إنكم لو أهملتم هذا الفرعون الذليل ونفسه وأمهلتموه على سرير جنونه وما أسرعتم بخلعه عن كرسي غيه، لقضي الأمر فعسر العلاج وتعذر التدارك.

أنتم نصراء الله في الأرض وقد تمحصت بالشرعية الإلهية نفوسكم عن أهواء دنية تبعث على الشقاق وتدعو إلى النفاق، ويئس الشيطان بصدفات الحق عن تفريق كلمتكم فأنتم جميعاً يد واحدة يذود بها الله عن صياصي دينه الحصينة ويذب بقوتها القاهرة جنود الشرك وأعوان الزندقة.. وإن الناس كافة (إلا من قضى الله عليه بالخيبة والخسران) طوع أمركم فلو أعلنتم خلع هذه الحارية (الطاغية) لأطاعكم الأمير والحقير وأذعن لحكمكم الغني والفقير خصوصاً وأن الصدور قد حرجت وأن القلوب قد تفطرت من هذه السلطنة القاسية الحمقى التي ماسدت ثغوراً ولا جندت جنوداً ولا عمرت بلاداً ولا نشرت علماً ولا أعزت الإسلام ولا أراحت يوماً ما في قلوب الأنام، بل دمرت وأقوت وأقصرت وأذلت...

وإذا وقع الخلع فلا ريب أن الذي يخلف هذا الطاغية لا يمكنه الحيدان عن أوامركم الإلهية ولا يسعه إلا الخضوع بعتبتكم عتبة الشريعة المحمدية.. وكيف لا وهو يرى عياناً مالكم من القوة الربانية التي تقلبون بها الطغاة عن كرسي غيها، وأن العامة متى سعدت بالعدل تحت سلطان الشرع ازدادت بكم ولعاً وحامت حولكم هياماً وصارت جميعاً جنداً لله وضرباً لأوليائه العلماء.. ولقد وهم من ظن أن خلع هذا الجارية لا يكون إلا بهجمات العساكر وطلقات المدافع والقنابل، ليس الأمر كذلك لأن عقيدة إيمانية قد رسخت في العقول وتمكنت من النفوس وهي أن الراد على العلماء راد على الله.. فإذا أعلنتم ياحملة القرآن حكم الله في هذا الغاصب الجائر واتيتم أمره تعالى حرمة اطاعه لانفض الناس من حوله فوقع الخلع بلا جدال وقتال).

قد آن الآوان لإحياء مراسم الدين وإعزاز المسلمين فاخلعوا هذا الطاغية قبل أن يفتك بكم ويهتك أعراضكم ويقلم سياج دينكم، ليس عليكم إلا أن تعلنوا على رؤوس الأشهاد حرمة أطاعته فإذا يرى نفسه ذليلاً فريداً يفر منه بطانية، وينفر منه حاشيته وينبذه العساكر ويرجمه الأصاغر.

إنكم يا أيها العلماء والذين قاموا معكم بتأييد الدين بعد اليوم في خطر عظيم قد كسرتم قرن فرعون بعصا الحق وجدعتم أنف الجارية بسيف الشرع فهو يتربص فرصاً تساعده على الانتقام شفاءً لغيظه ومرضاة لطبيعته التي فطرت على الحقد واللجاج فلا تمهلوه أياماً ولا تمكنوه أن يقبض زماماً أعلنوا خلعه قبل اندمال جرحه.

وحاشاكم أيها الراسخون في العلم أن ترتابوا في خلع رجل سلطانه غصب وأفعاله فسق وأوامره فجور وأنه بعد أن مص دماء المسلمين ونهش عظام المساكين وترك الناس عراة حفاة لا يملكون شيئاً حكم عليه جنونه أن يملك الأجانب بلاداً كانت للإسلام عزة وللدين المتين حرزاً وساقته سورة السفه إلى إعلاء كلمة الكفر والاستظلال بلواء الشرك.

هذا نص الوثيقة التاريخية التي وجهها جمال الدين إلى علماء المسلمين والتي ستزداد أهميتها وضوحاً عندما نعرف أنه بعد أن توفي الشاه مظفر الدين الذي بقي رمزاً دستورياً على غير ما أراد جمال الدين وجاء الشاه محمد علي إلى السلطة ولم يكد الإيرانيون يتنسمون هواء الحرية الدستورية حتى بدأ الشاه الجديد ينسج خيوط المؤامرة التي تعيد البلاد إلى الحكم الاستبدادي السابق ففي ٢٣ يونيو حزيران ـ ١٩٠٨ ـ حاصرت الفرقة الروسية القوقازية بقيادة الكولونيل الروسي .لياخوف/ المجلس النيابي وضربته بالمدفعية فدمرته وقتل بعض النواب وهرب الآخرون بينما دافع عنه الحراس المسلمون بشجاعة نادرة.. وهكذا أوقف الشاه الدستور وعطل المجلس النيابي وأقام حكومة عسكرية في طهران فرضت منع التجول فيها.

وهذا الدرس الذي نبه إليه جمال الدين في وثيقته الخطيرة هو ماوعته الحركة الإسلامية في إيران تحت قيادة آية الله الخميني فقد أعلنت الثورة الإسلامية عام ١٩٧٨.

الجيش الإيراني غير مذنب.. السافاك غير مذنبة.. الحزب (راستاخيز) غير مذنب.. المذنب الوحيد هو القصر الذي يحرك الجميع ومن هنا الإصرار على شعار مرك برشاه أي الموت للشاه.

ولكن علماء المسلمين بعد استبداد محمد على شاه بالسلطة لم يقبلوا الهزيمة فنشبت الثورة في أنحاء إيران ورغم مساندة الروس للشاه ووساطة الإنجليز ورغم عمليات الإبادة والقمع ضد الجماهير المسلمة إلا أن الثوار تقدموا من الشمال والجنوب وحاصروا العاصمة فاستسلمت قوات الحكومة في ١٦ يوليو (تموز) ١٩٠٩ وهرب الشاه إلى المفوضية الروسية وأعلن الثوار خلع الشاه وتعيين ابنه الشاه أحمد ميرزا ملكاً وأعادوا الدستور مرة أخرى وعندما قامت الثورة الشيوعية في روسيا وانشغل الاتحاد السوفيتي بمشاكله الداخلية انتهزت بريطانيا الفرصة لتحكم نفوذها على كل إيران، وهنا شعر السوفيت بخطر هذا الوجود البريطاني فحاولوا خلق زعامات جديدة تؤيدهم داخل إيران واستطاعوا بواسطة أحد

المعارضين للحكومة ويدعى ميرزا كوجك خان/ من تشكيل حكومة اشتراكية انفصالية في بعض المقاطعات الإيرانية، حرضت بريطانيا الحكومة المركزية في طهران بشدة ضد هذه الحكومة الانفصالية فأرسلت الحكومة حملة قوية بقيادة الكولونيل .رضا خان/ والد الشاه والذي استطاع أن يحقق نصراً سريعاً وحاسماً على الانفصاليين وانسحبت بعد ذلك القوات الروسية المؤيدة للانفصاليين وعقدت المعاهدة السوفيتية الإيرانية في فبراير ١٩٢١ والسارية المفعول حتى الآن والتي يحق فيها للسوفيت إرسال قواتهم لإيران في حالة تعرض الأخيرة لاعتداء مسلح من جانب أي قوة أجنبية على أن تنسحب هذه القوات بعد زوال الخطر.

والكولونيل رضا مؤسس الأسرة الملكية البهلوية كان قد التحق بالجيش الإيراني كجندي واستطاع أن يحصل على ترقيات سريعة مبهرة وفي الثانية والعشرين من عمره التحق بالفرقة القوقازية التي يقودها الضباط الروس حيث اكتسب خبرة ودراية كبيرة ساعدته بعد ذلك في تحقيق نصره السريع والحاسم ضد الانفصاليين هذا النصر الذي منحه شعبية شديدة جعلته بعد ذلك يتولى رئاسة الوزراء في ظل سلطة أحمد شاه القاجاری آخر ملوك هذه الأسرة القاجارية وقد أخذ رضا خان يدعم مركزه من وراء العرش وبتأييد من الجيش الإيراني والشرطة حتى استطاع أن يتخلص من الشاه الضعيف ويعلن نفسه بموافقة المجلس النيابي ملكاً جديداً لإيران وفي ٢٥ ابريل ـ ١٩٢٦، احتفل بتنصيبه في احتفال كبير كعادة ملوك إيران في العصور السابقة وفور تسلمه السلطة اهتم رضا خان كثيراً بإقامة جيش قوي مزود بأحدث الأسلحة التي استوردها من فرنسا وزاد من ميزانية الجيش إلى خمسة أضعاف ورفع عدده من ٤٠ ألف إلى ١١٢ ألف كما اجتذب الضباط إلى البلاد ووفر لهم معاشات مغرية وباعهم قطع أرض تملكها الدولة بأسعار رسمية ووضعهم في مراكز عليا.

ولقد كان هناك إعجابٌ متبادل بين رضا خان ومصطفي كمال أتاتورك ظهر في الاستقبال الحافل الذي أعده الأخير لرضا خان عند زيارته لتركيا في يونيو حزيران

١٩٣٤ كما ظهر هـذا الإعجاب منذ البداية عـندما طرح رضا خان الفارسـية مقابل الإسلامية محاولاً التـعالي على المسلمين باسم دولة فارسيـة حديثة وحاول أن يحد من الدور الـذي يلعبه الديـن في حياة الشعـب الإيراني المسلـم فأقام التشريـع على أسـس مدنـيـة مـسـتـمـداً قـوانيـنـه من الـقـانـون الفـرنـسـي بدلاً مـن الـشـريعـة الإسلاميةواستصدر قانوناً يمكن بمقتضاه تأميم الأراضي ومشروعات الري المملوكة لمؤسسات دينـية وحد من المدارس الدينيـة وبدأ المندوبون الحكوميـون يراقبون هذه المدارس لضـبط عمليـة الفصل بـين التدريس الديـني والخدمة العـسكرية وعـينت الحكومة أجهزة خاصة لإدارة الجوامع والأماكن الدينـية وتنظيم انتقال الذاهبين إلى الحج في مكة كما تولى الشاه حصر إنفـاق الأوقاف الدينية وقرر شكل صرفها وفي عهده صار جـندي من الدرك يصعـد السطح وينفـخ ببوقه عند وقـت الصلاة بدل الآذان وبات يـقف شرطيـان على بـاب كل مسجـد تحت زعم إحـلال النظام ومـنع زحام الناس لدى الخروج ويروي أحد رجال الدين الإيرانيين في مذكراته أن. خدام الحضرة الشريفة الرضويـة كلهم أو جلهم يلبسون العمائم قبل تمـلك البهلوى فلما تملك ألزمهم بلبس القبعة البهلوية واللباس الإفرنجي إلا قليلاً منهم...

كل هذا بالإضافة للحملة التي شنها تحت اسم تحرير المرأة فابتدأ عام ١٩٣٠.بنزع الحجاب والغائه وتحريم ارتدائه مبتدءاً بأسرته وفي عام ١٩٣٥ حظر الشاه بقرار منه على الفتيات والمعلمات وضع الحجـاب على وجوههن ودخول مدارسهن به ومنع أياً من ضباط الجيش من الظهور في الأماكن الـعامة أو الشوارع برفقة امرأة محجبة مهما كانت صلتها وقرابتها به.

وبقي الشاه يسوس إيـران هكذا حتى قامت الحرب العالمية الثـانية ووقف بجانب ألمانـيا رافـضاً طـلب الإنجليـز والروس بـطرد الألمـان من بـلاده مما حـدا بالـقوات البريطانية والسـوفيتية دخول طهران في ١٧ ـ سبتمبر ـ ١٩٤١ ـ وأجـبر الشاه بعدها على التنـازل عن العرش لابنه محمد رضـا بهلوى وخرج من إيران حتـى استقر به المقام في .جوهـانسبرج/ حتى توفي هـناك في ٢٥ يونيو ـ ١٩٤٤ ومن هنـاك حملت

رفاته للدفن في مقابر الرفاعي بالقاهرة (وكان قبل ذلك قد زوج ابنه محمد رضا من الأميرة فوزية شقيقة الملك فاروق).

وهكذا تسلم محمد رضا الحكم في ١٦ سبتمبر ـ ١٩٤١ وهو في سن الحادية والعشرين وكان قد تلقى تعليمه الابتدائي في المدارس الحربية في طهران والثانوي في مدرسة .شاللي ـ في سويسرا ثم التحق بكلية الضباط بطهران وفي مايو١٩٣٨ حصل على رتبة ملازم مدفعية والتحق بالجيش الإيراني مفتشاً بالجيش.

وقد عاشت إيران منذ تولي الشاه إلى تولي مصدق فترة من عدم الاستقرار والفوضى تحت ظل فساد سياسي كان يعم البلاد.. وفي هذه الفترة خاصة بعد انتهاء الحرب العالمية ظهرت الولايات المتحدة كقوة كبرى تسير في فلكها مجموعة من الدول وقد وجدت أمريكا في إيران ميداناً هاماً للتنافس السياسي لوفرة بترولها وقربها من الكتلة الشرقية ولدورها المرتقب والمأمول في زعامة العالم الإسلامي ولإمكانية خلق قوة حربية تكون سنداً للعالم العربي في المنطقة وهذا ماستتكلم عنه بتفصيل أكثر عند دراسة موقف أمريكا من الأزمة.

وبعد دخول أمريكا بقليل برزت مشكلة تأميم البترول الذي كان خاضعاً للاحتكارات الإنجليزية وقد رأي الدكتور مصدق رئيس الكتلة الوطنية ورئيس لجنة البترول في المجلس النيابي أن خير عمل تقوم به الدولة هو تأميم البترول ووقف رئيس الوزراء آنذاك (على رزم أراه) في وجه مصدق الذي كان يدعمه الزعيم الشيعي آية الله الكاشاني وقد قامت الجماهير باضطرابات ومظاهرات دامية ضد رئيس الوزراء وفي مارس (آذار) استطاع شاب مسلم يدعى خليل طهمسبي ينتمي إلى منظمة .فدائيات إسلام ـ التي كان يتزعمها (نواب صفوي). استطاع هذا الشاب أن يردي (على رزم أراه) قتيلاً في ساحة . «مسجد شاه» في طهران ويومها أصدر نواب صفوي بياناً أعلن فيه أن البطل الذي قتل (رزم أراه) الخائن قد أدى واجبه.

وقد أيد الزعيم الإسلامي آية الله الكاشاني هذا العمل كما سبق الإشارة إلى ذلك في الفصل الثاني.

واستمرت الأزمة حتى جاء الدكتور مصدق إلى رئاسة الوزراء في ٢٦ إبريل ١٩٥٠ ودخلت إيران مرحلة جديدة من تاريخها في مواجهة صريحة مع الاستعمار الإنجليزي وبعد أربعة أيام فقط من تشكيل الوزارة أعلن الدكتور مصدق تأميم بترول إيران ثم قام بطرد الإنجليز وحاول السيطرة على الجيش فطرد ١٣٠ ضابطاً كبيراً وشكل لجاناً للتحقيق في اختلاسات الكبار وجعل سلطة الشاه إسمية فقط مما اضطر الشاه بعد ذلك إلى الهرب خارج البلاد في ١٦/ ٨/ ١٩٥٣ ولكن ليعود بعد ستة أيام ـ عندما دبرت المخابرات الأمريكية انقلاباً عسكرياً ضد مصدق بقيادة الجنرال فضل الله زاهدي الذي عين بعد ذلك رئيساً للوزراء ليقود نظاماً دموياً رهيباً لتدعيم حكم الشاه.

وقبض على مصدق وحكم عليه بالسجن لمدة ثلاث سنوات وبعد ذلك ألقي القبض على الفدائي المسلم (خليل طهمسبى) والزعيم الإيراني (نواب صفوي) وأعدما.

وقبل الانتقال لدراسة طبيعة نظام الشاه الجديد نود أن نشير إلى أنه برغم الحريات الديمقراطية التي حصل عليها الشعب أثناء فترة الحكومة الوطنية إلا أن الحركة الوطنية لم تطرح المشكلة بشكل جذري فلم تأخذ الحركة الإسلامية مكانتها المأمولة في عملية التغيير بصفتها الحركة الوحيدة المعبرة عن أصالة الجماهير المسلمة وقواعدها الشعبية فقد بقيت الحركة الوطنية خالية من أي مضمون إسلامي ثوري وإنما مجرد طموحات برجوازية لم تدرس المشكلة بعمق مما جعل الانتهازين ومحترفي السياسة يلتفون حول مصدق ورغم أن مصدق كان قد عين نفسه وزيراً للحربية إلا أنه لم يستطع أن يتغلغل داخل الجيش الذي بقيت تناط به المهمات التاريخية وهي إرجاع الشاه إلى الحكم كما أوصل والده من قبله عام ١٩٢٥.

الفصل الخامس

نظام الشاه (دراسة وتحليل)

(١)

عندما عاد الشاه محمد رضا بهلوى إلى السلطة مرة أخرى بعد انقلاب الجنرال فضل الله زاهدي الذي دبرته المخابرات الأمريكية حاول بكل قواه السيطرة على الموقف فكانت السنوات من (١٩٥٣ ـ ١٩٦٠) هي سنوات تثبيت النظام وقمع الحركة الوطنية والإسلامية واعتمد الشاه في سياسته الجديدة على عنصرين هامين الجيش والسافاك:

١ ـ **الجيش:** تنتمي الأسرة الملكية البهلوية إلى عائلة محاربة فجد والد الشاه الأخير أي جد رضا خان كان ضابطاً في الجيش الإيراني الذي حاصر مدينة (هرات) في عهد الشاه (فتح على شاه) ثاني ملك فاجاري وقد قتل في هذه المعركة.

وكان جده عباس علي باوند بهلوي بدرجة نقيب واخ لجده يدعى نصر الله خان بدرجة مقدم، أما والده رضا خان فقد التحق بالجيش وهو في الثالثة عشر من عمره كجندي ترقى بعد فترة قصيرة إلى رقيب.. واستمر حتى أصبح كولونيلا وعن طريق الجيش أصبح رضا خان أول ملك ينتمي للأسرة البهلوية وعندما وصل السلطة أدرك رضا خان كرجل عسكري أهمية الجيش فتفرغ لتنظيمة وتعزيز قوته بنفسه فضاعف من عدده وزوده بأحدث الأسلحة التي استوردها من باريس كما قرب الضباط إلى البلاط وأغدق عليهم الأموال وعندما وصل الشاه محمد رضا إلى السلطة عن طريق الجيش أدرك المهمات التاريخية التي يمكن أن تناط بالجيش الذي أوصل والده للسلطة عام ١٩٢٥ ونفذ مشاريعه ومخططاته تحت حمايته وهاهوالجيش عام ١٩٥٣ يترجم بشكل واقعي وعلى يد زاهدي هذه المهمات ولهذا انتهج الشاه نفس خط والده في تدعيم الجيش كأهم الأسس التي يقوم عليها النظام

فضاعف عدد القوات مرة أخرى فأصبح يتراوح بين ٣٠٠ ألف إلى ٥٠٠ ألف جندي (عامل واحتياطي) واستقدم له أكثر من ١٥ ألف خبير أمريكي وعدداً أخر من الخبراء الأمريكيين عام ١٩٨٠ إلى ٥٠ ألف خبير وكانت معظم المساعدات الأمريكية إثر سقوط مصدق والتي بلغت بين (١٩٥٤ ـ ١٩٦٠) حوالي ٩٥٠ مليون دولار من نصيب الجيش.

وأنشأ الشاه قاعدة في بندر عباس بـ٢٠٠ مليون دولار وأخرى في شاه بيهار بـ٦٠٠ مليون دولار وحصل على تسهيلات بحرية في جزر المحيط الهندي وتدخل إلى جانب السلطان قابوس ضد قواب ظفار وكان من أحد أهداف هذا التدخل تدريب الجيش الإيراني على القتال، هذا وتحتل إيران حتى (١٩٧٨) المرتبة الرابعة بين دول العالم من حيث أرقام الإنفاق العسكري بعد الاتحاد السوفيتي والولايات المتحدة وفرنسا وقبل بريطانيا، وقد قفزت قيمة الإنفاق العسكري بشكل صاروخي فمن ١٤٤ مليون دولار عام ١٩٦٥ إلى ٥٠٠ مليون دولار عام ١٩٦٨ إلى ٢٠٠٠ مليون دولار عام ١٩٧٣ إلى ١٠ مليار دولار عام ١٩٧٦، كما نشر أن قيمة الإنفاق العسكري في ميزانية ٧٨/ ٧٩ أضعاف هذا الرقم.

ولا تشمل هذه الأرقام الإنفاق على السافاك.

وينتظم الجيش الإيراني الذي يتراوح بين ٣٠٠ ألف إلى ٥٠٠ ألف كما ذكرنا في ٣ فرق مدرعة و٤ فرق مشاة و٤ فرق مستقلة و٢ مشاة، وواحدة محمولة جواً وواحدة تسمى قوات خاصة ويملك هذا الجيش ٤ آلاف دبابة، حوالي ١٥٠٠ قطعة مدفعية و٦٥٠ مدفع مضاد للطائرات كما تملك البحرية الإيرانية ٢٥ ألف جندي وثلاث مدمرات حاملة للصواريخ وأربع فرقاطات وتسعة وعشرين قطعة بحرية أخرى وتتضمن طلبات الأسلحة البحرية التي تعاقدت عليها إيران الشاه أربع مدمرات ضخمة، ١٤ سفينة حربية بالإضافة إلى طائرات حربية بعيدة المدى وعدداً من الغواصات من المانيا الغربية خاصة.. أما سلاح الجو ١٠٠ ألف جندي فيملك ١٧٧ طائرة فانتوم بالإضافة إلى ١٢٥ قاذفة (F.5) و١٥ طائرة (F.14) توماكتس

التي توصف بـأنها أحسن المقاتلات وأكثـرها تكلفة كما يضـم سلاح الجو أيضاً ٧٢ طائرة نقـل ضخمة و٧١ طائرة خـفيفة و١٥١ هليكـوبتر وهناك بالإضـافة إلى ذلك قيادة الجو التابعة للجيش وهي غير السلاح الجوي وتملك ٦١ طائرة و٢٤٧ هليكوبتر وهي متعـاقدة على طلب ٣٢٩ هلـيكوبتر أخرى.. وحـتى تتضح الصورة الـضخمة للتسـليح الإيراني نقرأ تصـريح النائب الديمقـراطي الأمريكي« لسن أيسـن ـ فبراير ١٩٧٧ » ... «أن ٤٠٪ من جميـع الذخائر التي أوصـى عليها ٦٠ بلـداً من الولايات المتحدة مخـصص لإيران وحدها.. إن إيران تصرف مـن الذخيرة بالنسبـة لكل فرد عسكري أكثر بكثير من الولايات المتحدة».

ولكن لماذا كل هذا الاهتمام بالجيش.. أمن أجل احتلال الخليج.. إن هذا الهدف لا يحـتاج إلـى كل هذا الـبنـاء.. أم من أجل إقـامة إمبـراطوريـة كسرويـة قويـة في المنطقة؟.. أم من أجل إقامة مؤسسة ضخمة بديلة عن أي طبقة أو فئة تسانده بحيث لا تستطيع أي طبقـة أو فئة أن تعبر عن نفسها إلا من خلال الشـاه نفسه.. وهل يمكن أن يكون الجيش مقابلاً لنقمة الجماهير التي انفصل عنها الشاه.

٢ ـ السافاك: الأساس الثاني الذي يـقوم عليه النظام هو «منـظمة أمن الدولة» وقد أسسها الجنرال بختيار (غيـر رئيس الوزراء) تحت إشراف وكالة الاستخبارات الأمريكية (C.I.A) ثم بمـعونة .الموسـاد أو الاستخبـارات الإسرائيلـية كما نـشرت .الهيرالدتربيون ١٤ ـ ٧ ـ ١٩٧٨ وقد منح وجود هذه المنظمة أهمية استثنائية لوزارة الداخلية ويـبلغ عدد العاملين فيهـا ١٠٠ ألف ويقترب هذا الرقم من نـصف مليون في تقديرات أخرى..

وقد ارتفعت حصة السافاك في موازنـة ١٩٧٦ إلى أكثر من مليار دولار وتسلل السـافاك إلى كل شـيء وبشكـل خرافي فـهو موجود فـي الجيش والأحـزاب وبين الطـلبة ورجـال الديـن حتى أن الإمـام الخميـني يقـول عن الفـقهـاء الذين يـدعون للسلطان.. وقسم منهم قد ألبستـهم دوائر الأمن والاستخبارات العمائم.. الحكومة الإسلاميـة ص١٤٣ وتجبر السلـطة الكثـير من المصانـع على تشغـيل بعض عـناصر

السافاك لتسهيل مهمة التغلغل بين صفوف العمال كما تدير السافاك شبكة بوليسية يحسب لها حساب في الخارج حيث يتواجد الطلبة الإيرانيون وربما لهذا السبب كنا نرى الطلبة الإيرانيين الذين يتظاهرون ضد الشاه في الخارج وحتى فترة قريبة يلبسون الأقنعة ويخفون وجوههم.

ومن ثمار عمل هذه المنظمة آلاف المعتقلين في السجون الذين يصلون في أقل التقديرات إلى عشرة آلاف وفي بعضها إلى ٣٠٠ ألف معتقل وأياً كان الرقم فإيران تعتبر من أكثر بلدان العالم فظاظة ووحشية في التعامل مع المعتقلين وبسبب وجود السافاك نجد أن المقر الأول للاستخبارات الأمريكية في المنطقة هو طهران وهذا ماأعلنه (فيكتور مارشين وهو مسؤول سابق في وكالة الاستخبارات الأمريكية) وذلك في مؤتمر صحفي عقده في لندن (٥ ـ ٩ ـ ٧٤) بمناسبة صدور كتاب له عن (C.I.A) حيث أعلن أن الوكالة نقلت مقرها من أثينا إلى طهران نظراً لأهمية إيران ولتغير النظام في اليونان.

هذا وقد دفعت الأحداث الأخيرة شاه إيران إلى إقالة رئيس السافاك الجنرال نعمة الله نصيري ربما لامتصاص نقمة الجماهير وربما لأن نصيري لم يتوقع مسبقاً حدوث الاضطرابات خاصة التي بدأت في (قم) ولم يستطع القضاء عليها قبل اشتعالها وقد عين مكانه الجنرال (ناصر مقدم) رئيس الاستخبارات العسكرية.

وتتهم الثورة الإسلامية السافاك بأنها كانت وراء الحريق الذي اشتعل داخل سينما «ركس» في ميدان عبدان في ٢٠ اغسطس ـ ١٩٧٨ وارتفع عدد ضحاياه إلى ٤٣٠ قتيلاً.. محاولة (السافاك) عكس الهجوم عن طريق التكتيك المضاد وقد أصدر الطلبة الإيرانيون في باريس بياناً جاء فيه «أن هذه الجريمة الشنعاء ذات أبعاد كبيرة ارتكبها نظام الشاه الذي يتبع بالضبط أساليب النظام الهتلري» مشيرين بذلك إلى الحريق الذي أحدثه هتلر في «الرايخشتاغ» الألماني وكان حريقاً كبيراً مالبث أن اتهم خصومه بافتعاله وقام بالتالي بتصفيتهم تصفية سريعة وقد روى السيد (صادق قطب زاده) أحد المسؤولين الإعلاميين في الحركة الإسلامية لصحيفة «النهار

العربي والدولي» تفاصيل الحادث كما يلي.. «جاء البوليس وأحاط بالسينما قبل ساعة من وقوع الحادث متظاهراً بأنه هناك عناصر هدامة في الصالة ويقول حراس السينما أن البوليس أخذ المفاتيح طالباً منهم الانصراف إلى منازلهم وبعد نصف ساعة من مجيء البوليس خرج ستة أشخاص من السينما فلم توقفهم الشرطة، بعدها بدقائق أخلى البوليس الساحة واختفي ثم اندلعت النيران من دون أن يستطيع أحد الخروج ومعلوماتنا تقول أن عدد الضحايا ارتفع إلى ٧٠٠».

ويضيف السيد صادق «أولاً مركز البوليس في عبدان يقع على بعد ٢٠٠م من السينما فلماذا لم تهرع الشرطة إلى مكان الحادث خاصة أنها تستطيع أن ترى النيران المشتعلة؟ قائد البوليس في منطقة عبدان الجنرال رازمي كان كولونيلاً منذ ستة أشهر في مدينة (قم) الدينية.. وهناك نفذ جريمته الأولى بعدها تم نقله بلقب جنرال إلى عبدان. إن الحرائق لم تشتعل في السينما بسبب قنبلة عادية، لقد وضعت في الصالة قنابل حارقة وهذه القنابل لا يملك مثلها في إيران سوى أفراد الشرطة والجيش، في عبدان أهم فرق الإطفاء لأن عبدان فيها مصافي النفط ويقع مركز الإطفائية على بعد كيلو متر واحد من السينما فلماذا لم تأت سيارات الإطفاء إلا بعد ثلاث ساعات والسيارة التي وصلت أولاً كانت فارغة من الماء..؟

هذه إحدى ثمار السافاك الأساس الثاني الذي اعتمد عليه الشاه بعد الجيش، قد نفهم أن يحاول نظام ينهار أن يدافع عن نفسه.. ولكن إلى هذا الحد وبهذا الشكل الدموي الرهيب!!».

(٢)

كتب الشاه محمد رضا مرة يقول: (كان أبي معجباً بماضي فارس المجيد حريصاً على صيانة مالا يتعارض مع التقدم من تقاليدنا الموروثة، ولكنه كان شديد الاقتناع بأن استقلال الأرض وسيادة الأمة ورفاهية الشعب أمور لا سبيل لها إلا بالتمثيل العاجل بالغرب).

هكذا كان يفكر رضا خان وهكذا استمر الشاه على نحو أوسع في الوقت الذي كانت الجماهير تحافظ وتتمسك بأيديولوجيتها الإسلامية ومن هنا حدث التناقض مع نظام الشاه الليبرالي وفي الوقت الذي كانت الأنظمة الليبرالية تتهاوى في المنطقة بعد أن فقدت مبرر وجودها وذلك لتخلي الساحة للانقلابات العسكرية التي كانت في أعمها محاولة أخرى من الاستعمار للحفاظ على وجوده واستمراريته في هذا الوقت حاول الشاه إنقاذ نظامه الليبرالي من الانهيار بافتعال الثورة من داخل النظام أو الثورة من فوق فأعلن .الثورة البيضاء ـ ففي ١٩ مايو ـ ١٩٦١ وجه نداء إلى الشعب الإيراني يعتبر أول شرارة في ثورته وطلب من المجلس النيابي إعطائه صلاحيات استثنائية حتى يستطيع تنفيذ برنامجه الثوري أو الإصلاحي (يلاحظ أن أغلب الأنظمة العسكرية قامت للحصول أيضاً على صلاحيات استثنائية). وقد اختار للعمل معه كرئيس للوزراء الدكتور على أميني وزير مالية مصدق وابن خالته في نفس الوقت والذي كان يتمتع بدهاء سياسي واضح.. وفي ٢٦ يناير ـ ١٩٦٣ استطاع الشاه الحصول على تأييد البرلمان (المزيف طبقاً) لثورته وأعلن إلغاء الإقطاع والتصديق على قانون الإصلاح الزراعي وتأمين جميع الغابات والمراعي في البلاد واشراك العمال في صافي الأرباح وتعديل قانون الانتخاب بحيث أعطى المرأة حقها في الانتخاب وأعلن عن إنشاء كتائب التعليم الإجباري وإنشاء دور العدل في الأقاليم (بيوت الإنصاف).

وفي ٦ ـ أكتوبر ـ ١٩٦٧ أعلن استمرار ثورته البيضاء بإصدار ثلاثة مباديء جديدة:

١ ـ تأميم لمصادر المياه السطحية والجوفية في إيران.

٢ ـ إعادة بناء كل المرافق ودور الحكومة وبحيث تتمشى مع روح العصر.

٣ ـ الثورة في الإدارة والتعليم.

وفي حين بدأ ثورته البيضاء هذه وضع خطة للتصنيع ضخمة وطموحة كل هذا من أجل أن تصبح إيران الفارسية العلمانية القوة الثالثة في العالم أو اليابان الجديدة

واستمراراً في طرح برنامجه عطل المادة الدستورية التي تنص على مراقبة علماء المسلمين للدستور والقوانين وعدم سن أي قانون يخالف الشريعة الإسلامية، وفي الحين الذي كانت تصرف فيه أموال الأوقاف الإسلامية على المساجد ومعاهد العلم صادر هذه الأوقاف بحجة الإصلاح الزراعي.

وقبل أن ننظر في حقيقة هذه الثورة ونتائجها نشير إلى أن الإمام الخميني رفض خطوات الشاه هذه منطلقاً من قناعته بأن السلطة الإيرانية المرتبطة أساساً بالاستعمار والتبعية له إنما تصدر في كل ممارساتها عن توجيهاته وأنه (أي الإمام الخميني) ليس ضد الإصلاح ولكنه يرفض التنازل عن الأرض لحساب السماسرة والعملاء والبهائيين، وأنه ضد السيطرة الأمريكية، ضد الدكتاتورية والإرهاب والتجويع، ضد تحطيم الثقل الاقتصادي والهيبة الإسلامية للعلماء.

ومنذ البداية يطالعنا التصور الخاطيء للشاه عن الثورة والتطوير فالدخول إلى عصر التصنيع وعالم القوة لا يتحقق بمجرد الرغبة أو بالمال والإعلام فقط أي لا يتحقق بمجرد توافر بعض الشروط الموضوعية. إن الثورة هي عملية تغيير شامل تحتاج لمناخ خاص سياسياً ونفسياً يقنع الجماهير لتضحي بالحلول المؤقتة وتعبئتها لمعركة طويلة الأمد، فإيران كدولة من دول العالم الثالث لا تملك مستعمرات تنهبها وتدفع ثمن التكنولوجيا.. ولن تكون بمعزل عن الإسلام أي أن الثورة الحقيقية في العالم الإسلامي لا يمكن أن تنفصل عن الإسلام بأي شكل من الأشكال.

هذا من ناحية. أما من الناحية الأخرى وهي أن النظام الإيراني استعان بالتكنولوجيا الغربية المتفوقة التي جلبتها الشركات التي دخلت البلاد، راغباً في تحقيق معدل تنمية مرتفع بسرعة شديدة غير أن هذه الاستعانة بالشركات الرأسمالية العالمية التي جعلت من الاقتصاد الإيراني مجرد امتداد هامشي للسوق الرأسمالية يخضع لتذبذباتها وفي نفس الوقت غير قادر على الوقوف في وجه

الاحتكارات العالمية ومن جانب آخر تم التركيز على بذل استثمارات ضخمة في حفنة من المشروعات الصناعية الكبرى التي تستعين بمستوى تكنولوجي مرتفع دون العمل على تنمية بقية الصناعات بصورة متوازنة، والآن ماذا يقول خبراء الاقتصاد في الاقتصاد الإيراني؟. يقول الاقتصادي البريطاني (فريد هوليداي) مؤلف كتاب (الإمبريالية العالمية): (لدى تحليل الاقتصاد الإيراني تبدو التوقعات مظلمة دون شك ولا نقصد أن كارثة ما ستحدث ولكنها على الأقل ستجعل من الحديث عن «يابان جديدة» واللحاق بأوروبا مجرد كلام لا مغزى له).

ويقول تقرير لمعهد (هوستون) الأمريكي في أوائل عام ١٩٧٧: (حتى إذا تحققت هذه الأهداف خلال السنوات العشر الأخيرة من القرن الحالي فإن إيران لن يكون إلا صرحاً صناعياً لم يكتمل بناؤه بعد، تعلوه زخارف السلطة وقوة التأثير الدولي دونما جوهر حقيقي سواء للسلطة أو القوة).

وتقول النشرة السنوية للشرق الأوسط الصادرة عن دائرة أبحاث مجلة الأيكونومست البريطانية ١٩٧٧: ليس كل شيء حقاً كما يبدو للوهلة الأولى على الصعيد الاقتصادي فوراء الازدهار الواسع في السنوات الماضية. والتي سجلت إيران خلالها بثبات واحد من أعلى المعدلات الإنتاجية الفوقية في العالم (بسبب ارتفاع عائدات النفط في تلك السنوات بعد ٧٣) توجد نواقض جذرية في البنيان الاقتصادي ذات دلالات متوسط وبعيدة المدى وتشير الأرقام الأخيرة إلى أن نمو الإنتاج القومي الإجمالي قد توقف من الناحية العملية، إن حقيقة أن إيران تسير بميزانية ذات عجز يزيد قليلاً عن ٢٠٠٠ مليون دولار في السنة المالية (٧٦ ـ ١٩٧٧) وهي تخطط لاستدانة ١٠٠٠ مليون على الأقل من الخارج هذه الحقيقة ليست بحد ذاتها كبيرة الأهمية ولكن مايقلق المخططين في إيران هو أن الهوة بين مداخيل النقد الأجنبي ومدفوعاته تتقارب بسرعة والسلطات منزعجة من حجم رأس المال الخاص الذي يغادر البلاد فقد كان فائض ميزان المدفوعات الكلي في السنة المنتهية بتاريخ ٢٠ مارس (آذار) ١٩٧٥ يبلغ ٥٠٠ مليون دولار ولكن بعد عام واحد كان

هناك نقص كلي يبلغ حوالي (١٠٠٠ مليون دولار) ولا بد أن يزداد النقص

خلال العام الحالي، والواقع أنه إذا استمر ارتفاع المدفوعات الجارية إلى نفس المبلغ الذي وصلته في عام (٧٥ ـ ٧٦) فإن من الممكن حدوث عجز في الحساب الجاري يصل إلى ٣٥٠٠ مليون دولار».

ونستطيع أن نضيف إلى كل هذا:

١ ـ **توسيع مجال الاستهلاك** :خاصة الاستهلاك الترفي فقد ارتفع حجم السلع المستوردة بنسبة ٧٧٪ حسب إحصاء رسمي لوزارة الخارجية الإيرانية لتصبح حجمها عام ٧٦ (٦٧٠٠ مليون دولار) قد ساعد هذا التعاظم الشديد للواردات وارتفاع أسعارها إلى حدوث تضخم بلغ ٢٠٪ في السنوات الأخيرة الأمر الذي كلف الشعب الإيراني كثيراً خاصة وأن هذا التضخم ساعد على ازدياد الفوارق الهائلة في مستويات المعيشة بين الفقراء والأغنياء.

٢ ـ **في القطاع الزراعي**: الذي يعيش عليه ٥٣٪ من السكان لم تحقق الثورة البيضاء إلا فشلاً اقتصادياً ذريعاً فقد كان الإهمال من نصيب الزراعة التقليدية، هذا الإهمال الذي أدى إلى عجز النظام عن استيعاب الزراعة في عملية نموه الرأسمالي بل اضطرت إيران التي كانت مكتفية ذاتياً في الطعام إلى استيراد ٦٠٪ من استهلاكها من المواد الغذائية وانتشرت البطالة في الريف بين مليون ونصف عائلة لم تحصل على أي نصيب في الأرض في برنامج الإصلاح الزراعي، هذا ولا يزيد معدل الإنتاج الزراعي عن ٢٪ وهي أقل من نسبة زيادة السكان.

٣ ـ **في القطاع الصناعي**: اعترى أوجه الصناعة ضعف واضح ولم تستطع الزيادة الكمية الحادثة في الإنتاج الصناعي أن تزاحم البضائع المستوردة بسبب تدني مستواها وبقيت مجموعة الصناعيين الإيرانيين مرتبطة بالمراكز الصناعية

والمالية المتقدمة ولم تستطع هذه المجموعة رغم قوتها النسبية أن تفلت من أسر الشركات الاحتكارية العملاقة متعددة الجنسية.

٤ ـ **في الجانب الاجتماعي**: نرى تفاقماً في الفروق الهائلة في مستويات المعيشة واختلالاً في توزيع الدخل ويتساءل الشاه في حديث له مع التايم الأمريكية «... لا بد أن هناك خطأ ما.. إذا كيف يرتفع دخل الفرد من ١٦٠ دولار في السنة إلى ٢٣٠٠ دولار وتكون النتيجة هي هذا الرفض.. متناسياً أن هذا الارتفاع في الدخل هو رقم نظري يمثل زيادة دخل الدولة فقط ولا يمثل ارتفاعاً حقيقياً في القدرة الشرائية لأفراد الشعب ومتناسياً أيضاً أن ١٠٪ من السكان يملكون ٤٠٪ من الدخل القومي وأن متوسط الدخل للفرد في الريف لا يزيد عن ٢٠٠ دولار سنوياً.

(٣)

وهكذا ما إن شارف عام ١٩٧٧ على الانتهاء حتى وجد نظام الشاه نفسه في مواجهة مشاكل داخلية متعددة:

١ ـ برامج التنمية المتعثرة بسبب ارتباطها بالاحتكارات العالمية من ناحية وبسبب إعلانها دون تعبئة أيديولوجية للجماهير، هذه التعبئة التي بدونها يصبح نجاح البرامج شبه مستحيل خاصة في دول العالم الثالث النامية، ويحد من ظهور هذا التعثر بشكل حاد عائدات النفط الضخمة.

٢ ـ مشكلة التبديد والتبذير الذي يقلل من إمكانية النظام في الاستثمار ويصل هذا التبديد قمته في الإسراف على شؤون الجيش والسافاك وحفلات القصر ولا زال الجميع يذكر الاحتفال بذكرى مرور ٢٥ قرن على ظهور إمبراطورية الفرس هذا الحفل الذي كان الطعام الفاخر يجلب إلى الضيوف من مطعم «مكسيم» بباريس في وسط جو اسطوري صنعه الشاه حول نفسه كما يظهر التبديد في التحويلات الهائلة للخارج لصالح الشركات الأجنبية ولصالح

الطبقة الحاكمة من أمراء وأميرات وكبار الضباط الذين قيل أنهم هربوا أخيراً ٢٤٠٠ مليون دولار ويكفي أن تعرف أن جنرالاً واحداً من أعضاء الحكومة العسكرية السابقة هرب للخارج ١٧ مليون دولار.

٣ ـ وهناك مشكلة الأقليات البلوخستانية والعربية والكردية هذه الأقليات التي لن تلتقي وتنصهر إلا من خلال العقيدة الإسلامية التي يطالب الإمام الخميني بتحكيمها وليس من خلال نظريات «التفريس» التي يطرحهاالشاه أي أن الأقليات تشكل خطراً دائماً طالما أن سياسة (التفريس) قائمة ويشعر الشاه بالتخوف من تكرار تجربة بنغلادش.

٤ ـ والمشكلة الداخلية الأخيرة التي يعاني منها نظام الشاه هي أزمة الديمقراطية، فالشاه يرى أن الديمقراطية والجدل الحر حول القضايا القومية هما من الأمور التي لا تستطيع إيران تحملها حالياً! ! ـ ويقول في عام ١٩٦٩. «وأخيراً فقد بلغ بي السخط حداً قررت معه التخلي عن الديمقراطية والعمل عبر المراسيم» وعندما أنشأ حزب (راستاخيز) كان المعيار الوحيد لعضويته هو الولاء للدستور والملكية والثورة البيضاء وخارج حزب راستاخيز كما يقول الشاه لم يعد هناك متسع للحياد السياسي، والذي لا يدعم الحزب أمام خياران إما السجن وإما مغادرة البلاد نهائياً وتقوم السافاك بترجمة هذه المفاهيم بطريقتها الخاصة من خلال ممارسة دموية رهيبة ضد الشعب الإيراني بكافة اتجاهاته وفئاته.

الفصل السادس
المعارضة والأقليات

في الوقت الذي ترى فيه الماركسية أن الحزب هو تعبير عن مصلحة طبقة محددة وأن الكيانات التنظيمية تنطلق دائماً من نشاط شرائح اجتماعية محددة أيضاً، نرى الواقع الإيراني يحطم هذه النظرية ويهزأ بكل مقولات وشروح الماركسيين حولهافالحزب الشيوعي الإيراني نفسه ليس أكثر من تجمع لبعض المثقفين البرجوازيين في الحين الذي يفترض فيه أن يمثل العمال والكادحين الذين نجدهم ينتمون كلية للحركة الإسلامية، الحركة التي يقودها الزعماء الدينيون الذين هاجمتهم صحيفة (البرافدا) في وقت سابق واتهمتهم أنهم سبب الاضطرابات بسبب معارضتهم لإصلاحات الشاه الخاصة بتحديد الملكية .التي ضربت مصالح كبار رجال الدين، والحركة الإسلامية تضم غالبية الجماهير الإيرانية على أساس فئوي وطبقي فهناك العمال والفلاحين والطلبة وأساتذة الجامعات والفنيين وهناك الفقراء والأغنياء ومتوسطي الحال اجتمعوا جميعاً تحت غطاء الأيديولوجية الإسلامية التي تعبر عن ثقافتهم وأصالتهم ومصالحهم في نفس الوقت. وعندما نتكلم عن المعارضة وفصائلها فيجب أن نأخذ في الاعتبار أنه حتى التنظيمات التي هي خارج الحركة الإسلامية لا يستطيع أغلبها العمل في البلاد دون أن يحصل على ثقة وموافقة الزعامة الدينية.

١ ـ الحركة الإسلامية.

تدين جماهير الشيعة بالولاء لعدد من رجال الدين والعلماء المجتهدين ويسمى هذا العالم المجتهد بالمرجع الديني الذي يحصل على «إجازة» من مجتهدأكبر منه بتعليم الدين والإفتاء وتأليف (رسالة) ويوجد في العالم الإسلامي حوالي عشر مراجع منهم شريعة الله مداري وآية الله الخميني والسيد أبو القاسم الخوئي وشهاب الدين النجفي المرعشي وغولبا بيكاني ومحمد الشيرازي (المقيم في الكويت) ومحمد الخنساري.

ولكن الزعامة العليا تنقسم بين آية الله الخميني الذي يرجع إليه أكثر المسلمين الشيعة في أمورهم في إيران والباكستان والهند وأفغانستان والسيد أبو القاسم الخوئي المرجع الأعلى في العراق. وغالباً مايقوم نفوذ المرجع الديني ليس على تفقهه الواسع في الدين فقط بل أيضاً لتصديه للمسائل التي تهم غالبية الجماهير ومن هنا فإن عظمة آية الله الكاشاني المرجع الأكبر أثناء حركة مصدق لم تكن بسبب علمه الجم فقط بل بسبب مواقفه السياسية كما تعود شعبية الإمام الخميني بسبب جرأته في تبني ثورة ١٩٦٣ وتصديه للشاه وقيادته للتنظيمات الإسلامية السياسية في داخل وخارج إيران.

وفي الوقت الذي يقابل النجف الإشراف في العراق الفاتيكان إلى حد كبير فإن المرجع الديني يقابل الكاردينال ويتجمع حول كل مرجع ديني حوزة علمية وأهم الحوزات في إيران توجد في «قم» تليها حوزات «خراسان وطهران وأصفهان ويزد وتبريز» وتدرس العلوم الإسلامية في هذه الحوزات التي تعتمد الاجتهاد في مواجهة كل المواضيع ذات الصلة بالتشريع الإسلامي ويقدر عدد المنتسبين إلى الحوزات الستة المذكورة حوالي ١٦٠ ألف صاحب عمامة وبعد أن يتخرج طالب العلم من هذه الحوزة يختار أحد ثلاثة اتجاهات:

١ ـ **خطيب منبر**: ويسمى بالمنبر الحسيني نسبة للإمام الحسين بن علي ويتناول هذا الخطيب موضوعاً سياسياًيتكلم فيه فترة ساعة أو ساعتين (يوم الجمعة)،.

٢ ـ **إمام مسجد**: وهذا لا يكتفي بإمامة المصلين والقيام بالشعائر التعبدية فقط فهو يعطي أيضاً الدروس ويكون مسؤولاً عن القرية والمنطقة التي يقطن بها يتفاعل مع أهلها دينياً ودنيوياً ويصرف شؤون أهلها.

٣ ـ **مدرس**: وينمو هذا المدرس بعلمه حتى يحصل على إجازة من المجتهد الكبير لتعليم الدين وإعداد رسالة يصبح بعدها مرجعاً دينياً.

ويتغلغل أصحاب هذه الاتجاهات الثلاثة بين صفوف الجماهير مؤثرين في حياتهم بشكل يفوق تأثير الحكومة فهم يقومون بتقديم المساعدات الاقتصادية عن طريق البنوك اللاربوية التي يقيمونها ويساعدون الشباب على الزواج وتأثيث البيوت وكذلك جمع الخمس الذي يعتبر بالإضافة لموارد الأوقاف الدينية مصدراً للاتفاق. وقد كان للمرجعية الكبرى في «قم» اتصالات بالشاه نفسه في فترة مرجعية الإمام حسن الطباطبائي البروجردي فقد قيل أن الشاه كان يأتي سراً لمقابلة الإمام في مقره بمدينة «قم» ولم يكن يدري أحد بما كان يدور بين الإمام والشاه وإن كان قد عرف أن للإمام ثلاث رسل يتصلون بالشاه وهم الشيخ الفلسفي والشيخ أحمد والإمام آية الله الخميني ولقد حاول الشاه دوماً تقليص سلطة رجال الدين ولكن رغم الضربة التي وجهها لهم بتصفية ملكياتهم الكبيرة ومحاولة توزيع هذه الملكيات على الملاك المتوسطين ساعياً لإيجاد طبقة جديدة يستعين بهم لتقويض نفوذ رجال الدين إلا أن هذه الطبقة الجديدة استمرت حليفة مخلصة لرجال الدين تحت غطاء الأيديولوجية الإسلامية التي تملأ نفوس وواقع المسلمين في إيران. ولقد ظهرت في أوساط الحركة الإسلامية الإيرانية أكثر من منظمة فدائية نذكر منها منظمة «فدائيان إسلام» التي يقول عنها «برنارد لويس» في كتابه «الغرب والشرق الأوسط» انهم يحملون فكرةعن الوحدة الإسلامية تماثل إلى حد كبير فكرة الإخوان المسلمين وقد تزعم هذه المنظمة شاب مؤمن متحمس يدعى «نواب صفوي» وهو في سن التاسعة والعشرين وقد حاولت هذه المنظمة الاشتراك في حرب فلسطين حيث لبس رجالها أكفانهم واستعدوا للزحف إلى هناك إلا أن الهدنة التي وقعها العرب مع اليهود أوقفتهم.

وقاومت «فدائيان إسلام» النفوذ البريطاني ووقفوا بجانب مصدق أثناء أزمة البترول وقتلوا أيامها رئيس الوزراء الإيراني (رزم أراه) الذي عارض تأميم البترول.

ويصف صحفي مصري «فدائيان إسلام» عام ١٩٥١ بأنها أكبر جمعية إرهابية في الشرق.! وكان نواب صوفي يرفع شعار «لا طائفية بين المسلمين» أي لا شيعة ولا سنة، وأنه لا تعارض بين الإسلام والوطنية وفي حديث له لمجلة «المسلمون» قال نواب: «لنعمل متحدين للإسلام ولننس كل ماعدا جهادنا في سبيل عز الإسلام.. ألم يأن للمسلمين أن يفهموا ويدعوا الانقسام إلى شيعة وسنة لينظروا جميعاً في كتاب ربهم وهو كفيل بتوحيدهم حتى يكونوا جبهة قوية متحدة أمام أعدائهم المتربصين وأن الآلام والتضحيات التي يتحملونها في سبيل هدفهم المشترك سوف يكون لها الأثر الفعال في جميع القلوب».

ولقد بقي نواب صفوي معارضاً للشاه حتى سقط برصاصة في ١٨ ـ ١ ـ ١٩٥٦، ثم ظهرت من بداية الستينات منظمة أخرى استخدمت العنف أيضاً ضد السلطة وهي «منظمة فلسطين» ويدل اختيار الاسم على مابين القدس وطهران من مسافة ومابين الشاه وإسرائيل من غزل وقح يدل على وعي الحركة الإسلامية في إيران بخطورة إسرائيل كدولة استعمارية تجسد التحدي الصليبي واليهودي ضد الإسلام في هذا القرن ولقد طاردت منظمة السافاك هذه المنظمة بعنف وشراسة ويعتقد أن النظام استطاع تصفية هذه المنظمة الإسلامية التي كان لها دوراً كبيراً وصدى واسعاً في أوساط الحركة الطلابية ومن المنظمات الإسلامية الأخرى منظمة «جاما» الإسلامية التي بدأت عملها المسلح بعد أحداث ـ ١٩٦٣ ـ اغتال أحد أعضائها «محمد بخارائي» رئيس الوزراء الأسبق «حسن علي منصور».

وكذلك منظمة «مجاهدي الشعب» التي انطلقت على أساس الأيديولوجية الإسلامية الثورية وكان من قادتها حنيف بوخاد، وأحمد رضائي، ومهدي رضائي، وسعيد محسن الذين أعدموا من قبل الشاه، ويشير توضيح نشر باسم رجال الدين المناضلون الإيرانيون في بيروت ١٠ ـ ٩ ـ ١٩٧٨ أن هذه المنظمة تخلت عن الأيديولوجية الإسلامية بعد إعدام قادتها لصالح الفكر الماركسي ولقد توقف الدعم الشعبي عن هذه المنظمة كما يشير التوضيح فقامت بالتصفية الجسدية لعدد من

القيـاديين الذين رفـضوا التخـلي عن الأيديـولوجية الإسـلامية مثـل حمدية لـباف ومجيـد شريف واقفي، كـما كشفـوا للسلطـة عن أمر الإمام الطـلقاني الـذي يدعم المنظمة.

٢ ـ الجبهة الوطنية:

أسس هذه الجـبهة الدكتـور محمد مصدق عـام ١٩٥٠ وكان وقتها يـرأس لجنة البترول في المجلس النيـابي وسلكت هذه الجبهة أساليب النضال البـرلماني والسلمية للوصـول إلى السلطـة وفعلاً شكل الـدكتور مصـدق الذي وصل إلى البـرلمان عن طريق الانتخابات حكومة وطنية هي الوحيدة المنتخبة في عهد الشاه وذلك في إبريل ١٩٥١ ورفعت هذه الحكومة شعار تأميم النفط وخاض مصدق فعلاً معركة التأميم ضد الاحـتكارات الـعالميـة وطرد الإنجلـيز عـام ١٩٥٢ وطهر الجـيش وخفـف مدة الخدمة العسكرية وشكل لجاناً للتحقيق في اختلاسات الضباط الكبار وغيرهم وأراد جعل الشاه مـلكاً دستورياً إسمياً فقـط ولكن مصدق وجد نفسه في نـهاية الأمر في موقف مـن الاضطراب والفوضى لا يـحسد عليـه حتى أن حزب «توده الشـيوعي» سحب تأيـيـده له وهاجمه متهماً إياه بـالعجرفة والتطرف وبأنه لا يـعرف قمة رأسه من أخمـص قدميه على «حـد تعبير الحـزب». وفي ظل هذه الظروف قـام الجنرال زاهدي بانـقلابه الشـهير وهكـذا سقط مصـدق الذي قبض عـليه وحوكـم بعد أن بطش زاهدي بالجبهة التي تفككت بعـد ذلك لتعود على يد أنصار مصدق ففي٢١ تموز ـ ١٩٦٠ أعلن المحامي حـسن نزيه أمام ١٠٠٠ شخص من المجتمـعين في بيت الزعيم الديني الفيروز ابادى عودة الجبهة إلى الساحة وفي ١٩٦٢ أعلنت الجبهة التي عرفت بالجـبهة الثانية ميـثاقها الجديد الذي يطـالب بإعادة النظام الدسـتوري وبعدم تدخل الشاه في شؤون الحكم وبحل السافـاك وضمان الحريات العامة والفردية إلى أن الجبـهة عادت فـتـفككـت مرة أخرى لـتنفصـل عنهـا حركة تحرير إيران ويعـلن المصدقيون عن قيام الجبهة الثالثة التي بـقيت سرية حتى أعلنت عن نفسها يوم ٢٨ - أغسطس - ٧٨ بعد أن سـمحت حكومة جعفر شريف أمـامي بعودة الأحزاب وقد

عادت بقيادة كريم سنجابي وقد طرح سنجابي بعد عودته حلاً وسطاً للأزمة وهو الحد من سلطات الشاه ضمن ملكية دستورية إلا أنه وبعد الحوار الذي دار بينه وبين الخميني في باريس في نوفمبر ٧٨ خرج سنجابي أكثر راديكالية رافعاً شعارات الخميني وقد اعتقل سنجابي في ٢١ نوفمبر ثم أفرج عنه في وقت لاحق.

٣ ـ اليسار

(١) **حزب تودة الشيوعي**: تأسس هذا الحزب يوم ٢٠ - اكتوبر١٩٤١ - عندما فر رضا شاه من إيران وأثناء تمركز القوات السوفيتية في المنطقة الشمالية لإيران خلال الحرب العالمية الثانية وشكل الحزب لجنة مركزية من ١٥ عضواً تولى أمانتها العامة (سليمان مارزا اسكندري).. وقد تبنت القوات السوفيتية حزب تودة واحتضنت قادته وبدأ يعمل بشكل علني في شمال البلاد وسراً في بقية المناطق وقد ساعد تردي الأوضاع الاجتماعية في الشمال حيث ساعد وجود الملكيات الزراعية الكبيرة على انتشار مبادىء الحزب كما ساعد على ذلك أيضاً فساد الإدارة المركزية والزعماء السياسيون الذين سقطوا في أعين طبقات الشعب ومن جهة أخرى كان حزب تودة يعلن نفسه كحزب اشتراكي غير مرتبط بالشيوعية أو أي دولة تعتنق المذهب الشيوعي أو الاشتراكي كما استطاع الحزب جذب عناصر برجوازية عديدة إليه وتحت ظل تنظيم دقيق للغاية.

فقد استطاع جعفر بيشوارى قيادة حزب تودة في الشمال وغير اسمه إلى حزب الديمقراطي الأذربيجاني وفي ديسمبر ١٩٥٤ طرد بيشواري محافظ إقليم أذربيجان المعين من قبل الشاه وأقام مجلس محلي ينتمي إلى حزبه وشكل حكومة تحت رئاسته.. وقد قامت القوات السوفيتية بحماية هذه الحكومة وأوقفت تقدم القوات المركزية المتقدمة وقتها للقضاء عليها وعندما تولى «أحمد قوام السلطنة» رئاسة الوزراء في فبراير ١٩٤٦ أظهر ميلاً لمساومة السوفيت وأشرك حزب تودة كوزراء معه.. وكان يرسل بعضهم لدول العالم لشرح قضية بلاده أمام التدخل السوفيتي وهكذا أحدث شرخاً داخل حزب تودة وأظهره أمام الشعب الإيراني بمظهر العميل

للاتحاد السوفيتي وفي ١٥ ديسمبر ١٩٤٥ تمكنت القوات الإيرانية المركزية بحركة خاطفة من إسقاط المنشقين حيث هرب زعماؤهم إلى الاتحاد السوفيتي ولقد بقي حزب تودة قوياً حتى ١٩٥٤ لكن خلافه مع مصدق والضربات التي وجهها الشاه له بعد عودته للحكم عن طريق ملاحقة السافاك المستمرة أدت إلى إضعافه كثيراً..

ورغم إعلان الحزب دائماً أنه حزب العمال والفلاحين إلا أنه لم ينجح في إقامة قواعد جماهيرية له وبقي منبوذاً بين الأوساط الشعبية على اختلاف طبقاتها وجل أعضائه من المثقفين البرجوازيين وقد عارض حزب تودة الحركة الشعبية بسبب قيادتها الإسلامية ورفعها للشعارات الإسلامية ولكنهم لم يجدوا بداً في النهاية من السير في خط الثورة حتى لا يظهروا بمظهر أعداء الشعب وتتهم الحركة الإسلامية حزب تودة بالعمالة للاتحاد السوفيتي وخيانة القضية الوطنية وترفض التعاون معه.

(ب) حركات يسارية أخرى: بالإضافة إلى حزب تودة هناك فريق ماوي انشق على حزب تودة عام ١٩٦٥ ويسمى «توفانت» «الصاعقة» وهناك الرابطة الاشتراكية التي تأسست في فترة حكم مصدق عام ١٩٥٢.

هذا بالإضافة إلى تنظيمات صغيرة ذات ميول مختلفة منها مجموعة «جزبى» التي تشكلت في الستينات وانضمت عام ١٩٦٩ إلى مجموعة ماركسية أخرى يتزعمها «أحمد زادة» وأعلنتا عن اتحادهما في منظمة واحدة هي (فدائي الشعب) التي تنادي باعتماد الكفاح المسلح فقط لاسقاط النظام الإيراني.

٤ ـ أحزاب وطنية أخرى:

هناك مجموعة أخرى من الأحزاب موزعة في ولائها بين الجبهة الوطنية والحركة الإسلامية ومن هذه الأحزاب حزب تحرير إيران الذي يتزعمه الدكتور «مهدي بازاراكان» كذلك حزب إيران وحزب الشعب الإيراني الاشتراكي.

٥ ـ الأقليات:

رغم تسلط الأضواء على إيران طيلة العام الماضي إلا أن هذه الأقليات بقيت خارج دائرة الضوء وربما كان هذا الإهمال مقصوداً فهذه الأقليات تعمل بدهاء وخبث شديدين ومنها:

(١) البهائية:

وهو في الأصل مـذهب ينتسب إلى مـحمد على باب وهو رجـل دين أدعى أنه الإمام المهدي (الثاني عشر) وأنه المرآة التي يتجـلى فيها الله واستدعى من قبل الشاه ناصر الدين وطلب إليـه الأخير أن يبرهن عما يدعيه ويبشر به.. ثـم عقد له مجلساً خاصاً مع بعـض العلماء. فلما أعـيته حيلة محاجتـهم أمر ناصر الدين بقـتله وعلى الرغـم مما يرفعـوه من شعارات الـتقريـب بين كل بنـي آدم والجمع بين الاتجـاهات السماوية الثلاث إلا أنهم في الحقيقة يكنون عطفاً خاصاً على اليهودية وإسرائيل هي قبلة معتنقيها وهم موجودون في إيران أكثر من أي بلد آخر.

ويقول خصومـهم أنهم لا يزيدون عن خمـسة آلاف بينما يدعى أنـصارهم أنهم مائة ألـف ويشاع أن أميـر عباس هويـدا ينتمـي إليهم وكـذلك بعض أفـراد الأسرة المالكة:

وفي ١٤ نوفمبر ١٩٧٨م

قدم وفد عـن الجمعيـة الروحية الـوطنية للـبهائيـين في فرنسـا بياناً إلـى المجلس الاقتـصادي والاجتمـاعي التـابع للأمم المتـحدة أعرب فـيه عن قـلق الجمعـية إزاء الأحداث الجـارية في إيران والـتي يخـشى أن تؤدي إلى المـساس بحـياة وممتلـكات المؤمنين البهائيين ـ على حد تعبير البيان ـ.

(ب) المسيحيون:

ويصـل تعدادهـم نصف مـليون (المـعرفـة التونـسية عـدد ١٠ سنة ٤) وهـم من الأثرياء الذين يسيطرون على مواقع ذات أهمية في إيران.

(جـ) اليهود:

ويبـلغ تعـدادهم بضعـة مئات مـن الآلاف (المعرفـة التونسـية عدد ١٠ سـنة ٤) ويعتبرون من أثرى الطبقات في المجتمع الإيراني.

الفصل السابع
الموقف الدولي

تعتبر إيران ذات أهمية خاصة في السياسة العالمية على جميع الأطراف الدولية وتنبع هذه الأهمية من أسباب تجعل أي تطور داخلي مصحوباً دوماً بانعكاساته الخارجية هي:-

١ ـ البترول الإيراني: حيث تعتبر إيران رابع دولة منتجة للبترول بعد الاتحاد السوفيتي والولايات المتحدة والعربية السعودية وجل هذا الانتاج يذهب إلى الولايات المتحدة واليابان وأوروبا الغربية وإسرائيل وجنوب أفريقيا كما تعتبر إيران الدولة الثانية في إنتاج الغاز الطبيعي بعد الاتحاد السوفيتي ومن المؤمل أن تصل قيمة إنتاجها من الغاز عام ١٩٨٥ مايعادل قيمة إنتاجها من البترول والغريب في شأن الغاز أن الاتحاد السوفيتي يشتري المتر المكعب منه بدولارين ويبيعه بما قيمته ستة عشر دولاراً!.

٢ ـ تقع إيران في الفناء الخلفي للاتحاد السوفيتي حيث تبلغ حدودها معه حوالي ١٢٠٠ ميلاً وهذا العامل يشكل عنصراً هاماً في السياسة الغربية الرامية إلى عزل الاتحاد السوفيتي ومنعه من الانتشار جنوباً ومن هنا نبعت أيضاً إمكانية خلق قوة حربية في إيران تحرس المصالح الغربية في المنطقة وتقف في وجه التهديد الشيوعي بالإضافة إلى ارتباط الجمهوريات الجنوبية في الاتحاد السوفيتي بإيران بروابط عديدة.

٣ ـ لإيران حدود هامة على الخليج العربي تزيد عن ألف كيلو متر تمكنها من الإشراف عليه والتحكم فيه بصفته طريق البترول الهام إلى الغرب واليابان وجنوب أفريقيا وإسرائيل.

٤ ـ وقوع إيران في وسط حزام آسيوي إسلامي جعل لها دوراً هاماً في قيادة هذا الحزام والتأثير في دوله ومن هنا فإن إيران تأتي ضمن المناطق العالمية الحساسة

وهذه المناطق عادة تخضع لسلوك خاص في مفهوم علاقات التوازن الدولية فكونها تدخل ضمن إطار المصالح الحيوية والأمن القومي للأطراف الدولية الكبرى يجعل هذه الدول تحاول دوماً التقدم لتحقيق المكاسب المباشرة والغير مباشرة ولكن بحذر يدرك خطورة الوضع وردود الفعل الممكنة ولهذا فإن عملية خرق لحدود الوفاق الدولي تشكل خطراً ليس فقط على آمن الدول الكبرى بل على مصير العالم بأسره، ومن هنا تتسم اللعبة ضمن طابع الحذر والتفهم كما سنرى عند دراسة وضع كل القوى العالمية بالتفصيل.

بقيت نقطة أخيرة قبل شرح مواقف الدول الكبرى وهي أن هذه الأهمية الاستراتيجية سواء لإيران أو لأي بلد أخرى مثلها تجعل السياسيين في هذه البلدان وكأنهم لا يملكون حرية كبيرة في اتخاذ القرارات السياسية التي تتعارض مع مصالح هذه القوى كما أن هؤلاء المسؤولين يدركون سلفاً مثل خطورة هذه القرارات على مستقبلهم السياسي.. والآن لننظر في الموقف الدولي بالتفصيل.

١ ـ الولايات المتحدة الأمريكية:

لفهم الدور الأمريكي في إيران يجب أن نفهم أولاً الإطار العام للأهداف العالمية التي تقع ضمن نطاقها المصالح الأمريكية وأول هذه الأهداف هو المحافظة على الاستقرار العام على المسرح العالمي.. بما يخدم في النهاية المصالح الاستعمارية للولايات المتحدة فالخطورة من وجهة النظر الأمريكية تكمن في عدم الاستقرار الذي يولد التوتر والمنازعات سواء الداخلية أو الخارجية وهذا قد يقود إلى محاولات راديكالية للتغير تهيء في النهاية مجالاً مغرياً للنشاط الشيوعي أو أي نشاط معاد للولايات المتحدة، وهذا الهدف يقودنا مباشرة إلى الهدف الثاني وهو عملية احتواء التوسع السوفيتي حيث يمثل الاتحاد السوفيتي ومؤيدوه مركزاً منافساً ورئيسياً للقوة العالمية ممكن أن يهدد أحياناً طموحات الولايات المتحدة والدعوة إلى الاستقرار على الطريقة الأمريكية والتي تعني دوماً أن تشرف الولايات المتحدة على عمليات نزع الفتائل وحل التناقضات لتحل المعادلة الميكانيكية.

«التضحية بالصديق من أجل إجهاض عدو قادم» فما يهمها دوماً هو حفظ جوهر النظام مهما كان الشكل النهائي فليس المهم أن يبقى الصديق في الحكم المهم أن يبقى ولاء النظام ضمن شروط موضوعية تراقبها الولايات المتحدة باستمرار ومراقبة أجهزة المخابرات الأمريكية، لكثير من الأنظمة في المنطقة أصبح لا يخفي على أي مطلع اليوم. هل نفهم من هذا أن الولايات المتحدة وقف موقفاً سلبياً من الشاه.. ومتى.. ولماذا؟.

قبل الإجابة لا بد من التذكير بطبيعة الدور الإيراني وأهميته بالنسبة للولايات المتحدة في تقرير نشر منذ حوالي عام عن لجنة العلاقات الدولية التابعة للكونجرس الأمريكي أشارت إلى أهمية المصالح الأمريكية الإيرانية، فإلى جانب كون إيران قاعدة إقليمية استراتيجية، وتشكل مع إسرائيل خط الدفاع الأول عن المصالح الغربية، فإن من المعروف أن مقر وكالة الاستخبارات المركزية (C.I.A) قد نقل إلى طهران. كما أنها حلقة رئيسية في المخططات العسكرية الأمريكية وعضواً مشاركاً للولايات المتحدة في الحلف المركزي وتربط الولايات المتحدة بعقود ثنائية تشمل جميع الميادين العسكرية والاقتصادية والتكنولوجية وشؤون الطاقة. هذا بالإضافة إلى أن إيران تشكل سوقاً هاماً للصادرات الأمريكية فهي تحتل المركز الأول في الأسواق الإيرانية وتشكل نسبة ٢٠٪ من واردات إيران بدون السلاح وينتظر أن يبلغ معدل المبيعات الأمريكية لإيران في الفترة (٧٥ ـ ٨٠) نحو ٥٢٢ مليار دولار هذا وقد ازداد هذا التقارب في بداية السبعينات لأسباب عديدة:

١ ـ اقتناع أمريكا بعد هزيمتها في جنوب شرق آسيا بضرورة وجود قوة محلية تقوم بنفس الدور الأمريكي.

٢ ـ دلالة حرب أكتوبر، فقد تقلصت أهمية الشريك الثاني لإيران في خط الدفاع الأول عن المصالح الغربية خاصة وأن وجود إسرائيل في محيط عدائي يقلل من قدرتها على الفعل بل ربما كان سبيلاً لانهيار أنظمة حليفة للغرب!

٣ ـ تعاظم الدور السوفيتي في المحيط الهندي واقترابه من البحر الأحمر في حين تسعى الولايات المتحدة للقيام بهذا الدور وحدها.

٤ ـ خوف الشاه من تكرار تجربة بنغالاديش خاصة وأن هناك تشابهها بين التركيب الباكستاني والإيراني.

٥ ـ تعاظم عائدات النفط مما يجعل إيران حليفاً استراتيجياً قوياً يشارك في تحسين ميزان المدفوعات الأمريكي.

ويلخص الكاتب الأمريكي «مايكل كلير» الاستراتيجية بعد ذلك حيال إيران بالنقاط الرئيسية الثلاث التالية:

١ ـ تحويل إيران إلى دولة كبرى محلية قادرة على مواجهة أي تهديد للأمر الواقع الحالي وللاستقرار في الخليج مما يضمن سيطرة الولايات المتحدة على منابع النفط ومداخله وطرقه وهيمنتها على المنطقة بواسطة القوة العسكرية.

٢ ـ تحسين قدرات الحكومة الإيرانية لتمكنها من الإمساك بالأمن الداخلي وتعزيز العلاقات الأمريكية مع الجيش الإيراني.

٣ ـ اعتبار الاستقرار السياسي الإيراني قاعدة أساسية في منطقة الخليج بأسرها.

ويؤكد المعنى السابق تقرير الكونجرس الأمريكي الذي يقول:

«إن للولايات المتحدة مصلحة مباشرة في إيران مستقرة سياسياً ويمكن الدفاع عنها إذ أن هذه الأمة ماتزال حائلاً دون روح المغامرة فإن من شأن إيران قوية ومستقرة أن تشكل عائقاً أمام الفصائل الراديكالية في الخليج».

والعبارة الأولى من التقرير تذكرنا بحديث الشاه لمجلة نيوزويك الأمريكية ٢٤ ـ ١ ـ ١٩٧٧ «إذا لم تكن لكم إيران قوية قادرة على ضمان أمنها الخاص وأمن المنطقة (الخليج) وفي حال الضرورة أمن المحيط كله فماذا تراكم فاعلون..؟ هل أنتم مستعدون لإرسال مليون جندي أمريكي في مكان ما من المنطقة؟ هل أنتم راغبون في فيتنام أخرى».

أما العبارة الأخيرة في التقرير فتذكرنا أيضاً بحديث الشاه مع «سلزبرجر» مراسل هيرالدتربيون عام ١٩٧٥ «تصور هؤلاء الهمج (ثوار ظفار) سيطروا على الضفة الثانية لمضيق هرمز وإن حياتنا باتت رهناً بأيديهم».

وبعد فإن كانت المصالح الأمريكية ترتبط بإيران بمثل هذه القوة فلماذا الشائعات عن الموقف الأمريكي السلبي ولماذا الإشارة المتعمدة والمبكرة من طرف كارتر ضد الشاه بخصوص قضية حقوق الإنسان.

هذا التساؤل الأخير لا يمكن شرح الإجابة عليه إلا من خلال الأنباء المؤكدة عن وجود اتجاهين في الإدارة الأمريكية.

الاتجاه الأول: الذي يدعو إلى تثبيت حكم الشاه شخصياً ويتزعم هذه الاتجاه الجناح الأمريكي المتعاطف مع الخط الإسرائيلي داخل الكونجرس وفي وزارة الدفاع وعلى رأس هذا الاتجاه يأتي السناتور الأمريكي «هنري جاكسون» الذي يطالب لا بتقييد الشاه بل بتقوية دوره ومضاعفة وسائله العسكرية، ويصف أحد كتب الإمام الخميني بأنها نسخة حديثة عن كتاب كفاحي لهتلر وسنتكلم عن مبررات أخرى لهذا الاتجاه عند الحديث عن إسرائيل.

الاتجاه الثاني: وهو الذي يقول إن الاستقرار لا يرتبط بالضرورة ببقاء الشاه شخصياً بل في وجود حكم قوي أقرب إلى الشرعية وقادر على إحداث إصلاحيات اجتماعية واقتصادية وبالتالي تطويق أي تغيير راديكالي محتمل ويرى بعض منظري هذا الاتجاه أن الشاه شخصية متعصبة قومياً وأنه ليس بليونة حليف آخر كالسعودية مثلاً فهو يحاول أن يكون حليفاً قوياً يمارس لعبة التوازن بشكل لا يرضى دائماً الولايات المتحدة فهو مثلاً يشتري السلاح من أوروبا الغربية بوفرة مزعجة وفي أيام التظاهرات العنيفة في طهران ١٩٧٨ نشرت «التايم» خبراً مفاده أن بريطانيا هي بصدد توقيع أكبر عقد عسكري عرفته في تاريخها وهو عقد بناء مجمع صناعي هائل في أصفهان لإنتاج الذخيرة تبلغ تكاليف بناءه أكثر من ٧٥٠

مليون جنيه استرليني، هذا بالإضافة إلى الموقف المتشدد في قضية ارتفاع الأسعار البترولية التي تتبناه إيران، وفي الزيارة الأخيرة للشاه إلى الولايات المتحدة طلب الشاه من كارتر التوقف عن حكاية حقوق الإنسان التي تثير أعصاب الشاه فطلب منه كارتر اتخاذ موقف نفطي قريب من موقف السعودية أي مناهض لارتفاع أسعار البترول وبالفعل فعندما انعقد مؤتمر الأوبك بعدها في كاراكاس فوجىء الجميع بموقف إيراني ينافس الموقف السعودي في الاعتدال.

وبعد كل هذا فقدأصبح الاعتقاد أن الولايات المتحدة التي أتت بالشاه إلى السلطة عام ١٩٥٣ أصبحت اليوم ميالة إلى التخلي عنه تحت ضغط الظروف المتغيرة هذا رغم خطورة المحاولة ـ ولكن هل كان البديل هو الحل الإسلامي ـ معاذ الله ـ الولايات المتحدة رأس النفاق في العالم والتي وقفت لكل حركة إسلامية بالمرصاد. فهي تعرف معنى قيام دولة إسلامية مستقلة وخطورة هذا على مصالحها.. الولايات المتحدة تعرف خطورة وصول الإمام الخميني إلى قمة السلطة وهو الذي قال في أحد رسائله لليندون جونسون عام ١٩٦٤:

ليعلم رئيس الولايات المتحدة الأمريكية اليوم أنه أقذر إنسان على وجه الأرض لدى الشعب الإيراني»

إن ماتفكر أمريكا به الآن هو كيف يمكنها إجهاض الثورة الإسلامية، وهل من المناسب أن تنحني للريح في هذه المرحلة أم لا..

إذن ما هو البديل؟

هناك دائماً في الحسابات الأمريكية عدة احتمالات وعدة حلول للأزمات، لا بد من وصول رجل أكثر ليونة من جميع الأطراف يكمل سياستها ويمتص النقمة الشعبية.

ولهذا يقال إن استقالة عباس هويدا كانت بناء على نصيحة أحد الأصدقاء الحميمين مظهراً موقفاً متحفظاً تجاه ما يجري في البلاد ومجهزاً نفسه كي يلعب

دوراً حاسماً في المرحلة المقبلة وإن كانت اللعبة لن تستطيع احتمال «هويدا» فهناك «علي أميني» السياسي الداهية والوزير السابق في حكومة مصدق الوطنية.. وتظل أمريكا تمسك أوراق أخرى مثل شاهبور بختيار عضو الجبهة الوطنية والمعروف بماضيه ضد الشاه فقد أعتقل ست مرات بدون محاكمة، وهكذا فإن تنازل الشاه للأمير رضا في وجود هويدا أو أميني أو بختيار أو أي بديل آخر يبقى أحد الأوراق الأمريكية، كل هذا في ظل دعم من الجيش المليء بالخبراء والعملاء والأصدقاء ولكن هل يمكن أن تمر ألاعيب أمريكا على الإمام الخميني والحركة الإسلامية وجماهير الشعب الإيراني.

إن وعي وصلابة الخميني تشيران إلى أن أغلب الأوراق لا زالت في يده.

٢ ـ الاتحاد السوفيتي:

يحاول الاتحاد السوفيتي اختراق حاجز الأمن المحيط به وقد استطاع أن يفعل هذا بعد انقلاب افغانستان الذي أوصل مؤيديه إلى السلطة وهو بلا شك ينتظر إيران لقمة شهية ومثيرة رغم مايحيط هذه الشهوة من محاذير وعقبات ومخاطر ويحلم بعد ذلك بالالتفاف حول باكستان وبالتالي يستطيع زعزعة الطوق الأمني الغربي وتهديد أمن منطقة الخليج وطرق النفط في المحيط الهندي والبحر الأحمر والمعروف أن إيران تدخل ضمن المخططات الروسية منذ عهد القياصرة حتى الآن فقد سعت روسيا القيصرية تارة بالتفاهم وطوراً بالضغط للحصول على منفذ جنوبي عن طريق إيران يطل على الخليج العربي ورغم هذا الإحساس فهناك علاقات وثيقة بين نظام الشاه والاتحاد السوفيتي حيث يوجد هناك ١٣٤ مشروعاً صناعياً في إيران تنفذ بمعونة سوفيتية تنتج ٩٠٪ من مجموع إنتاج الفحم و٩٠٪ من الصلب، ٧٠٪ من الفولاذ كما يبيع الشاه كميات كبيرة من الغاز للاتحادالسوفيتي الذي يشتري منه المتر المكعب بدولارين ويبيعه لدول أوروبا بـ ١٦ دولار. هذاوقد بلغت صادرات إيران إلى الاتحاد السوفيتي عام ٧٥ ـ ٧٦ نسبة ١٨,٦٪ من إجمالي الصادرات الإيرانية كما استوردت إيران من الاتحاد السوفيتي في نفس العام

ماقيمته ١٦٩ مليون دولار محتلاً بذلك المرتبة الثانية عشر بين الدول المصدرة إلى إيران وقد وقعت الدولتان في (يوليو) ١٧٥ اتفاقية لإنشاء أطول خط أنابيب للغاز في العالم يمتد من جنوب إيران إلى الاتحاد السوفيتي ألف كيلو متر وفي أغسطس ٧٧ وقعت صفقة نفطية يشتري الاتحاد السوفيتي بمقتضاها «لأول مرة في تاريخه» بترولاً من الخارج مليون طن من النفط الخام مقابل سلع تموينية، والاتحاد السوفيتي يدعم دائماً هذه العلاقات ويحافظ عليها لأسباب منها.

التقليل من الدور الصيني في إيران هذا الدور الذي يزعج الاتحاد السوفيتي.

وعندما بدأت الاضطرابات تجنب السوفيت اتخاذ موقف عدائي تجاه الشاه بل أن «البرافدا» اتهمت رجال الدين بأنهم سبب الاضطرابات لمعارضتهم لإصلاحات الشاه الخاصة بتحديد الملكية التي ضربت مصالح كبار رجال الدين الإقطاعية وكذلك إرسال بريجنيف برقية للشاه يوم ٣٠ أكتوبر بمناسبة عيد ميلاد الشاه أو العيد الوطني الإيراني، ثم أخذ السوفيت يلقون بالمسؤولية على أجهزة القمع البوليسية وأحياناً تتهم أجهزة المخابرات الأمريكية بتنظيم الاضطرابات إلا أنه وفي الفترة الأخيرة بدأت بوادر الحرب الباردة بين الاتحاد السوفيتي والولايات المتحدة.. فهذا تصريح لمدير المخابرات الأمريكية يعلن عن تأكده من وجود نفوذ سوفيتي في الأزمة وهذا رد من «تاس» وبريجنيف شخصياً: «إنها كذبة كبرى»، ثم تكال الاتهامات للأمريكيين ودورهم داخل الجيش ودورهم في انقلاب مرتقب. باختصار فإذا لم تتدخل الولايات المتحدة بشكل مباشر ولم يشعر الاتحاد السوفيتي بظهور منجستو في إيران وهو احتمال شبه مستحيل فإن الاتحاد السوفيتي يميل إلى بقاء نظام الشاه لعدة أسباب.

١ ـ يدرك السوفيت طبيعة اللعبة الأمريكية ومسرحية البديل التي تدبرها أمريكا من فترة إلى أخرى خاصة وأن الشاه استطاع أن يحدث توازناً معقولاً من نظام كنظامه، هذا التوازن الذي سيختل لصالح أمريكا في حالة وصول البديل الأمريكي.

٢ ـ العلاقة الطيبة بالنظام والتي أشرنا إليها من خلال الاتفاقات الاقتصادية المعقودة بين الطرفين وكذلك علاقتهم الطيبة بالشاه ذاته فقبل عامين أعاد الشاه للسوفيت الطيار السوفيتي الذي لجأ إلى إيران وعندما كان الزعيم الصيني هو اكوفنج في زيارة استمرت ٣ أيام لإيران أثناء اشتعال الأزمة وذلك لدعم الشاه أرسل الشاه شقيقته الأميرة أشرف في زيارة سرية لموسكو كي تطمئن السوفيت أن العلاقة الجديدة بين طهران وبكين لن تؤثر بشيء على العلاقات الطيبة مع موسكو ولا على معاهدة عدم الاعتداء القائمة بين الاتحاد السوفيتي منذ ١٩٢١ والتي تعطي السوفيت حق استخدام الأراضي الإيرانية في حالة تعرض حدودهم للخطر.

٣ ـ خشية الاتحاد السوفيتي من انتصار الثورة الإسلامية وقيام حكم إسلامي قوي سيزيد من المشاكل المستعصية التي تعاني منها موسكو مع جمهورياتها الجنوبية هذه الجمهوريات المرتبطة ارتباطاً وثيقاً بإيران المسلمة أكثر من ارتباطها بالاتحاد السوفيتي.

٤ ـ إدراك الاتحاد السوفيتي لصعوبة اشتراك الشيوعيين في الحكم.

ولكن هذا لا يمنع أن يقف السوفيت مواقفاً تكتيكية حسبما تقتضية تطورات القضية.

إسرائيل والفلسطينين:

يحمل المسلمون الشيعة ثأراً قديماً ضد اليهود المتهمين بالتآمر على قتل الإمام علي كما يتوارث المسلمون والشيعة منهم بشكل خاص قصة بطولة الإمام علي في حمل باب إحدى قلاع خيبر واستخدامها كدرع في القتال ضد اليهود، ولقد عاش الشعب المسلم في إيران فترة طويلة تحت وطئة العلاقة مع إسرائيل فحمل لها كرهاً شديداً لدرجة أن تتهم الحركة الإسلامية، ويسرى ذلك بين الناس في إيران أن الجنود الذين أطلقوا النار على المتظاهرين يوم الجمعة الأسود ١٨ ـ ٩ ـ ١٩٧٨ كانوا

من اليهود ولـقد ساند الإمام آية الله الخميـني الكفاح المسلح الذي يقـوم به الشعب الفلسطيني فأفتى بوجوب العـمل على إزالة إسرائيل وصرف موارد الزكاة من أجل هذا العـمل وفي أثنـاء حرب أكتوبـر أصدر بيانـين حث فيهـما الشعـوب والدول الإسلامية عـلى مساندة الشعوب الـعربية في مواجهـة العدو الصهيوني المـغتصب وهناك رسـائل متبـادلة بين الإمام الخـميني ويـاسر عرفات رئـيس منظـمة التحـرير الفلـسطينـية (سبق أن أشـرنا إليهـا في الفصـل الثاني) وعـندما اتهـم الشاه منـظمة التحرير بمسانـدة الثورة الإسلامية في إيران ردت المعارضة الإسلامـية في بيان أذيع في ١٧ ـ ٨ ـ ١٩٧٨م.

«إن العلاقة بين الشعبين الإيراني والفلسطيني هي علاقة نضالية في مواجهة عدو واحد يستهدفهما معاً». ... «وهل التعـاون بين ثورتي شعبي إيران وفلسطين جريمة وتهمة؟ إن ذلك شرف وفخر كبيرين لهذيـن الشعبين المناضلين». ومن هذا يتضح مقدار الخـوف الإسرائيلـي من سقوط الشـاه صاحب العلاقـة الخاصة مع إسـرائيل فالشاه معجب شخصياً بمنجزات إسرائيل بالإضافة إلى حاجته إلى أسواقها لتصدير النفط واستيراد سلع خاصة وبالإضافة لـلموقف الموحد من كلا الطرفين تجاه وحدة الأمة العـربية، هذا وتمنـح إيران الشاه لإسرائـيل حق هبـوط طائراتها فـي المطارات الإيرانية. بل أن بارى ماتش الفرنسية تروي عن شاهد عيان في عدد يوليو ١٩٦٧ أن الطائرات الحـربية الأمريكية كـانت تهبط في المطارات الإيـرانية حيث ترسم عـليها نجمة داود ثم تنتقل إلى إسرائيل كما أن هناك تلميحات في أوساط كثيرة مطلعة إلى وجود تعاون نووي بـين إسرائيل وإيران وجنوب أفريـقيا. ولذلك رأينا منـذ البداية كيف قدمـت الموساد الإسرائيلية المـعونة للسافاك عـند وبعد تأسيسهـا كما أشارات الهيرالـدتربيون في ١٤ ـ ٧ ـ ٧٨ وكذلك مāأشـيع عن ضرب الجنود الإسرائـيليين الذين يلبسون الملابس الإيرانية للمتظاهرين الأمر الذي جعل «ايجال يادين» يصدر تصريحاً يـكذب فيه هذا الأمر قائلاً: «أن الجنود الإسـرائيليين لم يطلقـوا النار على المتظاهرين في طـهران» وقد كشف أن ٣٠٠ خبير إسرائيلي سـافروا إلى طهران بعد

أن أعلنت حالة الطوارىء في البلاد ولهذا بدأ واضحاً موقف إسرائيل ومن يؤيدها في وزارة الدفاع والكونجرس الأمريكي «كهنري جاكسون» من الشاه والسعي لتأييده لما يشكله سقوطه وتغير النظام من خطر على إسرائيل حيث أن هذا السقوط يعني بالنسبة له:

١ ـ قطع النفط حيث أن ٧٠٪ من نفط إسرائيل يأتي من إيران وماسيؤدي ذلك من إصابة اقتصادها من أخطار ويجعلها عاجزة عن الدخول في أي حرب جديدة.

٢ ـ خسارة إسرائيل لحليف عسكري قوي فتصبح بذلك معزولة في المنطقة.

بالإضافة لما يشكله سقوط النظام من تأثير مباشر على موقف إسرائيل التفاوضي في محادثات السلام.

وكل هذا يعطي التفسير للحملة الإعلامية ضد الثورة الإسلامية، فصحيفة (هاتسوفيه) المتدينة تقول «أياً كان النظام الذي سيخلف الشاه فلن يكون إلا الأسوأ».. وقالت «الجيروزلم بوست» (إن الإطاحة بالشاه لن تؤثر فحسب على الوضع الجغرافي والسياسي للخليج العربي ولكن في توازن القوى بصورة عامة) وهكذا فالثورة الإسلامية في محور من أهم محاورها هي الصراع بين الخميني وإسرائيل.

الوطن العربي:

لقد كانت احتمالات الصدام بين إيران والدول العربية قائمة سواء أيام عبد الناصر أو أثناء الأزمة الكردية على حدود العراق أو بأشكال غير معلنة ولقد اهتمت الجهات الدولية بالصراع غير المعلن ففي المؤتمر السنوي لمعهد الشرق الأوسط ١، ٢ أكتوبر ١٩٧١ تناول المؤتمر دراسة عوامل التناقض بين السعودية وإيران كما كان من نصيب مؤسسة (راند) الأمريكية تقديم دراسة للمخابرات الأمريكية عن احتمالات الموقف في حالة نشوب حرب بين العربية السعودية وإيران بسبب الصراع على الخليج العربي وقد بدأت إيران الشاه مخططها عندما

احتلت جزر طنب لتوقيع اتفاقية بين الشاه والملك فيصل بشأن جزيرتين متنازع عليهما هما (فارسي وعربي) فأخذ الشاه الأولى وبقيت الثانية للسعودية ورغم هذا الصراع المعلن وغير المعلن فإن موقف السعودية من أحداث إيران لم يتسم أحياناً بالتحفظ كعادتها بل إن الأمير سلطان بن عبد العزيز أصدر بياناً في ٢٠ نوفمبر - انتقد فيه الثورة الإسلامية وحمل المسؤولية للشيوعية الدولية وقد قوبل هذا الانتقاد الصريح برد عنيف من الحركة الإسلامية حيث أصدر رجال الدين المناضلون - في بيروت - بياناً هاجموا فيه السعودية فحملوها هي وبقية الأنظمة الملكية تبعية وجود إسرائيل وعزوا هذا الانتقاد إلى خوف السعودية من امتداد الثورة الإسلامية إليها. هذا وقد وقفت الكويت موقفاً مشابهاً للسعودية وكذلك أعلنت العراق حسن نيتها للشاه فطلبت من الخميني مغادرة البلاد وربما كان هذا بسبب الاتفاق العراقي الإيراني بشأن الأكراد ولكن الأهم هو تخوف العراق من الثورة الإسلامية خاصة وأن اضطرابات كربلاء والنجف الأشراف عام ١٩٧٧ لا زالت ماثلة في الأذهان أما ليبيا ذات الخلاف التقليدي مع الشاه فقد أعلنت تأييدها للثورة وكذلك سورية.

ولعله غريب فعلاً أن تقف بعض الدول العربية هذا الموقف السلبي من الثورة التي تعلن دعمها وتأييدها لقضايا العرب.. إلا إن كان تخوف هذه الدول من مد الثورة الإسلامية الإيرانية إلى داخلها هو السبب في عدم تأييدها.

الجـزء الثـالث

محاضرات وندوات

(١)

(الانتفاضة بعد مدريد)

تشهد القضية الفلسطينية تطوراً لم تشهد له مثيلاً من قبل، فبعد عشرات السنين من النضال والجهاد العسكري والسياسي تتوجه القيادة الفلسطينية الرسمية لتعطي التفاوض السياسي والديبلوماسي الأولوية المطلقة في العمل، لم يكن الذهاب إلي مدريد فاتحة الطريق، بل نتيجة حركة فلسطينية مستمرة باتجاه واحد منذ سنوات طويلة، تحركت (م.ت.ف) كتعبير عن المشروع الوطني الفلسطيني على مدارها من النقيض إلى النقيض نظرياً وسياسياً وتنظيمياً وعسكرياً حتى بات من الصعب أن تلحظ اليوم أي ملمح من ملامحها الأساسية كحركة تحرر وطني وقومي.

ولاشك أن هناك أسباباً متعددة المستويات. فكرية وبنيوية، وموضوعية وذاتية تكمن وراء هذه الأزمة الخانقة، ووصولاً الى الانتفاضة المباركة لايسعنا في هذه العجلة إلاّ المرور بمحطات سياسية رئيسية على طريق الاتجاه الواحد.

كان ظهور(م.ت.ف) في منتصف الستينات ثم سيطرة المقاومة الفلسطينية عليها في العام ١٩٦٨ . نقطة تحول هامة في مسيرة الشعب الفلسطيني، الذي يحاول ولأول مرة منذ العام ١٩٤٨م أن يمسك قضيته بيده، بعيداً عن هيمنة وشروط النظام العربي، كان واضحاً أن النظام العربي وبعد هزيمة ١٩٦٧م قد تخلى عن فكرة تحرير كامل فلسطين واعتبر دوره في حرب تشرين أول (أكتوبر) ١٩٧٣ هو أقصى الذي يمكنه تقديمه في مثل هذه المرحلة التاريخية.

وقد وضعت، نهاية حرب ١٩٧٣(م.ت.ف) أمام خيار خطير وهو أن تسعى ضمن إطار الشروط الدولية لتمثيل الفلسطينيين في تحرك السلام الذي تم، والتعبير عنه حينها بمؤتمر جينيف أو أن تترك ذلك للأردن. وقد حسمت (م.ت.ف) الأمر

(*) المصدر: كلمة ألقيت في الندوة التي اقامتها الجبهة الشعبية وشارك فيها تيسير خالد من الديمقراطية وأبو نضال مسلمى من الشعبية خلال شهر ٤ أبريل ١٩٩٢

بتوجهها الاستراتيجي الجديد الذي أعلنه المجلس الوطني الثاني عشر الذي عقد في القاهرة ١٩٧٤ وأقر البرنامج السياسي المرحلي ذا النقاط العشر، لم يكن هذا البرنامج مفاجئاً ، إذ كان المشروع الوطني الفلسطيني حتى تلك السنوات القليلة وبقيادة حركة «فتح» تحديداً يغادر منطلقاته الاولى الى مساحة تتعلق باعتراف عربي رسمي ووضع فلسطيني رسمي وتتعلق باعتراف دولي وبالتالي قبول مبدأ التفاوض حول هدف التحرير الكامل. كانت «فتح» تقود المشروع الوطني نحو الأزمة.

لقد افتتح ذلك البرنامج المرحلي ذو النقاط العشر ـ مسلسل التنازلات حين ترك هامشاً مفتوحاً لتسوية جزئية، وهو يشير الى أن (م.ت.ف) ستناضل بكافة الوسائل وعلى رأسها الكفاح المسلح لتحرير الارض الفلسطينية وإقامة سلطة الشعب الوطنية المستقلة المقاتلة على كل جزء من الارض الفلسطينية التي يتم تحريرها وهذا يستدعي إحداث المزيد من التغيير في ميزان القوى لصالح شعبنا ونضاله.

وبعيداً عن البلاغة والصياغة فقد شكل هذا النص حجر الزاوية في التحرك السياسي الفلسطيني حتى قرارات المجلس الوطني الفلسطيني التاسع عشر الذي عقد بالجزائر ١٩٨٨م (تشرين ثاني/ نوفمبر). وقد تمت مكافأة م.ت.ف على ذلك الموقف عربيا ودولياً، اذ تم الاعتراف عربياً بـ (م.ت.ف) ممثلاً شرعياً وحيداً للشعب الفلسطيني، ودولياً بدعوة المنظمة بصفتها ممثلة للشعب الفلسطيني، لحضور مداولات الأمم المتحدة بصفة مراقب.

في مطلع الثمانينات تم عربياً إقرار «مشروع فهد» الذي عرف لاحقاً بقرار قمة فاس (فاس الثانية) وخاصة بعد الاجتياح الإسرائيلي لبيروت وخروج المقاومة الفلسطينية منها، كان هذا القرار يشكل أول اعتراف عربي جماعي ورسمي بدولة الكيان الصهيوني، ولو بشكل ضمني وهو يؤكد على حق دول المنطقة في العيش بسلام، وفي الدورة السادسة عشرة التي عقدها المجلس الوطني الفلسطيني بالجزائر في شباط (فبراير) ١٩٨٣ تم الإقرار فلسطينيا بقرارات قمة فاس!

وفي عام ١٩٨٥ تم توقيع «اتفاق عمان» الذي يجعل الأردن شريكا في التحرك السياسي الفلسطيني، ولكن سرعان ما أُلغي هذا الاتفاق تحت ضغوط منها ضغط فصائل المعارضة، كما أمام إصرار المنظمة على دورها المرفوض (كان ولايزال) أمريكيا وإسرائيلياً

وهكذا ما أن جاءت الانتفاضة حتى كانت (م.ت.ف) والمشروع الوطني الفلسطيني في وضع لايُحسد عليه، فالمشروع الوطني يفتقد الأرض التي يقف عليها في حين تستمر المنظمة كمؤسسة عربية رسمية تقع فريسة المحاور العربية، وتلعب لعبتها. وذلك في نفس الوقت الذي يسترد فيه النظام العربي زمام المبادرة من المشروع الوطني الفلسطيني الذي كان قوياً وفتياً. إثر هزيمة ١٩٦٧ . لقد كان واضحاً أن (م.ت.ف) بحاجة الى دعم عربي رسمي، وأنها لاتستطيع الاستمرار في طريقها بغير ذلك، (طريق الاتجاه الواحد..، العمل الديبلوماسي والسياسي). إنه موقف يستدعي الأزمة حقاً، المشروع الوطني الفلسطيني يعيش تناقضاً استراتيجياً مع الطرف الذي يفترض أن يكون سنده الاستراتيجي.

لقد شكلت الانتفاضة الثورة مخرجاً حيوياً لـ (م.ت.ف) وللمشروع الوطني ككل، فقد أعادت فلسطين الى قلب الاهتمامات العربية، وفتحت إمكانات جديدة للمنظمة بعد أن تيقن الاردن من صعوبة بناء دور مستقل وسارع إلى فك الارتباط الإداري والقانوني مع الضفة الغربية، وتحركت الولايات المتحدة الامريكية ـ عبر رحلات وزير خارجيتها جورج شولتز باتجاه التسوية في المنطقة.

لم تنطلق الانتفاضة من نقطة الصفر بالتأكيد، ولكنها فاجأت قيادة المنظمة بلا شك فمنذ منتصف السبعينات كان هاجس الثورة الشعبية دور الجماهير وفي الداخل تحديداً .. يتلاشى في ذهنية قيادة المنظمة، ولا يعني هذا بحال فصل الانتفاضة عن الثورة الفلسطينية وحركتها المعاصرة، لأن الانتفاضة جاءت رداً على الاحتلال وقمعه وبطشه ومحاولته طمس الهوية الوطنية للشعب الفلسطيني، وتذويبه واحتوائه بل وصهينته، كما جاءت على تراكم من النضال الوطني المستمر

منذ مطلع العشرينات ومن خلال خبرات نضالية تم اكتسابها عبر سنوات المواجهة خاصة بعد العام ١٩٦٧.

كما جاءت الانتفاضة على خلفية خيبة الأمل في الواقع العربي الرسمي الذي بدأ يجعل من فلسطين أسفل وآخر أولوياته. كما أن دور الإسلام وحركته الثورية في المنطقة وفي داخل فلسطين على مدى الثمانينات كان له أثر رئيسي وبارز في تفجير الانتفاضة وفي ديمومتها، وقد شكل هذا تحدياً غير مسبوق لقيادة المنظمة.

وهكذا كان للانتفاضة أسبابها البعيدة والقريبة ولكنها فاجأت قيادة المنظمة.

من هنا فلم تتصور تلك القيادة عندما قامت الانتفاضة طريقاً آخر غير الذي كانت تسير فيه منذ سنوات ـ طريق التسوية.. التسوية الجزئية، فقد قطعت شوطاً كبيراً منذ برنامج النقاط العشر نحو القبول بمبدأ العمل على أساس ما توفره شروط الواقع الدولي والاقليمي. كانت الانتفاضة حدثاً مبدعاً ومعجزاً، ولكن العقل الفلسطيني الرسمي لم يكن قادراً على الإبداع أو على فهم المعجزة، لقد أصبح منذ فترة أسيراً للمعادلة الدولية والإقليمية، فليطرح الانتفاضة إذا في سوق النخاسة الدولي ـ سوق التسوية ـ وعلى أساس من تحسين أي موقف فلسطيني تفاوضي مع العدو.

وهكذا ـ وياللهول ـ فقد تم إغلاق الأبواب رسمياً أمام أي مسار آخر، وبدلاً من التعامل وفهم الانتفاضة كمشروع استراتيجي للنهضة والتحرير، وكمحاولة قوية وجادة لاستنهاض الامة وتجديد الروح لحركات النهوض العربي والإسلامي كمدخل حقيقي وجاد لتغيير موازين القوى الظالمة، بدلاً من ذلك جربوا بيعها في سوق النخاسة الأمريكي وتعاملوا كمشروع للاستثمار العاجل والسريع بل كغطاء للدخول الى التسوية، ليجدوا أنفسهم في النهاية أمام مشروع شامير للحكم الذاتي.

تلك النظرة الضيقة القاصرة المستعجلة للانتفاضة دفعتهم في قيادة المنظمة أن يرسلوا أموالهم عبر رجالهم وكوادرهم وأزلامهم ليتسلموا الانتفاضة من الجماهير

معينها ومنبعها الفذ، لتتحول شيئاً فشيئاً وكأنها انتفاضة الفصائل وانتفاضة مجموعات معينة أساء بعضها الى الجماهير نفسها، وسادت أحيانا حالة من التصادم بين ميليشيات جديدة وبين الناس وهيمن منطق الحرب الأهلية اللبنانية في إنشاء الزواريب والبؤر التابعة لهذا الفصيل أو ذاك، وتُركت الجماهير بلا مُعين تلعق جراحها وهي ترى أغنياء يزدادون غنى في الداخل ولهاثا محموماً من الخارج على خط التسوية.

ولقد جاءت قرارات المجلس الوطني الفلسطيني التاسع عشر بالجزائر تشرين ثاني ١٩٨٨ وما تلاها في جنيف واستكهولم، ليعيد الى الأذهان حديث أنور السادات القديم حول أن ٩٩٪ من أوراق اللعبة هيّ بيد أمريكا، لقد تحول منطق السادات الى المنطق الفلسطيني الرسمي، ومن هنا كان الاعتراف بالقرار ٢٤٢ والاعتراف بشرعية الكيان الصهيوني والمساومة على الكفاح المسلح، وذلك لأجل الجلوس على طاولة المفاوضات مع الطرف الأمريكي الذي قبل افتتاح الحوار مقابل الشروط السابقة. ولكنه سرعان ما أوقفه لأسباب واهية بعد أن نجح في جر (م.ت.ف) الى مزيد من التنازلات. فقد كان هدف الحوار كما جاء على لسان عضو المجلس الوطني الفلسطيني إبراهيم أبو لغد: «تفريغ (م.ت.ف) من محتواها الوطني».

في ذلك الوقت كان التحرك الأمريكي نحو التسوية يصل الى طريق مسدود بين نقاط بيكر، ومشروع شامير للحكم الإداري الذاتي. وكانت الهجرة اليهودية تتسع والاستقطاب داخل الوطن المحتل يزداد وخاصة نهج التسوية والنهج المعارض له، في ذلك الوقت أيضاً جاءت أزمة حرب الخليج لتضعف الموقف الفلسطيني، فقد خسر الفلسطينيون اقتصادياً، وفرضت على عشرات الآلاف منهم هجرة جديدة، وفرض عليهم حصار سياسي عربي ودولي، وهكذا وبعد ربع قرن من الثورة الفلسطينية المعاصرة أصبح الفلسطينيون يواجهون تهديدات وتحديات عديدة.

١ـ إنكار وتهديد وجودهم كشعب وكأمة، فالمنطق الإسرائيلي وإلى حد كبير، والمنطق الامريكيا أيضاً بات ينظر إليهم كأقلية قومية عليها أن تقبل العيش في ظل أكثرية يهودية.

٢ـ التوسع الإسرائيلى: فعلى رغم التنازلات التي قدمها العرب والفلسطينيون فإن أهداف وأطماع الكيان الصهيوني التوسعية ازدادت شراهة واصبح الأردن نفسه مهدداً وليس مجرد الضفة والقطاع.

٣ـ الخشية الفلسطينية من الاستخدام الوحشي وغير المقيد وغير المتكافئ للقوة من الطرف الإسرائيلي دون مبالاة بأي قيمة أخلاقية بل بلا مبالاة بمسألة الدعم السياسي طالما أن الهدف هو إخماد المقاومة.

٤ـ سياسة خلق حقائق جديدة، وباستمرار في الأراضي المحتلة تتمثل في سياسة الاستيطان، الاغتيالات، السجن لمدد طويلة، الإبعاد، حظر التجول لفترات طويلة، تدمير البيوت، إغلاق المدارس والجامعات، فرض الضرائب الباهظة والغرامات، إضافة الى تدمير الاقتصاد الفلسطيني وبنى المجتمع التحتية، كذلك إنكار الحقوق الإنسانية والسياسية.

٥ـ شبح الإبعاد الجماعي (الترانسفير)، وهي الرغبة المكتومة لدى الحركة الصهيونية عامة، والتي تأتي ضمن البرنامج السياسي لثلاثة أحزاب مشاركة في الحكومة الحالية (تسوميت، موليدت، هتحيا).

٦ـ الهجرة اليهودية بما تعنيه من مدد بشري ومعنوي للكيان الصهيوني.

٨ـ المخاوف من صراعات داخلية عنيفة داخل الصف الفلسطيني نفسه على خلفيات سياسية وحزبية.

٩ـ استمرار تدخل الدول العربية في الشأن الفلسطيني وإحداث مزيد من الانقسامات والمحاور.

في نفس الوقت الذي كان الفلسطينيون يعيشون هذه الهواجس والتحديات استمرت الانتفاضة قوية وحية، استمرت من خلال مبرراتها ودوافعها التي لازالت قائمة وتزداد حدة، ولكن الولايات المتحدة من هنا كانت تخرج من حرب الخليج وترى نفسها على قمة الدنيا منفردة، فقد انهار التوازن الدولي الموروث عن الحرب العالمية الثانية، وانتهت الحرب الباردة لصالح الغرب الرأسمالي، وأدت حرب الخليج نفسها الى انهيار عربي بالغ، في مقابل تفوق إسرائيلي وهجرة يهودية واسعة. ارادت الولايات المتحدة أن تفرض سلامها الذي يكفل استمرار الهيمنة والتفرد ويكفل حماية الكيان الصهيوني، وحماية الأنظمة التابعة ويضرب أي نوازع للمعارضة الإقليمية أو النهوض العربي والإسلامي. أصبح الأمريكيون يدركون ويخشون أن استمرار الاحتلال الإسرائيلي يحمل في طياته بذور عدم الاستقرار يهدد المصالح الامريكية والإسرائيلية بعيدة المدى. فالوضع الراهن يُولد وضعاً متقلقلاً قادراً على الانفجار على شكل عنف واسع متبادل في أي وقت، إن مخاطر استمرار تسابق التسلح واحتمالات تصاعد الانتفاضة والخوف من تعزيز دور قوى النهوض العربي والإسلامي، جعل أمريكا تفكر أنه لابد من التوجه نحو التسوية وهكذا تم الدخول الى مسار مدريد، وعلى اساس من رفض مشاركة (م.ت.ف) ومن دون الخارج الفلسطيني ومن دون طرح موضوع القدس وعلى أساس أن تكون المفاوضات ثنائية بين كل طرف عربي والطرف الإسرائيلي، وبدون وسطاء، وعلى أساس أن مشاركة الدولتين الكبيرتين تقتصر على يومي الافتتاح وبلا صلاحيات لمراقب الامم المتحدة، وأخيراً ألا تؤدي هذه المفاوضات الى قيام دولة فلسطينية.

لقد كانت (م.ت.ف) تدرك طبيعة الموقف الذي تمر فيه، وتدرك حجم القرار الذي يُطلب منها اتخاذه، ولذا فقد حرصت أن يكون المجلس الوطني الفلسطيني هو المؤسسة التي تأخذ القرار، وحرصت على تمثيل جميع القوى الفلسطينية وخاصة القوى الإسلامية، ولكن عدة اجتماعات بين قيادات من (م.ت.ف)

وحركة حماس واتصالات أخرى مع حركة الجهاد الإسلامي فشلت في إحضار القوتين الإسلاميتين الرئيسيتين، كما فشلت الاتصالات التي تمت مع جبهة الإنقاذ التي رفضت في النهاية الحضور بشروط قيادة (م.ت.ف).

وهكذا اتخذ قرار المشاركة في مؤتمر التسوية في غياب جميع القوى الإسلامية المجاهدة والفاعلة في ساحة الانتفاضة، كما غابت فصائل وطنيةٌ مناضلة، كما غاب عدد كبير من أعضاء المجلس الوطني والذي نعرف أنه معين بالطبع. وقد رفض عدد لا بأس به من الذين حضروا مقررات المجلس خاصة الجبهة الشعبية لتحرير فلسطين، وبعض المستقلين بل وأفراد من حركة فتح نفسها. وإذا اخذنا بالاعتبار أن بعضاً من الذين قالوا نعم قالوا تحت ضغط ما أو قالوها بشروطهم الخاصة التي انتهكت بشكل واضح بقرار المجلس المركزي اللاحق. كل هذا يؤكد على عدم مصداقية بل وعدم شرعية قرار المشاركة.

لقد بقيت فتح وحدها إضافة الى الحزب الشيوعي الفلسطيني على استعداد للذهاب الى آخر الطريق، لقد قاموا بترتيبات وجهود كبيرة لإخراج عناصرهم الى الشارع الفلسطيني ولوضع أغصان الزيتون في فوهات البنادق، بنادق جنود الاحتلال، بل تمت محاولات لكسر الإضرابات التي دعت إليها القوى المعارضة وذلك بالقوة. وهكذا لأسباب إعلامية تمت المساومة على الانتفاضة بل وتم إحداث شرخ عميق في الوجدان الفلسطيني، أي معنى لغصن الزيتون في فوهة بندقية قتلت أطفالنا وأهلنا بالأمس وهي تفعل ذلك اليوم وغداً.

في اليوم الثاني من أيام مدريد استمع العالم الى خطابي الطرفين الأساسين الإسرائيلي والفلسطيني- مثلهما رجلان كل منهما في السبعينات من عمره، اكتسى خطاب الأول بمطلقات التاريخ، التاريخ الخاص الذي كُتب على أرضية الصراع ونفي الآخر قال إسحق شامير: «شهد هذا القرن خطة إبادة نفذت على أيدي النظام النازي، كنا من دون وطن أو حماية، ولكن الكارثة هي التي جعلت المجتمع الدولي يعترف بمطالبتنا القائمة على حقنا في أرض إسرائيل.. وفي الواقع جاءت ولادة

دولة إسرائيل من جديد بعد وقت قصير جداً من الكارثة، جعلت العالم ينسى أن مطالبتنا هي قديمة، إننا الشعب الوحيد في أرض إسرائيل خلال أربعة آلاف سنة» كان شامير يعرف حدود مشروعه اللامحدود لذا فهو لايتحدث باسم دولة إسرائيل وإنما باسم الشعب اليهودي.

أما الخطاب الثاني فقد جاء مسكوناً بأزمة المشروع الوطني الفلسطيني، مفتقداً لعدالة التاريخ ومجللاً بنص الاستجداء السياسي قال حيدر عبد الشافي: «ليس هناك في الشرق الأوسط شعب زائد خارج حدود الزمان والمكان، بل هناك دولة أخطأها الزمان والمكان ألا وهي دولة فلسطين» وهكذا يذكر عبد الشافي حلم المشروع الوطني الطويل الذي جاء وقت التخلي عنه إذ يكمل: «دولتنا هذه وهي في مرحلة المخاض قد طال انتظارها ولابد لدولتنا أن تقوم الآن وليس غداً، ومع ذلك فإننا على استعداد لقبول المرحلة الانتقالية شريطة ألا تتحول هذه المرحلة الانتقالية الى حل دائم».

لقد ذهبت القيادة الفلسطينية الى مؤتمر التسوية دونما خيارات بديلة في جعبتها فأصبحت وكأنها تساوم على ضعفها، يقول بسام أبو شريف المستشار السياسي لرئيس (م.ت.ف) تعليقاً على مسألة الضمانات الامريكية للطرف الفلسطيني: «إن الضمانة الأهم هي استمرار الولايات المتحدة في العملية السلمية».

لقد تحركت قيادة (م.ت.ف) ولأكثر من خمسة عشر عاماً باتجاه واحد وضاق هامش المناورة شيئاً فشيئاً حتى فقدته تماماً وهي تريد الانتفاضة اليوم كغطاء لخيار السلام والتسوية وليس بديلاً عنه في حالة الفشل، فكيف يمكن لمن يضع غصن الزيتون في البندقية التي أطلقت عليه النار أمس، كيف بإمكانه أن يعود لقذف جنود العدو بالحجارة، أي خطيئة تقدم عليها قيادة (م.ت.ف) وهي تكرس هذا الشرخ في الوجدان وهذا الانقسام في الشارع. إن علينا أن نعترف ان الانقسام تجاوز هذه المرة الأحزاب والنخب المثقفة الى الشارع بسبب عملية الإيهام التي صورت أن ٤٥دقيقة من الكلام لحيدر عبد الشافي مقابل ٤٥ دقيقة من الكلام

لإسحق شامير يعني أننا نجحنا في تعديل ميزان القوى لصالحنا، وبالتالي أصبحنا قاب قوسين أو أدنى من الحرية والاستقلال عندما ذهبنا الى مدريد، انهم يدركون أن الإطار الإعلامي الذي وضع فيه كل من شامير وعبد الشافي لايغير من الأمر شيئاً، ولكنهم كانوا يغطون عورة الذهاب الى مدريد، كان يغطون الجريمة بالجريمة والخطيئة بالخطيئة. ولكن هذا سرعان ما تبدد في ردهات الخارجية الأمريكية حيث إنتظرنا الوفد الإسرائيلي قرابة أسبوع وعندما حضر رفض الجلوس المنفرد معنا.

إن طرفاً فلسطينياً يحاول أن يوهمنا أننا نعيش مرحلة ما بعد الانتفاضة، وهذا معنى ظاهرة أغصان الزيتون ومعنى تشكيل اللجان السياسية التي ستتحول بالتدريج الى بديل عن القيادة الوطنية الموحدة، والتي لم تعد قائمة بالفعل منذ شهور عديدة وما يصدر عنها يعبر عن وجهة نظر فتح في تونس، أما الجبهة الشعبية أو الديمقراطية فقد باتت تصدر بياناتها منفردة أو بالتنسيق مع بعضها أو مع أطراف أخرى.

اليوم اللجان السياسية وغداً الأحزاب السياسية والتي ستتوقف برامجها عند شروط العدو الصهيوني، وليس عند طموحات شعبنا المجاهد الذي أكد بانتفاضته أنه حي وحر وسيد ولايمكن تجاوزه أو نفيه، والذي لايمكنه أن يقبل بوقف الانتفاضة مقابل العودة الى شروط وظروف ليست مختلفة عن تلك التي قام ونهض لأجل رفضها.

الانتفاضة ليست خيار فصيل بعينه ليساوم عليها أو ليتحكم بها من الخارج عبر الرموت كنترول كما تصور أحدهم مرة وهو يحتقر الجماهير ظنا منه أنه أكبر منها وبديلاً عنها!!

رغم ظاهرة أغصان الزيتون في موسم مدريد الكاذب فقد فاجأتنا الانتفاضة على مدى الأسابيع الماضية أنها قوية وحية ومستمرة، وأنها تستعصي على الموت أو الارتهان، فاجأتنا أنها لم تنس عادة الاستشهاد اليومي، لم تنس مواسم الحجارة

والزجاجات الحارقة والخروج الجماهيري وأضافت الى زخمها زخ الرصاص كما لم يفاجئنا العدو وجنوده ومستوطنوه باستمرار الحصار ومنع التجول والقمع ومصادرة الأراضي والبيوت حتى المغارات قرروا نسفها.. إنهم يحلمون أن ينتهي كابوس الانتفاضة وشعبنا يحلم بدحر الاحتلال.. يحلم بالحرية والاستقلال.

إن الانتفاضة هي الحلقة المركزية في نضال الشعب الفلسطيني اليوم وهي مرحلة صعبة وشاقة في نضال طويل وشرس، وعلى جميع القوى المناضلة والمجاهدة أن تلتف من حولها لحمايتها وتطويرها وتصعيدها،

وأولاً: ما يجب في هذا الطريق أن نتخلص من أوهام السلام السراب، وأن نوضح لجماهيرنا أن هذه ليست مرحلة سلام، ولكنها مرحلة ترتيب النظام الدولي الجديد حسب المشيئة الأمريكية وبما يحقق مصالح العدو الصهيوني.

ثانياً: أن تعود الانتفاضة الى يد الجماهير التي أطلقتها وفجرتها فهي القادرة على حمايتها والاستمرار بها بمساندة القوى السياسية الوطنية والإسلامية.

تصويب سياسة الدعم وإلا كان التوقف عن إرسال الأموال أفضل من إرسالها، طالما أنها تذهب الى الأغنياء والصحفيين الذين عليهم تمجيد القيادة والمترفين الذين يلتقطهم الإعلام الغربي ليتحدثوا باسم الشعب الفلسطيني ولاعلاقة لهم بانتفاضته ومعاناته.

رابعاً: مواجهة المفاهيم الفئوية والمساواة بين الناس والتأكيد على التلاحم الشعبي.

خامساً: مواجهة السلبيات الإدارية وتحقيق مشاركة أوسع الفئات.

سادساً: نبذ الاقتتال مهما كانت دوافعه كما نبذ الهيمنة والتفرد والاعتراف بتعدد وجهات النظر مع الإقرار بمبدأ النقد الذاتي.

سابعاً: أن يكون واضحا أن الانتفاضة ليست موضوع مساومة وأنها ليست ملك أحد، وليست نشاطا عسكريا لفصيل بعينه يمكن أن يوقفه متى يشاء. إنها حركة انبعاث جماهيري وهي ملك لكل الناس.

كما يجب أن نتفق جميعاً على الفصل بين الانتفاضة وفعالياتها وتصعيدها وبين التطورات السياسية. حتى الذين يتوهمون أن العملية السلمية ستأتي بالجديد أو ستأتي ببعض الحقوق. عليهم أن يؤكدوا معنا على هذا القاسم المشترك: «استمرار الانتفاضة وضرورة تصعيدها، وأن يشمل هذا التأكيد خطابهم السياسي والإعلامي إضافة الى جهدهم وممارستهم التنظيمية والعملية، والاّ فإن المسألة ستتجاوز كونها اجتهاداً إلى الخطيئة، وسيصبح واضحاً أنه مطلوب ان تكون الانتفاضة غطاء لعملية التسوية فإن فشلت التسوية سقطت الانتفاضة».

ثامناً: لابد من تطهير الانتفاضة من المتسلقين والانتهازيين وإعطاء الفرصة للمخلصين والمبدعين. كما علينا التخلص من نهج الإلزام والأمر البيروقراطي الذي يعطل الانتفاضة ويحرفها عن تحقيق أهدافها.

تاسعاً: لابد من طرح برنامج اقتصادي يطور الوضع الاقتصادي الداخلي الى الأفضل، والبحث عن تمويل هذا البرنامج وأن يساهم كل فصيل بدوره دون انتظار جهة مركزية وأتمنى لو يقارن كل فصيل بين ما ينفقه في سوريا ولبنان مثلاً وبين ما ينفقه في الداخل حيث الحلقة المركزية لنضالنا.

عاشراً: الاهتمام ببناء أو إعادة بناء اللجان الشعبية التي تهتم بكافة نواحي الحياة داخل المجتمع الفلسطيني لأجل بناء المجتمع القادم.

حادي عشر: تصعيد العمل المسلح يبقى من أهم شروط تصعيد الانتفاضة، يجب أن يألم العدو كما نألم ويجب أن يرى خسارته تزداد بشرياً ومادياً، لأنه بدون حساب الربح والخسارة لن يغير من موقفه، كما يبقى العمل المسلح تعزيزاً لثقة الجماهير بنفسها وبطلائعها المناضلة والمجاهدة.

وبعد، الانتفاضة هي الحلقة المركزية فلتستمر عبر رفض التسوية المطروحة وعبر وحدة جميع القوى الوطنية والإسلامية وعبر تصعيد العمل المسلح.

(٢)
(الانتفاضة والحكم الذاتي)

عندما اندلعت شرارة الانتفاضة ـ الثورة في نهايات عام ١٩٨٧ . لم يكن أحد قد توقعها، ولـم يكن بوسع أحد يومها أن يتـصور أننا نشهد حدثاً مـعجزاً، يوشك أن يقلب سياق التاريخ ويعيد ترتيب الأشياء ويستمر لخمسة أعوام.. ثم يستمر.

قيادة دولة العدو وبعد أربعين عاماً على تأسـيس الكيان الصهيوني وعشرين عاماً على احـتلال الضفة والقـطاع، ظنت أن قوى المقـاومة لدى الشعـب الفلسطيـني قد حُسمت وحُيدت، والنظام العربي والـدولي، غارقاً في حرب الخليج الأولى، تصور أن عوامل الثورة والنهوض حُصرت، وما تبقى من نقاط اشتعالها لن يلبث أن يُطفأ، أما قيـادة (م/ ت/ ف) فقد فقدت قـدرتها على تحسـس نبض الأمة. وفي مـجاهدة يائسة مع المعادلة العربية والدولية لم تـبصر قدرات شعبنا على قلب كل المعادلات. جميعهم فوجئوا بالتاريخ يطلع لهـم من مدن وقرى ومخيمات شعبنا في فلسطين.. وحدهـم المجاهدون والمنـاضلون الطـليعيـون كانوا هنـاك عندما انـطلقت الـشرارة المقدسة وحدهم. لأن أجسادهم كانت هي الشرارة.

وهكذا تهدم الانتفاضـة مرحلة لتبني على أنقاضها مرحلـة جديدة، تهدم مرحلة الإحباط واليأس والـتردد. بسيل الدم المتلاطم عـلى جنبات التاريخ والجغـرافيا معاً، وتبني الذات الفلسطينية من جـديد، رأس رمح لحركة النهوض العربي والإسلامي كله في صراعها مع هيمنة الغرب وقوى الغزو، تـعيد للشعب روحه المستلبة وتبني مرة أخرى مخزونه الروحي المرتبط بالغيب.

الشهداء يعودون إلى الـشوارع ليقاتلوا العدو، الشهداء يطـلقون رائحة المسك، ويزورون آباءهم وأمـهاتهم وأصدقاءهم في الـرؤى قبل استشهادهـم وبعده، الأمة

(*) المصدر: كلمة الدكتور فتحي الشقاقي في اليوم الأول للأسبوع الثقافي الذي نظمته اللجنة الثقافية في حركة الجهاد والجبهة الشعبية القيادة العامة بمناسبة الذكرى الخامسة للانتفاضة بتاريخ ١٢/ ١٢/ ١٩٩٢.

تعيد تماسكها وتطلق قوى استقلالها على كل المستويات، وتؤكد على هويتها بصيحات الله أكبر وبالمساجد الثائرة.

ورغم قصور قامة الفعل السياسي والفلسطيني الرسمي عن قامة الانتفاضة الشاهقة، ورغم الحصار ومؤامرت الصمت والتجاهل. فإن الحدث المعجزة لازال مستمراً. فقد اصبح نمط الحياة اليومية.

لقد انطلقت الانتفاضة الثورة قبل أكثر من خمس سنوات عبر عجزين، عبر العجز الإسرائيلي والعجز العربي معاً. العجز الإسرائيلي عن إفناء الشعب الفلسطيني أو نفيه أو استيعابه وصهينته وتذويبه وطمس هويته.. والعجز العربي عن تحرير فلسطين من ناحية كما العجز عن تطويع الشعب الفلسطيني.

لقد قام الفكر الصهيوني (اللاهوتي التلمودي) على أساس من إنكار وجود الشعب الفلسطيني وكانت رئيسة وزراء العدو السابقة (جولدامائير) تقول: (لا أعرف شعباً اسمه الشعب الفلسطيني) وكانت تعتبر كل طفل فلسطيني يولد في فلسطين بمثابة خنجر في صدرها.

كما كانت الحركة الصهيونية منذ تبلورها تتعامى وتتغافل عن وجود الشعب الفلسطيني متبعة تكتيك النعامة المشهور الذي يظن أن عدم رؤية المشكلة أو التغافل عنها يعني زوال هذه المشكلة أو حلها، ولكن بعد قرابة قرن على نشأة الحركة الصهيونية وأقل من نصف قرن على قيام الكيان الصهيوني.. تتكشف شيئاً فشيئاً نقطة الضعف في هذا المشروع الصهيوني. ويتأكد كم كانت النعامة مخطئة بل وبلهاء أيضاً وأن ساعة الحقيقة قد دقت وانها اليوم أقوى وأوضح من اي وقت مضى، وإنها المواجهة لامفر، إنه مأزق حضاري وتاريخي وسياسي كبير هذا الذي يعيشه الكيان الصهيوني. فقد أكدت الانتفاضة ان هذا الشعب حي وحر وسيد ولايمكن تجاهله أو نفيه أو تجاوزه، كما قطعت نهائيا مع العدو الصهيوني وأنهيت إمكانية التعايش معه بأي حال.

وهكـذا فنحـن من جديد أمـام ثورة حقـيقيـة. وصفها وزيـر دفاع العـدو آنذاك إسحق رابين وضمـن سياق تصريحاته المرتبـكة والمتناقضة بأنها «حـرب أهلية» فرد عليه أحـد العسكريين الصـهاينة «لا. إنها حـرب عصابات من نمط جديـد» وصفها المعـلق العسـكري الصـهيوني يـورام بيري: بأنـها حرب ثـورية على غـرار الحرب الفـيتنامـية والجزائريـة وسماهـا بالحرب السـابعة قـائلاً: «إن صعوبـة تصنيـف هذه الحرب وفـهمهـا ليس أمراً عـفوياً، فـهذه حرب تـختلف عـن كل الحروب الـست السابقة، إنها حرب من نوع جديد، لم يعرفها الجيش «الإسرائيلي» من ذي قبل».

وسماها زئيف شيف بأنها حرب استنزاف من نوع آخر، لم نتعوده من قبل خلال جميـع حروبـنا.. إنها حـرب تنطـوي على قـدر كبيـر من التدمـير، ووصف شـيف الانتفـاضة إنها كانـت مفاجئة أكـثر من حرب تـشرين ١٩٧٣م قائلاً: «إن المـفاجأة الأخيرة (الانتفـاضة) كانت مذهلة أكثـر فلم تنجح «إسرائيـل» في العام ١٩٧٣ في فهـم ما كـان يجري فـي القـاهرة ودمشـق وسنـة ١٩٨٧ لم تـنجح «إسـرائيـل» في ملاحظة ما يحدث في بيتها. في حجرة نومها».

لقد جاءت الانتفاضة عبر (الأسباب الاربعة):

١ـ الاحتلال

٢ـ رد على الواقع العربي

٣ـ تراكم نضالي

٤ـ العنصر الإسلامي العنصر الجديد في المعادلة

(المنجزات)

إن استمـرار الانتفاضة لخـمسة أعوام كامـلة في مواجهـة دولة حديثة وعـصرية وجيش حديث وقوي وجهاز أمن هو الأخطر في العالم، يبقى استمرارها ضربا من ضروب المعجـزة، خاصة إذا ما لاحظنا الحصـار الدولي والعربي من حولـها، فهذا الاستمرار والانتشار يـشير إلى حيرة العدو وارتباكه، وهذا مـا لم يحدث من قبل،

كما يشير إلى قوة الإرادة الشعبية وقوة المخزون الروحي والإيماني الذي يطلق كل هذا الفعل ويحافظ على استمراريته وصموده. أخيراً اكتشف الشعب الفلسطيني المجاهد موطن القوة فيه، في نفس الوقت الذي اكتشف موطن الضعف في العدو. فضرب نقطة ضعف العدو بسهم قوته «وقتل داوود جالوت..» في نفس الوقت أعادت الانتفاضة الثورة) بناء قيم النهضة الروحية بين جماهير شعبنا وقضت على السلبية واليأس والتعدد، مطلقة قوى هائلة في عمق الجماهير، وبرز الاستشهاد كقيمة عظيمة فارشاً ظلاله الإسلامية العميقة على حياة الناس، واستعدادهم للمزيد من الاستشهاد الذي أصبح عادة يذهبون إليها كما يذهبون إلى أعمالهم ومدارسهم.

وعلى المستوى الأخلاقي هزم الشعب هجمة العدو اللاأخلاقية، واندحرت هجمة العدو لإغراق المجتمع الفلسطيني بالفساد والمخدرات، وأصبحت المرأة جزءاً لايتجزأ من نضالات الشعب وتضحياته، تقاتل في الشوارع وتعيد بناء دورها في المنزل كإدارية ومنتجة ومدبرة، بل وتستشهد وتطارد لأسابيع ،وشهور، تعتقل وتعذب ويُفرج عنها لتعاود العمل والنضال من جديد، أما العمال الذين حاول العدو خلال عشرين عاماً أن يربطهم بعجلة اقتصاده ودفعهم لنمط حياة استهلاكي. فقد أصبحوا أداة الانتفاضة الضاربة في شوارع الوطن، وفي ضرب اقتصاد العدو بعد أن تخلصوا كغيرهم من نوازع الاستهلاك التي زرعها العدو في المجتمع.

كما صار الطلاب جذوة الانتفاضة وشعلتها على نفس الدرب وقاوموا بابداع كل محاولات التجهيل وإغلاق المدارس والجامعات وفي إطار استنهاض الجماعة والمجتمع عاد للمسجد دوره التاريخي في حياة الناس كمركز للتجمع والتعليم والمشاورة والتعبئة، وتخلي الناس تدريجياً عن اللجوء إلى مؤسسات الحكم والسلطة التي يهيمن عليها العدو وعادوا في مشاكلهم إلى العلماء والقيادات الإسلامية والوطنية والشخصيات الجهرية المخلصة. كما خاض شعبنا معركة ذات أبعاد نهضوية كبرى في مجال التعليم والاقتصاد والزراعة والصناعة.

في نفس الوقت جسدت الانتفاضة (الثورة) وحدة الشعب بكافة فئاته وطبقاته وقواه. كما كسرت في مرات عديدة ما سمي بالخط الأخضر اي الحد الفاصل بين شعبنا في الأراضي المحتلة منذ ١٩٤٨.

هذه هي العناوين الهامة التي أبرزتها الانتفاضة. ولكن الأهم من وجهة نظرنا أن الانتفاضة كانت تفجيراً لنقطة المركز في مشروع النهوض العربي الإسلامي المعاصر. لقد بدت بالنسبة لنا إيذانا بافتتاح مرحلة جديدة. بدت انطلاقة لمشروع استراتيجي للنهضة والتحرير لماذا تعثر هذا الأمل حتى هذه اللحظة. رغم إصرارنا أن نستمر فيه مهما كانت التحديات والصعوبات؟

رغم أن الانتفاضة جاءت و(م.ت.ف) والمشروع الوطني الفلسطيني في وضع لايُحسد عليه. فقد شكلت الانتفاضة مخرجاً حيوياً للمنظمة والمشروع الوطني ككل. وقد عادت فلسطين إلى قلب الاهتمامات العربية والإسلامية واستحضر الاهتمام الدولي والإقليمي على أكثر من صعيد.

ولكن الانتفاضة التي لم تنطلق من الصفر بالتأكيد فاجأت قيادة المنظمة بلا شك. فمنذ منتصف السبعينات كان هاجس الثورة الشعبية ودور الجماهير وفي الداخل تحديداً يتلاشى في ذهنية قيادة المنظمة.

ولذا لم تتصور تلك القيادة عندما أقامت الانتفاضة طريقاً آخر غير الذي كانت تسير فيه منذ سنوات ـ طريق التسوية ـ فقد قطعت شوطاً كبيراً منذ برنامج النقاط العشرة نحو القبول بمبدأ العمل على أساس ما توفره شروط الواقع الدولي والإقليمي. كانت الانتفاضة حدثاً مبدعاً ومعجزاً، ولكن العقل الفلسطيني الرسمي لم يكن قادراً على الإبداع أو على فهم المعجزة، لقد أصبح منذ فترة أسيراً للمعادلة الدولية والإقليمية، فليطرح الانتفاضة إذا في سوق النخاسة الدولي ـ سوق التسوية ـ وعلى أساس تحسين الموقف الفلسطيني التفاوضي مع العدو. وهكذا ـ وياللهول ـ فقد تم إغلاق الابواب رسمياً أمام اي مسار آخر، وبدلاً من التعامل وفهم الانتفاضة، كمشروع استراتيجي للنهضة والتحرير، وكمحاولة قوية وجادة

لاستنهاض الامة وتجديد الروح لحركات النهوض العربي والإسلامي كمدخل حقيقي وجاد لتغيير موازين القوى الظالمة، بدلاً من ذلك جربوا بيعها في سوق النخاسة الأمريكي وتعاملوا معها كمشروع للاستثمار العاجل والسريع بل كغطاء للدخول إلى التسوية. ليجدوا أنفسهم في النهاية أمام مشروع شامير للحكم الذاتي.

تلك النظرة الضيقة القاصرة المستعجلة للانتفاضة دفعتهم في قيادة المنظمة أن يرسلوا أموالهم عبر رجالهم وكوادرهم وأزلامهم ليتسلموا الانتفاضة من الجماهير معينها ومنبعها الفذ. لتتحول شيئاً فشيئاً وكأنها انتفاضة الفصائل وانتفاضة مجموعات معينة أساء بعضها إلى الجماهير نفسها، وسادت أحيانا حالة من التصادم بين ميليشيات جديدة وبين الناس، وهيمن منطق الحرب الأهلية اللبنانية في إنشاء الزواريب والبؤر التابعة لهذا الفصيل أو ذاك. وتُركت الجماهير بلا مُعين تلعق جراحها وهي ترى أغنياء يزدادوا غنى في الداخل ولهاثا محموماً من الخارج على خط التسوية التي لم تعد إلا سرابا.

كانت الولايات المتحدة تخرج من حرب الخليج وترى نفسها على قمة الدنيا منفردة، فقد انهار التوازن الدولي الموروث عن الحرب العالمية الثانية، وانتهت الحرب الباردة لصالح الغرب الرأسمالي وأدت حرب الخليج نفسها إلى انهيار عربي بالغ في مقابل تفوق إسرائيلي وهجرة يهودية واسعة. أرادت الولايات المتحدة أن تفرض سلامها الذي يكفل استمرار الهيمنة والتفرد ويكفل حماية الكيان الصهيوني وحماية الأنظمة التابعة، ويضرب أي نوازع للمعارضة الإقليمية أو النهوض العربي والإسلامي. أصبح الأمريكيون يدركون ويخشون أن استمرار الاحتلال الإسرائيلي يحمل في طياته بذور عدم استقرار يهدد المصالح الأمريكية والإسرائيلية بعيدة المدى. فالوضع الراهن يُولد وضعاً متقلقلاً قادراً على الانفجار على شكل عنف واسع متبادل في اي وقت، إن مخاطر استمرار تسابق التسلح واحتمالات تصاعد الانتفاضة، والخوف من تعزيز دور قوى النهوض العربي والإسلامي جعل أمريكا تفكر أنه لابد من التوجه نحو التسوية وهكذا تم الدخول

إلى مسار مدريد، وعلى أساس من رفض مشاركة م.ت.ف ومن دون الخارج الفلسطيني ومن دون طرح موضوع القدس وعلى أساس أن تكون المفاوضات ثنائية بين كل طرف عربي والطرف الإسرائيلي، وبدون وسطاء وعلى أساس من ورقة العمل الأمريكية التي تعطي الحق لكل طرف أن يفسر قرار ٢٤٢ كما يشاء أما الطرف الفلسطيني فمفروض عليه حتى ألا يقترب من ٢٤٢. كل هذا في غياب الأمم المتحدة وقراراتها الدولية!

وبحيث لا تؤدي هذه المفاوضات إلى قيام دولة فلسطينية على اي جزء من فلسطين مهما صغر!!

وهكذا تم اختصار واختزال الانتفاضة العملاقة إلى حكم ذاتي مسخ يقول:

١ـ لادولة فلسطينية أو سيادة فلسطينية على اي جزء من فلسطين

٢ـ لا لفلسطينيى الخارج

٣ـ لا لفلسطيني الأراضي المحتلة منذ العام ١٩٤٨

٤ـ لا للأرض

٥ـ لا للمياه

٦ـ لا للقدس ولا لفلسطينيى القدس

٧ـ لا لانسحاب الجيش الإسرائيلي

٨ـ لا لوقف ومنع الاستيطان

فماذا تبقى إذن غير أن يتحول شعبنا في الداخل إلى مجرد أقلية عرقية في وطنه سيأمل العدو بطردها في مستقبل قريب أم بعيد، سيقولون.. إن هذا مجرد مرحلة انتقالية لن تستمر إلا لسنوات قليلة وقليلة جداً يليها الاستقلال والحرية. نقول لهم إن كان صعباً عليكم اليوم وبيدكم الانتفاضة والصراع العربي ـ الصهيوني المفتوح الذي لم يغلق بعد؛ صعب عليكم الضغط على العدو للقبول بالحقوق والطلبات الفلسطينية الدولية. فمن الأجدر أن يكون الضغط على الدولة اليهودية أكثر

صعوبة واستحالة بعد ثلاث أو خمس سنوات من البدء بالفترة الانتقالية. ستكون الدولة اليهودية قد حققت كل أو معظم أهدافها الأمنية والسياسية والاقتصادية وبالتالي ليس لديها اي دافع للانسحاب من ضفة أو قطاع. بل إن مسألة عدم شرعية الاحتلال ستكون موضع تساؤل نتيجة توقيع طرف فلسطيني على اتفاقية الفترة الانتقالية.

إن توقيعا كهذا على معاهدات ومواثيق سيصبح جزءاً من القانون الدولي مما سيحول بين الاجيال القادمة وبين الجهاد والكفاح لأجل احقاق الحق الفلسطيني وفي نفس الوقت فهي تعني السماح بحالة تطبيع فلسطينية وعربية وإسلامية كاملة مع الكيان الصهيوني الذي يسعى لاختراق المنطقة والهيمنة عليها اقتصادياً وأمنياً وسياسياً وثقافياً محققاً بذلك المضمون الحقيقي لفكرة «إسرائيل الكبرى».

في نفس الوقت علينا أن نعي أن هذه التسويات لايمكن أن ترفع معاناة، لأن المعاناة لايمكن أن ترفع إلا بزوال الاحتلال وبزوال المشروع الصهيوني من فوق أرضنا.

إن هذه التسوية ستكرس المعاناة عندما تعطي الشرعية لحق الاحتلال في البقاء والاستمرار في حين لاشرعية لهذا الكيان بمجرد القهر والقوة مهما طال الزمن.

إننا نؤكد رفضنا القاطع والصريح لمشروع الحكم الذاتي لما يحمله من أخطار وآثام. وما يعنيه من تصفية لقضيتنا المقدسة وطمس لهوية شعبنا.

سيقولون لنا بسوء نية ما هو بديلكم. نقول بسوء نية لأننا نعرف أنهم لايبحثون وغير جادين في البحث عن بديل. ولكن نقول لهم لقد تبوأتم مكانكم الذي أنتم فيه على مدى ربع قرن كامل بحجة أنكم تملكون البديل. وبدون ذلك ما كان لكم أن تتحكموا في مقدرات هذا الشعب وطاقاته ومساره.

واليوم وبعد أن صادرتم هذه المقدرات والطاقات بل وبددتموها وبعد أن حرفتم مسار شعبنا ونضاله وزرعتم تلك الثقافة المسمومة عن ضعف شعبنا وأمتنا أمام طغيان المعادلة الدولية لتتبنوا اليأس والإحباط. وبعد كل هذا تتساءلون عن البديل

تحاصروننا في كل مكان وتمنعوننا من الحركة وتكتمون أفواهنا لتمنعونا عن الكلام ثم تتساءلون عن البديل؟ إننا ندرك بواعثكم وأسباب تباطئكم وتخاذلكم وتراجعكم، وقد صرتم المطبوعين الذي يسيرون إلى حتفهم، وصرتم الامراء الذين يهون أمام ترفهم ونمط حياتهم الأمراء، ولم يعد بعد ذلك من سبيل امامكم إلا الانحناء للقدر الأمريكي الذي تتوهمون. ولم يعد شعبنا الحي وانتفاضته العملاقة بالنسبة لكم سوى مادة للإعلان والمزايدة. نعلم أين كنتم عند انفجار بركان الانتفاضة وكيف فوجئتم بها. ولكن ألم تلحظوا أن جيل الاحتلال الذي تربى في ظل قهر الاحتلال وقمعه ـ جيل منتصف العمر ـ هو الذي اجترح هذه الانتفاضة «الثورة»؟ فماذا هو صانع جيل الانتفاضة المتمرد؟ فلتعلموا أن الشعب الذي رد على أطروحات الذوبان في الكيان السياسي الصهيوني بالانتفاضة المعجزة قادر على إبداء المزيد في سبيل استمرار المعركة وحتى تحرير كامل الأرض، فهذا السيد الأمريكي وحليفه الصهيوني ليس قدراً نخشاه ونحن الذين نتلوا (الذين قال لهم الناس إن الناس قد جمعوا لكم فاخشوهم فزادوهم إيمانا وقالوا حسبنا الله ونعم الوكيل فانقلبوا بنعمة من الله وفضل لم يمسسهم سوء وابتغوا رضوان الله، والله ذو فضل عظيم).

إن البديل هو الصمود والثبات واستمرار خط النضال والجهاد. خيار أمتنا العقائدي والتاريخي، فهذا ليس صراعاً على جغرافيا صغيرة، إنه صراع على امتلاك التاريخ وصراع على كل الأرض لأن فلسطين هي مركز الصراع الكوني اليوم، ولأن التضامن من حولها سيبقى سمة العصر حتى تسقط أوهامهم وأسماؤهم وأعلامهم، ولأن أمتنا تحمل أمانة المواجهة، مواجهة الغرب المستكبر والكيان الصهيوني ومواجهة النظام الدولي الجديد القادم لأجل قهرنا وتركيعنا.

إن التغيير قادم بإذن الله فأيهما أفضل أن يجدنا في مواقعنا صامدين نساهم في تحديد مصيرنا ومستقبلنا، أم يجدنا أذلاء (نحمل صك التسليم للحلف الأطلسي ـ العبري).

(٣)

الثورة الإسلامية في إيران والثورة الفلسطينية

جدل مقدس

الثورة الإسلامية في إيران أحد أبرز معالـم وأحداث القرن العشرين الذي يكاد ينـقضي والـقضية الـفلسـطينـية هي أهـم وأخطر قـضاياه خاصـة في نصـفه الثـاني ولازالت .

الثورة الإسلامية في إيران غيرت وجة المنطقة وأثـرت عميقاً في العالم وتركيبته ومستقبله ، وأطلـقت الصحوة الإسلامية التي لازالت حديث الدنـيا ، تؤتي ثمارها كل يوم على امتداد الوطن الإسلامي جهاداً ونضالاً وانتصارات .

لقد عاد انتصـار الثورة الإسلامية للمسلم فـي كل مكان من العالم ثقتـه بعقيدته ودينه، فهـا هو الإسلام الذي انبعث قبـل أربعة عشر قرناً من الـزمن ، لايزال قادراً على الـقيام والنهوض وتحـريك الجماهير ومـواجهة الطواغـيت وإسقاطها وتحـقيق الانتصار وبناء الدولة الإسـلامية كما حرر الانتصار الكبير قلـوب وعقول المسلمين من رعب الدول الـكبرى ، ذلك السيـف الذي استمر مسلـطاً على رقابهـم لعقود ، فالدول الكبرى يمكن أن تـنكسر ويمكن أن تتراجع إذا تحررنا من التبعـية لها وتملكنا الإرادة الحرة ، المؤمنة والفاعلة والنشطة .

لقد جعل الإمام الخميني ـ رضي الله عنـه ـ لحياة المسلمين معنى وأعطاهم الأمل بأن التـغيير لـيس ممكنـا وحسب بل وحـتمي أيضـاً ، وهكذا انطـلق مشروع الـثورة الإسلامية على صدى نداءات وشعارات الإمام ليـغطي مساحات واسعة من العالم وخاصة الوطن الإسلامـي . ولأسباب يمكن فهمها كان صدى الـثورة الإسلامية في فلسطـين من أوضح وأقـوى الأصداء . فـي فلسـطين يـتواجـد احتلال صـهيـوني استيـطاني اقتلاعـي يسعى لإبادة الـشعب الفلـسطينـي بقتله ونـفيه وطمس هـويته.

(*) المصدر: القيت يوم ٢٢/ ٢/ ١٩٩٣ بدمشق.

ويمارس لأجل ذلك أخطر وأبشع الوسائل ثقافياً واجتماعياً وأخلاقياً وأمنياً واقتصادياً ، ولقد ساهم ذلك إضافة إلى التخاذل العربي والتراخي الفلسطيني الرسمي في إشاعة أجواء الإحباط واليأس داخل فلسطين . فكان حجم الانتصار الإيراني ومعناه ودلالته كبيراً بالنسبة للفلسطينيين. إذ أصبح واضحاً أمامهم أنه بالإمكان مواجهة المعادلة الدولية الظالمة ، وأنه بإمكان الشعوب أن تهزم جيشاً حديثاً وقوياً إذا تحررت إرادتها من الخوف والتبعية وأخيراً فإن قوة الإسلام لا تقاوم .

وهكذا جدد الإسلام قوة اندفاعه على امتداد فلسطين وتوارت شيئاً فشيئاً اليافطات العلمانية وبدأت تبرز الشعارات الإسلامية وتتعاظم التجمعات الإسلامية في المساجد والجامعات والنقابات والجمعيات .

وكان للخصوصية التي أولتها الثورة الإسلامية إبان قيامها لفلسطين تأثير كبير في جذب انتباه الشباب الفلسطيني نحو طهران الثائرة وإبداء اعلى درجة من التعاطف مع الثورة الإسلامية . وإن شكلت تلك الأيام الذروة فلم تكن البداية ، مع بداية نهضة الإمام الخميني عام ١٩٦٣م في إيران كانت فلسطين تأتي في قلب الخطاب الديني والسياسي للإمام . ورغم البعد الجغرافي إلاّ أنه تعامل معها كأنها قضية داخلية أو قضية حدودية . فطوال سنوات الصراع مع الشاه كان الإمام يربط بينه وبين (إسرائيل) وكأنهما شيئان متلاصقان ووجهان لعملة واحدة ، كل واحد منهما يغطي الآخر ويمده بسبب من أسباب الحياة . وعندما كان الشاه يشترط عدم مهاجمة (إسرائيل) كان الإمام يرد بسخرية عميقة : (لماذا وهل كانت أمه يهودية). وفي منفاه ١٩٦٤ كان يقول : « إن إسرائيل هي في حالة حرب مع الدول الإسلامية.. لقد حذرت من هذا الخطر مراراً » ويضيف في مكان آخر «وانا أعلن لجميع الدول الإسلامية والى كافة المسلمين في مشارق الأرض ومغاربها، بأن المسلمين الشيعة هم أعداء لإسرائيل وعملائها، بريئون من الدول التي تعترف بإسرائيل » وعندما اشتعلت حرب حزيران (يونيو) عام ١٩٦٧ بالعدوان الصهيوني على الدول العربية المجاورة وما تبقى من فلسطين بما في ذلك بيت

المقدس ، كـان الإمام الخميني حـاضراً بمواقفه السـياسية الشـجاعة وفتواه الشـرعية القـوية الـتي أدانـت الغـزو ودعت إلـى وحدة المسلـمين وحـرمت الـتعـامل مـع (إسرائيل) وحرضت على القتال . ومنذ ذلك التاريخ لم ينعدم اتصال الإمام بالثورة الفلسطـينية ، وتعتبر فـتواه بجواز صرف الحقوق الشـرعية لصالح العمـل الفدائي المجاهد من المواقف البارزة في مسيرة الإمام تجاه الثورة والقضية الفلسطينية ففي عام ١٣٨٨هـ توجـه إلى الإمام الخميـني فئة من الـفدائيين الـفلسطـينيين ليسـألوه : هل يجوز صـرف الحقوق الشـرعية من الـزكاة وغيرهـا لتسلـيح أفرادها (اي المـقاومة المسلحة ضد (إسرائيل) وإعدادهم لذلك؟ .

وكان جواب الإمام كالتالي :-

بسم الله الرحمن الرحيم

سبق وأن نـوهت بما تكـنه (دولة إسرائـيل) الغاصبـة من النوايـا الخبيثـة ، وكما حذرت المسلمين من هذا الخطر العظـيم المحدق بهم وببلادهم ، وأهبت بهم أن لا يفسحوا المجال امام العدو كي يتمكن من تنـفيذ مخططاته الإجرامية التوسعية ، وأن يغتنمواالفـرص ويتلافوا الأمر قبل أن يتسع الخرق علـى الواقع ، هذا وبما أن الخطر يهدد كيان الإسلام فعلـى الدولة الإسلامية خاصة وعلى المسلمين عـامة أن يتكاتفوا لدفعه وأن يتذرعوا في سبيل استئصاله بشتى الوسائل الممكنة ، وأن لا يتقاعسوا عن إمداد ومعـونة المهتمـين بالأمر والمدافعين عـن الإسلام ويجوز أن تصـرف الحقوق الشرعية من الزكوات وسائر الصدقات في هذا السبيل الحيوي المهم ، وأخيراً نبتهل إلى الـله العلـي القدير أن يـنبه المسـلمين من سـباتهم الـعميق ويـدفع عنهـم وعن بلادهم كيد الأعداء والمعتدين والسلام على من اتبع الهدى

روح الله الموسوي الخميني

٣ ربيع الثاني ١٣٨٨ هـ

وهكذا يتضح أن ما حدث عام ١٩٧٩م - عام انتصار الثورة الإسلامية في إيران من تلاحم روحي وفكري ونضالي وسياسي بين إيران المسلمة الثائرة وبين فلسطين كان يمتد عميقاً في الجذور .

وفي ليلة الانتصار الكبير ١٢/ ٢/ ١٩٧٩ كانت الجماهير المسلمة الثائرة في طهران تحول السفارة الإسرائيل ية إلى سفارة فلسطين ، في إشارة لم يسبق لها مثيل في اي عاصمة عربية أو غير عربية واستقبل رئيس م.ت.ف. وقادة الثورة الفلسطينية في طهران كما لم يُستقبلوا في أي مكان آخر من قبل وبدت كل إيران (حتى خراسان على حد تعبير رئيس م.ت.ف.) العمق الاستراتيجي للثورة الفلسطينية .

وهكذا سنرى انعكاس الثورة الإسلامية على الواقع الفلسطيني يشمل مستويين مختلفين: الاول هو واقع الثورة الفلسطينية في الخارج وتوجهات قيادتها وارتباطاتها وعلاقاتها المحلية والإقليمية والدولية، هذا الواقع الذي بات مثقلاً بالفساد الإداري والبيروقراطي ، مثقلاً بالاحتراب الداخلي والاختراقات الامنية ، مثقلاً بحلم الدولة قبل أن تصلب الثورة على عودها ، واقع الثورة المقدسة التي بات المدنس ينتشر في انحاء منها كخلايا خبيثة قاتلة .

أما المستوى الثاني فهو الداخل الفلسطيني الشعبي شاملاً الأرض المحتلة منذ العام ١٩٤٨

إضافة إلى الضفة الغربية وقطاع غزة لقد عاش هذا الداخل الشعبي الإحباط والخيبة ولكنه لم يكن مثقلاً بأوزار الخارج وعلاقاته وارتباطاته أو تعقيداته ، كان بريئاً وعفوياً يطوي القلب على اصالته وجذوره .

بقدر التفاوت في هذين المستويين كانت علاقة الثورة الإسلامية مع الخارج الفلسطيني الرسمي تدخل في سلسلة من الأزمات كان مظهرها الأساسي يتمحور حول إسلامية الثورة في إيران وضرورة ذلك في فلسطين أيضاً. ولأن الثورة

الفلسطينية كانت قد أوغلت بعيداً عن الإسلام كأيديولوجيا وأحكام شرعية ضابطة للمسار والسلوك السياسي، فقد أصبح من الصعب أن يقدم النهج الخميني غطاءً لمسيرة تدخل في انعدام الوزن وتضرب في التيه دون أن تحاول التوقف لمعالجة الأخطاء . وجاءت أعوام ٨١/ ٨٢/ ٨٣ وهي أعوام الصمت عن الغزو العراقي للدولة الإسلامية الوليدة قبل الاصطفاف الفج والأحمق إلى جانب الغزو ، وأعوام القبول بمشروع فهد أو فاس لاحقاً حيث الإقرار الضمني بشرعية الكيان الصهيوني، هذا المشروع الذي اعتبره الإمام الخميني مخالفاً للقرآن وخائن من يقبل به . وهكذا وبقدر ما كانت الثورة الفلسطينية المعاصرة بقيادة رئيس م.ت.ف. تتعاطى أكثر مع المدنس وبقدر ما كانت تقترب أكثر من أعدائها المحليين والدوليين بقدر ما أصبحت تتعارض مع الثورة الإسلامية وتفترق عنها وتبتعد . ولكن هذا لم يكن النهاية بالطبع فالصحوة الإسلامية التي أطلقتها الثورة الإسلامية كانت تنبت في فلسطين ثورة جديدة تتنامى شيئاً فشيئاً تطوي القلب على الإسلام وتنطلق من المساجد والحارات الشعبية وعلى مدى الثمانينات كان صعود حركة الجهاد الإسلامي والجهاد المسلح في فلسطين، قبل أن تتفجر الانتفاضة الإسلامية المباركة في تشرين أول (اكتوبر) ١٩٨٧ كمعجزة إلهية في صحراء القحط العربي، وفي أجواء الخيبة العربية . كان الاحتلال الصهيوني بقمعه وبطشه وكان التراكم النضالي الممتد لدى الشعب الفلسطيني المجاهد، وكانت خيبة الامل في الواقع العربي الفلسطيني الرسمي . كل هذه الاسباب اجتمعت وتوقفت امام عنصر التفجير الاساسي الذي سيطلق الشرارة ويحافظ على ديمومتها لاكثر من خمس سنوات : الإسلام المجاهد ، تلك الروح التي أطلقتها الثورة الإسلامية لتنبت في فلسطين بعد هذه السنوات . ولتتضح معادلة الصراع ، الإسلام وحده هو النفي الكامل للمشروع الصهيوني ، الإسلام وحده هو القادر على إدارة الصراع حتى النهاية دون أن يسقط في الطريق كما حدث للأطروحات العلمانية الأخرى . بدون الإسلام لن تكون لنا حقوق أو هوية أو وطن ولن نكون أكثر من جسر لبني إسرائيل الى كافة العواصم .

واليوم لازال خط الثورة الإسلامية في إيران حياً متيقظاً رغم كل هذا الحصار ورغم كل المؤامرات . ولا زالت الانتفاضة المباركة حية قوية مستمرة ، والعالم أجمع يشهد على جدل العلاقة القائمة ، بين طهران والقدس ، والمستكبرون يحاولون فصم عرى هذه العلاقة ، ومعهم أدواتهم في المنطقة وإعلامهم وأجهزتهم المختلفة . ونجاح هذه المؤامرة على اي مستوى من المستويات سيضرب في الصميم رسالة الثورة الإسلامية ودور الجمهورية الإسلامية . فالقدس هي درة اي مشروع إسلامي ثوري اليوم ، ولا رسالة لأي ثورة إسلامية أو حركة إسلامية أو قوة إسلامية بدونها .

وإن محاولة هروب البعض من دور خارجي تاريخي بحجة البناء الداخلي ، بحجة بناء إيران قوية وحديثة أولاً ، إن هكذا محاولة لن تنجح لأن العلاقة بين الدور الرسالي العالمي للثورة الإسلامية، وبين بناء إيران حديثة وقوية هي علاقة جدلية ، تبادلية ، وهذا يجب أن يكون واضحاً لانصار كل دور على حده ، لايريد الاستكبار لإيران بناء دولة حديثة ولا يريد لها ان تقوم بدور خارجي . فالوطن الإسلامي يجب ان يبقى تابعاً متخلفاً وبلا دور ، ولكن الدور الخارجي هو الذي سيعطي لإيران القوة كي تكون حرة وسيدة وحديثة ، وإيران القوية والحديثة ستكون أقدر دائماً على القيام بدورها الرسالي . الدور الذي ستكون الثورة والجمهورية الإسلامية قادرة على تحقيقه عبر:-

١ - رفع شعار الوحدة الإسلامية والعمل المدروس والجاد لتحقيق ذلك على الارض فالتفتيت والتفسيخ والتجزئة هدف استعماري ثابت علينا مواجهته بتجاوز المسألة العرقية والقومية باتجاه أفق الإسلام الأرحب الجامع للأمة دونما صراع كلما كانت المسألة القومية لا تصطدم مع القناعات الإسلامية ، وكذلك تجاوز المسألة المذهبية عبر اللقاء والحوار والتقارب والتقريب والتأكيد على الثوابت والاصول الجامعة .

٢ - تبني القضية الفلسطينية كقضية مركزية للأمة ، إن الابعاد القرآنية والتاريخية والواقعية كفيلة بتوحيد الأمة - كل الامة حول فلسطين ، وليس هناك من قضية أخرى بقادرة على القيام بهذا الدور كفلسطين الموجودة في قلب القرآن وعلى رأس حركة التاريخ مما يجعلها مركزاً للصراع الكوني بين تمام الحق وبين تمام الباطل ، ومما يجعلها مركزاً للتفجير في المنطقة وفي كل الوطن الإسلامي ومما يجعلها مركزاً لنهضة الامة - ففلسطين تبقى شاهدة على نهضتنا أو تخلفنا، استقلالنا أو تبعيتنا ، عزتنا أو ذلنا .. بل على إسلامنا أو انحرافنا. ولن يستطيع الحكام أن يتخلصوا منها كما يحاولون منذ سنوات لأنها ستبقى تطاردهم عبر شعوبهم المؤمنة تارة وعبر التحول الآخر للمسألة : الكيان الصهيوني الذي يمثل مع مسألة التجزئة ثنائية المشروع الاستعماري منذ الحرب العالمية الاولى وحتى الآن .

إن التأثير الكبير للثورة الإسلامية في إيران على الصحوة الإسلامية في فلسطين وانطلاق الانتفاضة المباركة واستمرارها بزخم إسلامي وبشعارات إسلامية يعطينا فرصة تاريخية لايجب أن نفقدها .

في هذه المرحلة فإن الوحدة وفلسطين يمثلان ثنائية المشروع الإسلامي الذي على الجمهورية الإسلامية أن تتبناه مقابل التجزئة .. والكيان الصهيوني ثنائية المشروع الاستعماري .

وهكذا نحفظ الجدل المقدس على امتداد محور طهران القدس .

(٤)

التسوية والتطبيع مع العدو الصهيوني وأثرهما على الوحدة العربية

قرأت باهتمام الورقتين المقدمتين من الأستاذ كريم مروه والدكتور علي عقله عرسان، وأعبر عن إعجابي بالدراستين خاصة دراسة الدكتور عرسان، والتي اعتبرها من أهم الاوراق التي قُدمت للندوة وأرى أنها تصلح ورقة عمل للأمة في هذه المرحلة.

لاأدري إن كان غريباً أم لا، اتفاقي كإسلامي مع التوجه العام لنصين ماركسي وقومي أو بالأصح نص لمفكر ماركسي في الأصل، ونص لمفكر قومي، الأستاذ مروه رغم استعانته بنصوص ومقررات مؤتمرات للحزب الشيوعي اللبناني، نصوص سياسية تخص المسألة الفلسطينية، إلا أنه لم يطرح موضوع البحث لا من منظور طبقي ولا حتى من منظور فلسفي مادي، والدكتور عرسان قدم نصاً تحليلياً واستقراء للمستقبل، لم ترشح إليه الأبعاد التي أسميها علمانية وهي ما نتوقف عندها كإسلاميين، ربما يعود ذلك إلى أن الواقع القاسي والمأساوي الجاثم على صدورنا يضطرنا إلى تقديم رؤى وبرامج عمل مقاومه بعيداً عن التفسيرات والتعليلات النظرية والمجردة، فالمأساة والهزيمة تعطي معياراً لايخطئ، تطرح التفسيرات المتوهمة وتبقى على التفسير الصحيح وتدفعنا للبحث عن مخرج، ليس لطرف بالتأكيد، بل للجميع، ومن هنا برامج العمل المشتركة وأهمية وضرورة البحث عن القواسم المشتركة.

إن جوهر الدراستين أننا نقبل على سلام أخطر بكثير من الحرب، وأن العدو سيحصل بالسلام على ما لم يحصل عليه بالحرب، إن العدو الذي انتصر في معركة ومعركة ولكنه لم يحقق انتصاره الحاسم كما يطمع، ويريد تحقيق ذلك على طاولة

(*) المصدر: تعقيب على ورقتي الدكتور كريم مروه والدكتور علي عقله عرسان في ندوة عقدت يوم ١/ ٨/ ١٩٩٤م دمشق

المفاوضات سواء عبر الملفات الخمسة التي طرحها الأستاذ مروة، وهي المياه، العسكري والأمني، الاقتصاد، اللاجئين، الثقافة والتاريخ والتربية، أو عبر توقعات الدكتور عرسان حول نتائج السلام المشؤوم الذي علينا توقيعه، مع الاعتذار للحركة الصهيونية عن اي لحظة تمسكنا فيها بعقيدتنا وقوميتنا وحقوقنا في مواجهة العدو الصهيوني! ولكن الذي فاجأني في ورقة الأستاذ مروه وهو المدرك لمحاولة العدو اختراق الواقع العربي عبر الملفات الخمسة والمطروحة فعلاً على طاولة التفاوض الثنائية والمتعددة. المفاجأة في اعترافه بعد ذلك « إن له موقف يكاد يتطابق، في الشكل على الأقل، مع ما هو معلن على لسان المفاوضين العرب، حول الحقوق والتمسك بها وحول القرارات الدولية واحترامها وسوى ذلك، وجميع هذه المواقف تؤكد الانسحاب من الأرض وإعطاء الفلسطينيين حقهم في إقامة دولة لهم على كل الضفة والقطاع...» والزاوية الأخرى للمفاجأة كون الأستاذ كريم مروة مشاركا اساسيا في لجنة وندوة الحوار والتي حسب علمي ترفض في البرنامج الكفاحي الذي تبنته اي اعتراف بالكيان الصهيوني الغاصب لفلسطين.

أما مسألة مساواة الرفض المطلق للواقع القائم بالاندماج المطلق بهذا الواقع بحجة عدم تقديم الرفض لبدائل عقلانية فهي مسألة غريبة لأنها لم تحدد لنا ماهية البدائل العقلانية وهل هي التفاوض أو المقاومة وهل يمكن أن تكون المقاومة بديلا غير عقلاني. هذه المسألة تحتاج إلى مراجعة، لأنه ليس بالإمكان مساواة المقاوم الرافض للواقع الذي صنعته شروط وظروف الهزيمة وموازين القوى المؤقتة المتناقضة مع حركة التاريخ. لايمكن مساواة هذا الموقف بمن يرفعون راية الاستسلام ويبدون الاستعداد للاندماج في شروط العدو.

ملاحظة أخيرة حول ورقة الأستاذ مروة بخصوص «اعتبار الجامعة العربية كصيغة واقعية أفضل، الآن ولزمن طويل في المستقبل على طريق النضال لقيام صيغ أكثر تقدماً للوحدة...»

ومع أنني من الذين يدركون أهمية تطوير أي إضاءة او إشارة إيجابياً في واقعنا الحالي، إلا أنه ليس بالإمكان أن ننظر إلى كيان هزيل منذ قيامه وحتى الآن كصيغة

أفضل . بل الجامعة العربية بدت حينها كمؤسسة إجهاضية لحلم وطموح الوحدة الجادة. اعترف أنه في هذا الواقع المأساوي تبدو الجامعة العربية رمزاً ولو واهيا للقاء العربي المطلوب إلغاؤه. واعترف أن السعي لتطوير دورها اليوم شيء إيجابي، ولكنه لايرقى ليمثل الصيغة الواقعية الأمثل، المناضلون والثوريون يجب أن يكونوا على موعد وطموح أكبر وأفعل. نخشى إن بدت هذه الصيغة أمثل في أدبياتنا ودراساتنا أن يجهض ذلك أحلام التغيير الجدية.

المسألة الاخرى التي أود مناقشتها ما طرحته بعض الدراسات الأخرى والقائلة بأن التفاوض سوف يوقف التدهور، وهذا هو المطلوب حاليا اي وقف التوسع أو كما قال الدكتور حسن نافعة (إن وقف التوسع هو بداية للتحرير الكامل). والحقيقة إننا أمام طرفين، طرف منتصر وطرف مهزوم لكن حتى الآن الانتصار ليس حاسماً والهزيمة ليست حاسمة والعدو يسعى لترتيب ذلك، أي تحقيق الانتصار الحاسم على طاولة التفاوض ولأنه يعلم ان الانتفاضة في فلسطين والمقاومة في جنوب لبنان عقبتين هامتين أمام مشروعه، ومن الصعب أن يحقق إنجازه حتى على طاولة المفاوضات فيما الانتفاضة حية والمقاومة مستمرة، تراه يعمد إلى محاولة سحق منابع القوة هذه. ولهذا نجد العدو يعزل ويحاصر قطاع غزة والضفة الغربية والقدس لأكثر من خمسة شهور حتى الآن لاجل تجويع الناس وإطفاء جذوة الانتفاضة. وفي لبنان نجده يشن هجومه الكبير المستمر منذ أيام لضرب المقاومة الإسلامية ونزع سلاحها.

إننا أيها الإخوة أمام طرفين طرف يستطيع أن يخرج من التفاوض إلى الحرب وهو الطرف الإسرائيلي وطرف لايمكنه الخروج من التفاوض إلا إلى التفاوض كما يقول هو « المفاوضات هي الخيار الوحيد».

وبالتالي ما يجري في واشنطن ليس تفاوضاً بل إملاء شروط. والشروط أمريكية صهيونية مهما طال الجدل غير المجدي. المفاوضات في الحقيقة تعطي الشرعية للتوسع الذي حدث وللتدهور الحادث ومن هذه النقطة سينطلق العدو لتحقيق

اختراقه للمنطقة، أمنياً وسياسياً واقتصادياً وثقافياً. الكيان الصهيوني يدرك جيداً أنه لايستطيع الاستمرار في المنطقة إلا إذا عادت المنطقة إلى ما قبل وجود الأمة، والأمة أوجدها الجامع الحضاري الإسلامي الذي صهر الاديان والقوميات والمذاهب والطوائف والأعراق في بوتقة وجامع حضاري واحد. العدو الصهيوني يحاول بالقمع والإرهاب وكل الوسائل الممكنة تحويل المنطقة إلى فسيفساء يمكنه الهيمنة والسيطرة عليها. فهو موقن أن استمرار مشروعه مرهون بمزيد من التجزئة والتفتيت وتحطيم مكونات الامة وأن تعود المنطقة إلى ما قبل ظهور الإسلام.

وإذا كان العدو قد انجز شيئاً ما من مشروعه فهو يسعى أن يكمل هذا المشروع على طاولة التفاوض فكيف سنوقف التدهور والتوسع بالمفاوضات. ألم تكونوا أنتم في حركة التحرر العربي من أكدتم في أدبيات عقود طويلة حول طبيعة هذا الصراع مع العدو، وإن هذا الصراع تناحري وأنه صراع وجود. كنا شباناً صغاراً عندما كانت هذه التحليلات تملأ الإعلام العربي، اليوم تخليتم عن هذه الأبجديات بحجة ضغط الأمر الواقع، هذا الواقع مهما كان شرساً أو مأساوياً واقع مزيف بالقوة والإرهاب وبالإمكان تغييره بالنضال في الواقع وبأدوات الواقع.

نحن كقوى إسلامية نؤكد تمسكنا بتلك الأبجديات حول طبيعة الصراع التناحري مع العدو. وسنمضي في الصراع حتى نهاياته الطبيعية التي تتساوق مع حركة التاريخ القائلة بظفرنا وانتصارنا.

نقطة أخيرة ... ما العمل! هذه الأمة لن تموت ومزاجها العنيد لازال حياً ويقظاً تعبر عنه الانتفاضة والمقاومة في لبنان، وحركات النهوض العربي والإسلامي هنا وهناك.هذه الأمة تملك من مفردات القوة المبعثرة حالياً بفعل فاعل، ما لو أعيد نظمه وصياغته لحققت المعجزة. المخرج الحقيقي موجود وهو استثمار منابع القوة في أمتنا ودعم وإسناد الانتفاضة والمقاومة في لبنان وتعميمها قدر الاستطاعة وهذا يحتاج إلى جبهة إسناد حقيقية من القوى الحية.

(٥)

ضد «الشرق الأوسط الجديد»

أن نقرأ عدونا... هذه هي البداية الصحيحة كما أعتقد. وأن نجلس اليوم لنناقش كتاب «الشرق الأوسط الجديد» لصهيوني كبير مثل شمعون بيريز فذلك نقطة على هذا الطريق الطويل، حتى لانكون مثلما ظنوا في السابق، بأننا شعوب لاتقرأ، وأنها تكرر أخطاءها.

علينا أن نقرأ بوعي. فلا نظل لا نقرأ، وإذا قرأنا لا نفهم. ونحن أمام كتاب أو فلسفة أو أفكار قامت على أساسها الحركة الصهيونية والتي لاتستطيع أن تستمر إلا على هذا الأساس. وهناك هاجس صهيوني من مسألة البقاء في منطقة معادية، لذلك فهم يبذلون أقصى الجهد لتغيير تركيبة هذه المنطقة على كافة المستويات، الحضارية والاقتصادية، والثقافية والسياسية والأمنية. فالصهاينة، كانوا يعتقدون دائماً، بأنهم لايستمرون في هذه المنطقة، إلا إذا عادت المنطقة من جديد، إلى مكوناتها الحضارية القديمة قبل ظهور موحّد جامع لها، أي للحوض العربي الإسلامي.

وبالتالي فإنهم يريدون إعادة تفكيك المنطقة، وهذا هو جوهر كتاب شمعون بيريز، فكتاب الشرق الاوسط الجديد، لايبحث عن قواسم مشتركة من تلك القواسم التي نؤمن بها كعرب، وهي تلك القواسم، التي تجعلنا نطمح بأن نرى المنطقة منطقة عربية موحدة ومتماسكة، هم لا يريدون اي قاسم مشترك من هذه القواسم مهما كان بعيداً أو قريباً في التاريخ، مهما كان عميقاً أو سطحياً، حتى لاحظنا أنّ الجامعة العربية التي هي بالنسبة لكثير منا في حكم المتوفاة، قد رفضوا حضورها كمجرد مراقب في اجتماعات مدريد، لأنهم لايريدون إعطاء أي انطباع بأنهم يتعاملون مع موقف عربي، أو مع قضية عربية، أو مع أمة عربية، إنما يتعاملون

(*) المصدر: هذه كلمة ألقاها الشهيد الدكتور فتحي الشقاقي، في منتصف أيلول (سبتمبر) ١٩٩٤، تعقيباً على كتاب شمعون بيريز «الشرق الأوسط الجديد»، ورداً على رئيس الوزراء الإسرائيلي الجديد، نعيد نشر هذه الكلمة التي يواجه بها الأمين العام لحركة الجهاد الإسلامي في فلسطين شمعون بيريز وكأنه لا يزال، حاضراً بيننا برؤيته النافذة.

مع قضية أردنية، وقضية فلسطينية، وسورية، ولبنانية، ومصرية، أو مع قضية أقلية عربية في إسرائيل.

إنهم يريدون بناء هذه المنطقة، على أساس من المصالح الاقتصادية، حيث يكون العدو الصهيوني، القوة الأساسية المهيمنة فيها، والقوة المركزية التي تتعامل مع كل طرف على حدة، والتي تشرف على إعادة تشكيل المنطقة، والمحاور، والعلاقات السياسية فيها، والإمكانات، والعلاقات الزمنية، والاقتصادية، لذلك لابد من إلغاء هويتنا كأمة عربية وإسلامية، وإلغاء تاريخنا، ولابد من إلغاء عقيدتنا، وإلغاء كل موروثاتنا السابقة، والبدء من جديد.. وهذا أمر نجده جلياً واضحاً في كتاب بيريز.

ولكن من المؤسف، أن يتحول هذا الحلم الصهيوني إلى واقع، وأن يغدو ممكناً لبيريز أن يكتب هذا الكتاب، والذي ما كان له أن يكتبه لولا توقيع اتفاق غزة-أريحا، الذي يعتبر نقطة تحول خطيرة في تاريخ المنطقة، حيث استطاع الصهاينة من خلاله، أن يحققوا الاختراق الأهم منذ وعد بلفور، ومنذ قيام الدولة العبرية. وهم لن يكتفوا بهذا الاختراق الذي حصل على الساحة الفلسطينية، ذلك أنهم استغلوا ياسر عرفات، كورقة ابتزاز في كل المنطقة، بما في ذلك صديقهم القديم الجديد، النظام الأردني والملك حسين.

والمسألة المهمة ايضاً في هذا الكتاب، هي رؤية شمعون بيريز على أن الكونفدرالية هي الحل الأمثل للمسألة الفلسطينية في المرحلة القادمة. وفي تقديري أنه خلال السنوات القادمة وحتى نهاية القرن، سيظل الوضع الفلسطيني أمام خيارين رئيسيين، خيار الكونفدرالية الهاشمية، وخيار الوطن البديل وسوف يستمر التصارع على هذين الخيارين حتى يحسم الأمر لصالح أحدهما. وقبل توقيع الاتفاق الأردني-الإسرائيلي- أن الصهاينة يؤيدون فكرة الكونفدرالية مع الأردن، هذه الفكرة التي تبرز جلية واضحة بعد توقيع الاتفاق مع الأردن، حيث بدأ الحديث عن «الهاشمية» كوعاء، بل كرسالة تحملها هذه العائلة إلى كل أمة العرب-كما قال الأمير حسن في مؤتمر الشباب العربي-. وحتى فكرة «الأردنة» التي جرى الحديث عنها خلال الفترة الماضية، كانت لصالح الفكرة الهاشمية، حيث

ينضوي الأردني والفلسطيني، بل ربما أشياء اكثر من الأردني والفلسطيني شرقاً أو جنوباً في ظل هذا التاج.

كما قلت أن هناك خياراً آخر هو خيار الوطن البديل، حيث أن «غزة اريحا» لايقدم حلاً ولا في الحد الأدني لأي فلسطيني، فحتى الذين وقعوا وفرطوا يقولون إن هذه مجرد نقطة البداية وإنها ليست الحل المعقول، وأننا أجبرنا ولكننا سنحصد لاحقاً ما هو أفضل (؟؟) وبرأيي فإن حصاد العام الماضي، يؤكد بأننا سوف نستمر ندور في إطار غزة / اريحا، وستكون غزة وأريحا هي أولاً واخيراً، لأن الحديث عن بقية الضفة الغربية هو حديث عن جزر متناثرة السيادة فيها هي في النهاية لإسرائيل، مع بعض المصالح للفلسطينيين كأقلية.

إن هذا الاتفاق لايقدم حلاً مرضياً لأي فلسطيني، ولسوف يستمر التوتر داخل عقل ووجدان المواطن الفلسطيني وفي المنطقة، حتى يكون هناك مخرج وحل، والمخرج والحل بالنسبة للصهاينة هو الأردن، حيث لا تريد إسرائيل أن تكون موجودة بجنودها ودباباتها وأجهزتها الحكومية، وبالتالي يمكن أن تمنح الضفة الشرقية للفلسطينيين كي يحلوا مشكلتهم.

فإذن نحن سنكون خلال سنوات، في توتر شديد في شرق الأردن، الذي أصبح مجالاً حيوياً أساسياً لإسرائيل، مجالاً يعيش توتراً مستمراً شديداً تبقى السيطرة فيه لإسرائيل، وذلك يجري مع الأسف، في الوقت الذي يخوض فيه الأردن صراعاً، أو عدم انسجام، مع كافة جيرانه شمالاً وجنوباً وشرقاً.

هذه هي الألهية التي ستلقى لنا في الأعوام القادمة: إما أن نصارع من أجل الوطن البديل، أو أن نصارع في إطار المملكة الهاشمية والكونفدرالية بين الأردن والضفة الغربية، خاصة وأنه أصبح واضحاً للجميع، بأن الضفة الغربية لن تسلم للفلسطينيين ولا حتى على طريقة غزة، فالإسرائيليون مصرون على أن تبقى السيادة الكاملة لهم، ويتركون لنا نحن، كي نعالج المسائل التعليمية، والصحية، والضرائب، وكل الأعباء التي عانوا منها في السابق ولكن لا تكون لنا سيادة. والحديث عن سيادة

في ظل وجود ١٢٠ ألف مستوطن في الضفة، وأكثر من ذلك في القدس، وجميع الطرق تحت سيطرة الإسرائيليين، اضافة للتوسع الاستيطاني القادم، هو نوع من الهراء.

بل أقول ربما يرى الصهاينة في الوطن البديل، دغدغة لطموح فلسطيني مستقبلي بإمكانية النظر إلى غرب النهر وحتى البحر، وبالتالي لن يكون هناك أردن، ولا دولة فلسطينية ضمن هذه المنطقة، بل ستكون إسرائيل فقط، وأقليات عربية خاضعة.

في الختام لا أجد إلا أن أقول سوى أن على القوى الثورية أن توحد صفوفها، ذلك أن الغزو الاستعماري قد قطع شوطاً كبيراً، والحركة الصهيونية قطعت شوطاً كبيراً في فرض مشروعها، إلا أننا لايجب أن نبني على الطارئ والعابر بل يجب أن نبني على ماهو ثابت واصيل، ونحن نعتقد ونؤمن جميعاً، بأن الأمة العربية تملك مقومات القوة، فهي تملك هذا التعداد البشري الهائل، وتملك الجغرافية، وتملك العبقرية، والثروات، وهي تملك التاريخ العظيم. وكل هذه المسائل ليس بالإمكان نسخها وتغييرها، في حين أن الغزو القادم إلى المنطقة، هو غزو طارئ. وعلى سبيل المثال، فإن الولايات المتحدة التي تنفرد على قمة هذا الغزو، وعلى رأسه، يمكن لو ضربت في مكان في العالم، أو في مكانين، فإنه يمكن أن تشل يدها في هذه المنطقة. ومن هنا يجب أن لانفقد الأمل والثقة، لاسيما ونحن نملك الحق، والقوة الكامنة، ويجب على القوى الثورية أن تتجمع، وأن توحد صفوفها، وأن القاسم بين هذه القوى، مهما تعددت ألوانها الأيديولوجية، هو قواسم كبيرة وكثيرة.. وهل هناك قاسم أكبر من أن نشعر جميعاً بأننا ننتمي إلى أمة واحدة، ونواجه عدواً يشكل خطراً على مصيرنا جميعاً.

وفي فلسطين على سبيل المثال، علينا أن نوحد قوانا، وأن نصعد نضالنا وكفاحنا السياسي والعسكري، بحيث نحافظ على ديمومة الصراع في جميع الظروف، وأن نحافظ على الانتفاضة التي يراد إخضاعها، والتي كانت بمثابة المعجزة في تاريخ الشعب الفلسطيني، والتي ركزوا كل هذه المؤامرة من أجل إطفائها.

(٦)

هذا سلام عابر وقائم على موازين قوي عابرة

ضمن نشاطات اتحاد الكتاب والصحفيين الفلسطينيين «فرع سوريا»، ألقى الدكتور فتحي الشقاقي الأمين العام لحركة الجهاد الإسلامي في فلسطين محاضرة، في مقر الاتحاد بدمشق، حول واقع الساحة الفلسطينية وتحالفاتها، يوم السبت ٢٢/ ١٠/ ١٩٩٤، أعقبتها اسئلة ومناقشات.

وقد بدأ الدكتور الشقاقي محاضرته بالحديث عن طبيعة اتفاق أوسلو ـ القاهرة وسلطة الحكم الذاتي، فاعتبرها «النقطة الأكثر ضعفاً في تاريخنا الفلسطيني..» وقال: «على الساحة الفلسطينية هناك سؤال مطروح بإلحاح، وهو: هل نستمر في مشروع التحرر الوطني الثوري أو نبني السلطة الوطنية فوق الأرض ولو تحت الاحتلال؟ هذا السؤال يمكن أن يفرز على الساحة الفلسطينية أطرافاً عديدة بمقدار الإجابات على هذا السؤال..

الذين يقولون باستمرار الثورة لديهم إجابتان: الاستمرار وكأن شيئاً لم يكن، وكأن الاتفاق لم يحدث، أو الاستمرار آخذين بعين الاعتبار المتغيرات الكبرى والتغيرات المفصلية التي حدثت خلال الأعوام القليلة الماضية؟!

والذين يتحدثون عن بناء السلطة الوطنية، بينهم من هو حالم ويتوهم أن بالإمكان قيام مشروع وطني، مهما كان، من بين أنقاض الحكم الذاتي، وهناك الذين ربطوا مصيرهم نهائياً بمصير المشروع الصهيوني واداروا ظهورهم لشعبهم وأمتهم.. وهناك إجابة خامسة وطرف خامس، ربما، وهو القول بأن من الممكن القيام بالمهمتين معاً: الاستمرار في الثورة وبناء السلطة الوطنية الفلسطينية معاً! ولكنني أقول للذين يعتقدون بإمكان البناء على اتفاقات أوسلو والبحث في هذا الحطام عن أي مشروع وطني. أن هؤلاء واهمون لأن هذا الاتفاق مسقوف صهيونياً.. بالإرادة الصهيونية وبموازين القوى الصهيونية...»

(*) المصدر: محاضرة دعي إليها اتحاد الكتاب والصحفيين الفلسطينيين بدمشق يوم ٢٢/ ١٠/ ١٩٩٤

وأضاف الدكتور الشقاقي: «إن سؤالنا الأساسي يتعلق بالقوى المناهضة للاتفاق، والتي تقول باستمرار الثورة، أين تقف هذه القوى؟ في ١٦/ ٩/ ١٩٩٢م كانت انطلاقة الفصائل الفلسطينية العشرة التي أصبحت فيما بعد تحالفا للقوى الفلسطينية... وكانت استجابة شعبنا لها مثيرة للفخر والاعتزاز، كانت تلك لحظة إشراقة وتطوراً مهماً في تاريخ الحركة السياسية الفلسطينية، حيث تلتقي قوى قومية وطنية وديمقراطية يسارية، مع القوى الإسلامية، وهذا تطور على المستوى الفكري والسياسي معاً. قبل ذلك بشهور لم يكن بإمكاننا أن نجمع عشرة فصائل لنوقع على ورقة واحدة، وأنا أذكر أن زعيماً فلسطينياً قال لي قبل شهور قليلة جداً من تاريخ اجتماع الفصائل العشرة، أنه ليس بالإمكان أن يوقع على بيان ضد مدريد بين عدة تواقيع، وأنه يوافق فقط على بيان ثنائي، ولكنه غير مستعد أن يُفهم من وجود عدة تواقيع أن هنالك تجمعاً ما يعارض أو يعادي خط التسوية. ولم تمض شهور حتى أنشئ تحالف الفصائل العشرة».

وتحدث الدكتور الشقاقي عن الأزمة على الساحة الفلسطينية، فقال: «لقد مرت عشرات السنين من النضال دون حدوث أي تغيير أو تجديد أو تثوير في التنظيمات الفلسطينية، لا على مستوى الفكرة ولا على مستوى الأداء، ولا على مستوى البناء، بحيث أصبحت هناك درجة من الجمود والتكلس، رغم ادعاءات التنظير والشعارات التي رفعها كل تنظيم.

إن أخطاء التنظيمات هي في داخلها وفي الضعف الموجود داخل كل تنظيم. المتغيرات التي تحدث خطيرة ونحن نجمد حتى على أفكارنا الأولية، رغم أنها ليست من المقدسات. بينما المقدسات من الأفكار تتعرض للتجديد. بل إن الرسول (صلى الله عليه وسلم) يقول: «إن الله سبحانه وتعالى يبعث للأمة على رأس كل مئة سنة من يجدد أمور دينها!!» وفي التنظيم لايحدث تغيير على مستوى الفكرة ولا على مستوى البناء التنظيمي، وهذا يعني سنوات طويلة من الاستبداد والبيروقراطية والفهلوة التي تحكمت في الفصائل وفي عملنا التنظيمي. فعندما نبحث في معوقات

تطوير مشروعنا الوطني يجب أن نبدأ بأنفسنا، وأن نبحث عن إمكانية التجديد والتثوير على مستوى الفكرة وعلى مستوى الأسلوب وعلى مستوى البناء».

وتابع الدكتور الشقاقي قائلاً: «ما أثر على الفصائل العشرة وعلى القوى المناهضة لخط التصفية هو وجود أزمة ثقة، وهي ليست أزمة أيديولوجية، وليست فكرية، فنحن عندما التقينا كنا نعرف بعضنا تماماً على هذا المستوى، ولكن المسألة تأخذ طابعاً سياسياً، والأزمة قائمة على أساس أن فصيلاً هنا أو طرفاً هناك يشك في برنامج الفصيل الآخر ويشك في النوايا السياسية للطرف الآخر، سواء أكان للشك أساس موضوعي، وكان شكاً في محله، أو كان شكاً بدون أساس؛ فنحن نتلقى كثيراً من المعلومات والأخبار عن بعضنا من الصحف ومن الإشاعات، ولا نجتمع- بما فيه الكفاية - ولا نسمع وجهة نظر بعضنا البعض من المسائل المطروحة كالمشاركة في انتخابات الحكم الذاتي وغيرها. وأزمة الثقة هذه دفعت كثيراً من الأطراف لأن تعمل منفردة بدون تعاون أو تنسيق. وفهم هذه الأزمة ضروري جداً لفهم الشلل الذي وصلت إليه المعارضة، كمجموع، لإنشاء مشروعها الوطني. بالإضافة إلى ذلك، علينا أن نعي موقعنا كأمة وكحضارة تعيش الهزيمة. وفي مراحل الهزيمة التي تعيشها الشعوب والحضارات يغلب الخاص على العام. ويبدو الإنسان وكأنه يريد الهرب بجلده، أو المحافظة على رأسه. وما دام كل طرف يفكر بنفسه ويفكر أنه ينطبق على القضية، فما هو في مصلحته يكون في مصلحة القضية، فإن هذا التفكير المزيف يفرض نفسه ونبدأ في أزمة حقيقية.

وهناك الأسباب الدولية القاهرة، حيث أن عدونا الأساسي أميركا يتفرد على قمة الدنيا ويتحكم - ولو إلى حين- بمقدرات العالم، بعد أن حقق الانتصار في الحرب الباردة، وحقق الانتصار في حرب الخليج الثانية... فأميركا تتحكم بقراراتنا وبثرواتنا، وحالنا مرتهن لإرادتها، ومعها مجموعة القوى الغربية والاستعمارية المعادية للأمة، التي تعمل بلا كلل لحماية حليفها الصهيوني والكيان الصهيوني، وتعمل بلا كلل لتمرير مشروع السلام الصهيوني لفرضه على المنطقة، وصناعة

شرق أوسط جديد يراد من خلاله إذابة الصراع التاريخي وتمييع الصراع، وتبديل صفة الفرقاء في هذا الصراع، بحيث لايكون صراعهم على أساس أيديولوجي، ويتحولون إلى شركاء في البيع والشراء تحت مظلة الشركات متعددة الجنسيات وآليات الرأسمالية المعاصرة، أي أنهم يريدون تغيير طبيعة المنطقة لأنه لا يمكن السيطرة عليها إلا إذا أعيد تكوينها وأعيد تفكيكها وتفتيتهاوأعيد بناؤها من جديد. فالحركة الصهيونية تدرك أن هذه المنطقة يجب أن تعود إلى مكوناتها الحضارية الأولى، أي قبل ظهور الإسلام، ليمكن تطبيعها»

وأضاف الدكتور فتحي الشقاقي: «المطلوب في ظل شرق أوسط جديد أن لا تقوم العلاقات على اساس أيديولوجي، وإنما على أساس البيع والشراء. وعندما تكون هذه هي طبيعة العلاقات فنحن نعرف من الذي يسيطر ومن الذي يهيمن، خاصة إذا أدركنا أن ٥ ملايين يهودي في فلسطين ناتجهم القومي السنوي أكثر من الناتج القومي لكل الدول العربية المجاورة شاملاً مصر والأردن وسوريا وكذلك العراق. لقد طورت إسرائيل الناتج القومي من سنة ١٩٧٧ إلى سنة ١٩٩٢، إلى سبعة أضعاف تقريباً في حين لم يستطع اي طرف عربي أن يطور ناتجه القومي إلى أكثر من الضعف، فهكذا شرق أوسط نفهم بوضوح لمن تكون السيطرة فيه ولمن ستكون القوة المركزية الأساسية.

أضيف نقطة أخيرة في أزمة المعارضة التي نعيشها، فنحن نلحظ لأول مرة في تاريخ الثورة الفلسطينية والمعارضة الفلسطينية أنها تمضي بلا اي غطاء دولي ولا إقليمي، في حين، على سبيل المثال، استطاع الشعب اللبناني أن يسقط اتفاق ١٧ أيار بسبب وجود غطاء دولي وبسبب التحالف الوطني مع سوريا ومع القوى الوطنية على الساحة اللبنانية، بالتاكيد أنا لا أجعل هذا الاعتبار أساسياً لتراجع المعارضة أو لنكوصها، أو سبباً لعدم وجود مشروع وطني جاد، فطالما أن المعركة مستمرة وطالما نحن نعلن ونؤكد بالقول وبالفعل استمرار فعلنا على الأرض فنحن لم نستنفد أغراضنا. صحيح أن الموج عانت، وبالتالي لا يبدو جهدنا ملحوظاً، مثل الذي

يجدف ومثل الذي يحاول بقوة وجهد الوصول إلى شاطىء الأمان، ولكنه يجد نفسه في النهاية تضربه الأمواج رغم ما يبذله من جهد ولكن في تقديري إن هذه الأمواج لن تبقى قوية باستمرار لابد أن تاتي لحظة أن تضعف خاصة إذا نحن استمرزنا على ثباتنا واستمررنا على جهدنا، بل إن سبباً أساسياً من أسباب تراجع هذه الهجمة ستكون قوتنا وثباتنا على موقفنا وإصرارنا على استمرار المعركة وعدم الهزيمة»

واختتم الدكتور الشقاقي حديثه قائلاً: «يجب أن نرى مستقبل أمتنا ضمن مفردات القوة الثابتة التي لا يمكن إفناؤها بأي حال من الاحوال، ويجب أن نرى هذا العلو وهذه الهيمنة في سياق إنها استثنائية وطارئة ولا يمكن أن تفرض آراءها على الأمة. هذا السلام لا يمكن أن يمر لأنه يقوم فقط على موازين القوى المفروضة، وهذا السلام الذي صنعوه منذ الحرب العالمية الأولى حتى الآن لم يصنع سلاما لأحد. لم يصنع سلاما لهم ولم يصنع سلاما لنا، لأنه لا يقوم على أي عنصر ثابت وحقيقي. إنهم الآن يحاولون أن يدخلوا الجمل العربي في ثقب الإبرة الإسرائيلية. هذا هو سلامهم، وهو سلام عابر ومستحيل.

(٧)

«أزمة البديل الوطني، الديمقراطي، الإسلامي الفلسطيني في مواجهة خيار القوى الفلسطينية المستسلمة»

بعد عام ١٩٦٧ ظهرت بوادر التخلي العربي الرسمي عن هدف التحرير الكامل لفلسطين. واتضح بعد حرب تشرين أول ١٩٧٣م. أن هذا هو جل الجهد العسكري العربي في ساحة الصراع في هذه المرحلة التاريخية، تحركت عجلة التفاوض بعد حرب تشرين ووجدت م.ت.ف نفسها أمام خيار كبير: إما أن تسعى ضمن الشروط الدولية لتمثيل الفلسطينيين في التحرك السياسي السلمي أو تترك هذا للدول العربية والأردن خاصة.

في تلك الفترة كان الاتحاد السوفيتي، ذوالعلاقة القوية مع م.ت.ف والتأثير عليها، يدفعها نحو الخيار الديبلوماسي بعيداً عن الهدف الفلسطيني الأساسي في التحرير الكامل. وقد حسم المجلس الوطني الفلسطيني الثاني عشر التوجه الاستراتيجي الجديد للمنظمة بإعلان البرنامج المرحلي الذي ترك هامشاً مفتوحاً لتسوية جزئية عندما أشار إلى أن المنظمة ستناضل (بكافة الوسائل وعلى رأسها الكفاح المسلح لتحرير الارض الفلسطينية وإقامة سلطة الشعب الوطنية المستقلة-المقاتلة على كل جزء من الأرض الفلسطينية التي يتم تحريرها، وهذا يستدعي إحداث المزيد من التغيير في ميزان القوى لصالح شعبنا ونضاله).

إن الحديث عن سلطة وطنية على جزء من فلسطين كان يعني أخذ الاعتبارات الدولية (الموقف الأمريكي والسوفيتي خاصة) من الدولة اليهودية في الحسبان. وكان هذا مدخلاً لاعتراف الدول العربية في قمة الرباط ١٩٧٤ إن منظمة التحرير الفلسطينية هي الممثل الشرعي والوحيد للشعب الفلسطيني ومدخلاً لدعوة الجمعية

(*) المصدر: نص الكلمة التي ألقاها في الندوة التي عُقدت في دمشق (قاعة الشهيد غسان كنفاني- مخيم اليرموك)، في ٨/ ١٢/ ١٩٩٤، بمناسبة الذكرى السابعة والعشرين لانطلاقة الجبهة الشعبية لتحرير فلسطين.

العامة للأمم المتحدة (م.ت.ف) للاشتراك في مداولات الجمعية العامة بشأن قضية فلسطين في جلساتها العامة.

لم تكن الرؤيا الامريكية-الصهيونية تقبل بما قدمته منظمة التحرير الفلسطينية لاعتبارها طرفاً في التسوية. واستهدف التحرك الأمريكي الصهيوني حلاً منفرداً مع مصر في اتفاقية كامب ديفيد التي لم تشر إلى دور للمنظمة، أو إلى مصير الفلسطينيين خارج الضفة والقطاع، وفشلت في الاتفاق حول مصير القدس أو المستوطنات.

ولكن مبدأ الحكم الذاتي، الذي أقره وقبل به الرئيس المصري أنور السادات في كامب ديفيد، أصبح الأساس لتصور وقبول عدد كبير من الدول العربية، كما جاء في مشروع الأمير فهد (فاس لاحقاً) الذي تضمن مبادئ ثمانية للتسوية نصت على اعتراف ضمني بدولة العدو الصهيوني، كما نصت على قيام دولة فلسطينية، ولكنها أشارت إلى فترة انتقالية تخضع لها الضفة والقطاع تحت إشراف الأمم المتحدة قبل الحل النهائي.

لم يكن هناك إشارة إلى منظمة التحرير الفلسطينية في مشروع فهد (قبل التعديل في قمة فاس الثانية) وتم الإقرار عربياً لأول مرة أن ما يتم التفاوض عليه لايتعدى المناطق المحتلة منذالعام ١٩٦٧، وفي الدورة السادسة عشرة للمجلس الوطني الفلسطيني المنعقد في الجزائر (شباط-فبراير ١٩٨٣) تم الاعتراف الفلسطيني الرسمي بقرارات قمة فاس.

ومنذ ذلك التاريخ وحتى قيام الانتفاضة، كانت أوضاع منظمة التحرير تتردى والمشروع الوطني الفلسطيني يدخل أزمة جديدة وإحباطاً سواء في إطار العلاقات العربية حيث الخلافات مع الأردن في أجواء عقد وإلغاء اتفاق عمان أو في التصادم مع سورية العربية، وفي تغيير الأولويات السعودية-الخليجية مع اشتداد الحرب العراقية- الإيرانية والضغط على الفلسطينيين لإبراز وتقديم المزيد من المرونة

والتنازل، في حين كان الاتحاد السوفيتي يدخل تحت ظل غورباتشوف الذي سعى لإنهاء الحرب الباردة مع الولايات المتحدة الأمريكية.

وهكذا شكلت الانتفاضة التي اندلعت مع نهاية عام ١٩٨٧م مخرجاً حيوياً للمشروع الوطني الفلسطيني أو هكذا بدت الأمور، ففلسطين تعود إلى قلب الاهتمامات العربية والإسلامية شعبياً ورسمياً، كما إلى قلب الاهتمام الدولي ولكن يبدو أنه لم يكن لدى العقل السياسي الوطني الفلسطيني، عندما قامت الانتفاضة القدرة الضرورية لإبداع تصور آخر لمسار القضية الفلسطينية سوى التسوية الجزئية. وكان هذا العقل قد قطع شوطاً كبيراً منذ برنامج النقاط العشر عام ١٩٧٤م نحو القبول بمبدأ العمل على أساس ما توفره شروط الواقع الدولي والإقليمي، وعكس ما يؤمل في تلك الأيام التاريخية من التعامل مع الانتفاضة كمشروع استراتيجي للنهوض والتحرير. فقد تم التعامل معها كمشروع للاستثمار العاجل والسريع أو كرصيد لتحسين الموقف التفاوضي ضمن إطار معادلة القوة القائمة التي لم تؤمن قيادة (م.ت.ف) إن بالإمكان إحداث تغيير جوهري داخلها، بل عليها أن تحث الخطى نحو التسوية كما جاء في مقررات المجلس الوطني بالجزائر عام ١٩٨٨م وما تلاه من تصريحات وبيانات لينسحب الفلسطينيون من إجماعهم التاريخي نحو الدعوة للاعتراف المتبادل، اعترافهم بالدولة اليهودية مقابل موافقتها على قيام كيان وطني فلسطيني.. هذه الموافقة التي بقيت حلماً يتباعد أو يهرب كالرمال من بين أيدي قيادة م.ت.ف التي لم تقبل فقط الذهاب إلى مدريد في ظل شروط تفريطية خطيرة، بل قفزت عن الوفد المفاوض في مدريد ثم واشنطن، لتوقع سراً، بعيداً عن أعين الشعب وطلائعه المناضلة وفصائله جميعها، اتفاق أوسلو بإشراف حفنة أشخاص ليس لهم من تاريخ يذكر أو يشرف في مسيرة النضال الفلسطيني المعاصر. اتفاق أسوأ من وعد بلفور يكرس الاحتلال الصهيوني ليس لأربعة أخماس فلسطين ، بل كل فلسطين، بعد أن يحرر الكيان الصهيوني من

جحيم غزة التي لم يخرجوا منها بل أعادوا التحكم الاستراتيجي فيها، ونفس الشيء بل أسوأ سيقومون به في الضفة الغربية.

وهكذا انتهى ضعف وتراخي الإجماع الوطني في السنوات الأخيرة إلى حالة من الانقسام الشعبي الرأسي الحاد عند وبعد توقيع اتفاق أوسلو.

لم يعد الأمر يتعلق بانقسام النخب السياسية، لقد وصل الانقسام إلى الشارع بالفعل مهما اختلفت الأحجام والنسب، وإن كان علينا أن نقر أن الانقسام داخل النخب السياسية كان على قاعدة الوعي بالمشروع والأهداف الصهيونية من وراء اتفاق الإذعان، فإن الانقسام الشعبي كان مغايراً ولم يتم على قاعدة الوعي بهذا المشروع، وهذا ما لاحظناه في الشارع الفلسطيني الذي بدأ يتماسك أخيراً ليس في مواجهة الاحتلال فقط، وإنما في مواجهة سلطة غاشمة وفاسدة ولا دور لها سوى أن تكون وكيلاً عن الاحتلال.

إذا اضفنا إلى ما سبق من مسلسل التنازلات والانهيارات السياسية ما كان يمكن أن يلاحظه اي مراقب لمؤسسات منظمة التحرير من فساد إداري ومالي وأخلاقي يتضح أن ضرورة البحث عن بديل أو في البديل كانت ملحة منذ سنوات طويلة، وحتى لانغرق في التعميم دعوني أقول إن موافقة المنظمة على مشروع فاس كانت تدق ناقوس الخطر بقوة وإلحاح.

ورغم أن مسألة البديل طرحت مبكراً، إلا أن الخطوات باتجاه البديل لم تكن جادة بل مبعثرة ومرتبكة وتذهب في اتجاهات شتى، ربما لأن أطرافاً في المعارضة كانت تخاف أن تتولى زمام قيادة منظمة التحرير، لما يتطلبه هذا من التصدي لمهام متعددة المستويات، لم تكن تنظيمات المعارضة تشعر أنها قادرة عليها، بسبب التعقيدات المعيشية والسياسية التي تكتنف الحالة الفلسطينية، إلى جانب أن قطاعات واسعة من الشعب الفلسطيني كانت تكن الاحترام لفكرة منظمة التحرير الفلسطينية الجامعة التي ارتفعت من مستوى المؤسسة والكيان المعنوي إلى مستوى

الرمز في صراع قاس ومرير كان يعيشه الفلسطينيون مع عدو شرس، لذلك كانت بعض القوى المعارضة تخشى الابتعاد عن المنظمة، أو الإعلان عن طرح بدائل لها. ربما أحست أنها قد تخسر من شعبيتها مع ابتعادها عن المنظمة، أو مصارعتها، وربما لم تكن واثقة من أنه يمكنها الاعتماد على قاعدتها الشعبية في مواجهة قيادة محنكة وقادرة على التحشيد الدوغمائي، مما دفع تلك القوى إلى التمسك أكثر بالعمل داخل المؤسسات التي توفر لها حماية وتغطية، وفي الطرف الآخر كانت حركة فتح برئاسة عرفات تقيم توازنات مختلفة عبر تعدد مراكز القوى داخلها، مما أتاح لها نسج علاقاتها في أكثر من اتجاه على الصعيدين الرسمي والشعبي، الأمر الذي يشكل إعاقة كبيرة لنجاح اي بديل متوخى، بالإضافة إلى أن تلك القيادة، وحتى الذهاب إلى مدريد، نجحت إلى حد ما في التمويه على مشروعها المضاد، اي أنها ظلت في نظر البعض ممسكة بشعرة معاوية مع المشروع الوطني ولم تعلن بشكل سافر انتقالها إلى المعسكر الآخر، في زمن كانت فيه للوحدة الوطنية وللإجماع الوطني تأثيرات سحرية.

بعد مدريد أصبح البديل أمراً ملحاً وضرورياً، لأنه أصبح مسألة حياة أو موت للقضية الفلسطينية، ولم تعد هناك محاذير أو موانع أدبية أمام قيام البديل، الذي أصبح مطلباً شعبياً ايضاً. فقد حسم الطرف الآخر موقعه وقام بسحب المؤسسات التي يسيطر عليها ، لتخدم عملية انتقاله إلى الخندق الاخر، المتمثل في سلطة الحكم الذاتي التي لايمكنها أن تتحرر من أسر وظيفتها كوكيل محلي للاحتلال.

ولكن قيام البديل، رغم توفر مبرراته السياسية والأدبية ورغم الإجماع الفصائلي والشعبي على ضرورته ما زال يواجه أزمة حادة علينا أن نتضافر بوعي وقوة لتجاوزها.

إن نظرة سريعة إلى الساحة السياسية الفلسطينية تخرج بانطباع عن التركيبة الممكنة لعناصر البديل، ولن تعدو هذه التركيبة أن تكون إعادة صياغة لتحالف القوى الفلسطينية مع توسيعه ليضم قوى وشخصيات غير ممثلة في التحالف.

إن القوى السياسية الفلسطينية، رغم اتفاقها على جملة من المسائل الأساسية بالنسبة للقضية الفلسطينية، إلا أنها تعيش واقع المواقف السياسية المختلفة، أي تباين البرامج السياسية، ولكن هذا الأمر ممكن التجاوز بشرط عدم وضع التكتيكي في مواجهة الاستراتيجي، أو بشكل يصادر فيه التكتيك الاستراتيجي ويلغيه، اي أن الذي يقبل حلاً جزئياً أو مرحلياً لايجوز له أن يعطل على الذي يطرح دفعة واحدة فلسطين الكاملة، وعلى الطرفين أن يجدا وسيلة لضبط إيقاعهما نحو الهدف. على سبيل المثال عندما تناهت إلى أسماعنا أخبار أوسلو، وقبل توقيع الاتفاق في واشنطن، تداعينا في الفصائل العشرة إلى لقاءات حامية وعاطفية ومؤثرة من أجل التفعيل والتطوير السياسي والتنظيمي لصيغة العشرة باتجاه جبهة على الأقل تكون أكثر تماسكاً سياسياً وأكثر فعالية تنظيمياً. للأسف استهلكنا أربعة شهور وخمسة أيام في جدل وخلاف حول مرجعية الميثاق الوطني وجدوى إضافة فلسطين التاريخية كمرجعية جغرافية وسياسية لأهدافنا، أربعة اشهر من الجدل وأزمة الثقة نقلتنا من حماسة اجتماع الفاتح من أيلول ١٩٩٣م إلى برودة كانون ثاني ١٩٩٤م حيث أُقر التحالف بعد مخاض عسير وعملية قيصرية وبالحد الأدنى من المشاعر والكلمات والمعاني.

أقول بوضوح لم يكن لقوى تريد في لحظة مصيرية أن تتحشد في جبهة واحدة ملحة وأكثر من ضرورية، لم يكن لها أو لبعضها أن يجعل من مساحة الوطن وجغرافيته موضع تساؤل مهما تمرحلت البرامج السياسية لهذه القوى.

إن قبول أصحاب البرنامج المرحلي بسقف فلسطين الكاملة لا يلغي رؤيتهم السياسية ولا يتعارض مع برنامجهم الاستراتيجي، في حين كان قبول بعض القوى واقصد القوى الإسلامية، وأخرى وطنية بطرح فلسطين غير الكاملة كان يعني الغاءها وفقدانها لمبررات وجودها.

كانت أزمة الثقة عائقاً حقيقياً أمام توافق القوى على البديل، وقد انعكست هذه الأزمة في التشكيك بنوايا الأطراف، وأثارت لامبالاة داخلية بالتحالف ونقصاً في

القناعة بدور التحالف وأهميته وأهمية التقاء الأطراف المكونة له، مما جعل التنظيمات عاجزة عن فهم بعضها بعضها جيداً وهي تقرأ عن بعضها وتعرف مواقف بعضها من الصحف ووسائل الإعلام، في ظل لقاءات متباعدة لايسبقها تقديم أو تحضير كاف مما يجعل هذا اللقاء غير قادر على حل الإشكالات وتصفية الأجواء المعرضة باستمرار إلى التشويش والتعكير. إضافة إلى عدم بذل الجهود الكافية للوصول إلى التفاهم ولوضع آليات لتنفيذ التفاهم في حال الوصول إليه.

ولكن هذه التعارضات ليست مانعاً جاداً في سبيل الوصول إلى البديل، بل أن قدرتنا على تحديدها يعطينا دفعاً باتجاه تجاوزها والوصول إلى صيغة ممكنة قادرة على إخراج شعبنا من مأزقه.

إن على البديل أن يحدد، من البداية، وبشكل واضح، تناقضة الكامل مع المشروع الآخر، وإذا كنا مضطرين لتحديد الآخر ببرنامج ومشروع أوسلو، فليس مسموحاً لأحد منا أن ينطلق من نفس أرضية ذلك المشروع تحت اي ظرف من الظروف وبأي دعوى من الدعوات مثل إدخال تحسينات والبناء على ما هو موجود أو نصرة ما يسمى بالفريق العربي الفلسطيني على الفريق الصهيوني داخل مشروع أوسلو أو غير ذلك من المبررات أو الذرائع، لأن هذا يعني أن ينهش المشروع الآخر أطراف البديل الوطني المأمول واحداً تلو الاخر.

كما أن البديل يجب أن يقوم على احترام متبادل بين جميع أطرافه والتأكيد على الشرعية والمصداقية الوطنية المتبادلة بين الجميع بلا نفي أو إقصاء، بل رفاق درب وسلاح وموقف.

في نفس الوقت فإن هذا البديل لن يكون قادراً على مواجهة التحدي بمجرد الإعلان الجبهوي بدون اي تغيير أو تطوير في مستوى الأداء لكل طرف من أطرافه، ولذا فإن إعادة ترتيب أوضاعنا التنظيمية الداخلية، إسلامياً ووطنياً وديمقراطياً، أمرٌ في غاية الأهمية للتخلص من رواسب سنوات طويلة من الروتين والبيروقراطية والفهلوة والاستبداد وأحياناً الفساد الذي بات يطال مستويات متعددة.

إن هذا بحاجة إلى ثورة ثقافية ومسلكية تعصف بكل ما هوبال ورث وعاجز ومبدد من موروثات السنوات العشرين أو الثلاثين الماضية، باتجاه التجديد الفكري والتنظيمي على أساس ديمقراطي حقيقي، وباتجاه تكريس مناقب الزهد والتضحية ونكران الذات، بدون التجديد والتثوير والتنوير داخل كل فصيل وداخل كل طرف لن نعطي للبديل مضاءه وتأثيره الانقلابي المطلوب عاجلاً.

كما أن البديل «الجبهة» يجب أن يكون محصلة لفعل التنظيمات والقوى المشاركة، وليس مجرد نصاب سياسي عددي أو عنوان أو منبر أو سوق عكاظ لنفث الهموم والشكاوي من واقع الحال. يجب أن نتجاوز مرحلة المنبر السياسي الذي كان عنوانا ومعنى عملنا على مدى أكثر من عامين باتجاه جبهة متماسكة وفاعلة تحكمها علاقات داخلية ديمقراطية ملزمة، على أساس من برنامج سياسي واضح يحظى بالإجماع الشعبي ويتعامل بحكمة وحنكة مع التعارضات السياسية التقليدية بين أطراف متباينة أيديولوجياً وأحياناً سياسياً، والتأكيد على عدم معارضة التكتيكي أو المرحلي مع الاستراتيجي بل أن يخدمه ويقود إليه.

إن غياب هذا البرنامج السياسي المشترك الواضح والملزم يعني غموض الرؤى السياسية والالتزامات السياسية ويدفع إلى قيام أزمة الثقة بين اطراف الجبهة أو البديل، كتلك الأزمة التي استحكمت بين أطراف عدة داخل التحالف لأكثر من عام، وكان مبعثها الحواجز النفسية وتراكم الخلافات دونما بحث ودراسة ومصارحة، والتشكيك بالنوايا .. فهذا الطرف يظن أن حليفه المفترض ذاهب إلى التسوية أو إلى علاقة غير مشروعة مع السلطة والعكس صحيح، هذا في حين تستعر حرب إشاعات يغذيها الإعلام من ناحية ونزعات حزبية من ناحية أخرى، وهذا ينقلنا إلى مسألة جوهرية أخرى ونحن نتقصى الذاتي فيما يتعلق بالبديل وهي مسألة تصيب الشعوب والأمم عند انحطاط الحضارات وانهيارها حيث تنمو النزعة الفردية الهروبية ويتم تغليب الخاص على العام، والأخطر تبرير ذلك باعتقاد أصحاب هذه النزعات أنهم ينطبقون على القضية وأن مصلحة القضية من

مصلحتهم وليس العكس، مما يدفعهم إلى الحفاظ على الذاتي بأي ثمن والحصول على المكاسب بأي طريقة وأنهم يظنون أنهم يحسنون صنعاً، إن هذا عين ما عاشه ياسر عرفات على مدى ثلاثين عاماً، وإن هذا هو ما قاده إلى حكم ذاتي في غزة غير مدرك أو غير عابئ بالأحرى بما هو مصلحة عليا وبأن القضية أكبر من كل الأفراد والفصائل بل أكبر من كل الشعب، ففلسطين ملك الشعب والأمة.. ملك أجيال الحاضر والمستقبل، وهي مركز الصراع الكوني وساحة الصراع والتماس بين الأمة العربية والإسلامية وبين أعدائها التاريخيين.

إن تغليب الخاص على العام مظهر من مظاهر الانحطاط والهزيمة والتفتت، ولن نصنع بديلاً حقيقياً أو جاداً إلا عندما تعاد للمصلحة العامة قيمتها العليا في رؤيتنا وفي فعلنا.

وبعد، لا ننسى أن هناك عوامل موضوعية لا بدّ من أخذها في الحسبان تتمثل أساساً بالعامل الدولي والإقليمي، ففي ظل التفرد الأمريكي والإرهاب الأمريكي تجد المعارضة الفلسطينية نفسها لأول مرة في تاريخها المعاصر مكشوفة بدون غطاء مادي أو سياسي أو معنوي إلا من علاقات هنا وهناك أضعف من أن تكون حاضنة أو سنداً استراتيجياً، ومع ذلك فالبديل الوطني عليه أن يبذل اقصى الجهد في مد علاقاته وتحالفاته مع كل القوى التي تستشعر مثله الخطر على وجودها واستمرارها لقيام أوسع تحالف ممكن فلسطينياً وإسلامياً وعربياً، دون نسيان أن هناك قوى وأطرافاً عالمية ترفض الهيمنة والتفرد الامريكي وتعاني منه مثلما نعاني، وفي هذا السياق نؤكد على ضرورة تماسك التيارات الوطنية التقدمية والقومية والإسلامية ليس على ساحة فلسطين وحدها ولكن على ساحة الوطن العربي وكل الأمة بحيث تشكل سنداً لنضالنا وجهادنا في فلسطين، وهذا يستدعي إقامة الجسور القوية مع الجماهير العربية والإسلامية وأحزابها وهيئاتها وقواها الطليعية.

أما فيما يتعلق بمسألة الأحجام التنظيمية والسياسية داخل هذا البديل، وبروز نظرية العمود الفقري أو التنظيم القائد، فإن مسألة الأحجام عندما تكون واقعاً

يستحيل تجاوزها أوالقفز عليها، ولكن مسألة التنظيم القائد أو العمود الفقري، إن وُجد، وكان بروزه ملحاً، فيجب أن ترتبط ببرنامج النضال القائد، على قاعدة «لاطاعة لتنظيم قائد في معصية البرنامج المتفق عليه»، فالأولوية للبرنامج ولا اعتراض بعد ذلك على فكرة التنظيم القائد، إن وُجد على أرض الواقع بحجمه المؤثر والتزامه الوطني الجاد، وضمن إطار ديمقراطي.

إن ما تقدم لا يعدو كونه مروراً سريعاً على موضوع بحاجة إلى دراسة متأنية وتدقيق وتعمق، لأنه موضوع يعاني من تراكمات سنوات طويلة حافلة ومن تشابك وتعقيد بحجم تشابك وتعقيد القضية الفلسطينية.

(٨)
الأصولية والعلمانية

بداية أود أن أسجل تحفظي وملاحظاتي، ليس فقط على الأصولية وإنما على المصطلحين، طالما أن كلاً منهما يختزن تجربة أوروبية خاصة. على الأقل، فإنني هنا بصفتي إسلامياً وليس أصولياً، وسأتحدث عن الإسلامية وليس عن الأصولية، هذا المصطلح الذي يتم تمريره في ثقافتنا اليوم ويسكت عنه البعض ظناً منه أنه يعني العودة إلى الأصول والمبادئ الإسلامية، أو يتماهى مع مصطلح "الأصوليين" الذي يعني في تاريخنا جماعة الفقهاء المشتغلين بعلم أصول الفقه.

الأصولية مصطلح يختزن تجارب ورموزاً وإيحاءات لا علاقة لها بنا، بل مرتبط بالتاريخ الأوروبي وبثقافة مسيحية نصية، تلتزم النصوص حرفياً وتعكس أحياناً التوسل بالعنف لتحقيق أهدافها، وهي ترجمة رديئة لكلمة Fundamentalism التي تعني في المعاجم مذهب العصمة الفردية وذلك نسبة إلى حركة بروتستانتية. إذنٍ نحن أمام مصطلح غربي يحمل إيحاءات مسيحية غربية، وعندما يطلق عليّ الغربي صفةَ أنني أصولي فهو لا يترك مساحة لأي إيحاء إيجابي. فقط، يريد أن يحجمني ضمن تجربة أوروبية مسيحية شديدة الخصوصية ومختلفة ويلصق بي إيحاءاتها السلبية، كما أنه في نفس الوقت يماهي بين ظواهر أصولية مسيحية أو يهودية أو إسلامية، بل يمكن القول بأصولية ماركسية. وكل هذا ينفي عن التعبير إمكان التوظيف العملي المجرد ويجعل معالجة الموضوع خاضعة للتوظيف التحريضي ضد الإسلامية أو ضد الظاهرة الإسلامية بعيداً عن أي سياق تاريخي أو علمي أو موضوعي.

وقبل أن أترك هذه الملاحظة أشير إلى أن القول بمصطلح (إسلامي) لا يعني أن غير المتصف به ليس مسلماً، فجمهور الأمة مسلم، واللفظ هنا للتخصيص وليس

(*) المصدر: نص المحاضرة التي ألقاها في قاعة غسان كنفاني في مخيم اليرموك، في الندوة التي عقدتها لجنة الدفاع عن الثقافة الوطنية وجمعية أصدقاء الشهيد غسان كنفاني، بالاشتراك مع الدكتور الطيب تيزيني، في ١٠/ ٧/ ١٩٩٥م نشرت في الحياة ٢٨/ ٧/ ١٩٩٥م

للنفي، وهو يصف أو يخص المشغول بالهم الإسلامي العام ومع خيار الفكرة والنظام الإسلامي كقضية نضالية.

الملاحظة الأخرى تخص مصطلح العلمانية، وهي كلمة غير عربية، نُحتت نحتاً ملتبساً، واستخدمت بشكل ضيق بين النخبة، دون النظر الى ظروف ونشأة الكلمة الأصلية، وهي نشأت كنظرية ضد تسلط الكنيسة الاجتماعي والسياسي في صورته التاريخية البائسة، وطرحت تحرير العقل والجسد وذلك بعد حرب طويلة مع الكنيسة. ولا يمكن تمرير هذا المصطلح في ثقافتنا وحياتنا إلا بشرطين:

١ - تماثل الكنيسة مع المسجد في المضمون والدور وآلية العمل، والسلطة الكنسية مع سلطة علماء الدين (المسلمين)

٢- تماثل قوى المجتمع المدني الأوروبي الناشئ حينها وطليعته البرجوازية حامل وناتج الثورة الصناعية مع قوى مشابهة في تجربتنا التاريخية.

ولأن الشرطين منتفيان فسوف يصعب التمرير العلمي أو الموضوعي لمصطلح العلمانية في ثقافتنا وحياتنا.

أضيف أن الأصل في الصراع الذي أدى إلى نشوء العلمانية، كأساس في بناء الدولة الحديثة، لم يكن وجود الدين نفسه أو حتى الكنيسة والهيئة الدينية ولا القيم الفكرية المستمدة من الدين، ولكن تسلط الكنيسة على شؤون الدولة والمجتمع، وهذه العلاقة المتوترة بين الدين والدولة والتناقض بين قيمهما ليس سوى استثناء في التاريخ لم يعرفه الإسلام ولم تعرفه البوذية والكونفوشيوسية.

في كل الأحوال، إن كان من حقي عدم الاستظلال بمصطلح الأصولية فليس من حقي أن أمنع غيري من الاستظلال بمصطلح العلمانية، وسأواصل حديثي عنها في سياق تاريخي وتحليلي، لأذهب إلى أن صيحات ونداءات العلمانية في سياق حركة النهضة العربية الحديثة تحركت باتجاه مختلف عن تلك في حركة التنوير والنهضة الأوروبية، فنحن أمام سياقين مختلفين، أوروبي غربي وآخر عربي إسلامي. وقد تم

استخلاص وتطبيق منظومات السياق الأول، ونتائجه، ولغة خطابه على السياق الآخر المختلف، وهكذا نفضنا أيدينا من تراثنا، قبل أن نقوم بحركة إحيائه، أي قبل أن نكتشفه ونكتشف قيمه الحية الفاعلة في المجتمع.

المشكلة في التجربة الأوروبية كانت في تسلط الكنيسة على المجتمع والدولة واستبدادها بالوهم والخرافة. المشكلة في التجربة العربية الإسلامية كانت في سعي الدولة للهيمنة على المجتمع (بما يعنيه ذلك من سلطة التعليم والتشريع والسوق والوقف والموروث الديني) وصولاً إلى هيمنتها شبه الكاملة مع نشوء الدولة القطرية من مخاض أحلام قومية، وتحديداً اليوم.

إذن المشكلتان مختلفتان. فإن سعت العلمانية في السياق الأوروبي إلى تحرير الإنسان والمجتمع، فإنها لم تفعل الشيء نفسه في السياق العربي الإسلامي، بل عملت على تكسير نمط الاجتماع الإسلامي، حتى وصل إلى مرحلة من الهشاشة مهدت لسيطرة الدولة على كل شيء، وهكذا ساهمت أكثر في ترسيخ النظام الأبوي الاستبدادي بدلاً من تحرير الإنسان، ربما بسبب دعواها ضد السلطة الدينية الثيوقراطية وضد الخليفة المستبد المزعوم ظل الله في الأرض. فهل كانت هذه الدعاوى صحيحة. يقول السيد جمال الدين الأفغاني « ليس في الإسلام ما يُسمى عند قوم بالسلطة الدينية بوجه من الوجوه، ولكن الإسلام دين وشرع، فقد وضع حدوداً ورسم حقوقاً»، والخليفة «مكلف بإقامة الحدود وتنفيذ حكم القاضي بالحق» أي سلطة تنفيذية، وهو «ليس بالمعصوم ولا هو مهبط الوحي ولا من حقه الاستئثار بتفسير الكتاب والسنة (...) ولا يجوز لصحيح النظر أن يخلط الخليفة عند المسلمين بما يسميه الإفرنجثيوقراطيا» أي السلطان الإلهي «فإن ذلك عندهم هو الذي ينفرد بتلقي الشريعة من الله وله حق الأثرة بالتشريع وله في رقاب الناس حق الطاعة، لا بالبيعة وما تقتضيه من العدل وحماية الحوزة، بل بمقتضى الإيمان، فليس للمؤمن ما دام مؤمناً أن يخالفه» والخليفة في نظر الإمام محمد عبده «حاكم مدني من جميع الوجوه»

إن الدولة قمعية بطبعها، أو أداة قمع ضد الطبقات المحكومة حسب تعريف لينين، وهي أخطر أداة قوة خلقها الاجتماع البشري، لذا عمل الإسلام علي فرز نمط اجتماع بشري يسلب من هذه الدولة سطوتها وهيمنتها ويجعلها أضعف من المجتمع ومسؤولة أمامه حتى لو كان على رأسها أقوى الخلفاء والسلاطين. وبعد صدر الإسلام، وعندما شعرت مؤسسة العلماء أن الدولة بدأت تنحرف، صارعوها على التشريع ومنعوها منه، ووضع الإمام الشافعي فكرة الإجماع كركن أساسي للتشريع، بعد القرآن والسنة، ليحرم الدولة من التشريع، ويقول لها أن المصدر الثالث للتشريع بعد القرآن والسنة هو الإجماع وليس الحاكم، إجماع علماء الأمة. وعندما حاول ابن المقفع إقناع الخليفة العباسي المنصور أن للخليفة حقاً سياسياً وتشريعياً وبيده فرض منظومة فقهية وشرعية واحدة في كافة أنحاء الدولة، لم يستطع المنصور التقدم باتجاه هذا المشروع لإدراكه قوة مؤسسة العلماء ومعارضتها للأمر.

لقد استطاعت مؤسسة العلماء أن تحمي المجتمع من تغوّل الدولة وأن تحفظ نسيجه متماسكاً، وهي تشرف على التشريع والقضاء ومقاليد التعليم والوقف وعلاقات أوثق بالسوق (البازار)، بل وكانت ترشد الجيوش في الحرب، الجند كانوا يتعلمون على أيدي العلماء، فيما أصبحت جيوشنا اليوم غربية الثقافة والطراز.

وهكذا، في الوقت الذي أراد فيه العلمانيون الفصل بين الدين والدولة وإقامة مؤسسات مدنية، فقد ساهموا في تكسير نمط الاجتماع الإسلامي فضربت أهم مؤسسة مدنية وهي المدينة التي خضعت تماماً للدولة بعد أن جرى تفكيكها وتفتيت لحمتها الداخلية، ولم تعد اليوم قادرة على تحريك قواها، كما شاهدنا أثناء حرب الخليج، بل إن أهم مظاهرة قامت لدعم الانتفاضة الفلسطينية في المنطقة قامت في تل أبيب وليس في مدينة عربية، وأهم مظاهرة ضد الغزو الإسرائيلي للبنان قامت أيضاً في تل أبيب وليس في مدينة عربية.

ومع ذلك يستمر النداء (العلماني): "نحن نريد مجتمعاً مدنياً" مع أننا في الحقيقة نبتعد عن المجتمع المدني أكثر فأكثر. لقد كان لنا مجتمع مدني حقيقي على امتداد أربعة عشر قرناً، مستقل عن الدولة، بيده التعليم والصحة والوقف والمسجد. حتى فساد الدولة وانهيارها الأخلاقي، عدلها أو ظلمها، لم يكن يترك تأثيراً خطيراً على المجتمع. لقد ضرب المجتمع المدني عندما علت النداءات والصيحات أن هذا تخلف ورجعية، فلا تحقق المجتمع المدني الجديد ولا حافظنا على موروثنا.

ولكن أين يكمن الخطأ؟

أخطأت النداءات والأطروحات العلمانية في تقدير الشرط الموضوعي والنفسي للنهضة، عندما لم تحدد أن جوهر العصر الأوروبي، وبالتالي جوهر التحدي الغربي الحديث لنا قائم على العلم الحديث والصناعة الحديثة، لقد تم نقل التحدي من مجاله الحقيقي إلى مجال آخر: من مجال العلم الحديث إلى مجال العقيدة، ومن مجال الصناعة الحديثة إلى مجال الفن والآداب والعلوم التاريخية. وهكذا تعرقلت النهضة بسبب الازدواجية والتلفيق والفصام الاجتماعي الذي أصاب شخصية الإنسان العربي ودمرها أمام تباين العقائد والفنون والآداب والثقافات، في نفس الوقت لم يجر الاهتمام بالعلوم الطبيعية والرياضيات والتصنيع.

وإضافة الى الخطأ في تقدير الشرط الموضوعي، لم يتم إدراك الشرط النفسي المتمثل في اكتشاف التراث وبعثه (ليس المقصود هنا إعادة طبعه) وإحياء المفاهيم والقيم التراثية، إذ لا يمكن أن نجدد شيئاً ما لم يتجدد الإنسان نفسه، والإنسان لا يتجدد بالعلم والصناعة ونظام الحكم بل بالبعث الروحي وبتجديد منظومة المفاهيم والقيم الأخلاقية والجمالية، الأسوأ أنه بدلاً من الإسهام في البعث الروحي غذاء الثورة، كان الهجوم على قيمنا الروحية وتمكين الثقافة الغربية، وبدلاً من الاستجابة لمشاعر الجماهير المسلمة، ونداءات الثوار العظام كالسيد جمال الدين الأفغاني، جرى تقليد الفكر الليبرالي الأوروبي في جدل كلامي حول: الإسلام والعقل، الإسلام والعلم، الإسلام والتطور، الإسلام والسياسة، الدين والدولة، الإسلام والديمقراطية..

وأكثر من ذلك أن عدم إدراك الشرط النفسي حال دون فتح حوار حقيقي جاد ونديّ مع الغرب، وحال بيننا وبين إجراء عملية التبادل الحضاري معه، فلا نحن عرفنا أصولنا ولا أصول الفكر الغربي.

ماذا يريد الإسلاميون؟ ما هو مشروعنا الإسلامي اليوم؟

١ - إعادة بناء الجماعة، المجتمع، الأمة: يجب أن يبقى على رأس أولويات الحركة الإسلامية المساهمة بقوة وفعالية في إعادة بناء الجماعة، المجتمع الذي يتدمر نسيجه وموقعه ودوره الحضاري والتاريخي أمام هجوم الدولة (الأمنية) وتبريرات النُخب، المتغربة من ناحية، والملتصقة بالدول من ناحية أُخرى. إن هذا يحتاج إلى بناء قدر كبير من استقلال المجتمع عن الدولة، أن يُعطى قوة في مواجهة الدولة بحيث يشرف على تعليمه ويملك سلطة على إعلامه وتخاطبه وشؤونه، إننا بحاجة إلى إعادة نظر دستورية في موضوعية الدولة في بلادنا.

إن إعادة بناء الجماعة وتحقيق تماسكها سيجعل من تحقيق بقية الأهداف مسألة وقت.

٢ - التأكيد على أن الصراع مع التحالف الغربي ـ الصهيوني يمس كينونة الأمة ووجودها وهويتها وحقها التاريخي في وطنها وقرارها المستقل، وأنه بدون حسم الصراع على فلسطين فسوف تُجهض كل محاولات النهضة والاستقلال أو تحاصر، ولذا يؤكد التيار الإسلامي في فلسطين، وعلى امتداد الحوض العربي ـ الإسلامي على عدم اعترافه بشرعية الكيان الصهيوني وضرورة استمرار الصراع بكافة أبعاده الحضارية والثقافية والاقتصادية والسياسية والعسكرية. هذه التسوية مرفوضة، فهي تفتح أبواب العواصم العربية والإسلامية أمام الغزو الإسرائيلي بلا مقاومة، والغزاة يستهدفون تفتيت المنطقة، وتمزيقها قومياً وطائفياً ومذهبياً، وإعادة تشكيلها من جديد على

أساس اقتصادي، محولين الصراع الحضاري في أخطر مناطق العالم إلى علاقات بائع بمشتر في سوق يسيطرون عليه عبر الشركات المتعددة الجنسية وآليات الرأسمالية المعاصرة.

يجب أن يبقى تغيير موازين القوى الظالمة والتي تعمل لصالح العدو هدفاً استراتيجياً نسعى إليه على كافة المستويات، وإلى أن نصل إليه لا بد أن نعمل باستمرار لأجل تحقيق توازن الرعب مع العدو.

٣- كما كانت التجزئة وقيام الكيان الصهيوني أبرز ملامح المشروع الاستعماري في بلادنا، فإننا، في سياق مقاومتنا للكيان الصهيوني، نؤكد على ضرورة الوحدة ضمن دوائرها الوطنية والعربية والإسلامية، مدركين إلحاح مسألة الوحدة العربية بتوفر عناصرها وضرورتها.

٤- يدعو التيار الإسلامي إلى أوسع تحالف شعبي يشمل كل القوى المعادية للمشروع الإمبريالي الصهيوني، داعياً لالتزام هذه القوى بأن الصراع مع الخارج المعادي له الأولوية المطلقة، وأن التباينات الداخلية الأيديولوجية والسياسية تُحل بالحوار وبعيداً عن أي عنف، وداعياً كافة التيارات المناضلة إلى إعادة قراءة بعضها البعض، دونما نفي ودونما إحالة إلى الخارج. والتيار الإسلامي نفسه مطالب بإعادة تقييم بعض التجارب القومية والعلمانية، وتعميق تحالفاته السياسية مع القوى الوطنية الجادة لأجل خلق جبهة وطنية عريضة في مواجهة نظام القطرية والتبعية الذي أصبح أداة طيعة في أي تشكيل أو مصير يراد للمنطقة أو غيره من تصورات الغرب الاستعماري.

٥- التنمية سبيل المجتمع للنهوض والخلاص من الارتهان الاقتصادي والسياسي، ولأن جوهر مشكلتنا اليوم هو «التخلف»، فالبديل الحتمي هو التنمية والتقدم المستند إلى العلم والصناعة وعقلانية التنظيم المرتبطة بهما، دونما مساس بقيمنا الأخلاقية، ولا نظامنا العقائدي، أو الأيديولوجي اللازم لبعث الإنسان عنصر ووحدة التنمية الرئيسية.

٦- يرفض التيار الإسلامي الاستبداد السياسي، ويدعو الي أوسع مشاركة سياسية شعبية، ويعتبر الشورى، كما اعتبرها الإسلام، فريضة إلهية، وليس مجرد حق من حقوق الإنسان، ويجعلها من قواعد الشريعة ومن عزائم الأحكام. يقول القرطبي في تفسير آية ﴿وشاورهم في الأمر﴾: «إن الشورى من قواعد الشريعة وعزائم الأحكام ومن لا يستشير أهل العلم والدين فعزله واجب، وهذا مما لا خلاف فيه» بل إن الإسلام يزكي الشورى جاعلاً إياها سبيلاً إلى العصمة حين يقول الرسول ﷺ: «لا تجتمع أمتي على ضلالة».

إن من أهم ما فعله الإسلام هو حل مشكلة «القوة» Power، وذلك بعدم تركيزها، فالإسلام نزع من الدولة أنيابها: التشريع والتعليم والسوق، ووضع ركيزة الوقف، أما الديمقراطية، بالمعنى المطروح في الغرب، فإنها لا تعطي دلالة حقيقية على مشاركة الناس. إنهم يذهبون مرة كل أربع سنوات أو خمس سنوات إلى صناديق الاقتراع، ومن ينتخبون هم أقل من ٥٠٪ من الناس، والرؤساء يصلون إلى الحكم بنسبة ٣٠٪ من أصحاب حق الاقتراع!

على كل، إن مشكلة بعض الإسلاميين مع الديمقراطية هي مع المصطلح وليس مع مبدأ الشورى والمشاركة السياسية، وليس مع الآليات والسبل والنظم والمؤسسات والخبرات التي تحقق مقاصد وغايات الديمقراطية. معروف أن السيادة في التشريع هي لله، ولكن يبقى للإنسان سلطة البناء على هذه الشريعة الإلهية، والتفصيل لها والتقنين لمبادئها وقواعدها وأصولها والتفريع لكلياتها، كما أن للإنسان سلطة الاجتهاد فيما لم ينزل به شرع سماوي، شريطة أن تظل السلطة البشرية محكومة في إطار فلسفة الإسلام في التشريع (الحلال والحرام الشرعي).

إن الإسلاميين اليوم هم أبرز ضحايا الاستبداد السياسي وأبرز ضحايا غياب الديمقراطية، والتي تعني حضور الجماهير في الشارع وفي السياسة، وهذا يعني عودة الإسلام بما يمثله من هوية وأصالة واستقلال وندية وليس ذيلية للآخر.

ليس لأحـد مصلحة في حـضور الديمقراطيـة مثلما لـلإسلاميين، وسيبـقى من مصلحتهم الحفاظ عليها، وعلى مـبدأ التعددية وتداول السلطة في إطار احترام إرادة الأمة واحترام الدستور الذي ترتضيه الأُمة بحرية ويحدد مرجعيتها.

٦- يرفض التيـار الإسلامي، بعمومه وبمجـمله، العنف الأهلي الـداخلي، ولا يرى في العنف خـياراً إسلامياً. فالعنف ظاهـرة تاريخية وعالمية، ولا يجوز مـعالجتها في سيـاق أيديولوجـي، وإنما في سياق اجـتماعي وسيـاسي. وربما كان الـيسار والماركـسية أبـرز عنوان لـظاهرة العـنف في الـقرن العـشرين، وهـذا وارد في نصوصـه الأساسية وفـي ممارساته علـى امتداد واسع من الـعالم. ويرى الـتيار الإسلامي أن العنف الأخطر والأسوأ هو ذلك الذي مارسه الاستعمار الغربي على مدى قرنين ضد شعوب المنطقة. لـقد ارتكب الغرب الاستعماري جريمة قتل ملـيون شخص خلال عقد واحد فـي بقعة واحدة من وطننـا: في الجزائر، وهو نفـس الغرب الذي دعم وأيـد الانقلاب العسكـري ضد الديمقراطـية في نفس المكان (الجزائر)، مما أدى إلى سقوط أكثر من أربعين ألف قتيل وعشرات الآلاف من المعتقلين حتى الآن.

وعندما غادر الاستعمار خلف لنا دولة الـعنف المنهجي ضد المجتمع ككل وضد المعارضة بشكل خاص. إن المسلك العنفي والإرهاب المنظم الذي تمارسه الدولة في أكثر من مكان هو السبب الرئيس للـعنف الأهلي، والإسلاميون قادرون على العمل في ظـروف السلم الأهـلي بشـكل أفضل وأكـثر انسـجاماً مع تـكوينـهم السيـاسي والعقائـدي التنظيمي، لأنـهم يخاطبون مجتـمعاً يفهمهـم ويتقبل رؤيتهـم، وليسوا بحاجـة إلى العنـف لفرض رؤيتهـم على المجتـمع. والذين يتـوسلون العـنف ضد الإسلاميين هم الذين يخافون المشروع الإسلامي، ولا يجدون في المجتمع معيناً لهم في دعواهم ضد الإسلاميين.

إن غياب الحـرية يخلق تـوتراً وقلقاً يجـعل بعض الفـئات أو المجموعات تـتجه بتفكـيرها نحو العنف. ولـيس من سبيل لإيقـاف ذلك إلا بإشاعة الحريات الحقـيقية للجميع.

(٩)

حول المشروع الوطني الفلسطيني المتجدد

يشرفني ويسعدني أن أفتتح ندوتكم ومحـاضرتكم ومناقشتكم ومحاورتكم على طريق إيجاد المشروع الوطني الفلسطيني المتجدد، وأنا على يقين بأن فلسطين الولادة كل يوم بـالشهداء قـادرة على تجديـد مشروع النـهوض والقيـام والثورة والمواجـهة للحركـة الصهيونيـة. ضد الحركة الصهـيونية، وضد الاستـكبار وضد الإمبريـالية. بدون مقدمات لا قصـيرة ولا طويلة أدخل مباشرة في التسـاؤلات والنقاط التي أود أن اطرحهـا اليوم لنجيـب عليـها معا في حـوار متصل اليـوم وغدا حتى نـصل إلى المشروع الوطنـي الفلسطيني المـتجدد كما قلت بدون مـقدمات سأنطلق من الـنقطة الأكثر رعبا في التاريخ الفلسطيني الحديث المعاصر وغير المعاصر وهي اتفاق أوسلو ليـس لإحلال هذا الاتفـاق وليس لأعيـد قراءة بنوده عـليكـم فأنتم تـعرفونه جـيدا بالتأكيـد. ولكن لأسجل بعض الملاحظات نـستطيع أن نقول: أنه منـذ أوسلو يوجد عمليا ـ طبـعا الأمر بدرجات متفاوتة ـ يسـبق أوسلو، ولكن نحن أمام مسـألة عملية وملموسة على الأرض مباشرة.

منـذ أوسلو يوجـد عمليـا انقسام حـقيقـي داخل صفوف الـشعب الفـلسطيـني وقيادته. بالسـابق كانت الانقسامات الفلـسطينية تتعلق حـول الأهداف المرحلية، أو تنحـصر في دائرة الـتنظيـمات، أو النخـب السياسـية. الانقسـام اليوم حول الجـامع التاريخي للمشروع الوطني في الماضي، الآن يجري على الساحة؛ لأنه يجري ضمن مسلسل الصراع مع العدو. ما يجري اليـوم يأتي في سياق انهاء الصراع مع العدو. الفريق الذي وقع على اتفاق أوسلو انطلق إلى المـوقع المعادي بالكامل بنقله البشري والسيـاسي والأمني. أهـدافنا ليـست مختـلفة فقـط إنها متـناقضة تمـاما، نحن نـريد محاربة الكيان الصهيوني نريد تهديد أمنـه نريد تفكيك هذه المستوطنة الكبرى التي

(*) المصدر: محاضرة ألقيت بدمشق يوم ١٢/ ٤/ ١٩٩٥.

تسمى إسرائيل، الفريق الآخر يأمل وأساسا لأجل محاربة من يحارب الكيان الصهيوني؛ لحماية أمن الكيان الصهيوني للحفاظ على هذه المستوطنة التي تسمى إسرائيل، نسير في اتجاهين متناقضين تماما، المشروع الوطني الفلسطيني العربي الإسلامي في مواجهة مشروع صهيوني يتجسد تحت اسم الحكم الذاتي وتحت عنوان غزة وأريحا، وإن لم يحدث صدام حتى هذه اللحظة طالما نحن نسير في اتجاهين متناقضين تمام التناقض، فهذا يعود إلى القوة الاخلاقية في داخل القوى المناهضة للتسوية، للتصفية ولسبب آخر أن فريق أوسلو لا زال يعاني من الضعف والهشاشة على القيام بهذا الصدام. لكن الحقيقة الخطين يسيران باتجاهين متناقضين وليس في الإمكان إلا أن يتصادما. نحن نواجه في هذا السياق ظروفا غير مألوفة وتحديا من نوع جديد وينطرح على امتداد الساحة الفلسطينية ـ جميع الساحة الفلسطينية ـ من يناهض أو من يؤيد ويقبل هنا ينطرح سؤال هل نستمر في الثورة؟ هل نستمر في مشروع التحرر الوطني الثوري؟ أم نبني السلطة الوطنية فوق الأرض ولو تحت الاحتلال؟ هذا السؤال يمكن أن يفرض على الساحة الفلسطينية أطرافا عديدة بمقدار الإجابات التي يمكن أن نأخذها على هذا السؤال، وهو هل نستمر في الثورة؟ أم نبني السلطة الوطنية فوق الأرض ولو تحت الاحتلال؟ أقول هذا السؤال ليس مطروحا علينا نحن كمناهضين لهذه التصفية ولكن مطروح على كامل الساحة الفلسطينية حاليا لجميع أطرافها هل نستمر في الثورة أيضا؟ هناك أجابتان، هل نستمر في الثورة كأن شيئا لم يكن، وكأن لم يحدث هناك أي اتفاق. أم أن نستمر في الثورة آخذين بعين الاعتبار المتغيرات الكبرى والمتغيرات الصغرى التي حدثت خلال العام أو خلال الأعوام القليلة الماضية، أيضا الذين يتكلمون عن بناء السلطة الوطنية هناك بينهم من هو حالما يتوهم أن بالإمكان أن يكون هناك مَشروع وطني أي مشروع وطني. بقايا مشروع وطني من بين أنقاض الحكم الذاتي ومن هم من ربط مصيره نهائيا بمصير الحركة الصهيونية وأدار ظهره إلى شعبه

ولأمته وهذا الفريق هو فريق موجود بالفعل وهو الذي بيده الأمور حاليا على ساحة غزة أريحا.

أعتقد أن هذا التقسيم هو مسألة ضرورية والبحث في وجود أطراف متعددة هو مسألة ضرورية لا يجب أن تعمى أبصارنا عنها. إذا هذا السؤال يفرز إجابات عديدة ويعطي إجابات عديدة ويفرز قوى عديدة هناك من يرى أننا يجب أن نستمر في الثورة بغض النظر عن وكأن شيئا لم يحدث، لا يجب أن نستمر في الثورة آخذين بعين الاعتبار المتغيرات التي تحدث على الأرض في الطرف الآخر. هناك من يرى أننا يمكن أن نبني مشروعا وطنيا، هناك من يحلم بأن بالإمكان بناء مشروع وطني على أنقاض هذا الحكم الذاتي، وهناك من يرى بأننا لسنا بحاجة إلى بناء هذا المشروع الوطني لنربط مصيرنا بمصير الحركة الصهيونية؛ لنذير ظهرنا لأمتنا العربية والإسلامية ولينم وجهنا شطر شمال المتوسط ونلتحم بأعداء أمتنا، وليس مستبعدا أن يكون هناك إجابة خامسة وطرف خامس أيضا، وليس مستبعدا أن نرى من يقول بأننا أن نقوم بالمهمتين معا أن نستمر في الثورة وأن نبني السلطة الوطنية أيضا.

أيضا يرون تفاصيل وتعقيدات وتنظيرات أنا اقول إن الذين يعتقدون أنهم بالإمكان البناء على اتفاقات أوسلو والبحث في هذا الحطام عن أي مشروع وطني إن هؤلاء واهمون لأن هذا الاتفاق مسقوف بنص صهيوني مسقوف بالإرادة الصهيونية مسقوف بميزان القوى الصهيونية، هذا الاتفاق الذي لا يعطي الفلسطينيين أي شيء لا أريد أن أقول لا يعطي أدنى حقا هو لا يعطي أي شيء بالتأكيد بل لأول مرة في تاريخ الشعب الفلسطيني على الفلسطينيين أن يعطوا لا أن يأخذوا أي شيء في الماضي، على مدى عشرات السنين كان يعرض علينا القليل ونرفض القليل ونرفض هذا المرة عندما كان علينا أن نعطي لا أن نأخذ بأي حال من الأحوال ولا أرى شيئا على الاطلاق.

كما قلت هذا الاتفاق مسقوف بنص صهيوني مصاغ بحيث لا يمكن اختراقه نحو أي شكل من أشكال الاستقلال ولا فوق أي شبر من فلسطين إضافة إلى أنه

مسقوف بهذا النص ومسقوف بالإرادة الصهيونية التي تملك قرارها وتحالفاتها بحيث تفرض ما تريد على الأمة العربية، أيضا كما قلت مسقوف بموازين القوى التي تعمل منذ مطلع القرن حتى الآن ولكن اليوم بشكل أكبر وأكبر لصالح العدو الصهيوني. وبالتالي نحن الذين يتحدثون أو الذين يرتبط الآن مشروعهم بالمشروع الصهيوني فلا داعي للحديث عنهم ولا داعي لأخذهم بعين الاعتبار وطنيا، الذين يحلمون بأن بالإمكان إيجاد مشروع وطني من بين هذه الإنقاض، نقول لهم إن هذا مستحيل إن هذا غير وارد على الإطلاق، وقبل أن أنتقل إلى الصف الآخر صف الاستمرار في الثورة صف المناهضة للتسوية أحب أن أضيف أن هذا الاتفاق ليس اتفاقا على غزة أريحا كما تعلمون هذا الاتفاق هو اتفاق على كل المنطقة بل إنه يعمل في المنطقة أكثر مما يعمل في غزة أريحا. وأنتم شهدتم الزيارة التي قام بها رابين وبيريز إلى جاكرتا والمغرب فور توقيع الاتفاق في واشنطن، ولأن مفاعيل هذا الاتفاق وتأثيرات هذا الاتفاق والمجال الحيوي لهذا الاتفاق يمتد من هناك من جاكرتا إلى طنجه، من أندونيسيا إلى المغرب كما لاحظنا في هذه الزيارة.

في حين يتحرك هذا الاتفاق إلى الأردن إلى الخليج إلى عواصم عديدة يعيد العدو فيها علاقاته ويجدد حيويته، في حين أن هذا الاتفاق حتى لا يطبق على المساحة التي أريد التطبيق عليه إلا بشقه الأمني والأمني فقط، الأمني الذي يراد منه حماية العدو. العدو في الحقيقة لم يخرج من مناطق الحكم الذاتي، العدو أعاد تحكمه في مناطق الحكم الذاتي أفضل بكثير من السابق، أعاد تحكمه الاستراتيجي في قطاع غزة إنه الآن يتحكم في المنطقة أكثر مما كان يتحكم بها في السابق، العدو تحرر من أعباء قطاع غزة، تحرر من أعباء الانتفاضة الظافرة التي أذلته وحطمت كبرياءه في غزة، تحرر من المأزق الأخلاقي من المأزق النفسي، المأزق السياسي، المأزق الأمني والاقتصادي الذي كان يعيش في داخل قطاع غزة، ولكنه رغم تحرره هذه الأعباء لم يسلمنا غزة هو فعل كالذي أكل الكعكة، احتفظ بها لنفسه ثم باعها للعالم كل هذا في نفس الوقت، كل هذا في نفس اللحظة وبالتالي هذا تأكيد جديد

على أن هذا الاتفاق مسقوف بعدم الاستقلال بأي حال من الأحوال، بل أنه مرشح للامتداد إلى كافة المنطقة ليفرض الحكم الذاتي على كل دول المنطقة، أي بقايا استقلال مفروض أن تنزع لكي تمارس الحركة الصهيونية وحليفتها الكبرى الولايات المتحدة؛ لكي يفرضوا الحكم الذاتي على كل دول المنطقة بحيث يكون هناك مزيد من الارتهان لهم، مزيد من الإلحاق: اقتصادي وسياسي للقوى الإمبريالية والحركة الصهيونية وبحيث يصادرون القرار الإسلامي والعربي كما يصادرون بالفعل الثروات العربية والإسلامية، الحكم الذاتي هو عنوان مرحلة، وغزة وأريحا هي البوابة إلى هذه المرحلة يعني أقول هذه الإيضاحات وهذه الإشارات لنكتشف مدى الجريمة الكبرى من وراء هذا الاتفاق الخطير الذي لا يقسم فقط الشعب الفلسطيني كما ذكرت في البداية إلى قسمين بشكل عملي وعلى مستوى رأسي ومستوى أفقي، ولا يقسمهما بحيث يكونان مختلفين بل يقسمهما بحيث يكونان متناقضين تمام التناقض، ويسيران في اتجاهات مختلفة القوى التي تقول باستمرار الثورة كما جاء سؤالي الأساسي أين نقف وهذا جزء أساسي في موضوع حديثنا اليوم وهذا سؤال مطروح ومشروع ويجب أن نجلس مع أنفسنا به في كل لحظة حتى نجد المخرج.

قبل عامين في ١٦/ ٩/ ١٩٩٢ كانت انطلاقة الفصائل الفلسطينية العشرة تحالفا للقوى الفلسطينية، وأعتقد أن شعبنا ونحن جميعا وأنا شخصيا لا زلنا نذكر تلك الأيام الأولى في فخر واعتزاز، وأنتم لاحظتم أنه خلال أسبوع فقط على يوم اجتماع الفصائل العشرة لإعلان قيام هذا الصيغة، كيف استجاب شعبنا في الوطن المحتل لنداء الفصائل العشرة بالإضراب كما لم يستجب لأي طرف أو قوة سياسية منذ عام ١٩٤٨ إلى اليوم وليس فقط منذ الانتفاضة حتى اليوم لقد كانت الاستجابة والإضراب الأشمل والأقوى منذ انطلاقة الانتفاضة بالفعل وكان هذا هو الذي أثار الرعب في صفوف الفريق الآخر في صف ياسر عرفات ومجموعته. أنا اعتقد أن هذه اللحظة كانت لحظة إشراقة وتطور مهم في تاريخ الحركة السياسية الفلسطينية

حيث تلتقي قوى قومية ووطنية وديمقراطية يسارية مع القوى الإسلامية، هذا التطور على مستوى الفكر تطور على مستوى السياسة. أنا أذكر أن زعيما فلسطينيا قال لي قبل شهور قليلة جدا من تاريخ اجتماع الفصائل العشرة؛ إنه ليس بالإمكان أن يوقع على بيان ضد مدريد أو ضد فريق عرفات أو ضد الاتجاه الآخر ليس مستعدا أن يكون توقيعه ضمن مجموعات تواقيع، ومستعد أن يوقع ثنائيا ولكنه غير مستعد أن يفهم من عدة تواقيع أن هناك تجمعا ما لا يريد أن يكون هناك تجمع ما مناهض أو معاد لخط التسوية. وبالتالي ومن خلال شهور قليلة نجد هذا الزعيم أو نجد أغلب القوى السياسية المناهضة تلتقي من أجل أن تضع صيغة للمعارضة وليس فقط أن توقع على بيان.

أعتقد أن هذا فعلا كان تطورا مهما وهو أيضا ضروري وأقل الواجب في هذه المرحلة، على المستوى الأيديولوجي والفكري أيضا لقاء هذه الأطراف من القوى المختلفة أيديولوچيا لأنه يعتبر إنجاز مهما على الساحة الفلسطينية لم يحدث على أي ساحة عربية أو إسلامية أخرى من قبل حيث كان إلى سنوات، وليس بالإمكان لقاء حتى التيار العروبي أو التيار القومي العربي مع التيار الإسلامي. ولكن هنا نحن نلتقي عروبيا وإسلاميا ويساريا وديمقراطيا أيضا. المسألة تجاوزت مجرد لقاء التيار العروبي مع التيار الإسلامي في الفصائل العشرة، وعلى ذكر هذا اللقاء والإشارة إلى مسألة الصراع بين التيارين التي تعاظم بعد ربع القرن الأول وصلت إلى أوجها في الخمسينات والستينات، أعتقد أن هذا التصارع كان مفتعلا وكان للتدخل الخارجي سواء كان ذا طابع سياسي أو ذا طابع ثقافي فكري.

كان له دور كبير في إذكاء هذا التصارع غير المبرر، فإن كلمتا العروبة والإسلام على امتداد ١٣ قرنا من تاريخ الأمة العربية وتاريخ الإسلام لم يعرفا الانفصام دوما لأنهما كلمتان مترادفتان تماما، وليس هناك أدنى درجة من درجات التناقض فيما بين هاتين الكلمتين أو هذين المصطلحين، ولأسباب عديدة بدأ تجاذب في نهاية القرن الماضي ومطلع القرن العشرين هذا التجاذب بدأت بواعثه في البداية بواعث بريئة.

هنـاك مفكرون مـعروفون بـانتمـائهم الإسلامـي يرفضـون مشروع الـتعريب مـثل الكواكبي على سبيل المثال وبالتالي ظهور هذه النزعة العروبية كان في البداية ظهورا بدئيا لا يمكن بأي حـال من الأحوال عده معاديا للمرجعيـة الحضارية الإسلامية ولا معاديا لانتـماء الأمة الإسلامي وهويتهـا الإسلامية. ولكن مع التـداخلات الخارجية التي ذكرت مع نـسخ التجارب الأوروبية والغربـية مع محاولات التشبـيه القصري للقومية العربية بالقوميات الأوروبية والتـشييد القصري للإسلام والمسجد، بالكنيسة حدث الفصام النكد، والـتدمير الذاتي على مستوى العنصـرين الاساسيين في الأمة التيار الـعروبي، والتيار الإسـلامي فحصلت فـي الخمسينيـات في الستينـيات برود التجـاذب، وإلى درجة التناقـض أحيانا ومحاولـة كل طرف نفي الآخر، ولـكن أمام شراسة الهجمة وأمام التحديات الخطيرة، التي لا تهدد مفهوم كل منا فقط ولا تهدد تحليل كل منا فقط، بل تهدد وجودنا جميعا تحت اسم العروبة أو تحت اسم الإسلام أو تحت أي اسم قومـي أو وطني آخر لابد من الـعودة إلى نقطة هـادئة؛ لأن لابد أن نرى هذا التداخل والشيوع لكل من التيارين الأساسيين في الأمة.

كيف يتداخلان في داخل الأمة في شكل لا يصعب الفصل بينهما لدرجة أنه من الصعب أن تقـولها هذا عروبي وهذا إسلامي وإسـلامي فقط، هذه المسألة يـستطيع الإنسان أن يقوله لدى أي قـومية أخرى من القوميات التي اعتـنق أصحابها الإسلام أما القومية العربية فمن الصعب جدا أن تقول هذا عروبي فقط وهذا إسلامي فقط. فالقومية العربية كـانت دائما تتسع لكثيرين من غير العرب بمجـرد أن يتكلموا اللغة العـربية. دخلـت جانبـا هنا لأقول كـيف أننـا في السنـوات الأخيرة فـي ظل عملـية تاريخية مستمرة بدأنا نتقارب وبدأنا نـفهم أن وجودنا مهدد وبالتالي لابد من اللقاء ولابد من التفاهم ولابد من البحث عن مشروع واحـد يضمنا جميعا، وعلى خلفية الفصـائل العشـرة؛ لأن هذا اللقـاء بين التيار الـعروبي والتـيار الإسلامي هـذا على المسـتوى الفكـري والمستوى الـسياسي بـل على المـستوى الحضـاري. اعتبر أن لـقاء الفصائل العشرة كان لحظة إشراقة في تاريخ الحركة السياسية الفلسطينية، ولكن ماذا

حدث لماذا لم تستجب هذه الفصائل العشرة إلى متطلبات المرحلة؟ لماذا لم تحقق المشروع ولم تفرز المشروع الوطني الفلسطيني المأمول؟

هذا السؤال يجب أن يبقى مشرعا، ويجب أن يستمر البحث فيه بجدية وبصراحة حتى نصل إلى حل، وعندما نصل إلى إجابة حقيقية على هذا السؤال يمكن أن نبقى فعلا على الأرض، سأحاول أن أعطي بعض الإجابات بالتأكيد ليست إجابة كاملة لأن هذا سؤال مفتوح؛ لأننا أمام بناء مشروع، لا يتم البناء في لقاء ولا يتم في محاضرة ولكن هي عملية تاريخية مستمرة.

١ ـ أولا أنا أرى أن هناك مشكلة تمس كل تنظيم وكل فصيل وأن عشرات السنين من النضال بدون أي تغيير بدون أي تجديد بدون أي تسديد لاعلى مستوى الفكرة، ولا على مستوى الأداء ولا على مستوى البناء، بحيث أن أصبح هناك درجة من الجمود والتكلس رغم ادعاءات التنظيم والشعارات في داخل كل تنظيم.

التنظيمات في داخلها هناك ضعف داخلي ومتغيرات خطيرة تحدث ونحن نجمد حتى على أفكارنا الأولية رغم أن هذه الأفكار ليست من المقدسات حتى نقول أن الإنسان يقف مرهوبا أو خائفا أمام المقدسات فلا يستطيع أن يغير، حتى أنه هو ليس مقدسا نحن لا نستطيع أن نقف لنجدد فيه مع أنه حتى المقدس نحن مطالبين أن نجدد فيه والرسول عليه الصلاة والسلام يقول: (إن الله سبحانه وتعالى يبعث على رأس كل مائة سنة من يجدد على الأمة أمر دينها).

حتى التجديد يحث في داخل الدين وليس في الأفكار التي يضعها الإنسان، ولكنه يستمر ويكابر هذا الفرد أو هذا التنظيم أو هذه المجموعة ولا يجدد في إطار هذه الفكرة ولا على مستوى البناء التنظيمي يعني سنوات طويلة من الاستبداد، سنوات طويلة من البيروقراطية سنوات طويلة من الفهلوة، هي التي تتحكم في فصائلنا وفي عملنا التنظيمي وهذه هي نقطة أساسية وفي البحث عن معوقات تطوير مشروعنا الوطني الواحد، النقطة يجب أن تبدأ من أنفسنا يجب أن نبحث عن

إمكانية التجديد والتطوير على مستوى الفكرة وعلى مستوى الأسلوب وعلى مستوى البناء، السبب الآخر أننا في داخل الفصائل العشرة وعلى مستوى المعارضة المناهض لخطر التسوية، لا زالت أزمة الثقة قائمة وأزمة الثقة ليست أزمة أيديولوجية أزمة الثقة ليست فكرية فنحن عندما التقينا نحن نعرف بعضنا البعض تماما على هذا المستوى وثقوا من أنني ممثل للتيار الإسلامي اذا صح التعبير.

أقول إنه لن تكون هناك أزمة ثقة أيديولوجية وأزمة ثقة فكرية، نحن في حركة الجهاد الإسلامي وحركة حماس نتيجة معرفة بموقف الإخوة هناك كانوا قد تجاوزوا المسألة الأيديولوجية، تجاوزنا المسألة الفكرية ورغم اعتدال كل إنسان بفكره ووجهة نظره إلا أنه لم نجعل من هذا الموضوع سببا لأي خلاف حقيقي، المسألة تأخذ طابعا سياسيا أكثر من أن تأخذ طابع أيديولوجيا أو طابعا فكريا.

أزمة الثقة قائمة على أساس أن كل طرف أو فصيل يشك في برنامج الفصيل الآخر في النوايا السياسية للفصيل الآخر، سواء كان هذا الشك له أساس موضوعي أو في محله أو أحيانا لا يكون له أساس موضوعي وليس في محله نحن نتلقى المعلومات والأخبار عن بعضنا البعض من الصحف ومن داخل الشائعات، ولا نجتمع ولا نسمع لوجهة بعضنا البعض، يعني عندما لا ألتقي بسياسي من الفصائل كي أسمع وجهة نظره هل سيشارك في انتخابات الحكم الذاتي أو لن يشارك، لا أنا أسمع ماذا تقول تلك الجريدة أو تلك المجلة أو تلك الإشاعة. إذا هناك أزمة ثقة لها طابع سياسي وليس ايديولوجيا استمر بين الفصائل العشرة بحيث أن كل طرف يعتمد على وسائل أخرى لتحصيل معلوماته وعن الطرف الآخر يعني هناك شكوك متبادلة، هذا الطرف يشك أن الآخر يريد أن يستمر في العملية النضالية ونفس الطرف يلقي الشكوك على الطرف الآخر، فأزمة الثقة موجودة دفعت كثير من الأطراف أن تعمل منفردة وبدون تنسيق مع بعضها البعض، اذا أزمة الثقة مسألة أيضا في غاية الأهمية لفهم الشلل الذي وصلت إليه المعارضة كمجموع لإنشاء المشروع الوطني الواحد، نحن بالتأكيد لا أحد ينكر أن نعيش عصر الانهيارات والهزيمة والانحدار.

نحن كأمة وحضارة في حالة هزيمة، ونهاية مراحل الهزيمة هي التي تعيشها الشعوب والحضارات حين يغلب دائما الخاص على العام. الإنسان يريد أن يفر بجلده أو يريد أن يحفظ الأمر الحاصل أيضا بأن ما زال كل طرف يفكر في نفسه، وهذا ما ينطبق على القضية وما هو مصلحته ومصلحة القضية وما هي مصلحته ومصلحة التحالف وما هي مصلحته ومصلحة العشرة أيضا. وبالتالي هذا الإحساس المزيف الذي يفرض نفسه والذي يغلف الخاص على العام أيضا مشكلة نحن نعاني منها للأسف ويجب أن تطرح بلا خجل كي تناقش. بدون شك ليست كل الأسباب أسبابا ذاتية، نحن نعاني من ظروف دولية وتحديات دولية قاهرة فنحن نرى أن عدونا الاساسي الولايات المتحدة الأمريكية تتفرد على قمة الدنيا وتتحكم ولو إلى حين بمقدرات العالم وحققت الانتصار في الحرب الباردة على مستوى الصراع مع القطب الآخر وحققت الانتصار على مستوى المنطقة وعلى مستوى الوطن العربي في حرب الخليج الثانية وقبل أن آتي مباشرة هنا سمعت تصريحا لجورج بوش يسأله لماذا هو لم يسقط صدام حسين، فأجاب أنا كنت على حق تماما لو أنني أسقطت صدام حسين في ذلك اليوم لما كانت هناك معاهدة السلام الأردنية ـ الإسرائيلية ولا شاهدتم ياسر عرفات يصافح رابين في واشنطن ولا رأيتم ياسر عرفات اليوم في غزة، فهم تفردوا على قمة الدنيا وقرارتنا وثرواتنا كما حالنا مرتهن لإرادتهم، هذا التفرد بدون شك الولايات المتحدة بشكل خاص ومجموع القوى الغربية الاستعمارية المعادية للأمة تعمل بلا كلل لحماية الحليف الصهيوني، وتعمل بلا كلل لتمرير مشروع سلامها الصهيوني وفرضه على المنطقة وصناعة شرق أوسط جديد يراد من خلاله إذابة الصراع التاريخي وتمييع الصراع التاريخي وتبديل صفقة الفرقاء في هذا الصراع بدل من أن يكون صراعهم على أساس أيديولوجي يتحول إلى شركاء في البيع والشراء تحت مظلة الشركات المتعددة الجنسية وآليات الرأس مالية المعاصرة. هم يريدون مشروعهم تغيير طبيعة المنطقة؛ لأنه ليس بالإمكان السيطرة على هذه المنطقة إلا إذا أعيد تكوينها أو أعيد تفتيتها

وإعادة البناء من جديد الحركة الصهيونية وهي تدرك بأن هذه المنطقة يجب أن تعود حتى إلى مكـوناتها الحضارية الأولى إلى ما قبل ظهور الإسلام من ناحـية الطوائف والمذاهب والقوميات هذه كلها التي صـهرها الإسلام عندما جاء. يجب العودة إلى ما قبل صهرها بحيث تنطلق وتكون هنـاك الكيان الصهيوني الأقلية الكبرى في هذه المنـطقة الـكبرى فـي ظل شرق أوسـط جديـد لا تقوم الـعلاقات فـيه علـى أساس أيديولوجـي وإنما تقوم العلاقـات فيه على أساس البـيع والشراء وعندمـا تكون هذه طبيعة العلاقـات نحن نعرف من الذي يسيطر ومن الذي يـهمين، خاصة إذا أدركنا أن ٥ ملايين يهودي في فلسطين ناتجهم القومي السنوي أكثر من الناتج القومي لكل الدول العربيـة المجاورة شاملا مصر، والأردن وسوريا، والعراق أيـضا في الظروف الحالية شرق أوسط تكون فيه إسرائيل قادرة عـلى تطوير هذا الناتج القومي من سنة ١٩٧٧ إلى سنة ١٩٩٢ خلال ١٥ سنة استطاعت إسـرائيل أن تطور ناتجها القومي٧ أضعاف تقريبا. في حين لم يستطيـع أي طرف عربي أن يطور ناتجه القومي إلى أكثر من الضعف وطبعا العراق نزل إلى أقل من النـصف بسبب الظروف التي تعرفونها. فهكذا شرق أوسـط نفهم بوضوح لمن تكون فـيه السيطرة ومن الذي سـيكون القوة المركزية الأساسية. أضيـف نقطة أخيرة في مسألة أزمة المعارضة التـي نعيشها. نحن نلاحظ أن لأول مرة في تاريـخ الثورة الفلسطينيـة والمعارضة الفلسطينـية أنها تمضي بلا أي غطاء دولي بلا أي غطاء إقليمي. على سـبيل المثال نحن نعرف كيف الشعب اللبناني استطـاع أن يسقط اتفاق ١٧ أيار بسبب وجود غطاء دولي وبـسبب التحالف الوطني مع سوريا ومع القوى الـفلسطينية على الساحة اللبنانيـة بالتأكيد أنا لا أجعل هذا الاعتـبار هو اعتـبار أساسي لأن المـعارضة تمضي بـلا غطاء وبالـتالي هنـا سبب تراجعها أو سبب عدم جدية وجود مشروع وطني، ولكن هذا أيضا يجب أن نأخذه بعين الاعتبـار وإن كنت أعود بالتأكيد أنه عـندما نملك إرادتنا وقرارنا ويـكون بناؤنا سليما ومشروعـنا في ذاته سليما فإن هذه الأسباب الموضوعـية والأسباب الخارجية ستبقى تحت سيطرتنا وستبقى تحت تحكـمنا ولكن بدون وجود النهضة الذاتية والبناء

الذاتي القومي ستبقى هذه العناصر مطروحة وستبقى هذه العناصر مؤثرة على وضعنا. ليس معنى أزمة المعارضة الفلسطينية أو أزمة التحالف الفلسطيني أن نحن علينا أن ننزوي لا ونحن هزمنا لا. طالما أن المعركة مستمرة وطالما نحن نعلن ونؤكد بالقول وبالفعل استمرار أعمالنا على الأرض فإنا نعتقد أننا لن نستنفد أغراضنا. صحيح أن الموج عات وصحيح أمام الموج العالي العاتي الذي هو تعبير عن التفرد الأمريكي والتفرد الغربي وتداعيات العرب فلا يبدو جهدنا ملحوظا مثل الذي يجدد ويحاول جهده لكي يصل إلى شاطىء الأمان أو يد الأمان ولكن يجد نفسه في النهاية تضربه الأمواج رغم ما يبذله من جهد ولكن في تقديري أن هذه الأمواج لن تبقى قوية باستمرار لابد أن تأتي لحظة أن تضعف خاصة إذا نحن واصلنا الثبات وواصلنا على جهدنا بل إنه سيكون سببا من أسباب تراجع هذا التداعيات وهذه القوى قوى ثباتنا على موقفنا وإصرارنا على استمرار المعركة وعدم الهزيمة.

إن الطرف المعادي لنا أو الخصم الآخر أو طريق أوسلو مدعوم على مدار الساعة دوليا، وإقليميا، وعربيا فيما نحن نعاني من كل ما ذكرت ولكن هذا لا يعني على الإطلاق بأن مشروعنا مهزوم أو مشروعنا يتراجع إذا كان استطاع شاب واحد أن يوقف العالم قبل أيام على قدميه وأن يجعل أحد اسباب زيارة كلينتون اليوم يقول أنه يأتي إلى المنطقة ليتعاطف مع الشعب اليهودي ومع دولة إسرائيل ضد العملية الاستشهادية الأخيرة إذا استطاع شاب واحد أن يحدث كل هذا الآثر الهائل فمعنى ذلك أننا نستطيع أن نهزم المشروع الآخر إذا استطعنا أن نضرب هذا المشروع ولو بنسبة ١٪ ولو بنسبة ٢٪ أو ٥٪ وهذا يعني استعدادنا لنضرب المشروع في يوم ما بنسبة أكبر بل بنسبة ١٠٠٪ إذا استطعنا بجهد محدود وبسيطرة أن نفعل ما فعله هذا الشاب في قلب تل أبيب هذا يعني أن الأمة تخزن القدرة على أن تهزم العدو عندما تحرك جزء بسيط جدا جدا من طاقة هذه الأمة فيحدث هذا الأثر الهائل فكيف لو تحركت كل الأمة؟.

إن الانتفاضة المستمرة وضرب العدو في فلسطين هنا وهناك يؤكد أن المشروع المناهض لتسوية القضية الفلسطينية هو مشروع حي ولكنه وفي وسط هذه اللجة يبحث عن برنامج قوي متجدد يضم جميع الفعاليات الحية الموجودة ولكنها متفرقة ولكنها غير متماسكة كيف نوجد هذا البرنامج الذي يضم كل هذه الطاقات فلا يستغل فقط جزءا بسيطا من طاقتنا بل نستغل أكبر قدر ممكن من هذه الطاقة. حتى الآن في معركتنا مع العدو وفي معركة الأمة مع العدو لم تستغل إلا جزءا محدودا جدا في معركة المواجهة والتحدي الأمامي كيف نصنع مشروعنا الذي يمكن أن يستغل أكبر قدر ممكن من هذه الطاقات حتى لا أطيل، انهي كلامي بالتأكيد على ذلك.



الجــزء الرابــع

مقالات ووجدانيات (*)

(*) التـزمنا التسلـسل الزمـنى في نـشر هذه المـقالات والـوجدانيـات رغم أنه كـان المفتـرض- نظريًـا- وضع الوجدانيات معًا وفي تتابع، إلا أن التسلسل الزمنى استلزم ذلك (معد الأعمال)

(١)

فاتورة ايجار
لمدة ٢٠٠٠ عام

في الوقت الذي تردد فيه إسرائيل على مسامع العالم هيامها بالسلام يؤكد سلوكها العملى تحديها للرأى العام العالمى والمحلى بإصرارها على إقامة المستوطنات في الضفة الغربية وقطاع غزة والاستمرار في تهويد مدينة القدس التي تشكل جزءا من تاريخ وعقيدة المسلمين في كل مكان..

والمتتبع لتصريحات الزعماء الاسرائيليين يعجب من سهولة توزيعهم للتصريحات والبيانات وبناء المستوطنات دون أي اهتمام برفض العالم أو سخطه وكأنهم يقومون بواجب دينى لا يحق لأحد غير [إيلوهيم: الله] أن يسألهم عنه بل هم كذلك فعلا وكأن التوراة التي بين أيديهم أصبحت مستندات تمليك أو أوراق طابو أبدية، وعلى العرب بالإضافة لخروجهم من هذه الأرض أن يدفعوا فاتورة إيجار لمدة ألفي [٢٠٠٠] عام.. وبما كان على الفلسطينيين وأهل الجنوب اللبنانى دفع جزء من فاتورة الحساب هذه الأيام!

والذي يفهم اليهود.. لا يستغرب أي شيء من هذا ففى نظرهم أن كل شيء خارج الأقاليم الثلاثة المشهورة [إيلوهيم ـ أرض إسرائيل اليهود] إما عقبة يجب إزالتها أو مطية يجب استغلالها، فالإنجليز مطايا والأمريكيون مطايا والروس كذلك أما العرب فينقسمون حسب وجهة النظر هذه إلي عقبات ومطايا.

واليهود لا يعرفون أو لا يعلنون لهم حدودا محددة لأن التوراة تقول لهم في سفر يشوع ١:٤ [وعد الله شعبه المختار بإعطائه كل موضع تدوسه يداه] كما تقول لهم في سفر التكوين [١٥:١٨ ـ ٢٠].

(*) المصدر: مجلة المختار الإسلامي ـ العدد الأول السنة الأولى ـ يوليو ١٩٧٩.

«منح الله قيمة شـعبه المختار كل الأرض الواقعة بين النيـل والفرات» ولهذا نجد حاييم وايزمان يقول في مذكراته ص٤٧٤ : [إننى أعلم بأن الله قد وعد أبناء إسرائيل بفلسطين ولكنى لا أعرف الحدود التي رسمها]!

وهكذا يتناسى الـيهود تحت سيطرة خيالات وأوهام القوة أنهـم كعبرانيين جاءوا إلي فلسطين كقبيـلة غازية طردت الكنعانيين الذين أقاموا فيهـا حضارة قبلهم بألف ومائتى عام.

وعندما سأل الجنرال ديجول بن غوريون في يونيو ١٩٦٠.

ـ ما هي أحلامك بشأن الحدود الحقيقية لإسـرائيل؟ أخبرنى.. فلن أنقل حديثك لأحد. [لاحظ أننا كنا وقتها نتكلم عن الكماشة أو الكسارة والبندقة وقرب انتهاء إسرائيـل تحت زعامة الأنظـمة الاشتراكيـة والثورية!] لم يـجب وقتها بـن غوريون ولكنه بعد سبع سنين وفي ديسمبر ١٩٦٧ أرسل يقول لديجول:

[لو سألتنى هذا السؤال لخمس وعشرين سنـة خلت لأجبتك أن نهر الليطانى هو حدودنا الشمالية وشرق الأردن حدودنا في الشرق]!

وهكذا فالمستوطـنات ليست ألا ظاهرة من ظواهر العقـل اليهودى لا يحق لأحد غير [إيلوهـيم] أن يسألهم عنها.. فـهل يمكن قبل ذلك أن تسـأل هؤلاء الذين رفض وفدهـم دخول فندق يـحمل اسم فـلسطين بـالاسكندريـة أثناء مفـاوضات الإدارة الذاتيـة.. هل يمكن أن نـسألهم أن يتـكرموا حبـا في عيون الســلام أن ينزلوا الـلافتة المكتوبة على واجهة الكنيست [أرضك يا إسرائيل من النيل إلي الفرات].

أراهن...

(٢)
قصيدة: كانوا خمسة

كانوا خمسة..
في يد كل منهم منجل..
في يسرى كل منهم قفة..
كانوا ياأصحابي خمسة..
وقفوا في صف مكسور..
في أعينهم نامت مدن وبحور..
يهذا الصف المكسور..
خذ حذرك..
مولانا هلت طلعته..
ياصحبي حضر المأمور..
مولانا كفا في كف ضرب..
في العين لهب..
في الصدر غضب..
مولانا كالعادة صاح:
عرب.. فوضى عرب..

* * *

كانوا خمسة..
في يمنى كل منهم منجل..
في يسرى كل منهم قفة..

(*)المصدر: المختار الإسلامي - العدد ١ - السنة الأولى - يوليو ١٩٧٩م

جديربالذكر أن الشهيد الدكتور فتحي الشقاقي قد كتب العديد من الأشعار والقصائد لكننا لم نتمكن من الحصول عليها في هذه الطبعة من آلأعمال الكاملة ونرجو أن نوفق في الطبعات القادمة في الحصول عليها إن شاء الله

(معد الأعمال)

تركوا (الدرق) الأخضر(**)..
قالوا: يوماً يومين ولا أكثر..
ياعمال بلادي..
هرمت غابات الزعتر..
وانسكب الزيت وغصن الزيتون تكسر..
ياقلب الأرض تحجر..
لا تزهر أبداً لا تزهر..
إلا غضباً.. إلا بركاناً يتفجر..

* * *

كانوا خمسة..
وجه واحد..وجه مسيح..
مصلوب ياسادة..
أي والله مصلوب وجريح..
والوجه السادس وجه قبيح..
وجه يهودا القادم من خلف البحر..
المانع في علب الليل قدوم الفجر..
القاتل والمقتال..
يبحث عن عمال..
يتقدم صوب الخمسة..
هيا ياصحبي..
استيقظ في قلب الخمسة حزن دهور..
في أعينهم تلمح قطرات من نور..
في جوفهم تمتد جذور وجذور..

(**)محطة الأتوبيسات الرئيسية خارج أحد أبواب بلدة القدس القديمة حيث ينطلق العمال العرب إلي أعمالهم في عمق الأراضي المحتلة!

يارعشة في صدري..
يابركاناً أخذ يثور..
لا.. لا ياهذا المأمور..
يطعنهم..

والسكين في قاع القلب يغور..
ياجرحٍ تفتح ياجرحُ..
ياجرح تفتح ياجرحِ..
ياأهلي هاتوا الملح..
حتى يبقى حياً هذا الجرح..
حتى يبزغ من ظلم الليل الصبح..
لن أغفر لك..
لن أغفر لك..
تلعنني أمي إن كنت غفرت..
تلفظني القدس إن كنت نسيت..
تلفظني الفاء..
تلفظني اللام..
تلفظني السين..
تلفظني الطاء..
تلفظني الياء..
تلفظني النون..
تلفظني كل حروفك يافلسطين..
تلفظني كل حروفك ياوطني المغبون..
إن كنت غفرت..
أو كنت نسيت..
(فتحي...)

(٣)
وداعـــــــاً
..باقر الصدر..(*)

ولد الإمام محمد باقر الصدر في ذى القـعدة ١٣٥٣هـ لأسرة عريقة في التاريخ الإسلامي وكان والـده نابغة عصره في الـفقه والأصول.. هاجر الإمام إلـي النجف الأشرف عام ١٣٦٥هـ وعكف على دراسة الفـقه والأصول ومختلف علوم الإسلام واستطاع أن يصل إلي درجة الاجتهاد المطلق وهو في أواخر العقد الثانى من عمره، برز كمنار شامخ في الفكر الإسلامي فكانـت بحوثه ومؤلفاته في مختلف مجالات الفـقه والأصول والـفلسـفة والاقتـصاد والاجتـماع والتـاريخ والقـانون والأنظـمة المصرفية، كمـا قدم دراسة نقدية للماركسـية تعتبر من أهم الدراسات الـنقدية التي واجهته هذه النظرية.

ولم يكن الإمـام مجرد مفت بل كـان قائدا ومعلمـا ناضل من أجل توعـية الأمة وتثـقيـف شبابـها وخـلق تيـارا فكـريا إسـلاميا هـائلا امـتد إلي كـل أرجاء الـوطن الإسلامي.. واستمر في نضاله حتى سقط شهيـدا على يد الطغمة المستبدة في بغداد من أشهر مؤلفاته العديدة، (اقتصادنا، فلسـفتنا، غاية الفكر في علم الأصول، البنك اللاربوى في الإسلام، الأسس المنطقية للاستقراء، الفتاوى الواضحة..)

ما أصـعب الكتـابة عنك.. مـا أصعب أن يكـتب البـشر الفانـون من أمثالـى عن الشـهداء الخالديـن.. ما أصعب أن أكـتب عنك يـاسيدي، لا أدرى أأرثيـك.. أرثى لنفسي.. أم من أرثى هؤلاء القتلة الطغـاة من ثوريي هذا الزمان وخصيانه في قصور بغداد.

في يوم ما، دلنى تعبى عليك..وجدت كتابيـك العظيمين «اقتصادنا» «فلسفتنا».. كان تعب جيل بأكمله.. التهمت.. امتلأت ثـقة.. طال ظلك.. طالت قامتي.. تعانقنا كما التلميذ في حضرة أستاذ عظيـم.. والآن وفي هذه الساعة المتأخرة من هذا الليل

(*) المصدر: مجلة المختار الإسلامي العدد(١٢) ـ السنة الأولى ـ يونيو ١٩٨٠.

يجيء نعيك.. العالم يغط في النوم.. بينما أنت تترجل عبر الأفق ياسيدى فارسا جميلا وكوكبا تزفه النجوم..

الأرض ترتعش الآن.. ينهمر الرصاص.. وهذا الأزرق يشتعل.. ودمك الممتد يضيء.. يصبح محراثا.. منشورا سريا.. قنبلة ونارا.

الآن تذهب ياسيدى ليشتعل الحرف بعدك أكثر.. ويتضح الشيء أكثر.. تذهب الآن.. للأرض تعبر.. للبحر تصعد.. تكسر القيد وللحلم تمضى تدخل في الأزقة والعروق.. تمتد في جروحي.. امتد في جرحك.. تشتعل الشمس.. تبدأ.. نتوحد الآن.. تقترب جمهرة الفقراء.. ونصعد للقدس.. للقمح والماء.. نصعد للمستحيل.

تذهب الآن.. لست وحدك.. تزفك الأناشيد.. البراكين.. السيدات.. صهيل الخيول.. تزفك عيون الأطفال واليتامى.. وفي مهرجان استشهادك يجيء الشهداء ويمشى المستضعفون لنمضي معا، آه ما أجمل هذا الموت.. ما أبدع هذا الخيار الموت.. آه ما أصدقه تعبيرا تراجيديا تعلن به انتماءك للمستضعفين وللحياة ما أثقل على القلب سماع نعيك ولكننا لن نبكي.. لن نبكى بعد اليوم سوى من فرح وعندما يلوح مع الأفق الرصاص تبشر بفجر جديد.. وها هو الفجر قادم.. يزغرد فوق زخات الرصاص التي أخترقت الجسد الطاهر.. يزغرد ويضيء.

أما أنتم.. أيها الجالسون فوق رقاب أمة الإسلام في بغداد أيها القتلة والحمقى وبقايا زمان ولى.

أيها المسكونون بالعار.. أيها المدججون بالسلاح.. الساعات القادمة لي.. أنا المدجج بالغضب والانفجار.. المسكون بجدل المرحلة.. بالفرح والشهادة..

(٤)

إرادة الله بين عملية تاباس وقصف المفاعل العراقي

ما حدث الشهر الماضي من قصف سلاح الجو الإسرائيلي للمفاعل النووي العراقي أفزع العرب والمسلمين.. آلمهم وملأهم بمزيج من مشاعر الغضب والأسى والإحباط وأحياناً القرف الشديد! ولكنهم في المساء التفوا كالعادة حول مهرجان القهوة العربي وشربوا الفنجان الواحد بعد الألف في محاولة لتهدئة الأعصاب المتوترة، خاصة بعد أن تأكدوا بواسطة طبيب متخصص أن الضرر الذي سيعود عليهم من جراء تجرع القهوة أهون بكثير من الضرر الذي سيلحقهم نتيجة أي رد فعل آخر على العملية!!

لكننا في (المختار الإسلامي) أضربنا عن شرب القهوة ليلتها كي نحافظ على توترنا ونتأمل في ظله.. كان هناك أكثر من مستوى يستدعي التحليل والكشف ولكن أهمها على الإطلاق والذي لم ولن تشير إليه صحف المرتزقة والطغاة.. صحف التغييب والغياب كأن هذه المفارقة العجيبة والمنطقية في نفس الوقت بين ماحدث في صحراء تاباس الإيرانية (ابريل ١٩٨٠) عندما قامت أمريكا بغارتها الفاشلة ضد ايران المسلمة وبين الغارة الإسرائيلية الناجحة على المفاعل الذري العراقي في التحويطة بالقرب من بغداد.

العملية الأولى كانت تملك كل أسباب النجاح المادية ولكنها فشلت تماماً والعملية الثانية كانت تمتلك من أسباب الفشل الكثير ولكنها نجحت تماماً!!

العملية الأولى قامت بها أكبر قوة شيطانية مرت على طول التاريخ البشري.. انطلقت طائراتها التي تتعرض لاختبارات وتجارب وفحوصات عديدة قبل التوجه إلى الميدان المحدد.. انطلقت تحمل أجهزة دقيقة معقدة لا تملكها دولة في العالم في ظل مظلة من الأقمار الصناعية تغطي الكرة الأرضية وضمن عملية تمويه غير عادية،

(*) المصدر: الطليعة الإسلامية ـ ١٦ يوليو ١٩٨١ العدد ـ ٢٦ ـ السنة الثالثة ـ ١٥ رمضان ١٤٠١هـ.

اشتركت فيها بالإضافة إلى أمريكا كل من مصر وإسرائيل فقد توجهت أسراب من الطائرات الأمريكية من منطقة الخليج إلى باب المندب في محاولة لشد انتباه المراقبة السوفيتية بعيداً عن الميدان المقصود كذلك تحركت القوات البحرية لكل من إسرائيل ومصر على طول المسافة بين بيروت ومرسى مطروح.. كما تحركت طائرات كلا البلدين في حركة مستمرة حول المحور الممتد من قبرص إلى الحدود الليبية وذلك لتحقيق نفس الغرض.. التشويش على الأجهزة السوفيتية التي قد تنتبه للعملية وعند ساعة الصفر كانت الطائرات الأمريكية تنطلق من قاعدة عسكرية في دولة صديقة أو تمر على طول رحلتها فوق أراضي دول صديقة (!!) ثم تحط في منطقة إيرانية تعرفها جيداً.. كل هذا في دولة جيشها غائب زعموا أن الفوضى تملؤها.. لا توجد فيها سلطة محددة أو حكومة في حين ينتشر عملاء أمريكا كالجراد في كل مكان.

ورغم كل هذه الأسباب والاحتياطات إلا أن ظروفاً غامضة جداً لم يجد لها الأمريكيون تفسيراً قادهم إلى فشل ذريع، وفي المقابل كانت العملية الإسرائيلية تحمل من أسباب الفشل النسبي وغير النسبي.. الكثير الكثير، فالقوة الإسرائيلية تبقى دوماً جزءاً محدوداً من القوة الأمريكية وكونها عدواناً مستمراً على الأمة العربية يعني على الأقل شبه اليقظة المستمرة تجاه تحركاتها.. خاصة أن صغر مساحة فلسطين المحتلة يجعل المجال الجوي الإسرائيلي مكشوفاً أمام أجهزة رصد عادية ناهيك أن عيناً واحدة لقائد إحدى طائرات الأواكس الأسطورية الساحرة (!!) كافية لرصد كل الأجواء فوق فلسطين المحتلة فما بالك والطائرات الإسرائيلية تخترق حتى الأجواء السعودية نفسها، تطير فوقها مئات الأميال بل وتتمهل ساخرة لتتزود بالوقود هذا بعد أن اخترقت أجواء العاهل الأردني.

أما في العراق نفسها فرغم حالة الاستنفار الشاملة والحرب الحقيقية التي تسود البلاد منذ ثمانية أشهر أي ليس من المفروض أن تكون أجهزة الرصد والدفاع في حالة استعداد قصوى بشكل عام وحول أهم أهدافه الحيوية (المفاعل) بشكل

خاص.. رغم ذلك إلا أن العجز العراقي كان متناهياً إلى حد الريبة ولم يُسمع أثناء الغارة صوت طلقة واحدة في حين يؤكد المراقبون أن اهتماماً حقيقياً بهذا الهدف الحيوي كان يكفي لإسقاط نصف الطائرات الإسرائيلية المغيرة وهروب الباقي وإنقاذ المفاعل!

وكما كان الفشل الأمريكي في تاباس أسطورياً فقد كان النجاح الإسرائيلي أسطورياً كذلك، هذا في حين كان متوقعاً ومعروفاً أن الاستعداد الايراني في صحراء تاباس معدوم أو بالكاد في أدنى صوره بينما كان متوقعاً أن يكون الاستعداد العراقي في أعلى صورة.

لقد كانت معركة تاباس شديدة الشبه بمعركة الخندق في صدر الإسلام أما عملية قصف المفاعل فلا معنى لها سوى أن تكون صورة متكررة للهزائم العربية التي تتوالى منذ بداية الصليبية العاشرة مع نكبة ١٩٤٨ ... إنها شديدة الشبه بالذي حدث صبيحة اليوم الخامس من يونيو (حزيران) ١٩٦٧ ... كم يبدو هذا منطقياً وطبيعياً طالما أن الأوضاع القائمة لازالت كما كانت عليه.

هذا ماحدث في أبريل ٨٠ ويونيو ٨١ ولا يهمنا كثيراً بعد ذلك أن تكون العملية قد تمت لأسباب انتخابية أو غير انتخابية.. فبيجين استمرار للرؤية اليهودية.. التاريخية والتوراتية.

يحمل التوراة في يد والمسدس في الأخرى.. ولا تعني هذه التوراة بالنسبة له أكثر من كونها مستندات تمليك مقدسة (!) تخول له أن يحتل أي أرض وطأتها أقدام أجداده (وعد الله شعبه المختار بإعطائه كل موضع تدوسه يداه). سفر يشوع ١:٤، (منح الله قيمة شعبه المختار كل الأرض الواقعة بين النيل والفرات). سفر التكوين ١٥: ١٨-٢٠.

بيجين كما يجب أن يفهم كل دعاة الاستسلام وجالبي العار.. بيجين في النهاية استمرار للحقبة الإسرائيلية ولمرحلة قال تعالى: ﴿...رددنا لكم الكرة عليهم

وأمددناكـم بأموال وبنين وجـعلناكم أكثـر نفيراً﴾. الإسراء ٦ [بـيجين يمثل الـعلو الإسرائيلي والإفساد الإسرائيلي فـي أبشع وأشرس صورة، أما صدام حسين وغيره من الطغاة الجالسـين فوق رقاب أمة الإسلام المقهورة فإنهم يمثـلون إنسان الحضارة المنهارة.. المتحلل الذي تنتهي بأمثاله عادة دورات التاريخ..

وما بـين علو بيـجين وإفساده.. وتحـلل صدام وانهـياره يتقـدم الإمام الخميـني.. مسلم يـتكامل ويبدأ دورة جـديدة في تاريخنـا ويفتتح مرحـلة قال تعالى﴿لـيسوءوا وجوهكم وليدخلوا المسجد كما دخلوه أول مرة﴾ الإسراء:٧

ومع بدايات صعودنا يأخذ البعدالغـيبي دوماً دوراً واضحاً وقوياً فقد تجسد هذا البعد في حـراء منذ أربعة عشر قرناً في لـقاء لم تشهد الأرض له مثيـلاً بين جبريل عليه الـسلام ومحمد ﷺ لتنطـلق بعده شعلة الإسـلام أو النار التي حملهـا البشر ـ مسلمو الأمـس الأفذاذ فوق صهوات خيولهم لـيضيئوا ليل العـالم، وما حدث في تاباس جـزء من أطروحة الـغيب التـي يحاول شياطـين المادة أن ينزعـوها من حيـاتنا ووجداننـا ولكنها تـبرز كأقوى مـايكون، فلا تفـتحوا عيونـكم بمعزل عـن إرادة الله وغيب الله إنه روح رسالتنا الإلهية والواقعـية وكونوا على يقين قال تعالى:﴿إن الله يدافع عن الذين آمنوا. إن الله لا يحب كل خوان كفور﴾ الحج٣٨.

﴿ولينـصرن الله من ينـصره إن الله لقوي عـزيز. الذين إن مكنـاهم في الأرض أقاموا الصلاة وآتوا الـزكاة وأمروا بالمعروف ونهوا عن المنكر ولـله عاقبة الأمور﴾. الحج (٤٠ ـ ٤١)

صدق الله العظيم

(٥)

في ذكرى استشهاد خالد الإسلامبولي

وقوفًا أيها الفقراء.. أيها المستضعفون وقوفاً.. إن راياتنا تعلو.. سهم الثورة يذهب في قلب الموت.. الفارس الذي حكموا عليه بالخلود يجيء الليلة كما جاء في ظهيرة السادس من تشرين (أكتوبر).. يفتح عن أفئدة الناس ينزع منها العجز.. الخوف.. يخرج من بين الأنقاض في حضنية الشمس.

كان الادعاء المجرم يفتح شدقيه إلى أقصاها يطلب رأسك معاً..

كان القضاء الأثيم يرتدي بزته العسكرية ذات الطراز الأمريكي ويوقع على صك لعنته الرموز الأبدية وكنت ترحل في الذاكرة.. فقد أسقطت واحداً من أسوأ الزمرة على طول تاريخنا.. بل كنت تسقط مرحلة بأكملها.. تكشف كل المهادنين والتحريفيين وتعري مقولات هؤلاء الذين ملأوا حياتنا ضجيجاً عن الدين أفيون الشعوب.

عبثاً يستريح المحارب ياخالد.. أيها الولد الطيب والأمير الجميل.. أيها القادم مع النيل من أعلى الصعيد.. من ساحات الأزهر.. من جوع الصبية حول القصر.. من أنين الثواني.. أيها القادم من ليل التتار الطويل.. من مصانع الحديد والصلب التي أغلقوها.. من زمان النفط والفقر ومن بلاد ضيعها الأمراء.

أين كنت قبل السادس من تشرين (اكتوبر).. وهل أنت الذي كان يقاسمني غرفتي ولا أراه؟؟

يشرب نصف الحليب ونصف القهوة.. أبوح بسري إليه ولا أراه

أأنت الذي كان يلبس يوماً قميصي وألبس يوماً قميصه ولا أراه

(*) المصدر: الطليعة الإسلامية عدد ٤ - السنة الأولى - إبريل ١٩٨٣م.

أأنت الواجب الذي تحرر من أسر الإمكان وكنت أحدث عنه الأحبة والناس فيمرون ثقالاً وأبقى لدمعي وصلواتي.. أنظرك من نافذتي بينما أنت في دمي تسري.

وهاقد جئت.. آخيت بين البندقية والتاريخ فاهتزت على أزيز طلقاتك.. الأندلس اشرأبت بالورد تنظر هذا الفارس المستحيل اهتزت كل مدن النفط.. اشتهت أن تبصق نفطها سخطاً من وجوه أمرائها ومحتليها وتعود ثانية ثغوراً.

خالد.. انتشر في الأفق.. أنا القدس افتح الليلة أبوابي إليك.. فأت وخذني إلى راحتيك أنا القدس فامتشق دمي يامحارب كل العصور..

سئمت وجوه الكالحين.. باعة التاريخ.. المهربين.. القردة المقامرين.. الزعماء الذين تنكسف الشمس لمرآهم.. سئمت القول الفج.. ثرثرة المثقفين والحروف المداهنة.. سئمت كل الشعراء الجبناء واشتقت إليك..

وأخيراً صمت العالم.. كل العام ودوى الصدى من طهران.. انتشر الجياع يهتفون باسمك الممنوع في كل الأرض إلا في طهران يصرخون:

خالد الإسلامبولي.. لك المجد.. لأعدائك الموت.. ولكل المحايدين والتحريفيين العار والمذلة.

(٦)

جانب الكـف..
أم جانـــب المخرز

حدثنا الرواة أن جنود النظام المصري في منتـصف الستينات كانوا يتلقون الأوامر بالتوجه فوراً ومحـاصرة أي مدرسة أو مكتبة أو منزل يتم الإبـلاغ عن وجود نسخة من كتـاب (معالم في الـطريق) فيه وكانـت صحافة النـظام لا تتورع بعـد ذلك عن كتابة نـصوص مختلفـة تنسبها إلى الـكتاب.. وفي ظل حمـلة إعلامية شرسـة تقهر الأرواح وتشل عقل الأغـلبية عن التفكيـر.. كان الناس مضطرين للـتصديق وقراءة نصوص أخـرى أو كتاب آخر عـلى أنه (معالـم في الطريق).. ولـم يتصور الـطغاة وقتها أنه سيأتي وقت يصبح فيه (معالم فـي الطريق) أكثر الكتب العربية انتشاراً في الوطـن الإسلامي وأنه سـيكون نواة لـنظرية إسـلامية ثوريـة يتجمـع حولها مـئات الألوف من الشباب المسلم اليوم.

تذكرت كل هذا وأنا أشاهد هذ الحرب غير المقدسة ضد (الطليعة الإسلامية).. ليت الأمر وقف عند حملات التشهـير والأكاذيب والافتراء , إذ يأتي البعض إلا أن يستـعير مما سبـق أسوأ الممارسات فـيبدأ حمـلات المطاردة والمحاصرة والاخـتطاف والسرقة.. أي والله اختطاف إعداد (الطليعة الإسلامية) وسرقتها وذلك في محاولة يائسة لحجب كلـمة الحق عن الناس ومنع بذور الثورة أن تجد مكـانها في التربة وأن تضرب جذورها عميقاً في الأرض.

وحتى الآن لا وجه للغرابة ولكن هنـاك ألف وجه للغرابة والألم حين نعرف أن هذا البعض ينتسب للإسلام بل وجزء مـن الحركة الإسلامية، والألم هنا ليس مرده محاربـة .الطليعـة الإسلامية، فنـحن نعرف أنـها سنة اللـه وأنها إحدى اشكـاليات الأفكار التـغيرية العظـيمة ولكننا نـرثي لهؤلاء الأبناء الأبـرياء الذي ينفذون المـهمة بحمـاس دون أن ينتاب الكثـيرون منهم ـ وحـتى الآن ـ أي إحساس بالذنـب وغير

(*) المصدر: الطليعة الإسلامية - العدد ٩ - السنة الأولى - ذو القعدة - ١٤٠٣هـ سبتمبر ١٩٨٣م

مدركين أنهم يحاربون أكثر الرؤى الإسلامية اقتراباً من الله وأكثر المحاولات الإسلامية جدية نحو صياغة نظرية إسلامية ثورية مؤهلة لطرح برنامج عمل إسلامي متكامل في مواجهة المرحلة الصعبة ورموزها: الغرب الصليبي.. العلو الإسرائيلي.. الجاهلية العربية.

«الطليعة الإسلامية» أيها الأبناء الطيبون هي الكف الذي يواجه المخرز.. الكف المرفوعة كالواجب اليومي ضد المرحلة.. فلماذا اخترتم جانب المخرز؟ ولماذا تقفون مع صعوبة المرحلة؟! وهل حقاً أنكم اخترتم.. هل قرأتم كلماتها.. هل تأملتموها.. ثم اخترتم جانب المخرز والمرحلة!! نحن في أشد الريبة.. الذي يقترب من كلمات «الطليعة الإسلامية» بدون هوى لا بد وأن تتحسس انفاس محرريها الملتهبة.. طهارة قلوبهم وأكفهم وزيف كل الأضاليل عن مجلتهم. مجلتكم.. ساحتكم وساحة كل المسلمين..

أبناء «الطليعة الإسلامية» ـ أيها الأبناء الطيبون ـ مع المنهج الإسلامي المتكامل والبرنامج الواضح المحدد وبنقاء محمدي خالص يقفون ضد الارتباطات والعلاقات التي لا يقرها الإسلام.. وهم مع القضية الفلسطينية كقضية مركزية للحركة الإسلامية كقضية يتمحور حولها النشاط السياسي الإسلامي باتجاه وعد الله بالنصر والتمكين.. كقضية تمثل ـ قرآنياً وتاريخياً وواقعياً ـ ذروة التماس مع الكفر وهي بذلك ليست بديلاً عن دولة الإسلام كما يزيف البعض.. إنما هي لحظة التفجير المقدسة باتجاه انتصار الإسلام النهائي، أبناء «الطليعة الإسلامية» مع الثورة الإسلامية في إيران وفي أفغانستان وفي الفلبين.. مع كل المستضعفين وضد المحور الأمريكي ـ الإسرائيلي ـ السعودي الذي يحاول أن يهيمن على المنطقة.

وصدقونا أيها الأبناء الطيبون.. إنه لا يوجد سبب حقيقي آخر لمحاربتها إلا ماذُكر أعلاه.

في العام الماضي.. كان جنود الاحتلال الإسرائيلي يطاردون مجلة «النور» في باحات المسجد الأقصى.. يختطفونها من أيدي المصلين ويمنعونهم من قراءتها..

ياإلهـي.. هل يمكن أن يقوم أبـناء طيبون ينـتسبون إلى الـقرآن وفي هذا العام بـنفس الدور.. ياإلهي.. نتوسل إليك.. ليس لأجلنا فـقط بل لأجلهم أكثر.. أن تنقذ أيديهم المتوضئة من تـنفيذ هذه المهمة!!.. أن ترفع الـغشاوة عن أعينهم وأعينـنا وقبل ذلك عن أعين (الكبار!) حتى لا يزجوا بهم في خصومة خاسرة مع الله ورسوله.

اللهم هـبنا جميعاً الإيمـان والقوة.. واغفر لنا.. وارحـمنا برحمتك الـتي وسعت كل شيء.. واملأ قلوبنا بنورك الذي لا يخبو.

(٧)

القسام نهوض مستمر

كانت السيارة قد تجاوزت مدينة جنين.. مرت الدقائق.. رفع صديقي يده باتجاه محدد وقال: هذه قرية يعبد.. الأحراش هناك خلف القرية.. إنها غابة ضخمة, أحسست بقشعريرة تهزني.. نشوة تتملكني.. حاولت أن أغالب دمعي دون جدوى إذن هنا كان محط رحاله ومهراق دمه.. مولانا الشيخ عز الدين القسام.. القادم من (جبلة) حتى دميت قدماه إلى (يعبد)، مابين جبلة ويعبد كانت تحولات التاريخ تدور تلقى بنا إلى مزيد من الغربة والمعاناة والألم.

مابين جبلة ويعبد كان القسام يحمل في قلبه آلامه ويمضي.. يتوقف في الطرقات.. الحوانيت.. في البيوت.. على أبواب المدارس.. في ساحات المساجد.. فوق المنابر يتوكأ على بندقيته.. كان (الشامي) القادم من جبلة يرسم لفلسطين خارطة جديدة ضد التحولات وضد المرحلة..

ضد التجزئة وهو يتواصل ويتكامل من جبلة إلى يعبد.

ضد الغرب.. يعلو صوته.. يغسل أرواح الناس المسلوبة.

ضد الغرب.. يرفع بندقيته إلى صدور عساكرهم.

القسام يوم متجاوز وسط أيام عجاف ولحظة مشرقة كالبرق.. ومضة خاطفة ولكنها خصبة.. مسكونة بكل الرموز القادرة على بعث الثورة وتحقيق ديمومتها.

القسام ذهب في خوابي الماء.. امتزج بكل طمي فلسطين وآن لنا أن نلملمه.

مولانا الشيخ.. في زمن الردة.. نناديك باسمك فانهض وامسح على قلب الأمة دون الأيام المتسخة.

(*) المصدر: الطليعة الإسلامية - العدد ٢٩ - السنة الثالثة - يونيو ١٩٨٥م.

(٨)

رسالة إلى ياسر عرفات

سأتجاوز أكثر من حقل ألغام وأكتب إليك رغم المخاطر.. فخصومك لا يقبلون بأقل من إعلان الحرب ضدك والغضب عليك والمطالبة برأسك وأنصارك لا يقبلون بأقل من المديح التام وشعبنا يقف في ألم بيّن يده في النار وعين الحرية على المستنقع الذي وصلنا إليه والذاكرة الفلسطينية العجيبة ترحل في التواريخ البعيدة والقريبة.. قبل أكثر من عشرين عاماً كانت فتح كوردة تتبرعم فوق الجرح كما حاول أحد الشعراء أن يأمل.. كانت فتح.. وكانت فلسطين من النهر إلى البحر هي الشعار والهم واسم المرحلة.. عشرون عاماً فقط ياسيدي فإذا فلسطين وفد من المترفين الثرثارين أبطال الصالونات والمفاوضات تضمهم حقائب جلالة الملك الأردني إلى بلاط الشيطان الأكبر في واشنطن.. عشرون عاماً من الدم والصبر هل يمكن أن تنتهي فجأة تحت عنوان .الاتفاق الاردني ـ الفلسطيني، والذي لا يعني إلا أن نبدأ بخلع آخر ماتبقى يستر أجسادنا.. هل نسيت كلمات شاعرك المفضل:

في زمان الحرب غطتني الشظية

في زمان السلم غطاني العراء

في يوم ماوقبل رحيل عبد الناصر خرجت الجماهير في بيروت تهتف باسمك ياسر مش عبد الناصر كانت تشعر حينها أن حلمها وفارسها يأتي من غبار المعارك وليس من بيانات الاذاعة وثكنات الانقلابيين العسكرية وشرب الأنخاب مع رسل الشيطان الأكبر.. واليوم كيف يمكنك أن تقنع هذه الجماهير أن الفرق بينك وبين حكام العرب ليس مجرد فرق في التوقيت.. تبهت خلاله صورة المقاتل وتبرز صورة الديبلوماسي (المحنك) الذي لا يحمل إلا قلماً ولا يملك إلا أن يوقع أنصارك ياسيدي يطلبون منا أن نكون أكثر واقعية فماذا عليه..عليك أن تفعل؟

(*) المصدر: الطليعة الإسلامية - العدد ٢٩ - السنة الثالثة - يونيو - ١٩٨٥م.

سؤال يتردد كل يوم على لسان صغارهم وكبارهم دون أن يفكروا أنه السؤال الأكثر سذاجة وحمقاً وتضليلاً على الساحة الفلسطينية.. ماذا على من يفكر بالانتحار أن يفعل؟ الذي يمضي على أرض هشة هل هو مضطر للتوقف أم يمضي إلى أرض أكثر تهافتاً؟ خروج ياسيدي من بيروت فطرابلس إلى محور بغداد ـ عمان ـ القاهرة كحال المستجير من الرمضاء بالنار وكحال الهارب من الدلف إلى المزراب.. بالله عليك ماذا يمكن أن تجد ثورة وفلسطينية بالذات في محور «كامب ديفيد» غير مزيد من الحصار والتآكل والهزائم ثم الانتحار.. فيد صدام بغداد ملطخة بدم الفلسطينيين أما الملك الأردني فهو العدو رقم (١) لشيء اسمه م.ت.ف. طالما أن هذه الحروف تعني منظمة التحرير الفلسطينية لأنه يراها منافسة له على الضفة إن لم يكن على العرش نفسه أما مبارك فلا زال حامي حمى الكامب الملعون وحارس منجزاته الأمين..

وغداً سيلفظونك ياسيدي كما تلفظ النواة وكما فعل حلفاؤك التقدميون من الاتحاد السوفيتي وحتى اليسار اللبناني (عميل كل الجهات) مروراً بكل العواصم التقدمية لقد تخلوا عنك جميعاً علمانيين وتقدميين وقوميين وشيوعيين لأنك لم تعد بالنسبة لهم البقرة الحلوب ولأنهم استنزفوك حتى آخر قطرة.

وحدها.. وحدها.. وحدها وفي أشد اللحظات ألماً كانت الجماهير المسلمة تحتضنك.. الجماهير التي لم تنس الأخطار ولا الخطايا ولكنها تأمل أن تصحو وأن تبتعد عن نار الزيف التي اكتوت هي نفسها بها عشرات السنين.

قبل أيام قرأنا كلماتك أن الإسرائيليين لن يوافقوا على شيء ولن يسلموا بشيء وأن ماتفعله اكتوت هي من أجل وحدة الصف العربي..

ملعون صف لا توحده إلا مشاريع الاستسلام يا أبا عمار.. إن أبسط دروس تاريخنا التي تعلمناها أن الجهاد وحده هو الكفيل بوحدة الموقف والصف.. موقف الأمة وصف الأمة وليس صف الطغاة.

سيدي.. هذه أرض الرباط إلى يوم القيامة ووحدهم الأموات يشهدون نهاية الحرب..

(٩)
(الانتفاضة)

جاءت في سياق الصراع التاريخي ضد المشروع الصليبي الصهيوني بدعوة من الجماعة الإسلامية في صيدا، بتاريخ ٢٦/ ٨/ ١٩٨٨ حول الثورة الشعبية الفلسطينية: جذورها وآفاقها المستقبلية. والمنشور مقتطفات منها:

بسم الله الرحمن الرحيم ﴿والذين جاهدوا فينا لنهدينهم سبلنا﴾ وإن الله لمع المسلمين.

أيها الاخوة المسلمون:

الانتفاضة الإسلامية المباركة، في أحد أهم جوانبها ومعانيها، عملية فوق العادة، وفعل استثنائي لاكتشاف الذات وتحقيق الهوية، تلك الذات وتلك الهوية التي حاولوا تغييبها وحاولوا طمسها، كما حاولوا سحق الجماهير التي تحملها وتطوي القلب عليها، تلك الجماهير التي حاولوا طرق أصابعها فوق السندان ودفعها وظهرها إلى الحائط.

الانتفاضة كانت إزالة للطلاء وتعرية للزيف وتفجيرا لمخزون الطاقة المؤمنة تحت جلد شعبنا الفلسطيني المسلم وفي شرايين دمه، واندفاعاً من الحائط الذي دفعونا إليه وألصقونا به، اندفاعاً إلى بوابات الأقصى وإلى وعد الآخرة. ولكن أية ذات وأية هوية، هل هي تلك الذات التي حاولوا تشكيلها بعد تقسيم وحدود سايكس ـ بيكو، وفي ظل أطروحة الدولة اللقيطة التي كانت إفرازاً للمشروع الاستعماري الصليبي الصهيوني؟.

نعم، أيها الاخوة.. من هنا نبدأ، حتى أضع الانتفاضة في سياقها التاريخي الصحيح، فلا نبدأ أيها الإخوة.. بعملية مبتورة عن جذورها وعن تاريخها الحقيقي.

إذاً، مسيرة حضارتنا التي ننتمي إليها...

(*) المصدر: ألقيت هذه الكلمة بدعوة من الجماعة الإسلامية في صيدا، بتاريخ ٢٦/ ٨/ ١٩٨٨م.

على مدى هذا القرن وقبل سقوط بيت المقدس في أيديهم، كانت الهجمة الصليبية ـ الصهيونية تمتد وتمتد حتى تشمل الوطن الإسلامي، كانت الهجمة الصليبية تنتقل من محور إلى محور عبر التغريب وعبر التجزئة وعبر إقامة الدول اللقيطة، إفراز المشروع الاستعماري، كانت الهجمة الغربية تتجسد أخيراً في إقامة الكيان العبري الغاصب فوق أعز بقعة في هذا الوطن...

الشموع البسيطة التي اتقدت هنا وهناك على طول الوطن المحتل بدأت تتحول إلى مشاعل، بدأت تتحول إلى جذوة كبيرة من النار لا يستطيع أحد إطفائها، وبدأ العمل الإسلامي الفعال، بدأت البطولات الإسلامية تتشكل وترسم ملامح مرحلة جديدة، تمت والنضال في أي مرحلة من المراحل.. كان شعبنا يناضل في كل المراحل ولكننا اليوم ندخل مرحلة جديدة ويحتل الإسلامي المجاهد دوره فوق الساحة الفلسطينية.

الأسباب كامنة فيما كان مخبوءاً تحت جلد شعبنا وفي أدق خلايا دمه من قوة ومن طاقة لم يستطع أحد وحتى الآن لا يستطيع أحد فهمها أو تفسيرها، ولذلك يعتقدون أنها قد تُطفأ بعد غد.

الانتفاضة حسب التاريخ الرسمي بدأت في ٩ ديسمبر / كانون أول ١٩٨٧، ولكن كل مراقب يفهم الساحة الفلسطينية جيداً ويتابعها جيداً يدرك أنها بدأت في السادس من أكتوبر / تشرين أول ١٩٨٧ أي قبل شهرين من هذا التاريخ الرسمي الذي تعارفنا عليه. في هذا اليوم، قامت مجموعة من الشباب المجاهد، وكانت العملية الاستشهادية الجريئة في غزة في حي الشجاعية بالذات. هذه العملية الاستشهادية التي جاءت تتويجاً لعدة عمليات عسكرية جهادية بطولية، استيقظت الأمة على هذا الدم المجاهد الجديد وهو يخضب ثرى الوطن، استيقظت الأمة لترى هذا الفعل الكبير يوقظ في داخلها طاقة لم تكن في حسبان أحد. ومنذ ذلك اليوم وحتى ديسمبر / كانون أول ١٩٨٧ كانت تتفجر في قطاع غزة بالتحديد انتفاضة محدودة أو انتفاضة تمهيدية، مظاهرات هنا وهناك، وإضرابات هنا وهناك.

هكذا أدرك العدو بعد أيام ماذا يعني ما أسموه شغباً وأنها انتفاضة حقيقية.. المظاهرات العارمة، المظاهرات التي أمسكت بالحجارة المقدسة التي باركها الله ولذلك كانت على رؤوسهم كحجارة من سجيل، لأنها حجارة مقدسة، حجارة مقدسة باركها الله سبحانه وتعالى عندما بارك أرض هذا الوطن أكثر من ست مرات في القرآن الكريم..

لقد قذف شعبنا الفلسطيني المسلم حجراً ضخماً في مياه العالم الراكدة ولا زال هذا الحجر يفعل فعله العجيب منذ تسعة شهور وحتى الآن، ومن مرحلة إلى مرحلة كانت تمضي الانتفاضة..

إنني أؤمن ايماناً كاملاً أنه ليس بإمكان أحد أن يوقف المسيرة، أؤمن إيماناً تاماً أنه ليس بمقدور أي قوة أرضية ان توقف مسيرة الانتفاضة حتى تحقق ما يصبو إليه شعبنا وما يصبو إليه شعبنا هو تحرير وطنه.. وأن ترتفع راياتنا فوق كل الوطن من النهر إلى البحر.

نعم.. نحن نعرف أن ذلك ليس حلماً سهلاً وليس أمنية سهلة، وندرك أن الانتفاضة وحدها ليست بقادرة على تحقيق كل أحلامنا وكل طموحاتنا، وإن كان هناك من يعتقد ذلك مخطئ بدون شك، لقد وضعت الانتفاضة أقدامنا على الطريق الصحيح، الذي بدأناه وانطلقنا باتجاهه ولن نتوقف، ولكن شعبنا الفلسطيني المنتفض، هذا العنصر الحيوي في معادلة المنطقة لا زال حتى الآن هو العنصر الوحيد الذي يتغير، لا زال هو العنصر الوحيد الذي يعمل ضد توازن القوى، ومن الظلم أن نقول لعنصر بهذا الحجم إنك لا تستطيع أن تفعل كل شيء ونحن نتفرج ونحن نلهو ونحن «نفرفح».. خاصة، إذا كانت هناك من داخلنا، أصوات عربية، أصوات المؤسسات الرسمية وأصوات دول واصوات حكام، تتمنى كل يوم أن تنتهي هذه الانتفاضة، لأنها تعتقد أنها ليست موجهة فقط إلى «إسرائيل» ولكن موجهة إلى طبيعة الهجمة الاستعمارية الصليبية، وهذه الهجمة هي التي أفرزت هؤلاء الحكام، كما أفرزت «إسرائيل».

إن الأمة الإسلامية والأمة العربية اليوم، أمام تحد خطير، وأمام فرصة نادرة، عليها أن لاتضيع هذه الفرصة إن كانت جادة في التخلص من الاستعمار ومشروعه ليس فقط في فلسطين، ولكن في كل مكان من الوطن العربي والوطن الإسلامي. ويجب على كل مخلص أن لا يفوت هذه الفرصة، إذا فوتم هذه الفرصة فليل طويل آخر ينتظركم.. نحن نعلم وندرك في داخل الوطن المحتل كم هي قاسية سطوة الحكام، وكم هي مجرمة قبضة الحكام، وندرك أن شعوباً إسلامية عديدة حاولت أن تنتفض وتقف معنا ولكن حكامهم، ولكن طواغيتهم، ولكن المستكبرين حاولوا أن يقمعوا انتفاضاتهم. في مكانين فقط لم يتم قمع التأييد والتعاطف.. في طهران خرجت المظاهرات المليونية لتؤيد انتفاضة شعبنا، وخرج المسؤولون هناك على رأس المظاهرات المليونية يعلنون تأييدهم لانتفاضة شعبنا. وفي لبنان أيضاً خرجت المظاهرات لتأييد انتفاضة شعبنا، وشعبنا في الداخل يدرك ذلك، ويعي ذلك، ويفهم ماذا يعني، وأبعاده ومراميه، يفهمه في الوقت الذي كان يرى فيه قوات القمع المصرية تضرب شعبنا الفلسطيني على الشريط الآخر من مدينة رفح، عندما انتفض أهلنا في مدينة رفح في الجانب المصري منها على بعد ٢٠ متراً فقط منا، كان شعبنا مطارداً من سلطات القمع الصهيونية يرى جزءه الآخر مطارد من سلطات القمع المصرية.

كما انتفضنا أمام أعتى قوة عسكرية في المنطقة، وكما استطعنا أن نمرغ أنوفهم في التراب، تستطيع الشعوب في غير مكان أن تفعل نفس الشيء. إذا عادت إلى ربها وإذا استلهمت فلسفة الشهادة، واستلهمت التقدم إلى الأمام وهي تحرق خلفها كل المراكب ولن نخسر سوى القيود.

إن آفاق الانتفاضة، وآفاق المستقبل هي الاستمرار مهما كلفنا هذا من عناء، آلام يوم وآلام شهر وآلام سنة، ولا عذابات عشرات السنين.. بقي أن نقول إن هناك من يتحدث عمن يشارك في الانتفاضة، وأود أن أذكر ان الجميع يشارك في الانتفاضة، كل الفصائل الفلسطينية تشارك في الانتفاضة، كل أبناء الشعب الفلسطيني

يشاركون في الانتفاضة، الشيوخ والشباب والأطفال يشاركون في الانتفاضة حتى الذين تساقطوا في فترة سابقة حتى العملاء الذين باعوا أنفسهم وضمائرهم للمحتل كثيرون منهم يعودون اليوم إلى صفوف شعبهم.

قبل حضورنا بأيام اكتشفت أجهزة المخابرات شاباً مؤمناً خائفاً من الله عمره أقل من عشرين عاماً، اكتشفوا أنه لوحده قام بعشرين حريقاً، كلفت العدو الصهيوني الملايين والملايين من الدولارات، مزارع ضخمة ومصانع كبيرة أحرقها، وقبضوا عليه بعد عشرين حريقاً، وعندما عُرِض على الصحفيين وفي الصفحات الأولى من صفحاتهم قال لهم: لست نادماً، إنني أؤمن أنه بعد عشرين عاماً لن تكون هناك دولة «إسرائيل»، بعد عشرين عاماً لن تكونوا هنا... سنكون بإذن الله قد حررنا الوطن، كل الوطن من البحر إلى النهر، ومن رفح إلى رأس الناقورة، حيث تكون راياتنا الخفاقة قد ارتفعت على كل مكان من أنحاء الوطن العزيز.

وبعد انتهاء كلمته أجاب المجاهد الدكتور فتحي الشقاقي على بعض أسئلة الحضور، ورداً على سؤال حول اجراءات نظام شرقي الاردن الأخيرة قائلاً:

ما أريد تأكيده هو رغم المقاصد السيئة من وراء هذا القرار، إلاّ إن شعبنا استمر في انتفاضته ولم يلتفت إليه وكأنه لم يحدث شيئاً. النظام الأردني في تصوري كان يعتقد بقراره أنه يستطيع عزلنا ويستطيع تسليم الانتفاضة إلى العدو الصهيوني، فلم يستطع التأثير علينا.. ولكن من خلال أحاديث الناس، من خلال مسيرة الناس، من خلال تصعيد الانتفاضة، كان هناك شعور حقيقي من خلال ذلك بأنه المقصود من خلال الخطة الأردنية أو المشاريع الأردنية لن تحقق أهدافها ولن تحقق نتيجتها، فالانتفاضة بيد شعبنا، ولن تستطيع أي قوة لا الملك ولا أصدقاءه في «إسرائيل» أن يوقفوا مسيرتها. ولذلك فإن القرار ضد العدو قياساً بالأيام السابقة على صدور هذا القرار، ولذلك هم أرادوا تسليمنا للعدو ولكن نحن لهم بالمرصاد.

كما أجاب المجاهد الشقاقي حول إمكانية تحول الثورة الشعبية في فلسطين إلى استخدام السلاح في مواجهتها مع العدو فقال:

تحول الانـتفاضة إلـى انتفـاضة مسلـحة هذا أمـر ليس صعـباً وليـس مستحـيلاً، الانتفاضة الآن تأخذ دورها وتأخذ مسيرتها والعامل المسلح سيبرز في وقته الطبيعي والمخطط له والمرسوم له، وأنا على يقين بأن تكونوا مطمئنين إنه إذا كانت هناك نسبة محدودة كانت مستعدة قبل الانتفاضة لـكي تحمل السلاح وتستشهد الآن، فالجميع متشوقون لحمل السلاح لمواجهة العدو الصهيوني. ولكن الانتفاضة في هذه المرحلة تحقق أهـدافاً عظيـمة ولا يمكن الـتقليل مـن أهدافها.. ورغـم أهمية الـسلاح الذي سيتوفر عاجلاً إن شاء الله.

يقول د. فتحي الشقاقي:

عندما اندلعت شرارة الانتفاضة ـ الثـورة مع نهايات العام ١٩٨٧ لم يكن بوسع أحد يومـها أن يتصور أنـنا أمام حدث كـبير سيقـلب الموازين ويعـيد ترتيـب أشياء عديدة في المنطقة، بل إن تسميتها بالانتفاضة يشير إلى ظن الكثيرين أن ما حدث لن يستمر طويلاً ولن يكون شاملاً وأنه ليس أكثر من رد فعل مؤقت.

العدو الصـهيوني الذي أربكـه ما حدث اعتبره أحـداث شغب عابرة لن تـعمر أكثر مـن أيام معدودة وعـندما قال سـياسي صهـيوني في نـدوة تليفـزيونية ـ وبـعد أسبـوعين من تـفجيـر واندلاع الانـتفاضـة ـ إن هذا تمرد مـدني وعصـيان رد علـيه مشارك صهيوني أكثر تطرفاً: إن التمرد في رأسك فقط هذا ليس أكثر من شغب بل إن وزير حرب الـعدو إسحق رابين والقـادم من أمريكا وقتـها صرح بأنه سيـسحق هذا الشغب في أيام قليلة ولكن بعد شهرين كان شامير يقول إن هذه حرب حقيقية هؤلاء لا يـريدون غزة والخـليل فـقط، هؤلاء يريـدون يافا وحـيفا أيـضاً وبعـد عدة شهور كان رئيس أركان العدو دان شومرون يقـول: إن معجزة لن توقف الانتفاضة أمـا رابين نـفسـه فقـد صرح مـرات عديـدة أن القـوة وحدهـا لا يمكـن أن توقـف الانتفاضة. القـيادة الفلسطينية الـرسمية في تونس فوجئت بمـا حدث، بل وصل بها الأمر أن تظن من البداية وكأن هناك مؤامرة تستهـدفها أو تستهدف شرعيتها المهتزة، وخاصة وأن يوم ١/ ١/ ١٩٨٨ قـد مر بدون أحداث تُذكر رغم النـداءات المتكررة

الداعية إلى تميز هذا اليوم، بل وصل الأمر برئيس قسم الشؤون العربية في صحيفة «يدعوت أحرونوت» أن يكتب في نفس اليوم قائلاً: لا نفوذ لعرفات في قطاع غزة وأن قبضته في الضفة الغربية مهتزة.

ولكن (م.ت.ف) تحركت بعد ذلك في كل اتجاه مسكونة بالأماني أن تستمر الانتفاضة ولو لأيام ترد بها اعتبارها بعد أن تم تجاهلها في مؤتمر عمان نوفمبر / تشرين ثاني ١٩٨٧.

النظام العربي والذي كان متورطاً في الحرب العراقية الإيرانية، لم يكن يتوقع أن يرى نار الحرب المقدسة تشتعل في بيت المقدس، فبعد أن كان قد نفض يديه من فلسطين التي لم يعد يطرحها - حتى في إعلامه - كأولوية كما تعود أن يفعل في العقود الماضية، هذا النظام شعر بإرباك شديد وخشية من أن يمتد الطوفان من بيت المقدس إلى بقية العواصم.

كل هؤلاء فوجئوا أما شعبنا في فلسطين فقد كان كمن يصعد سلماً كلما تجاوز درجة من السلم احترقت وأصبح من غير الممكن العودة إلى الوراء، لم يبق أمامه من خيار سوى الصعود والاستمرار وتصعيد الثورة، وهنا علينا أن نقر أننا أمام ثورة حقيقية بكل معنى الكلمة وأننا أمام تغيير نوعي ومتميز في مسار الصراع مع المشروع الصهيوني... إنه مفترق الطرق الأصعب أمام الحركة الصهيونية فهذا الشعب الفلسطيني الذي كان يتم دائماً تناسيه عند صياغة البرامج الصهيونية منذ نهاية القرن التاسع عشر إلى الآن يؤكد أنه أكثر الظواهر حيوية في المنطقة وأنه ليس بالإمكان تجاوزه، ليس بالإمكان نفيه وليس بالإمكان تحوله إلى شعب من العبيد لأنه حي وحر وسيد، كانت الحركة الصهيونية توهم العالم وحتى اليهود بأن فلسطين بلا شعب وأنها فقط بانتظارهم وذلك حتى لا تقع في إشكالية الإجابة على سؤال: ماذا ستفعلون بالشعب الفلسطيني الذي يعيش فوق أرض فلسطين؟ أو إشكالية طرد أو إبادة أهل هذه البلاد.

كانت جولدا مائير إحدى رواد الحركة الصهيونية ورئيسة وزراء سابقة للعدو الصهيوني تقول .ليس هناك شعب اسمه الشعب الفلسطيني، بل إن ميلاد طفل فلسطيني كان خنجراً في خاصرتها كما حاولت أن تقول مرة.

ورغم القوة والفعالية التي تميزت بها الحركة الصهيونية إلا أنها بخصوص وجود الشعب الفلسطيني كانت تتبع تكتيك النعامة المشهور الذي يظن أن عدم رؤية المشكلة أو التغافل عنها يعني زوال هذه المشكلة أو حلها.

ولكن بعد قرابة قرن على نشأة الحركة الصهيونية وأقل من نصف قرن على قيام الكيان الصهيوني تتكشف شيئاً فشيئاً نقطة الضعف هذه في المشروع الصهيوني، ويتأكد كم كانت النعامة مخطئة بل وبلهاء أيضاً وأن ساعة الحقيقة قد دقت وأنها اليوم أقوى من أي وقت مضى وأنها المواجهة لا مفر، إنه مأزق حضاري وتاريخي وسياسي كبير هذا الذي يعيشه الكيان الصهيوني اليوم إضافة إلى مأزق الرعب الأمني الدائم، المشكلة ليست مجرد القنبلة الديمغرافية المرتقبة، ولكن أيضاً ما يحدث اليوم من كحت للطلاء عن الهوية الفلسطينية ذات المضمون العربي الإسلامي.

وهكذا فنحن من جديد أمام ثورة حقيقية وصفها رابين وضمن سياق تصريحاته المرتبكة والمتناقضة بأنها «حرب أهلية» فرد عليه أحد العسكريين الصهاينة (لا.. إنها حرب عصابات من نمط جديد).

ووصفها المعلق العسكري الصهيوني يورام بري بأنها حرب ثورية على غرار الحرب الفيتنامية والجزائرية، وكتب في دافار تحت عنوان (الحرب السابعة): «إن صعوبة تصنيف هذه الحرب وفهمها ليس أمراً عفوياً، فهذه حرب تختلف عن كل الحروب الست السابقة لها»، إنها حرب من نوع جديد، لم يعرفه الجيش «الإسرائيلي» من ذي قبل، فهي تختلف عن الحروب التي خاضها الجيش ضد الجيوش النظامية للدول العربية.. كما أن أوجه الشبه بينها وبين أحداث ١٩٣٦ ضعيفة جداً.

أما المعلق العسكري زئيف شيف فيقول بعد شهرين من الانتفاضة في ١٢/ ٢/ ١٩٨٨ إن ما يحدث إنما هو حرب استنزاف جديدة، إنها حرب استنزاف من نوع آخر لم نعهده من قبل خلال جميع حروبنا، إنها مثل كل حرب موجهة بالدرجة الأولى ضد القوات المسلحة للدولة، ولكن ليست ضد الجيش «الإسرائيلي» وحده فالمستهدف إنما هو الجيش «الإسرائيلي» والجمهور بأسره الشعب، وكما واجهنا حرب الاستنزاف في بداية السبعينات في جبهة قناة السويس وفي مرتفعات الجولان وغور الأردن فإن هذه الحرب تنطوي على قدر كبير من التدمير بل إن عنصر المفاجأة هنا أكبر مما في حرب اكتوبر ـ تشرين أول ١٩٧٣، وذلك كما يرى زئيف شيف نفسه الذي سبق وسمي حرب تشرين بالزلزال يقول: إن المفاجأة الأخيرة (الانتفاضة) كانت مذهلة أكثر فلم تنجح «إسرائيل» في العام ١٩٧٣ في فهم ما كان يجري في القاهرة ودمشق وفي سنة ١٩٨٧ لم تنجح «إسرائيل» في ملاحظة ما يحدث في بيتها في حجرة نومها. هآرتس ٥/ ٣/ ١٩٨٨.

وهكذا وبعد أربعة عقود من الزمن على النكبة الأولى بضياع فلسطين عام ١٩٤٨ وبعد عقدين على النكبة الثانية بسقوط بيت المقدس عام ١٩٦٧ وبعد سلسلة من التحولات التي عاشتها المنطقة تحت الهيمنة الأمريكية حتى كاد أن ينطفئ بريق القضية أو يطويها النسيان في المحافل الدولية، في ظل هذا، جاءت الانتفاضة ـ الثورة لتتميز بين ثورات الشعوب المعاصرة وعن غيرها من الأساليب التي واجهنا بها العدو سابقاً ولكنها ليست نبتاً غريباً أو طارئاً بل تأتى من تاريخنا الفلسطيني تتويجاً لتاريخ طويل من النضال والجهاد الذي مارسه شعبنا ولا زال منذ انتفاضة العشرين والحادي والعشرين من هذا القرن إلى هبة وثورة البراق العام ١٩٢٩ إلى ثورة القسام وخروجه إلى أحراش يعبد وإعلانه الجهاد والثورة إلى الإضراب الكبير وثورة ١٩٣٦ إلى ملاحم ١٩٤٨ التي سطرها الثوار والمجاهدون من فلسطين وغيرها، إلى تجارب العمل الفدائي والمقاومة منذ منتصف الستينات إلى انتفاضة مارس / آذار ١٩٧٩ ضد توقيع الصلح بين النظام المصري والكيان الصهيوني فيما

عُرف باتفاق «كامب ديفيد»، إلى انتفاضة أبريل / نيسان ١٩٨٢ إثر الهجوم الذي شنه الجندي الصهيوني جودمان على المسجد الأقصى إلى انتفاضة ديسمبر / كانون أول ١٩٨٦ إثر مقتل صهيوني في القدس واستشهاد طالبين في بير زيت إلى انتفاضة فبراير / شباط ١٩٨٧ وغيرها وغيرها من الانتفاضات والمواجهات ضد العدو الصهيوني، في زمن الاشتباك المستمر منذ الحرب العالمية الأولى وحتى الآن. وهكذا تؤكد الانتفاضة أنها جاءت في سياق نضال وجهاد شعبنا المتواصل وهي في نفس الوقت تأتي في سياق جهاد الأمة العربية والإسلامية ضد المشروع الاستعماري منذ مطلع القرن التاسع عشر وإلى الآن.

ولسنا هنا في مجال مقارنة الانتفاضة ـ الثورة بتلك الثورات المعاصرة فهي تلتقي مع بعضها في مزايا وتختلف عنها في مزايا.. وفي الحالين تشكل نسيجاً خاصاً بها يجعلها لا تشبه إلا نفسها.. إنها تتميز في طبيعة كونها مركز الصراع الكوني بين تمام الحق وبين تمام الباطل، بين الإسلام ومشروعه الناهض القائم على الحق والكرامة والسلام وبين المشروع الغربي الصهيوني القائم على الصراع والتفسيخ والعدوان.

كما تتميز بشموليتها، إذا شملت كل الوطن بتفاوت مُبرر بين الضفة والقطاع من ناحية وبين المناطق المحتلة منذ ١٩٤٨، ونكاد نجزم أن من أهم أسباب التفاوت هذا ما كررته م.ت.ف في سياساتها وإعلامها في أن الانتفاضة يجب أن تنحصر في الضفة الغربية وقطاع غزة مع ما سببه ذلك من آثار سلبية على شعبنا في الأرض المحتلة منذ ١٩٤٨ والذي قدم من الدعم والإسناد وأيضاً المشاركة الفاعلة من وقت لآخر مفخرة له.

كما شملت الانتفاضة الثورة مختلف الفئات والطبقات من عمال وفلاحين وطلاب ومثقفين وتجار وبمشاركة المخيمات والمدن والقرى والرجال والنساء والفتيان والأطفال إضافة إلى أن المسيحي وقف بجانب المسلم تحت نفس الراية.

والانتفاضة أيضاً تتميز بصلابتها واستمرارها.. إذ مضى عليها عامان قوية شامخة وكأنها تفجرت بالأمس بالرغم من كل أساليب الارهاب والبطش والتنكيل التي مارسها العدو ضد شعبنا والذي كان دائماً يبتكر وسائلا جديدة ومبدعة لمواجهة أساليب العدو.

كما لا يجب أن ننسى ان الثورة ـ الانتفاضة تشتعل فوق أرض يشكل شعبنا فيها أقلية عددية مقارنة باليهود في حين أن العدو إضافة إلى تفوقه العددي فإنه يتمترس خلف كل أنواع السلاح في دولة عصرية وحديثة.

الشعب والعدو وجهاً لوجه

في المراحل الأولى للانتفاضة كانت مراهنة قيادة الكيان الصهيوني على أن الحركة الجماهيرية لن تخرج عن الهبَّات السابقة لشعبنا التي تكررت بين وقت وآخر منذ بداية الاحتلال، وأن نارها سرعان ما تخبو ليعود واقع الإلحاق الاقتصادي والإحباط السياسي والقهر السياسي ليسيطر على شعبنا في الوطن المحتل، بل إن وزير حرب العدو إسحق رابين تجرأ وأعطى وعداً بإخماد الثورة الجماهيرية خلال أيام قليلة، ولكن ما أن تيقن العدو من أن الانتفاضة ـ الثورة قد ضربت جذورها في الحياة الفلسطينية حتى تواصلت واتسعت إجراءاته العميقة واحدة تلو الأخرى.

استخدم العدو في مرحلة مبكرة حرب البيانات حيث قام ضباط أمن العدو وعملاؤه بإلقاء آلاف النسخ من البيانات وبأسماء تنظيمات فلسطينية إسلامية ووطنية محاولاً أن يخلق بذلك حالة من الانقسام والاضطراب بين صفوف شعبنا فيما يخص فعاليات الانتفاضة أو علاقات القوى السياسية ببعضها البعض ولكن شعبنا ميز بوعي عميق وبحدس لا يخطىء لغة العدو وخطابه في البيانات المصطنعة، ولقد ساعدت حالة التسييس العالية لشعبنا مساعدة كبيرة في عملية التبيين والتمييز.

وكان العدو المجرم قد استطاع منذ بداية السبعينات في ظل ما زرعه من فقدان الثقة العام وما أشاعه من تدهور أخلاقي أن يشكل شبكات من العملاء من ضعاف

النفوس الذين رضوا لأنفسهم خيانة شعبهم وبيع أرواحهم بثمن بخس ومع اندلاع الانتفاضة أطلق العدو شبكات عملائه كأداة حيوية لمخططاته العميقة في مواجهة الجماهير.

وقد اتسمت المرحلة الأولى من الانتفاضة بقيام أعداد متزايدة من العملاء تحت ضغط الحالة الجماهيرية المتصاعدة والروح الإسلامية البارزة للانتفاضة ـ الثورة بإعلان توبتهم علانية في المساجد وعودتهم إلى صفوف الأمة. ولكن مع استمرار ما تبقى من فئة العملاء على غيِّها اضطرت قوى شعبنا إلى تسديد ضرباتها إلى ثغور العملاء وكان التوجه الجماهيري الثائر إلى منزل العميل محمد عياد في قباطية بمنطقة جنين ٢٤/ ٢/ ١٩٨٨ وإعدامه أمام العالم نقطة تحول بارزة جعلت كثيراً من العملاء المترددين يسلمون أسلحتهم إلى سلطات العدو ويسارعون كمن سبقوهم إلى التوبة، وقد فشلت حتى الآن كل محاولات العدو لتشكيل طابور خامس من العملاء وإعادة تجربة الانقسام الفلسطيني الداخلي في سنوات ثورة ١٩٣٦ ـ ١٩٣٩.

ولكن مراهنة العدو على شق الصف الفلسطيني في الداخل كانت على الدوام جزءاً أساسياً من مخططاته لإجهاض الانتفاضة ـ الثورة فحاولها مرة عبر تشجيعه لبعض الشخصيات والقيادات المحلية الهامشية على أحد مواقع ومواقف لا تنطبق بالضرورة مع الإجماع الشعبي العام، وحاولها مرة ثانية بالتركيز على بعض الانقسامات والصدامات العابرة بين القوى السياسية الفاعلة خاصة بين بعض الإسلاميين من جهة وقوى وطنية من جهة أخرى، ولكن شعبنا المجاهد وقواه السياسية الفاعلة كانت تفوت الفرصة على العدو المجرم، فقد التزمت معظم القيادات في النهاية بالإجماع الشعبي عندما رأت تصميم شعبنا على مواصلة انتفاضته بلا تراجع كما استطاعت القوى السياسية وأمام النبع الأخلاقي الهائل للانتفاضة أن تجد حلاً أو آخر لخلافاتها.

مارس العدو أيضاً متجاهلاً الرأي العام وكل الأعراف الإنسانية حرباً مباشرة وبشعة ضد شعبنا فقد أطلق النار على الأطفال والنساء والشيوخ حتى وصل عدد شهداء الانتفاضة مع نهاية عامها الثاني أكثر من سبعمائة شهيد وعشرات الآلاف من الجرحى والآلاف العديدة من المعتقلين الذين يعيشون ظروف اعتقال لا تقل وحشية عن تلك التي شهدتها معسكرات الاعتقال النازي وذلك في ثلاثة معسكرات جماعية كبيرة موزعة بين صحراء النقب وهضاب الخليل وشاطئ غزة إضافة إلى معتقلات فرعية أصغر.

وواصل العدو سياسة الإبعاد التي كرسها قبل سنوات الانتفاضة ـ الثورة بإبعاد حوالي ستين من قيادات وفعاليات الانتفاضة إلى خارج فلسطين. كما صعَّد العدو من استخدامه لقوانين الاحتلال المتعسفة واللاشرعية وأصبح أمراً عادياً أن يحكم على من يقذف حجراً على جنود الاحتلال بالسجن لمدة تتراوح بين ثلاث وخمس سنوات وغرامات مالية فادحة على ذويه. وفي ذلك الوقت الذي استمرت سلطات الاحتلال بهدم منازل المتهمين بأقل التهم الأمنية أثراً. وعلى مستوى آخر وفي محاولة لتفتيت تماسك القوة الشعبية في الداخل لجأ العدو إلى فصل كامل للضفة عن القطاع ومنع الانتقال الحر بينهما كما لجأ في حالات عديدة إلى عزل وتطويق مناطق بأكملها لعدة أيام إما بقصد التجويع والقهر النفسي أو بقصد منع الاتصال بالخارج، وقد رد شعبنا بإبداع وصمود مذهلين على كل أساليب العدو القمعية وحافظ على قنوات الاتصال بين الضفة والقطاع وبين الداخل والخارج مفتوحة ومستمرة وبقنوات مبتكرة ومتعددة على أن من أهم المعارك التي خاضها شعبنا في عامي الانتفاضة كانتا في مجالي التعليم والاقتصاد. على المستوى الأول بادر العدو منذ الشهور الأولى للانتفاضة ـ الثورة إلى إغلاق الجامعات نهائياً ثم تبع ذلك إغلاق المدارس لشهور طويلة ولكن أهداف العدو في هذا المجال ردت إلى نحره فقد تحول الـ٤٨٠ ألفاً من الضفة والقطاع إلى رصيد جديد لفعاليات الانتفاضة ـ الثورة كما انتقلت مراكز التجمع والتخطيط والانطلاق الجماهيرية من المدارس

والجامعات إلى المساجد. وعلى المستوى الاقتصادي حاول العدو وما زال قهر الانتفاضة ومحاصرتها اقتصادياً ومالياً عبر سلسلة متزايدة من الإجراءات منها:

ـ منع بيع المنتجات الزراعية للضفة في القطاع أو العكس أو تصديرها للخارج عدم زيادة حصص المياه المقررة للمناطق المحتلة وقطع المياه والتيار الكهربائي لأيام عديدة مما ساهم في تعطيل العديد من المعامل والمصانع والورش الصغيرة.. مصادرة مزيد من الأراضي وتسليمها للمستوطنين.. منع دخول الأموال من الخارج.. فرض الضرائب وتحصيلها بطريقة تعسفية حيث وصل عدد الضرائب التي يفرضها العدو على شعبنا في الوطن المحتل ١٤ نوعاً. حصيلة الضريبة التي يجنيها الاحتلال من أهلنا في الضفة والقطاع قدرت عام ١٩٨٦ بمبلغ ٧٤٥ مليون دولار.. قيام المستوطنين بتخريب وتسميم الزراعات الفلسطينية في الضفة والقطاع.. تقييد حركة صيادي الأسماك.. ربط فرص العمل المتاحة للعمال وأصحاب الورش والصناعات الصغيرة بوجهة نظر سلطات العدو الأمنية والسياسية في الأشخاص والعمال.. قمع العدو لكل محاولات التكافل بين شعبنا في الضفة والقطاع وأهلنا في مناطق ١٩٤٨. وقد ساهم في إكمال حلقات الحصار الاقتصادي لشعبنا ما قامت به السلطات الأردنية في نهاية يوليو / تموز ١٩٨٨ من قطع سلطاتها القانونية والإدارية وما أدى إليه ذلك من انخفاض حاد في دخل قطاع واسع من الموظفين وإلى انخفاض أكبر في قيمة الدينار الأردني بكل ما زاد به ذلك من آثار مدمرة على قيمة المدخرات والقدرة الشرائية لشعبنا.

وفي مواجهة هذه المعركة برهن شعبنا وبصلابة وبعد عامين من الانتفاضة أنه قادر على الصمود والمواصلة.

لقد طور شعبنا أساليب المواجهة المباشرة مع العدو في ساحة الانتفاضة ـ الثورة من مرحلة لأخرى طبقاً لقدراته، وضمن إطار مواصلة الانتفاضة.

فبعد المسيرات الحاشدة التي تميزت بها الانتفاضة في الأيام والأسابيع الأولى وبعد المواجهات الشاملة مع قوات العدو التي حدثت في نفس الفترة انتقلت

الجماهير تحت ضغط أساليب العدو الجديدة في البطش والتنكيل إلى مرحلة أخرى استمرت فيها المواجهات والإضرابات ولكن مع تناوب في أدوار المدن والقرى والمخيمات من دون تظاهرات حاشدة عدا جنازات الشهداء وبعض المناسبات واستخدمت الزجاجات الحارقة بكثافة أشد.

هذا وقد كان قد رُوج أثناء شهور الانتفاضة الأولى لأطروحة مفادها استبعاد العمل العسكري لما يسببه ذلك من رد فعل صهيوني شديد باتجاه المزيد من القوة والقمع، إلا أن طابع الانتفاضة المميز عن كل الحركات الجماهيرية المشابهة في تاريخ العالم الحديث وتواصلها بلا نهاية لأكثر من عامين، وحرص العدو على استخدام سياسة القتل بلا حساب وضمن خطته للردع والقهر النفسي جعلت من الضروري أن يأخذ الكفاح والجهاد المسلح دوره في المعركة هذا الكفاح والجهاد الذي يجب أن لا يتوقف في أي مرحلة كانت من مراحل النضال ضد العدو الذي قام أصلاً على العنف والارهاب.

(دور حركة الجهاد الإسلامي)

وعلى مستوى آخر طاردت جماهيرنا العدو في داخل المنطقة المحتلة منذ١٩٤٨ وشنت عليه حرباً نفسية واقتصادية شملت خطف وقتل جنوده وإخفاء جثثهم مع ما في ذلك من دلالة مثبطة على المستوى الديني اليهودي.

كما شنت حرب حرائق واسعة النطاق بلغت أكثر من ١٥٠,٠٠٠ دونم مما جعل العدو يصرخ: إن هؤلاء لا يريدون غزة والخليل بل يافا وحيفا والناصرة أيضاً.

وهكذا لأول مرة منذ أربعين عاماً يقف العدو الصهيوني أمام هكذا مأزق حضاري وسياسي وتاريخي، التأزم والتفسخ الاجتماعي يصل إلى مداه داخل المجتمع الصهيوني.

المنجزات

* يبقى استمرار الانتفاضة ـ الثورة لعامين كاملين في مواجهة دولة حديثة وعصرية وجيش حديث وقوي وجهاز أمن من الأخطر في العالم، يبقى استمرارها

ضربا من المعجزة خاصة إذا ما لاحظنا الحصار الدولي والعربي من حولها، فهذا الاستمرار والانتشار والتصاعد يشير إلى حيرة العدو وارتباكه وهذا ما لم يحدث من قبل كما يشير إلى قوة الإرادة الشعبية وقوة المخزون الروحي والإيماني الذي يطلق كل هذا الفعل ويحافظ على استمراريته وصموده، أخيراً اكتشف الشعب الفلسطيني المجاهد موطن القوة فيه في نفس الوقت الذي اكتشف موطن الضعف في العدو، فضرب ضعف العدو بقوته .وقتل داودُ جالوت....

* أعادت الانتفاضة ـ الثورة بناء قيم النهضة الروحية بين جماهير شعبنا وقضت على السلبية واليأس والقعود مطلقة قوىً هائلة في عمق الجماهير وبرز الاستشهاد كقيمة عظيمة فارشاً ظلاله الإسلامية العميقة على حياة الناس واستعدادهم للمزيد من الاستشهاد الذي أصبح عادة يذهبون إليها كما يذهبون إلى أعمالهم ومدارسهم أو كما يأكلون طعامهم.

وعلى المستوى الأخلاقى هزم الشعب هجمة العدو اللاأخلاقية التي وصلت ذروتها في نهاية السبعينات، اختفت الجنح والجرائم المحلية وساد الأمن والأمان بين الناس واندحرت هجمة العدو لإغراق المجتمع الفلسطيني بالفساد والمخدرات وأصبحت المرأة جزءاً لا يتجزأ من نضالات الشعب وتضحياته، تقاتل في الشوارع وتعيد بناء دورها في المنزل كإدارية ومنتجة ومدبرة وأم تستشهد وتُطارد لأسابيع وشهور، تُعتقل وتُذب ويُفرج عنها لتعاود العمل والنضال من جديد.

أما العمال الذين حاول العدو خلال عشرين عامًا أن يربطهم بعجلة اقتصاده ودفعهم لنمط حياة استهلاكي فقد أصبحوا أداة الانتفاضة الضاربة في شوارع الوطن وفي ضرب اقتصاد العدو بعد أن تخلصوا كغيرهم من نوازع الاستهلاك التي زرعها العدو في المجتمع.

وفي إطار استنهاض الجماعة والمجتمع عاد للمسجد دوره التاريخي في حياة الناس كمركز للتجمع والتعليم والمشاورة والتعبئة، وتخلى الناس تدريجيًا عن

اللجوء إلي مؤسسات الحكم والسلطة التي يهيمن عليها العدو وعادوا في مشاكلهم ونزعاتهم الداخلية ـ التي أصبحت نادرة وقليلة على أية حال ـ إلي العلماء والقيادات الإسلامية والوطنية والشخصيات العائلية والجهوية المخلصة والمعتبرة جماهيريًا. كما خاض شعبنا معركة ذات أبعاد نهضوية كبرى في مجال التعليم.. ففي حين أغلق العدو المدارس والجامعات أقيمت الفصول الدراسية في المساجد والمنازل وتحت الأشجار، بل تم تخريج كل طلاب السنوات الأخيرة في الجامعات ولا زالت هناك أقسام في بعض الجامعات تعمل بسرية حتى الآن، بل أنه جرى تطوير لمناهج التعليم بما يتفق مع المرحلة الجديدة ولولا تراجع العدو في معركة التعليم وإقدامه على فتح المدارس من جديد لبرزت تجربة تعليمية نهضوية في الوطن المحتل تستحق التأمل والدراسة.

وأما في مجالات الاقتصاد والزراعة والصناعة برزت قوى النهوض كما لم تبرز في مكان آخر، ولعل التجربة الفلسطينية في عامي الانتفاضة في هذا النطاق تعتبر إسهاماً واقعياً وفعلياً في الجدل العربي الإسلامي الطويل حول إشكالية النهضة والاستقلال.

* كما جسدت الانتفاضة ـ الثورة وحدة الشعب وقواه الفاعلة على الأرض فرغم الخلافات الفكرية والسياسية بين أطراف عدة إلا أن الجميع وجه جهده وضرباته باتجاه العدو مما نزع فتائل تلك الخلافات ليعطيها حجمها الحقيقي أمام عدو شرس يسعى للقضاء على الجميع.
* كسرت الانتفاضة / الثورة ما سمي بالخط الأخضر أي الحد بين شعبنا في الأرض المحتلة منذ ١٩٤٨ وبين الضفة والقطاع المحتلين منذ عام ١٩٦٧، وأكدت على وحدة هذا الشعب ووحدة مصيره من خلال الدعم والإسناد والمشاركة القوية لأهلنا في الجزء المحتل منذ ١٩٤٨.
* أعادت الانتفاضة ـ الثورة القضية الفلسطينية إلى مركز الأحداث في العالم وجعلتها من جديد القضية المركزية للأمة العربية والإسلامية.

(١٠)

اتجاهات المؤامرة والموقف الإسلامي منها

إن رصد الحركة السياسية في المنطقة وفي العالم فيما يخص محاولات إيقاف الانتفاضة ـ الثورة من جهة وإنهاء الرعب الأمني لإسرائيل والأنظمة من جهة أخرى، واستغلال الفرصة بالتالي لإغلاق ملف القضية من جهة ثالثة يشير إلى أنها في أحسن الأحوال ستسير في ثلاثة اتجاهات أساسية وهي:

الاتجاه الاول: أن ينجح المشروع الوطني الفلسطيني فعلاً في تحقيق هدفه نحو إقامة دولة فلسطينية في الضفة والقطاع أو كونفدرالية في الأردن.

وقبل أن نحدد موقفنا إزاء ذلك الوضع نجد من الضروري أن نذكر بالمحاذير المتعلقة بالاستمرار نحو طرح ذلك المشروع على الساحة الفلسطينية والعربية والإسلامية:

١ـ إننا نرى ومن البداية أن معادلة القوة الإقليمية والدولية، وذلك الارتباط العضوي بين المشروع الصهيوني والمشروع الاستعماري الغربي. وعوامل الفكر والأسطورة الدينية والسياسية داخل الكيان الصهيوني، جميعها لا تشير إلى أن هناك اتجاهاً لدى العدو لتقديم ولو حتى مثل هذا التنازل. ونرى أن دفع بعض القوى المحلية والدولية وبعض الصهاينة لمنظمة التحرير لمواصلة التحرك نحو مشروع الدولة بما سبقه من تنازلات وتسويات، لايستهدف في جوهره إلا مزيداً من التمزيق للنضال الفلسطيني، ومحاولة إجهاض نهضة شعبنا وجهاده.

٢ـ إن مثل تلك الدولة إن قامت فستنقل المعركة من معركة ضد العدو إلى معركة على الساحة الفلسطينية ذاتها لما سوف تؤدي إليه صيغة الدولة والتسوية من انقسام في الساحة الفلسطينية.

٣ـ إن هذه الدولة لن تتخلى فقط عن بقية فلسطين إن قامت، بل لن تكون دولة لكل

(*) المصدر: نشرة المجاهد - العدد ٩ - ٢٧ تشرين أول ١٩٨٩م.

الشعب الفلسطيني في الخارج وفي داخل المنطقة المحتلة في ١٩٤٨. وإن كانت، فلن تستطيع استيعابهم جميعاً، كما أنها لن تكون قادرة على الصمود إلا ضمن إطار الإلحاق والتبعية والخضوع للقوى الكبرى، بل وللصغرى أيضاً. !

٤ـ كما أن هذه الدولة، سواء بفدرالية مع الأردن أو باستقلال لن تؤدي إلا إلى تفجير صراع داخلي أردني ـ فلسطيني. نظراً للظروف المعقدة المحيطة بالبلدين وكيانهما السياسي، كما أنها سترفع من حدة التوتر على كل مستوى بلاد الشام على الأقل.

٥ ـ ولكن الكارثة الكبرى في مثل ذلك الوضع، إن تلك الدولة ستصبح جسراً حقيقياً لتوسع المشروع الصهيوني الحضاري والثقافي والاقتصادي نحو كل المنطقة العربية، وبل والعالم الإسلامي بأجمعه. فإن ركع الفلسطينيون أمام التسوية والسلام مع الكيان الصهيوني فمن سيكون بإمكانه أن يصمد. !

وأيضاً ورغم هذه المحاذير جميعاً، فإن تجاهل الجميع صوتنا المرفوع ووجدنا أنفسنا فعلاً في مواجهة ذلك الوضع، فسيكون موقفنا هو التالي:

ـ على مستوى الصراع مع العدو فإن حركتنا ستعتبر أن شيئاً لم يتغير وأن الصراع ضده عسكرياً وسياسياً وثقافياً وبكل الوسائل الأخرى ما زال مفتوحاً إلى أن يندحر مشروعه بالكامل، وسنستمر في دعوة شعبنا وكل أمتنا لمواصلة الجهاد مهما كانت العقبات التي ستوضع أمامنا. وذلك مع التأكيد على أن معركتنا هي مع العدو الصهيوني ومشروعه ولن تكون يوماً مع أي جزء من أجزاء شعبنا وأمتنا.

ـ وعلى مستوى الوضع الفلسطيني الداخلي فسندعو إلى رفع راية الإسلام ونظامه، ففي ذلك أولاً رضى الله سبحانه وتعالى. وفي ذلك ضمانة لمواصلة الصراع إلى النهاية وفي ذلك تواصل مع مئات الملايين من أمتنا الموحدة بالإسلام ومنذ عشرات السنين حول فلسطين.مع التأكيد على أننا ننظر للفلسطينيين المسيحيين

كشركاء وطن وتاريخ وحضارة ومعركة واحدة ضد المشروع الغربي ـ الصهيوني ونرفض على كل المستويات محاولات (التوتير) بين المسلمين والمسيحيين في فلسطين اليوم وغداً وفي كل وقت. فتاريخ الإسلام وحضارته ليس تاريخ نفي الآخرين وإحراقهم إنما هو تاريخ الحضارة القانونية الفذة التي تعترف بالتعدد البشري العقائدي وتتعايش معه وتقنن له. هذا إذا تحركت الأمور الاتجاه الأول.

الاتجاه الثاني: وهو ما ندعو إليه كل قوى شعبنا في ظل ظروف المرحلة الحالية وعجز المنطقة العربية والإسلامية عن التحرك الشامل. ويتلخص في حشد منظم وجاد وحقيقي لكل القوى السياسية ولكل قوى وقواعد شعبنا على كل المستويات لمواصلة الصراع ضد العدو الصهيوني حتى النهاية ودحره من أرضنا شبراً شبراً. وقرية قرية، ومدينة مدينة حتى ساحل المتوسط، على أن تتم إقامة شكل من أشكال النظام السياسي على كل بقعة تتحرر مع استمرار الصراع بلا تسوية ولااعتراف ولا تفاوض، اللهم إلا إذا تقدم العدو للتفاوض على تفكيك مشروعه والرحيل إلى الأبد من بلادنا.

الاتجاه الثالث: وهو ما تعتبره حركتنا مشروعها الاستراتيجي الأساسي، المطابق لسياق تاريخ الصراع في بلادنا وبين أمتنا والمشروع الغربي ـ الصهيوني. وهو أن يستمر شعبنا ومجاهدونا في مواجهة العدو سياسياً وعسكرياً وبكل الوسائل حتى تتفجر طاقات الأمة نحو النهضة والوحدة والاستقلال تحت راية الإسلام العظيم، وتحشد طاقات أمتنا بكاملها أو حتى جزء منهانحو المعركة الفاصلة في بيت المقدس أكناف بيت المقدس.

(١١)

«القسام» المنارة الشامخة على امتداد تاريخنا الطويل

يعبد هنا كان محط رحاله ومهراق دمه مولانا الشيخ «عز الدين القسام» القادم من (جبلة) حتى دميت قدماه إلى (يعبد) ما بين (جبلة) و(يعبد) كانت تحولات التاريخ تدور تلقي بنا إلى مزيد من الغربة والمعاناة والألم، مابين جبلة ويعبد كان القسام يحمل جرحه ويمضي.. يتوقف في الطرقات.. في الحوانيت.. في البيوت.. في ساحات القرى في باحات المساجد.. فوق المنابر يتوكأ على بندقيته. كان القادم من جبلة يرسم لفلسطين خارطة جديدة ضد التحولات وضد المرحلة ضد التجزئة كان وهو يتواصل ويتكامل من جبلة إلى يعبد.

ضد الغرب.. يعلو صوته ـ يغسل أرواح الناس المسلوبة.

ضد الغرب.. يرفع بندقيته إلى صدور عساكرهم.

القسام يوم متجاوز ولحظة مشرقة في أيام صعبة.. وومضة خاطفة ولكنها خصبة وولود مسكونة بكل الرموز القادرة على بعث الثورة وتحقيق ديمومتها.

ونحن نقف اليوم على بعد أكثر من أربعين عاماً من كلمة السر ـ عز الدين القسام ـ وفك رموزها. إنها محاولة صعبة.. فالقسام ذهب في خوابي الماء.. امتزج بكل طمى فلسطين فأنى لنا أن نلملمه؟! ولكنها محاولة تستحق السفر. محاولة البحث عن ملامح عالم الدين.

وهذا يقودنا دوماً إلى سؤال هام يكمن في إجابته جوهر القسام وسره.. حول دور رجل أو عالم الدين! السؤال في حياتنا يمتد قرناً من الزمان ويرتبط جدلياً بالهجمة الغربية ضد الزمان ويرتبط جدلياً بالهجمة الغربية ضد الوطن الإسلامي.. قبل ذلك.. لم يكن مسوغاً أو مبرراً لطرحه فالإسلام أساساً لا يعرف فصلاً بين

(*)(المصدر): المجاهد - العدد ١٠ - ٣ تشرين ثاني ١٩٨٩م

دين وسياسة حتى يسأل بعد ذلك عن علاقة بينهما فتتعدد الإجابات، وتتباين ويدور الجدل والحوار ونعود من حيث عاد كثير من الباحثين.

الإسلام أيها الناس ليس مجرد ملة.. ليس طقوساً.. ليس مسجداً منفصلاً عن المدرسة والمصنع والبيت وساحة الحرب.. الإسلام نظام وقوانين ؛الإدارة الحياة كأشمل مايكون النظام والقوانين وكأوسع ماتكون الحياة.. هذا هو الدين عندما نتحدث عن الإسلام.. السؤال الأهم.. لماذا يغيب هذا المفهوم عن حياتنا ونستمر في السؤال عن العلاقة بموضوعية باردة.. خبيثة أو ساذجة.. من الذي غيب هذا المفهوم عن حياتنا.. من الذي حدد لعالم الدين دور مفتي الحيض والنفاس والطلاق والزواج فيفاجأ عندما يرى القسام مجاهداً أو قائداً للأمة.. هل كان محمد ﷺ قائد العلماء وسيدهم ونبيهم وأسوقهم أسوة واجبة الانتفاع قال تعالى: ﴿لقد كان لكم في رسول الله أسوة حسنة﴾.. هل كان هكذا مفتياً للطلاق والزواج فحسب.. مجرد ساعٍ لإصلاح ذات البين.

السؤال مرة أخرى.. لماذا يغيب دور عالم أو رجل الدين؟ ومن الذي يأخذ دوره؟ وماهي النتائج؟ إنها المؤامرة ضد الإسلام على مدى قرنين من الزمان.. مؤامرة إزاحته كصخرة تحطم عليها دوماً طموح الغرب وغروره أما الذي يأخذ دوره فهو المفكر المغترب والسياسي المغترب.. وكلاء الغرب في الجامعات والسوق وحتى ساحات الحرب.. كيف ستبدو المواجهة إذن وكلاء الغرب ضد الغرب!!

إن دور عالم أو رجل الدين يبدو واضحاً عندما نعلم أن السياسي يستطيع أن يخاطب الجماهير قائلاً هذا مفيد وهذا ضار.. هذا من مصلحة الوطن وهذا في غير مصلحته بينما المواطن تحت ضغط مصالحه وباختلاف موقعه الفكري قد يرى رأياً آخر.

الدين ـ مكنون الأمة ـ يقدم جداراً صعب الاختراق.. الجدار الذي تلجأ إليه

الجماهير.. تستلهم في ظله معاني الحياة.. الجدار الذي تتجاوز صلابته هذه الدنيا الفانية المحدودة بالله.. الوجود المطلق.. والفعل المطلق الذي يهيمن على هذه الدنيا ويعطيها من روحه معنى وقيمة.

ورغم كل محاولات التدمير لا زال مجموع الأمة يرى في الإسلام عقيدته وتراثه وتاريخه وكينونته.. لا زال الإنسان المسلم يتوجه إلى الشيخ سائلاً.. هل هذا حرام أم حلال؟ أهذا شرعي أم غير شرعي؟

ومن هنا يصبح عالم الدين البسيط والعادي شيئاً هاماً في حياة الناس.. أما عالم الدين المجاهد والثوري فهو بدون شك الأقدر على القيادة والبعث والإلهام أما الصورة المشوهة لأصحاب العمائم والواقع المشبوه لبعضهم فهي جزء من المؤامرة ضد الإسلام. المؤامرة التي انتجت نماذج تبسمل وتحوقل وهي تشارك في زفة الباطل. نماذج لا تمت للإسلام بصلة، إن أمثال هذه النماذج المسروقة لا يمكن أن تعطل دور رجال الدين المناضلين.. المنارات الشامخة على امتداد تاريخنا المجيد.

وهكذا كان القسام بخروجه التاريخي رمزاً لكل السائرين على درب الإسلام الإسلام العظيم.. رمز انتصار الواجب على الإمكان.

(١٢)

هل «إسرائيل الكبرى» مشروع أمريكي؟!

العالم يتبادل التهنئة بمناسبة نقل خمسة عشر ألفا من اليهود الفلاشا إلي فلسطين المحتلة من أثيوبيا، والسيد بوش يشرب الأنخاب فرحاً بإنجاز هذه المهمة التاريخية التي أطلق هو نفسه شرارتها، فيما يطرد الفلسطينيون إلي خارج حدود وطنهم وسط استنكارات باهتة لا أهمية ولا معنى لها، هدفها تغطية عورات المجتمع الدولى ليس إلا، أليست هذه المقارنة وحدها كافية لتكشف زيف الغرب وحجم جريمته، فأى حق لذا الأثيوبى في فلسطين التي لم تطأها قدماه ولا أقدام أجداده في أي يوم ـ كى يحمل وسط صخب الغرب وفرحته إلي قلب الأمة فيما يقتلع الفلسطيني من أرضه وجذوره الممتدة إلي آلاف السنين ثم يلقى في العراء بلا وطن وبلا هوية يتنابذه الأعداء والأشقاء.

أى عالم هذا الذي أقر رأى معادلة للقوة ضده تحكمها أمريكا، أمريكا التي تتحدث عن ضرورة عدم الاستيطان في الأراضى العربية المحتلة (الضفة الغربية وقطاع غزة) وتتحدث أحياناً عن الأرض مقابل السلام، وهي المنوط بها دفع القسط الأكبر من تمويل هجرة اليهود السوفيات واستيعابهم في فلسطين المحتلة كما قامت بتسهيل هجرة أول الفلاشا قبل سنوات.

للعرب الكلام والسلام المطرز في الصحف وللكيان الصهيوني الهجرات والأموال والسلاح وكل أدوات النفير، وهي ـ أمريكا ـ تريد السلام ولكن لا تريد الضغط ـ أي ضغط على الكيان الصهيوني ولكنها عندما تريد هجرة اليهود السوفيات لا تبقى قناة ولا وسيلة للضغط على الروس إلا وتفعلها اقتصاديا وسياسيا، دوما كانت أمريكا مستعدة لأن تفعل أي شيء في سبيل ذلك يمكنها أن تسكت عن تحرك الدبابات السوفياتية في جمهوريات البلطيق أما إبطاء الهجرة فلا ولعل هذا حدث يستدعى إيقاظ السيد بوش من نومه على سبيل المثال.

(*) المصدر: صحيفة ـ اللواء الأردنية ٢٩/ ٥/ ١٩٩١م.

ماذا تريد أمريكا إذن؟

لقد جاءت حرب الخليج التي قادتها أمريكا بخلل خطير في توازن القوى في المنطقة لصالح العدو الصهيوني، وها هي الهجرات التي تقودها أيضا أمريكا تصنع وقائعا ديمغرافية جديدة في فلسطين التي يطرد أهلها بشتى الوسائل. ثم تتحدث أمريكا عن الأرض مقابل السلام. والله يعلم أنها مجرد محاولة لتسلية العرب حتى يبتلعوا هزيمة الخليج طلقة طلقة فلماذا يعطى العدو الأرض إن كان يتمتع بالسلام فعلا بحماية اليانكى الأمريكي حتى بات العرب هم الأكثر حاجةللسلام ولماذا يعطى المنتصر شيئاً إلي المهزوم، متى كان هذا من طبيعة الحروب وخصائص معادلات القوة.

لقد بات واضحاً أن مشرع إسرائيل الكاملة أو «إسرائيل الكبرى» ليس سوى مشروع أمريكي طالما أن أمريكا هي التي تمده بكل عناصر قوته وكل احتياجاته الأساسية من تكثيف للهجرات وحشد للبنين إلي المال والاقتصاد إلي الغطاء السياسي أما العرب، فعرب الاعتدال لهم معسول الكلام وعرب التطرف ـ إن بقى فيهم رمق ـ فلهم الرصاص والحصار ولكليهما نفس المصير في نهاية الطريق.

ياكل الأمة حكاما ومحكومين.. رسميين وشعبيين.. هذه هي أمريكا وهذا مشروعها، وهي ليست قدراً نذل له الأعناق فنحن نملك من قوة الروح والمادة ما يجعلنا نصرخ: لا.. هذه الأمة لن تركع إنها والله لصبر ساعة حتى يطل فجرنا ويشرق زماننا الموعود.

(١٣)

٥ حزيران

أربعة وعشرون عاماً تمر اليوم على ذلك الصباح المأساوي ليوم الاثنين ٥ حزيران ١٩٦٧، اليوم الأول في ستة أيام تاريخية صعبة، لم تنته إلا وحيث العدو في قلب بيت المقدس وعلى ضفاف السويس وفوق قرى الجولان، كانت إذاعة عمان تعلن عن سقوط القدس، كان مذيع ذلك اليوم يسكب في النفس الحزن واللوعة ويصعد في القلب النشيج، كانت الجماهير المسلمة من طنجة إلى جاكرتا ومن استامبول إلى لاجوس تخرج إلى المساجد صارخة، ذاهلة، باكية، كانت تسأل عمن يدلها على الطريق، طريق بيت المقدس، دونما مجيب.

أصعب من سقوط بغداد على يد التتار ـ كان ذلك اليوم ـ أو سقوط الأندلس بيد الفرنجة الأسبان وأصعب من سقوط بيت المقدس نفسه على أيدي الصليبيين، لم تحدد تلك الأيام على قسوتها مصير الأمة الإسلامية كما حدد ولا زال ذلك الاثنين.. ٥ حزيران ـ ١٩٦٧ كانت الأمة تملك من أسباب الحياة والاستمرار والمقاومة والجهاد ما يكفي لوقف التتار وتذويبهم واستيعابهم، وما يكفي لرد الصليبيين وهزيمتهم، وما يكفي لتجاوز مأساة الأندلس والتي كانت رغم خسارتها المؤلمة ضربة في الجناح لا في القلب.

في الخامس من حزيران ١٩٦٧ كانت الأمة تتعثر تحت ضربات جلاديها من زعماء وأحزاب وأنظمة، فجاء ذلك اليوم تتويجاً لسنوات طويلة من الخيبة والفشل، سنوات طويلة فشلت فيها البدائل العلمانية في تحقيق الاستقلال والحرية والنهضة والعدالة، وكنا كمن يجري إلى حتفه من ذلك اليوم الأسود، مساحات من الأخضر كانت تنحسر من على ضفاف الأنهر والشطآن، الميادين تزدان بمزيد من صفوف أعواد المشانق، السجون والمعتقلات تزاحم المصانع والجامعات، وهذه ـ مما أصابها ـ لم تعد تستحق الاسم.

(*) **المصدر**: اللواء اللبنانية ٥/ ٦/ ١٩٩١م.

كان الإنسان العربـي يدخل معركة ذلك اليوم ممزق الوجدان، مـطموس الهوية، فاقداً لـلبوصلـة، بعد محـاولات مستمـرة لتفريـغه من بعـده العقائـدي الحضاري التـاريخي الأصـيل، وبعـد أن كانت أصابـعه تطـرق فوق السـندان بلا رحـمة ولا شفقة، وهو لا يجد من خبزه كفاف يومه.

(١٤)

أشرف الشيخ خليل
كيف عبرت إلى الوطن وتركتنا؟

في جنوب فلسطين، في مدينة رفح ولد أشرف بعد ثلاث سنوات على احتلال مدينته الباسلة، لم يشهد المهرجانات العربية، لم يستمع لأناشيد الطغاة وأنصاف الآلهة ولا لموسيقى الجاز، لم يتعرف على فنادق الخمسة نجوم ولا تذوق ترف الثوار ولا أكل من خيرات الثورة!! أشرف كان يشهد يومياً أحذية الجنود الصهاينة، يحدق في بنادقهم ويستنشق رائحة الغاز اليومي ويكبر، أشرف أصبح صبياً كبيراً، أشرف اليوم رجل يدخل السجن ويخرج.. يدخل السجن ويخرج، طارد دوريات الاحتلال بالزجاجات الحارقة كما انضم إلى مجموعة القصاص من كبار العملاء، وعندما أدركه العدو وطارده.. اجتاز الحدود القريبة إلى مصر، ومنذ أن غادر لأكثر من عامين لم ينس أنه سيعود إلى مجموعة مقاتلة للحركة قد سبقته إلى جنوب الوطن، لم يكن يعلم أنه سوف يسبقهم إلى رفح فقد اعترضتهم أجهزة الأمن المصرية.. اعترضت كالعادة مجموعة المجاهدين واقتادتهم إلى غياهب السجن، كما اقتادته إليه عندما غادر الوطن مطارداً من جنود الاحتلال.

أشرف وصل رفح عبر كل فلسطين.. جاءها قادماً من الشمال إلى الجنوب، وقف على حدود فلسطين الشمالية.. قاتل العدو مع إخوانه ببطولة نادرة.. وعندما استشهد لم يجدوا جثمانه، لقد حفر طريقه تحت الأرض ووصل إلى رفح التي اشتاق إليها.. كان دمه جواز سفره، فقد تحرر من عقدة جواز السفر ووثيقة السفر. وعقدة المطارات المحرمة وعقدة السجون الشقيقة، لم يعد باستشهاده هذا الفلسطيني التائه ترده المنافي العربية والمطارات العربية، كم هو جميل هذا الموت الذي يحمل الشهيد إلى الوطن، وكم هو يائس هذا المنفي الكبير باتساع الوطن

(*) المصدر: الأمة - العدد التجريبي الأول - ١/ ٩/ ١٩٩١م ٢٣ صفر - ١٤١٢هـ

العربي الكبير الذي يتسع (لإسرائيل الصغرى والكبرى).. يتسع ليهود العالم ولنصف مليون جندي أمريكي ولا يتسع لفلسطيني يصرخ بلا مأوى...

أشرف الشيخ خليل.

كيف عبرت إلى الوطن.. إلى نسيم الوطن ودفء الوطن وتركتنا في العراء.. كيف جمعت ولخصت وحشرت العواصم والحدود في قطرة دمك لقد فزت بالجائزة.. بالشهادة والوطن.. وبالانعتاق من قيد المنافي ورعب المنافي وضغط المنافي على الأرواح..

(١٥)

١٥ أيار

يوم من أصعب أيام التاريخ العربي والإسلامي، ففي هذا اليوم حقق المشروع الاستعماري الغربي أهم وأخطر أهدافه: إقامة الكيان الصهيوني في القلب من الوطن الإسلامي ليكون عنوانا على تجسيد التحدي كاملاً؛ عقيدياً وحضارياً، وسياسياً واقتصادياً وعسكرياً، فلم تعد المسألة مجرد مشروع ثقافي معادي، إنه الإنسان الغربي نفسه يحمل أحقاد الصليبيين وأوهام التوراتيين والتلموديين ويحتل درة البيت مسلحاً بمنهج الغرب القائم على الصراع والتفتيت والغطرسة والهيمنة وأدوات الغرب في البطش والإرهاب.

١٥ مايو/ أيار ١٩٤٨

أصعب من سقوط بغداد على يد التتار ـ كان ذلك اليوم ـ أو سقوط الاندلس بيد الفرنجة الأسبان، وأصعب من سقوط بيت المقدس على أيدي الصليبيين، لم تحدد تلك الأيام على قسوتها مصير الأمة كما حدد ولازال ذلك اليوم الأسود، كانت الأمة تملك من أسباب الحياة والاستمرار والمقاومة والجهاد ما يكفي لوقف التتار وتذويبهم واستيعابهم، وما يكفي لرد الصليبيين وهزيمتهم، وما يكفي لتجاوز مأساة الأندلس والتي كانت رغم خسارتها المؤلمة ضربة في الجناح لا في القلب.

في هذا اليوم قبل أربعة وأربعين عاماً تم تدشين مرحلة العلو والإفساد الإسرائيلي في المنطقة ليعربد الكيان الصهيوني على مدى العقود الأربعة الماضية فيكمل احتلال بيت المقدس ويدنس المسجد الأقصى، يضرب في صعيد مصر وشط تونس ووسط أفريقيا ومشارف بغداد ليؤكد أن حدوده الأمنية تمتد من شمال أفريقيا إلى باكستان ومن استانبول الى عنتيبي ولاجوس، كما يدخل قادة العدو وسط الصمت العربي وبكل الزهو الى بيروت الذبيحة وترفرف نجمة داوود في سماء قاهرة المعز وتنعكس على صفحة النيل المكبل ساخرة مستهزئة بالأزهر الشامخ لألف عام وبآلاف المآذن وبكل مجد العرب.

(*) المصدر: اللواء البيروتية بمناسبة الذكرى اليمة لاقامة الكيان الصهيوني ١٥/ ٥/ ١٩٩٢م.

في ١٥ مايو (أيار) ١٩٩٢ أصبح واضحاً كالنهار ما خفي عنا قبل أربعين او ثلاثين عاماً، لم تكن فلسطين هي الهدف وإنما المركز والمنطلق: مركز الهجمة ضد كل الوطن الإسلامي ومنطلق علوهم وإفسادهم في كل المنطقة، لقد بات واضحاً أن الكيان الصهيوني في فلسطين هو أهم وأخطر تجليات العدوان الاستعماري ضد المنطقة منذ ظهور الإسلام وحتى الأن، وأن هذا الكيان هو أداة النظام الدولي القديم والجديد في قهر الأمة، في فرض التجزئة والهيمنة عليها وسرقة ثرواتها وتركها نهباً للحوادث والأعاصير، لا رأي ولا دور لها فيما يجري من حولها أو يُراد بها. ولذا يعمل النظام الدولي على تكريس النفوذ الإسرائيلي ويجعل حماية الدولة العبرية من أهم أهدافه فيزودهم بالمال والسلاح والبنين في حين يمعن في تقسيم الحوض العربي الإسلامي قومياً وإقليمياً وطائفياً ويجعل من فكرة إقامة شارع واسع بين عاصمتين عربيتين مسألة خطيرة تحتاج الى رضا دولي، يمنع عنا السلاح بكل الطرق الممكنة في حين يطورون أسلحة العدو ويخزنون أسلحتهم الخاصة في مخازنه، وكل هذا في مظاهرة زائفة خادعة تسمى مؤتمر السلام، مؤتمر فرض الإرادة الامريكية وإعادة ترتيب المنطقة وفق الشروط الإسرائيلية.

إن شعوبنا تدرك اليوم كل هذا وأصبح ضروريا أن يدرك حكام العرب والمسلمين أن الخطر بات يهدد مخادعهم وليس مجرد أطراف حدودهم، يهدد ترفهم ورفاهيتهم وليس مجرد حليب الأطفال وخبز الشعب . وحدهم أطفال فلسطين في الذكرى الرابعة والأربعين لاغتصابها يدافعون عن كرامة الأمة وحدودها وجدارها الأخير، وحدهم فتيان الانتفاضة يخرجون من بين الخرائب والأنقاض ليستمروا في المقاومة حتى يغيب وجه الهجمة في غبار التاريخ، وحدها الانتفاضة ـ الثورة تلوح في الأفق هلالاً من نار ونور تضيء ليل العرب الطويل، نجمة على جبين الأمة وفي سماء الوطن الكبير تدل على الطريق طريق الاستقلال والحرية والنهضة والعدالة تصيح: هلموا من ورائي ياكل المؤمنين، ياكل التائهين

والحيارى، هلموا من ورائي، الانتفاضة ـ الثورة ثغرتنا في جبهة العدو وطريق خروجنا من ذكرى النكبة ومأزق النكبة.

في الذكرى الرابعة والأربعين لاغتصاب جوهرة الإسلام، يسكن الحزن الفؤاد ولكن يسكن الغضب كل شرايين الدم ونرفع قبضتنا في وجه الغزو وكلنا أمل وثقة أن علوهم الى اندحار وأن غزوهم الى زوال.

(١٦)

وجهـــة نظـــر

الدم المسفوح بين فتح وحماس

كان من أهم إنجازات الانـتفاضة المباركة منذ قـيامها بناء قيم الـنهضة والأخلاق داخل المجتمع الـفلسطيني الذي حاول العـدو الصهيوني على مدى سـنوات طويلة تفتيته وتفسيحه وإسقاطه بالإفساد والاستهلاك والتبعية، ولكن الانتفاضة التي كانت ضربا من ضروب المعجزة في نهوضها وعنفوانها واستمرارها أسقطت رهان العدو وأريكته فالـتماسك الاخلاقي الذي برهنـت عليه كان نادر المثال فقـد تضاءل حجم المشاكـل والخلافات وتلاشـت أغلب الجنح مـن الشارع وتلاحـمت فئات الـشعب وتصاعد التكافل والتراحم بين الناس.

شيئـا فشيئا بـدأ الشارع الشعـبي يتراجـع في دوره وبدأت الأحزاب والفـصائل تطرد الجماهير لتحل هي محلها وبدأ المال يتدفق لا لمساعدة المستضعفين من العمال والطلاب والأسرى وعائلات الشهداء وكل الذين يمثلون الوقود الحقيقي للانتفاضة بل لشراء الانتفاضـة شراء النفوذ السياسي في هذه النقابـة أو الجامعة أو المؤسسة أو القرية أو(الزاروب) على الـطريقة اللبنانية«قبل الـعام ١٩٨٢» لقد دفعت الأحزاب والفصائل الجماهير بعيدا عن ساحة المواجهـة(باستثناء الفرص التي كانت الجماهير ترى نفسها أمام تحد كـبير فتتجاوز الأحزاب ليلتهب الوطن وتـتصاعد الانتفاضة). وكان من نـتيجة هـذا الفعل الحزبـي التصارع عـلى النفوذ الـسياسي داخـل الشارع الفلسطيني ثم محاولة الحفاظ على هذا النفوذ بالقوة قوة المال الحزبي من ناحية وقوة السلاح من ناحية ثانـية وقد جاء التمايز السياسي بين الأحزاب ومـواقفها المتعارضة من المسيرة السلموية ليصب الزيت علـى النار خاصة كلما طغى الحديث عن تسوية ما أو تقدم في مسيرة التسوية!! وهيئ لـبعض الأطراف أن تبحث عن موقعها تحت سقف هذه التسوية مهما كان سقفها وآفاقها.

(*) المصدر: (اللواء اللبنانية ١٠/ ٧/ ١٩٩٢).

إن الصـراع الدائـر حاليـا في الـوطن المحتـل بين حـركة فـتح وحركـة المقـاومة الإسلامـية(حـماس) يدمـي القلـب، ليـس فقط لأن الـدم المسفـوح لا مكـان له إلا مواجهة الـعدو الحقيقي ولكن لأنـنا نهدم انجازات الانتفـاضة بأيدينا والعدو الـلئيم واقف يتشفي إن لم يكن ساهم سياسيا وأمنـيا في تصعيد هذا الشجار والصراع كما يؤكد عديدون وكما هي طبيعة العدو التي نعرفها وجربناها جيدا.

عندمـا يئسنـا من أن تتوقف الـقيادة الفلـسطينـية الرسميـة عن تقديم الـتنازلات السياسية طالبنـا بفصل حركة الانتفاضة ونضالها عن المغامـرات السياسية، ولكن ما يدور اليوم هو العكس إذ يجري استغلال الانتفـاضة لصالح المغامرات السياسية بل لا يبالي بعضهم بتعرض الانتفاضة للخطر وتصفيتها أمام تحقيق نفوذ سياسي تمهيدا لدور سياسي أكبر في مشروع رابين القادم..

وهذا الطـرف لا يدرك أن مشروع رابـين هومشروع«إسرائـيل الكبـري» وليس مشروع شامير الذي فهـم «إسرائيل الكبرى» مجرد جغرافيا في حـين يفهمها رابين «هيمنة سياسيـة وثقافية واقتصادية» كما جاء في بيـان حركة الجهاد الإسلامي الذي وزع في فلـسطين الأسبـوع الماضي وقرأه مجـاهدو بيت لحم وهـم يحرقون الـعلم الصهيوني وصور رابين ملك(إسرائيل) القادم.

إننا نناشد الإخوّة في حماس والشباب المنـاضلين في فتح ضبط النفس والتعاون مع كافة الطلائع المجاهدة لأجل تصعيد الانتفاضة وترك(الزواريب) الصغيرة لمن لا يفهمون حركة التاريخ والذين يعيشون على خدر أوهام السلام.

ليتوقـف هذا الدم المسفوح في غيـر محله ولنتمـاسك جميعا في مواجـهة أخطر المراحل.

(١٧)

الابعـــــاد

(لماذا- كيف- إلى أين؟)

في خلفية الأبعاد تقف الفلسفة الصهيونية القائمة على ضرورة طرد الفلسطينيين من وطنهم وإحلال يهود العالم محلهم. إن طرد الفلسطينيين من وطنهم رغبة مكبوتة عند كل يهودي وصهيوني، سواء لدى من يعلن عنها دائماً أمثال ما يسمونهم اليمين المتطرف أو من يخفيها وتنفجر إذا استدعى الأمر كما تبين في موافقة جماعة ميريتس اليسارية على قرار رابين بترحيل أكثر من ٤٠٠ مجاهد فلسطيني.

جاء قرار الإبعاد أيضاً على خلفية العمليات العسكرية- التي نفذتها حركة الجهاد الإسلامي في فلسطين وحركة المقاومة الإسلامية (حماس) ضد العدو الصهيوني في الأسابيع التي سبقت قرار الإبعاد. وخاصة عملية خطف الجندي الصهيوني ومقتله على أيدي حركة حماس.

وقد شهدت تلك الفترة مظاهرات يهودية ضد حكومة رابين منددة بالوضع الأمني المتردي نتيجة العمليات العسكرية الجهادية. ولذا ما إن جاءت عملية خطف الجندي الصهيوني حتى كانت حكومة رابين في وضع لا تحسد عليه شعبياً، ويعتقد الكثيرون أن قرار الابعاد جاء لإنقاذ حكومة رابين من الضغوط الشديدة وربما الانهيار فقد وافق على قرار الإبعاد ٩٢٪ من الإسرائيليين وارتفعت شعبية رابين من جديد.

في نفس الوقت فإن أجهزة الأمن الصهيونية وحكومة رابين يعتقدون أن إبعاد أكثر من ٤٠٠ من قيادات وكوادر ونشطاء الجهاد الإسلامي وحماس سوف يخفف الضغط على الوفد الفلسطيني المفاوض وعلى ياسر عرفات وأنصار عملية السلام.

(*) المصدر: أرشيف حركة الجهاد الإسلامي في فلسطين ـ كتبت يوم ٣٠/ ١٢/ ١٩٩٢.

كما اعـتقد إسحق رابـين أن توقف المفاوضـات الطبيـعي لمدة شهر أو شـهرين، ووجود الفترة الانتقالـية بين ذهاب بوش وحضور كلينتون. سيخـفف الضغط على الكيان الصهيوني فيما لو أقدم على هكذا خطوة.

وهكـذا وتحت إلحاح عـوامل عـديدة ذكرنـا أهمهـا أسرع رابـين باتخـاذ قراره الخطير وهـو يعلم كم هو خـطير. ولكنه حاول تـلافي ذلك بإبعاد هـؤلاء المجاهدين سراً وبأسرع وقت ممكن وقبل انتباه العالم وانتـباه الحكومة اللبنانية وبالتالي ظن أن الضجة التي ستصـاحب قرار الإبعاد لن تستغرق اكثر من أسبـوع ثم ينسى العالم هؤلاء المتطرفين أنصار إيران كما قال عنهم، ويـضيع المبعدون في لبنان وغير لبنان. ولكن اكتشاف القرار قبل تنفيذه غير الاتجاه وهكذا وقعت حكومة رابين في مأزق سيـاسي لازال عـلى أشده حـتى الآن واتـضح الوجـه العنـصري الـبشع لـلكـيان الصهيوني مما دفع وزير الخارجية الأمريكية (بالوكالة) لورانس إيجلبرجر ليقول إن هذه غلطة شنيعة. إن تصرف الحكومة اللبنانية الصلب والذكي والمدعوم من سوريا يزيد من مأزق حكومة رابين.

ومن خلال قـراءة أسماء المبعديـن يتضح أن العدو أبـعد رموز وقيادات علـنية مكشوفة ومعروفة في حركة حماس كذلك أبعـد كثيرين ممن هم أقل أهمية بكثير. ويعتقـد كثيرون أن الضربـة التي وجهت إلى حمـاس هي تلك التي تـلت الإبعاد وخاصة في الأيام الـثلاثة الأخيرة حيث تم ضرب البـنية التحتية لحـماس واكتشاف مصادر تمويـلها وشبكة اتصـالاتها. وفي تقديرنـا لو تأخر قرار الإبعاد أسـبوعاً آخر ربما تغيرت أسماء نصف أعضاء حماس واستبدلت بأسماء أخرى.!!

أما في حركة الجهاد الإسلامي فقد وصل تقرير من داخل فلسطين يقول أن عدد أفراد الجهاد كان يمـكن أن يكون أكثر بكثـير لولا أن كثيراً من كوادر الحـركة الذين ذهب اليهود لاعتقالهم كانوا هربوا من بـيوتهم. ووصل تقرير من مدينة رفح يقول إنه يـوم ٢٨/ ١٢/ ١٩٩٢ أقيم عـرض جماهـيري شمل مـلثمـين وضم المئـات من مؤيدي الجهاد الإسلامي وأطلقت النار في الهواء.

وقد أبعد خمسون من حركة الجهاد الإسلامي في فلسطين، عشرة من قطاع غزة منهم الشيخ عبد الله الشامي والدكتور طاهر اللولو والأخ عبد الله الزق وآخرون وهؤلاء من رموز الحركة ولكن ليس لهم اي دور قيادي تنظيمي حالياً لأسباب أمنية ولأنهم معروفون للعدو. ولذا لم يعتقل أحد من قيادة قطاع غزة ومناطقها لا السياسية ولا العسكرية.

أما في الضفة الغربية فقد جاءت عملية الإبعاد مصاحبة لعملية اعتقالات على إثر بعض العمليات والنشاطات ولذا تم اعتقال قيادات من الخليل ورام الله وطولكرم.

ضربة الجهاد في الضفة الغربية أكبر من ضربة قطاع غزة ولكنها ليست موجعة جداً وبالإمكان تلافي آثارها وهكذا فمن بين المبعدين خمسون من الجهاد الإسلامي، و٣٠٠ من حركة حماس والباقون هم حوالي الخمسين إسلامياً متعاطفون مع الجميع بين مستقلين أو من حماس والجهاد الإسلامي.

إلى أين؟

قرار الإبعاد كما حدده رابين قرار مؤقت يسري لمدة عامين أو عام. بعدها بإمكانهم أن يعودوا. ورأينا أنه لم توضع ضوابط قانونية ودولية ولذلك فليس مستبعداً أن يُمنع المبعدون من العودة. حتى بعد هذه الفترة. ورغم الضجة الدولية فليس متوقعاً أن تقبل حكومة رابين بعودة المبعدين حالياً ولذا فالحل يكمن في التالي:

١- يستمر الضغط الحالي على (إسرائيل) وعلى كافة المستويات لكشف طبيعة هذه الدولة اليهودية. وكي يتعلموا أن ليس بالإمكان تكرار هذا العمل الشنيع.

٢- أن يوضع المبعدون أمانة (سياسية وقانونية) في رعاية الأمم المتحدة (الأمين العام أو مندوب عنه أو هيئة خاصة من الأمم المتحدة) وأن تقوم الأمم المتحدة برعاية هؤلاء المبعدين في مخيم جنوب لبنان (ليس مستبعداً مكان آخر) مجهز

بكل ما يلزم- وأن يتم توقيع اتفاقية بين الأمم المتحدة و(إسرائيل) لإعادة هؤلاء المبعدين خلال فترة معينة (من عدة شهور إلى سنة أو حتى عامين).

٣- يتم تجهيز مخيم للمبعدين برعاية الأمم المتحدة ودعم أوروبي وعربي وإسلامي. في نفس المكان أو مكان قريب منه.

٤- خلال فترة إقامة المخيم يتم إشغال العدو إعلامياً وسياسياً. وأيضاً قضائياً بتقديم طعونات مستمرة في المحاكم الإسرائيلية، (محكمة العدل العليا) لبدء إعادة من يمكن إعادتهم.

هذه بعض الأفكار المقترحة. ولكن كما هو معروف فالمعركة مستمرة وعض الأصابع مستمر وليس واضحاً تماماً عن ماذا ستسفر المعركة خلال الأيام القادمة.

طبعاً هذا لايلغي أبداً أن خطابنا المستمر هو عودة المبعدين

(١٨)

التطبيع مع العدو الصهيوني وموقعه في معركة الهوية والوجود

حاول الصهاينة منذ بداية تنفيذ المشروع الصهيوني في فلسطين أن يحظوا بقبول المحيط العربي الإسلامي، وقدم هرتزل للسلطان عبد الحميد سنة ١٨٩٦ عشرين مليون ليرة ثمناً لفلسطين. وباءوا بالفشل، ولكنهم لم ييأسوا طيلة القرن من كسب أي اعتراف بهم من المحيط، بدءاً باتفاق وايزمن ـ فيصل الشهير، مروراً بإقامة علاقات سرية مع بعض الحكام العرب أو الأنظمة العربية، وليس انتهاء باتفاق غزة ـ أريحا الذي فتح الباب على مصراعيه للمترددين والخائفين ـ لسبب أو لآخر ـ لإقامة علاقات معلنة مع الكيان الصهيوني.

لقد كان للصلح المنفرد الذي وقعه الرئيس المصري أنور السادات مع الصهاينة، أبلغ الأثر في إعادة ترتيب الأوضاع في العالم العربي والإسلامي للقبول بالدور الصهيوني كقوة إقليمية فاعلة في المنطقة، لها حق المساهمة في صياغة السياسات ورسم صورة المستقبل وعلاقاته. لقد كان كامب ديفيد الخطوة (القانونية) الرسمية الأولى في عملية التطبيع. فبعد كامبد ديفيد استطاع الصهاينة أن يبنوا علاقات ناجحة إلى حد ما ـ رغم الرفض الشعبي المصري الكامل للعلاقات وللتطبيع مع الصهاينة ـ مع رموز سياسية وثقافية في مصر لتساعد في إعادة صياغة صورة (الإسرائيلي) في الثقافة والحس الجماهيريين، وكانت مختبراً لدراسة إمكانات واحتمالات مستقبل الكيان الصهيوني في المنطقة، ولدراسة اللغة الإعلامية التي يمكن للصهاينة استخدامها لـ(تطبيع) الوجدان العربي والإسلامي على هضم

(*) المصدر: من أرشيف حركة الجهاد الإسلامي في فلسطين (١٢/ ١٩٩٤).

وجودهم والإقرار به، ثم بسيطرتهم في هـذا الجزء من العالم، وساهمت في إنعاش الاقتصاد (الإسرائيلي) بـفتح آفاق لتطوير التكنولوجيا الـزراعية ودراسة احتياجات الأسواق الـعربية واستغلال مـصر كمعـبر لـ(تمريـر) الإنتاج الـبضائعـي إلى دول المحيط. ولـكن الأخطر من هـذا كله هو الدور المباشر «لكامـب ديفيد» في تحـقيق الرغبة الاستراتـيجية للصهاينة بخلـق موطئ قدم في لبنان (صناعة دويلـة عميلة في جنوب لبنان) وتالياً في اجتياح لبنان وطرد منظمة التحرير منه. وهي سلسلة اكتملت باتفاق غزة ـ أريحا الذي سـيكون بعده فصل جديد من الحياة للكـيان الصهيوني أو الولادة الثانـية للكيان، مما يمـكن أن يكون فاتحة لحلم (إسـرائيل الكبرى) إذا لم يـنتبه العرب والمسلمـون جيداً ويفيقوا من غفلتـهم، وهي غفلة من مظاهرهـا التهوين من شأن قدرة الصهـاينة على تحقيق حـلمهم (الكارثي) أو (تسـفيه الثقافة الصـهيونية) التـي ستذوب في المحـيط الثقـافي العربـي الإسلامي، وبالـتالي لن يـكون للصـلح والتـطبـيع أثـر خطـير بـل ربما كـان هذا في صـالح الـعرب والمسـلمين وقـبلـهم الفلسطيـنيون، وهو ما عبر عنه كاتب المصري بقوله إن الاتفاق ـ وبالتالـي التطبيع ـ (يمكن أن يؤدي إلى انفتـاح على المستوى الحضاري من أجل إثراء الـثقافة الإنسانية، وإلى عودة اليهودي إلى مساره الحضاري المشترك مـع العرب ونبذ الصهيونية كفكر غربي غريب على اليهود... ونحن (العرب) قادرون على امتصاص الغزو ثقافياً).

لم يكن إنشاء الكيان الصهيوني حلاً لمشكلة وجودية لشعب مضطهد بدون دولة كمـا درجت الدعايـة الاستعـمارية علـى القول، ولـكنه حل عـملي لمـأزق الهيمـنة الاستعمارية الغربيـة على العالم. فالكيان مرتبط بالمركز الاسـتعماري ويختزن أسوأ صفات المستعمرين، هذا هو جسم الصهيونيـة وروحها. إن التطبيع يعني للصهيونية الرضـوخ العربـي والإسلامي لحـقيقة وجـود الكيـان كأمر واقـع لا مجال لإزالـته، وبالتالـي إنهاء الصراع معـه. وهذا يوفر للكـيان الظروف المناسـبة للتفرغ والـتوسع وتحسين الاقتصاد والهيمنة السياسية، والتخلص من أعباء حرب الاستنزاف المرهقة

التي يكلفها استمرار الصراع. وما يستحيل تنفيذه بأداة الحرب، سيكون ممكناً بأداة (السلم)، وهو أمر لا يتعدى موازين الصراع والهزيمة أو النصر، أي أن المعركة مستمرة ولكن ضمن قيود ثقيلة تكبل الخصم، وهو الطرف العربي الإسلامي. هذا هو جوهر عملية التطبيع.

من أجل تهيئة الأرضية المناسبة لتحقيق أهداف المشروع الصهيوني يتم التطبيع عبر خطوات لتغيير العقل العربي الإسلامي، أي إعادة تشكيله لتسهيل التعامل مع المشروع. فمثلاً بعد إتمام التطبيع لن يكون مستغرباً ـ ربما ـ التدخل الصهيوني لـ(فض النزاعات) بين كيان عربي ما وكيان عربي آخر، بعد تقبل الكيان الصهيوني كجسم طبيعي ومتجانس في المنطقة. والخطورة ـ موضوعياً ـ في هذا الأمر تكمن في أن رغبات الصهاينة ومصالحهم تتناقض جذرياً وبشكل بنيوي مع رغبات ومصالح المحيط العربي والإسلامي.

(١٩)

من أجل مراجعة نقدية للتجربة الفلسطينية..
يجب إزالة التناقض الوهمى بين العروبة والإسلام

إجابة الدكتور فتحي الشقاقي الأمين العام لحركة الجهاد الإسلامي في فلسطين على السؤال الذي توجهت به مجلة "فتح" حول المراجعة النقدية لتجربة العمل الفلسطيني.

السؤال حول مراجعة الوضع الفلسطيني سؤال هام، رغم انه طُرح كثيراً، وأُجيبَ عليه قليلاً. وسأجيبُ على السؤال من منظورين: خاص وعام.

في الخاص، أقول إن مراجعة تجربة العمل الوطني الفلسطيني وتفحصها بأدوات نقدية هو الذي جعلنا نرى ضرورة دخول الإسلاميين ساحة العمل «النضالي» والجهادي من أجل فلسطين بعد تعثر استمر لعقدين من الزمن. فلطالما ناقشنا التجربة الفلسطينية بإيجابياتها وسلبياتها. ولطالما حاولنا تلمس أسباب نجاحات العمل الوطني الفلسطيني وأسباب إخفاقاته. وكنا نرى المشكلة الأساس تكمن في ابتعاد الأيديولوجيات الثورية التي حملتها بعض التنظيمات عن البحر الذي كانت تسبح فيه، أي عن أيديولوجية الجماهير، وبصيغة أخرى لم تستطع التنظيمات تحويل أفكارها الى أفكار جماهيرية عامة. ورغم هذا التشخيص فإننا لم نتشنج أمام تجربة العمل الوطني الفلسطينية، ولم نقف موقفاً سلبياً إزاء العمل الوطني، ولم نقبل لأنفسنا أن نركن الى الأحكام المسبقة التي كانت تسود التيار الإسلامي العريض بصدد فكرتي «الوطنية» و «القومية». هذه كانت المقدمة لمصالحة الإسلامي مع الوطني ومع القومي، أي لمصالحة أيديولوجيا الجماهير مع قضاياها ومع التحديات التي تواجهها.. مع قضيتها الكبرى فلسطين. وهي أيضاً المقدمة لمصالحة فصائل

(*) المصدر: مجلة (فتح) ـ دمشق ـ غير محدد تاريخ النشر، مأخوذ عن أرشيف حركة الجهاد الإسلامي في فلسطين (١٩٩٤).

الثورة مع واقعها، لئلا تظل معزولة في خطابها وفي وجدانها عن الخطاب الجماهيري وعن الوجدان الجماهيري. فقد كانت التنظيمات تكسب الجماهير بأداة الفعل، وقليلاً ما تكسبها بأداة القول أو أداة العقل. وهذا ما جعل إمكان ابتعاد التنظيمات (بمجملها) عن منطلقاتها الأساسية وعن أهدافها أمراً سهل الحدوث الى حد ما. بينما ارتباط التنظيمات بالوعي الجماهيري وبالهوية الكبرى الحضارية الموحدة يشكل حاضنة لها وحامية من الابتزاز للآخر، ومن السقوط في فخ الانسلاخ عن الذات وفي فخ المؤسساتية.

ولكنني لا أدعي أننا استنفدنا أبواب المراجعة الذاتية والتأريخية لتجربتنا العامة وهي التجربة الفلسطينية بامتداداتها، ولا لتجربتنا الخاصة وهي التجربة حديثة العهد التي رافقت نشوءنا وانخراطنا في ساحة العمل الجهادي العسكري ضد الاحتلال، وكذلك تجربتنا مع الانتفاضة المباركة وتجربتها معنا، وهو أمر بحاجة ملحة الى البحث والاستدراك للتعرف على عناصر القوة والضعف، من أجل ترك تراث نقدي نهتدي به في مستقبل عملنا ويهتدي به شعبنا فيما قد يواجهه من مزالق ومستجدات في الأيام التي تتربص به. بعبارة موجزة، نحن بحاجة الى التهيئة لتشكيل تراكمات وخبرات نضالية لن يتهيأ لها التحقق إلاّ إذا أفردنا مساحة من عملنا للنقد والمراجعات، ليس كعمل طارئ ومنقطع وإنما كعمل مؤسس ومستمر.

أما حول العام في الجواب، وهو المتعلق بتجربة العمل الوطني الفلسطيني، فقد حالت ظروف مفروضة بقهر المؤسسة المسيطرة دون مراجعة شاملة للتجربة. وهي مراجعة كانت دائماً ملحة وحاضرة الظلال وتحمل سؤالاً مفتوحاً. فبعد الإخفاق الكبير في معركة أيلول في الأردن تم خنق الأصوات الداعية الى تقييم ما حدث، وتلك كانت البداية الضرورية للنظر الى الذات. وبعد الحروب اللبنانية الأولى ألغيت كل الأفكار الداعية الى التأمل. وبعد الخروج من بيروت جرى تعويم التجربة والحدث ليختلط الحابل بالنابل، وليصبح الهروب الى سبب الهزيمة هو الهروب من الهزيمة أو الحل! إذ لم يكن في صالح التركيبة المسيطرة في العمل الفلسطيني أن تضع تاريخها وأساليب عملها أمام المحاكمة.

والأسوأ من هذا كله أن شعارات المراجعة وتقييم التجربة كانت تستغل بديماغوجية من أجل الانقلاب على ثوابت العمل الوطني الفلسطيني، بحيث تصبح الواقعية في الاعتراف بالعدو، والتاريخية في تقبل الحقائق التي يفرضها علينا أعداؤنا، والنضج الثوري في التسليم للبهلوانيات السياسية التي قادت البعض الى اتفاق أوسلو، مغالطين بذلك كل حقائق السياسة وثوابت التاريخ ومرتكزات الأمة في الصراع من أجل النهوض والخلاص من التبعية والذيلية للدول الكبرى. إن المراجعة الصحيحة لا يمكن أن تتم إلاّ إذا انبنت على معطيات صحيحة، وقراءة التاريخ غير ممكنة بدون امتلاك الأدوات السليمة للقراءة، وإلا توصلنا الى نتائج خاطئة ومضللة. فالوعي هو أساس العلم، والعلم هو الأساس النظري للمراجعات.

على كل فإن المراجعة المخلصة لتجربة العمل الوطني الفلسطيني هي أكثر من ملحة، وبحاجة الى جهود مخلصة، بل أكاد أقول إنها بحاجة الى استشراف رؤيوي للمستقبل القريب حتى نستطيع تحديد أسلم السبل وأقصرها لتفويت ما ضاع في تاريخنا الراهن ولاستدراك الثغرات التي فتحتها السياسات الانقلابية المضللة التي سخرت تضحيات مناضلينا وفدائيينا للوصول إلي أحضان الصهاينة.

وهناك مجموعة من الملاحظات يجب أخذها بالحسبان في أي عملية مراجعة للتجربة الفلسطينية، وهي:

١) إن من المعضلات التي عانى منها الفكر العربي عامة وانعكست على الوضع الفلسطيني ، محاولة نفي الآخر وظن كل اتجاه وأحياناً كل فصيل أنه يمتلك الحقيقة الكاملة وأنه ليس بحاجة الى ما عند الآخرين من وجهة نظر وآراء، مما كان يقود الى التحجر والجمود من ناحية وزرع بذور الخصومة والاستعداء تالياً. إن الانفتاح والتحاور والبحث عن القواسم المشتركة وتعميقها وتطويرها سيساهم بلا شك في بلورة حركة ثورية أكثر صلابة واكثر قدرة على مواجهة التحديات.

ومسألة نفي الآخر كانت تقود الى مسألة أخرى تحتاج الى مراجعة أيضاً، وهي تضخيم الذات واعتقاد كل طرف أنه ينطبق على القضية ويجسدها، أي المماهاة بين الذات والقضية، وهذا يعني إلغاء القضية لمصلحة الذات، فما يراه مصلحة له فهو مصلحة لفلسطين، وما ليس له فيه مصلحة فليست لفلسطين فيه مصلحة أيضاً. وهذا الاعتقاد أو الوهم هو الذي قاد فئة فلسطينية لتوقع على اتفاق أوسلو الذي يسلم بفلسطين أو بمعظمها للصهاينة مقابل أن تستمر هذه الفئة في مجرد الحياة والوجود، لأنها تظن أنها هي الوصية على القضية وبالتالي فهي نفسها القضية.

٢) وضمن المراجعة مع الذات ومع الآخر لا بد من العمل على إزالة التناقض الوهم بين العروبة والإسلام. خاصة وأن كل طرف من العروبيين أو الإسلاميين بات اليوم أكثر اقتناعاً أنه ليس بالإمكان التفرد بالنضال دون الآخر، وليس بإمكانه تصفية الآخر! وهذا الأمر كان ومنذ البداية غير صحيّ وغير منطقي وغير ضروري وغير ممكن. إن مشكلة الإسلاميين وإنْ كانت قائمة مع العلمنة والتغريب فإنها ليست مع العروبة، فالإسلام لا يعادي خصوصيات الشعوب، خاصةً والجميع يعرف كم ارتبط العرب وتاريخهم بالإسلام. في نفس الوقت ينبغي للعروبي أن يرى في الإسلام هويته المميزة وعمقه الحضاري الذي لا ينفك عنه، وأن يرى بتمعن دور الإسلام في المعركة كأيديولوجية حية وباعثة.

٣) رغم تأكيد الجميع على أن القضية الفلسطينية هي قضية مركزية لحركة التحرر العربية، وللمسلمين، وللإنسانية، إلاّ أن هذه المركزية -في دائرة التعامل- اقتصرت على الدائرة العربية، الى حد ما. ولم يُراعَ البعد الإسلامي لها، بل إن التعامل الأممي (مع حركات التحرر العالمية) كان أشمل وأخذ اهتماماً أكبر من التعامل مع الدائرة الإسلامية. ونحن مع العلاقات والتحالفات مع هذه الدائرة

الإنسانية العريضة، ولكننا نرى أنها كـانت تقوم ضمن عمليات حساب سياسية أضيق بكثير من عـنوانها الإنساني. والاقتصار على الدائرة العـربية أفقدنا دعماً حقـيقياً كـان يمكن أن تقـدمه لنـا الشعوب المـسلمـة، بل هي مسـتعدة طامـحة لتقـديمه. ومن هنا ضرورة انـتقال المركزيـة من الدائرة العـربية وتوسيعـها الى الدائرة الإسـلامية. والارتباط مع الـدائرة الإسلامية يسـتند الي جذور عقـيدية والى الموروث الـديني المشترك والـى مكانة المقدسـات في فلسطين فـي نفوس الشعـوب المسلمـة. وهو ارتباط غيـر آني وغير مصـلحي مجـرد، ولا يمكن أن ينتهـي بتغير العـوامل السياسية، ممـا يجعله أكفـأ وأكثر تأثيراً ومـردوداً لصالح فلسطين من أي ارتباط آخر.

بل يمكن الـقول إن نزول القضيـة الى مجرد الدائرة الـعربية ساهم فـي سرعة انتقالها الى الدائرة الفلسطـينية الضيقة، وبالتالي الى تخـفيف عبء الالتزام عن كواهل المسـارعين الى أسهل الحلول وأقصـرها، بحيث باتوا لا يـرون غضاضة في التحالف مع الأعداء ضد العرب أنفسهم.

٤) تأسيـساً على ما سلـف، نقول إن تحديد المواقـف هو الضمانة لـعدم الانزلاق. إذ عليـنا أن نحدد مسـطرة ثابتة تحـكم العناصر الـثابتة في المـنهج السيـاسي، وفي مسيرة جهادنا، فنحن إذ نعادي القطرية والوطنية الضيقة التي قادت البعض الى خدعة القرار الفـلسطيني المستقل، نؤكـد على أن القضية الفلسطـينية يجب أن تبقـى أكبر من كـل المحاور عربيـةً وغيرَ عربـية، ولا يجوز وضـعها في خـدمة طرف ضد طرف، وهذا لا يتنـاقض مع واجبنا في تعزيز روابطنـا وتحالفاتنا مع القوى الوحدوية المعادية لـلصهيونية، بل يمتنها ويجعلها قـائمة على أسس ثابتة ويعـطيهـا الضـمانات بـأن تحالفـاتنـا لن تميـل مع عصـف رياح المـتغيـرات في السياسات.

وأخيراً، فإن عملية المراجعة يجب أن تـتم علي صعيدين. الأول: صعيد نظري فكري يقوم به المختصون في دراسة تجربتنـا وتاريخنا المعاصرين. والثاني: تقوم

به التنظيمات والقوى الفلسطينية للتبصر في مواطن الضعف التي تعيقها عن قيادة مسيرة شعبنا في جهاده وفي كفاحه من أجل استرداد وطنه وكرامته وهويته، وهو أمر يتطلب مقداراً كبيراً من التجرد وإيثار القضية المقدسة على مصالح التنظيم، وتغليب مصلحة الشعب على مصلحة المؤسسة. فالتنظيمات كلها ليست سوى أشكال وجدت من أجل العمل على درب التحرير، وليس وجودها مقدساً ولا يجوز لها أن تركن للثبات التنظيمي أو للصنمية المؤسساتية. ففلسطين أكبر من كل التنظيمات، والمبادئ أهم بكثير ممن يحملونها، والشعوب ستستمر في العطاء والتضحيات مهما توقفت على الطريق بُنىً وقوىً أو تهالكَ الأفراد تحت ثقل الحمل وعجزوا عن الوصول. الشعوب لا بد أن تصل.

(٢٠)

أزمة المعارضة الفلسطينية

* بعد مدريد أصبح البديل أمراً ملحاً وضرورياً، لأنه أصبح مسألة حياة أو موت للقضية الفلسطينية، ولم تعد هناك محاذير أو موانع أدبية أمام قيام البديل، الذي أصبح مطلباً شعبياً أيضاً، فقد حسم الطرف الآخر موقعه وقام بسحب المؤسسات التي يسيطر عليها، لتخدم عملية انتقاله إلي الخندق الآخر، المتمثل فى سلطة الحكم الذاتى التي لا يمكنها أن تتحرر من أسر وظيفتها كوكيل محلى للاحتلال. ولكن قيام البديل، على رغم توافر مبرراته السياسية والأدبية وعلى رغم الإجماع الفصائلى والشعبى على ضرورته لا يزال يواجه أزمة حادة علينا أن نتضافر بوعى وقوة لتجاوزها.

إن نظرة سريعة إلي الساحة السياسية الفلسطينية تخرج بانطباع عن التركيبة الممكنة لعناصر البديل، ولن تعدو هذه التركيبة أن تكون إعادة صياغة لتحالف القوى الفلسطينية مع توسيعه ليضم قوى وشخصيات غير ممثلة فى التحالف.

إن القوى السياسية الفلسطينية، على رغم اتفاقها على جملة من المسائل الأساسية بالنسبة إلي القضية الفلسطينية، إلا أنها تعيش واقع المواقف السياسية المختلفة، أي تباين البرامج السياسية، المختلفة،ولكن هذا الأمر ممكن التجاوز بشرط عدم وضع التكتيكى فى مواجهة الاستراتيجى أو بشكل يصادر فيه التكتيكى الاستراتيجى ويلغيه أي أن الذي يقبل حلا جزئيا أو مرحليا لا يجوز له أن يعطل على الذي يطرح دفعة واحدة فلسطين الكاملة، وعلى الطرفين أن يجدا وسيلة لضبط إيقاعهما نحو الهدف. فعلى سبيل المثال. عندما تناهت إلي أسماعنا أخبار أوسلو، وقبل توقيع

(*) المصدر: من أرشيف حركة الإسلامي في فلسطين (نشر في جريدة الحياة عام ١٩٩٤ (غير محدد تاريخ النشر).

الاتفاق فى واشنطن. تداعينا فى الفصائل العشرة إلي لقاءات حامية وعاطفية ومؤثرة من أجل التفعيل والتطوير السياسي والتنظيمى لصيغة العشرة باتجاه جبهة على الأقل تكون أكثر تماسكاً سياسياً وأكثر فعالية تنظيمياً وللأسف، استهلكنا أربعة شهور وخمسة أيام فى جدل وخلاف حول مرجعية الميثاق الوطني وجدوى إضافة فلسطين التاريخية كمرجعية جغرافية وسياسية لأهدافنا، أربعة شهور من الجدل وأزمة الثقة نقلتنا من حماسة اجتماع الفاتح من أيلول (سبتمبر) ١٩٩٣ إلي برودة كانون الثانى (يناير) ١٩٩٤ حتى أقر التحالف بعد مخاض عسير وعملية قيصرية بالحد الأدنى من المشاعر والكلمات والمعانى.

أقول بوضوح إنه لم يكن لقوى تريد فى لحظة مصيرية أن تتحشد فى جبهة واحدة ملحة وأكثر من ضرورية، لم يكن لها أو لبعضها أن تضع مساحة الوطن وجغرافيته موضع تساؤل مهما تمرحلت البرامج السياسية لهذه القوى.

إن قبول أصحاب البرنامج المرحلى بسقف فلسطين الكاملة لا يلغى رؤيتهم السياسية ولا يتعارض مع برنامجهم الاستراتيجى فى حين كان قبول بعض القوى وأقصد القوى الإسلامية وأخرى وطنية ـ بطرح فلسطين غير الكاملة كان يعنى إلغاءها وفقدانها مبررات وجودها.

كانت أزمة الثقة عائقاً حقيقياً أمام توافق القوى على البديل، وقد انعكست هذه الأزمة فى التشكيك بنوايا الأطراف، وأثارت لا مبالاة داخلية بالتحالف ونقصاً فى الاقتناع بدور التحالف وأهميته وأهمية التقاء الأطراف المكونة له، مما جعل التنظيمات عاجزة عن فهم بعضها جيدا وهي تقرأ عن بعضها وتعرف مواقف بعضها من الصحف ووسائل الإعلام، فى ظل لقاءات متباعدة لا يسبقها تقديم أو تحضير كاف، ما يجعل هذا اللقاء غير قادر على حل الإشكالات وتصفية الأجواء المعرضة باستمرار للتشويش والتعكير، إضافة إلي عدم بذل الجهود الكافية للتوصل إلي التفاهم ولوضع آليات لتنفيذ التفاهم فى حال التوصل إليه.

ولكن هذه التعارضات لم تكن مانعاً جاداً فى سبيل التوصل إلي البديل، بل إن قدرتنا على تحديدها يعطينا دفعا باتجاه تجاوزها والتوصل إلي صيغة ممكنة قادرة على إخراج شعبنا من مأزقه.

إن على البديل أن يحدد، منذ البداية، وبشكل واضح، تناقضه الكامل مع المشروع الآخر. وإذا كنا مضطرين لتحديد الآخر ببرنامج ومشروع أوسلو، فليس مسموحاً لأحد منا أن ينطلق من أرضية ذلك المشروع نفسها تحت أي ظرف من الظروف وبأى دعوى من الدعوات، مثل إدخال تحسينات والبناء على ما هو موجود أو نصرة ما يسمى الفريق العربي الفلسطيني على الفريق الصهيوني داخل مشروع أوسلو أو غير ذلك من المبررات أو الذرائع، لأن هذا يعنى أن ينهش المشروع الاخر أطراف البديل الوطني المأمول واحداً تلو الآخر.

كما أن البديل يجب أن يقوم على احترام متبادل بين جميع أطرافه والتأكيد على الشرعية والمصداقية الوطنية المتبادلة بين الجميع بلا نفى أو إقصاء. فنحن رفاق درب وسلاح وموقف.

وفى الوقت نفسه، فإن هذا البديل لن يكون قادراً على مواجهة التحدى بمجرد الإعلان الجبهوى من دون أي تغيير أو تطوير فى مستوى الأداء لكل طرف من أطرافه، ولذا فإن إعادة ترتيب أوضاعنا التنظيمية الداخلية، إسلامياً ووطنيا وديموقراطياً، أمر فى غاية الاهمية للتخلص من رواسب سنوات طويلة من الروتين والبيرقراطية والفهلوة والاستبداد وأحياناً الفساد الذي بات يطال مستويات متعددة.

إن هذا بحاجة إلي ثورة ثقافية ومسلكية تعصف بكل ما هو بال ورث وعاجز ومبدد من موروثات السنوات العشرين أو الثلاثين الماضية، باتجاه التجديد الفكري والتنظيمى على أساس ديمقراطى حقيقى، وباتجاه تكريس مناقب الزهد والتضحيةونكران الذات، من دون التجديد والتثوير والتنوير داخل كل فصيل وداخل كل طرف لن نعطى للبديل مضاءة وتأثيره الانقلابى المطلوب عاجلاً.

كما أن البديل ـ الجبهة يجب أن يكون محصلة لفعل التنظيمات والقوى المشاركة، وليس مجرد نصاب سياسي عددى أو عنوان أو منبر أو سوق عكاظ لنفث الهموم والشكاوى من واقع الحال يجب أن نتجاوز مرحلة المنبر السياسي الذي كان عنوان عملنا ومعناه على مدى أكثر من عامين باتجاه جبهة متماسكة وفاعلة تحكمها علاقات داخلية ديموقراطية ملزمة، على أساس برنامج سياسي واضح يحظى بالإجماع الشعبى ويتعامل بحكمة وحنكة مع التعارضات السياسية التقليدية بين أطراف متباينة أيديولوجيا وأحياناً سياسياً، والتأكيد على عدم تعارض التكتيكى أو المرحلى مع الاستراتيجى بل أن يخدمه ويقود إليه.

إن غياب هذا البرنامج السياسي المشترك الواضح والملزم يعنى غموض الرؤى السياسية والالتزامات السياسية ويدفع إلي قيام أزمة الثقة بين أطراف الجبهة أو البديل، كتلك الأزمة التي استحكمت بين أطراف عدة داخل التحالف لأكثر من عام، وكان مبعثها الحواجز النفسية والتشكيك بالنوايا وتراكم الخلافات من دون بحث ودراسة ومصارحة.. فهذا الطرف يظن أن حليفه المفترض ذاهب إلي التسوية أو إلي علاقة غير مشروعة مع السلطة والعكس صحيح. هذا فى حين تستعر حرب إشاعات يغذيها الإعلام من ناحية ونزعات حزبية من ناحية أخرى. وهذا ينقلنا إلي مسألة جوهرية أخرى ونحن نتقصى الذاتى فى ما يتعلق بالبديل، وهي مسألة تصيب الشعوب والأمم عند انحطاط الحضارات وانهيارها حين تنمو النزعة الفردية الهروبية ويتم تغليب الخاص على العام. والأخطر من تبرير ذلك باعتقاد أصحاب هذه النزعات، أنها تنطبق على القضية وأن مصلحة القضية من مصلحتهم وليس العكس، مما يدفعهم إلي الحفاظ على الذاتى بأى ثمن والحصول على المكاسب بأى طريقة وأنهم يظنون أنهم يحسنون صنعاً، إن هذا عين ما عاشه ياسر عرفات على مدى ثلاثين عاماً، وأن هذا هو ما قاده إلي حكم ذاتى فى غزة غير مدرك أو غير عابىء بالأحرى بما هو مصلحة عليا وبأن القضية أكبر من كل الأفراد والفصائل بل أكبر من كل الشعب ففلسطين ملك الشعب والأمة، ملك أجيال الحاضر والمستقبل، وهي مركز الصراع الكونى وساحة الصراع والتماس بين الأمة العربية والإسلامية وبين أعدائها التاريخيين.

إن تغليب الخاص على العام مظهر من مظاهر الانحطاط والهزيمة والتفتت، ولن نصنع بديلاً حقيقياً أو جاداً إلا عندما تعاد للمصلحة العامة قيمتها العليا فى رؤيتنا وفى فعلنا.

وبعد، لا ننسى أن هناك عوامل موضوعية لابد من أخذها فى الحسبان، تتمثل أساساً بالعامل الدولى والإقليمى، ففى ظل التفرد والإرهاب الأميركيين تجد المعارضة الفلسطينية نفسها للمرة الأولى فى تاريخها المعاصر مكشوفة من دون غطاء مادى أو سياسي أو معنوى إلا من علاقات هنا وهناك أضعف من أن تكون حاضنة أو سنداً استراتيجياً. ومع ذلك فالبديل الوطني عليه أن يبذل أقصى الجهد فى مدى علاقاته وتحالفاته مع كل القوى التي تستشعر مثله الخطر على وجودها واستمرارها لقيام أوسع تحالف ممكن فلسطينياً وإسلامياً وعربياً، من دون نسيان أن هناك قوى وأطرافاً عالمية ترفض الهيمنة والتفرد الأميركين وتعانى منهما مثلما نعانى. وفى هذا السياق نؤكد ضرورة تماسك التيارات الوطنية التقدمية القومية والإسلامية ليس على ساحة فلسطين وحدها ولكن على ساحة الوطن العربي وكل الأمة لتشكل سنداً لنضالنا وجهادنا فى فلسطين. وهذا يستدعى إقامة الجسور القوية مع الجماهير العربية والإسلامية وأحزابها وهيئاتها وقواها الطليعية.

أما فى ما يتعلق بمسألة الأحجام التنظيمية والسياسية داخل هذا البديل، وبروز نظرية العمود الفقرى أو التنظيم القائد، فإن مسألة الأحجام عندما تكون واقعاً يستحيل تجاوزه أو القفز عليه ولكن مسألة التنظيم القائد أو العمود الفقرى، إن وجد، وكان بروزه ملحاً، فيجب أن ترتبط ببرنامج النضال القائد، على قاعدة «لا طاعة لتنظيم قائد فى معصية البرنامج المتفق عليه». فالأولوية للبرنامج ولا اعتراض بعد ذلك على فكرة التنظيم القائد، إن وجد على أرض الواقع بحجمه المؤثر والتزامه الوطني الجاد، وضمن إطار ديمقراطى.

إن ما تقدم لا يعدو كونه مروراً سريعاً على موضوع بحاجة إلي دراسة متأنية وتدقيق وتعمق لأنه موضوع يعانى من تراكمات سنوات طويلة حافلة ومن تشابك وتعقيد بحجم تشابك القضية الفلسطينية وتعقيدها.

(٢١)

يا قدس يا كاشفة العورات

منذ سنوات طويلة كان واضحا أمام متابعي ومراقبي التسوية السياسية في المنطقة، أن العقدة الجوهرية أمام عملية التسوية تكمن في وضع القدس، فعلى الرغم من النسبي الذي يسود العالم إلا أنه في القدس يتواجه مطلقان، مطلقان متصارعان:

المطلق الإسلامي والمطلق اليهودي.

المطلق العربي الفلسطيني والمطلق الصهيوني.

في القدس حسمت كمدينة مسلمة مقدسة ـ بأمر وتوجيه إلهي ـ يوم كان محمد صلى الله عليه وسلم وصحبه لا يتجاوزون بضع عشرات مهددين بالموت في شعاب مكة والقدس في الفكر التوراتي مكان لراحة اليهودي الابدية، حتى جسد اليهودي الذي يموت في أقصى الارض عليه أن يزحف تحت البحار والمحيطات والأرضين إلى أن يصل بيت المقدس. أورشليم ـ لتستقر روحه كما تتحدث أساطيرهم، إن التخلي عن القدس في الفكر اليهودي التوراتي ضرب من ضروب الكفر، أما عند المسلمين فهذا الأمر ـ التخلي عن القدس ـ هو الكفر بعينه، إذ هنا أولى القبلتين وثالث الحرمين الشريفين، هنا مستقر راحلة محمد صلى الله عليه وسلم في الارض وهنا صلى بالأنبياء تأكيدا لعالمية الرسالة وقيمومة وشهادة المسلمين على البشرية، وفي ليلة القدس كان الوحي بالصلاة كما الوحي بالبشري والوعد. هنا المطلق الذي لا يعرف القسمة، هنا القدس او الكفر. ولذا وجدنا أنظمة كمصر والسعودية تدفع صوتها عاليا بالحرص على القدس وأنها من الثوابت التي لا يمكن التنازل عنها، والله يعلم والأمة تعلم، الشيطان يعلم وأعداء الأمة يعلمون. إن النظام المصري والسعودي بدورهما الخطير والمشبوه أول المسؤولين عن

(*) المصدر: من أرشيف حركة الجهاد الإسلامي في فلسطين

ضياع القدس سابقا ولاحقا قبل التوقيع وبعد التوقيع، وليس هذا الحرص المفتعل في وسائل الإعلام إلا كما المريب يقول خذوني ليس إلا نفاقا مفضوحا، فهم الذين يضغطون يوميا مباشرة وغير مباشرة لاجل أن يصطف الفلسطينيون على أبواب مؤتمر سلام يسلبهم كل شيء ولا يهبهم سوى الخسران والمذلة، بل وعليهم من قبل أن يصطفوا أن ينسوا موضوع القدس نهائيا، وبعد ذلك يظن هؤلاء الحكام المنافقون أن الكلام المجاني يمكن أن يغطي عوراتهم. اليوم لم يبق لغافل أو جاهل عذر وحكامنا من كل صوب وحدب يريدون أن يكتموا صوت مآذن الأقصى المبارك.

اليوم تتكشف عورة النظام العربي الذي تاجر بالقضية الفلسطينية أربعين عاما ويزيد، اليوم يريد أن يتخلص منها بأي ثمن بل لم يعد يرغب حتى بالمتاجرة بها، إذ يتحسسها جمرة يريد أن يلقيها في أي اتجاه.

اليوم تتكشف عورة النظام الدولي الجديد ـ القديم والبشع والذي يريد أن يهب قدس أقداسنا لمحتل غاصب مستهترا بحقنا الراسخ بقيمنا الدينية، في حين أن جديد هذا النظام قام وعلا لأنه رفض وضع احتلال صحراء الكويت.

اليوم تتكشف عورة المسلمين الذين يجأرون إلى الله بالدعاء أن يحفظ علهيم دينهم ومقدساتهم فيما هم يغمضون العين عما يجري في فلسطين ويقبضون اليد عن تقديم أي عون.

اليوم تتكشف عورة النهج الفلسطيني الرسمي الذي فتح باب التنازلات المجانية وفرط في حقه فيلاقي اليوم ما يلاقي ويقف زعماؤه ـ يا رب كما خلقتني ـ يتباكون، "يتباكون مثل النساء ملكا لم يحافظوا عليه مثل الرجال."

يا قدس.. يا كاشفة العورات.. رغم الحزن والألم.. نلمح ابتسامتك وأنت تلحظين ما يدور حولك كأنه لثغ الأطفال ولعب الأطفال.

المجد لك والوعد والبشرى

(٢٢)

"اللهم انصرنا في أفغانستان
وارزقنا الشهادة في فلسطين"

وأخيرا دخل المجاهدون الأفغان كابول بعد سنوات من المقاومة والجهاد المستمر، مئات الآلاف من الضحايا وملايين المهجرين وأسلحة فتاكة ودولة عظمى (!) لم تحل دون دخولهم أخيرا ظافرين منتصرين.

لن يغير من حقيقة وأهمية هذا النصر التاريخي الكبير أن هناك صراعات أو خلافا باديا أو خافيا بين المجاهدين قد يقصر أو يطول، صراع لا ندري إن كان من سنة الحياة وطباع الأخوة أم أنها سنة النظام الدولي الجديد كما القديم، لا يرتاح له بال إلا وهو يرانا فرقا فرقا. إن المؤامرة الكبيرة ضد الأمة الإسلامية والتي تقود كبرها الولايات المتحدة الامريكية لن تستثني أفغانستان من دون الأمة ومن دون المنطقة. وإن وجدت أمريكا في يوم ما أن لها مصلحة حيوية في مواجهة المد السوفيتي ومحاربة الاحتلال السوفيتي لأفغانستان، فإنها ترى من مصلحتها الحيوية أيضا منع المجاهدين من قطف ثمار النصر الكامل، بل ومنعهم من إقامة الحكومة الإسلامية التي يأملون. كما أن دولا في المنطقة ساعدت المجاهدين بشكل أو بآخر، لسبب أو أكثر لن يسعدها أن ترى اليوم حكومة إسلامية مجاهدة أو صالحة في كابول وهي التي تحارب وتحاصر مثيلتها في السودان وأيدت منعها في الجزائر فضلا عن الموقف المعادي المزمن من وجودها في إيران.

ولكننا نثق أن الشعب الأفغاني المؤمن المجاهد الذي قدم كل التضحيات تتقدمه طلائعه المقاتلة وفصائله المجاهدة جميعها لا يمكن أن يقبل بأقل من إعلان الحكومة الإسلامية الكاملة شكلا وجوهرا، وأن هذا الشعب وطلائعه وفصائله يعون أن أمريكا ستبقى رأس الطاغوت وزعيمة الاستكبار العالمي وأن الذين يحاربون الإسلام الحقيقي في بلدانهم لن يقبلوا انتصار المجاهدين الحاسم في أفغانستان وسيفعلون جهدهم لتمييع الموقف.

(*) المصدر: من أرشيف حركة الجهاد الإسلامي في فلسطين.

إن قيام الحكومة الإسلامية في كابول هو الهدف الذي قاتل المجاهدون لأجله أكثر من ثلاثة عشر عاما ولا يمكن للأمة أن تغفر لما هو دون ذلك بعد هذا الحجم الكبير من التضحيات. والحكومة الإسلامية هي حكومة المستضعفين وهي حكومة فلسطين والجهاد في فلسطين، وبدون ذلك لن تكون حكومة إسلامية.

ثلاثة عشر عاما كان الشعار المرفوع ": اللهم انصرنا في أفغانستان وارزقنا الشهادة في فلسطين" ولقد ذهب إسلاميون وعرب وفلسطينيون أيضا ليقاتلوا في أفغانستان دفاعا عن أرض الإسلام، ومنهم من ترك وراءه ساحة الصراع الأساسية مع الغرب والكفر، وترك وراءه جوهرة الإسلام فلسطين المحتلة تدنسها حوافر الغازي اليهودي الصليبي.

ربما كانت قناعتهم أنه لا فرق بين أرض الإسلام في أفغانستان وأرض الإسلام في فلسطين، وربما قالوا إن راية الإسلام لم تكن مرفوعة في فلسطين ـ حين ذهبنا ـ بل رايات علمانية!! وأنه لا يجوز الجهاد إلا تحت راية أمير مسلم! وربما شاهدوا الطريق الى فلسطين صعبة شاقة لا ينفذون منها وسط الحصار الدولي والإقليمي والعربي الذي يحمي الكيان الصهيوني. فيما الطريق إلى أفغانستان سهلة وسط رضا أطراف عديدة، كما أن هناك من فكر أنه سيتزود بالخبرة والتجربة في بيشاور قبل الانطلاق الى فلسطين، وكأنه يريد حقا إحياء شعار المجاهدين "اللهم انصرنا في أفغانستان وارزقنا الشهادة في فلسطين." واليوم وقد نصرنا الله في أفغانستان ماذا نحن فاعلون في فلسطين، اليوم تأتي هذه الكاشف: فلسطين لتضع الجميع على المحك. هل ذهبوا لأفغانستان لأجل الجهاد حقا وعليهم أن يوجهوا بنادقهم اليوم إلى بيت المقدس، أم أنهم ذهبوا لأسباب ومآرب أخرى. هل كانت أفغانستان محطة في الطريق إلى فلسطين، أم هروب من ساحة المعركة الاساسية.

نحن لا نسأل الحكومات والدول التي فتحت أبوابها للمجاهدين الأفغان وساندتهم، وفي نفس الوقت ضيعت فلسطين وخانت مسرى الرسول صلى الله عليه وسلم ومعراجه.

نحن لا نسأل الحكومات التي فتحت مكاتب المجاهدين الأفغان على أرضها بلا حصر ولا عدد، فيما اعتقلت مجاهدين من فلسطين حاولوا أن يجمعوا التبرعات لمجاهدي فلسطين وعوائل شهدائها.

نحن لا نسأل الحكومات التي رفضت المساومة على مستقبل أفغانستان سواء مع السوفييت أو مع نظام كابول الشيوعي، ولكنها تشارك كل يوم في مؤامرة بيع فلسطين وبيت المقدس.

نحن لا نسأل هؤلاء، ولكن نسأل الذين تحججوا بأن راية الإسلام لم تكن تظلل المقاتلين في فلسطين وهم يسمعون اليوم صيحات "الله أكبر" تتردد في كل جنبات فلسطين وهم يرون راية الجهاد تخفق والدم الإسلامي ينزف بلا توقف في ساحات المسجد الأقصى ومن حوله، نسأل الذين انتظروا النصر في أفغانستان وها هم يرونه وعليهم أن يحققوا الشطر الثاني، شطر الشهادة في فلسطين.

فلسطين ستبقى دلالة وإشارة إلى عزتهم أو ذلهم، حريتهم أو عبوديتهم، وحدتهم أو تفرقهم، نهضتهم واستقلالهم أو تخلفهم وتبعيتهم.. فلسطين ستبقى دلالة على الإيمان أو الكفر وهي بانتظار قوافل المجاهدين، وليكن درسنا من افغانستان إن إرادة الشعوب لا تقهر وأن إرادة الجهاد طريقنا إلى النصر.

(٢٣)

أفغانستان

ما يجري في أفغانستان.. فنحن أولا نبارك لإخواننا المجاهدين النصر الذي حققوه بدخول كابول ظافرين، رغم أن الوضع الدولي والإقليمي كان ينتظر أن تتم تسوية المسألة عبر خطة الأمم المتحدة التي حملها مبعوث الأمم المتحدة بنون سيفان، وتدعو إلى عقد مؤتمر افغاني موسع في جنيف أو فينا تحضره مختلف الأطراف الأفغانية ما عدا نجيب الله، وتنبثق عنه حكومة انتقالية مؤقتة تتولى إجراء انتخابات في البلاد والإشراف على تأليف حكومة شرعية ووضع دستور جديد لأفغانستان. ولكن استقالة نجيب الله وسرعة انهيار النظام فاجأت الجميع وجعلت شخصا مثل مسعود شاه يغير وجهة نظرة من خطة الأمم المتحدة ويفكر بدخول كابول والسيطرة عليها (سلما).

وقد تعاون مع مسعود بعض أركان الوضع السابق مثل الجنرال عبد المؤمن والجنرال عبد الرشيد دوستم (أوزبكي)، ,ويبدو أن دوستم هذا كان من جماعة حكمتيار حتى عام ٨٥ ثم انضم الى رباني (الجماعة الإسلامية) ثم إلى الحكومة في كابول، ثم الجنرال سيد منصور نادري والجنرال الرابع هو محمد نبي عظيمي (بشتوني الأب طاجيكي الأم) وشغل منصب نائب وزير الدفاع في حكومة كابول وهؤلاء الأربعة يعرفون بمجموعة كابول وتعاونوا مع مسعود في السيطرة على كابول سلما.

إذا المفاجأة كانت في انهيار النظام السريع، ولكن المشكلة التي تبرز هي في الصراع الداخلي بين المجاهدين وخاصة الفصائل السبعة السنية (٨٠٪ من السكان والباقي شيعة) وخاصة بين حكمتيار زعيم الحزب الإسلامي وأحمد شاه مسعود

(*) المصدر: من أرشيف حركة الجهاد الإسلامي في فلسطين

القائد العسكري للجمعية الإسلامية، حيث كان معروفا قبل ذلك ان الصراع سيكون بين هذين الطرفين أو الزعيمين.

ليس هناك أحد مبرأ من الخطأ أو منزه من الدوافع السياسية والعملية.. حكمتيار يعتبر نفسه الأقوى، ممثل الأغلبية (البشتون) وهو أكثر راديكالية أمام عملية وواقعية أحمد شاه مسعود، عنيف في التعامل مع خصومه، أعدم وقتل عشرات من قيادات وكوادر الجمعية الإسلامية في آب ١٩٨٩، وفي السنة الماضية قام بتصفية مجموعة سلفية وقيادتها تصفية جسدية، وعندما سأله صحفي عربي في بيشاور في مؤتمر صحفي عن هذا الأمر أجاب ببرود: أنتم العرب قتلتموهم، أنتم جئتم إلى هذه البلد ودعمتم وساعدتم مجموعات هامشية صغيرة تهدد وحدتنا وتماسكنا، وكان علينا أن نفعل ما فعلناه. البعض يعتبره دمويا وقاسيا.. إنه في الحقيقة صلب وكالصقر لا يعرف الحلول الوسط وينظر بدونية واحتقار إلى الآخرين. كان مقربا جدا من ضياء الحق والمخابرات الباكستانية في عهده، وكان ضياء الحق يساعده كثيرا ويقدم له السلاح وكذلك الجزء الرئيسي من المساعدات التي تصل للمجاهدين عبر باكستان، كان ضياء الحق يعتبره كإبنه ولكن الموقف تغير بعض الشيء بعد رحيل ضياء الحق، لا يبدي حكمتيار انفتاحا على تنظيمات المجاهدين الأخرى، يرفض التعاون بأي شكل مع عناصر من النظام السابق ويدعو إلى إسقاط كابول بالقوة حتى لو قاد الأمر إلى حرب أي حرب أهلية، ومن هنا رفض وتحفظ على مجلس المجاهدين الذي وافق عليه مسعود، حكمتيار بسبب قوته غير محبوب من بقية قادة الأحزاب وليس رجل إجماع بينهم، كما أنه غير مقبول إقليميا ودوليا بسبب طموحه الكبير، ومن هذا المنظور يعتبر أحمد مسعود شاه (وهو سني أيضا) أفضل الشرين رغم أن الغرب كان يفضل خطة الأمم المتحدة التي تقضي بإشراك الجميع (عدا نجيب الله).

بنون سيفان.. مبعوث الأمم المتحدة المسؤول عن الملف الأفغاني يقول: "إن الوضع في أفغانستان أسوأ من الوضع في لبنان وأكثر تعقيدا".

عبد الرسول سياف رغم أنه أيضا لا يحب حكمتيار إلا أنه وبسبب ضعف قواته على الأرض فقد يميل إلى جانب حكمتيار.

صبغة الله مجددي ليس له وجود قوي على الأرض، أخذ موقعا قياديا رمزيا كحل توافقي وهذا يكفيه ويرضيه.

أحمد مسعود شاه القائد العسكري للجمعية الإسلامية كان يسمى (أسد الشمال) أو نسر بنشير وهو طاجيكي بقي يقاتل داخل أفغانستان، معروف بعمليته وواقعيته وانفتاحه وتحالفاته مع القبائل وغيرها، سبب أذى كبيرا للقوات السوفيتية في الشمال، شخصيته تغطي على شخصية زعيم الجمعية الإسلامية برهان الدين رباني الذي يحظى باحترام كثيرين حتى حكمتيار قال عنه الأسبوع الماضي (٢٩/ ٤) سأقبل رباني رئيسا مؤقتا للدولة، وذلك لأنه سيكون من الصعب الطعن في السجل الممتاز لرباني كرجل وزعيم سياسي.. رباني كان مدرسا في الجامعة عندما كان حكمتيار طالبا في الهندسة (البوليتكنيك)، مسعود أيضا درس الهندسة في نفس الفترة (عمره ٣٩ عاما).

إذا أصر حكمتيار على مواقفه المعلنة فسيكون هناك صراعا دمويا لا يعلم إلا الله كيف يكون وكيف ينتهي.

نحن لسنا مع طرف ضد طرف، وندعو للتفاهم وحقن الدماء بين الإخوة خاصة بين حكمتيار ومسعود، لأن الصراع لن يكون في مصلحة أحد، وطالما قبل مسعود ورباني إعلان وقيام الحكومة والدولة الإسلامية فلن يكون مبررا أمامنا في الخارج إراقة الدماء.

ملاحظة.. الشيعة يشكلون ٢٠٪ ووضعهم سيعتمد على موقف إيران، إذا حدث توافق إقليمي لن تكون هناك مشكلة جوهرية. الإيرانيون يريدون حكومة معتدلة تستوعب الجميع وتعطي للشيعة نصيبهم في السلطة، علاقة رباني وكذلك مجددي جيدة ومعقولة مع إيران.

هذا باختصار ما نستطيع أن نقوله لكم الآن عن موقفنا مما يدور.

(٢٣)

صلح الحديبية ومفاوضات اليوم

يتردد كثيراً في كتابات المنظرين والمحللين السياسيين للتسوية، إن ما يدور اليوم من مفاوضات بين العرب والصهاينة ليس أمراً مستهجناً ومرفوضاً بالمطلق، فالرسول ﷺ اضطر أن يهادن قريش ويوقع اتفاقية سلام معها، لدرء خطر أكبر كان يمكن أن يحدث لو استمرت الحرب مشتعلة بين الطرفين، وقد انقسم المسلمون يومئذ الى مؤيد ومعارض، ولكن القرآن الكريم حسم الخلاف لصالح الفئة الأولى ويسير التحليل بسذاجة أو بسوء نية ليؤكد أن انصار المفاوضات هم أبعد نظر وأكثر واقعية في رؤية الأمور السياسية، وأعمق إدراكاً للمتغيرات الدولية. إن قراءة المسألة بهذا الشكل يتسم بالنظرة الضيقة ورؤية الأمور من زاوية واحدة لاغير، فهناك فرق شاسع جداً بين مفاوضات الحديبية وما تمخض عنها من اتفاقيات وما يدور اليوم من مفاوضات بين العرب والعدو الصهيوني، فالمفاوضات بالأمس كانت بين الرسول ﷺ وأهله وعشيرته، وكان الرسول ﷺ يحاول أن يتجنب أي معركة مع قومه وكان دائماً يلح عليهم أن يخلوا بينه وبين الناس، فالحرب التي قامت بين المسلمين وأهلهم في قريش ليست هي أصل العلاقة بينهما بل هي الاستثناء الذي كان يتمنى المسلمون عدم حدوثه. بل أكثر من ذلك أن العرب والقبائل الأخرى كانت تعيب على محمد ﷺ وأصحابه هذا الأمر ويعيرونه بأنه لن يعود إلى أهله ووطنه(بل ظننتم أن لن ينقلب الرسول والمؤمنون إلى أهليهم أبدا) والأمر الثاني أن الرسول ﷺ لم يذهب الى المفاوضات منكسراً مستسلماً لا يملك إلا خيار المفاوضات فقط بل الأحداث تؤكد أن المفاوضات كادت أن تنتهي إلى حرب مؤكدة بين المسلمين وقريش، بعد إشاعة خبر أسر عثمان بن عفان رضي الله عنه في مكة وما سمي (ببيعة الشجرة) والتي بايع فيها المسلمون رسول الله ﷺ

(*) المصدر: من أرشيف حركة الجهاد الإسلامي في فلسطين.

لفك أسر عثمان. وعندما علمت قريش بالخبر أسرعت بتكذيب الخبر وإطلاق سراح عثمان، والأمر الثالث أن قريش التي أجبرت على الإسراع بإرسال وفود الى النبي ﷺ لإقناعه لإبرام معاهدة بينهما، بعد علمها بخبر قرار المسلمين بالعمرة الى البيت الحرام، ودخول مكة وهم مازالوا في حالة حرب معها، وقد كانت خطوة ذكية جداً من الرسول ﷺ إذ أنه بمبادرته للعمرة سيكشف قريش أمام القبائل الأخرى بأنها تمنع الناس من زيارة البيت الحرام إن هي تصدت لمبادرته ومنعته من تأدية العمرة، وإن سمحت له فإن هيبتها بين العرب ستتهدد، وسيقال إن محمداً أرغمها على استقباله، لقد أسقط بيد قريش يوم علمت بقدوم النبي وصحابته الى مكة وقررت أن تتصرف بحكمة مع الأمر، وأن تسمح بالدخول لمحمد وصحابته الى مكة بعد إنهاء حالة الحرب بينهما، والاتفاق على ترتيبات وإجراءات تحفظ لها هيبتها، وخاصة أن الشهر الذي قرر فيه الرسول العمرة كان أحد الأشهر الحرم، وخاصة أن القتال أيضاً عند البيت الحرام كان محرماً عند العرب، كان أحدهم يلقى غريمه وقاتل أبيه لايقتص منه، بتعبير اليوم لقد سدد الرسول ﷺ ضربة لقريش أوقعتها في حيرة وارتباك شديدين فتحركت قريش لإنقاذ الموقف، وأعطت وفودها تعليمات ونصائح بأن يقنعوا المسلمين بإلغاء العمرة هذا العام بإعطاء الجميع فرصة للوصول الى اتفاق على بعض المسائل، وعندما كانت تصل الوفود الى رحال المسلمين، كان الرسول يأمر أصحابه بأن يطلقوا ويرسلوا الهدى في وجوه الوسطاء القادمين من قريش ، وهي عادة عربية، كان يفهم منها إنها رسالة سلام وطلب لعبادة العمرة أو الحج، وهذه الخطوة كما تذكر كتب السيرة ، كانت تربك الوفود القادمة من قريش، فهم لايستطيعون أن يمنعوا أحداً واجهته البيت الحرام وهدفه الطواف بالكعبة، بل ان كثيرين من الوفود كانت تقرر الرجوع الى قريش لتحثها على استقبال المسلمين، وتروي لشيوخ قريش ما رأته من حالة استعداد تام لتأدية العمرة عند المسلمين، فلا يجوز منعهم من ذلك فقد دفع الرسول ﷺ قريشاً بالجلوس معه

ومفاوضته بعد أن كانت ترفض الاعتراف به، وجاء وفد قريش لتوقيع المعاهدة التي عرفت (صلح الحديبية). إن اعتراف قريش بالواقع الجديد، دفع القبائل الأخرى الاعتراف به وبعضهم كان يهاب قريش ويتردد في عقد تحالفات مع المسلمين، ولكن بعد التوقيع سارعت قبائل كثيرة بالدخول في حلف مع المسلمين، فالمعاهدة كانت بمثابة فتح للمسلمين كما نص القرآن الكريم، وأما الذين يتوقفون عند اعتراض أمير المؤمنين عمر بن الخطاب رضي الله عنه وبعض الصحابة معه، ويعتبرونه تنازلاً من الرسول ﷺ لقريش فالنظرة الفاحصة والعميقة تنفي ذلك فالنقطة الأولى التي أثارت جدلاً واسعاً، وهي كيف يوافق الرسول ﷺ بإعادة المسلمين المهاجرين اليه من مكة، ويمتنع عن المطالبة بالفارين الى مكة من المسلمين. أولاً أن الرسول ﷺ كان بإمكانه أن يرفض اي شرط لايريده، والغريب والمدهش أن كتب السيرة لاتذكر اي جدل حدث حول هذه المواضيع بين الرسول ﷺ ووفد قريش، فالاعتراض كان في مقدمة الوثيقة حول البسملة وحول تعريف هوية محمد هل هو نبي أم غير ذلك، أما حول نصوص المعاهدة لم يثر اي جدل حتى نشعر بأن الرسول ﷺ رفض هذه الشروط في البداية ثم قبلها مرغماً في النهاية، وهذا يدلل على اقتناع الرسول ﷺ بهذه الشروط عند سماعها، هذه المقدمة ضرورية قبل الشروع في مناقشة الشروط وسنثبت في مناقشتنا أن الشروط كانت في صالح المسلمين.

إن الفهم العميق للإسلام وتعاليمه الداعية للصبر والصمود لاتنسجم مع سياسة الهروب من المواجهة إلا إذا كانت طريقاً تعزز وتقوي قدرات وإمكانيات المسلمين على المواجهة، فالإسلام يحث أتباعه على الصبر وتحمل الأذى وخاصة في المراحل الأولى والتي تعتبر بالمفهوم القرآني مرحلة ابتلاء وفرز بين الصادقين والكاذبين بين المؤمنين والكافرين، إن وجود المسلمين في مكة يبقى على حالة التوتر والصراع قائمة هناك، وتضاعف من إحراج قريش أمام القبائل الاخرى وهي تحبس أبناءها

وتعذبهم. وقد قطع هذا الشرط على قريش إمكانية اختراق الصف الإسلامي بالمغرضين والجواسيس الذي يمكن أن يدخلوا المدينة متسترين بالإسلام، خاصة أن مجتمع المدينة كان في أشد الحاجة للتحصين الداخلي، وقد أشار القرآن الى ذلك عندما استثنى النساء المسلمات من هذا الشرط واشترط القرآن الكريم لقبول المسلمات الفارات من قريش أن يختبرن في إيمانهن(يا أيها الذين آمنوا إذا جاءكم المؤمنات مهاجرات فامتحنوهن الله أعلم بإيمانهن فإن علمتموهن مؤمنات فلا جعوهن إلى الكفار) وهكذا تم حماية المدينة من أي محاولة لضرب الوحدة والتماسك الداخلي أما الشرط القاضي بعدم عودة المسلم الهارب الى مكة فالمسلمون في هذه الحالة أمام خيارين أما أن تكون العودة الى مكة مخطط لها وبالاتفاق مع الرسول ﷺ لأداء مهمة متفق عليها، طريقة من طرق خداع العدو واختراقه، وهذه الطريقة في التفكير لم تكن غائبة ولامستبعدة عن المسلمين، وقصة نعيم بن مسعود تؤكد ذلك، والاحتمال الآخر أن يكون الفار مرتداً عن الإسلام وعبر الرسول ﷺ عن هذه الحالة (لارده الله سالماً) ففرار هذا النوع فيه خير للمسلمين وتطهيراً لصفوفهم فيما لو بقى بينهم فلو كان الشرط يقضي بعودته ثانية الى المدينة فلا يستطيع الرسول إلا أن يتصرف بإحدى الأمرين، الأول أن يقتله كمرتد وهذا سيترك أثراً سيئاً في نفوس المسلمين، وما يصاحب ذلك من إشاعات مغرضة بأن محمداً يقتل أصحابه، وربما يلجأ العائد إلى حيلة التوبة وطلب العفو، وقد يكون يبطن غير ما يظهر، ولايستطيع المسلمون عندئذ إلا تصديقه وقبوله من جديد وهناك تفسير يضاف الى عظمة الإسلام وعظمة الرسول بهذا الشرط وهو أن الإسلام لايكره أحداً على شيء فمن يريد أن يغادر المدينة فليفعل دون أن يلحقه أذى، ودون أن يطالب أحدا بعودته، وهذا يؤكد على صدق انتماء المسلمين لدينهم، وتمسكهم بقيادتهم مع توفر كل سبل النجاة أمامهم. وأما باقي الشروط جميعها كانت لصالح المسلمين بشكل واضح، والذي يحاول البعض أن يتجاهلها

ولايتوقف عنـدها لأنها لاتخدم تحليله الـذي استند عليه، وأخيراً هـل الأسباب التي ذكرناها توافرت للمفاوض اليوم من المسلمين والعرب.

إن المفـاوضات الجاريـة اليوم تـقوم بين طرفـين أحدهمـا مازال ممعـناً بالـعدوان والاستهتار بـالحقوق، وأجبر الطرف الفلسـطيني والعربي على الجـلوس أمامه وفق شروطه.هل يملـك مفاوضو اليوم خياراً آخـر غير الجلوس على طاولـة المفاوضات، وهل قتل وتـشريد وأسر آلاف البشر،يدفـع المفاوضون على الانسحـاب فضلاً عن التهديد بالرد أو الانتقام، وهل قررت الوفود المفاوضة الزحف نحو القدس للصلاة في المسجد الأقصى، فركضت إسرائيل تتوسل وتتوسط العالم لتأجيل الزيارة للسنة القادمة!!!

(٢٤)

اتفاق أوسلو

هذا الاتفاق ـ إن تم توقيعه ـ هو الأخطر على مدى تاريخ الشعب الفلسطيني الحديث ـ والذي يقبله ويوافق عليه ويوقعه سواء أكان طرف أو فئة فلسطينية خائن، إنه بمثابة تحالف مع الصهاينة ضد الأمة العربية والإسلامية، حيث سيحول قطاع غزة، وهي منطقة من الأعظم إشراقاً وصحوة ونهوضاً على امتداد الوطن الإسلامي، إلى جيب صهيوني يقضي على الانتفاضة ويضرب الحركة الإسلامية الناهضة والقوى الوطنية الحية ومن ثم يحمي أمن الكيان الصهيوني بأبخس الأثمان، بل بلا ثمن سوى الخسران، فالقضية الفلسطينية أخطر وأهم قضايا العصر وقضية أمتنا المركزية تتحول الى مجرد مشكلة إدارية حيث يعمل الفلسطينيون كموظفين في الصحة والتعليم والمياه والنظافة والكهرباء (كل كهرباء قطاع غزة تأتي من داخل الكيان الصهيوني وتبقى تحت رحمته باستمرار).

أما الوجود الاستراتيجي لجيش الاحتلال فسوف يستمر داخل قطاع غزة وأريحا ومن حولها. المطلوب إسرائيلياً اختبار قدرة إدارة مدنية فلسطينية على خدمة مصالح الاحتلال الذي سيساومها على مستوى خدماتها لتكون جديرة بالانتشار على أجزاء أخرى في الضفة.

وقد جاء هذا الاتفاق (الذي كان معروضاً على الوفد المفاوض منذ البداية حسب الدكتور حيدر عبد الشافي) جاء بعد أن وصلت المفاوضات الى طريق مسدود، لأن الإسرائيليين غير مستعدين لتقديم اي تنازلات في الضفة ذات سلسلة الجبال الاستراتيجية وذات ١٢٠ مستعمرة واكثر من ١٢٠ آلف مستوطن، ومرتبطة مباشرة بالقدس التي لايقبل الإسرائيليون مجرد طرحها على جدول المفاوضات. وهكذا تم تأجيل موضوع الضفة والسكوت عن مسألتي الاستيطان والقدس، وتناول موضوع غزة فقط والذي وافق ٤٤٪ من الإسرائيليين في كانون ثاني (يناير)

(*) المصدر: من أرشيف حركة الجهاد الإسلامي في فلسطين

١٩٩٣ على الانسحاب منهامن طرف واحد وبلا قيد ولا شرط، وحسب شلومو غازيت ـ أحد رؤساء الاستخبارات الصهاينة السابقين والذي شارك في جولات مفاوضات سرية ـ حسب غازيت لو أجري هذا الاستفتاء اليوم لزادت النسبة بسبب المزيد من تردي الوضع الأمني ولأن دور قطاع غزة كجحيم للإسرائيليين وكثقب في الرأس كما يسمونه يزداد ويزداد.

في حين لا أهمية استراتيجية للقطاع ولا معنى سياسي أو اقتصادي أو ديني للاستيطان الذي لايكاد يبين في القطاع (فقط أربعة الاف مستوطن مقابل مئة وعشرين ألفا بالضفة).

وهكذا قدم ياسر عرفات ولجنته الخاصة البعيدة عن حركة فتح وعن منظمة التحرير وعن الشعب الفلسطيني ـ قدم خدمة كبرى للاحتلال عندما حقق هذه الرغبة والطلب الإسرائيلي ضمن اتفاق يكرس الاحتلال ويمنح جيشه إعادة انتشار استراتيجي خبيث وذكي سيكون لهذا الاتفاق لو تم تمريره آثار سلبية خطيرة على مستقبل الشعب الفلسطيني وقضيته وهويته سواء الملايين في الشتات والأراضي المحتلة منذ عام ١٩٤٨ أو من سيبقون تحت هذا الأسلوب الجديد من الاحتلال والقمع في قطاع غزة على مستوى الأردن وبلاد الشام سيكون هناك مزيد من التوتر والصراع سواء بسبب شعور الأردن أنه مستهدف ككيان أو بسبب أنه سينظر لهذا الاتفاق على أنه منفرد وعلى طريقة السادات الذي جاء اتفاقه مع اليهود في حينه أهم مسمار في نعش الأمن القومي العربي. وقد يكون هذا الاتفاق هو آخر مسمار في هذا النعش إن تبقى من الأمن القومي العربي شيء بعد.

منذ الآن لن يكون لأحد حجة في مقاطعة الكيان الصهيوني وعدم الاعتراف. ستعبر إسرائيل هذا الجسر الفلسطيني الى كل العواصم لتفرض هيمنة سياسية وأمنية واقتصادية وذلك من خلال دعم أمريكي يسعى لإعادة ترتيب شرق أوسط جديد يكون فيه الكيان الصهيوني قوة مركزية وأساسية بعد أن تصبح قوة طبيعية!!!

إن هذا يوم تاريخي للحركة الصهيونية فـالدولة العبرية أقيمت اليوم في ظل هذا الاتفاق الذي لم يعط الـفلسطينيين اي حق من حقوقهم سـوى جهاز (شرطة قوية) حسب نص الاتفاق ـ سيمـارس مزيداً من القمع لتنطفئ شعلة الانـتفاضة العظمى وتموت الظاهرة الأكثر حيوية في المنطقة.

من المؤكد أن هـذا الاتفاق في النهـاية يحمل بذور فشـله في داخله ولن يـستمر بفعـل هذا التناقـض الداخلي فـيه وبفعل رفـض ومقاومة شعـبنا. وقد يـكون آخر مغامرة يلعبها هذا الطرف الفلسطيني.



هذه الموسوعة

تثميناً للدور القومي والإسلامي البارز الذى قام به الشهيد الدكتور/ فتحى الشقاقى الأمين العام لحركة الجهاد الاسلامى فى فلسطين الذى استشهد يوم ١٩٩٥/١٠/٢٦ بجزيرة مالطة على أيدى الموساد الإسرائيلى، وتقديراً لدوره الجهادى فى سبيل تحرير فلسطين، وإعادة الاعتبار لقيم الشهادة، والإسلام الحق، رأينا إصدار هذه الموسوعة الفكرية والسياسية الشاملة التى تحاول أن تقدم أبرز كتابات واجتهادات الشهيد منذ بدء تبلور وعيه السياسى العام، منذ السبعينات وحتى منتصف التسعينات من هذا القرن. إن هذه الموسوعة تقدم نفسها كاستشراف علمى رصين لمستقبل أمتنا، بكل ما تحتويه من أفكار، ورؤى وآمال وثقة فى الله ووعده

[ورحم الله الشهيد المجاهد
الدكتور/ فتحى الشقاقى]

الناشر